مسلمو الاندلس

للأمير شكيب

كأن المؤلف يريد أن يقول ان المسلمين لا يرتدون عن دينهم من أنفسهم و بمطلق اختيارهم والا فما ثبت تاريخاً ان مئات ألوف من مسلمي الاندلس قد تنصروا وان كثيرين من الأسبانيول اليوم لا سيما سكان جنوبي أسبانية هم من سلالة العرب وتجدهم يحفظون أنسابهم ومنهم من عندهم شجرات النسب ومنهم من يدلي بقربي الى بعض المسلمين في أفريقية .

وان كثيراً من الأسر النبيلة الأسبانيولية ينمى الى أصل عربي ولا يزال يحمل الى يوم الناس هذا أسماء عربية فتجد في اشبيلية مثلا بني أمية ـ وأحياناً يلفظها الأسبان خميَّة ـ وتجد بني عباد و بني عمرو و بني الفخَّار وغيرهم . وقد ناولني المستشرق الأسباني الغرناطي السنيور « ايزيدورو دولاس كاخيكاس » Isidoro de las Kajikas قنصل أسبانية في تطاون جدولا فيه أسماء عائلات اسبانيولية نبيلة متحدرة من أصل عربي مثل « عائلة الدوق البرقوقي » في طريف والأسبانيول يقولون Alburquerque وحدثني صديقي الحاج عبدالسلام بنونه الذي هو من أعلام المغرب وانجمه الطالعة بأن في « انجرة » من جبال الريف عائلة البرقوقي أي أنه يوجد البرقوقي في طريف وفي العدوة المغربية المقابلة لطريف . ومثل عائلة « القلعة » Alkala ومنها المركيز « الداما » ومنها عائلة « الكدية » Alkudia في « اتارف » ومنها عائلة « المازان » Almazan في « بنالوَّه » ومنها عائلة « المناره » Almenara في « بناميج » ومنها عائلة « المدور » Almodavar في « كسيرس » وهم منسوبون الى قلعة المدور عند قرطبة ويوجد في طنجة وتطاون بنو المدوَّر . ومنها عائلة « بيانة » Baena نسبة الى بلدة بهذا الاسم . ومنها بنو « دانية » Dénia في « وادي اليازان » ويوجد بنو

دانية(تلفظ بالامالة)فى الرباط وهم عائلات كثيرة. ومنها بنو «غرناطة ديغا» Granada De Ega ومنها بنو « جريكا » والأسبان يقولون «خريكا» ومنها « بنو مدينة سالى» Medinaceli وهكذا يلفظ الأسبانيول مدينة سالم على القطع بل يلفظون السين من سالم ثاءً ويقولون «مدينة ثالى» ومنهم الكونت «دوكاڤيا» . ومنها بنو «مدينة شذونيه» Medina Sidonia ومن هؤلاء الفيكونت «دولا البوراده» ومنها بنو « ناجره » Naejra ومنها بنو «سويقو» Sueco ومنها عائلة المركيز « دو ابراده » De Abrada فى « دلا مازان » ومنها عائلة الباتان Albatan . ومنها عائلة البلوطى Albolote لعلها عائلة القاضى منذر بن سعيد البلوطى الشهير قاضى الجماعة بقرطبة لعهد الناصر وكان ينسب الى فحص البلوط . ومنها عائلة «القصير» Alcocévar فى بلدة « قرازة »ومنها عائلة «البروسس» Alborroces فى« كانيشى» ومنها عائلة « الفرّاس » Alfarras فى « قمارش » Camares . ومنها عائلة « دولا الغابه » De la Algaba فى « ديلار» . ومنها عائلة «الغاره» Algara فى بلدة «الش» . ومنها عائلة « دو لاغرفه » Algorfa فى « وادى المينا » . ومنها عائلة« الحمه » Alhama فى « ازياتى» ومنها عائلة « الهندين » Alhendin فى«مرشلينه» ومنها عائلة « المنصوره » Almanzora فى « تامريت » . ومنها عائلة «المرسى» Almarza فى « تاراسينه » . ومنها عائلة «القبلة» Alkibla فى « الزهرا » Zahra ومنها عائلة « آرمونيه » Armunia فى « صفرا » ومنها عائلة « باشرس » Bacares فى « زويه » ومنها عائلة « بيدس » Baides

ويقال ان رئيس جمهورية أسبانيا الحالى « القلعه سموره » Alkala Zamora هو من أصل عربى . ويقال أيضاً ان رئيس الوزارة الحالى Azania الذى يغلب أن يكون «السانيه» هو أيضاً من أصل عربى . وكذلك ناظر المعارف الحالى فى أسبانية De los Rios هو حسبما يروى من أصل عربى . وقد تألفت فى أثناء تجديد هذا الكتاب جمعية أسبانيولية اسلامية فى مجريط عاصمة أسبانيا مقصدها التقريب بين المسلمين والأسبان رئيسها السنيور «خوشى فرانشى» نائب مجريط وخليفتا الرئيس محرر هذه الأسطر والسنيو «اميليو بياندو» وفيها بضعة عشر شخصاً من نواب المجلس الأسبانى ومن أدباء أسبانيا وساستها . وفيها من المسلمين عدا هذا الفقير الى ربه الأخ احسان بك الجابرى زميلى فى الوفد السورى الفلسطينى والحاج عبد السلام بنونه عين أعيان تطوان والسادة محمد الفاسى وأحمد

بلافريج وعبدالخالق الطوريس ومحمدالداود ومحمد بن الحسن الوزانى وهؤلاء هم نخبة شبان المغرب علماً ونجابة وتحصيلاً وسراوة . وفى هـذه الجمعية السيد خليـل بن أمية من صحافي اشبيلية والسيد « انريكى دورافولس » وهو أيضاً من أصل عربى يقول ان أصـل اسمهم رحال ولما كان الأسبانيول كثيراً ما يقلبون الحآء فاءً فقـد جعلوها « رفال » كما قالوا فى البحيرة « البفيرة » فى بلنسية و بعـد أن صار اسمهم « رفال » جعلوه « رفولس » فهو عربى المحتد بحسب قوله . ومن هـذا النمط بنو سراج المشهورون فى الأندلس من أعقابهم أناس بمالقة يقال لهم « بنو سراخ » على عادة الأسبانيول فى قلب الجيم خاءً . وفى مدينة جنيف بسويسرة شارع « أبو زيت » Abouzit وهو منسوب الى المسيو « أبو زيد » الذى كان أعلم علماء زمانه وكان عربياً مشهوراً أصله من « تولوز » وأصل سلفه من جالية الأندلس الى جنوبى فرنسة كانوا أطباء وتنصروا على مذهب البروتستانت فيمن تنصر من تلك الجالية . ثم لما صدر أمر لويس الرابع عشر بمنع المذهب البروتستانتى من فرنسة جلا كثير من البروتستانت الى سائر البلدان مثل ألمانية وهولاندة وسويسرة وجاء أبو زيد هـذا الى جنيف وكان معاصراً لفولتير ولروسو ولنيوطن ولليبنيتز وكان جميعهم يعجبون بسعة معارفه وكان ڤولتير يستفتيه فى عويص المسائل ويقول له « صديقنا العربى » . وفى سويسرة أكثر من اسم عربى وأما فى فرنسة فهو كثير لا سيما فى الجنوب ومن هذا القبيل المسيو «مورو جافرى» المحامى نائب كورسيكا Moro Jaferi وهو المغربى الجعفرى كما لا يخفى وتحرير هـذه المسألة أنه لما غلب فرديناند وايزابلا على آخر مملكة اسلامية فى أسبانية وهى دولة بنى الأحمر من سلالة الخزرج الذين كان كرسيهم غرناطة واستولوا على هذه البلدة سنة ١٤٩٢ عقدا مع المسلمين معاهدة ليس هنا محل تفصيلها وانما نلخصها حسبما جاء فى نفح الطيب : تأمين الكبير والصغير فى النفس والأهل والمـال وابقاء الناس فى أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ومنها اقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على أحـد منهم الا بشريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك . وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً . وأن لا يولّى على المسلمين نصرانى أو يهودى ممن يتولى عليهم من قبَل سلطانهم قبل . وأن يفتكّ جميع من أسر فى غرناطة من حيث كانوا وخصوصاً أعياناً نص عليهم . ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا لسواه

والسلطان يدفع ثمنه لمالكه . ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع ويجوزون فى مدة عينت فى مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء . وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم . وان من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى فان أبى الرجوع الى الاسلام تمادى على ما أراد . ولا يعاتب من قتل نصرانيا أيام الحرب ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة . ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ولا يسفر لجهة من الجهات ولا يزيدون على المغارم المعتادة . وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة ، ولا يطلع نصرانى للسور ولا يتطلع على دور المسلمين ولا يدخل مسجداً من مساجدهم ويسير المسلم فى بلاد النصارى آمناً فى نفسه وماله ، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن ولا يمنع مؤذن ولا مصلٍ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ومن ضحك منهم يعاقب . ويتركون من المغارم سنين معلومة وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة (أى البابا) انتهى

ولقد أوردت تلخيص هذه المعاهدة فى كتابى « آخر بنى سراج » الذى ذيلته بتاريخ الأندلس المطبوع أول مرة سنة ١٨٩٧ مسيحية فقلت : انها خمس وخمسون مادة تتضمن من تفاصيل ما وقع عليه الاتفاق وفى طيها من عهود المحاسنة والملاطفة والمراعاة والمحافظة على أعراض القوم وعقائدهم ودمائهم وأموالهم وكراماتهم وراحاتهم ما لا يفى به الا نصه ، وقد تكرر فى المادة الخامسة العهد من الملك والملكة باحترام ديانة المسلمين ومساجدهم وأوقافها وأموالها المحفوظة وبعدم التعرض لأمورهم الشرعية بل اعادة ذلك الى فقهائهم وبالمحافظة على أصول الفقهاء وعاداتهم وملابسهم وأن يبقى هذا العهد معمولا به فى الأعقاب وأعقاب الأعقاب

وفى المادة السادسة عدم سلب أسلحة المسلمين ولا مراكبهم ولا مواشيهم الا الاسلحة النارية فتقرر أخذها . وفى المادة السابعة تسهيل السفر لكل من شاء الهجرة بأمواله وأمتعته وفيها بعدها اجازته على نفقة دولة قشتالة من أى مرسى أراد . وتسهيل معاملات بيع العقار لمن شاء الرحيل واذا لم يتهيأ البيع ووكل صاحب الملك وكيلاً تعتبر وكالته ويساعد على استيفاء حاصلاته وايصالها اليه بمكانه من وراء البحر . وورد فى المادة

الحادية عشرة تشديد مجازاة كل من يدخل من النصارى جامعاً بدون رخصة من الفقهاء . وورد فى المادة الخامسة عشرة اعفاء السلطان أبى عبد الله وسائر أمراء المسلمين وقوادهم وفقهائهم من الضرائب والرسوم واقرار الجميع على امتيازاتهم كما كانوا لعهد ملوكهم وان تكون كلمتهم نافذة وقولهم مسموعاً . وورد فى المادة السادسة عشرة والتى بعدها ما يتضمن عدم جواز دخول أحد من النصارى بيوت المسلمين ولا الملك ولا الملكة ومن خالف ذلك يجازى بشدة . وفى المادة الخامسة والعشرين اذا فر أحد من أسرى المسلمين المعتقلين فى سائر الممالك ، ووصل الى غرناطة فقد نجا ولم يكن لشرطة غرناطة أن تمسكه لكن هذا الامتياز خاص بعرب الأندلس لا يتناول أسرى المغرب . وفى المادة الثلاثين أن من أسلم من النصارى قبل هذه الكائنة فلا يعامل الا بالحسنى ولا يلقى أقل تحقير ومن خالف ذلك ينال من الجزاء شدة . وفى المادة الواحدة والثلاثين لا يجبر مسلم ولا مسلمة على قبول الدين المسيحى وفى المادة الثانية والثلاثين اذا كان المسلم متزوجاً بنصرانية وأسلمت لا تجبر على الرجوع الى دينها الأصلى والذين يتولدون من هذا الزواج يعدون مسلمين ولو ارتدت الزوجة عن اسلامها وفى المادة الخامسة والثلاثين لايرد المسلمون شيئاً مما غنموه أثناء الوقائع التى جرت الى يوم تسليم البلد وفيما بعدها لا يعاتبون على شئ مما مضى من تحقير الاسرى أو اهانتهم . وفى المادة الثانية والاربعين تفصل الخصومات بين المسلمين والنصارى فى مجلس مؤلف من قائدين أحدهما مسلم والآخر مسيحى . وفى الثالثة والاربعين تعاد جميع اسرى المسلمين فى مدة ثمانية أشهر من أى بلدة وجدوا فيها من اسبانية وفى مدة خمسة أشهر ان كانوا فى بلاد الاندلس . وفى التى تليها ذكر اطلاق سبيل ابن الدرامى المأسور عند غونسالف هر نانذ وعثمان اسير كوند تانديله ورضوان اسير صاحب قبره واعادة الفقيه ابن محي الدين ورفاقه الذين غابوا على أثر حادثة ابراهيم بن سراج اينما وجدوا . وفى السادسة والاربعين تسهيل حركات سفن المغاربة فى مراسى الاندلس واعفاؤها تلك المدة من دفع رسوم بشرط عدم نقلها اسرى من النصارى . وفى الثانية والخمسين عدم استخدام شرطة من النصارى لمراقبة شؤون المسلمين بل تكون شرطتهم من أنفسهم

وفى آخر هذه المعاهدة تعهد الملك فردينا ند وامرأته ايزابلا صاحبا ممالك قشتالة واراغون وليون وصقلية بان يحافظا على نص شروطها حرفا بحرف ويجريا جميع أحكامها من خاص

وعام وكلى وجزئى بكمال التدقيق وبدون ادنى زيادة ولا نقصان مهما كان من الاسباب وان تبقى على شكلهاوهيئتها ولا يتغير ولا يتبدل حرف منها الى الأبد . ولا يمكن أحداً من خلفاء الملكين المشار اليهما ولا خلفاء خلفائهم ولا حفدتهما ولا أولادهم الى ما شاء الله ان ينقضوا أقل حكم من أحكامها أو يبدلوا حركة من حركاتها . وأعطى الأمر بها الى الامراء والوزراء والقواد والأجناد والرهبان والرعية من حاضر وغائب وقاص ودان وكبير وصغير واعلن أن من يجرؤ على الخلل بشئ مما تضمنته هـذه المعاهدة يجزى جزاء من أقدم على افساد البراءات الملوكية أو تقليد الحجج والسندات وذلك بدون أدنى تأخير

وأقسم الملك فرديناند والملكة ايزابلا وسائر من أمضوا الشروط على دينهم وشرفهم برعايتها الى الابد على الصورة المبيّنة وكتبت على رق غزال محلّى ومطرز تحريراً فى ثلاثين من دسمبر سنة احدى وتسعين واربعمائة والف من الميلاد

وحررها « فرناندو صفره » بامر الملكين وامضاها الملك فرديناند والملكة ايزابلا وأولادهما الدون جان والدونة ايزابلا والدونة حنّة والدونة ماريانة والدونة كتالينه ورئيس أساقفة اشبيلية الدون دياغو هرتادو ورئيس اساقفة صانتيا غو الدون الفونس وكبير فرسان صانتيا غو المسمى بالدون الفونس أيضاً والدون جان كبير فرسان القنطرة والدون الفارو زعيم رهابين ماريوحنا والدون بيرو غونزالس كردينال اسبانية ورئيس اساقفة المملكة والدون هنرى كبير حكومة اراغون ومن ابناء عم الملك والدون الفونس من أبناء عمه أيضا والدون الفارو مدير دائرة الملكين والدون بترو فرناندز رئيس جند قشتاله ويليهم نحو من أربعين دوناً كلهم من أبناء السلالة المالكة واساقفة البلاد وأمرائها وأعيانها وقوادها

وكتب ايضامعاهدة اخرى لسلطان غرناطة أبى عبد الله بن أبى الحسن متضمنةأربع عشرة مادة فيها تمليكه الاقطاعات والاراضى والبلدان التى وهبه اياها الملكان معيناً كل منها بذاته والتعهد باعطائه اربعة عشر مليوناً وخمسمائة قطعة من السكة المعروفة بالمراويد وذلك عند دخولها قلعة الحمراء واقرار ملكيته لجميع العقار المو روث واعفاؤه من دفع الضرائب والرسوم وأداء المكوس عما يجلب من الأمتعة برسمه وانه فى أى وقت شاء بيع هذه الأراضى والأملاك يشتريها كلها الملكان بقيمتها العادلة وان لم يشأ بيعها وأراد النقلة الى بر المغرب

فالوكيل الذي يعينه عليها يستوفي له حاصلاتها و يوردها عليه في أية جهة كان مماوراء البحر. وفي أيّ وقت عوّل على الاجازة تنقله مع رجاله وعياله وأمواله سفن دولة قشتالة مجاناً . ولا يطالب بشيء ولا يكون مسؤولا عن شيء مما حصل الى حين عقد الصلح ولا يسترد شيء مما غنمه . وجميع هذه الشروط كما هي جارية في حقه تجرى أيضاً في حق والدته وشقائقه وزوجته وزوجة مولاى أبي نصر . والمعاهدة الثانية مؤرخة في يوم تاريخ الاولى الا أني وجدت أكثر المؤرخين يؤرخون امضاءهذه المعاهدات في ٢٥ دسمبر وفق ٢٢ محرم سنة ٨٩٧

ولما كان الاسبانيول قد أعطوا المسلمين مهلة سبعين يوماً لأجل التسليم بناء على أمل هؤلاء في ورود النجدة من وراء البحر ازداد الطاغية تيقظاً وسهراً وجعل الجيوش محيطة بغرناطة احاطة السوار بالمعصم وجمع الأساطيل و بثها في مراسي الأندلس وفي فرضة المجاز منعاً لكل مدد وارد فلم يطلّ أحد (تلك أمّةٌ قد خلت) وان أطلّ فلم يغن شيئاً لأن سلاطين الاسلام كانوا في ذلك الحين متشاغلين بفتنهم الداخلية ومحاربة بعضهم بعضا فضلا عن ان الذي أصبح مقرراً في أذهان عامة المسلمين ان لا أمل بحفظ مملكة الاندلس وتجديد دولة الاسلام فيما وراء البحر الى جهة العدوة الاسبانية وان الجهاد في هذه السبيل عبث وهذا الأمر كائن لامحالة فتركوا الأمور وشأنها وأهل غرناطة يعللون أنفسهم بلعل وعسى . ولكن ابتدأ الجوع يعضهم بأنيابه فرأى أبو عبد الله ان انتظار آخر المدة مما لايكون له نتيجة سوى زيادة الضيق والمجاعة ولا رجاء في ورود أقل مدد ولو كان في قيد الحياة تنفس . فشاور الرؤساء فأشاروا بالتسليم قبل انقضاء الأجل المضروب . وفي العشرين من دسمبر أرسل وزيره يوسف بن كماشة مع الرهائن الى الملك فرديناند وأصحبه بفرسين كريمين وسيف ثمين على سبيل الهدية فبثّه مقصده وعزم الجماعة على تسليم البلد قبل مضي الأمد . وفي اليوم التالي ظهر درويش اسمه حامد بن زارة فأخذ يطوف الأسواق مناديا بالجهاد مستنفراً العامة الى الدفاع قائلا لهم انه سيرد اليهم نجدات من البشرات ومن بر العدوة وان الأمل عظيم بالفرج لكن الملك أبا عبد الله والرؤساء خائنون وكثر القيل والقال في البلد وصبوا اللعنات على أبي عبد الله ورموه بالخيانة و بيع الدين والوطن فثار نحو من عشرين الفا من أهل غرناطة وتقلدوا أسلحتهم وخرجوا في الأسواق بضوضاء ملأت الفضاء عازمين على الجهاد مستعينين بالله في دفع العدو فاستمروا يوما كاملا وقسما من الليل

فى هذه الحركة واذا باعصار شديد قد عصف بشدة فالزم الناس بيوتهم وانتهى الهياج بهبوب العاصف وفى اليوم التالى خرج أبو عبد الله من الحمراء محفوفا برؤساء البلد وخاطب الأمة قائلا لهم : « لاذنب الا ذنبي . أنا الذى عققت والدى وجلبت الأعداء على المملكة لكن الله قد أخذنى بجرائرى وأنزل النقمة كلها على رأسى وها أناذا الآن قبلت بهذه المعاهدة لأجلكم ياقومى ضناً بدمكم أن يراق سدى و بأطفالكم أن يموتوا جوعاً و بنسائكم وذراريكم أن تنزل فيهن معرات الحرب وحفظاً لأموالكم وأملاككم وحريتكم وشريعتكم ودياناتكم فى ظل ملوك أسعد طالعاً من أبى عبد الله المشؤوم » فأثرت رقة كلامه فى خواطر القوم وسكنت سورة حقدهم واستلت نعومة خطابه ماخشن فى صدورهم فانفضوا الى أمكنتهم . وفى الحال أرسل أبو عبد الله الى الملكين يعرض عليهما التسليم فى اليوم التالى حذراً من تجدد الحوادث فرضيا بذلك وتأهبا لدخول الحمراء كما ان أبا عبد الله وأسرته وحشمه أحيوا الليل فى التأهب للخروج وقد غسلوا ابهاء الحمراء بدموعهم وملأوا نواحيها بنواحهم وزموا حقائبهم بما فيها من الذخائر والاعلاق وحملوها البغال . وقبل أن تبلج الفجر انساب حريم أبى عبد الله وأهل القصر من أحد الأبواب حيث كان بانتظارهم فرقة من فرسان المسلمين الذين بقوا متمسكين بعروة سلطانهم الى الآخر وساروا من أحد الأحياء المعتزلة من المدينة والناس نيام والشوارع خالية . أما عائشة الحرة والدة أبو عبد الله فكانت متجلدة متجملة . وأما امرأته وسائر جوارى القصر فقد قرح البكاء مآقيهن وخدد الدمع خدودهن . ولما وصل الموكب الى احدى القرى التى على طريق البشرات وقف ينتظر وصول أبى عبد الله وعند مطلع الشمس جاءت فرقة من الخيالة والمشاة يصحبها « هرناندو دولا تافيره » مطران افيلا ودخلت من أحد أبواب المدينة حسبما كان وقع عليه الاتفاق فالتقاها السلطان ابو عبد الله وقال للمطران المذكور : « امض وتسلم هذه الحصون التى صيرها الله الى يدكم عقابا للمسلمين على اعمالهم » ثم تقدم لملاقاة الملكين وتقدمت العساكر فدخلت الحمراء وكان فرديناند وايزابلا ينتظران رؤية اعلام اسبانية فوق ابراجها فمضت مدة وأنظارهما شاخصة فلم يريا شيئاً فخشيا وقوع حادث لكن لم يكن الا قليل بعد ذلك حتى خفقت راية الصليب فوق أبراج الحمراء و بجانبها راية مار يعقوب وعلا هتاف العساكر فلما رأى الملكان ذلك بمكانهما على ضفة الشنيل خرا جاثيين على ركبهما واقتدى بهما جميع الأمراء

والقواد والجند شكراً لله تعالى على ما منّ به . و بعد انتهاء الصلوات استأنفوا المسير حتى صاروا بجانب جامع صغير قريب من النهر فهنا التقوا بالسلطان أبي عبد الله الشقي[١] فلما وقعت العين على العين أراد السلطان الترجّل اجلالا للملكين فمنعاه من ذلك فهوى على يد الطاغية ليقبلها فلم يمكنه فرديناند من ذلك . وقيل ان الملكة أيضاً أبت أن ترسل له يدها وانها أحسنت تعزيته وسلمته ابنه الذى كان مرهوناً عندها فضمه الى صدره وأخذ يقبله كأن الشقاء زاد من تعلق أحدهما بالآخر . ثم سلم أبو عبد الله مفاتيح البلد الى الملك قائلا له « هذه المفاتيح هى آخر ما بقى من سلطان العرب فى أسبانية خذها فقد أصبح لك ملكنا ومتاعنا وأشخاصنا كما قضت بذلك مشيئته تعالى فتقبلها بالرأفة التى وعدت بها والتى ننتظرها منك » فأجابه فرديناند : « لاشك فى اجراء ما وعدنا به وعسى أن يكون لك من صحبتنا الحظ الذى لم يكن لك من عداوتنا » ثم دفع فرديناند المفاتيح الى الملكة فدفعتها الى ابنهما البرنس جويان وهذا أعطاها الى الكونت تنديله الذى كان قد عين قائداً لغرناطة

ثم انفصل أبو عبد الله عن الملكين قاصداً المقر الذى كان قد عين له فى وادى برشانة وسار الطاغية وامرأته نحو المدينة وأصوات الموسيقى مسموعة الى بعيد ولم يدخلاها يوم تسليمها خوفا من الغدر وانتظرا ان تتبوأها جميع العساكر لما كان يرعبهما من اسم غرناطة . أما سلطان غرناطة السابق فلما وصل الى مرقب عال على مسافة مرحلتين من المدينة يشرف عليها وقف يودع مدينته فلم تكن فى عينه أجمل منها فى تلك الساعة فأخذ يتامل فى أبراجها وقلاعها ومنائرها الضاربة فى السماء ومرجها النضير المنقطع النظير و وقف وراءه حاشيته وجنده الذين لم ينفصلوا عنه وهم يتأملون سكوتا قد أبكمهم الحزن وأخرسهم الهم واذا بالدخان قد ارتفع فوق القلعة ودوى صوت المدافع ايذانا بأن المدينة دخلت فى حوزة الأسبانيول وانقطعت منها دولة الاسلام فعندها خفق فؤاد أبى عبد الله ولم يملك نفسه من البكاء فصاح « الله أكبر » وفسح مجال الدمع واستمطر ماء العيون فجادت بالشآبيب فقالت له أمه عائشة الحرة المشهورة بالشدة « عليك أن تبكى بكاء النساء ما عجزت أن تدافع عنه دفاع الرجال » وهى الكلمة الشهيرة التى تناقلتها جميع التواريخ . واجتهد وزيره

---

(١) فى أثناء رحلتى الأندلسية سنة ١٩٣٠ واقامتى خمسة عشر يوما بغرناطة مررت بهذا المكان الذى سلم فيه أبو عبدالله مفاتيح عاصمة ملكه الأخير الى فرديناند ودلونى على مكان الجامع

يوسف بن كماشة فى تعزيته فلم يقبل قلبه العزاء و بقيت شؤون عينيه فائضه و زفراته متصاعدة وهو يقول : « أى شقاء مثل شقائى » وقد سمى الأسبانيول تلك الهضبة التى وقف عليها آخر سلاطين غرناطة يبكى المنزل والحبيب « بآخر حسرات المغربى »(١) ولما وقف فرديناند عن دخول البلد خوف الغيلة الى أن تكون عسا كره احتلت المواقع جيعها أرسل مركيز « فيلنه » وكونت « تنديله » بثلاثة آلاف فارس وجيش من المشاة مصحو بين بالأمير سيدى يحي الذى سماه النصارى بعد تنصره بالدون « بدرو دو غرناطة » وعين للنظر فى أمور المغاربة وبابنه الذى أطلقوا عليه اسم الدون « الونزو دو غرناطة » وكان أميراً للاسطول فتبوأوا جيع الأبراج ونشروا فوقها الاعلام الأسبانية

ولم يدخل الملكان المدينة الا فى سادس ينا ير وكان الاحتفال بدخولها باهراً وظلا سائر ين الى مسجد غرناطة الأعظم لحولاه كنيسة (٢) وأقيمت الصلاة شكراً لله تعالى على هذا الفتح المبين وأقبل الأمراء والقواد وعظماء الأسبانيول على الملكين يقبلون أيديهما ويهنئونهما على هذه النعمة التى اختصهما الله بها وكرمهما باحرازها . و بعد الخروج من الكنيسة سارا الى الحمراء الموصوفة فألفياها فوق ما كانا يتصوران من اتقان الصنعة وفخامة البنيان ورحابة الساحات ولطافة الرسوم والنقوش وأعجبا بما فيها من الزخرفة التى تتقطع دونها الأيدى والتأنق البالغ حده سواء فى الابهاء أو المقاصير أو النوافر والصهاريج أو المداخل والتعاريج اذ يتحير الناظر ما بين مرمر مسنون وعسجد مصون وسوارٍ كأنها مفرغة فى أحسن القوالب وسقوف كأنها السماء زينت بالكواكب . فاتخذ الملكان لهما عرشاً فيها وجلسا للتهنئة حيث جاء أهل غرناطة والبشرات يقدمون لهما واجب الاجلال و يقبلون أيديهما صاغرين . ووجد فى غرناطة يوم دخول الملكين اليها خمسمائة أسير من الأسبانيول

هكذا انتهت تلك الحرب التى استمرت عشر سنين لم تفتر فيها الوقائع ولا نشفت

---

(١) وهذا المكان قد مررت به أيضاً فى سياحتي الى جبال البشرات

(٢) وقد دخلت هذه الكنيسة وشاهدتها فى أثناء زيارتى لغرناطة سنة ١٩٣٠ وشاهدت مدفن فرديناند وايزابلا بقرب هذه الكنيسة ورأيت صوراً كثيرة على الحيطان منها صورة جماعة من مسلمى الأندلس من رجال ونساء يتنصرون بين أيدى أحبار الاسبانيول وعلى وجوههم غبرة الموت

فيها الدماء ولا انقطعت المصارع و بنهايتها انصرم حبل الاسلام من بلاد الأندلس بعد ان استتبت دولته فيها سبعمائة وثمانيا وسبعين سنة منذ انهزم لذريق على ضفاف الوادي الكبير الى تسليم غرناطة والله وارث الأرض ومن عليها

ثم نقلنا ماجاء فى نفح الطيب عن هذه الكائنة العظيمة مما يقدر أن يراجعه من شاء اما فى كتابنا « آخر بنى سراج » المذيل بتاريخ الأندلس واما فى نفح الطيب نفسه كما أنه يمكنه أن يراجع وصف هذه الكائنة فى كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » لمؤلف لم يذكر اسمه يظهر من نسق روايته أنه كان حياً فى ذلك الوقت وانه شاهد الوقائع بنفسه وهذا الكتاب مطبوع أيضا ذيلاً لآخر بنى سراج . ثم قلنا :

«و بعد أن دخلت غرناطة فى حوزة الأسبانيول انقطع السلطان أبوعبد الله بن الأحمر فى أرضه بوادى برشانة حيث وفر له الطاغية الاقطاعات وكذلك لوزيره يوسف بن كماشة الذى لزم بابه فأقام مدة هناك ذاق أثناءها طعم الراحة وانتفض من عوارض ما كان فيه من هياط ومياط . ولكن الأمر لم يطل به حتى عاد يذكر ماضى ملكه وعليائه ويحن الى غابر حرائه فتثور فيه الأشجان ويستشعر فؤاده الأحزان . وفى هاتيك المدة لم يدع الملكان وسيلة الا استعملاها لأجل صبائه عن دين آبائه وادخاله فى النصرانية فأخفقت مساعيهما و بقى بالهما مشغولاً من جهته اذ لم يزل وجوده هناك محلاً للخوف من انتقاض مسلمى الأندلس تحت رايته والتفافهم حواليه ففى سنة ١٤٩٦ داخل الملك فرديناند وزيره يوسف بن كماشة سراً فى ابتياع أراضى مولاه بثمانية آلاف دوكا من الذهب فتمت الصفقة وانعقد البيع بدون علم أبى عبد الله وبدون أن يعتنى فرديناند بسؤال يوسف عن سند الوكالة بل نقده المال فحمّله البغال وسار الى البشرات فلما وصل بين يدى مولاه نثر الدنانير أمامه قائلاً له :

«رأيت يامولاى أن بقاءك هنا معرّض للخطر فان المغار بة أهل اقدام وثار وحملة أوتار ولا يبعد أن يثوروا مرة رافعين رايتك وتعزى ثورتهم اليك فتقع فى المقيم المقعد . وما دمت فى هذه البلاد يخطر فى بالك أنك كنت أميرها على حين لا أمل فى رجوع هذه الامارة لك . لذلك رأيت الأنجح فى حقك بيع أراضيك وقبضت ثمنها وها هو لديك يمكنك أن تتملك به أراضى واسعة جداً وراء البحر »

« فلما سمع أبو عبد الله هـذه الـكلمات استشاط غضـبا واخترط سيفه وكاد يضرب به رأس وزيره فأسرع هـذا الى الفرار من حضرته و بقي أبو عبـد الله وحده يتأمل فى هذه المسألة و يقلب من وجوهها فلم يلبث أن ذهب ما به وعاد اليه سكونه واستدل على أن هذه الصفقة لم تكن لتجرى لو لا رغبـة فرديناند فى زياله من هناك وأن الحق قد يكون مع وزيره يوسف بن كماشة فأجمع الرحلة وشد حقائبه . وجمع أمواله وكنوزه وتحمَّل الى أحد الثغور (١) حيث شيَّعه كثيرون من قومه داعين له بالتسهيل (٢) . فلما ركب السفين وغابت عن عينيه جبال غرناطة انهملت منهما العبرات وتصاعدت من صدره الزفرات ونزل بمليـلا ومنها سار الى فاس نزيلاً على سلطانهـا متلهفاً على ماسلف . وفى بعض تواريخ الافرنج أنه توفى قتيلاً فى احدى الوقائع مع سلطان فاس سنة ١٥٣٦ أى بعد ٤٤ حولاً من فراقه أسبانية ولذلك قال فيـه أحد المؤرخين انه قتل فى سبيل الدفاع عن مملـكة سواه بعـد أن جبن عن أن يقتل فى الدفاع عن حوض مملـكته »

وأما النفح فيقول فى نهاية أمره ما يأتى :

« ثم احتال (أى الطاغية) فى ارتحاله (أى أبى عبد الله) لبر العدوة وأظهر أن ذلك طلبه منه المذكور فـكتب لصاحب المرية : انه ساعة وصول كتابى هـذا لا سبيل لأحد أن يمنع مولاى أبا عبد الله من السفر حيث أراد من بر العدوة ومن وقف على هذا الـكتاب فليصرفه و يقف معه وفاء بما عهد له . فانصرف فى الحين بنص هذا الـكتاب وركب البحر و نزل بمليلة واستوطن فاساً وكان قبل طلب الجواز لناحية مراكش فلم يسعف بذلك وحين جوازه لبر العدوة لقى شدة وغلاء و بلاء »

و يقول بعد ذلك : «والسلطان المذكور الذى اخذت على يده غرناطة هو أبو عبد الله محمد الذى انقرضت بدولته مملـكة الاسلام بالاندلس ومحيت رسومها ابن السلطان أبى الحسن ابن السلطان سعد ابن الأمير على ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمـد الغنى بالله واسطة عقدهم ومشيد مبانيهم الانيقة وسلطان دولتهم على الحقيقة وهو المخلوع الوافد على الأصقاع

---

(١) وقد مررت بنفسى فى سنة ١٩٣٠ بالمرسى الذى أقلع منه أبو عبـد الله بن الأحمر من الأندلس قاصدا المغرب

(٢) وقرأت أنه هاجر معه نحو من ألف نسمة من مسلمى الأندلس

المرينية بفاس العائد منها للملك فى أرفع الصنائع الرحمانية العاطرة الانفاس — وهو سلطان لسان الدين بن الخطيب — ابن السلطان ابى الحجاج يوسف ابن السلطان اسماعيل قاتل سلطان النصارى دون بطرُه بمرج غرناطة ابن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر بن قيس الانصارى الخزرجى رحمهم الله تعالى جميعا . وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلة الى مدينة فاس باهله وأولاده معتذراً عما أسلفه متلهفاً على ما خلّفه و بنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس رأيتها ودخلتها وتو فى رحمه الله تعالى بفاس عام أر بعين وتسعمائة ودفن بازاء المصلى خارج باب الشريعة وخلف ولدين أحدهما اسمه يوسف والآخر أحمد . وعقب هذا السلطان الى الآن بفاس وعهدى بذريته بفاس الى الآن سنة ١٠٣٧ يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين و يعدون من جملة الشحاذين ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . انتهى

قلت : وقد قرأت فى بعض كتب الافرنج انه كان للسلطان أبى عبد الله اخوة صغار من غير امّه لبثوا فى غرناطة بعد أخذ الاسبانيول اياها وتنصروا وتحولوا اسبانيولاً ولكنى لم أطلع على خبر اسبانيول فى الوقت الحاضر ينتسبون الى بنى الأحمر. ولقد سمعت من الأخ الكريم الحاج عبد السلام بن العربى بنونه من عيون أعيان تطاون بل من عيون أعيان المغرب كله ان ببلدهم اسرة تنتسب الى بنى الأحمر الى يومنا هذا . وقيل لى انه لا يزال منهم بفاس أيضاً

ثم انى أقول فى ذيل « آخر بنى سراج » ما يلى :

« ولنذكر حالة بقية مسلمى الاندلس بعد ذهاب ملكهم فنقول : ورد فى تاريخ « الاسلام فى اسبانية » تاليف « ستانلى لانبول » ما محصله :

« ان آخر أنفاس أبى عبد الله على تلك الربوة لم يكن بآخر أنفاس المسلمين فى تلك الديار بل بداية أنفاس يرسلونها الصعداء وافتتاح عهد انتقام وابتلاء وان اسقف غرناطة الأول « هرناندو دوتالاڤيره » كان رجلاً حليماً . عادلاً أحسن معاملة المغاربة وأبى الجور عليهم وتعلم العربى وكان يصلى به وعلى يده ارتد ألوف من المغاربة الى النصرانية قيل ان ثلاثة آلاف تنصروا فى يوم واحد . الا أن الكردينال « كسيميناس » الذى كان من القسم المحارب بين رؤساء الكنيسة اعتسف السبيل ومال الى العنف والاكراه وأساء

معاملة المسلمين وحمل الملكة ايزابلا على ما بقى نقطة دهماء فى تاريخ حياتها من اضطهادهم واستعبادهم وا كراههم على التنصر فاثار ذلك ساكنهم وأخرج كامنهم وفى احدى المرات حبست امرأة فى البيازين لشأن من هذا القبيل فثار سكان البيازين وتحصنوا وحملوا السلاح وكادوا يفتكون بالجند وأوشك الدم أن يسيل بحدة الكردينال كسيميناس الا أن المطران هرناندو الموصوف بالوداعة دخل ربض البيازين بالسكينة والأنس مع نفر قليل من حاشيته بدون سلاح وسأل القوم عن شكواهم وتقبلها منهم بالاستماع والاحتفال وهدأ روعهم واعاد طائر الأمن الى وكره وحجب الدماء يومئذٍ . اما كسيميناس المشهور فلم يزل يغوى الملكة حتى أصدرت أمرها باكراه المسلمين على احدى الخطتين الجلاء أوالنصرانية وذلك بانهم كانوا يذكرون المسلمين بانهم من سلالة النصارى فى الأصل فاقفلت المساجد وأحرقت الكتب التى هى ثمرات القرون وزبدة الحقب (١) وأذيق المسلمون العذاب اشكالاً والواناً ففضّل عامتهم فراق دينهم على فراق أوطانهم الا أن شعلةً من الحمية الاسلامية بقيت تلمع فى جبال البشرات حيث حتهم أوعارهم من مضطهديهم

«وأول جيش أرسل اليهم كان تحت قيادة الدون «الونزو دو اغيلار» البطل المشهور انهزم هزيمة شنعاء وذلك سنة ١٥٠١ وقتل الدون المذكور وقيل انه الدون الخامس المقتول من تلك العشيرة فى حرب المسلمين فازداد انتقام الاسبانيول من المغاربة بعد هذه الغلبة وهجم كونت « طنديله » على « قوجار » وهدم كونت « سرين » جامعاً على جماعة التجأوا اليه من المسلمين بنسائهم وأطفالهم . وأمسك الملك فرديناند بنفسه الطريق على الفارين من الجبال فمن بقى حياً من الثوار فرّ الى مراكش ومصر والبلاد العثمانية وانتهت الثورة الأولى فى الجبال

«ومضى على ذلك نصف قرن والبغض دفين فى القلوب والمسلمون المتنصرون يعمدون أولادهم ظاهراً فاذا انصرف القسيس مسحوا عن الولد ماء المعمودية واذا تزوج أحد الموريسك (٢) اجرى القسيس عقد الا كايل ثم بعد ذهابه عقدوا النكاح بحسب السنة الاسلامية

---

(١) ذكر فى بعض كتب الأسبانيول أنه أحرق فى غرناطة فى يوم واحد مليون مجلد وقيل بل مائة ألف مجلد وقرأت فى بعض كتبهم أنهم أحرقوا كل الكتب الا التآليف المتعلقة بالطب والرياضيات

(٢) لقب المتنصرة من المغاربة

«وكانوا يتقبلون قرصان البحر من أهل المغرب ويعاونونهم على اختطاف أولاد النصارى ويأتون غيرذلك من الأعمال انتقاماً فلوكانت ثمة حكومة عاقلة قوية ترعى عهودها التى واثقت عليها عند تسليم غرناطة لم يكن محل لذلك البغض العميق ولكن حكام الاسبانيول لم يكونوا أهل عقل ولا أهل عدل وكانوا يزدادون بتمادى الأيام شرًا ولم تلبث الأوامر ان صدرت باكراه المسلمين على ترك ألبستهم الخاصة بهم ولبس البرنيطة والسراويلات الاسبانيولية وحظر عليهم الغسل ودخول الحمام اقتداءً بغالبيهم فى احتمال الاقذار [١] ثم منعوهم من التكلم بالعربية وصدر الأمر بان لايتكلموا بغير الاسبانيولى وبان يغيّروا اسماءهم ويسيروا سيرة اسبانيولية ويسموا أنفسهم اسبانيولاً . وكان تصديق الامبراطور شرلكان هذا الأمر الفظيع فى سنة ١٥٢٦ على انه لم يكن الظاهر منه اعتماده على اجرائه بالفعل لكن عماله اتخذوه ذريعة لاستنزاف أموال الموسرين من الموريسك وصار ديوان التفتيش يحترف ويتجر بهذه المسئلة . ولما صار الأمر الى فيليب الثانى شدد فى انفاذ الأوامر بحق الموريسك وسنة ١٥٦٧ عزز الأمر الصادر بشأن تغيير الزى واللغة باستيثاق غريب لأجل منع النظافة التى هى من سنن الاسلام وذلك بانه أخذ يهدم حمامات الحمراء البديعة . فالطرق التى أخذوا بها لتنكير أحوال تلك الأمة البائسة كانت أشد من أن يتحملها أىُّ قبيل دع سلائل المنصور وعبدالرحمن وابناء سراج ولذلك لم يطل الزمن حتى استطار الشر واشتعلت الفتنة وثار فرج بن فرج من نسل بنى سراج بجماعة من ذوى الحمية من غرناطة قاصداً الجبال قبل ان تمكنت الحامية من تعقبهم ونودى « بهرناندو دوفلور » من نسل خلفاء قرطبة ملكاً على أندلس تحت اسم محمد بن أمية وعمّت الثورة فى اسبوع واحد جميع جبال البشرّات ووقع ذلك فى ١٥٦٨ ولما كانت هذه الجبال من اصعب تضاريس الارض مرتقى واوعرها مسلكاً كان تدويخ سكانها من أصعب الأمور منالاً وكانت الفتنة فيها بعيدة المدى فاستمرت هذه المرة حولين كاملين حافلاً تاريخها بحوادث لاتحصى من القتل والغدر والتعذيب والاستباحة والاحتيال وذلك من الجانبين لامن جانب واحد لكنه حافل ايضاً بوقائع ينـدر فى تاريخ الفروسية وكتب الحماسة الظفر بامثالها وتبقى على صفحات السير طُرزاً للقرون والأمم . وكان

---

(١) كان من عادة الشعوب اللاتينية التقزز من الطهارة والاستحمام وكانوا ينبزون المسلم بقولهم « الذى يدخل الحمام » وكان الاسبانيول يهدمون الحمامات بالشدة التى يهدمون بها الجوامع

المغاربة هناك فى موطنهم الاخير والموقف الذى يحاولون فيه ادراك الثأر عن نحو من مائة سنة قضوها فى البلاء العظيم والهون الذى ليس له نظير فهبوا جميعاً منادين باخذ الثار واقتضاء الاوتار قرية بعد قرية وهدموا الكنائس واهانوا امافيها وفتكوا بالقسيسين وعذبوا النصارى الذين وقعوا فى ايديهم واعتصم الذين نجوا بالمعاقل والابراج ودافعوا دفاعاً شديداً . وكان مركيز « مونيتجارة » قائداً فى غرناطة فعمد الى المسالمة واخذ بالملاينة وكادت الوقدة تنطفى لولا ماعاد الشرر من ذبح مائة وعشرة سجناء من المغاربة فى حبس البيازين قيل ان ذبحهم وقع بغير علم المركيز لكن الموريسك لم يقبلوا العذر ونشروا لواء الثورة وصار ابن امية اميراً بالفعل على جميع جهات البشرات الا انه لم يكن ممن يحسن السياسة فقام بعض اعوانه وقتلوه وبويع لرجل آخر موصوف بالنجدة والحماسة اسمه عبدالله بن أبوه

«فأرسلت دولة اسبانية لتدويخ الثوار الدون «جون الاوسترى» أخا الملك وهو شاب فى الثانية والعشرين من العمر فباشر القتال فى شتاء ١٥٦٩ الى ١٥٧٠ وأتى من الفظائع ما بخلت بانداده كتب الوقائع فذبح النســاء والأطفال امام عينيه وأحرق المساكن ودمر البلاد وكانت علامتــه « لا هوادة » وانتهى الأمر باذعان الموريسك لكنه لم يطل واستأنف مولاى عبد الله بن أبوه الكرة فاحتال الأسبانيول حتى قتلوه غيلة و بقى رأســه منصوباً فوق أحــد أبواب غرناطة ثلاثين سنة . وأثخن الاســبانيول فى قمع الثورة بما أقدموا عليه من الذبح والحريق والخنق بالدخان حتى أهلكوا من بقية العرب خلقا كثيراً وخنع الذين نجوا من الموت لكنهم وقعوا فى الرق وسيقوا مماليك وعبدانا ونفى منهم جملة فأخذ عددهم يتناقص . ولما كان اليوم المشهود والمذكور فى التواريخ وهو عيــد جميع القديسين ســنة ١٥٧٠ بلغ عدد من ذهب منهم عشرين ألفا والذين أخذوا منهم فى معمعة الفتنة صاروا الى الاستعباد وأخرج الباقون من البــلاد مخفورين فمات كثير منهم على الطرق تعبا ومنهم من أجاز الى بر العدوة وطافوا هناك سائلين لأجل قوتهم الضرورى . ومنهم من لجأ الى بلاد فرنســة حيث استقبلوهم براً وترحيبا واحتاج اليهم هنرى الرابع لأجل دسائسه فى مملكة أسبانيا [1] ولم ينته اخراجهم تماما الى سنة ١٦١٠ اذ وقع الجلاء

(١) الحقيقة ان هنرى الرابع أصدر أمراً بقبولهم فى فرنســة لكن على شرط أن يتحولوا كاثوليكيين وقد نفذ الأمر وأجبروا على التنصر الى أن طلب السلطان ابن عثمان اخراجهم من فرنسة الى بلاد الاسلام

الأخير ولم يبق فى تلك البلاد مسلم واحد بعد أن وليها الاسلام ثمانية قرن . ويقال ان عدد من خرج منهم منذ اليوم الذى سقطت فيه مملكة غرناطة الى السنة العاشرة بعد الألف والستمائة يبلغ ثلاثة ملايين وان الذين خرجوا لآخر مرة يبلغ نصف مليون

«وأما الاسبانيول المساكين فلم يعرفوا ماذا يصنعون ولا فهموا أنهم كانوا يخربون بيوتهم بأيديهم بل كانوا فرحين مسرورين بطرد المغاربة الذين اسبانية كانت بهم مركز المدنية ومبعث أشعة العلم قرونا . وقلما استفادت بقعة أوربية من حضارة الاسلام بمقدار ما استفادته هذه البلاد . فلما غادرها الاسلام انكسفت شمسها وتسلط نحسها وان فضل مسامى الاندلس ليظهر فى همجية هؤلاء القوم وتأخرهم فى الحضارة وسقوط هذه الأمة فى مكانتها الاجتماعية بعد ان خلت ديارها من الاسلام». انتهى كلام ستانلى لامبول ملخصا

وأستشهد فى حاشية هذه الجملة بنقل يمثل لك درجة هذه الحقيقة وهو ان للمالك حول مدينة غرناطة ضياعاً واسعة ومزارع اضطروا الى بيعها سنة ١٥٩١ بسبب أنهم كانوا يخسرون عليها أكثر من غلتها مع ان هذه البقاع كانت لعهد العرب حدائق غنّاء وغياضاً وارفة الافياء وموارد ثروة ورخاء . ومن أراد أن يعرف ما كانت عليه تلك المزارع من الخصب والنماء فى زمان العرب فما عليه الا أن يقرأ الاحاطة فى أخبار غرناطة تأليف وزير غرناطة الشهير لسان الدين بن الخطيب قال من جملة ماذكر من وصف بساتينها :

« وتحف سورة هذه المدينة المعصومة بدفاع الله تعالى البساتين العريضة المستخلصة والأدواح الملتفّة فيصير سورها من خلف ذلك كأنه من دون سياج تلوح نجوم الشرفات أثناء خضرائه . (الى أن يقول) :

فخرج أكثرهم و بقى منهم من اختار الاقامة بفرنسة مع النصرانية ولما ظهر مذهب البروتستانت وكان منهم من اختار هذا المذهب وصدر أمر لويس الرابع عشر باخراج البروتستانت كما لا يخفى هاجر قسم من هؤلاء الى سويسرة وبينهم العالم العلامة الشهير «أبو زيد» Abouzyt الذى كان من أعلم علماء عصره فى كل فن وكان صديقاً لفولتير وروسو ونيوطن ولايبنيتز وكان فولتير يقول عنه « صديقنا العربي » وطالما كان فولتير يستفتيه فى عويص المسائل وكانت بينه وبين روسو مراسلات كثيرة جمعها أحدهم فى كتاب . وفى جنيف الآن شارع باسم ابوزيد تخليداً لذكر هذا العبقرى العربى العظيم وكان أبو زيد من عائلة أطباء عربية ساكنة فى تولوز بجنوبى فرنسة

« فليس تعرو من جنباته عن الكروم والجنان جهة الا مالا عبرة به مقدار غلوة أما ما حازه السفل من حومته فهى عظيمة الخطر متناهية القيم يضيق جد من عدا أهل الملك عن الوفاء بأثمانها منها ما يغل فى السنة الواحدة نحو الألف من الذهب قد غصت منها الدكاكين بالخضر الناعمة والفواكه الطيبة والثمرة المدخرة يختص منها بمستخاص السلطان المدور طوقاً على ترائب بلده ما يناهز مائة منها الجنة المعروفة بعدّان الميسة والجنة المعروفة بعدّان عصام [1] والجنة المعروفة بالعروى والجنة المنسوبة الى قداح بن سخنوق والجنة المنسوبة لابن المؤذن والجنة المنسوبة لابن كامل وجنة النخلة العليا وجنة النخلة السفلى وجنة بن عمران والجنة التى الى نافع والجرف الذى يُنسب الى مقبل وجنة العرض وجنة الحفرة وجنة الجرف ومدرج نجد ومدرج السبك وجنة العريف[2] كلها لا نظير لها فى الحسن والريع وطيب التربة وغرقد السقيا والتفاف الأشجار واستجادة الأجناس الى ما يجاورها ويتخللها مما يختص بالأحباس الموقفة والجنان المتملكة وما يتصل بها بوادى سحل ما يقيد الطرف ويعجز الوصف قد مثلت منها على الأنهار المتدافعة العباب المنارة القباب واختصت من أشجار العاريات ذات العصير الثانى بهذا السقع ماقصرت عنه الأقطار الخ » اقتصرنا على هذه الجمل من وصف طويل

ولا شك أن جنان السلطان الموصوفة هذا الوصف كله والتى كانت تدر بالاموال والأرزاق أيام العرب هى هى التى آلت بعد فتح الاسبانيول لغرناطة الى ملك الاسبانيول وعادت لعهدهم لا تعطى من الغلة ما يفي بالنفقات اللازمة لها

وقال واشنطون ارڤين فى تاريخه الشهير لفتح غرناطة ما ملخصه :

«انه بعد دخول هذه البلدة فى حوزة الاسبانيول بقيت الحال غير مستتبة تماما مدة سنوات الى أن وقع من اجتهاد رؤساء المذهب الكاثوليكى فى حمل المسلمين هناك على

---

(١) العدان بفتح أوله وتشديد ثانيه وقد يكسر أوله هو زمن الشيء وعهده وهو يقال لدور أصحاب المياه فى سقيا البساتين وهذه اللفظة مستعملة فى الشام بهذا المعنى وقد سرت الى الاندلس الذين اكثر عربها كانوا شاميين

(٢) هذه التى يقول لها الافرنج Généralif

النصرانية (١) ما أيأس مغاربة الجبال المتشددين فى دينهم فثاروا برؤساء الدين الكاثوليكى وقبضوا على اثنين منهم وعرضوا عليهما الاسلام فامتنعا فقتلوهما . وقيل ان النساء والأولاد قتلوهما قعصاً بالعصى وشدخاً بالحجارة وأحرقوا جثتيهما فانتقم النصارى من هذه الفعلة بأن اجتمع منهم نحو من ثمانمائة فارس وساروا الى قرى المغاربة يخربون و يعيثون فاعتصم المغاربة بالجبال وانتشرت الفتنة فى الجبال كلها لكن وسطها كان فى جبل « برميجه » المصاقب للبحر (٢) فلما اتصل الخبر بالملك فرديناند أصدر أوامره بنقل المسلمين الساكنين فى جهات الثورة الى قشتالة وأعطى الأمر سراً بأن من يدخل منهم فى النصرانية يبقى فى وطنه ثم رمى تلك الأمة بالقائد المشهور « الونزو دواغيلار » ومعه جيش وهو الذى قضى معظم شبابه فى قتال المغاربة فما اقترب من بلادهم حتى هرع جملة وافرة منهم الى رندة للدخول فى النصرانية (٣) وجمر الباقون منهم تحت قيادة فارس منهم اسمه الفهرى الى

---

(١) قد وقع فى تاريخ الاسلام أن بعض ملوكه عززوا الاسلام وأحبوا نشره بطرق سلمية ولكنه لم يقع ولا مرة ان المسلمين أكرهوا النصارى أو اليهود على قبول دينهم

(٢) لقد طفت يوم ذهابى الى اسبانية بهذه الجبال ورأيتها متدلية الى البحر مع علوها الشاهق وفهمت ما كان من السهولة على المسلمين من الثورة فيها والاتصال بالمسلمين الذين كانوا ينجدونهم الفينة بعد الفينة من وراء البحر

(٣) عندما كنت فى رندة سنة ١٩٣٠ وشاهدت آثار العرب الباقية فيها كالحمام والجسر والأبراج التى عند الباب وحنية المياه المجرورة اليها ولا سيما القصر الذي منه درج تحت الأرض منحوتة فى الصخر تبلغ ٣٦٠ درجة نزولا من القصر الى النهر وغير ذلك من الآثار قلت لما كنت هناك أحببت أن أستعلم عن منزل أبى البقاء صالح بن شريف الرندى فلم أقف له على أثر وقيل لى ان محامياً اسمه « لوزاو » هو أخبر الناس بخطط رندة وله تأليف فى تاريخها فجاء وأطلعنا على كثير من آثارها وأخبارها وسألته عما اذا كان معلوماً محل بيت صالح بن شريف الرندى الشاعر المشهور فاجاب بالنفي . ثم سألته عما اذا كان باقياً هناك عائلات عربية معروفة فقال انه كان فى رندة أسرة عربية اسمها venega تحريف Benega انقرضت وانه كانت عائلة اسمها الزغري وانه بقرب رندة فى تلك الجبال قرية اسمها venadali لعلها محرفة عن « بنى عدالى » أو ما أشبه ذلك معروف أن أصل أهلها عرب وقرية أخرى اسمها ben arrabat أو « بنى الرباط » وقرية أخرى اسمها ben alariah وهذه يرجح أنها محرفة عن « بنى رياح » وهؤلاء من أشهر قبايل العرب بالمغرب . وذكر لى اسم قرية اسمها Zara أظنها محرفة عن « صخرة » وقال لى انه توجد فى قرية « خوبريكه » أسماء عربية كثيرة

حيث يتعذر السلوك من تلك الأوعار رابطين شعاب الجبال دون مرور عساكر الاسبانيول فتلاقى الجمعان أمام بلدة « مونارده » وانتشب القتال فيقال ان الدون « الونزو » مع ابنه الدون « بطرُه » وثلاثمائة من شجعانه صدقوا الحملة على المغاربة فأزاحوهم وتلاحقوا فى الهزيمة فتتبعهم الجند يغنمون وينهبون ولما امتلأت أيديهم بالغنائم كرّ عليهم الفهرى بجماعة من أبطاله وعلت الصرخة فارتجت لها جوانب الأودية وذُعر الأسبانيول فتداعوا الى الفرار وثبت الونزو فى مكانه يحرضهم و يضم من شتيت شملهم فصبر معه جماعة وولى الأكثرون ودخل الظلام وخيّم الغسق واشتد الخناق بالاسبانيول وجرح بطره بن الونزو فأمره أبوه بالرجوع فأصرّ على البقاء بجانب أبيه فأمر أتباعه بحمله الى معسكر كونت « أورينه » فاحتملوه مثخناً جراحاً ولبث الدون بمائتين من رجاله يناضلون الى أن فنوا عن آخرهم

«وتحصن الدون بين صخرين يتقى بهما فبصر به الفهرى فقصده واستحرّ الصراع وألح الفهرى وطمع فى قرنه وكانا متماثلين فى ثبات الجنان مع قوة الاضلاع وتوثق الخلق فصاح الونزو بخصمه : «لاتحسبن نفسك وقعت على صيدٍ هين فأنا الدون الونزو دواغيلار » فأجابه المغربى : « ان كنت أنت الدون ألونزو فاعلم أنى أنا الفهرى » ثم كوره صريعاً ومات بموته مثال الفراسة الاسبانية وانموذج الغشمشمية فى الأندلس . واندفع المغاربة ذلك الليل بطوله يطاردون الاسبانيول ولم ينكفئوا حتى لاح الصباح فأجلى المعترك عن قتل الدون « فرانسيسكو دو راميز » المجريطى الذى كان قائد المدفعية الأكبر وكانت له المواقف المشكورة فى حصار غرناطة لكن مصرع الدون الونزو دواغيلار أنسى الأحزان جميعها . وعند وصول خبر هذه الفاجعة الى الملك زحف بالجيش الى جبال رندة فسكنت بحضوره النائرة واشترى بعض المغاربة أرواحهم فجازوا الى افريقية واحتمى آخرون بالنصرانية . وأما أهل البلد الذى قتل فيه فرسان الاسبانيول فسلكوا فى سلسلة العبودية وبحث الملك عن جثة الدون فوجدوها بين مائتى جثة فيها أجساد عدد من الأمراء والكبراء وحملت تجاليد الدون الونزو الى قرطبة فى مشهد حافل بين مدامع كالسحاب الهواطل ودفن فى كنيسة مارهيبوليتو وندبه الاسبانيول دهراً طويلاً » . انتهى كلامه مجملاً

وذكر المؤرخ الشهير الفرنسى ڤيكتور دروى victor Duruy فى تاريخه مايأتى ملخصا :

« ان اسبانية تخلصت من العرب لكنها بقيت حافظة عليهم احنة شديدة ربتها فى قلوبهم ثمانية قرون قضتها معهم فى الحرب . وكان لذلك سكان الجزيرة اخلاطاً من مسلمين ونصارى ويهود فعول فرديناند على توحيد الهيئة بوحدة الاعتقاد تعزيزاً للدولة فأنشأ ديواناً جديداً للتفتيش وكان الملك هو الذى يعين الرئيس والمفتش الكبير ويضع يده على أملاك المحكوم عليهم . وكان هؤلاء فى البداية من النصارى المتهودين والمسلمين المتنصرين ظاهراً الباقين باطناً امناء لمحمد ﷺ ثم شملت أحكام الديوان أهل البدع السياسية كما شملت أهل البدع الدينية . وسنة ١٤٩٢ قرر ديوان التفتيش المذكور طرد اليهود من اسبانية بعد أن سلبوهم أموالهم . وقدقدر بعض المؤرخين المعاصرين لتلك الحادثة عدد من خرج منهم بثمانمائة الف [1] والقسم الاكبر منهم هلكوا وعذبوا بمالم يعذبه احد من العالمين وسنة ١٤٩٩ صدر الأمر بسلب المسلمين حريتهم الدينية التى تقررت لهم بموجب عهد غرناطة فجلا منهم جم غفير ولم يتم خروجهم جميعاً حتى القرن التالى سنة ١٦٠٩ وهكذا فازت اسبانية بوحدتها الدينية لكنها خسرت صناعتها وتجارتها اللتين كان العرب واليهود اهم عمالهما » اه

وذكر مرة عند كلامه على شرلكان انه اكمل مقصد فرديناند فاكره مسلمى بلنسية على التنصر وأهل غرناطة على ترك زيهم والتكلم بغير لغتهم . وقال فى عرض الكلام على فيليب الثانى انه اضطهد المغاربة وضيق عليهم حتى اضطروا للثورة سنة ١٥٦٨ وأوقدوا نيرانهم على تلك الجبال ايذاناً بالخروج وكان يمكنهم بما امسكوه من مخانق جبالهم الثبات طويلاً لوامتدت اليهم يد معونة من اخوانهم فى افريقية . ففرق فيليب شملهم وبددهم فى مقاطعاته ولم تمض سنون عشر حتى صاروا كلهم ارقاء

---

(١) منهم جماعة وافرة فى أزمير وأقوام فى الاستانة وسلانيك هاجروا اليها فى تلك الكائنة ومنذ خمس سنوات — وقدصارت المدة الآن ٣٥ سنة أى انها كانت خمس سنوات يوم طبعنا تأليفنا آخر بنى سراج مع ذيله في تاريخ الأندلس الطبعة الأولى — احتفلوا بعيد مضى الأربعمائة سنة على دخولهم بلاد الدولة العثمانية أكثروا فيه من الدعاء لسلطنة آل عثمان التى هى كهف المطرودين

ثم لنذكر بحسب عادتنا فى المقابلة بين تواريخ الافرنج وتواريخ العرب كلام المقّرى عن هذه الوقائع الأخيرة مع بعض تصرف . قال : « ثم ان النصارى نكثوا العهود ونقضوا الشروط عروة عروة الى ان آل الحال لحملهم المسلمين على التنصُّر سنة أربع وتسعمائة بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم انهم قالوا ان القسيسين كتبوا على جميع من كان اسلم من النصارى أن يرجعوا قهراً الى النصرانية ففعلوا ذلك وتكلم الناس ولا قوة لهم . ثم تعدوا الى امر آخر وهو ان يقولوا للمسلم ان جدك كان نصرانياً فأسلم فلترجع انت نصرانياً . ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيّازين على الحكام وقتلوهم وهذا كان السبب للتنصّر : قالوا ان الحكم خرج من السلطان ان من قام على الحاكم فليس الا الموت الا ان يتنصّر . وبالجلة فانهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة . وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك وامتنعت قرى واما كن كذلك منها بلفيق واندرش(١) وغيرهما فجمع لهم العدو الجوع واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبيا الاما كان من جبل بللنقة فان الله تعالى أعانهم على عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة(٢) وأخرجوا على الامان الى فاس بعيالهم وماخف من أموالهم دون الذخائر . ثم بعد هذا كان من أظهر التنصُّر من المسلمين يعبد الله فى خفية ويصلى فشدد عليهم النصارى فى البحث حتى انهم احرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد . وقاموا فى بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله تعالى لهم ناصراً الى ان كان اخراج النصارى اياهم بهذا العصر القريب عام سبعة عشر والف فخرجت الوف بفاس والوف أخر بتلمسان من وهران وجمهورهم خرج بتونس فتسلط عليهم الأعراب ومن لايخشى الله تعالى فى الطرقات ونهبوا اموالهم وهذا ببلاد تلمسان وفاس ونجا القليل من هذه المضرة «وأما الذين خرجوا بنواحى تونس فسلم أكثرهم وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية و بلادها وكذلك بتطاون وسلا وفيجة الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الاقصى منهم عسكراً جراراً وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد فى البحر ماهو مشهور الآن وحصنوا قلعة سلا و بنوا بها القصور والحمامات وهم الآن بهذا الحال و وصل منهم جماعة الى القسطنطينية

(١) هي البلدة التى ذهب اليها أبو عبدالله بعد أن أخذت منه غرناطة

(٢) هو الونزو دو اغيلار

العظمى والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام وهم لهذا العهد على ماوصف والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين » انتهى

ثم قلت فى ذيل آخر بنى سراج :

« ثم ان الأندلسيين المطرودين النازلين ببر العدوة انتقموا من الاسبانيول ومن طوائف الفرنج عما أذاقوهم اياه من العذاب وذلك بجهاد البحر الذى اشار اليه المقرّى حيث انهم انتظموا فى سلك بحرية الجزائر وغيرها من بلاد المغرب ايام كان اهلها يلقبون بملوك البحر وكانت دول أوربة باسرها تدفع لهم الجزية وتواصل الى والى الجزائر الهدايا دفعاً لغائلة السفن المغربيةعن سفنها فكان من قطع المغاربة خصوصاً الأندلسيين منهم السبل البحرية على بحارة الاسبانيول وغيرهم من السبي والاسر والعيث على شواطىء اوربة لاسيما اسبانية ما ألّف له الاوربيون تواريخ خاصة به وهو يدل على استحكام الاحن فى صدورهم . وفى الواقع لانرى عداوة طال امرها وتوقدت جرها كالعداوة التى بين المغاربة والاسبانيول

«وقد اتفق الكتاب على ان الاندلسيين الجالين عن بلادهم الى بر العدوة احتملوا معهم على أيديهم صناعة الاندلس وفى صدورهم همم اهلها ونقلوا ذوق تلك البلاد الموصوف بالسلامة الى حيث القوا عصا تسيارهم . فأخذت عنهم فنون وشاعت بواسطتهم صنائع وانتشرت بسببهم فوائد وكانوا مع رثاثة حالهم وتشريدهم من بلادهم صفر الايدى الامن زهيد المتاع يمثلون حيثما حلوا قطعة من الاندلس ولا يزال على بيئاتهم وأنواع معايشهم وسائر شؤونهم ومآخذهم مسحة اندلسية تمتاز بالذوق وتدل على الاصالة فى التمدن حتى ان الكاتب الافرنسى «فيليكس دوبوا» الذى ساح فى أواسط افريقية فى العام المنصرم (أى سنة ١٨٩٦) عثر على قبيل فى جوار تنبكتو يقال لهم الاندلوز حقق بما أخذه من اخبار اصول تلك القبائل انهم من جالية الاندلس كما يدل عليه اسمهم . وذكر انهم مع فقرهم تجدهم اسمى ذوقاً وأعلى طبقة فى المدنيّة من القبائل المجاورة لهم وان لهم صناعات مخصوصة بهم كالصياغة والنقش وغير ذلك والظاهر انهم مترامون الى السودان عن مراكش وسبحان من بيده تصاريف الأمور» . انتهى ماقلته فى ذيل آخر بنى سراج

ثم نعود الى موضوع تحويل الاسبانيول لعرب الأندلس من الاسلام الى النصرانية فنقول ان أهم ما عثرنا عليه فى هذا الباب وأدقه هو ما جاء فى كتاب « الأنوار النبوية فى

آباء خير البرية » للعالم النسابة سيدى محمد بن عبد الرفيع الأندلسى المتوفى فى رجب عام اثنين وخمسين وألف [١] وهو كتاب خطّى عزيز الوجود نقل عنه العالم المؤرخ الشيخ أبو عبد الله محمد أبو جندار فصلاً بتمامه جليل الخطر فى هذا الموضوع وذلك فى كتابه « مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح » رعياً لكون جل انساب أهل الرباط اندلسية وأن البيوتات النبيلة فيها كلها أوجلها من بقايا جالية الأندلس واليك ما يقوله محمد بن عبد الرفيع :

« قد كثر الانكار علينا معشر أشراف أهل الأندلس من كثيرين من اخواننا فى الله بهذه الديارا لأفريقية من التونسيين وغيرهم حفظهم الله تعالى بقولهم : من أين لهم الشرف وقد كانوا ببلد الكفار دمرهم الله ولهم مئون من السنين كذا وكذا ولم يبق فيهم من يعرف ذلك من مدة الاسلام وقد اختلطوا مع النصارى أبعدهم الله . الى غير ذلك من الكلام الذى لانطيل به ولا أذكره هنا صوناً لعرضهم ولحبّ فيهم فأقول وبالله التوفيق وهو الهادى الى أقوم طريق : مع انى صغير السن حين دخولنا هذه الديار عمرها الله تعالى بالاسلام وأهله بجاه النبي المختار ﷺ فقد أطلعنى الله على دين الاسلام بواسطة والدى رحمة الله عليه وأنا ابن ستة أعوام وأقل مع انى كنت اذ ذاك أروح الى مكتب النصارى لأقرأ دينهم ثم أرجع الى بيتى فيعلمنى والدى دين الاسلام فكنت أتعلم فيهما معاً وسنى حين حلت الى مكتبهم أربعة أعوام . فأخذ والدى لوحاً من عود الجوز كأنى أنظر الآن اليه مملّساً من غير طَفَل ولا غيره فكتب لى فيه حروف الهجاء وهو يسألنى حرفاً حرفاً عن حروف النصارى تدريباً وتقريباً فاذا سميت له حرفا أعجميا كتب لى حرفا عربيا فيقول لى هكذا حروفنا حتى استوفى لى جميع حروف الهجاء فى كرّتين . فلما فرغ من الكرة الأولى أوصانى أن أكتم ذلك حتى عن والدتى وعمى وأخى وجميع قرابتنا وأمرنى أن لا أخبر أحداً من الخلق ثم شدد علىّ الوصية وصار يرسل والدتى الىّ فتسئلنى ما الذى يعلمك والدك فأقول لها :لاشئ . فتقول : اخبرنى بذلك ولا تخف لأنى عندى الخبر بما يعلمك : فأقول لها : أبداً ماهو يعلمنى شيئا . وكذلك كان يفعل عمى وأنا أنكر أشد الانكار . ثم أروح الى مكتب النصارى وآتى الدار فيعلمنى والدى الى أن مضت مدة فأرسل الىّ من اخوانه فى الله الأصدقاء فلم أقر لأحد قط بشئ مع أنه رحمه الله تعالى قد ألقى نفسه

---

(١) أي بعد الجلاء الاخير عن الاندلس بخمس وثلاثين سنة

للهلاك لامكان أن أخبر بذلك عنه فيحرق لا محالة . لكن أيدنا الله سبحانه وتعالى بتأييده وأعاننا على ذكره وشكره وحسن عبادته بين أظهر أعداء الدين» اه

قلت فهمنا من هنا أن هؤلاء الجماعة كانوا أُجبروا على النصرانية طراً وانما كانوا باقين فى الغالب على الاسلام سراً وكانوا مضطرين أن يرسلوا أطفالهم حتى من سن أربع سنوات الى مكاتب النصارى ولم يكن يباح لهم أن يعلموا أولادهم شيئاً عن الاسلام ومن كان يقدم على ذلك وكانت الحكومة تعلم به كان يحرق بالنار . وبرغم هذا كله كان بعضهم حريصاً على تعليم أولاده عقيدته الاسلامية ولغته العربية فكان يعلمهم ذلك مع أشد الاحتياط والامتحان خشية أن السلطة تأخذ سر الأمر من الأولاد فتحرق أولئك الوالدين بالنار كما هو قرار ديوان التفتيش الكاثوليكى . ولكننا لا نظن ان عدد الوالدين الذين كانوا يعلمون أولادهم الاسلام والعربية سراً كان كبيراً وذلك لأن كثيراً من العوام كانوا اميين لا يعرفون الكتاب فلا يمكنهم التعليم ثم لأن كثيراً من المسلمين كانوا يخشون أن تطلع السلطة على السر بواسطة الأولاد فيقعوا فى الهلاك . ولذلك كانوا يجتنبون بدون شك التعرض لهذه الهلكة . وقد نشأ أولادهم فى النصرانية باطناً ظاهراً وهم لا يعلمون أن آباءهم كانوا مسلمين وان قلوبهم كانت مطمئنة بالايمان وذلك نظراً لشدة كتمان الوالدين ولحذرهم اطلاع السلطة على حقيقة حالتهم ولكون شعائر الاسلام كانت كلها ملغاة وكان هؤلاء المسلمون المحمولون على النصرانية كرهاً والذين يقال لهم الموريسك مضطرين اذا ولد لهم ولد أن يستدعوا القسيس ليعمده واذا تزوج منهم متزوج أن يستدعوه لعقد الاكليل واذا مات منهم ميت أن يستدعوه للصلاة على الجنازة وكانوا جميعاً يلتزمون الذهاب الى الكنيسة نهار الأحد فعلى هذه الحالة نشأ أولادهم فى النصرانية وكان من الاسبانيول اليوم ملايين أصلهم من المسلمين بهذا السبب . ثم يقول :

« وقد كان والدى رحمه الله تعالى يعلمنى حينئذ ما كنت أقوله عند رؤيتى للاصنام وذلك أنه قال لى : اذا أتيت الى كنائسهم ورأيت الاصنام فاقرأ فى نفسك سراً قوله تعالى : «ياأيها الناس ضُرب مثلٌ فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . وقل ياأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون» الى آخرها وغير ذلك من الآيات الكريمة وقوله تعالى :

وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما وقولهم : انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيما». فلما تحقق والدى رحمه الله تعالى انى أكتم أمور دين الاسلام عن الأقارب فضلاً عن الاجانب أمرنى أن أتكلم بافشائه لوالدتى وعمى و بعض أصحابه الاصدقاء فقط . وكانوا يأتون الى بيتنا فيتحدثون فى أمر الدين وانا أسمع فلما رأى حزمى مع صغر سنى فرح غاية الفرح وعرفنى بأصدقائه وأحبائه واخوانه فى دين الاسلام فاجتمعت بهم واحداً واحداً» اه

قلت ان الاسلام فى الاندلس حسبما يظهر من هذا الوصف كان أصبح شبيها بجمعية سرية تكتم أمرها أشد الكتمان ولا يقدر الواحد من المسلمين أن يبوح باسلامه الا لمن يكون قد ابتلى أمانته وامتحن صدقه فكانوا يجتمعون سراً اذا كان بعضهم واثقا ببعض و يتكلمون فى أمر الدين فى أشد الخفية . ثم يقول :

« وسافرت الاسفار لأجتمع بالمسلمين الاخيار من جيان مدينة ابن مالك [1] الى غرناطة والى قرطبة واشبيلية وطليطلة وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء أعادها الله تعالى للاسلام فتلخص لى من معرفتهم أنى ميزت سبعة رجال كانوا كلهم يحدثوننى بأمور غرناطة وما كان بها فى الاسلام حينئذ و بما أقوله بعد وقلته قبل فسندى عال لكونه ما تم الا بواسطة واحدة بينى و بين الاسلام بها » اه

ان من عرف كون ابن عبد الرفيع توفى عام ١٠٥٢ لا يخفى عنه أنه كان شابًّا فى أول سنى الالف للهجرة أى منذ نيف وثلثمائة سنة . و يظهر له أنه منذ نيف وثلثمائة سنة كان فى جيّان وغرناطة واشبيلية وقرطبة أناس يدينون بالاسلام سراً وهم فى الظاهر نصارى . وأغرب من هذا وجود مثل هؤلاء فى طليطلة المصاقبة لمجريط والتى كان مضى على استرجاع الاسبانيول لها يوم زارها ابن عبد الرفيع أكثر من خمسمائة سنة . أى انه بقى أناس مسلمون فى الباطن فى طليطلة من بعد أن زال عنها حكم الاسلام بخمسمائة عام . ولقد علمت من كتب الاوربيين أن اللغة العربية بقيت هى لغة الثقافة عند الاسبانيول ولغة المعاملات والأخذ والعطاء وبها تكتب الصكوك والعقود الى سنة ١٥٨٠ أى الى العهد الذى

(١) محمد بن مالك الطائى الجيانى صاحب الالفية

كان فيه ابن عبد الرفيع الأندلسي شاباً فعند ذلك صدر الأمر من الدولة الاسبانية بمنع الكتابة والكلام بالعربى . ولقد سمعت ما هو أغرب من هذا وهو أنه بقيت قرى الى أوائل القرن التاسع عشر فى نواحى بلنسية يتكلم أهلها بالعربى . أما تحجب النساء فى بعض قرى بلنسية وفى بعض قرى الجنوب مثل طريف فباقٍ الى يومنا هذا . هذا ولدىّ مجموع وثائق كبير عدة أجزاء طبعه « انجل عونزا لز بلنسيه » من أساتيذ الآداب فى جامعة مجريط اسمه « المستعربون فى طليطلة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر »

Los mozarabes de Foledo en los siglos XII y XIII

وهو يتضمن صكوك بيع وشراء نقلت عن خطها العربى الأصلى بالزنكوغرافيا وجعلت بازائها ترجمتها بالاسبانيولى

نذكر مثالاً من هذه الصكوك وهو هذا :

« اشترى ربى بو اسحق بن نحميش اليهودى من جيلة بنت فرج زوج البليوشى البنّا جميع خصها وهو النصف من الكرم المعروف بالقوجوال بحومة قرية جلنكش من قرى مدينة طليطلة وعلى الاشاعة فيه مع من يشركها بسايره وحده فى القبلة الطريق وفى الجوف جبل لابن برطال وفى الشرق كرم ابن فرنجيل وفى الغرب الطريق وفيه بابه بثمن عدته ثلاث مائة مثقال من الصروف الجارية بطليطلة حين هذا التاريخ بما فيه عشر درهما بمثقال على سنة المسلمين فى ...(هنا كلمة لم تمكن قرائتها) بيوعهم فى رمضان المعظم عام خمسة وتسعين وأربعمائة [1] وممن أشهده على بن البليوشى باجازته له وامضائه له واقراره ألاّ حق له فى شئ من المبيع المذكور و بوجه من الوجوه ولا سبب من الأسباب وانه كان لوالدته جيلة الى أن باعته حيث وصف . ابراهيم على بن سعيد بن أبو الفتح اللحنى ، وابراهيم بن وهب بن أبى .. و ... بن يوسف بن الربابى . ومحمد بن أحمد بن سعد .... وعبد الرحمن بن أحمد بن عفيف الفهرى . وأحمد بن محمد ... ومحمد بن عبد الله بن مظاهر الانصرى . وأحمد بن يوسف الانصارى وابراهيم بن عبد الرحمن بن أبى ... وسلمة بن يوسف الانصرى ويحيى بن عبد الله ... الغافقى واليك مثالاً آخر :

« اشترى عبيد الله بن أسد من خلف بن عبد الله جميع الكرم الذى له فى أول منزل

(١) أى بعد سقوط طليطلة بيد الاسبان بعشرين سنة

رزين حده فى القبـلة نهر تاجُه وفى الجوف كرم يشت الحريرى وفى الشرق كرم لأبى خالد وفى الغرب غروسات السلطان أيده الله بثمن عدته ستون ديناراً من الـبريزات الجارية بطليطلة حين هـذا التاريخ ، وفى شهر نونبر الـكاين فى سـنة ثلاثين ومائة وألف من تاريخ الصفر

«ومما وجب الحاقه الى المدخل للـكروم الموصوف فوق هذا على باب الـكروم الذى لرد ريقه قسيس السلطان . . الذى هو من ليون والبـاب المذكور مشترك بينهما اذ كان الـكرم فى القرع واحد وعلى ذلك كله يقع الاشهاد

«عبد الرحمن بن زكريا . يوان بن خلف شاهد . سلم بن زكريا وكتب عنه. سليمان ابن عمر شاهد وكتب عنه . وعلى بن الحرير . عبد العزيز بن خير. ولبرفيم . . . وعبدالله ابتوال . وسليمان بن المجاله . اليان بن سعيد . وعبد الملك بن عبد الملك وكتب عنه وعليه شهد عندى . وبخط عجمى جليانش بيطرس تشتا . وبخط عجمى سيكاله بن مشارك شاهد وعلى كل اسم من العجمى معلم شهد عندى وبالعربى خالد بن اصتر »

واليك مثالاً ثالثاً :

« اشترى خير بن ركوى من يحي بن عبد السلام جميع الدار التى له بحومة رحبة القشالى حد الدار فى الشرق دار خلف بن جواد وفى الغرب دار جلبرت الفرنجى وفى القبلة دار أبى الحسن بن زكرى وفى الجوف دار مفرج بن عثمان بثمن عـدته أربعون ديناراً من الدنيرات الجارية بطليطلة حين هـذا التاريخ فى شهر ابريل الـكاين فى سـنة واحد وثلاثين ومائة وألف من تاريخ الصفر

«وشهود الأصل فيه وفرج بن عبد الله . ومسعود زرقون شهد وكتب.عبد الرحمن ابن يحي شاهد على ذلك . وعيسى بن الحسن شاهد وكتب عنه بأمره . وعيشون بن يحي شاهد . هذيل بن حكم شاهد وكتب . زكرى بن عثمان شاهد وكتب عنـه . وبالاعجمى يشتش فليش بطره تشتش صحت هـذه النسخة (الخ) فى العشر الأوسط من شهر شتنبر سـنة ثلاثين ومائتين وألف للصفر . يوان بن يليان السقلى شهد . ويوانش بن مقايل بن عبد العزيز المشنارى . وباطره بن عمر بن غالب بن القلاس »

وهذه المجموعة تشتمل على ١١٥١ صكاً يفهم الناظر منها أن التعامل كان فى طليطلة

بعد استيلاء الاسبان عليها [1] لا يزال باللغة العربية وأن أكثر أهلها كانوا عربا أو مستعربين وأن نزراً منهم كانوا غير مستعربين وكانوا لا يعرفون أن يوقعوا أسماءهم بالعربي فكان يكتب أنهم وقعوا « بالعجمي » ومما يدل على أن العروبة قد كانت هي السائدة انه ان كان ثمة شاهد أو بائع أو مشتر افرنجي جرى تعريفه بلفظة « الافرنجي » ويرى الناظر في هذه المجموعة أن أناساً أسماؤهم مسيحية وأسماء آبائهم أو أجدادهم اسلامية مما يدل على كونهم تنصروا . ثم انه كان الطقس الكنسي في طليطلة بالعربي rite mozarabe وكان يختلف عن الطقس اللاتيني في ثلاث عشرة نقطة .

ولقد اطلعت في جزيرة ميورقة على صك مقاسمة الاسبانيول لأملاكها وأراضيها بعد أن استولوا عليها سنة ٦٢٨ وهو محرر بالعربي أيضاً مع أنه صك تقاسم بين جماعة لسانهم غير اللسان العربي . وهذا الصك محفوظ في خزانة البلدية في « بالما » على أنه لا يستغرب كل هذا أيام كان العهد بالعرب والعربية حديثاً . ولكن اللسان العربي بقي لسان أهل طليطلة الى سنة ١٥٨٠ وفي ذلك العهد كان يذهب اليها ابن عبد الرفيع فيجد اخواناً له باقين على الاسلام في الخفية . وقيل لي ان أحد المغاربة وقع في هذه الأيام الأخيرة ببعض قرى طليطلة فوجدهم يذبحون الأكباش يوم عيد النحر عندنا ويقولون انها عادة توارثوها عن آبائهم

ثم نعود الى كلام ابن عبد الرفيع الأندلسي فهو يقول :

« فباجتماعي بهم حصل لي خير كثير ولله المنة وقد قرأوا كلهم رحمهم الله على شيخ من مشايخ غرناطة أعادها الله للاسلام يقال له الفقيه اللوطوري رحمه الله تعالى ونفعنا به فانه كان رجلاً صالحا ولياً لله فاضلاً زاهداً ورعا عارفاً سالكاً ذا مناقب ظاهرة مشهورة وكرامات زاهرة مأثورة قد قرأ القرآن الكريم في مكتب الاسلام بغرناطة قبل استيلاء العدو عليها وهو ابن ثمانية أعوام وقرأ الفقه وغيره على مشايخ أجلاء حسب الامكان لأن الوقت ضاق في السر والاعلان لشدة القتال والحصر الذي كان عليهم مع صغر سنه . ثم بعد مدة يسيرة انتزعت غرناطة من أيدي المسلمين أجدادنا وقد أذن العدو في ركوب البحر والخروج منها لمن أراده و بيع ما عنده واتيانه لهذه الديار الاسلامية أبقاها الله تعالى عامرةً بالاسلام الى

(١) سنة ٤٧٥ هجرية و١٠٨٥ مسيحية

يوم الدين وذلك فى مدة ثلاثة أعوام . ومن أراد أن يقيم على دينه وماله فليفعل بعد شروط اشترطوها والزامات كتبها عدو الدين على أهل الاسلام . فلما تحركوا لذلك أجدادنا وعزموا على ترك ديارهم وأموالهم ومفارقة أوطانهم للخروج من بينهم وجاز الى هذه الديار التونسية والحضرة الخضراء بغتةً من جاء اليها حينئذٍ ودخلوا فى زقاق الأندلس المعروف بهذا الاسم وذلك سنة اثنتين وتسعمائة وكذلك للجزائر وتطاون وفاس ومراكش وغيرها ورأى العدو العزم فيهم لذلك نقض العهد فردَّهم رغم أنوفهم من سواحل البحر الى ديارهم ومنعهم قهرا عن الخروج واللحوق باخوانهم وقرابتهم لديار الاسلام . وقد كان العدو يظهر شيئاً ويفعل بهم آخر مع أن المسلمين أجدادنا استنجدوا مراراً ملوك الاسلام كملك فاس ومصر حينئذٍ فلم يقع من أحدهما الا بعض مراسلات ليقضى الله أمراً كان مفعولا» اهـ

قلت الذى يظهر من خبر الشيخ الصالح اللوطورى رحمه الله أنه نشأ وشب تحت حكم الاسبانيول لكنه كان يعلم فرائض الاسلام سراً بقدر طاقته بعد أن ألغى الاسبانيول شعائر الاسلام من كل الأندلس وانه هو الذى أقرأ الأشخاص السبعة الذين ميزهم ابن عبد الرفيع ممن كان يجتمع بهم ويتحدث معهم فى النجوى بأمر الاسلام . وأما مسئلة اذن العدو للمسلمين بالرحيل ثم منعه اياهم بعد الاذن فقد جاء هذا فى التواريخ وربما كان العدو توجّس خيفة أنه ان خلت الأندلس من المسلمين وصاروا كلهم فى بر العدوة انقضوا على السواحل الاسبانية وأنزلوا بها المصائب أخذاً بالثأر هذا فضلا عن أن خروجهم جميعاً يخسر الأندلس من جهة المال والجبايات ويخرب البلاد . ثم انه كان فى نية فرديناند وايزابلا اكراههم جميعاً على ترك الاسلام فلم يكن الاسبانيول بعد هذا يخشون بقاء أناس على الاسلام فى اسبانية . وأما استنجاد الأندلسيين بملوك الاسلام وعدم اجابتهم الا بالكلام فان هذه النازلة وقعت فى عصر كانت فيه دول العرب بانحطاط لا تكاد تسد الفتوق التى عندها فى داخل بلادها فضلا عن أن تسد الثغور البعيدة . وأما دولة الترك فكانت لا تزال قوية الا أنها كانت فى الجهاد الدائم مع الدول الأوربية كما لا يخفى فلم يكن من السهل عليها التفرغ لأمر الأندلس . وبرغم هذا قد ثبت أن خير الدين بربروس وغيره من ولاة الجزائر طالما أرسلوا نجدات بالمال والرجال الى مسلمى جبال البشرات المشرفة على البحر .

ثم قال :

« ثم بقى العدو يحتال بالكفر عليهم غصباً فابتدأ يزيل لهم اللباس الاسلامى والجماعات والحمامات والمعاملات الاسلامية شيئاً فشيئاً مع شدة امتناعهم والقيام عليه مراراً وقتالهم اياه الى أن قضى الله سبحانه ما قد سبق فى علمه فبقينا بين أظهرهم وعدو الدين يحرق بالنار من لاحت عليه أمارة الاسلام ويعذبه بأنواع العذاب فكم أحرقوا وكم عذبوا وكم نفوا من بلادهم وضيعوا من مسلم فانا لله وانا اليه راجعون حتى جاء النصر والفرج من عند الله سبحانه وتعالى وكان ذلك سنة ثلاث عشرة وألف لهجرته ﷺ » اه

قلت من أدل الدلائل على وجوب تمسك المسلمين بأزيائهم ومشخصاتهم القومية وعدم استخفافهم بهذا الأمر ان أعداءهم عندما يحاولون اخراجهم من الاسلام يبدأون باجبارهم على تغيير أزيائهم وأوضاعهم التى نشأوا عليها . وذلك كما فعل الاسبانيول من اكراه مسلمى الأندلس على نبذ اللباس الاسلامى وترك الذهاب الى الحمامات وما أشبه ذلك فالعمل الذى عملته حكومة أنقرة بمسلمى تركيا فى هذا العصر من اكراههم على لبس البرنيطة ودق عنق من لم يلبسها أو من انتقد لبسها ان هو الا مرحلة من مراحل خروج المسلمين الأتراك من الدين الاسلامى وعمل مشابه لما فعله الطاغيتان فرديناند وايزابلا بمسلمى الأندلس بين يدى حملهم على النصرانية . نعم ان اللباس لا يتعلق بالدين والدين لا يتعلق باللباس ولكن لكل أمة مشخصات قومية ظاهرة ذات تأثير كبير فى أحوالها الروحية الباطنة ومن ينكر ذلك يكن مكابراً ، ولو لا هذا التأثير ما كان الاسبانيول لتسهيل خروج مسلمى الأندلس من الاسلام بادروا باجبارهم على تغيير ملابسهم وعاداتهم وايم الله لو لا متانة الأمة التركية وشدة اعتصامها بحبل الاسلام لكان تأثير الأوضاع الجديدة التى حملتها عليها أنقرة عميقاً جداً ولا أزال أقول انه ان استمرت هذه الحالة مدة طويلة فى تركيا كان على اسلام الترك خطر عظيم لا سيما بعد الغاء أنقرة كل تعليم دينى اسلامى من مكاتب الحكومة .

ثم قال :

« خرج بعض أحبابنا واخواننا وهو الفقيه الاجل المدرس الشريف لامه أبو العباس أحمد الحنفى المعروف بعبد العزيز القرشى ومعه أحد اخواله رحمهم الله تعالى الى

مدينة بلغراد من عمالة القسطنطينية العظمى فالتقيا بالوزير مراد باشا وزير السلطان المعظم المرحوم السلطان أحمد ابن السلطان محمد نجل آل عثمان نصرهم الله تعالى وأيدهم فأخبراه بما حل باخواننا الأندلسيين من الشدة بفرانسة وغيرها فكتب أمراً لصاحب فرانسة دمرها الله باعلام السلطان نصره الله بأمره بأن يخرج من كان عنده من المسلمين الأندلسيين وخدام آل عثمان و يوجههم اليه فى سفن من عنده معيا يحتاجون اليه »

قلت طالما ذكر المبغضون للدولة العثمانية تقصيرها فى نجدة مسلمى الأندلس الذين حلّ بهم كل ماحلّ وانتزعت من أيديهم مملكة غرناطة أيام كانت هى فى عزها وعنجهية أمرها. وأنا لاأبرئ الدولة العثمانية من تبعة هذا التقصير واقول انها برغم ما كانت عليه من الحروب فى البلقان ومن مجاهداتها يومئذٍ للالمان والمجر والبولونيين والبنادقة وغيرهم كان فى استطاعتها أن تجرد جيشاً ينزل فى سواحل غرناطة ويفرج عمن هناك من المسلمين ولكن قدّر الله أن لا تفعل ذلك وكان أمر الله قدراً مقدوراً ولكن مما لا يجوز انكاره أن أتراك الجزائر سواء لعهد بربروس أو من بعده كانوا لا يفتأون ينجدون ثوار المسلمين فى جبال البشرات المتدلية الى البحر

ثم يقول :

« فلما قرئ الأمر السلطانى فى ديوان الفرنسيس فسمعه من كان عنده مرسلاً من قبل صاحب الجزيرة الخضراء وهو اللعين فيليبو الثالث فأرسل لسيده وهو يخبره بالواقع . وأن السلطان أحمد نجل آل عثمان أرسل أمره الى فرانسا وأمر صاحبها بأن يخرج من كان عنده من الأندلس فقبل كلامه وأمر باخراج المسلمين وأذن لمن جاء من الأندلس بان لا بأس عليهم وان يركبوا عنده فى سواحله مراكبه ويبلغهم الى حيث شاءوا من بلاد المسلمين » اه

قلت ان السلطان أحمد نجل آل عثمان الذى ذكره ابن عبد الرفيع الأندلسى هو السلطان أحمد الأول ابن السلطان محمد الثالث العثمانى وهو السلطان الرابع عشر من سلسلة آل عثمان ولد سنة ٩٩٨ للهجرة (١٥٨٩) وتولى السلطنة وهو ابن أربع عشرة سنة وبقى فيها ١٤ سنة اذ توفى فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٦١٧ وهو ابن ٢٨ سنة لا غير . وله فى استانبول جامع السلطان أحمد العظيم وسبيل الماء الذى فى الطوبخانه .

«وفى ايامه عصى أهل البغدان وقمع ثورتهم ونشبت الحرب مع العجم وعقد معهم الصلح وتغلب اسطوله على اسطول فرسان مالطة وذلك فى بحر قبرص ودمره وكان مراد باشا صدراً أعظم فى ايامه فاخضع الثوار الذين كانوا عصوا الدولة وهو الذى بواسطته أصدر السلطان أحمد أمره بانقاذ الأندلسيين . وأما ملك فرانسة الذى فى ايامه التجأ الى فرانسة الموريسك (أى مسلمو الأندلس) الذين أكرهوا على التنصر فهو هنرى الرابع المتوفى سنة ١٦١٢ وكان هذا الملك قد قبلهم فى بلاده على شرط أن يقبلوا الدين الكاثوليكى . فلما أرسل اليه السلطان أحمد العثمانى باركابهم البحر الى بلاد الاسلام لم يسعه الا الاجابة وأركبهم البحر الى البلاد التى أرادوها من بلاد الاسلام و بقيت منهم بقايا فى فرانسة اندمجوا فى أهلها»

ثم يقول .

« فلما أحس بهذا الأمر عدو الله فيليبو صاحب اسبانية دخله الرعب والخوف الشديد وأمر حينئذٍ بجمع أكابر القسيسين والرهبان والبطارقة وطلب منهم الرأى وما يكون عليه العمل فى شأن المسلمين الذين هم فى بلاده كافة فبدا الشأن فى أهل بلنسية فأخذوا الرأى وأجمعوا كلهم على اخراج المسلمين كافة من مملكته وأعطاهم السفن وكتب أوامر وشروطاً فى شأنهم وفى كيفية اخراجهم وشدد على عماله بالوصية والاستحفاظ على كافة المسلمين من الأندلس . نعم أريد أن أذكر لك نبذة يسيرة اختصرتها وترجمتها من جملة أسباب ذكرها الملك الكافر أبعده الله فى أوامره التى كتبها فى شأن اخواننا الأندلسيين حين اخراجهم من الجزيرة الخضراء لتكون على بصيرةٍ من أمرهم وتعلم بعض الاسباب التى أخرجوا من أجلها على التحقيق لا كما يزعم بعض الحاسدين وليؤيد ذلك ما قدمناه آنفاً من أمر السلطان أحمد المنصور بالله نجل آل عثمان نصرهم الله آمين ونكمل الفائدة ولئلاً يساء الظن بنا معشر الأندلسيين فأقول وبالله التوفيق : قال الملك الكافر أبعده الله تعالى وزلزله آمين : « لما كانت السياسة السلطانية الحسنة الجيدة موجبة لاخراج من يكدر المعاش على كافة الرعية النصرانية فى مملكتها التى تعيش عيشاً رغداً صالحاً والتجربة أظهرت لنا عيانا أن الاندلسيين الذين هم متوالدون من الذين كدروا مملكتنا فيما مضى بقيامهم علينا وقتلهم أكابر مملكتنا والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين أظهرهم وقطعهم لحومهم وتمزيقهم أعضاءهم وتعذيبهم اياهم بأنواع العذاب الذى لم يسمع فيما تقدم مثله مع عدم توبتهم مما

فعلوه وعدم رجوعهم رجوعا صالحا عن قلوبهم لدين النصرانيــة وانه لم ينفع فيهم وصايانا ورأينا عيانا أن كثيراً منهم قــد أحرقوا بالنار لاستمرارهم على دين المسلمين وظهر منهم العناد بعيشهم فيه خفيةً واستنجادهم كذلك عون السلطان العثمانى لينصرهم علينا وظهر لى أن بينهم و بينه مراسلات اسـلامية ومعاملات دينية وقد تيقنت ذلك من اخبارات صادقة وصلت الىَّ ومع هذا ان أحداً منهم لم يأت الينا ليخبرنا بما هم يدبرونه فى هذه المدة بينهم وفيما سبق من السنين بل كتموه بينهم علمت بذلك ان كلهم قد اتفقوا على رأيٍ واحـد ودين واحد ونيتهم واحـدة وظهر لى أيضا ولأرباب العقول والمتـدينين من القسيسين والرهبان والبطارقة الذين جمعتهم لهذا الأمر واستشرت ان من ابقائهم بيننا ينشـأ فساد كبير وهول شديد بسلطلتنا وأن باخراجهم من بيننا يصلح الفساد الناشئ من ابقائهم بمملـكتى فاردت اخراجهم من سلطتنا جملة ليزول بذلك الـكدر الواقع والمتوقع للنصارى الذين هم رعيتنا طائعين لأوامرنا وديننا ورميتهم الى بلاد المسلمين أمثالهم لـكونهم مسلمين » انتهى

قلت ظهر من هنا جليا انهم كانوا نصروهم كرها والملك معترف بذلك ومعترف بأكثر من ذلك وهو أنهم كانوا يحرقون بالنار من يلحظون عليه انه كان باقيا مسـلما فى السر . وهذا أفظع عمل عرفـه البشر فى التاريخ . والملك يعجب أيضا من كونهم راسلوا السلطان ابن عثمان سراً كمسلمين يلتمسون نجـدته مع ان ملك اسبانية كان يظن انهم بعـد ان أكرهوا على النصرانية ومضت عليهم هذه المدة الطويلة نحو من مائة سنة وتربى أبناؤهم وأحفادهم فى مدارس النصارى قـد آمنوا بالدين المسيحى ايمانا خالصا و زال كل أثر للاسلام من قلوبهـم فما راع الملك الا والأخبار تأتيـه بأن هؤلاء القوم لا يبرحون على دين آبائهم فى دخائل نفوسهم وانهـم يدبرون أموراً فيما بينهم ولا يوجـد منهم من يأتى ويخبر حكومة الاسبانيول بتدابيرهم الخفية مما يدل على كونهم بأجمعهم لا يزالون مسلمين فلهذا أجمع فى الآخر طردهم

ثم يقول ابن عبد الرفيع :

« ولم أتعرض لذكر شروط كتبها ودققها فانظر رحمك الله كيف شـهد عدو الدين الملك الـكافر بأنهم مسـلمون واعترف أنه لم يقـدر على ازالة دينهم من قلوبهم وانهم متمسكون كلهم به مع انه كان يحرق منهم من ظهر عليه الدين ثم وصفهم بالعناد لرؤيتـه

فيهم لوائح المسلمين وأماراتهم فأىّ علامة أكبر من صبرهم على النار لأجل دين الحق ومن استنجادهم ملك دين الاسلام المؤيد لحماية الدين أمير المسلمين السلطان أحمد نجل آل عثمان نصرهم الله تعالى فهذا غاية الخير والعز والبركة لهذه الطائفة الطاهرة الأندلسية التى قال فيها شيخنا الأستاذ القطب الغوث سيدى أبو الغيث القشاش نفعنا الله تعالى به دنيا وأخرى فى بعض مكاتيبه التى كان يكاتبنى بها فى بعض شأنهم حين قدومهم الى هذه الديار أدامها الله للاسلام فقال لى : «وسلم لى على هؤلاء الأنصار الأطهار الأخيار فانه لا يحبكم الا مؤمن ولا يبغضكم الامنافق» انتهى بلفظه . ويؤيد كلام الأستاذ رحمه الله تعالى الأحاديث الشريفة السابقة فى أول هذا الكتاب فى الفصل الأول منه فى النوع الثالث منها كحديث سلمان الفارسى رضى الله عنه وحديث على رضى الله عنه وهو قوله ﷺ : لايبغض العرب الا منافق وغيرهما وكما جاء فى شأن قريش لثبوت نسب أكثرهم منهم ومن الأنصار الخزرج والاوس وغيرهما تغليباً فضلاً عمن هو منهم من الأشراف من ذرية الحسن والحسين والعباس وغيرهم رضى الله عنهم من بنى هاشم كما سيأتى ذكرهم ان شاء الله تعالى مع ما تقدم والله سبحانه وتعالى أعلم و به التوفيق فخرجوا كلهم سنة تسع عشرة وألف [1] ووجد فى دفاتر السلطان الكافر أبعده الله تعالى أن جملة من أُخرج من أهل الاندلس كافة نيف وستمائة ألف نسمة كبيراً وصغيراً فكانت هذه الواقعة منقبة عظيمة وفضيلة عجيبة لجماعتنا الاندلسيين زادهم الله شرفاً بمنّه وأمر أيضاً باخراج من كان مسجوناً فى كافة مملكته وكل من كان أمر باحراقه فأخرجه وعفا عنه وزوّده وأرسله الى بلاد الاسلام سالماً» اه

قلت قد حصحص الحق وظهر أن آل عثمان لم يهملوا تماماً مسلمى الاندلس وأن خلاص هذه الستمائة ألف الاخيرة من نفوسهم انما كان على يد السلطان أحمد الاول رحمه الله وكان مشهوراً بالتقوى والورع والحمية الدينية

هذا ولما كنا شارعين فى تأليف كتاب اسمه « الحلة السندسية فى الرحلة الاندلسية » يتضمن رحلتنا منذ سنتين الى اسبانية وما شاهدناه فيها من آثار العرب وعلمناه من تاريخهم فقد تركنا استقصاء أخبار الموريسك لذلك التأليف وانما نحب أن نلحق بهذا

(١) رواية نفح الطيب أن الخروج الأخير كان سنة سبع عشرة وألف فيجوز أن يكون وقع تحريف فى اللفظة لما بين تسع وسبع من التشابه

المبحث فصلا جـديداً عثرنا عليـه فى جريدة « آربايترتسايتونغ » Arbeiterzeitung جريدة العملة النمسوية الصادرة فى فينّا عددها المؤرخ فى ٣ يناير سنة ١٩٣٢ قد أتى فيه بمناسبة الكلام عن ثورات أهل العمل على خبر موريسك بلنسية فى أوائل القرن السادس عشر فقال :

«سنة ١٥١٩ ثار الاهالى فى مملكة بلنسية من بلاد أسبانيا وصادف ذلك زمان ثورة « الكومونيروس » فى قشتالة وثورة الفلاحين فى ألمانيا . وبدأت ثورة بلنسية هذه بانتقاض أهل العمل . ولم يكن انتقاضهم على الملك نفسه بل على النبلاء أصحاب الاراضى . وكانت خلاصة مطالبهم المساواة فى الحقوق مع الطبقات العليا وكان يتقدمهم يوان لورانزو قائداً وما زالوا حتى أدخلوا اثنين من زعمائهم أعضاء فى الهيئة الحاكمة فى بلنسية . ولما كانت بلنسية تحت خطر غارات القرصان دائماً كان جميع الاهلين يحملون السلاح بدون حرج فساعد ذلك على نجاح الثورة كما أن العنف الذى كان يجرى من الحكومة فى قمعها قد زادها اشتعالا وانتهى الامر بأن الاهالى تغلبوا على الحكومة والنبلاء وطردوهم من بلنسية . ولما كان الموريسك يومئذ مستعبدين يعملون فى أراضى النبلاء كانوا همفى الجهة المعارضة لهذه الثورة ولما كانت هذه الأمة مختلفة عن الثائرين فى الجنس والدين وكانت تقاوم الثائرين بالسلاح نشأ عن ذلك مذابح تقشعرّ منها الأبدان وانفجر بركان التعصب الدينى بصورة هائلة كما لا يخفى

«ولقد كان العرب فتحوا بلنسية سنة ٧١٥ مسيحية و بقيت من جملة ولايات قرطبة مركز الخلافة . وفى أيام ملوك الطوائف استقلت بنفسها وذلك سنة ١٠٣١ ثم افتتحتها مملكة اراغون سنة ١٣١٩ و بقيت فى يدها و بقى العرب فى الأراضى مزارعين بعد ان كانوا مالكين وصار الملك للنبلاء . وكان هؤلاء العرب ذوى مقام عند الاسبانيول بسبب حسن قيامهم على الاملاك ومعرفتهم التامة بالزراعة وكانوا يؤدون ضرائب فادحة ولا يتكادهم ذلك لنشاطهم فى العمل . ومن هناك جاء المثل الاسبانيولى : حيث لا عرب لا فائدة

Mi entras mas moros , mar ganancia

« فكان النبلاء أصحاب الأملاك يكرهون سياسة الكنيسة التى كانت تعمل دائما لتحويل العرب الى النصرانية لأن تنصر العرب كان يحرمهم فوائد جزيلة وسنة ١٥١٥

أ مكنهم بشدة الحاحهم الحصول على أمر من شرلكان بأن لا يجبر أحد من العرب على التنصر و بأن لا يطرد أحد منهم فى كل أرض بلنسية . وهذا العضد الذى عضده النبلاء للعرب فى أمر حريتهم الدينية جعل هؤلاء ينتصرون لهم بالسلاح عند ماثار بهم حزب العَمَلَة

«فتحولت المصارعة بين العَمَلة والنبلاء الى مصارعة بين المسيحيين والمسلمين بهذا السبب وفى وقعة « غانديا » فى يوليو ١٥٢١ بين الحكومة والثائرين كان ثلث العسكر من العرب . ولهذا لأجل أن ينتقم الثائرون من النبلاء تعمَّدوا تعميد المسلمين بالقوة القاهرة لأن المسلمين المتنصرين كانوا يحصلون على حقوق المسيحيين أنفسهم و يعودون مالكين بعد ان كانوا مزارعين وترتفع عنهم ضريبة الجماجم الخاصة بالمسلمين . فصار الثوار يجوبون البلاد و ينصّرون أىّ مسلم صادفوه بالاكراه و ينهبون مزارع النبلاء . وقد ازداد ذلك بعد وقعة « غانديا » التى كان الظفر فيها للثوار تحت زعامة « ڤيسنتى بيريس » فكان حزب العَمَلة يزحفون و يجمعون المسلمين بالقوة و يأتى القسيسون فيرشّونهم بماء المعمودية وما زال الأمر كذلك حتى تغلبت الحكومة على الثوار وذلك بعد وقعة شاطبة التى دافع فيها الثوار عن تلك البلدة دفاع الليوث وقتل فيها « بيريس » زعيمهم . وقد كان المأمول ان يحصل الفرج للمسلمين بتغلب الحكومة فحصل العكس وذلك بأن المسلمين بعد تنصيرهم كرهاً صاروا تحت نظر ديوان التفتيش الذى تأسس سنة ١٤٨٠ وكانت مهنة هذا الديوان حرق من لم تثبت نصرانيته بالنار . والحال أن جميع أولئك المسلمين الذين تنصروا بالقوة لم يكونوا يعلمون من النصرانية قليلاً ولا كثيراً . فكان وقوعهم فى الاثم فى نظر ديوان التفتيش من أسهل الأمور . و بدأ اضطهاد هؤلاء المساكين بشكل لم يسبق له مثيل . وكان النبلاء يحاولون الدفاع عن مزارعيهم المسلمين فيسترضيهم رجال ديوان التفتيش بأصناف المنح حتى لايعارضوهم فى عملهم الوحشى بحق المسلمين . و بعد ان كان المتنصرون متمتعين بحقوق النصارى الاصليّين عادت الحكومة فسلبتهم هذه الحقوق وصاروا يؤدون الضريبة الخاصة بهم مثل ذى قبل ولم يعودوا أحراراً فى منازلهم . وما برحت هذه الأعمال الوحشية تتفاقم بحق المسلمين حتى أخذت الرأفة بعض الاساقفة فراجعوا البابا سائلين اياه اذا كان التنصير تحت التهديد بالحريق جائزاً . وكان البابا بونيفاس الثامن فأجابهم: « بأن التهديد

بالموت لايعد اكراهاً يبطل مشروعية التنصر[١] وأن الاكراه لا يكون اكراها الا اذا سيق المسلم الى المعمودية ويداه موثقتان ورجلاه مقيدتان وكان يصيح بأعلى صوته محتجاً على هذا العمل » وكان البابا يعلم جيداً أن المسلم الذى كان يحتج على تنصيره بهذه الصورة لم يكن يرفع صوته حتى يسقط صريعا

«فى هذه السنين التى وقعت فيها هذه الفظائع فر خمسة وعشرون الفاً من مسلمى بلنسية الى افريقية فلحق الضرر بالنبلاء فى مزارعهم وراجعوا الامبراطور شارلكان بشدة فاصدر امره بتأليف لجنة لحل هذه المشكلة . فبعد مذاكرات طويلة قررت هذه اللجنة قراراً غريباً جداً وهو ان تعميد المسلم بالقوة ذنب يعاقب فاعله الا انه لاينبغى ان يزول به اثر التعميد . والمسلم المعمد بالقوة يجب ان يبقى نصرانياً[٢] وان الله هكذا يكون جعل من الشر خيراً وبالاختصار رجع المسلمون الى نظر ديوان التفتيش وهم يجهلون ابسط قواعد المسيحية

«فأخذ هذا الديوان ينقب وينقر عن الكلية والجزئية من اعمال المسلمين ومنع جميع شعائرهم الدينية بل منع جميع عاداتهم ومذاهبهم فى الحياة ولو لم يكن لها تعلق بالدين وعاقب على ذلك . وكان يعاقب أشد العقاب من عَلم عنه انه لا يأكل لحم الخنزير أو الميتة أو عرف عنه انه لا يشرب الخمر أو قيل انه ادرج ميتة فى كفن نظيف . وكانت النظافة فى ذاتها ذنباً يعاقب عليه . وفى سنة ١٥٩٧ وجد فى طليطلة المسمى « موريسكو بارتولوم شانجه » فلحظ عليه القوم انه شديد التطهر فعذبوه عذاباً شديداً ومازالوا يعذبونه حتى اقر بانه يتطهر عن عقيدة فحكموا عليه بالسجن المؤبد وبضبط جميع املاكه . ووجدوا قرآناً عند عجوز اسمها « ايزابلا زاسيم »[٣] فقالت انها لاتقدر ان تقرأه فلم ينفعها هذا القول وعذبوها ولكن لما كان عمرها تسعين سنة اكتفوا من اهانتها بحملها على حمار والطواف بها فى الشوارع وعليها غطاء مكتوب عليه اسمها وإثمها ... ثم زجوها فى السجن وبقيت فيه الى ان علموها قواعد المسيحية . وقد عزبت نساء كثيرات على اطعامهن لحم الميتة للكلاب

---

(١) ليتأمل القارىء فى صدق هذا البابا وحرية وجدانه ...

(٢) ليتأمل القارىء فى هذا الرثاء وهذا التعليل الفارغ ونحمد الله على ان تاريخ الاسلام خال من المعرات التى تلوث بها غيره فى باب الحرية الدينية

(٣) لعلها محرفة عن قاسم أو جاسم

بدلاً من اكلهن له . وكان من جملة الذنوب تخضيب الاظافر بالحنّاء. وكان اشد شئ على الموريسك ماكانوا يكرهونهم عليه من دفن موتاهم فى وسط الكنائس ودينهم يأمرهم باضجاعهم تحت التراب . وكانوا يعاقبونهم بالغرامات الثقيلة وبانتزاع املاكهم منهم واذا تكررت التهمة فبالحرق بالنار . وكان الذى ينجو منهم من الموت يحلّف يمينا مؤكدة بأن لايخبر أبداً بما جرى معه . وكان ديوان التفتيش يعمل العِملّين بالمسلمين سراً وكان منهم من يختفى اشهراً . وكان منهم من يختفى سنين ولايعلم احد به وكثيراً ماكان يؤتى بالرجل فيجد امرأته بعد ان كان فقدها ويؤتى بالاب فيجد اولاده بعد ان كان فقدهم وذلك التلاقى بينهم عند محل الحريق . وقد حدث ان ابنة عمرها ١٩ سنة سعت بوالديها واهلها لدى ديوان التفتيش فاتوا بالاب فلم يقر بشئ فاحرقوه واما الام فاقرّت فحكموا عليها بالسجن المؤبّد . وكانت ضحايا وشاية هذه البنت ٢٥ شخصا منهم أربعة ماتوا حرقاً بالنار والباقون حكم عليهم بالسجن وأما أملاكهم فقد ضبطت بأجمعها

« ولقد انتهت هذه الفظائع الوحشية باجلاء جميع الموريسك عن اسبانية وقد كانت ثورة العملة فى بلنسية هى السبب فى اكراههم على التنصُّر جوعاً وتمسّك ديوان التفتيش بذلك لأجل اتمام عمله الشنيع » انتهى

قلت ان مبدأ « الغاية تبرر الواسطة » معروف عند هؤلاء الجماعة وليس منحصراً فى رهبانية الجزويت وحدهم . وتحريره أن الدخول فى الدين الكاثوليكى هو خير محض وخلاص من عذاب جهنم . وعليه فاذا ساءت الوسائل المستعملة لادخال غير الكاثوليك فى الكثلكة فلا بأس لأن الغاية حسنة ... وهكذا أجازوا لأنفسهم ان يعملوا ماعملوه فى اسبانية بالمسلمين واليهود وفى جنوبى فرنسة وفى بلاد اخرى بالمبتدعين الذين يسمونهم بالهراطقة . وكل هذا جرى بأمر الباباوات ورؤساء الكنيسة وقلّما نازع فيه منازع منهم . ولهذا لما جرت فى السنة الماضية مناقشة بين حزب الفاشيست فى ايطاليا والفاتيكان من أجل قول موسولينى رئيس الفاشيست ورئيس الحكومة : انه يجب على الفاشيست ان يكرهوا أعداءهم وقول جريدة الفاتيكان ان هذا مخالف لمبادئ المسيحية اضطر موسولينى أن ينشر ردّاً تحت امضاء أحد أعوانه ذكر فيه مبادئ الكنيسة بشأن أعدائها وعدّد أسماء الباباوات الذين أصدروا الأوامر بالقتل العام والحرق بالنار وأجازوا كل ألوان العذاب لأجل مجد

الرب... من هؤلاء الباباوات يوليوس واينوشنيوس وغريغوريوس واسكندر بورجيا وغيرهم

ومن طالع تاريخ هؤلاء وبخاصة تاريخ البابا اسكندر بورجيا واولاده وعلم ما كان يجرى من الفظائع بامره فى نفس رومة لم يعجب مما جرى بامره وأمر اخوانه على مسلمى الأندلس . ولاجدال فى صحة هذه التواريخ لأن رواياتها متواترة وقد اجمع عليها المؤرخون حتى من انفس الكاثوليك

ثم اننا نعود الى موضوع مسلمى الاندلس فنقول انه مما لامرية فيه أنه لما خرجوا من اسبانية خروجهم الأخير سنة ١٠١٩ أو ١٠١٧ وكانوا ستمائة الف نسمة لم يكونوا هم جميع المسلمين الباقين بالاندلس بل بقيت منهم بقايا كثيرة فى كثير من المدن والقرى انتهى أمرهم بان اندمجوا فى الاسبانيول وصاروا نصارى فعلاً . ويقال ان رئيس جمهورية اسبانيا الحالى « السنيور القلعة زمورة » Alcala Zamora هو من سلالة العرب . ويقال ان رئيس نظارها الحالى « السانية » Azania هو أيضا من أصل عربى وان اناساً من اسبانيول شاطبة ينتسبون الى الامام الشاطبى صاحب القراءات. وقد شاهدت اناساً من بلنسية قالوا لى ان اصلهم عربى . وشاهدت من غرناطة رجلاً اسمه « الفخارو » قيل لى ان اصله عربى أى « الفخار » وهذه اسرة معروفة فى الاندلس وقيل لى انه يوجد فى مالقة من ذرية بنى سراج . والاسبانيول يقولون لهم « سراخ » على عادتهم فى قلب الجيم خاء . ولقد وجدت ذكر اعقاب السراجيين هؤلاء فى كتاب رحلة الوزير الغسانى الى اسبانية فى ايام السلطان الكبير مولاى اسماعيل صاحب المغرب . وكنت قرأت ترجمة هذه الرحلة باللغة الافرنسية وأعجبتنى جداً على كونى لم أطالع أصلها العربى . ثم اتصل بعلم المؤرخ الكبير العلامة النحرير الشريف الاثيل الاثير مولاى عبد الرحمن بن زيدان رئيس العائلة السلطانية العلوية بالمغرب أدام الله عزها ووفقها لخدمة الاسلام والمسلمين انى أبحث عن رحلة الوزير الغسانى الاندلسى الكاتب الذى سفر لعهد مولاى اسماعيل الى اسبانية فتفضل بكرم اخلاقه بان أمر باستنساخ نسخة من هذه الرحلة بنصها العربى الأصلى واهدانى اياها فى جلد محلّى بالذهب أطال الله بقاءه ونفع به وعلمت ان الوزير الغسانى المذكور توفى فى فاس سنة تسع عشرة ومائة والف . واما اسم رحلته فهو « رحلة الوزير فى افتكاك الاسير » وقد عثرت فيها على ذكر بنى سراج عند

ذكر مدينة « اندوخر » من عمل قرطبة قال :

« وهي مدينة قديمة أثرها أثر الحضارة وهي على ضفة الوادى الكبير أيضاً وعلى هذا الوادى بقرب المدينة قنطرة من عهد الاسلام و بفحص هذه المدينة من الزياتين والغروس والبساتين وأراضى الحراثة مالا يحصى . وأهلها أهل حراثة وفلاحة والغالب على عمالها أنهم من بقايا الأندلس وجاهم من أولاد السراج الذين كانوا تنصروا على عهد السلطان أبى الحسن آخر ملوك غرناطة . وذاك فيما يزعمونه النصارى و ينقلونه فى تواريخهم ان بعض أولاد ابن زكرى الغرناطيين كان وشى الى الملك بأحد أولاد السراج وذكر عنه أن له كلاماً مع زوجة ابن الملك ومخالطة . فحنق الملك على أولاد السراج الذين معه بغرناطة فقتل منهم جماعة أعيان وكان أولاد السراج لذلك العهد هم أقوى جيش المسلمين و بلادهم «اندوخر» بيدهم باقية بعد تغلب الكفرة على قرطبة واحوازها يحاربون عليها ويذبون عنها فحينما بلغهم خبر من قتل من اخوانهم بغرناطة حملتهم الحمية والأنفة والحنق والغيظ على أن ركبوا من ساعتهم وقصدوا طاغية الوقت فتنصروا على يده وخرجوا من عنده قاصدين غرناطة فأغاروا وحضروا بعد ذلك مع الطاغية فى حروب غرناطة واحوازها نعوذ بالله من الضلال بعد الرشاد ومن الغواية بعد الهداية . وجل بقية هؤلاء المتنصرين الذين باندوخر يعد من أكابر أهل البلد غير أنه لا يعد عند النصارى مثل ما لهم من الكبرة التى يتوارثها النصارى خلفاً عن سلف مثل الدوك والقند وشبههما . وأكثر ما يحصل لهم اليوم من الكبرة أن من يكون من نسل هؤلاء القوم الذين تنصروا أن يرث عمل الصليب على كتفه يرقه فى ثو به المتدثر به فتلك هى علامة الأكابر منهم . والخطط التى يتولونها بقايا هذا الجنس المذكور هى الكتابة وحكومة البلدان والشرطة وغيرها مما ليست وجاهة كبيرة وولاية سنية مثل التصرف فى المحالّ (١) أو الولاية للاقاليم الكبيرة والمدن القواعد مثل اشبيلية وما شا كلها . وعلى كل حال فهم فى هذه النواحى كثيرون لا يحصون فمنهم من ينتسب ومنهم من لا ينتسب ومنهم من ينفر من سماعه الإنتساب ذاك . والذين هم من هذه النسبة ويتأبىّ عنها ينتسب الى جبال نبارة وهى جبال بعيدة من قشتالة(٢) كان انحاز اليها من بقى من النصارى ساعة تغلب المسلمين على العدو ويتفاخرون

(١) جمع محلة أى مركز قيادة الجيش

(٢) لعله يعنى ناقاره

بالانتساب الى تلك الجبال وما والاها . والذين بيدهم ولاية أو خطة من الخطط المخزنية (١) من أهل هذا الجنس لاينفرون من الانتساب فلقد لقيت يوما بمدينةمدريد(٢) رجلاً أُنسيتُ اسمه الآن راكبا ومعه جماعة من النساء صغاراً وكباراً لهم حسب وجمال فوقف وسلم سلاما كثيراً وأظهر هو ومن معه من النساء بشراً وترحيبا فقابلناه بما يجب وحين أراد الانصراف عرّف بنفسه بأن قال : نحن من جنس المسلمين من نسل أولاد السراج . فسألت عنه بعد ذاك فقيل لى انه من كتّاب الديوان وهو الذى يقرأ ما يحصل بالديوان من رقاع وعرض حال وشبهه . وكذاك أيضا كانت جماعة من أهل غرناطة لهم بغرناطة ولاية وأحكام وسكناهم بمدينة مادريد ترد علينا صحبة ضون (٣) « الونص » الذى هو من عقب ملك غرناطة (٤) وينتسبون الى الجنس الذى كان بغرناطة وغلب عليهم الشقاء والعياذ بالله . ولقد كانوا يسألون عن دين الاسلام وعن أشياء منه فحين يسمعون ما نجيبهم به عنه من الديانات وأحكام الطهارة التى بُنى الاسلام عليها وغير ذلك يعجبهم ما يسمعون منه وينصتون اليه ويشكرونه بمحضر النصارى ولا يعبأون بمن حضر . ولم يزالوا مدة مقامنا بمادريد يكثرون التردد لدينا ويردون علينا المرة بعد المرة ويظهرون من المحبة والتحنن شيئا كثيراً . فنسأل الله أن يهديهم الى الصراط المستقيم ويرشدهم الى الدين القويم » انتهى

ثم اننا ننقل من رحلة الفاضل الوزير الغسانى ما ذكره عن مدن أخرى أنس فيها رائحة الاسلام ولا عجب فان بين جلاء المدجنين الأخير وبين عهد هذه الرحلة نحواً من مائة سنة لا أكثر

قال عند ذكر مدينة « لينارش » : « وبها من بقايا الأندلس النزر من سكانها »

وقال عند ذكر مدينة اسمها «مورا» هكذا : «ومعناها المسلمة وسبب تسميتها بذلك والله أعلم انهار بما تأخّرت عن جيرانها من المدة بشيءٍ مافى التنصُّر »

---

(١) نسبة الى المخزن ومعناه فى المغرب والأندلس ما يقال له الحكومة اليوم فى الشرق

(٢) والعرب قديماً كانوا يقولون مجريط

(٣) أى الدون وهو من القاب الشرف عندهم

(٤) بحسب هذه الرواية يكون من عقب أبى الحسن على بن الأحمر من تنصر وتحول أسبانيولياً وهذا يطابق ما قرأته من أن اخوة أبى عبد الله الصغار مذ سقوط غرناطة تحولوا أسبانيوليين

وقال عند ذكر مدينة « شريش » ما يلي :

« ومدينة شريش هـذه تلقب بشريش الغرنطيرة ومعناها المقابلة ويعنون بها المقابلة لبرّ الاسلام أعزه الله وجـل أهلها من أهل الأندلس وأعيانهم لأنهم تنصروا وهم أهل حرائة وفلاحة »

وذكر مدينة فى جهات شريش اسمها « البربيجة » فقال : « وأنزلونا داراً لبعض أكابرهم وجعلوا ينثالون علينا للسـلام وفيها من انتسب لنا الى الأندلس باشارة خفيـة لم يقدر على التصريح بغير كلام خفى . والغالب على جل سكانها انهم من بقايا الأندلس الا أن العهد طال عليهم وربوا فى بحبوحة الـكفر فغلبت عليهم الشقاوة والعياذ بالله »

ثم ذكر مدينـة « اطريرة » فقال من جملة كلام :« وجل أهلها من بقاياالاندلس»
ثم قال : « وأهلها ذوات عظام والغالب عليهم الحسن رجالاً ونساء ولقـد شاهدنا ابنتـين احداهما بنت حاكم البلد والأخرى بنت القاضى فى غاية من الحسن والجمال والكمال لم تر عينى فى جميع مارأيت من بلاد أصبانيا على سعتها أجمل منهما وهما من بنات الأندلس ومن دم ملك غرناطة الأخير الذى غُلب عليها وهو الملك المعروف عندهم « بالرى الشيكو » ومعناه السلطان الصغير . ولقد أخبرنى بمدينة مادريد رجل يسمى « ضِرن الونص » حفيد موسى أخى السلطان حسن (١) المتغلب عليه بغرناطة ان البنتين اللتين باطريرة من دمه . وضون الونص هذا رجل حسن الأخلاق حسن الشباب له قوة وشجاعة معروفة عنـد النصارى وهو معدود من فرسانهم وشجعانهم ومع هـذا فهو مائل الى من يلقاه من أهل الاسـلام ويذكر نسبته ويعجبه ما يسمعه من الحديث عن الاسلام وأهله ولغـد حدثنى عن أمه أنها حين حملت به اشتهت أكل الـكسكسون فقال لها أبوها : لعل هذا الحمل الذى فى بطنـك من ضنء المسلمين يداعبها بذلك اذ كانوا لا ينفرون من نسبتهم لعلمهم أنهم من بيت الملك نعوذ بالله من الخذلان والغواية ونسأله التوفيق والهداية »

قلت انه بمناسبة الحسن والجمال قد لحظت وأنا فى أسبانيا ان أهل الجنوب منها أى أهـل البلاد التى يقال لهـا الأندلس أجمل من أهـل الشمال أى قشتالة ونافار واراغون وبرشلونة . فلما كنت فى غرناطة ذكرت هذه الملاحظة لأحد نبهائها فأجابنى على الفور :

(١) لعلها أبى الحسن

« نعم لأننا نحن عرب »

ثم ذكر الوزير الغسانى مدينة « مرشينة » فقال : « وأهلها أهل بشاشة ومنهم من ينتسب الى الأندلس انتساباً »

وذكر فى موضع آخر من كتابه أن الذين تنصروا كانوا يعطون علامة الصليب يرقونها على ثيابهم فقال : « الذين هم من جنس الأندلس وكانوا أكابر قومهم وتنصروا لأغراضهم فأعطوا تلك العلامة وهى دالة على عراقتهم مع الاصالة لعهد اسلامهم وعلامة على كبرتهم الخ »

فمن هنا وأشباهه تعلم أن الموريسك ـ أو المدجنين كما كان يقال لهم عند العرب ـ كان بقى منهم قسم عظيم بالأندلس وأنهم تنصروا أولاً بالقوة ثم اندمجوا مع طول الزمان فى النصارى ولكنهم لبثوا يتذكرون أصلهم ونراهم حتى هذه الساعة يذكرون ذلك وفى أخريات هذه الأيام بعد أن انقلبت الحكومة الأسبانية من الملكية الى الجمهورية وانطلقت الحرية فى أسبانية وجدنا كثيراً من أهل الاندلس يجاهرون بأن أصلهم من العرب ويطالبون الحكومة باعطائهم الأراضى التى هم مزارعون فيها قائلين ان هذه الأراضى كانت لآبائهم لما كانوا مسلمين وانه لما افتتح الاسبانيول الاندلس وانتزعوها من يد الاسلام أقطعوها النبلاء والكنائس وأبقوا العرب فيها كمزارعين فلهذا هم يريدون اعادة هذه الأراضى اليهم . ولقد أجابت الحكومة الجمهورية طلبهم وسنّت قانوناً بموجبه ترجع هذه الأراضى الى الفلاحين . ولما كان النزاع على الأراضى قد اختلط مع تذكار النسب العربى القديم كنت تجد عند هذه الطبقات العاملة بالاندلس من كراهية النبلاء وبخاصة من كراهية القسيسين والرهبان ما لا تجده عند غيرهم . وطالما أحرقوا بهاتين السنتين الأديار والكنائس ودور الأساقفة ولو لا محافظة الحكومة عليها لما كانوا أبقوا منها شيئاً فيما يليهم وليس هذا كله ناشئاً عن المبادئ الشيوعية أو الاشتراكية كما يظن بل ثمة عرق عربى عاد فنزع فى الاندلس بعد اعلان الحكم الجمهورى . وكان بعض نبهاء الاندلس قد هبّوا يطالبون باستقلال داخلى خاص بالولايات الاندلسية قرطبة واشبيلية وغرناطة ومالقة وقادس الخ وذلك على أن تنضم اليها منطقة الريف التى أهلها مسلمون بحجة أن بينهم وبينهم وحدة فى الأصل والعادات والثقافة وكانت هذه الفئة تنزع الى تجديد الثقافة العربية فى

الاندلس واحياء ذكريات العرب وقد خاطبنى بعض زعماء هذه الفئة من أشبيلية قائلين انهم يرون أن عظمة الاندلس كانت لعهد العرب وانه لما برحها العرب ابتدأ سقوطها فلهذا هم يريدون اعادة الثقافة العربية اليها ويفكرون فى اعادة مسجد قرطبة الأعظم للاسلام وفى بناء جامع فى اشبيلية . وقد حدثنى الأخ الحاج عبد السلام بنونة من أعيان تطاون بأنهم خاطبوه فيما اذا كانوا سيقومون ببناء الجامع فى اشبيلية هل يساعدهم المسلمون فى الكلفة فأجابهم بأنهم يساعدون بنصف الكلفة . وقد كان من نتائج الحكم الجمهورى الحر فى أسبانية أن سياسة التودد الى الاسلام قد ظهر لها أنصار كثيرون وكل من يقاوم الكثلكة والحزب الملكى قد مال اليها . ويقال ان ستين نائباً فى مجلس النواب بمجريط يميلون اليها . ولقد قدّم أحد نواب مجريط طلباً يقترح فيه اعادة مسجد قرطبة الى الاسلام مع بقائه مسجداً أسبانولياً وذلك لان الوفد المغربى الذى كان قد ذهب من تطاون الى مجريط سنة ١٩٣١ يطالب ببعض الحقوق الأهلية فى منطقة الريف قد طلب أيضاً اعادة مسجد قرطبة مسجداً تقام فيه شعائر الاسلام كما كان . الا أن الحكومة خافت من هيجان حزب الكثلكة ولم تعد الوفد المغربى بشئ من هذا الامر . وذهب بعضهم الى أنه يجوز جعل هذا المسجد أثراً تاريخياً لا تقام فيه شعائر الاسلام ولكن تخرج منه شعائر المسيحية وان كثيرين من الاسبانيول يرون هذا الرأى . ومما يدل على تقدم سياسة التودد الى الاسلام فى أسبانية أن بعض النواب والصحفيين والمفكرين فى مجريط على رأسهم السنيور « ارجيلا » والسنيور « فولس » أسسوا جمعية اسمها الجمعية الاسبانية الاسلامية As ciation Hispano slamique وانتدبوا الوفد السورى الفلسطينى محرر هذه السطور وزميله احسان بك الجابرى للدخول فيها وقد وافقناهم على رغبتهم ودخلنا فى هذه الجمعية وانتخبت أنا الفقير اليه تعالى نائب رئيس ودخل فيها زميلى وغيره من كبار الاسلام أعضاء . وممن دخل فيها عضواً من أعيان المغرب وأدبائه ورجالاته الحاج عبد السلام بنونة والسيد محمد الداود والسيد عبد الخالق الطوريس من تطاون والسيد احمد بلافريج والسيد مكى الناصرى من الرباط والسيد محمد الفاسى والشريف محمد بن الحسن الوزانى من فاس ولا تزال هذه الجمعية دائبة فى نشر دعايتها وتأسيس فروع لها وقد وفق السيد مكى الناصرى لتأسيس فرع لها فى غرناطة فى هذه الايام الاخيرة كما أن أحد أعقاب بنى أمية

من اشبيلية شارع بالاتفاق مع بعض أصحاب هذا المشرب هناك بتأسيس فرع فى اشبيلية

عود الى موضوع اختلاط الأمتين العربية والاسبانيولية : لما أُجلى بقايا المسلمين من الاندلس الى افريقية حسبما تقدم الكلام عليه كان فيمن جلا من المسلمين من أصلهم عربى ومن أصلهم اسبانيولى . فكما أنه باق فى اسبانية ملايين تجرى فى عروقهم دماء عربية يوجد فى افريقية مئات ألوف تجرى فى عروقهم دماء اسبانيولية . ولا نقدر أن نحصى جميع العلائلات الاندلسية التى ارتحلت الى فاس والرباط وتطوان وتلمسان والجزائر وتونس وغيرها ولكننا نذكر بعضاً منهم على سبيل التمثيل

فمن هؤلاء آل مرينو ذكرهم صاحب كتاب مقدمة الفتح فى تاريخ رباط الفتح وعدّد جماعة منهم تولوا المناصب العالية من قيادة وقضاء وحسبة . وآل شنتياك Santiago وآل ابن طوجا . وأولاد التونسى . وأولاد القرطبى . وأولاد القصرى . وأولاد ابن عبدون . وأولاد الدك . وأولاد الولتيتى . وآل أبى جندار . وآل اللوشى . وصيرون . واشكلانط . وكلهم ممن تولوا المناصب واشتهر منهم رجال . ومنهم آل بركاش وهم بيت مجد قديم وحسب صميم لم تنقطع الرئاسة من بيتهم ومنهم السيد عبد الرحمن بركاش باشا الرباط الحالى عرفته مرتين احداهما فى باريز سنة ١٩٢٦ عند ما حضر مع المرحوم السلطان يوسف فاجتمعت معه بطريق المصادفة فى فندق « ماجستيك » والثانية فى قرطبة سنة ١٩٣١ وهذه أيضاً بطريق المصادفة وكان معه أحد أنجاله الأدباء و بعض من حاشيته وهو وأنجاله من سراة الاسلام وأماثل القطر المغربى سائرون على آثار سلفهم الكريم ومنهم آل الزبدى . وآل غنام . وآل الزهرا . وآل التازى . وآل السويسى . وآل مارسيل . وآل فرج . وآل بلا فريج الذين منهم الشاب الناهض النابغ السيد احمد بلافريج حرس الله مهجته وهو من نخبة فتيان الأمة المغربية بل الأمة العربية بهذا العصر ومنهم بنو العوفير . وأبى عزه . والباشا . وقد ترجم المؤرخ أبو جندار جميع هذه العائلات وذكر الذين اشتهروا منها وذكر أفراداً آخرين من الطائفة الأندلسية مثل الرئيس ابن عائشة الرباطى سفير السلطان اسماعيل الى لويز الرابع عشر والسيد طاهر بنانى الرباطى سفير السلطان محمد بن عبد الله الى السلطان العثمانى والحاج التهامى المدور سفيره الى بلاد السويد والرئيس العربى المستيرى سفيره الى انكلترة والحاج الهاشمى المستيرى والحاج العربى ملين والحاج العربى بنانى والسيد محمد

فريون والحاج عبد القادر المعمورى والحاج محمد الأزرق والسيد ابن عيسى بن مسعود طريدانو والسيد محمد بن العباس الزكى والسيد الجيلانى العدلانى وغيرهم ممن تولوا نظارة الرباط أو الحسبة أو غيرهما من المناصب . ثم ذكر أبو جندار عدداً من أمراء البحر وقواد البحرية اشتهروا فى القديم من الأندلسيين الجالين الى المغرب منهم الرئيس مكى الشرقوبى والرئيس على بريبس والرئيس العربى المستيرى والرئيس العربى حكم والرئيس محمد السبيع والرئيس محمد العنقى والرئيس لبريس والرئيس عاشور والرئيس الهاشمى المستيرى والرئيس على التركى والرئيس ابن مبارك والرئيس لباريس والرئيس الحسن بنانى والرئيس بركاش والرئيس بريطل والرئيس المعطى وغيرهم

وأما فى تطاون فقد كتب من أسماء العائلات الأندلسية التى فيها بنى قشتيليو وأصلها Castillio . و بنى بايصه أصلهم من بسطة بالأندلس . و بنى أراغون وهؤلاء يرفعون نسبهم الى الزبير بن العوام رضى الله عنه . و بنى سالس . و بنى القرطبى . و بنى الغرناطى . و يقال الغرنوطى . و بنى الطوريس الذين منهم الشاب الأديب الفاضل السيد عبد الخالق الطوريس وأخوه الماجد وجدهم السيد محمد الطوريس كان الوزير الأول بالمغرب وأصل بنى الطوريس . من جبال البشرات بالأندلس و بنى قردناش . و بنى مورارش و بنى الخطيب أصلهم من شاطبة بشرقى الاندلس . و بنى اللوقش من ذرية خلفاء بنى أمية . و بنى الدليرو كان يقال لهم أبناء المسوس . و بنى زرقيق أصلهم من اشبيلية . و بنى الركينة منهم فى تطوان مسلمون ومنهم اسبانيول نصارى لأن فى تطوان جالية اسبانيولية . وعائلة الركينة كثيرة فى اسبانية ومنها من بنى ركينة المسلمين أحمد ركينة ناظر احباس طنجة و بنى مارين ومنهم مسلمون ونصارى على هذا الضرب . و بنى مارتيل . و بنى الصفّار . و بنى زكرى . و بنى الداود الذين منهم الشاب الشهم الفاضل الناهض الأستاذ محمد الداود مؤسس المدرسة الاهلية بتطوان . وفقه الله و بنى طنانه . و بنى الأبّار اقارب الحافظ ابن الابار البلنسى القضاعى صاحب « ادرك بخيلك خيل الله اندلسا » و بنى مدينه . و بنى مولتينه . وأصلهم من ثغر المرية بالاندلس . و بنى اجزول . و بنى البولو و بنى اللوشى من لوشة من مدن غرناطة . و بنى بالامينو وأصلها بالومينو . و بنى ضنتياغو . و بنى دينيه منهم فى تطوان ومنهم فى الرباط . و بنى مسطاسى . و بنى مولاطو ومنهم فى الرباط أيضا . و بنى كرسبو . و بنى سوباطا وأصلها ساباطا .

و بني مندوسه وقد انقرضوا . وقد انقرض من اندلسية تطوان بنوغرسية . و بنو اشبليانو. ثم ان من الاسر الاندلاسية الشريفة بنيرزين الذين منهم صديقنا الوجيه السيد محمد الرزيني وهؤلاء بحسب تاريخ البيان المعرب لابن عذارى أصلهم بربر وكانوا ملوك « شنتمرية » الشرق بالاندلس

وذكر لى الاخ الحاج عبد السلام بنونه عائلات اندلاسية فى الرباط لم اجدها فى «مقدمة الفتح» مثل عائلة قديره . وهذه العائلة هى التى منها المستشرق الاسبانيولى الشهير فرانسيكو كوديره Codera استاذ المستشرق الشهير القسيس آسين بالاسيوس . وعائلة فلورش وهى بالاسبانيولى Flores . وعائلة ميتجينوس واصلها بالاسبانيولى Montegenos وقال لى ان عائلة مارشينه معروفة فى اسبانيــة ومنها فخــذ مسلمون فى تطوان وان من بنى مارتين افخاذاً كثيرة فى اسبانية وان منهم فخــذاً مسلمين فى تطوان . وان من بنى عباد اناساً فى سرقسطة فى شمالى اسبانية واناساً فى فاس . وقال لى الاخ المشار اليه ان جبال الريف ملأى بالاندلسيين

وفى فاس اندلسيون كثيرون أشهرهم آل الفاسى وهم من بنى الجد الفهريين الذين كانوا فى قرطبة ثم فى اشبيلية ثم فى مالقة الى أن ارتحلوا الى فاس عندما لم يبق دار للاسلام فى الاندلس . وفى كل من العدوتين حفظت هذه الاسرة مجدها وسراوتها ورئاستها . ومنها الشاب الناهض السيد علال الفاسي والشاب الناهض الفاضل المدقق السيد محمد الفاسى وفقه الله وهو من نخبة شبان المغاربة وأنجب العرب الذين اتموا تحصيلهم فى باريز . ولم يتيسَّر لى الى ساعة تحريره احصاء للعائلات الاندلسية فى فاس ولا للعائلات الاندلسية فى تلمسان والجزائر وتونس . فمتى تيسَّر لى ذلك أضمّه الى المعلومات التى حررتها هنا وان فسح الله فى الاجل نجعل ذلك فى الطبعة الثالثة من هذا الكتاب

ولقــد بعث لى الاخ المفضال نبيل النضال الاستاذ السيد أحمد توفيق المدنى التونسى مولداً الاندلسى أصلاً المقيم الآن بمــدينة الجزائر نفع الله به يقول لى فى جواب على سؤال فى هذا الموضوع ما يلى :

العائلات الاندلسية فى شمالى أفريقية أكثرها بالمغرب الاقصى وتونس . ومنها قليل فى تلمسان ومنها قليل ببقية البلاد الجزائرية . أما فى نفس مدينة الجزائر فالمعروف منها عائلة

الشيخ الجليل أحمد أبى الركائب وهو ابن عمنا متفرع من عائلة ابن عمر . وعائلة ابن عبد اللطيف

«وعائلة ابن الأمين . وعائلة ابن سوسان . وعائلة المرار التى كان منها الشيخ مصطفى المرار قاضى الجزائر عاش فى أواسط القرن الماضى . وعائلة السيستى »

قال حفظه الله :

«وأما بالبلاد التونسية فالجاليات الاندلسية بقيت على حالها تقريباً ولها الى يومنا هذا بعض امتيازاتها حتى ان صناعة الشاشية الاندلسية — الطربوش المغربى — لا يتولاها مبدئيًّا الا أعقاب العائلات الاندلسية ولا يمكن أحدا أن يباشر هذه الصناعة الا اذا كان عنده نيشان أحد أسلافه من الاندلس . وهذا النيشان هو نفس ما يسمى اليوم « ماركة مسجَّلة » ويسجل بالخيط الاسود على نفس الطربوش من الداخل ويطبع على الورقة الخارجية مع اسم صاحبه »

قال :

«وفى البلاد التونسية مدن ودساكر اسمها الأندلس ولا يزال سكانها الى اليوم يعتزون بأصلهم الاندلسى سواء كانوا من المسلمين أو من اليهود وأشهر هذه المدن مدينة تستور بالشمال التونسى »

وقرأت فى بعض جرائد تونس أن الاندلسيين أثروا فى تستور ما ثر تاريخية كثيرة منها مأذنة جامعها الكبير فهى على أسلوب هندسى بديع ولا نظير لها فى العالم الاسلامى فان الناظر من أعلاها يرى قعرها لفراغ وسطها وكونه على شكل اسطوانى مع ضيقه وتنسيقه

ونختم هذا الفصل عن الاندلسيين الجالين الى افريقية والاندلسيين المدجنين الذين بقوا فى اسبانية حتى اندمجوا فى الاسبانيـة بذكر مكتوب من السلطان الكبير مولاى اسماعيل صاحب المغرب الى ملك اسبانية فى عصره يذكره فيه بغدر أسلافه بالمسلمين نشره السيد الشريف العلامة مولاى عبد الرحمن بن زيدان فسح الله فى عمره وذلك فى كتابه « اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس » ولم يجتزئ بنشره بالحروف المطبوعة بل نشره بالفتوغرافيا فى جانب المطبوع بالحروف ونصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم من عبد الله اسماعيل المتوكل على الله المفوض أموره الى الله أمير المؤمنين المجاهد فى سبيل رب العالمين الشريف الحسينى أيده الله آمين (ثم الطابع الملوكى بداخله اسماعيل بن الشريف الحسينى أيده الله ونصره . وبدائرته : انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)

« الى عظيم الروم وملك أقاليم أصبانية و بلاد الهند والمتولى أمورها والمتصرف فى أقطارها (دون كارلوس) السلام على من اتبع الهدى أما بعد فقد بلغنا كتابكم صحبة خديمكم (دون منويل بيردلون) وخديمكم (دون ابيل مسيح) وهو الكتاب الذى وجهتم لنا جواباً عن كتابنا الذى أصدرناه اليكم ووصلكم صحبة الغرايلى قبل هذا و بعد ان قرأناه وفهمنا لفظه ومعناه وألقى الينا خديمكم (دون ابيل مسيح) ما فى خاطركم وما طلبتموه منا من فك هذه المائة من النصارى الذين وقع الكلام قبل هذا رددنا اليكم جواب كتابكم ووجهناه مع خديم دارنا العلية بالله كاتبنا ومتولى الخط الأقرب من بساطنا السيد محمد بن عبد الوهاب الوزير ولولا مزيتكم عندنا ومعرفتنا بمنصبكم ما سمحنا بفراق كاتبنا عن بساطنا لمهمات أمورنا واذنا لخديمنا الأكبر الأعز الأشهر أبى الحسن القائد على بن عبد الله أن يبعث معه رجلا من أصحابه فوجه خديمنا عبد السلام بن أحمد جسوس معاشراً له ومرافقاً وعند الكاتب المذكور قضية دخول جند الاسلام المظفر بالله على نصارى العرائش وفى علمه وعلى باله كل ما كان فى ذلك من الكلام والأسباب وكيفية الخبر فى ذلك فثقوا به وتعرفوا منه فانه حفظه ووعاه من أوله الى آخره لملازمته لبساطنا العلى بالله فى سائر أوقاته ونحن بلا شك كنا أعطينا القول لهذه المائة من النصارى بالسراح ولكن وقع من النصارى ما اختل به منهم من الاسباب ما يوجب عدم الوفاء لهم بذلك فمنهم من كان ينادى بلفظ مينا على رؤوسهم ومنهم من لم يرض بخروجهم على ذلك انلك القول وكاد يفتك بمن دخل اليهم من خدامنا الذين أوفدناهم عليهم و بعضهم ركب لجج البحر فاراً بنفسه حتى أدرك وقتل على الموج . وحاجنّا مع هذا كله كبار ملتنا وعلماء شريعتنا وأئمة ديننا بأن قالوا لنا بأن المسلمين كانوا أشرفوا على الغنيمة ساعتئذ ووقع الغلب والظفر ولم يبق للنصارى الا الموت بالسيف أو بالغرق فلا وجه لسراحهم فى الشريعة رأساً . وكنا

فى أثناء هذه المدة كلها نتراد الكلام مع هؤلاء العلماء حفظهم الله وقالوا لنا : هؤلاء المائة يكونون أسارى و يسترقّون من كل وجه كيف وقد أخذوا العرايش من أول وهلة بلا موجب بل أضغطوا الشيخ ابن السلطان الذهبي وقبضوا عليه حتى أنفقوا عليه أموالا عديدة ومسكوا أولاده بسببها حتى أعطاهم العرايش على ضغطٍ منه وعلى غير تأويل حقيق فى ذلك . وذكرونا فى مسئلة غدر أسلافكم بأهل غرناطة وغيرهم بما يزيد على الأربعين ألفاً بعد تعدد الشروط على ستين شرطاً ولم يوفوا لهم بواحد منها الى غير ذلك من الغدر والمكر بأهل غرناطة وغيرهم من أهل الأندلس فى كل بلد وقرية بعد بلد وقرية فألفيناهم ما تكلموا الا بالحق (الى أن يقول) : وذلك أن تعطونا فى الخمسين نصرانياً من هذه المائة خمسة آلاف كتاب مائة كتاب عن كل نصرانى من كتب الاسلام الصحيحة المختارة المثقفة فى خزائنهم باشبيلية وقرطبة وغرناطة وما والاها من المدن والقرى حسبما يختارها خديمنا المذكور من المصاحف وغيرها وتعطون خمسمائة أسير من المسلمين فى الخمسين الأخرى عشرة أسارى لكل نصرانى وان لم توجد الكتب التى هى مرادنا فاجعلوا عوضها من أسارى المسلمين وأعطوهم لنا من الاسارى الذين فى الأغربة وغيرهم وقبلنا منكم فى العدد المذكور الرجل والمرأة والصبي الصغير والشيخ المسن من ايالتنا وغيرها اذ مالنا قصد الا فى الأجر والثواب فى فكاك اسرى المسلمين كيف ما كانوا ومن أيّ بلاد كانوا الخ »

فأنت ترى أنه كان مضى أكثر من مائة سنة على الغدر الفظيع الذى غدره ملوك الاسبانيول بمسلمي غرناطة وسائر الأندلس . وكان المسلمون لايزالون يتذكرونه ويتحرقون من أجله . ولم يقتصر مولاى اسماعيل فى تقريع معاصريه من ملوك الافرنج على ملك اسبانية فقط بل تناول بالتقريع من أجل الخيس بالعهود لويس الرابع عشر أعظم ملوك فرنسة وهاك ما ذكره مولاى عبد الرحمن بن زيدان حفيد مولاى اسماعيل فى كتابه « اتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس » فى الصفحة ٥٤ من الجزء الثانى قال حفظه الله

« ومن أكبر البراهين وأوضح الدلائل على ما كان بينه و بين عظماء ملوك أوربا من العلائق السياسية ما وقفت عليه فى عدة كتب ومخابرات صدرت بينه و بينهم ألمّ بكثير منها مؤرخ فرنسا الماهر الشهير الرحالة الفيلسوف الخبير الكنت دوكاسترى فى عدة من

كتبه واليك نصوص بعضها وصورها الفوتوغرافية وقد خاطب فيها لويس الرابع عشر ملك فرنسا وجامس ملك الانكليز ودون كرلوس ملك اصبانيا

« بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم من عبد الله تعالى الامام المظفر بالله أمير المؤمنين المجاهد فى سبيل رب العالمين الشريف الحسينى أيده الله ونصره . (ثم الطابع) بداخله : اسماعيل بن الشريف الحسنى الله وليّه (و بدائرته) : العز والاقبال « الى عظيم الروم بفرانصيص لويس الرابع عشر من هذا الاسم السلام على من اتبع الهدى و باعد طريق الغي والردى أمابعد فاعلم أن الذى ظهر لنا انك ليس عندك قول صحيح ولا كلام رجيح ولا أظنك الا غلب عليك أهل ديوانك وصاروا يلعبون بك كيف شاءوا ولا بقى لك معهم ضرب ولا لقب ودليل ذلك اننا ما زلنا ماقبضنا منك صحة قول ولا أبرمت معنا شيئاً ففلامنك (أى مملكة هواندة) الذين ليس لهم رئيس وما عندهم الاالديوان تكلموا معنا كلمة وقبضناها عليهم ووفوا بها فحين ذهب خديمنا لبلادهم لما ان طلبوا منا ذلك فرحوابه واكرموه و برّوا بهوأتى من عندهم بعشر مائة مكحلة وستةعشرمائة قنطارمن البارود ومائة وسبعة من المسلمين أطلقوهم من الأسر لوجوهنا وعملوا من الخير ماعملوا مراعاة لنا وثبتوا فى قولهم ووفوا بكلامهم . وأنت لا زال لم يصح منك قول ولا وفاء واولئك الذين كانوا قدموا اليك من هذه البلاد ليس هم من خدامنا ولامن أصحابنا ولاممن لهم معرفة معنا فالحاج على معنين حيث أُسرله ولده لاذ بالبعض من خدامنا واستحرم به وقدم اليكم على شان اولئك المسلمين وجاز على دار السباع ودار النعام واتى اليكم بما اتى ولا شعرنا به ولا عرفنا كم اخذ وقلنا انه ان وصلكم ولابد تعملون لهغرضه فى اولئك المسلمين وتسرحونهم . فاذا به هو تحيَّل على ولده الى ان جاءبه واتم ماعملتم صواباً فى غيره ولا صدرمنكم ماتراعون لاجله . ثم بعد ذلك قدم لعلى مقامنا صاحبكم انبشدور واتانا بشيء من الخرق مع فالصوالحرير وهل نحن ممن يعجبه ذلك و يسره فنحن معشر العرب لانعرف الا الصحيح ولا يسرنا الا مافيه مصلحة المسلمين كلهم ومع ذلك اعطينا لصاحبك عشرين نصرانياً سيفطناهُ بها وظننا انك ولابد تراعى الخير وتبعث لنا ولوعشرين مسلماً تجبر بها خواطرنا وتكون هى الطريق للكلام الذى تريدهُ منا .فاذا بك ماعملت شيئاً من هذا ولاجازيت باحسان . وثانياً قبضنا لك سفينة قبل ان يقع الكلام بيننا و بينك بثلاثة أيام أوأربعة على التحقيق وهى موسوقة

بالسكر وتبغة وثقفناها نحواً من ثلاث سنين بقصدك ولا تركنا احداً يمد يده فيها وقلنا انك تراعى خيرنا وتعمل لاولئك المسلمين طريقاً وتسرحهم وان كانوا ليس فيهم من هو خديمنا ولامن هو محسوب من جيشنا ولامن هو معرفتنا فما هم الا من لاخلاق لهم ولا يركب البحر عندنا الاأهل التمرين . ولو أطلقتهم وان كانوا ليسوا بشئ فتكون عملت الخير بذلك وتقول انك عملت مسئلة تراعى عليها . وأعظم من ذلك كله هو ان رئيساً من بلادنا اسمه التاج كان أعطاه صاحبك الذى اتانا خط يده على انه يشترى سفينة من الجزائر يسافر بهاقرصان وماعليه فيمن لقيه من فرنصيص فلما ان اشترها وسافر بها وغنم قطارمة موسوقة بالرخام والريال مع مافيها من الحرير وغيره و بعثها مع أصحابه ستة وعشرين مسلماً وتعرضوا لها سفنكم واخذوها وثقفتها انت أياماً ثم بعد ذلك مزقتها والمسلمون الذين كانوا معها خدّمتهم فى الغراب. فلماذا لم تردّها أو ثقفتها ثلاث سنين كما ثقفنا نحن سفينتكم وهل هذه هى صحة القول فهذا مما يدل على عدم صحة كلامك ومما يثبت الاخلال بقولك وقلة وفائك لحتى الآن فالذى ظهر لنا انه ما يليق بنا معك الا الشر واذا أردت تثبيت المهادنة وابرام الكلام فيها وامضاء حجتها فابعث لنا من عندك قونصو بالتفويض على الأمر ويجلس هنا فى أحد مراسينا ويكون الأمناء معه فى هذا كله ونبرم معه هذا الأمر ويكون من أهل الحل والربط عندكم والا بان ظهر لكم خلاف ذلك فاعلمنا وعرفنا بما عليه عملك وما اضمرته طويتك والسلام على من اتبع الهدى وفى التاسع من شعبان المبارك سنة خمس وتسعين والف » انتهى

ولقائل أن يقول كيف يكتب السلطان اسماعيل مثل هذا الكلام الجاسى الى لويس الرابع عشر أعظم ملوك اوربة فى عصره بل الى هذا العصر ؟ والجواب أن السلطان اسماعيل لم يقل شيئاً غير صحيح وقد كان لويس الرابع عشر قليل المبالاة بالعهود لا سيما مع المسلمين وقد كان يستبقى اسرى المسلمين عنده سنين طوالاً لا يرضى بفكاكهم ولو أمكن أن يفك بهم بقدر عددهم من اسرى الفرنسيس . ولقد عابه بعض مؤرخى الافرنجة فى ذلك واظهروا ما بينه و بين مولاى اسماعيل من الفرق وقالوا ان مولاى اسماعيل كان يبذل ما عز وهان فى فكاك أسير مسلم أيًّا كان وطا لما فادى وهادى لاجل استخلاص اسارى المسلمين الذين فى بلاد الافرنج غير مهتم بالاستفادة من اسرى النصارى الذين كانو عنده

وربما بلغ عـدهم ثلاثين الف أسير . أما لويس الرابع عشر فكان يهمه أن يوفر على خزينته وان يشغل فى سفنه وأغربته اسارى المسلمين ولا يبالى أن يكون يقى فى الاسر عند ملوك الاسلام اضعاف عددهم .قرأت هذا الانتقاد فى كتب من تواريخ الافرنج المعتبرة فهان على مولاى اسماعيل أن يقرعه ولم يكن اسماعيل بالذى يهاب لويس وقد كان عند اسماعيل جيوش جرارة منها مائة الف أسمر يقال لهم جيش البخارى وان كان لويس الرابع عشر قد تولى ملك فرنسة رأساً أربعاً وستين سنة فان السلطان اسماعيل تولى ملك المغرب خمساً وستين سنة حتى كان أهل المغرب يسمونه بالحى الدائم

وليس لويس الرابع عشر أول من خاس بالعهود بين ملوك اوربة بل أكثرهم كانوا لا يوفون بعهودهم ولا سيما مع من عاهدوا من المسلمين صدق فيهم قوله تعالى (وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ » وهذه بينهم و بين المسلمين شنشنة قديمة فمن صدر الاسلام الى الآن المسلمون يوفون معهم بعهودهم الا ما ندر وهم يغدرون بالمسلمين لمجرد البغض والشنآن و بناء على ذلك المبدأ الجزويتى الشهير (الغاية تبرر الواسطة) . أما الشريعـة الاسلامية فليس فيها (الغاية تبرر الواسطة) ولا (الشر الذى ينشأ عنه خير هو خير) بل فيهـا أن الشر شر بنفسه الا ما كان من قصاص أو نكال شرعى . وفيها أن العهد لا بد من القيام به ولا يجوز الخيس به ولو مع المشركين وفيهـا « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا» الآية وفيها « وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً » وفيها « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » وفيها « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ » وفيهـا « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً » وغير ذلك من الآى الكريمة والأحاديث الشريفة مما لا يكاد يحصى . وقد عمل بذلك ملوك الاسلام وأمراؤه الا ما ندر وكان تاريخ الاسلام من هذه الجهة ناصعا طاهراً بالنسبة الى تواريخ الأمم الأخرى

وقد بلغ من وفاء المسلمين بعهودهم أنهم كانوا يوفون بها لمن سبق منه الغدر أحيانا روى البلاذرى فى فتوح البلدان : ان الروم صالحت معاوية على أن يؤدى اليهم مالاً وارتهن معاوية منهم رهناء فوضعهم فى بعلبك ثم ان الروم غدرت فلم يستحل معاوية والمسلمون قتل من فى أيديهم من رهنهم وخلوا سبيلهم وقالوا : «وفاء بغدر خير من غدر بغدر» . وهو قول الأوزاعى وغيره

وروى البلاذرى فى فتح قبرس أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك كان أجلى خلقا من أهل قبرس الى الشام لأمرٍ اتهمهم به فأنكر الناس ذلك فردهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك الى بلدهم وكان حميد بن معيوف الهمدانى غزاهم فى خلافة الرشيد (وكان أمير البحر لعهد الرشيد) لحدث أحدثوه فأسر منهم بشراً ثم انهم استقاموا للمسلمين فأمر الرشيد برد من أسروا منهم فرُدُّوا . قال البلاذرى : وحدثنى بعض أهل العلم من الشاميين وأبو عبيد القاسم بن سلاّم قالوا : أحدث أهل قبرس حدثاً فى ولاية عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس فى الثغور فأراد نقض صلحهم والفقهاء متوافرون فكتب الى الليث بن سعد ومالك بن أنس وسفيان بن عيينة وموسى بن أعين واسماعيل بن عياش ويحي بن حمزة وأبى اسحاق الفزارى ومخلد بن الحسين فى أمرهم فأجابوه وكان فيما كتب به الليث بن سعد ان أهل قبرس قوم لم نزل نتهمهم بغش أهل الاسلام ومناصحة أعداء الله الروم وقد قال الله تعالى « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ » ولم يقل لا تنبذ اليهم حتى تستيقن خيانتهم وانى أرى أن تنبذ اليهم ويُنْظَروا سنة يأتمرون فمن أحب منهم اللحاق ببلاد المسلمين على أن يكونوا ذمة يؤدى الخراج قبلت ذلك منه ومن أراد أن ينتحى الى بلاد الروم فعل ومن أراد المقام بقبرس على الحرب أقام فكانوا عدواً يقاتَلُون ويُغزون فان فى انظار سنة قطعاً لحجتهم ووفاء بعهدهم . وكان فيما كتب به مالك بن أنس : ان امان أهل قبرس كان قديماً متظاهراً من الولاة لهم وذلك لأنهم رأوا أن اقرارهم على حالهم ذل وصغار لهم وقوة للمسلمين عليهم بما يأخذون من جزيتهم ويصيبون به من الفرصة فى عدوهم ولم أجد أحداً من الولاة نقض صلحهم ولا أخرجهم عن بلدهم وأنا أرى أن لا تعجل بنقض عهدهم ومنابذتهم حتى تتجه الحجة عليهم فان الله يقول : (فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ) فان هم لم يستقيموا بعد ذلك ويدعوا غشهم

ورأيت أن العذر ثابت منهم أوقعت بهم فكان ذلك بعد الاعذار فرزقت النصر وكان بهم الذل والخزى ان شاء الله تعالى »

وروى البلاذرى أن قوماً بجبل لبنان خرجوا على عامل بعلبك فوجّه صالح بن على ابن عبد الله بن عباس من قتل مقاتلهم واقرّ من بقى منهم على دينهم واجلى قوماً من أهل لبنان فحدث القاسم بن سلام عن محمد بن كثير أن الاوزاعى كتب الى صالح رسالة طويلة حُفظ منها : « وقد كان من اجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم ما قد علمت فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم . وحكم الله : أن لا تزر وازرةٌ وزر أخرى وهو أحق ما وُقف عنده واقتدى به . وأحق الوصايا ان تحفظ وصية رسول الله ﷺ فانه قال : من ظلم معاهداً وكلّفه فوق طاقته فانا حجيجه »

فتامل أيها القارئ فى هذه الآثار وقابل بينها و بين أعمال ملوك الاسبانيول وسائر ملوك الافرنج فى المسلمين وتأمل فى فتاوى الاوزاعى رضى الله عنه وأمثاله من الأئمة فى النصارى وقايس بينها و بين فتاوى الباباوات والكرادلة فى أهل الاسلام : لا شك أن المسلم له الحق بعد ذلك أن يهتف :

اولئك آبائى فجئنى بمثلهم اذا جمعتنا يا جريرُ المجامع

وانى لاختم كلامى ببعض جمل ذكرها المؤرخ المصرى الفاضل محمد لبيب البتنونى فى كتابه « رحلة الاندلس » وذلك انه بعد أن أتى على ذكر كل ما ارتكبه الاسبانيول من الفظائع فى مسلمى الاندلس قال : « كان الخلفاء وهم فى قوتهم وعصبيتهم الدينية يحترمون عقائد شعوبهم وكانوا يحترمون المتدينين من أهل الذمة وكانوا يوظفونهم فى حكومتهم فكان منهم الاطباء والوزراء . وكان المتوكل العباسى على صلابته فى دينه يؤاخذ النصارى على عدم تمسكهم بدينهم كما فعل مع طبيبه حنين وكان بلغه انه تفل على صورة السيدة العذراء فحدّه وسجنه . وفى أيام المعتضد بالله قامت العامة على رجل من النصارى اتهموه بانه سب النبي واحضروه بين يدى الوزير القاسم بن عبيد الله وطالبوه باقامة الحد عليه فصرفهم لعدم تحققه صحة دعواهم . وقد صلب الخليفة الحكم بن الناصر أحد عماله لأنه بلغه انه ظلم أحد أهل الذمة »

ثم قال : « ان الدول النصرانيـة كانت تلجأ الى سماحة الاسلام وعدالته فقد أرسلت دولة المجر الى السلطان أحمد الاول ترجوه أن يأخذ المجر تحت حمايته وقايةً لها من ظلم النمسا المسيحية

«ولما فتح المسلمون الجزيرة (العراق) هربت قبيلة اياد (وكانوا نصارى) الى بلاد الروم فكتب عمـر الى هرقل بردّها . فاخرجها هرقل من ديازه وكان على الجزيرة الوليد ابن عقبة فابى ان يقبل منهم الا الاسلام . فكتب اليه عمر : دعهم ان لا ينصروا وليداً ولا يمنعوا أحداً من الاسلام . ثم عزل الوليد عنهم لشدته

«وفى مدة السلطان ابراهيم العثمانى استولى الترك سنة ١٦٤٥ على خانية عاصمة جزيرة كريد . وكان نصارى كريد يساعدون البنادقة على الاتراك فاراد السلطان ان يقتل نصارى كريد فى مقابلة ذلك لكن المفتى أسعد زاده عارضه فى هذا الأمر معارضة شديدة قائلاً انه مخالف للشرع الاسلامى . فلم يقع سلطان العثمانيين فى الشناعة التى وقع فيها ملوك الاسبان امام الله والتاريخ »

وتحرير ذلك انه لما غلب فرديناند وايزابلا على آخر مملكة اسلامية فى اسبانية وهى دولة بنى الأحمر من سلالة الخزرج واستوليا على غرناطة سنة ١٤٩٢ عقدا مع المسلمين معاهـدة تتضمن لهم حقوقاً كثيرة ومن الجملة حريتهـم الدينية التامة وفصـل أمورهم الشخصية لدى قضاتهـم وغـير ذلك من الشروط التى أمضاها فرديناند وامرأته على أمـل تسـهيل الفتح وتقصـير أجل المقاومـة وهما ناويان باطناً نقضها منـذ أمضياها ـ كما جرى هـذه المرة فى معاهدات الحلفاء أثناء الحرب العامة مع ملك الحجاز أمضوها مؤقتاً على نية نقضها فيما بعد ـ فلم يمض على تسليم غرناطة عدة اشهر حتى ذهبت تلك المعاهدة كأن لم تكن أو كما قال صاحب نفح الطيب « نقضها الطاغية عروة عروة » وتأسس ديوان التفتيش الشهير مؤلفاً من الأساقفة و بأمر من البابا وصار يسيطر على عقائد الناس فحمل المسلمين واليهود على النصرانية أو يجلوا عن البلاد فجلا أكثر المسلمين الى مراكش وتونس والجزائر و وصل منهم أناس الى مصر والشرق وجـلا أكثر اليهود الى مملكة ابن عثمان فأقاموا بالقسطنطينية وسلانيك وازمير وهم فيها الى يومنا هذا لغتهم الاسبانيولية و بقى عدد كبير عز عليهم فراق أوطانهم فتظاهروا بالنصرانية تخلصاً من الجلاء ولكنهم بقوا على عقائدهم

سراً فصار ديوان التفتيش يعمل عمله فيهم وارتكب تلك الفظائع التى يحفظها له التاريخ وقتل وصلب وأحرق بالنار كما هو مشهور . ومع هذا فبقى أكثر المسلمين نحو ٢٠٠ سنة وهم يحفظون ديانتهم سراً ويتظاهرون بالكثلكة وقد يزداد عليهم الضغط فيلجأون الى الثورة ولاسيما فى جبال البشرات التى اعتصموا بها لمنعتها فجرت بينهم و بين الاسبانيول وقائع عديدة الى ان انتهى أمرهم فى زمان فيليب الثانى فى أوائل القرن السابع عشر بجلاء البقية الباقية منهم الى افريقية . على انه مما لاشك فيه ان كثيرين من الآباء أجبروا على تعليم أولادهم الديانة المسيحية منذ الحداثة فنشأ هؤلاء مسيحيين و بطول الزمن صاروا اسبانيولا وهؤلاء هم الذين اليوم ينتسبون الى العرب تدل على ذلك خلقتهم وسحنتهم وأسماؤهم وأماكنهم . وربما يقال ان مسلمى الاندلس أنفسهم لم يكن أصلهم كلهم عربا بل أسلم فى الفتح العربى اسبانيول كثيرون وهذا جائز وهو ما كان يدعيه ديوان التفتيش ويجعله مبرراً لاعماله وان كان تاريخ المدنية انكرها ولقد اعتادت الدنيا هذا المد والجزر فى الحكومات والديانات فحبذا لو خفت حدة هذا التباغض بين الناس من جراء الفوارق الدينية لاسيما بين ارباب المذاهب التى تدعو جميعها الى عبادة الخلاق ومكارم الاخلاق

مصير الاندلسيين

للأستاذ الأكبر سيدى محمد الطاهر بن عاشور التونسى

وقد اطلعنا على محاضرة تحت عنوان « مصير الأندلسيين » بقلم الاستاذ الاكبر سيدى محمد الطاهر بن عاشور التونسى كبير أهل الفتيا من السادة المالكية بتونس جاء فيها خبر احتضار دولة الاسلام بالاندلس وفق ما جاء فى النفح وغيره ثم قال : قلنا ان عدداً من المسلمين اختاروا الخروج من الأندلس لما رأوا بوارق الغدر والخيانة . ثم عزم أكثرهم على الخروج حين أرغموا على التنصر وضيق عليهم فى أمور دينهم وقد قدمنا أنهم كانوا اشترطوا على الاسبان فى عقد الصلح أن من رام من المسلمين الخروج يخرجونه الى بر العدوة من غير دفع كراء ولا مغرم .

فلما طلب جميع المسلمين الخروج لم يحضروا لهم الا قليلا من الاجفان حتى لاغوا عناء عظيما .

ولما صالحوا أهل جبل (بلقنة) على الخروج الى فاس آخرجوهم بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر ثم لما أصدر فيليب الثالث أمره باخراج كل من اشتبه أمره من الموريسكو أمر بأن لا يخرجوا معهم نقود الذهب من المملكة و بذلك لم يجدوا فائدة فى فى بيع أملاكهم فتركوا معظمها وأحضر لهم قليل من المراكب وكان الخارجون على التقدير الصحيح ثلاثمائة ألف ومن المؤرخين من يقول نحو المليون فسافر كثير منهم الى فاس وتطاون وسلا والرباط وتلمسان و وهران وتونس وعددهم يقرب من مائة وثلاثين ألفاً . ومات منهم فى الطريق ما يقرب من تسعين ألفاً من الجوع والتعب وخرج منهم الى بلاد فرانسا برا مقدار مائة ألف فاشترطت عليهم الافرنج أن يتدينوا بالديانة الكاثوليكية فرفضوا ذلك فردوا من حيث أتوا فاختاروا فى أمرهم وقصدوا المراسى الفرنسوية للسفر الى المغرب فمات كثير فى فرنسا ونجا قليل منهم وقد تسلط أعراب البوادى على كثير ممن خرجوا الى فاس وتلمسان فى الطرقات ونهبوهم ولم يسلم من ذلك الا الذين خرجوا الى تونس

الأندلسيون فى البلاد التونسية

علاقة الأندلس بتونس قديمة من وقت الدولة الحفصية فقد وفد منهم على تونس عدد كثير فى مدة الحفصيين لاسيما فى زمان السلطان المستنصر بالله الحفصى و كان لوفودهم على تونس أثر عظيم فى انتقال حضارتها من البساطة الى الرقى والترف والرقة قال ابن خلدون فى ذكر المستنصر «ومدت اليه ثغور القاصية من العدوتين[1] يد الاعتصام بما اجتمع بحضرته من أعلام الناس الوافدين على أبيه (أبى زكرياء) من شاعر مفلق وكاتب بليغ وعالم نحرير وفى أيامه عظمت حضارة تونس وكثر ترف ساكنيها وتأنق الناس فى المراكب والملابس والمبانى والماعون والآنية» .

وكان بتونس فى الدولة الحفصية جند من الأندلس خاصة وكان رجال شورى السلطان من الموحدين ومن الأندلس قال ابن خلدون عند ذكر نزول الفرنسيس على قرطاجنة «وتفاوض السلطان (أى المنتصر) مع أهل الشورى من الأندلس والموحدين - ثم قال - وملئت سواحل رادس بالمرابطة من جند الأندلس والمتطوعة»

وأيضاً قد كان بين تونس والأندلس ارتباط بولاية أبى حفص الهنتاتى جد الحفصيين امارة اشبيلية من جهة عبد المؤمن بن على ثم ابنه عبد الواحد ثم ابنه زكرياء

لذلك لما انجلى المسلمون من الأندلس جلاءهم الأخير كانت البلاد التونسية من أول ما وقع نصب أعينهم فى هجرتهم فركبوا اليها البحر ونزلوا بشطوطها والظاهر أن نزولهم كان بمرسى بنزرت و بمرسى المهدية ومن هذين المرسيين قصدوا حاضرة تونس ثم تفرقوا فى البلاد فاقتبلهم أهل المملكة بالترحاب ولم ينلهم فى طريقهم نهب ولا ضرر كما قلنا آنفاً وقبل أن يفدوا على الحاضرة أرسلوا الى أهلها يستنبئون أيسمحون لهم بالدخول فوجدوا من أهل الحضرة رغبة فى قدومهم و إكراماً لمثواهم .

وقد وقفت على كتاب اسمه نور الأرماش فى مناقب سيدى أبى الغيث القشقاش ألفه السيد المنتصر القفصى وكان من مريدى سيدى أبى الغيث وهذا الكتاب موجود بخزنة جامع الزيتونة تحت عدد ٣٨٨٣ قال فى أول الفصل الثانى منه ما نصه «لما جاء الأندلس لتونس كنت أنا بتونس برسم الزيارة وكنت ذات يوم خارجا من باب بشرقى جامع

---

(١) هى عدوة الأندلس لأنها أبعد عنا من عدوة المغرب

الزيتونة فلقيت كبراء الأندلس ومشائخهم وفي أيديهم ورقة كاغد وهم يفتشون على من يقرؤها لهم فصادفوني فقالوا أنت تقرأ خط الشيخ سيدي أبي الغيث فقلت لهم نعم فأطلعوني على ورقة مكتوبة بالأخضر فيها مكتوب « الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله الى ساداتنا الاندلسية خصوصاً منهم سيدي فلان وسيدي فلان الى أن سمى من أكابرهم عشرة رجال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد فلا مزيد بحمد الله تعالى إلا خيراً وأنا داعي لكم بخير وما ذكرتم لنا على أنني أستخير الله تعالى لكم فاستخرت لكم عند والدي والثاني ليلة عند أستاذي سيدي محمد حذيفة والثالث ليلة عند والدي فرأيت لكم خيراً والمهدية مشتقة من الهدى وأنتم كما قال الشاعر:

تحيا بكم كل أرض تنزلون بها كأنكم ببقاع الأرض أمطار

وذكر تكملة الأربعة الأبيات والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته من العبد الفقير أبو الغيث ثم أخذوا الورقة من يدي وساروا فرحين مستبشرين بكلام الشيخ اهـ »

وهذه الحكاية صادرة من شاهد عيان وهي أجلى ما يمثل لنا جالية الاندلس ولا يعادلها فقرات مثلها في كتب التاريخ ويستفاد منها أمور أحدها أن أهل الاندلس نزلوا بشاطئ المهدية لقول الشيخ لهم والمهدية مشتقة من الهدى فتفاءل لهم بذلك الثاني أنهم كانوا على حالة جهل حتى لم يستطيعوا قراءة كتاب الشيخ أبي الغيث الثالث ان اسناد رئاستهم الى عشرة كانت من الأمر المطرد فيهم في سائر أحوالهم ومنه كان رؤساء صناعة الشاشية — وهي من مآثر الجلاء الأندلسي — عشرة يلقبون عندنا الى اليوم «بالعشرة الكبار» الرابع أنهم كانوا أوجسوا خيفة من سوء القبول فاوفدوا الى الشيخ من يراجعه في شأنهم ولذلك استبشروا لما رأوا منه حسن القبول لأن الشيخ أبا الغيث في ذلك العصر هو معتقد أهل تونس من أمير ومأمور

وكان وفود الاندلس الى تونس في سنة ١٠١٧ في ولاية عثمان داي قال ابن أبي دينار في المونس « وفي سنة ١٠١٧ والتي تليها جاءت الأندلس من بلاد النصارى نفاهم صاحب اسبانية وكانوا خلقا كثيرا فأوسع لهم عثمان داي في البلاد وفرق ضعفاءهم على الناس وأذن لهم أن يعمروا حيث شاءوا فاشتروا الهناشير وبنوا فيها واتسعوا في البلاد فعمرت بهم واستوطنوا في عدة أماكن ومن بلدانهم المشهورة (سليمان . وبلي . ونيانو . وقرنباليه .

وتركى . والجديدة . وزغوان . وطبرية. وقريش الواد . ومجاز الباب. والسلوقية. وتستور . وهى من أعظم بلدانهم وأحضرها والعالية . والقلعة ـ أى قلعة الاندلس ـ وغير ذلك بحيث تكون عدتها أزيد من عشرين بلدا فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الكرم والزيتون والبساتين ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين وصاروا يعدون من أهل البلاد » ولم يذكر ابن ابى دينار من استوطن منهم بحاضرة تونس و بلد بنزرت فأما تونس فنزلها منهم أهل الصنائع والفنون فأهل الصنائع الدقيقة سكنوا المدينة وهم أهل الثروة منهم و بنوا لأنفسهم حومة تعرف بزقاق الأندلس قرب جامع القصر. وأما أهل الصنائع الأخرى و بعض الفلاحين من أهل الحواضر فسكنوا ربض باب السويقة وهم أول من بنى هنالك خارج السور فبنوا الحومة المعروفة بحومة الأندلس ولم يزل من بقاياهم هنالك عائلات منهم عائلة الأندلوس .

ولما نزلوا تونس احتفى بهم أهل البلد قال السيد المنتصر فى مناقب سيدى أبى الغيث القشاش « ولما أن جاء الاندلس الى تونس ضاقت بهم المحاجج والطرقات والأسواق والديار والمخازن والحوانيت وصاروا يأتون الى الشيخ والى سماطه وجرى معهم الشيخ رضى الله عنه كالريح المرسلة فى إطعام الطعام وكسوة العريان حتى انى أحصيت مايخرج لمؤونتهم اثنتى عشرة مائة خبزة من القمح وقفيزين من الدقيق والكسكسو شئ يابس وشئ مسقى وزوج أحمال من الخروب ـ لعلف الدواب ـ بخلاف اللبن واللحم رأسين بقر كل يوم هذا على حساب العام الكامل ضيفهم الشيخ ولما كثر الأندلس بتونس وعمروا اقليمها ودوائرها وعمروا الجزيرة وكثرت بلدانهم وكثر خيرهم وحرثهم وتأهلوا صاروا يأتون من كل بلد لهم لزيارة الشيخ سيدى أبى الغيث ويأخذون على يديه العهد من كل بلد حزبا وكل حزب يجعل له نقيبا والنقيب هو شيخ الفقراء ويعطيه علاما ـــ أى علما ـــ أخضر ويوصيه بطاعة الله وكان الأندلس ممتثلين لأمر الشيخ سامعين له مطيعين فى كل أمر وكان يحسن إليهم ويواسيهم ويكاتبهم ويأخذ بخواطرهم ويقضى حوائجهم فى كل مايحتاجون إليه وكان أقربهم إليه سيدى محمد بن عبدالرفيع الاندلسى » اه

أما بلد بنزرت فقد سكنها الاندلس و بنوا بها حومة تعرف الآن بحومة الأندلس وأسسوا قربها قرية منزل جميل ومنزل عبدالرحمن والعالية وغار الملح وكذلك نزلوا منازل من الجزائر القبلية غير ماذكره ابن ابى دينار مثل منزل أبى زلفى ومنزل تميم بالدخلة وقرية

الفهري وقرية دار شعبان ونزل فريق منهم ببلد نابل

وقدنظم الأندلسيون لأنفسهم بهذه البلاد نظاما حفظ لهم عوائدهم وقوميتهم الأصلية وأقاموا عليهم كبيرا بلقب شيخ الأندلس فكانوا يحكمونه فى فصل الخلاف بينهم ويرجعون إليه فى مهامهم ودام هذا الوظيف فيهم الى مدة الأمير محمد باشا وآخر من وليها الشيخ مصطفى شلبي بعد سنة ١٢٧١

الأندلس بالمغربين الأقصى والأوسط

اتصال أهل الاندلس بالمغرب الاقصى قديم من عهد الدولة اللمتونية ثم الموحدية ولما استولى الاسبان على غرناطة قصد سلطانهم أبو عبدالله بلاد فارس وتبعه جمع عظيم منهم ثم لما انجلى الأندلسيون الجلاء الأخير قصدت جموع عظيمة منهم بلاد المغرب واستوطن معظمهم مدينة سلا و رباطها المعروف اليوم بالرباط أو بقلعة سلا وبنوا هنالك قصورا ودورا وحمامات وانتفع بهم ملوك المغرب فى تعليم الصناعات وتدبيج الحضارة وجندوا منهم جندا عظيما فى البر والبحر وبهم فتح الملك المنصور السعدى اقليم السودان فمن أجل ذلك لقب مسلمو السنغال عند الافرنج بلفظ مور[1]

ويظهر أن جل أهل الثروة من الاندلسيين قصدوا المغرب الاقصى واستوطنوا فاسا وبثوا هنالك الحضارة الأندلسية فى جميع مظاهرها ولاسيما فنون البناء والنقش والتزويق وأساليب المعيشة وبث العلم

وكذلك خاتمة علماء الأندلس قد انتقل معظمهم الى فاس وبثوا هنالك العلوم فكان دخولهم نهضة عامة فى الحضارة العلمية والفنية بالمغرب الأقصى

وأما المغرب الأوسط فقد نزلوا منه بتلمسان ووهران وانحاز الى تلمسان طائفة من أهل العلم فظهرت هنالك أيضا نهضة فى العلم والحضارة

* * *

والخلاصة أن مالحق مهاجرى الأندلس من السعادة والعمران قد حصل نقيضه فيما أخلوه من بلادهم التى سكنها الاسبان وماعمروها وعد المؤرخون إخراج الاندلسيين من وطنهم أعظم خطيئة اخطأها فيليب الثالث على مملكته واشقى بها لأجل ذلك على الفقر والتأخر

وإذا نظرت الى البلاد وجدتها تشقى كما يشقى العباد وتسعد

(١) قلت وقد وجد فى تنبكتو قوم يقال لهم الأندلس من بقايا هؤلاء

طرابلس الغرب وايطاليا

للأمير شكيب

(١) الكتب الواردة على السيد احمد الشريف السنوسى من لورد كتشنر والسير مكماهون والجنرال مكسويل وهى ثلاثة .
(٢) ما سبق فى التاريخ من استيلاء الافرنج على طرابلس الغرب
(٣) عرب طرابلس الغرب لعبد الستار بك الباسل

قد جرى بعد طبع الجزء الأول [١] من هذا الكتاب حوادث كثيرة فى طرابلس الغرب ان لم يسعنا شرحها كلها فلا مناص من الاشارة اليها ولو على وجه الاختصار لأنها من آلم ما ألمّ بالمسلمين فى هذا العصر

منذ استولى على ايطالية حزب الفاشيست تحت رئاسة موسولينى بدأ الاسلام فى طرابلس وبرقة يؤول الى الانقراض التام

ومن المعلوم أن مبادئ الفاشيست هى الوصول الى أغراضهم بكل وسيلة وبدون أدنى نظر الى ما يقال له « حقوق الأمم » و « حقوق الانسانية » وما أشبه ذلك مما اتفقت الأمم على مراعاته . بل يعلنون ويصرحون ولا يجمجمون بأنهم لا يعرفون الحرية ولا يقدسون للحقوق العامة عهداً وان كل شئ يرونه ضرورياً لأجل تعالى ايطاليا و بسطتها فى الأرض أو لأجل توطيد دولة الفاشيست فهو عندهم سائغ جائز طابق ذلك الحقوق الانسانية والحقوق الدولية أو لم يطابق . ولموسولينى خطب كثيرة وكتابات بتوقيعه تؤخذ منها هذه المقاصد بدون اشكال فلهذا لم تبق فى ايطاليا لا حرية قول ولا حرية كتابة وكل شئ يصادم ارادة الفاشيست فهو ممنوع . ولما أراد البابا تأليف جمعيات كاثوليكية هب الفاشيست فى وجهه ومنعوه من تأليفها وأقفلوا أماكن هذه الجمعيات لا عداوةً للكثلكة التى هم أنصارها الأشدّاء بل خشية أن يوجد فى ايطالية حزب خارج عن حزب الفاشيست

---

(١) راجع صفحة ٢٩٠ من الجزء الأول

ولقد احتجّ البابا على استبداد الفاشيست به واشتد الخلاف بينه و بين موسوليني ولكنه خاب في مسعاه وذهبت احتجاجاته سدًى وهذا بعد أن ألحق به الفاشيست اهانات كثيرة و بعد أن داسوا صورته بالأقدام علنا فى أسواق رومة

فالحزب الكاثوليكي الذى يهين البابا نفسه والحزب الايطالى الذى لا يجيز أن يكون فى ايطالية حزب سواه ولا يقبل فى تلك المملكة قانوناً غير الذى ينطبق على مبادئ الفاشيست لاشك أنه اذا تسلط على طرابلس الغرب كانت مباديه أفظع وأشنع وأبعد فى الظلم مدًى . فان الأمم الحرة الديموقراطية فى أور بة تجتهد مبلغ امكانها فى العدل والمساواة فى بلادها حتى اذا صارت بازاء المسلمين نسيت مبادئ العدل والمساواة وكالت بمكيال للاور بيين و بآخر للمسلمين وأوضح دليل على ذلك حالة الادارة الافرنسية فى الجزائر وتونس والمغرب وحالة الادارة الهندية فى الجاوى وسومطرة ولا يستثنى من ذلك أيضاً حكم الانكليز فى الهند . فاذا كان هذا دأب الأمم التى تقيم للعدل والمساواة والحرية وزناً فما ظنك بالقوم الذين لا يعرفونها من الأصل ولا يتقيدون بها تجاه أبناء جنسهم أنفسهم ومن يقولون انهم لا يدينون بشئ الا بالوصول الى عرضهم لا جرم أن المظالم التى أوقعها الطليان الفاشيست فى طرابلس و برقة هى مما لم يقع نظيره فى هذا العصر . وقد يكون نادراً حتى فى القرون الوسطى . وما أحسن ماقاله الوطنى المصرى المشهور الاستاذ عبد الرحمن عزام فى إحدى مقالاته البليغة وهو (ان الناس يبحثون عن أخبار الأندلس وكيف أجرى الأسبانيول بالمسلمين هناك . وماالهم وللاندلس ولأمور جرت فى القرون الوسطى فأمام أعينهم طرابلس الغرب فليذهبوا و يشاهدوا بأعينهم فى هذه الأيام فظائع لا تقل عما جرى بالأندلس)

فالفاشيست قرروا تحويل طرابلس و برقة بلاداً لاتينية وأجمعوا انزال مليونين أو ثلاثة من الطليان بها بزعمهم أن ايطاليا ضاقت بأهلها . والحقيقة أن انزال نصف مليون ايطالى بطرابلس و برقة قد تعجز عنه ايطاليا لما يتقاضاها ذلك من النفقات الوجيعة ولكون الأراضى الجيدة فى تلك البلاد قليلة جداً وهى على كل حال لا تستحق الهجرة اليها ولا يعيش بها الا القنوع . والفاشيست انما يقصدون فى الحقيقة مجرد الافتخار والابتهار بأنهم فتحوا بلداناً واستعمروا أقطاراً لأنه لو كان المقصود مجرد انتجاع الأراضى ففى نفس ايطاليا أرضون مهملة هى أجود من أرض طرابلس وأقرب للطليان وجزيرة سردانية من

من اخصب البقاع وأوسعها وهى تكاد تكون خالية

ومن شاء أن يعرف مايعترض ايطاليا من الموانع الاقتصادية فى استعمار طرابلس الغرب وما يوجد فى نفس ايطاليا من الاراضى التى هى أولى بالاستعمار منها فليطالع للسنيور « نيتى » رئيس وزراء ايطاليا سابقاً ومن أعظم رجال السياسة والعلم فى أوربة تأليفه الذى يبحث فيه عن الديموقراطية والفاشيستية والبلشفية فانه يزداد بمطالعة هذا الكتاب يقينا بأن استعمار طرابلس لم يكن الا لأجل مسابقة الدول الأخرى فى ميدان الفتوحات والتمرينات العسكرية لا لأجل مقاصد اقتصادية كما يزعمون وأن طرابلس لم تكن ولن تكون بلاداً تؤتى أكلها على أثر استعمار أو استثمار

وخلاصة القول أن اخواننا الطرابلسيين لأمر يريده الله ابتلوا من الاستعمار الايطالى الفاشيستى بالداهية الدهماء والبلية الصماء التى مهما كثرت مصائب الاسلام فى هذا العصر فلا شئ منها يشبهها

فقد حزر بعض الواقفين بعشرين الف نسمة عدد الذين شنقهم الطليان من أهالى طرابلس وبرقة منذ احتلالهم وكثيراً ما شنقوا اناسا بدون محاكمة بل بمجرد ارادة قائد أو بمجرد ارادة ضابط صغير . وقد وقع لهم انهم شنقوا نساء جردوهنّ من ثيابهن وأبقوهنّ مجرّدات عدة ايام . وقد وقع انهم كانوا يسلكون ستين أو سبعين شخصاً فى سلسلة واحدة ويحبسونهم على هذه الصورة مدة الى أن يموتوا . وقذف البحر مرةً عدة جثث الى ساحل السلوم مربوطاً بعضها ببعض فرجح الناس انها من جثث أهالى طرابلس لكثرة ما ربط الطليان من اولئك المساكين بالحبال ورموا بهم فى البحر . وقضية الفظائع التى ارتكبها العسكر الطليانى بأهل المنشية فى أول نزولهم بطرابلس هذه قد اقشعرت لها أبدان الاوربيين برغم انهم على وجه الاجمال لا يشعرون بآلام المسلمين . وقد حاول الطليان تبرير تلك الاعمال الوحشية بكون الطرابلسيين قد هاجموا العساكر الايطالية من الوراء بينما هم يحاربون الجيش العربى الذى امامهم ولكن ألوفا من الافعال الوحشية التى أقدموا عليها قد اقدموا عليها بدون موجب سوى حب الانتقام من المسلمين والعمل لاستئصال شأفتهم من طرابلس وبرقة ليخلوا للطليان الجو بها ويسكنوها آمنين

ولما كانت اراضى الجبل الاخضر من برقة هى أجود قطعة من برّ طرابلس وفيها

المياه الجارية والعيون الصافية والغابات الملتفّة والمروج المريعة توجهت انظار الطليان الى استعمار هذه القطعة قبل غيرها وأخذوا يفكرون فى الطريقة التى تمكّنهم من اسكان الجنس اللاتينى فيها بدون أن ينازعهم أحد عليها. فلم يجدوا طريقة سوى اجلاء القبائل العربية الساكنة فى الجبل الاخضر وجواره عن أراضيهم وجمعوا منهم ثمانين الف نسمة رجالاً ونساءً وأطفالاً وساقوهم الى صحراء « سرت » فى الأراضى الواقعة بين برقة وطرابلس على مسافة عشرة أيام من أوطانهم الأصلية وأنزلوهم فى معاطش ومجادب لا يمكن أن يعيش بها بشر ولا بقر فمات جانب كبير منهم جوعاً وعطشاً وماتت مواشيهم بأسرها من فقد الكلأ والماء . وعند ذلك جعلت الحكومة الايطاليّة لكل عائلة منهم فرنكين ايطاليّين يوميا أشبه بما يسمونه « قوت لايموت » وارتفع صراخ هؤلاء الأهالى وراجعوا الحكومة الايطالية وشكوا لها موت ذراريهم وموتان مواشيهم فما زادها ذلك الا مضاءً فى عزيمتها ولكنها جاءت فأخذت منهم الرجال الذين من سن البلوغ الى الخامسة والأربعين وأدخلتهم فى سن الجندية . ثم عمدت الى الاحداث من فوق أربع سنوات الى ١٢ سنة فأخذتهم قهراً من أحضان آبائهم وأمهاتهم فى يوم تشيب من هوله الأطفال ودفعتهم الى ايطاليا لأجل تربيتهم وتنشئتهم فى النصرانية . وهذا هو العمل الذى لم تقدم عليه حكومة بعد فى هذا العصر والذى يشبه عمل الاسبانيول بمسلمى الاندلس منذ أربعة قرون قد أعاده موسولينى فى هذا القرن ولم يبال صراخ أولئك المساكين ولا بالى مخالفة ذلك للحقوق البشرية العامة التى تجعل الأب والأم أوصياء طبيعيين على أولادهما القاصرين . وقد زعمت الحكومة الايطالية أمام الناس انها انما نقلت هؤلاء العرب من أوطانهم لتعزلهم عن عصابة الثوّار الذين كان يقودهم عمر المختار رحمه الله . وهو كلام فارغ لا يقبله عقل ولا عدل اذ كيف تقدم حكومة على نقل ٨٠ ألف نسمة من مساقط رؤوسها خشية أن يتصلوا بخمسمائة ثائر لا غير ثم ان الطليان تغلبوا على الثوار المذكورين وقبضوا على قائدهم عمر المختار الذى ما فتئ يجاهدهم من عشرين سنة وشنقوه بمحضر جم غفير من أبناء جلدته فمضى الى ربه شهيداً و بكاه العالم اسلامى بأجمعه وانطفأت الثورة من كل برقة ومع هذا لم ترض الحكومة الايطاليّة أن تعيد هؤلاء الاهالى الى بيوتهم وأوطانهم بل انتخبت من بقاياهم أربعة أو خمسة آلاف وأرجعتهم الى الجبل الاخضر يحرثون ويزرعون لا كمالكين بل

كعمَلَة فى الأملاك التى نزعتها الحكومة الايطالية منهم وسلمتها الى المستعمرين الطليان . و بعبارة أخرى مثّلت ايطاليا فى هـذه المسألة أيضاً دور الاندلس عندما انتزعت أراضى المسلمين وسلمتها الى كبار الاسبانيول والى الرهبان ثم جعلت المسلمين أصحابها القدماء اكرة فى نفس أراضيهم لحساب غيرهم . وهذا هو السبب الذى أثار فلاحى الاندلس اليوم وحملهم على مطالبـة الحكومة الاسـبانية بعد سقوط الملكية وتأسس الجهورية فيها باعادة هذه الاراضى ملكاً لهم بحجة أنهـا كانت لآبائهم الذين كانوا مسلمين فى الأصل . ولقد قررت الحكومة الاسـبانية الحاضرة تمليك فلاحى الاندلس هـذه الاراضى ونزعت أيدى الرهبان ونبلاء الاسبانيول الذين كانوا يملكونهـا . فالفاشيست اقتفوا آثار فرديناند وايزابلا فى الاندلس من كل وجه . ثم لمـا ثارت اعتراضات المسلمين على ايطاليا من أجل اجلاء الثمانين الف عربى عن اراضيهم واغتصابهـا اياها وتسليمها الى الطليان قامت ايطاليا بتمويهٍ آخر لا يقل عن التمويه الاول سُخفاً وهو ان تقول : ان كثيراً من الحكومات الاسلامية قد أجبرت القبائل الرُحَّل من رعاياها على التحضُّر والعدول عن الهيام فى البرارى وانها هى أى ايطاليا انمـا أرادت حمـل هؤلاء العرب على قبول الحضارة . كما فعلت الحكومات الاسلامية نفسها ولا نعلم لمـاذا يستلزم حملهم على ترك البـداوة أن يجلوا عن أملاكهم وأراضيهم و يصار بهم الى فلاة قاحلة لاماء فيهـا ولا كلأ تقريباً ؟ وهل كانت تعجز ايطاليا عن اجبارهم على ترك البداوة وهم فى وسط أراضيهم الخصبة بالجبل الاخضر ؟ ان هـذا التمويه لم يقنع أحداً وقـد أشرنا اليه مراراً والى سائر فظائع ايطاليا بطرابلس فى مجلتنا العربية المنهج الافرنسية الملهج المسماة « بالامة العربية » La Nation Arabe ونزيد على ذلك قولاً نقوله عن علـم وعن خبرة وهو اننا فى أوائل غارة ايطاليا على طرابلس ذهبنا بنفسنا ومعنا بعض من أتباعنا وجاهدنا مدة ثمانية أشهرفى درنه و بنغازى فاتيح لنا أن نجوب الجبـل الاخضر والاراضى التى تمتد من عقبة السلوم الى سهل بنغازى من أولها الى آخرها وعرفنا السلوم ودفنا وطبرق وغور الطنفسة وسائر ما يسمى بالبطنان ثم الجبل الاخضر بما اشتمل عليه من أراضى قبيلة العبيدات فى درنه وعين منصور ونبع مارة وترت وبشارة والقيقب وشحات مدينة سيرنّا القديمة وأراضى قبيلة الحاسه فيها و بعـد ذلك أراضى قبيلة البراعصة فى قلب الجبل بجوار الزاوية البيضاء و بعـد ذلك

أراضى قبيلة الدرسا وأراضى العرفا والعبيد حول قصبة المرج الى أراضى العواقير والمغاربة بظاهر مدينة بنغازى . وقد تعرفنا الى كثير من رؤساء هذه القبائل ومن مشايخ الزوايا السنوسية التى منها لكل قبيلة زاوية أو زاويتان أو ثلاث بحسب عدد تلك القبيلة وقد زرنا أكثر تلك القبائل فى نجوعها ولم نجد منها قبيلة واحدة يصح أن يقال فيها انها عريقة فى البداوة بل جميعها أصحاب زراعات وجنان و بساتين ومنها من يسكن المضارب ومنها من يسكن المدر ولكن الجميع حراثون زرّاعون مستقرون لايظعنون الى أماكن بعيدة وانما يشتون و يصيفون فى بلادهم على عادة الكثيرين من الفلاحين وسكان الحجر فى جميع الدنيا . ولنفرض جدلاً ان ايطاليا شاءت تحضيرهم كما تزعم أفلم يكن ذلك ممكنا مع ابقائهم فى أراضيهم ؟ أكان من الضرورى لأجل تحضيرهم اخراجهم من أراضيهم المريعة البديعة واسكانهم فى فلاة قاحلة ليموتوا ؟ كل الادلة متظاهرة من اعمال ايطاليا فى طرابلس و برقة على ان مراد الفاشيست هو استئصال الشعب الاسلامى من ذلك القطر لاحلال اللاتين محله . ولقد وصلت ايطاليا الى هذا الغرض ان لم يكن بتمامه فالى جانب كبير منه . فلقد كان أهالى طرابلس و برقة قبل غارة ايطاليا عليهما مليوناً ونصف مليون من النسم فلم يبقَ منهم الآن بحسب الاحصاء الأخير سوى سبعمائة الف نسمة . فيكون قد تناقص عددهم الى النصف بالظلم والعسف والقتل وما نشأ عن ذلك من رحيل الأهلين منهم من قصد السودان ومنهم من دخل مصر ومنهم من تحول الى تونس ومنهم من وصل الى الجزائر . والطليان مسرورون بان الجو بذلك يخلو لهم مغرورون بان افريقية ألقت اليهم بقيادها بواسطة طرابلس . وكل هذا أوهام وأحلام وستبدى لهم جهلهم الأيام . ولكنهم تركوا فى قلوب المسلمين من جراء أعمالهم فى طرابلس جراحات لاتوسى وحزازات لاتنسى ومن جملة أعمالهم فيها عدا ماتقدم ذكره انهم لما احتلوا واحة الكفره فى ١٣ يناير من سنة ١٩٣١ الماضية استباحوا قراها ثلاثة أيام فقتلوا من صادفوه من الأهالى . وكان من جملة القتلى بعض الشيوخ الأجلاء مثل السيد محمد بن عمر الفضيل والسيد حيده الفضيل والشيخ فضيل الديفار وغيرهم ممن قتلوه صبراً غير داخل فى ذلك من قتلوا فى المعركة التى جرت بين الأهالى وجيش الحملة الطليانية وهم ٢٠٠ شخص . ثم ان الطليان انتشروا فى القرى والبساتين ونهبوا كل ماوقع فى أيديهم ولم يرحموا الشيوخ ولا الأطفال ولاالنساء وصادفوا الشيخ مختار الغدامسى وهو

شيخ فان بالغ ثلاثا وتسعين سنة ومن جلة علماء السنوسية فحملوه مقيداً بالحبال على جمل ونفوه من الكفرة فمات فى الطريق . ثم اغتصبوا النساء فى أعراضهن وقتلوا منهن كثيراً ممن دافعن الى الآخر عن أعراضهن . وكان نحو من ٢٠٠ امرأة من نساء الأشراف قد فررن الى الصحراء قبل وصول الجيش الايطالى فارسلوا قوةً فى اثرهن تتأثرهن حتى قبضوا عليهن وسحبوهن الى الكفرة حيث خلا بهن ضباط الجيش الطليانى واغتصبوهن وهكذا أنزلوا المعرات بسبعين أسرة شريفة من أشراف الكفرة الذين كانت الشمس تقريبا لاترى وجوههن من الصون والعفاف . وقد أشارت الصحف الطليانية الى هذه الحادثة وصرحت فى باب الافتخار قائلة : « ان الجيش قبض على ٢٠٠ امرأة من نساء الزعماء » وقرأنا ذلك باعيننا ولحظنا ان مقصود البلاغ العسكرى الايطالى التبجح بكون حلائل زعماء الكفرة صرن الى الضباط . الا اننا انتظرنا جلاء الاخبار من الجهة الثانية حتى نعلم ماذا جرى بعد التثبت فمضى شهر حتى وردت الاخبار من المهاجرين الذين دخلوا حدود مصر بان هؤلاء السيدات المقصورات الناشئات فى أكرم مهود الطهارة والصون قد قبضوا عليهن فى الصحراء وصرن الى أولئك الفَجَرَة الذين لا يعرفون لصيانة العرض معنى ولا يقيمون للشرف وزناً . وعلمنا ان بعض شيوخ الكفرة الذين احتجوا على هتك أعراض السيدات المذكورات قد أمر القائد بقتلهم .

ثم لما هاج هائج العالم الاسلامى من جرّاء هذا الخبر وأشباهه أذاعت الحكومة الايطالية تمويهاً ظاهراً زعمت فيه أن الجيش تأثر النسوة المائتين المذكورات شفقةً عليهن ولأجل أن يرجعهن الى بيوتهن آمنات وغير ذلك من الأقاويل التى قصدت ايطاليا بها تخدير أعصاب المسلمين الذين بلغهم ما كان جرى بالكفرة من هذه الفظائع من هتك أعراض مخدرات المسلمين ومن استباحة الزاوية السنوسية المسماة « بالتاج » واراقة الخمور فيها ودوس المصاحف الشريفة بالاقدام هذا منضما الى ما كان بلغهم من قبل من اجلاء ١٨ ألفاً من عرب الجبل الأخضر عن أوطانهم واماتتهم بالجوع والعطش وأخذ أطفالهم قهراً الى ايطاليا لأجل تنصيرهم والى ما كان بلغهم من فظائع كثيرة مثل حمل الشيخ سعد شيخ قبيلة « الفوائد » و ١٥ شيخاً من رفاقه بالطيارات وقذفهم بهم من الجو على مشهد من أهلهم حتى اذا وصل أحدهم الى الأرض وتقطع ارباً صفق الطليان طربا ونادوا العرب قائلين : « ليأت محمد هذا نبيكم البدوى الذى أمركم بالجهاد وينقذكم من أيدينا » والى غير ذلك من

الأمور التى جرحت قلوب المسلمين فجرت مظاهرات فى الشام وحلب وطرابلس الشام وبيروت وفلسطين وانعقدت اجتماعات فى كل مكان للاحتجاج على أعمال ايطاليا فى طرابلس وأبرق المسلمون بالاحتجاجات الشديدة الى جمعية الأمم بجنيف والى نفس موسولينى بالعبارات القاسية وقامت قيامة الجرائد العربية وحملت على توحش الفاشيست من كل جانب وامتلأت جرائد مصر بالاحتجاج والطعن فى ايطاليا الى أن عطلت الحكومة المصرية بعضها اجابة لطلب الحكومة الايطالية ووصل الصريخ الى الهند والجاوى وأضج المسلمون لهذه الأخبار وانعقد فى الجاوى اجتماع كبير حضره ألوف مؤلفة من المسلمين وخطبوا خطبا شديدة ودعوا الى مقاطعة البضائع الطليانية وتدخلت الحكومة الهولاندية فى الأمر وانتصرت لايطاليا بمقتضى قاعدة التكافل الأوربى بوجه المسلمين وقاعدة التكافل الاستعمارى بوجه الأمم المقهورة وأشاع قناصل ايطاليا ان كل هذه الاخبار عما حلّ بمسلمى طرابلس ملفقة لا أصل لها وبلغت بهم القحة انهم كانوا يخاطرون الناس مخاطرة على أن يذهبوا الى طرابلس بأنفسهم ليشهدوا كذب هذه الأقاويل وبلغ بهم البهتان انهم أشاعوا أيضاً أن ايطاليا اقترحت على جمعية الأمم أن ترسل الى طرابلس لجنة من عندها للتحقيق عما ينسب الى رجالها من الأعمال الشنيعة التى هم أبرياء منها . وكل هذا اختلاق محض قصدت به ايطاليا التمويه وتخدير الاعصاب وصرف المسلمين عن مقاطعة بضائعها وقد سكن كثير من المسلمين الى هذه التكذيبات وهدأ بالهم والحق خلاف ذلك . وكل ما شاع من الاخبار عن أعمال الطليان لا سيما بعد مجىء دولة الفاشيست هو دون الواقع . ولو تأمّل المسلمون فيما يأتيه الفاشيست فى نفس ايطاليا من الموبقات ومن اغتيال أعدائهم السياسيين ومن حجز كل حرية ومن منع تأليف كل حزب يخالف حزبهم ولو نظروا الى اهانتهم للبابا نفسه ومنعهم إياه من تأليف الجمعيات الكاثوليكية بحجة ان الحزب الفاشيستى الذى هو كاثوليكى الصبغة يغنى عن تأليف أحزاب كاثوليكية أخرى لعلموا ان الذين يفعلون تلك الافاعيل بأبناء أمتهم وملتهم ووطنهم لا يقال انهم لا يفعلون اضعافها بالمسلمين الذين ينوون هم استئصال شأفتهم من طرابلس لتحويل تلك البلاد الى مملكة لاتينية كما كانت لعهد الرومان بزعمهم ولايطان ثلاثة ملايين ايطالى فيها . على أن الاعمال الوحشية التى أتوها فى

طرابلس و برقة منذ بدء احتلالهم الى الآن والمظالم المتوالية التى أجروها من قتــل وتغريب وحبس وضبط أملاك وانتزاع أراض وغير ذلك قد أصبحت فى حكم المتواتر الذى لا يصح فيه المراء لاتفاق عشرات الألوف من الاهلين على روايته فقد نزح عن طرابلس و برقة نحو من مائتى ألف نسمة وقيل من ٣٠٠ ألف نسمة منهم ٢٠ ألفا دخلوا تونس والجزائر ومنهم ٦٠ ألفاً دخلوا مصر ومنهم من شردوا الى السوادين ومنهم من تفرقوا فى الصحارى وقد أطبقوا بأجمعهم على صحة هذه الأخبار ومشاهدتهم تلك الافعال بالعيان وانه ليستحيل اتفاق تلك الألوف المؤلفة على الكذب هذا فضلا عن كون لسان الحال أفصح من لسان المقال فلولا كون هذه المظالم حقيقة راهنة ما كان هذا العدد الكبير من الاهالى يترك وطنه ويهيم على وجهه فى البرارى أو يلتمس الرزق عاملا فى أرض غيره بعد ان كان سيداً فى أرضه . ومن أغرب المتناقضات والتناقض من عادة كل كاذب أنه بينما ممثلو ايطاليا فى بلاد الاسلام يذيعون أن من شاء أن يذهب الى طرابلس بنفسه ليتحقق كذب تلك الاخبار عن فظائع الطليان فيها فان أبواب طرابلس مفتوحة لمن شاء الذهاب الى هناك و بينما قنصلهم فى بيروت يشيع ذلك فى بيروت و بينما الحكومة الايطالية تقول هذا القول لشوكت على الزعيم المسلم الهندى إذ بقيت ايطاليا مدة طويلة بعد احتلال الكفرة وحوادثها المؤلمة تمنع كل دخول وخروج بين الحدود المصرية والحدود البرقاوية لئلاَّ يقف أهل مصر على حقائق الاخبار فيزدادوا هياجاً . ولكن الحقائق لابد أن تظهر ولا يمكن ايطاليا اخفاء كل ما تأتيه من الأعمال الوحشية فى طرابلس وليس المسلمون وحدهم هم الذين شاهدوا أعمال الطليان وضجوا منها بل ثمة كثير من الافرنج شاهدوها وأنكروها ومن ذلك المستر « فراسز ما كولا » الانكليزى الذى كان مرافقاً للجيش الايطالى فى طرابلس عند الاحتلال وشاهد تلك الفظائع بعينه فقد قال :

« أبيت البقاء مع جيش لاهم له الا ارتكاب جرائم القتل وان ما رأيتــه من المذابح وترك النســاء المريضات العربيات وأولادهن يعالجون سكرات الموت على قارعــة الطريق جعلنى أكتب للجنرال « كانيفا » كتاباً شديد اللهجة قلت له : انى أرفض البقاء مع جيش لا أعدُّه جيشاً بل عصابة من قطاع الطرق والقتلة »

ومن ذلك شهادة الكاتب الالمانى « فون غوتبرغ » الذى قال : «انه لم يفعل جيش

بعدوه من أنواع الغدر والخيانة ما فعله الطليان فى طرابلس فقد كان الجنرال كانيفا يستهين بكل قانون حربى ويأمر بقتل جميع الاسرى سواء أقبض عليهم فى الحرب أو فى بيوتهم . وفى سيرا كوزه الآن كثير من الاسرى الذين لم يؤسر واحد منهم فى الحرب وأ كثرهم من الجنود الذين تركوا فى مستشفى طرابلس »

وقد قبض الطليان على ألوف من أهل طرابلس فى بيوتهم ونفوهم بدون أدنى مسوغ الى جزر ايطاليا حيث مات أ كثرهم من سوء المعاملة

واقرأ ما قاله « هرمان رنول » المراسل النمساوى الحربى فقد وجد فى الباخرة التى نقلت جانباً من هؤلاء الاسرى فوصف تلك الحالة فقال :

« فى الساعة السادسة من مساء كل يوم تكبّل هؤلاء المرضى بالحديد من اليد اليمنى والرجل اليسرى . حقاً ان موسيقى هذه السلاسل تتفق مع « المدنية » التى نقلتها ايطاليا الى افريقية . لا ريب أن الطليان قد أهانونا كثيراً فلم يكف أنهم أسقطوا منزلة أوروبا العسكرية فى نظر افريقية حتى شوهوا اسم النصرانية أمام الاسلام » ثم قال :

« قد قتل الطليان فى غير ميدان الحرب كل عربى زاد عمره على ١٤ سنة ومنهم من اكتفوا بنفيه . وأحرق الطليان فى ٢٦ اكتوبر سنة ١٩١١ حياً خلف بنك روما بعد أن ذبحوا أ كثر سكانه بينهم النساء والشيوخ والاطفال » . قال : « ورجوت طبيبين عسكريين من أطباء المستشفى أن ينقلوا بعض المرضى والمصابين المطروحين على الأرض تحت حرارة الشمس فلم يفعلا . فلجأت الى راهب من كبار جمعية الصليب الاحمر هو الأب « يوسف بافيلاكو » وعرضت عليه الأمر وأخبرت شاباً افرنسياً أيضاً لكن الأب « بافيلاكو » حول نظره عنى ونصح للشاب بأن لا يزعج نفسه بشأن عربى فى سكرات الموت وقال : « دعه يموت ... »

قلت ليتأمل القارئ أن هذا الذى يقول هذا القول هو قسيس يزعم أنه ممثل المسيح على الأرض وأنه من رجال الصليب الأحمر أى الجمعية التى تزعم أنها تخدم الانسانية بلا استثناء !

ثم قال هذا المراسل النمساوى : « ورأيت على مسافة قريبة جندياً ايطالياً يرفس جثة عربى برجله . وصباح اليوم التالى وجدت الجرحى والمرضى الذين رجوت الراهب من

أجلهم قد ماتوا . وقد رأى ذلك معى فون غونبرغ الألمانى و بكى من تاثره » ثم قال :

« رأينا طائفة من الجنود تطوف الشوارع مفرغة رصاص مسدساتها فى قلب كل عربى تجده فى طريقها قد نزع أكثرهم معاطفهم ورفعوا أكمام قصانهم كأنهم جزارون »

وقال فون غونبرغ فى احدى رسائله : « خرجت عصابة من الجنود وراء البيوت فلما دنوا منا وجدنا بينهم خمسة من العرب غلّت أيديهم خلف ظهورهم . ثم سمعنا صراخاً واذا ببعض الجنود خرجوا من منزل يجرّون عربياً ضموّه الى الخمسة الأولين وقتلوهم رمياً بالرصاص . فعلمنا أن ليس هناك محاكمة ولا عدالة عسكرية بل هناك مجزرة محضة . ولقد قيل لى ان الطليان قتلوا ٤٠٠ امرأة وولد فى هذه الأيام الأخيرة وأربعة آلاف رجل . وكانوا يقتلون النساء ويقولون : ظنناهم رجالا » قلت : وهذا لم يكن من الفاشيست بل من الطليان غير الفاشيست لأنه حصل فى سنة ١٩١١ قبل أن يوجد الفاشيست

ثم قال : « فى ٢٧ اكتوبر سنة ١٩١١ سرت فى الطريق شمالى بئر « أبى مليانة » فأبصرت شابة عربية خرجت من بيتها ممسكة بيدها طفلها الصغير . ثم ما لبثت أن سمعت ثلاث طلقات نارية ثم رأيت المرأة سقطت على الأرض ميتة أما الطفل فولى هارباً مذعوراً فلقيت حينئذ ضابطاً فقلت له : جنودك قتلوا الآن امرأة عند البئر . فقال : جنودنا لا يستطيعون التمييز بين الرجل والمرأة أول وهلة . فعلمت من هذا الجواب أن العرب مباح قتلهم سواء كانوا مجرمين أو ابرياء »

ثم قال « انه صادف ٥٠ جندياً يقودون ستة من العرب الى خرابة يستعملها الجنود لقضاء الحاجة ... ولما أدخلوهم اليها اشترك الضباط والجنود فى قتلهم بالمسدسات والبنادق . قال : وما كدت أفرّ من هذا المشهد الهائل حتى رأيت ما هو أشد هولا وهو طائفة من الجنود يسوقون ٥٠ عربياً بين رجال وأطفال . ضرب أحدهم بحربة بندقيته اثنين منهم فمات الواحد لوقته وسقط الآخر يتخبط فى دمه فرفسه أحد الجنود برجليه ثم أدخلوا الباقين الى مكان قد تهدم وبدأ الضباط يقتنصون هذا الصيد الكريه بمسدساتهم و بنادق جنودهم مدة عشرين دقيقة . وكلما سمعوا أنيناً من جثة أعادوا عليها النار الى ان انقطع الأنين »

وقال مراسل التايمس يومئذ ـ قلت ولا يجوز أن ننسى أن غارة ايطاليا على طرابلس كانت بالاتفاق مع فرنسة وانكلترة استرضاءً لايطاليا على أثر تقاسم انكلترة وفرنسة مصراً

والمغرب - : « ان قسوة الانتقام التى استعملها الطليان فى وقعة يوم الاثنين يليق أن يقال عنها انها أعمال قتل عام فقد فتكوا بكثير من الأبرياء وستبقى ذكرى هذا الانتقام زمناً طويلا ... » قلت ان كان بقى عند العالم الاسلامى ذرة من الشرف فلا يجوز له أن ينسى هذه الاهانات التى لحقت به مادام فى الأرض شئ يقال له اسلام

وقالت جريدة « الدالى كرونيكل » الانكليزية: «استمر الجيش الايطالى ثلاثة أيام يطلق الرصاص على كل من يلقاه من العرب فهلك عدد كبير من النساء والأطفال وبلغ مجموع القتلى بين الاثنين والجمعة أربعة آلاف عربى . وصدر الأمر بقتل كل من وجد خارج السور الى جهة « قرقارش »

وقال المسيو كوسيرا مراسل جريدة « اكسيلسور » البارزية :

« لا يخطر ببال أحد ما رأيناه بأعيننا من مشاهد القتل العام ومن أكوام جثث الشيوخ والنساء والأطفال يتصاعد منها الدخان تحت ملابسهم الصوفية كالبخور يحرق أمام مذبح من مذابح النصر الباهر . ومررت بمائة جثة بجانب حائط قضى عليهم باشكال مختلفة . وما فررت من هذا المنظر حتى تمثلت أمام عينى عائلة عربية قتلت عن آخرها وهى تستعد للطعام . ورأيت طفلة صغيرة أدخلت رأسها فى صندوق حتى لا ترى ما يحل بها وبأهلها . ان الايطاليين فقدوا عقولهم وانسانيتهم من كل وجه »

وقدأشار الى الحوادث نفسها مراسلا « الدالىميرور » المستر توماس كرانت والسيدة فرانك ماجى . وقال المستر راليس اشميد برتلت مراسل شركة روتر فى رسالة بعث بها من مالطة يصف فيها ماشاهده بعينه هو والمستر كرانت مراسل الدالى ميرور والمستر دانيس مراسل المورننغ بوست وقد سجلت هذه الرسالة فى دائرة رسمية انكليزية تحت تواقيعهم :

«صادفنا بمجرد خروجنا من المدينة جماعة بين رجال واولاد لايقل عددهم عن السبعين قتلوا بدون محاكمة . وكنا نشاهد فى طريقنا بعد كل بضع خطوات جثث القتلى فى كل مكان قتل بعضهم برؤوس الحراب والبعض ضرباً وآخرون جرحوا وماتوا على أثر جراحهم . وأبصرنا على مسافة قريبة خمسين رجلاً وولداً هلكوا بالرصاص والسيوف وشاهدنا رؤوساً مهشمة . ومن المشاهد التى رأيناها :

١ - شيخ عربى عاجز بينما هو جالس بقرب مدرسة الزراعة اذ اتخذته طائفة من الجند

الايطالى هدفاً لرصاص بنادقها فمات

٢ـ سمعنا فجأة صوت عيار نارى فعلمنا أنه أطلق على رجل خرج من منزله فسقط والدم يتدفق منه وخرجت زوجته و بيدها اناء فيه ماء — لعلها تريد أن تسقيه أو تغسل جراحه — فلما رأتنا نكصت على أعقابها خوفاً منا ...

٣ـ التقينا فى أحد الشوارع بثلة من الجنود امسكوا ثلاثة من العرب وصفّوهم عند حائط واخذوا يتلهون باطلاق النار عليهم »

وقال المستر بنيت بورلى مراسل « الدالى تلغراف » :

« قتل الطليان فى ٧ نوفبر (١٩١١) اربعة آلاف شخص بينهم ٤٠٠ امرأة ورأيت رجلاً مقعداً قتله الجنود قريباً من قنصلية النمسا »

وقال مراسل « فرانكفورتر تسايتونغ » :

« لقد رأيت بعينى فظائع هائلة لم تسمع أذن انسان بمثلها . ولقد بلغ الى الآن عدد المذبوحين من الأهالى سبعة آلاف من رجال ونساء وأولاد اذ أبيح للجنود قتل كل من يصادفونه »

قلت هـذه اعمال جيش منظم هو جيش ايطاليا تحت قيادة قائد برتبة جنرال هو الجنرال كانيفا يقود ذلك الجيش الى طرابلس الغرب بحجة انها بلاد متوحشة وان ايطاليا تريد ان تمدنها وتدخل اليها مبادئ الانسانية ! ولذلك هاجتها بغيا وعدواناً وأوقعت باهلها كما يعلم كل احد . ولماذا هذا الانتقام الذى تأبى الوحوش الضوارى الاتيان بمثله بحق الاهالى الوادعين المجردين من السلاح ؟ جواب ذلك ان المقاتلة من العرب دحروا الجيش الطليانى عند المكان المسمى بالمنشية وان طائفة من المقاتلة جاءت الجيش الطليانى من الوراء على غرة منه فانكسر وتلف منه كثير . فانتقم الجنرال كانيفا لهزيمة جيشه هذه بذبح الاهالى الوادعين المستقرين فى بيوتهم رجالاً ونساء واطفالاً ولم يبال لاهو ولا حكومته شناعة هذه الأحدوثة ولامخالفة هذه الأعمال لقوانين الحرب الدولية وكيف يبالى وهو وغيره من الأوربيين لاسيما الجنس اللاتينى يعتقدون ان الاسلام خارج عن الدائرة التى يجب ان تراعى فيها الحقوق الدولية وانه لانصيب له من ذلك وان كل مايعمل به و باهله جائز . وليس فى هـذا شئ من المبالغة بل نحن أولاء نرى من الأوربيين أمما اسمى مقاماً اجتماعياً من الطليان نستدل من

كثير من اقوالهم وافعالهم ومن صريح كتبهم الحقوقية انهم لايقبلون مبدأ المساواة بين الأوربى والمسلم ولا يرون الحقوق العامة التى يدعيها الأوربى مما يجوز ان يدعيه المسلم فى المواقف الدولية . فلهذا تجد جيوش هذه الأمم ترتكب فى مستعمراتها لاسيما بالمسلمين ما يقرب من أعمال الجيش الايطالى فىطرابلس ولايمتاز عنه بكثير . ولقد ارتكب الفرنسيس فى هذه السنة عنداحتلال واحة تافيلالت بالمغرب افعالاً بعيدة جداً عن الحقوق الدوليةوعن الحقوق وهم وان كانوا اخفوا خبرها عن الناس ولم تتصل بالجرائد فلم يمكن طمسها ولا محْشُها تماما وهم بدون شك أعلى درجة فى المدنية من الطليان . ومن غريب الأمراض التى ابتلى بها المجتمع الاسلامى فى هذا العصر ان كثيراً من المغترّين بزخارف الأقوال من المسلمين لايصدقون بصدور هذهالافعال عن الأوربيين ويكذبون أخبارها ويكابرون فيهاويقولون ان أعمالاً كهذه يستحيل أن تصدر عن أمم متمدنة . وهذا من أعظم البلايا التىأصيب بها المسلمون فىهذا القرن وقدتفوق هذه البلية فىعمايتهم عنالحقائق بليتهم بفظائع الاستعمار الأوربى . ولكن هذا التصور العالى الذى كان لهم بالمدنية الأوربية والانسانية الأوربية والنزاهة والنبالة اللتين كانوا يعتقدونهما من اخلاق الأمم الغربية قد تناقص كثيراً بعد الحرب العامة عندما احتلّ الجيش الافرنسى سورية وجزءاً من تركيا واحتل الانكليز العراق وفلسطين واستانبول وظهر ما ظهر منهم بمصر واليمن وعندما عمل الفرنسيس ماعملوه من تدمير دمشق وافظع الجميع ما ظهر من أعمال الطليان فى طرابلس الغرب وبرقة مما لم يسمع به احد الا فى القرون الوسطى ونعود الى ذكر تلك الفظائع فنقول ان الجمعية لطرابلسية البرقاوية فى الشام قد نشرت فى هذا العام كتاباً عنوانه « الفظائع السود الحمر » أو التمدين بالحديد والنار هو الحلقة الأولى من سلسلة فظائع الطليان فىذلك البر . وقد نقلت اخبارها بالوثائق ونقلت من كلام مراسلى الجرائد الكبرى كالتايمس والطان ووستمينستر غازت وغيرها وعن كتاب « فظائع الطليان فى طرابلس الغرب » المطبوع فى الاستانة سنة ١٣٣٥

ولقد ورد فى هذا الكتاب ذكر فظائع أعمال الطليان بالتسلسل من بدء احتلالهم الى الآن سنة فسنةً كل سنة مع ذكر ما ارتكبوه فيها من الأعمال المخجلة الخارجة عن حدود الانسانية . ومما جاء فيه اهانة الطليان للدين الاسلامى وتعرضهم أحيانا للمسلمين فى مساجدهم

ودخول الجنود سكارى الى الجوامع يهزأون بعبادة المسلمين وما من وازع ولا رادع واجبارهم المسلم ولو كان فى وسط صلاته أن يترك الصلاة ويحي الضابط أو المأمور الايطالى أياً كان .
وان احتقار الطليان للمسلمين يظهر فى الدقيق والجليل من معاملاتهم لهم حتى اننا قرأنا مرة برنامج مراسم أحد الأعياد الايطالية وكيفية الدخول على القائد الكبير فى طرابلس فاذا به على هذا الترتيب : يدخل أولاً جالية الطليان وثانياً جالية الأوربيين من غير الطليان وثالثاً اليهود وأخيراً المسلمون . . .

ومن كان يهمهُ الاطلاع على ما فعله الطليان فى طرابلس ـ ويجب أن يهم ذلك جميع المسلمين ـ فعليه بمطالعة هذا الكتاب من أوله الى آخره وهذا يغنينا عن نقل كثير مما فيه على أننا ننقل منه بعض فقرات على سبيل التمثيل . فى الصفحة ٥٩ تجد ما يلى :

« الحاج مفتاح مشلوف رجل طرابلسي ذهب الى الحج فأخذ معه من النقود نحواً من ألف جنيه لأنه رجل يجهل معاملة المصارف ولما عاد الى وطنه شعر الفاشيست بما معه من النقود فابتكروا لمصادرتها حيلة سخيفة إذ ادعوا أنها اعانة جمعها للمجاهد السيد عمر المختار فرجا منهم أن يحققوا هذه الفرية فأبوا الا أن يغتصبوا أمواله بلا تحقيق ولا محاكمة وقالوا له : احمد الله على أن الحكومة لم تقتلك

«لاقيمة لأعراض الناس عند الفاشيست فطالما هتكوا حرمات وتجاوزوا على أعراض نساء شريفات . فمن ذلك أن ثلاثة ضباط ايطاليين طلبوا ثلاث بنات من أهالى قضاء « جالو » للاستمتاع بهن فاغتصبوا منهن اثنتين والثالثة فرَّ بها أبوها ونجاها من براثن أولئك الوحوش المفترسة

«واحة جغبوب هى مركز السادة السنوسية وحصن عبادتهم الأمين والايطاليون شديدو الحرص على ابادة رجال الدين ومحو معالم الاسلام من تلك البلاد لذلك هاجوا هذا المركز وأجلوا عنه أهله وكان أكثرهم من العلماء وطلاب العلم مثل السيد حسين السنوسى شيخ زواية جغبوب والشيخ أحمد اليوسف والشيخ صالح المسمارى والشيخ الفضيل الكيش والشيخ محمد أبي شهبه وغيرهم ونفوا معهم نساءهم وأطفالهم الى حيث لا يعلم أحد ويظهر أنهم أجلوا « الى بردى سليمان » وقد سقط من السيارة فى الطريق الشيخ صالح المسمارى فلم يهتمّوا له وكان من خلف السيارة التى تحمله سيارة أخرى داسته وذهبت بحياته

«أصدرت حكومة الفاشيست فى لواء بنغازى أمراً بسد جميع الكتاتيب التى تعلم الأطفال أمور دينهم وتحفظهم قرآنهم الكريم

«فاجأ الفاشيست رجلاً يدعى الشيخ يونس بن مصطفى البرعصى وهو معتكف فى غار بزاوية الفايدية بالجبل الأخضر فسدّوه عليه وأحرقوه مع عائلته المؤلفة من تسعة أشخاص تأويلاً لاعتكافه بالتجسس عليهم

«تفنن الفاشيست فى التنكيل بالسكان حتى انهم ألقوا جماعة منهم الشيخ عبد الحسيب أبا عمران البرعصى والشيخ المكدن العبيدى وأحمد خليل السعيطى من طيارة من علو ٤٠٠ متر فى المكان المعروف بجردس العبيد بالجبل الأخضر . وربطوا الشيخ مفتاح يحيى العبيدى وابن عمه صالح على بين سيارتين دفعوهما الى اتجاهين مختلفين فتقطعت أجسامهما ارباً اربا أمام قبيلتهما المستسلمة القاطنة بجوار المعسكر الفاشيستى فى « تاكنس »

هذا ما نقلناه عن صفحات ٥٩ و ٦٠ و ٦١ و ٦٢ من هذا الكتاب . واليك أمثلة أخرى من صفحة ٦٣ :

« أسس الجنرال « غرسيانى » محكمة عرفية سيارة تقطع البلاد على متون الطيارات وتحكم على الأهالى بالموت ومصادرة الأملاك لأقل شبهة فتمنحها لمرتزقة الفاشيست الذين سدت فى وجوههم أبواب المهاجرة الى أمريكا وغيرها . ومن أغرب ما يفعله الفاشيست أنهم يحكمون وينفذون ثم بعد ذلك يحققون . . . فقد أخبرهم أحد جواسيسهم أن احمد عبد الهادى يقتنى بندقية فحكموا عليه بالموت شنقاً وبعد أن نفذوا فيه الحكم فتشوا منزله فلم يجدوا فيه نوعاً من السلاح ثم ثبت لهم أن هذا الخبر مختلق فلم يعاقبوا الجاسوس وكثيراً ما أزهقت أرواح بمثل هذه التهم الباطلة »

قلت ان تقديمهم التنفيذ على التحقيق هو ناشىء عن خوفهم من ظهور البراءة وعند ذلك تضيع عليهم فرصة ازهاق نفس مسلمة على حين أنهم يعتقدون أن كل مسلم يفارق هذه الدنيا فى طرابلس يفسح مكاناً لطليانى مستعمر . ففى قتل المسلم بأى وجه كان مصلحة لهم بزعمهم ولهذا يسارعون فى تنفيذ حكمه بدون تحقيق

ثم انه جاء فى هذا الكتاب صفحة ٦٤ :

« نزلت محكمة الطيارات العرفية فى هذا العام [1] على الأهالى المحشورين فى عين

---

(١) يتكلم عن عام ١٩٣٠

الغزالة فحكمت فوراً على ستة أشخاص بالقتل وعلى عشرين شخصا بالسجن - وأقل مدة السجن ٢٠ سنة - وكان بين المحكوم عليهم الشيخ الطلحى الموالى للطليان المقيم معهم بطبرق . فلما تلى عليهم الحكم همس أحد المحكوم عليهم بالحبس ٢٠ سنة فى أذن جاره قائلاً له : انهم ظلموا الطلحى بحكمهم هذا . فأحس بذلك أحد الجواسيس فأبلغه للحاكم فأقسم بأن يكون صاحب هذا القول أول المقتولين وأعدموه الحياة فعلاً . ثم فى ساعة تنفيذ الحكم طلب المحكوم عليهم أن ينفذ الحكم بحقهم خفية عن أهلهم وأطفالهم فلم يسعف طلبهم »

ثم جاء فى صفحة ٦٥ :

« انتزعت حكومة الفاشيست من أيدى الأهالى ٢٠٠ ألف هكتار من الأراضى بلا مقابل فأعطت مائة ألف للمستعمرين وأوعزت الى اخوانهم المقيمين فى الأرجنتين أن يبيعوا أراضيهم فيها ويأتوا الى طرابلس و برقة حيث يأخذون بدلها مجاناً وقد صرح بذلك السنيور موسولينى فى عدة خطب له . وقال المارشال بادوليو والى طرابلس و برقة فى خطاب له : يجب على الذين تمنحهم الحكومة آلاف هكتارات أن يشمروا عن سواعدهم فاننا قد وفقنا الى استملاك الآلاف المؤلفة من الهكتارات ولم يحتج أحد . . . »

لم يحتج أحد طبعاً لأن الذى يحتج جزاؤه الموت . الا أننا نقول : أفليست هجرة هؤلاء البؤساء احتجاجاً عملياً على هذا الظلم الفظيع ؟

وفى صفحة ٥٤ جاء ما يلى :

« فى قضاء زواره أرض خصيبة و بساتين كثيرة فيها أنواع الفواكه وهى ملك لقبائل « النوائل » و « خويلد » و « السعيفات » اغتصبها الفاشيست وسلموها الى مستعمريهم وأجبروا أصحابها على تركها والجلاء الى البادية »

وجاء فى صفحة ٦٦ ما يلى :

« من فظائع الابادة والافناء التى قام بها الجنرال « غراسيانى » انه حشر كافة سكان الجبل الاخضر فى بقعة ضيقة من الارض على الساحل بين المكانين « طلميثه » و « بنينة » بعد أن زج زعماءهم فى السجون وألحق بهم من الاهانات مالا يوصف وقتل من المشاهير رجلاً يدعى الشيخ سعيد الرفادى مع خمسة عشر شخصاً شر قتلة وذلك بان أمر باركابهم

فى الطيارات والقائهم من عن علو ٤٠٠ متر على مشهد من أهلهم وكلما هوى منهم شخص صاح الضباط والجنود ساخرين منادين : « فليأت نبيكم محمد البدوى الذى أغراكم بالجهاد و ينقذكم من أيدينا » ثم عزم على ترحيل سكان برقة الغربيـة فصادر نقودهم ومواشيهم وساقهم محاطين بفرسان وسيارات مصفحة ولم يسمح لهم بالانحراف عن الطريق ولو للاستقاء ومن كان يحاول ذلك أو يجنح للاستراحة يعاقب بالقتل فوراً لا فرق بين رجل وامرأة وطفل الى أن حشرهم بهـذه الحال المحرجة فى صعيد ضيق على ساحل المكان المعروف بالمقطاع . أما سكان برقة الشرقية (متصرفيـة طبرق) فلم يكن نصيبهم من الضرر باقل من نصيب اخوانهم حين نفوا مع نسائهم وأطفالهم الى ايطاليا . وهاك أسماء القبائل التى رُحّلت لافنائها عن بكرة ابيها : العبيدات والحاسه والمنفه والحوته والشواعر وحبون .

«وقد كانت مخيمة فى أرض خصبة واسعة يحـدها شرقاً السلوم والاراضى المصرية وغرباً وادى الثعبان وشمالاً البحر المتوسط وجنوباً الصحراء . ثم العواقير والمغاربة وعائلة المهشهش وأولاد الشيخ والغربيات والسعيط والفواخره والشهيبات وزوّيه وجراره ومشيكات والزاوية . وهـذه كانت مخيمة فى الاراضى المحـدودة شرقاً بمسوس وغرباً بالمقطاع وعين الكبريت وخليج سرت وشمالاً بالبحر المتوسط وجنوباً بالصحراء . فهذه القبائل وغيرها البالغ عددها ٣٠ قبيلة وأنفسها ثمانين الفاً حشرت بأجمعها فى بقاع « بنينه » و « طلميثه » و « العقيلة » الضيقة القاحـلة ومنعت عن التجول خارج الاسلاك الشائكة التى ضربت حولهم بعد أن سلبت الحكومة الفاشيستية حيواناتهم ومواشيهم

«جمع الجنرال غارسيانى جميع مشايخ السنوسية ومتوليى أوقافها وأئمة المساجد والمؤذنين والفقهاء والسدنة وسجنهم كلهم فى مركز « بنينه» وهو بناء قديم لاسقف له ذاقوا فيه أمر العذاب جوعاً وعطشاً وعذاباً ثم نقلوا الى سجون ايطاليا و بعد أن مكثوا فيها مدة أعيدوا الى « بنينه » حيث أفنوا بالجوع وغيره وهاك بعض أسماء الهالكين : عمر السكورى شيخ زاوية المرج . السنوسى بن جلوّل شيخ زاوية البراعصة . السنوسى بن ميلود شيخ زاوية المرازيق . السنوسى الهانى شيخ زاوية أمركبة . ادريس أبو فارس شيخ زاوية أم حفير . ولا ذنب لهؤلاء المساكين سوى أنهم يعلمون ابناء المسلمين كتاب الله وسـنة رسوله الكريم »

قلنا ان استئصال الدين الاسلامى من طرابلس واجتثاث عروقه بمحو رجاله من هناك كان ولا يزال محور سياسة الفاشيست فى ذلك القطر. وقد صرح قائد طبرق أمام جماعة من المسلمين انهم لا يمكنهم أن يصيروا بنى آدم ما دام هذا الكتاب الذى هو القرآن بين أيديهم......

ثم جاء فى كتاب « الفظائع السود الحمر » ما يلى :

«أما الاخوان السنوسيون القاطنون فى جغبوب فقد رحّلوهم بعائلاتهم جميعاً مشياً على الأقدام الى قضاء « جالو » تحت رحمة الجنود الذين كانوا يسوقونهم سوق الانعام بقصد الحاقهم باخوانهم فى سجون « بنينه » و « سلوق »وغيرهما. وقد مات أكثرهم جوعاً وتعذيباً . وكان منظر الأطفال الصغار على جانبي الطريق يفتت الأكباد زيادة على مناظر الموتى من الرجال والنساء

«حدثنا ثقة ان الثمانين الف مسلم الذين نزعت من أيديهم بلاد الجبل الاخضر الخصيب وأرسلوا الى بادية «سرت» القاحلة التى تبعد مسافة ١٥ يوماً عن الجبل المذكور فى منطقة ضيقة لا ماء فيها ولا كلأ مات أكثرهم من الجوع والعطش والاوبئة وهلكت أكثر مواشيهم وصادرت الحكومة بقية ما كان عندهم من مال واثاث وحلى وتركوهم يفترشون الغبراء ويلتحفون السماء بصورة لم يسبق لها نظير حتى فى أظلم عصور التاريخ. زد على ذلك انهم جنّدوا منهم من يتراوح عمره بين الـ ١٥ والـ ٤٠ سنة ليحاربوا بهم اخوانهم فى الدين والوطن وارسلوا أطفالهم الى ايطاليا لتنصيرهم

«ضبط الفاشيست أولا زوايا السنوسية وعددها يزيد على المائة مع أوقافها واغتصبوا أخيراً جميع أراضى القبائل المنتسبة الى الطريقة السنوسية [١] وهى قبائل الجبل الأخضر وبرقة العبيدات وفروعها والبراعصة والحاسة والدرسة والعرفا والعبيد والفوايد والمرابطين والعواقير والمغاربة وغيرهم ونفوس هذه القبائل تزيد على ٢٥٠ ألف نسمة وقد أصبحت أراضيها ملكا للحكومة الفاشستية بموجب أمر ملك ايطاليا [٢] نشرته الصحف الأوربية برقيا عن

(١) قلت وجميع قبائل برقة منتسبة الى الطريقة السنوسية

(٢) قلت وقد نشرت هذا الأمر جرائد ايطاليا ونشرنا فى مجلتنا الافرنسية اللغة « لاناسيون آراب » مقالة خاصة فى أحد أعداد السنة الماضية عن فظاعة هذا العمل

روما . واذا كان ملك ايطاليا وقّع أمراً بانتزاع أراضى القبائل السنوسية واعترف المارشال « بادوليو » لمندوب جريدة « زيونى كولونيانى » بأن الحكومة أعطت أكثر من ٢٠٠ ألف هكتار من الأرض لأربعمائة من المستعمرين الفاشيست الذين أتوا من تونس بقصد الاستملاك وأذاعت ايطاليا فى بلاغاتها الرسمية أنهـا قد أسكنت فى برقة بضعة عشر ألف فاشيستى مستعمر وأنها ستسكن خلال ٢٠ سنة فى برقة ٣٠٠ ألف فاشيستى وأعلنت على صفحات الجرائد بلسان أكبر رجالها أنها امتلكت أكثر من ٦٠٠ ألف هيكتار وصرح موسولينى أنه سيسكن فيها من مليونين الى ثلاثة ملايين . اذا تم كل ذلك فمعنى هـذا كله أن حكومة الفاشيست انتزعت مع أراضى برقة والجبـل الأخضر أراضى طرابلس ومصراطه ومسلاته وترهونة وزليطن وغريان وأورفلة وسوكنة وغيرها حتى يبلغ العدد ستمائة ألف هيكتار كما جاء فى بلاغاتها الرسمية الخ »

وجاء فى هذا الكتاب صفحة ٨٧ ما يلى :

« وقد وفقوا للناحية الأولى حيث شردوا ثلث مليون من السكان ونفذوا الناحية الثانية حيث أفنوا ثلث مليون آخر ونيط تنفيذ الناحية الثالثة بالمدارس الطليانية ولم يتركوا فى طول البلاد وعرضها مدرسة غير طليانية وهكذا الأخلاق الاسلامية قد ضمنت المدارس الطليانية القضاء عليها بوسائل التعليم الاجبـارى . وتكفلت دور الفحش والدعارة بافساد أخلاق الشبان . وأما الناحيـة الرابعة وهى تنصير المسلمين ودفعهم لاعتناق الكثلكة فقد صرح أحد سفراء الدول للامير الجليـل شكيب أرسلان بأنه تحدث مع أحد رجال حكومة ايطاليا فقال له : اننا نأمل كثيراً تنصير الجنس البربرى من أهل طرابلس وبرقة »

نعم قد سمع محرر هـذه السطور من سفير أوربى أعرفه من زمن طويل وأعرف أنه من الثقات فى جميع أقواله

انى أرى فى هـذا النقل عن كتاب فظائع ايطاليا فى طرابلس مابه مقنع وان كانت عقول بعض الناس لا تزال تستنكف من قبول جميع هذه الروايات وتظنها من قبيل الغلو والاغراق فى وصف مظالم الفاشيست . وما هى بغلوّ ولا اغراق بل هى بأجمعها وقائع قد جرت فعلاً

ولما حررت المقالة التى نشرتها عن فجائع طرابلس وبرقة سنة ١٩٣١ على أثر دخول

الطليان الى الكفرة وارتجف لها العالم الاسلامى غضبا وعلا الصراخ من كل جهة جاءنى من الشهيد الأكبر بطل الجبل الأخضر السيد عمر المختار الكتاب الآتى :

« انه من خادم المسلمين عمر المختار الى المجاهد الأمير الخطير أخينا فى الله وزميلنا فى سبيل الله الأمير شكيب ارسلان حفظه الله

« بعد السلام الاتم والرضوان الشامل الاعم ورحمة الله وبركاته قد قرأنا مادبجه يراعكم السيال عن فظائع الطليان وما اقترفته الايدى الاثيمة من الظلم والعدوان بهذه الديار فانى وعموم اخوانى المجاهدين نقدم لسامى مقامكم خالص الشكر وعظيم الممنونية . كل ماذكرتموه عما اقترفته أيدى الايطاليين هو قليل من كثير وقد اقتصدتم واحتطتم كثيرا ولو يذكر للعالم كل ما يقع من الايطاليين لا توجد اذن تصغى لما يروى من استحالة وقوعه . والحقيقة والله وملائكته شهود أنه صحيح وأننا فى الدفاع عن ديننا ووطننا صامدون وعلى الله فى نصرنا متوكلون وقد قال الله تعالى : وكان حقاً علينا نصر المؤمنين وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فى ٢٠ ذى الحجة ١٣٤٩ » انتهى

وما لاحظه الشهيد المشار اليه هو عين الحقيقة فان الناس يصعب عليهم أن يصدقوا أن جيلا على وجه الأرض يقدم على ارتكاب مثل الشناعات والدناءات والنذالات التى أقدم عليها الطليان فى طرابلس ولا سيما الفاشيست منهم . وان الناس لا يزالون يتوقفون عن تصديق هذه الروايات لغرابتها وفرط بعدها عن العقل بحيث كنا كثيراً ماتمسك عن الخوض فى هذا الموضوع أمام بعض الاوربيين خشية أن نُتَّهم بالافتراء أو بالمبالغة والحقيقة ان كل ما رويناه عنهم وما رواه كتاب « الفظائع السود الحمر » هو قليل من كثير مما لا يمكن استقصاؤه من اعمالهم فىهذه العشرين سنة التى انصبَّ فيها بلاؤهم على ذلك القطر الحزين . وهذا ممايجئ دليلاً مؤكداً على انالأوربيين عموماً واللاتين خصوصاً اذا ظفروا بالمسلمين لايرقبون فيهم إلّاً ولاذمة ولايعرفون شفقة ولا رحمة

ولما اشتد غضب المسلمين على الطليان مما أنزلوه باخوانهم فى طرابلس وتحدثوا فى كل ناد بوجوب مقاطعة تجارتهم خشى الطليان عاقبة هذا الأمر وشرعوا يتوددون الى زعماء المسلمين وينفون لديهم كل ماشاع من أخبار تلك الفظائع . وكانوا من قبل قدامتنعوا عن الاعتراف بابن سعود ملكاً على الحجاز وأخذوا يتربصون به الدوائر ... وقيل انهم مدوا أيديهم فى الخفاء الى أعدائه ليكونوا يداً واحدةعليه فلما أرادوا التزلف الى المسلمين لينسوهم

أفاعيلهم باخوانهم فى طرابلس أسرعوا الى عقد المعاهدة التى كانوا رفضوا عقدها مع الملك ابن سعود وكانوا تطلّبوا لأجل ذلك شروطا نحن أدرى بها لأن المذاكرة وقعت معنا فى كل من سنة ١٩٢٧ و ١٩٢٨ وما أمكن الاتفاق يومئذٍ بما اقترحوا من الصيغ التى لم نوافق على تحريرها فى المعاهدة . ثم كانوا من أسرع الدول الى الاعتراف باستقلال العراق ومن أكثرهن مصانعة للملك فيصل بن الحسين . ولقد سمعنا أيضاً انهم خفّفوا من وطأتهم فى طرابلس وشرعوا يتزلفون الى المسلمين بما لم يسبق لهم من قبل وأخذوا من بعض مشايخهم شهادات بأنهم راضون شاكرون ! فأما الثمانون الف عربى الذين أجلوهم عن أوطانهم البديعة وأراضيهم المريعة فى الجبل الأخضر فما أعادوا منهم سوى خمسة آلاف رجل يقال انهم انما أعادوهم اليها كعَمَلة فيها لا كمالكين . ولابد أن ينجلى الغبار وتنكشف الأسرار ولو بعد حين . على أن الذى فعله الطليان بمسلمى طرابلس لايجوز للامة الاسلامية أن تنساه أبد الدهر اذا كانت تريد أن تبقى فى الوجود ولله در يزيد بن الطثرية القائل :

لا أتقى حسك الضغائن بالرقى فعل الذليل ولو بقيت وحيدا

لكن أجرد للضغائن مثلها حتى تموت وللحقود حقودا

ولما كنا قد دخلنا فى بحث طرابلس وبرقة فقد رأينا أن نتمم هذا الفصل بمعلومات احصائية وجغرافية عن تلك البلاد كنا جمعناها فى أثناء ذهابنا بنفسنا الى الجهاد فى برقة سنة ١٩١١ الى ١٩١٢ وأجمعنا ان نحررها فى كتاب مستقل برأسه الا أن العوائق الكثيرة من توالى الاسفار وتحرير الاسفار وغير ذلك من الأشغال والمهمات لم تتح لنا أن نبرز هذا الكتاب الى الوجود . فرأينا الآن أن نلخص هذه المعلومات هنا فى هذه الطبعة من هذا الكتاب كما أننا كنا فى الطبعة الأولى منه قد ذكرنا كثيراً منها فى عرض البحث عن السادة السنوسية وزواياهم . وهكذا لا نكون أفلتنا هذه المعلومات من قيد التسجيل ثم يعرف المسلمون بواسطة هذا الكتاب ماذا كان يوجد من السكان المسلمين فى طرابلس وبرقة وكيف كانت معاهد الطريقة السنوسية وغيرها فى ذلك القطر يوم شن الطليان الغارة عليه بحيث اذا تغيرت المعالم وتبدلت الاوضاع نعرف مقدار الحق الذى ضاع وعدد العرب الذين خلت منهم تلك البقاع

فنقول ان أهالى برقة ينقسمون الى قسمين حضر وبادية فالحضر هم أهل بنغازى

ودرنه . والبادية هم أهل الجبل الأخضر وما يجاوره . وهم فى الحقيقة نصف بادية ولهم أراضٍ كاراضى الحضر يحرثونها وجنان وأشجار يحرسونها وانما هم يعتمدون فى الغالب على رعاية المواشى وعندهم المراعى التى يندر مثيلها فى البلدان ويصدرون الغنم والسمن والاقط الى الاسكندرية وغيرها

والبلاد التى تسمى « برقة » تبتدئ من فم الفج من محل يسمى العصيدة على طريق سيدى عمر المهشهش ممتدة الى غاية مقطاع الكبريت من جهة عمل طرابلس . وثمة برقتان الحمراء والبيضاء كلتاهما ضمن قضاء اجدابية

ومن العصيدة الى غاية وادى ابى الضحاك الذى تنصب مياهه الى درنة هذا هو الجبل الأخضر

ومن وادى أبى الضحاك الى عين الغزالة شرقاً يقال له الخرمة

ومن عين الغزالة الى وادى بلوك باش الى الشرق مايسمى بالبطنان

ومن وادى بلوك باش الى مركز السلّوم يسمى دفنة

ومن السلوم الى الشرق صارت الديار المصرية فالى حجاج العقيبة مايسمى بالعقبة

ومن رأس حجاج العقيبة الى المحل الذى يقال له سيدى عبدالرحمن مايسمى بالعقيبة

ومن سيدى عبدالرحمن الى غاية خشم العيش يقال له المقطوعة

ومن خشم العيش الى الاسكندرية يقال له مريوط

وأما من البحر المتوسط الى الداخل فاذا مددت خطاً من البحر عند بنغازى الى وادى الكفرة جنوباً فانها مسافة ٢٥ يوماً . وان مددت خطاً من « دفنه » الى الجنوب مستقيماً وقع فى واحة جغبوب

وعلى مسافة ثمانية من ساحل البحر الى الجنوب قضاء جالو وأوجله التابع لبنغازى وأهله نحو من ستة آلاف نسمة يقال لهم المجابرة ثلثان منهم فى جالو وثلث فى أوجله

وفى الجبل الأخضر مياه جارية عذبة كمياه جبل لبنان فمنها نهر درنة وهو من وادى أبى الضحاك ويقال له أيضاً وادى المنحر . وهو يجرى من عينين احداهما عين منصور . وعلى مقربة منها بقى معسكر انور والمجاهدين مدة سنة فأكثر . وتدور على نهر درنة الارحية وتكثر فى درنة البساتين وكلها سقى . وفيها عدا النهر آبار عذبة . والى الغرب من

درنة نهر « ماره » يدير الرحى أيضاً فيه ٢٥ عيناً وماؤه عند رأس نبعه فى غاية البرودة والعذوبة تخاله نبع الصفا فى لبنان وعليه بساتين ومزارع ومنه الى درنة مسافة خمس ساعات. ويوجد الى الغرب من درنة نهر « كرسه » على ساحل البحر. والى الغرب من كرسه وادى الاثرون لقبيلة الشواعر. ثم وادى القليعة . ثم وادى رأس الهلال . ثم وادى سوسه وهى قرية كان فيها مهاجرون من مسلمى كريد . ثم عين شحات أى سيرنّا القديمة تبعد عن البحر مسافة ساعتين ونصف ساعة . وشحات جبل مشرف على البحر أشبه بجبال غرب لبنان أو جبال متن لبنان المناوحة للبحر والماء يتفجّر منه من مغارة فى أعلاه ويتصبب من هناك فى شفير عال أمامه الفضاء التام الى البحر . وعلو هذا الشفير المقطوع نحو من ٣٠٠ متر . ومنظر شحات باشراف جبلها واقبالها على البحر وعلو شفيرها الذى تجرى خلاله عين شحات وعيون أخرى هو من أجل مناظر الدنيا . وأرض شحات لقبيلة الحاسة التى منها نفر فى مرج بنى عامر بفلسطين . وفيها زاوية كانت أجل زوايا السنوسية مبنية على حافة ذلك الشفير الشاهق بتنا فيها ليلة يوم كنا فى جهاد طرابلس سنة ١٩١١ وكان شيخها يومئذ سيدى الدردفى من كبار الطريقة السنوسية وكان لهذه الزاوية أحسن أراضى شحات . وشحات هذه أو « سيرنّا » الشهيرة فى القدم بناها التيريون من يونان سنة ٦٣٠ قبل المسيح وصارت مدينة عظيمة تضاهى قرطاجنة ونبغ فيها فلاسفة وحكماء منهم اريستيب Arystippe الذى نسبت اليه الفلسفة السيرنيّة وغيره . وقيل بناها اليونانيون سنة ٦٦١ قبل الميلاد وكان رئيس هؤلاء اسمه باتوس و بقيت دولتهم هناك ٢٠٠ سنة وخرج منها عشرون ملكا أفضلهم باتوس الثانى . هذا وغربى نهر ماره واد يقال له « الخبز » فيه عيون كثيرة منها عين اسكندر وعين الحى وعين القبة وعليها بناء قديم متقن . وقد بتنا عندها ليلة فى أثناء اختراقنا للجبل الأخضر من معسكر المجاهدين فى درنة الى معسكر المجاهدين فى بنغازى . ثم عين أم قديح وعين زاوية بشارة وهى زاوية سنوسية مشايخها آل فركاش مررنا بها فى تلك السياحة . ثم عين الجريوله وأبو شمال فى محل يسمى الفرش . وأرض الدرياس فيها عيون جارية منها عين القيقب وهناك قصر قديم فيه بقايا مدافع قديمة رأيت على بعضها تاريخ سنة ١٨٠٤ فيما أتذكر . وللعين ميزاب من داخل القلعة وميزاب وحوض من خارجها وماؤها بارد كأحسن مياه لبنان . وقد بتنا عند قيصر

القيقب هذا ليلة واحـدة ونحن صادرون عن سهل بنغازى الى جبل درنة . وكان ذلك فى شهر أغسطس أى ابَّان الحرّ ومع هذافقد اضطررنا أن نشعل النار أمام خيامنا طول الليل اتقاء البرد . ثم عين لالى فعين الفيدية فعين زوية فعين باطية وكلها غربى درنة على مسيرة يومين للفارس وعليها زرائع وجنان و بساتين . هذا وفى سهل « دفنة » معطن ماؤه ينبع من الأرض [١] ومعطن فى بلوك باش ومعطن فى مرسى طـبرق ومعطن فى العودة غربى طبرق ومعطن فى عقيـلة أبى حسنا وكلها فى سيف البحر . وعلى ساحـل البحر أيضاً عين الغزالة والى الغرب منها معطن اسمه الشقيق ثم سانية التميمى قبلى خليج بمبا والى الغرب منها عقيـلة التميمى ثم أم ارزم [٢] وهى عين ماء نضَّاخة عليها بسـتان عظيم وزاوية للسنوسية بتنا فيها ليلة من ليالى رمضان منصرفنا من برقة فى أوائل حرب البلقان . وجماعة هذه الزاوية عائلة مطرودة . ثم الخربية غربى أم مرزم وغربيها زاوية أم عفين بها زاوية للسنوسية وعين جارية تبعـد عن الأولى نصف ساعة . وكل هذه الأماكن مناوحـة للبحر على مسافة ساعة ونصف منه . ثم وادى جنين فيه معطن قبلى ملاحة رأس التين يبعد عن البحر مسافة ساعة ونصف ساعة أيضاً . والى الغرب من وادى جنين معطن السوينية . والى الغرب من الســوينية وادى الغرابى فيــه معاطن عــدة . والى الغرب من الغرابى عــين مرطوبة غزيرة جارية عليها أشجار وزرائع وهناك زاوية عظيمة للسنوسية بتنا عنـدها ليـلة فى طريقنا الى معسكر انور فى عين منصور . وغربى مرطوبة وادى بلغرّاف فيـه معطن وهـذه الاماكن هى على مسافة ثلاث ساعات من البحر . وغربى بلغرّاف وادى بالصفا والى الغرب منـه عيون البقر خمسة معاطن وثلاث آبار . وغربى عيون البقر وادى المنحر الذى فيه عين منصور الذى كان فوقها مخيَّم أنور أيام جهاد طرابلس سنة ١٩١١ الى ١٩١٢ مسيحية وجميع هذه المياه هى فى أراضى قبيلة العبيدات

وأما مدينة درنة على ساحل البحر فهى بلدة شامية فى مياهها وفواكهها وزرائعها وفيها التـين والرمان والعنب والنخيـل والتفاح والـكمثرى ورمانها موصـوف بجودته . والعنب أنواع كثيرة منـه الزبيبى و بيض الحمام والتركى والبيوضى والســوادى وزرق

---

(١) المعطن فى اللغة مناخ الابل حول الماء

(٢) والارزم الريح ويجوز أن يكون أم مرزم وهى بمعنى الريح أيضاً

الطير وغيرها

هذه نبذة مما علمناه من المعلومات الجغرافية المتعلقة بالجبل الأخضر وما أخذناه من أفواه الثقات من أهل تلك البلاد . وأما طول هذا الجبل من الشرق الى الغرب فقد سرنا من أول الجبل مما يلى زاوية مرطوبة الى سهل مدينة بنغازى فى ١٢ يوماً كل يوم كنا نسير من ست الى سبع ساعات . وقيل لنا ان عرضه من البحر الى الصحراء مسيرة يومين. وهو اسم طابق مسماه اذ كيف توجهت وقع نظرك على مروج خضر كالزمرد وغاب اشب متلف عظيم السرح فينان الدوح يسير الراكب مساوف طوالاً بالأيام لا بالساعات وهو فى ظل الشجر . وقيل لنا انه طالما شبت النيران فى الغابات فبقيت تأكل منها أياماً ولم يشعر الناس أنه نقص منها شئ . ويروى عن سيدنا عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه لما فتح مصر ومنها سار الى برقة وطرابلس وفتحهما لم يعجبه مكان كالجبل الأخضر وقال : لولا أموالى بالحجاز ما اخترت مكاناً للاقامة الاالجبل الأخضر . وأكثر الشجر الذى هو فى هذا الجبل هو من الأرز والصنوبر والعفص وفيه غابات عظيمة من الزيتون البرّى وفيه أشجار باسقة كثيرة متنوعة تعلو الشجرة منها نحواً من ٢٠ الى ٢٥ متراً . فلا عجب اذا توجهت رغبة الطليان الى استعمار هذا الجبل بنوع خاص وكانوا قد رأوا الوسيلة الوحيدة لانفرادهم بحيازته أن يجلوا عنه جميع قبائل العرب التى تسكنه . ويغصبوا تلك الأراضى من أيديهم غصباً ويصير وهم الى فلوات لا ماء ولا كلأ الا ما ندر ليكون مصيرهم الانقراض ولا يبقى على الطليان خوف من كرة العرب عليهم لاسترجاع أراضيهم

وأما قبائل العرب التى هناك فكلهم جاءوا من جزيرة العرب فى أيام الفاطميين كما سياتى . ولقد تبدلت أسماء الكثير من بطونهم وأفخاذهم بكرور الأيام ونحن نذكر الآن أسماءهم وتقاسيمهم على حالتهم الحاضرة ثم نعقب ذلك بأسمائهم وتقاسيمهم فى الأعصر الماضية للمقابلة بين الغابر والحاضر فنقول :

هؤلاء العرب ينقسمون الى قسمين الأول يقال له « السعادى » والثانى يقال له المرابطون . والفرق بينهما أن السعادى أشبه بالعلائلات الممتازة أو الحاكمة وان المرابطين أشبه بالاهالى الذين تحت الحكم . وتسمية القبائل الممتازة بالسعادى هى أن عقار قد ولد هذه القبائل من سعدى وهى امرأة هلالية فيكون بنو هلال اخوال السعادى

هكذا يروون . فالسعادى منهم القبائل التى يقال لها ولد على وكل هؤلاء فى داخل الديار المصرية منتشرون من مربوط الى السلوم . وهم ثلاث فرق أولاد على الابيض وأولاد على الاحمر وأولاد على خروف . وهؤلاء أولاد على خروف من فروع أولاد على الأبيض . وأشهر بطون أولاد على الأبيض الصناقرة والمغاورة والموامنة والعجارمة والافراد . وأما أولاد على الاحمر فهم القيسات والحشيبات والكميلات وأبو سنينة وهؤلاء ينقسمون الى أفخاذ العراوة والقطيعة والمحافيظ

ولأولاد على مرابطون أى تَبَع كما للقبائل السعادى التى فى برقة ومرابطو أولاد على هم العوامة والزعيرات والموالك وحبّون والحوته وسمّالوس والمنفه وكلهم فى أرض مصر

وأولاد على مع مرابطيهم يبلغون نحواً من مائة ألف نسمة ولهم نحو من عشرين زاوية يديرها السادة السنوسية كل فرقة منهم تختص بزاوية

ثم من السعادى القبائل المسماة « بالحرابى » وهم ضمن حدود برقة وهؤلاء ينتسبون الى حرب بن عقار من ولد سليم بن منصور من العرب العدنانية

وهم عدة قبائل العبيدات والبراعصة والحاسة والدرسة وفائد

فالعبيدات ينقسمون الى بطون منها عائلة غيث ومنها عائلة مريم الذين فى جوار طبرق كان منهم شيخ مشهور يقال له المبرى استشهد فى واقعة مع الطليان قبل وصولنا الى هناك بقليل . ومنهم البنابن ومنهم العواكلة أى شاهين وعوكل وهذان البطنان يقال لهما عائلة عبيد . ومنهم مسعودة وهم عدةعائلات عائلة منصور وعائلة قابس وعائلة أبى ضاوى وعائلة مباركة وعائلة أبى جازية وعائلة عبدالكريم وعائلة رفاد وعائلة الميلط . ومن العبيدات أيضاً عائلة مزين (بضم ففتح) والعلالقة والعدال والشرائع وعبيد

وعدد رجال غيث نحو من أربعة آلاف مسكنهم من القيقب فى وسط الجبل الاخضر الى حد دفنهشرقاً . وعائلة مريمعددهم ١٥٠٠ رجل مسكنهم من طبرق الى دفنه . والعواكلة عددهم أربعة آلاف مسكنهم من القيقب الى دفنه . والشاهين ثلاثة آلاف منزلهم من المخيلة الى السلوم . وعائلة منصور من درنة الى أم مرزم شرقاً وهم ثمانية آلاف وبالقرب منهم قابس وهم خمسمائة . وأبو ضاوى زهاءألفين منزلهم غربى درنة بجوار زاوية بشارة . ومباركة عددهم ألف فى ناحية القبة غربى أبى ضاوى . وأبو جازية شرقى درنة فى ناحية خليج بما

عنـد زاوية مرطوبة وهم ١٥٠٠ ويليهم عبـد الكريم وهم ألف وخمسمائة أيضاً . ويليهم رفاد وهم كذلك ١٥٠٠ رجل . ويليهم الميلط وهم ٥٠٠ وكلهم فى ناحية بمبا

وأما عائلة مزين ففى سبخة رأس التين من بمبا وعـددهم زهاء ألفين . واما العلالقة فخمسمائة منهم فريق بالفرش غربى درنة وفريق من البطنان غربى طبرق . والعـدال الف رجل وهم ينزلون بقرب العلالقة

ومن العبيدات عدد غير قليل فى الديار المصرية . فالشرائع منهم ثلاثة آلاف ويقال أكثر فى الفيوم . ومن عبيـد وعائلة مريم نحو من ١٥٠٠ فى الفيوم أيضاً . ويقال ان من العبيدات فخـذاً اسمهم الرزنا نحو من ١٥٠٠ فى الفيوم أيضاً . ومن العوا كلة فى الفيوم وفى كفر الزيات ١٥٠٠ رجـل . ومن الشاهين فريق فى الفيوم يقال لهم الشلقات . ومن أبى جازية نحو ٥٠٠ فى الديار المصرية . ومن رفاد زهاء ٦٠٠ فى دمنهور ومن مزين ٥٠٠ فى البحيرة ومن عائلة مريم ٥٠٠ فى طنطا ومن العلالقة فى العقبـة والفيوم والبحيرة ألف وخمسمائة رجل ومن العدال ألف رجل فى الفيوم وفى مربوط

وبالجملة يبلغ عدد قبيلة العبيدات فى الجبل الأخضر والديار المصرية من ٤٠ الى ٤٥ الف مقاتل هذا بحسب الروايات التى تلقيتها من المرحوم صالح سركيوه من وجوه درنه ومن غيره من العارفين بأحوال ذلك القطر لأنى حيث حللت كنت أسأل وأبحث

وقد رووا لى أيضاً ان العبيدات ينقسمون الى ضنى بنينه وضنى واعر فمن ضنى بنينه العوا كلة والشاهين . وان العوا كلة منهم عائلة بركات وعائلة خليل وعائلة سجيّع وعائلة أبى فسيخة وعائلة عبدالكريم وعائلة سعدى . ويقال ان أصل العوا كلة من حرب من الحجاز . وقيل لى ان العوا كلة والحوته والجرارّة والترا كى كلهم من سليم بن منصور

واما الشاهين فعائلة المجلوم وعائلة غاضرات وعائلة حبيب

وبطون عائلة غيث عائلة الخادم وعائلة الفضيلة وعائلة حسين الفرخ وعائلة ابراهيم الفرخ وعائلة الصغير وعائلة ابى نظارة وعائلة جبر وعائلة عويضة وعائلة عبد الله وعائلة محمود وعائلة ابن صيت وزاويتهم زاوية ترت ــ وكان شيخها يوم كنا هناك سيدى محمد الغزالى ــ وقيل لى انهم يناهزون عشرة آلاف رجل

وعائلة غيث هم من ضنى واعر . وكذلك من ضنى واعر مسعودة أى عائلة منصور

ورفاقها ومن ضنى واعر عائلة مريم وعائلة مزين وعبيد . ويقال ان العلالقة والعدال ليسوا فى الأصل من العبيدات وانما انضموا اليهم والتحقوا بـ

وللعبيدات مرابطون كما تقدم . وهم كثير و العدد مثل العبيدات وربما أكثر فنهم قبيلة القطعان وأولهم الرحامنه منهم ستة آلاف رجل بين دفنة والعقبة . ويليهم عائلة بريدان وهم ثلاثة آلاف رجل منهم الثلثان فى العقبة ودفنة والثلث فى أبى حمص بمصر . ومن القطعان عائلة أبى سعيده وهم زهاء الفين فى دفنة والبطنان ومنهم نحو الف فى مريوط والبحيرة . ومن القطعان الرخامى منهم ٥٠٠ بناحية بمبا ونحو من الف نازلون بين العقبة ومريوط . ومن القطعان المعابدة منازلهم من العقبة الى مريوط وهم نحو من ثلاثة آلاف . ومن القطعان عائلة الفزّار نحو من الفين فى العقبة أيضاً . ومما يرويه الناس هناك أن القطعان هم من ذرية كعب الأحبار

ومن مرابطى العبيدات المنفه وهم خمسة آلاف رجل منهم العلوم ومنهم مسيكه ومنازلهم من البطنان الى مصر . ومنهم عائلة الخائب زهاء خمسمائة فى برقة ومنهم عائلة الحاج رجب المنفة فى برقة وهم نحو من الف

ويقال ان اصل المنفه هؤلاء هم من بنى هلال الا عائلة المقورى فانهم أشراف هاشميون ومن مرابطى العبيدات الموالك منازلهم من دفنة الى مريوط ويقال انهم نحو من خمسة آلاف ومن مرابطى العبيدات عائلة عبدالواحد الجرارة مسكنهم بدفنة والعقبة وهم ١٥٠٠ رجل وعائلة عبدالسميع عددهم الف رجل بين دفنة والبطنان . ومنهم عائلة أبى حليمة زهاء ٦٠٠ فى البطنان ودفنة . والسنينات زهاء الف هناك أيضاً ومنهم أناس فى بر مصر

ومن مرابطى العبيدات قبائل الحوتة منهم عائلة الديدانى الف رجل بالجبل الأخضر ثم الجبيهات وعددهم أيضاً نحو الألف ومسكنهم بالقيقب فى الجبل الأخضر . ثم الصوانع وعددهم ٥٠٠ رجل ثم الدقش وعددهم ٢٠٠ وهم أيضاً من سكان الجبل الأخضر . ثم الحوته النفوفه أكثرهم فى بر مصر ومنهم فرقة بالبطنان زهاء ٥٠٠ أما الذين فى بر مصر فنازلهم من العقبة الى مريوط وهم يناهزون ستة آلاف رجل . ثم المرازقة وهم فى البطنان نزر نحو من ٥٠٠ ولكن فى أرض مصر يبلغون خمسة الى ستة آلاف . ثم الشرسات وهم زهاء الفين من العقبة الى البحيرة

ومن مرابطي العبيدات الشواعر منهم الغوالب عـدهم الف رجل وهؤلاء فى دفنة ومنهم الف أخرى فى داخل حدود مصر . ومنهم شواعر قطيشة وهم أيضاً فى دفنة وعددهم يبلغ الالف ومنهم الف أخرى بين العقبة ومريوط . ومن الشواعر الودّاس وهم زهاء ٢٠٠ فىدفنة ومنهم ٥٠٠ من العقبة الى مريوط . ثم عائلة زائد الشواعر ٥٠٠ فىوادى درنه و٥٠٠ من العقبة الى مريوط . وقبيلة عمر الشواعر نحو من الف فى الجبل الأخضر ومنهم نزر فى مصر . ثم الماشة بالجبل الأخضر وهم نحو من الف والعسيرات وهم ٥٠٠ ومسكنهم فىالجبل الأخضر والطوارسة ومنهم الف فى دفنة والبطنان والف أو أكثر من العقبـة الى مريوط . وكل هؤلاء هم الشواعر وهم جميعاً زهاء عشرة آلاف مقاتل .

ومن مرابطي العبيدات الزعيرات ومنهم ٢٠٠ فىبمبا و٨٠٠ فى برمصر وعائلة القرّى مسكنهم بمبا وهم فيها ٥٠٠ ومنهم بمصر نحو من الف

ومن مرابطي العبيدات الشلاوية ومنهم نحو ٢٥٠٠ داخل الجبل الأخضر و٥٠٠ فى أرض بمبا ومنهم الف فى مديرية البحيرة بمصر . والترا كى وهم فى الجبل الأخضر وعددهم الف رجل . وهناك قبيلة اسمها القبائل منهم بالجبل الأخضر الفان وخمسمائة ومنهم بأرض مصر ٥٠٠ رجل . وجميع مرابطي العبيدات فى الجبـل الأخضر ومصر يناهزون سبعين الف مقاتل حسبما روى لىالثقات وعليه يكون العبيدات معمرابطيهم نحواً من مائة وعشرة آلاف وأكثر أي يزيدون على أولاد علي

وقيل لي فى تقسيم العبيدات رواية أخرى تختلف عن الأولى وهى انهم من ثلاث سلائل ضنى سعدى وضنى أبى امامة وضنى غيث . وقالوا : ان سعدى من بنى هلال وزوجها هو عبيد فالعبيدات أخوالهم بنو هلال . قالوا : وضنى سعدى منصور وقابس ومباركة وأبو ضاوى وعبد الكريم وأبو جازية ورفاد . قالوا وضنى أبى امامة عائلة مريم ومزين وحميـده ويوسف والعبيدى والثور وفاطمة وأبو جود وصالح . قالوا : وضنى غيث هم عائلة عبد الله وهو أكبر ولد غيث ثم عائلة محمود ثم عائلة الرجا ثم عائلة أبى فضيلة ثم عائلة ماضى ثم عائلة الخادم ثم عائلة جبر عويضة ثمعائلة جبر مطيريد ثمعائلة ابراهيم الفرخ ثم عائلة حسين الفرخ ثم عائلة بصيص الفرخ ثم أبو نضارة

قالوا : والبناين هم العواكلة والشاهين . فالعواكلة هم عائلةبركات بلجا وعائلة سميع

وعائلة عبدالكريم ودادى والابعج ودادى وخليل ودادى والهيب ودادى وعائلة مريكب وعائلة مقعور الطاقية والخالشة

والشاهين عائلة ذويب وعائلة المجلوم وعائلة غاصرات وعائلة حبيب وعائلة جبيره وعائلة الأعور وعائلة أبى قفة وعائلة أبى قوبة

هذا وقد سألنا صديقنا على افندى العواكله قائم مقام قصبة المرج أيام جهاد طرابلس عن نسبه فى العواكلة فقال : على بن حامد بن سعيد بن صالح بن سميع بن فكيرين بن سعيد ابن ادريس بن أبى عوكل بن عبيد بن حرب بن عقار من بنى سليم

وقيل لى فى مرابطى العبيدات انهم القطعان وهم الرحامنة وأبو سعيده والفزار والرخامى وزاغوت وأبو ترحى والمعابدة وبريدان والتراكى وقبيلة اسمها القبائل واللامشة وعائلة عمر الشواعر وعائلة زائد الشواعر وعائلة سليمان المرخى الشلاوية وعائلة على الشلاوية وعائلة الخواجه وعائلة اسرافيل وعائلة بركات وقبيلة الصوانع وعائلة النعيمه والجهدى وقبيلة الحوتة منهم الجرارة والنفوفه والمرازقة والطيره والمقاعى والشرسات والعميرة وعائلة بلل والبسنينات والديدانى وكل هؤلاء ضنى حويت . وأولاد منيف أو المنفا وهم مسيكه وعلوم فالمسيكة الكحشات وعائلة سباق والدبابسة وعائلة المصمود وعائلة أبى خديجة وعائلة المقورى والجحيشات . وأما العلوم فعائلة رجب وعائلة الجزار وعائلة الخائب وعائلة علوش والعرابات والرقيوات وعائلة الغضارف وغيرها

هذا مانذكره عن قبيلة العبيدات أكبر قبائل الجبل الأخضر ومرابطيها ونعود الى القبائل الأخرى من الحرابى ونتكلم عن الحاسة فنقول :

الحاسة ينقسمون الى قساسمة وقلابطة . فالقساسمة هم الشباركة والبخايت هم الذين منهم عقيلة الحاسى الزعيم المشهور الذى كان فى مرج ابن عامر بفلسطين ولا تزال ذريته فيها وهم المحامدة والمواسى . فالشباركة هم عائلة عبدالله وعائلة مغانة ثم ان عائلة عبدالله هى عبارة عن عائلات غزالة وعقيلة وأبى قفة ونائف والأعور وشريعة والميار وجبر وشدة وأبى محجوبة وزلط وغويزى والمجدم وأبى الكسيرات .

وأما عائلة مغانة فهى عبارة عن عائلات موسى الفيشى ومنى وسعيد والرقاعة وأبى جطيلة وخالد

وأما البخايت فهم عائلة غرير والتوازرة . فعائلة غرير هم عائلات عمر وأبى خناء وأبى عيسى والنكاع والعيورة . وأما التوازرة فعائلات الجمّاعة وعبد الصادق وبرعاص والطويل وعبدالحاكم وأبى قنتلة

وأما القلابطة فهم المحامدة وهؤلاء هم عائلة ابراهيم وعائلة المساطل فعائلة ابراهيم هم عائلات المربّط وهيبة وكمش والقريد . وأما المساطل فهم أبو كفيفة والدويلى والسليليخ وعائلة بالربعى وعائلة وافى

ثم ان القسم الثانى من القلابطة هم المواسى وهؤلاء فريقان عائلة نقو وعائلة الحرار فعائلة نقو هم الرفادى وسعد وعائلة الحرار هم أبولويّة وحويج وأبو سدادة .

وأما الحاسه فكلهم زهاء تسعة آلاف رجل منهم ثلاثة آلاف شباركة والفان بخايت وأربعة آلاف قلابطة نصفهم محامدة والنصف الآخر مواسى . ومنازل الحاسه أجل منازل الجبل الأخضر شحّات وسوسه والدرباس غربى درنة

وللحاسة مرابطون منهم مسامير الرزقة منهم فى الجبل الأخضر ومنهم فى بمبا شرقى درنه وعددهم الف وخمسمائة رجل . ومن مرابطيهم اسماعيل المسامير بجوار شحات زهاء خمسمائة رجل . ومنهم اسماعيل التراكى مائة رجل بجوار القيقب . ومنهم أبو رفيعة ٢٠٠ رجل بجوار الفايدية

ومن أهم قبائل الحرابى قبيلة البراعصة

وهم قسمان احمد وجليد . فجليد تزوج خضرا ومغيربية . فولدت خضرا عائلة خضرا الذين بالفيوم . ومغيربية ولدت طامية الذين منهم حدوث وجلغاف وزائد والجويفى وعبد الرحمن وعائلة عبد ودانخه وحليمة واليتامى والمساعيد وعائلة عريف وعائلة خزاعل . ومن بطون البراعصة أولاد أحمد وهم الطلوح والظوافر وقندول ونائل و بلذان ومنهم عائلة حسين البراعصة . وعدد الجميع يتجاوز العشرين الف مقاتل وقيل لى ان البراعصة فيهم أناس من بنى جمّاز اشراف حسينية أصلهم من السوارقية بقرب المدينة المنوّرة وقيل لى ان أصل البراعصة هو هكذا :

شريف اسمه حميّد بالتشديد من ذرية سيدى عبدالسلام بن مشيش من أولاد نائل من أهل الساقية الحرا من المغرب الأقصى جاء قاصداً الحجاز للحج فمرّ على الجبل الأخضر

وكانت امرأته حاملاً فلم يمكنها اكمال الطريق الى الحجاز فتركها فى بيت أحد الحرابى من أهل الجبل الأخضر وذهب الى الحج وتوفى فيه و ولدت امرأته بعده ولداً اسمه برعاص لأنه كان متحركاً جداً[١] وهو طفل . فبرعاص ولد مسعوداً وحسيناً وعبد المولى ومخلب فمن ذرية مسعود حليمة وطامية وجلغاف وحدوث ومنهم عائلة عريف واليتامى وعائلة خزاعل وذرية حسين وذرية عبد المولى وقد انقرضت ذرية مخلب . وأما ذرية أحد الحرابى فهم الطلوح والظوافر وفندول

ولما كنت فى معسكر أنور بعين منصور أردت السفر الى معسكر بنغازى وكانت لى معرفة بسيدى محمد العَلَمى شيخ زاوية البراعصة ومن أصهار السادة السنوسية وكبار رجال هذه الطريقه فتكلمت معه فى أن يجد لى من عند جماعته ظهراً لنقل خيامى وأسبابى فاستأجر لى رجلاً من البراعصة اسمه على بن محمد من عائلة حسين وحمل هذا أثقالنا على جماله وفى أثناء الطريق مال بنا على نجعه وسألته عن نسبهم فى النجع الذى استرحنا فيه فقال لى : انه على بن محمد بن على بن يوسف بن أبى خشيم بن عبد بن القادر بن على بن محمد بن حسين بن برعاص . فحزرنا ان برعاص قد عاش فى أواسط القرن الحادى عشر للهجرة . وللبراعصة مرابطون السعيط و العوامّة و الحسانّة و العلاونة وهم عدة آلاف

وأما الدرسه فيقال انهم أولاد ادريس ولد عقار بن حرب . ولقد خلف عائلة عادل وعائلة حامد والخشبات وعائلة مسعود وعائلة عبد وعائلة حسين أبى عوينه وعائلة السريريك وعائلة دغار وعائلة الشلمانى وعائلة دايخه وعائلة الحجازات . ومجموع الدرسه نحو عشرة آلاف مقاتل وقيل ١٥ الفاً ومنازلهم عند زاوية القصرين والعرقوب ومنهم فريق الى جهة بنغازى ولهم تسع زوايا من الزوايا السنوسية كل فخذ منهم له زاوية وأما فائد من الحرابى فمائة رجل لاغير وكانوا قبيلة كبيرة لكن على أثر عداوة بينهم و بين العواقير جلا أكثرهم الى مصر

وهناك قبيلة البراغيث وهم برغوث الكبير والعبيد والسراطنة ويقال لهم البراغيث الحر والبدور والعبادلة وهم يتجاوزون عشرة آلاف

و بين مساكن البراعصة من جهة الغرب و بين قصبة المرج قبيلة يقال لها المسامير مستقلة بذاتها يقال أصلها من الاشراف

---

(١) تبرعص اضطرب وتحرك تحتك وقيل التبرعص هو اضطراب العضو المقطوع

هذه تقاسيم قبائل الحرابي ومرابطيهم بقدر ما وصل اليه علمنا . وهناك فريق آخر من عرب برقة يقال له الجبارنة أى أولاد جبرين وهم العواقير والمغاربة والعرفا والعبيد والعريبات و وطنهم بلاد بنغازى

فالعواقير ثلاث فرق : السديدى وابراهيم ومطاوع . فالسديدى أربعة عشر بطنا : عائلة سليمان وعائلة العبار وعائلة هويدى والفوارس والعمارنة والحدادة وعائلة ماضى وعائلة رابح والتواجير وعائلة غريبيل وعائلة دينال وعائلة الاديرع والقطارنة وسعيط

وعائلة ابراهيم هم عائلة اللواتى وعائلة الغَمَق وعائلة النمر وعائلة هذيلة وعائلة الحلاق وعائلة قنفوذ وعائلة عازّة وعائلة مشرى والبراغثة والبدور وعائلة الغزالى وسعيط الشمول

وأما مطاوع فهم عائلة صالح والعشيبات والكواديك وعائلة الوزرى والخفيفات وعائلة صالح ودرمام وعائلة زيد وعائلة على والفُصيّات والعبادلة وعائلة درقة وعائلة فرناس وعائلةالقطعانيةوعائلة الخشمىوعائلة السويرىوالعمامرة ومبيديل والشويطرة وعائلةمعيوف

وأما المغاربة فهم الرعيضات وعائلة على وعائلة عليوه وعائلة صبح والعقارب وعائلة الاسود وعائلة الباسل والقبائل والمشيطات والعريبات

وأما العرفا فهم السلاطنة والطرش . وأماالعبيد فهم عائلة شعوه واليتامى وعائلةالدخانى وعائلة أبى شلوفة وعائلة حماد

والعواقير من أكبر القبائل يناهز عددها ثلاثين ألف مقاتل فأكثر وأكثرها عدداً السديدى ثم عائلة ابراهيم ثم مطاوع ومنازلهم من مدينة بنغازى الى مسوس جنوبا وهى مسافة ٢٤ ساعة ومن الشرق الى الغرب مسافة ٣٠ ساعة . وأما المغاربة فيقال انهم ٢٥ ألف مقاتل ومنازلهم من اجدابية الى عمالة سرت ومنهم كثير فى نفس سرت ويسير الانسان فى أراضيهم خمسة أيام من الشرق الى الغرب وأما العرفا فعددهم ألف وخمسمائة ومحلهم المرج . وأما العبيد فهم ثلاثة آلاف ينزلون قبلى المرج

وللعواقير قبائل تابعة اومرابطون فالسديدى مرابطوهم الشهيبات وعائلة ابراهيم مرابطوهم الفواخر . ويقال ان الشهيبات هم من ذرية الصحابى سيدنا عكاشة . ويقال ان الفواخر هم من عرب اليمامة . ومن مرابطى عائلة ابراهيم الجرارّة ومن مرابطى عائلة صالح من مطاوع بعض من المنفة . ومجموع مرابطى العواقير ٢٠ الف مقاتل

ومن عرب برقة الجلالات وهى قبيلة مستقلة بذاتها نحو من ٤٠٠ رجل

ولنذكر الآن قبائل عرب برقة حسبما كانت فى القديم لنعلم مراجع أنسابها ونقابل القديم بالحاضر فنقول :

جاء فى كتاب « نهاية الارب فى معرفة قبائل العرب للقلقشندى » مايلى :

« بنو أحمد بطن من بنى هيب من سليم من العدنانية مساكنهم مع قومهم هيب فى أطراف برقة مما يلى الغرب . قال ابن سعيد : ولهم اجدابية وجهاتها وهم يمرّهم حجاج المغرب »

قلت : لا يبعد أن يكون بنو أحمد هؤلاء هم أصل القبيلة التى تسمى اليوم المغاربة والتى لها اجدابيةوجهاتها . ثم انمن البراعصة فرقة يقال لها بنو أحمد هم أصل قبيلة البراعصة كما تقدم الكلام عليه . ويوجد فى ترهونة من عمل طرابلس قوم يقال لهم بنو أحمد لا ندرى هل هم منهم أملا ؟

قال : « وأولاد سلاَّم بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

قلت : يوجد الآن فى برقة الحمراء عائلة سلاّم

قال : « أولاد محمد بطن من صبيح من فزارة من العدنانية ومنازلهم بلاد برقة وهم فرق كثيرة » قلت : يوجد اليوم قوم اسمهم الصبيحات فى الغوارشة فى الطرف الغربى من مدينة بنى غازى ويخرج منهم هناك ستمائة مقاتل

قال : « البرْكات بطن من لبيد من سليم من العدنانية ومساكنهم مع قومهم لبيد بلاد برقة »

قلت : يوجد الآن البركات فى أطراف كمينس غربى بنغازى على مسافة عشر ساعات منها . ثم ان فى ترهونة وفى مصراطة أقواماً اسمهم البركات وأهم بادية مصراطة منهم وكذلك منهم أناس فى سرت

قال : « البشره بطن من لبيد أيضاً ومنازلهم مع قومهم برقة أيضاً »

قلت : لا نعلم هل الناحية المسماة « بشارة » فى الجبل الأخضر فى أرض العبيدات منسوبة اليهم أملا ؟ فيجوز أن تكون « بشارة » ممدودة من « بشرة »

قال : « البلايبش بطن من سليم من العدنانية منازلهم بلاد برقة »

ثم قال : « الجواشنة بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم بلاد برقة وهم غير

الجواشنة الذين مساكنهم الحوف من الشرقيــة بالديار المصرية لأن الجواشنة هؤلاء (أى الذين بمصر) هم بطن من الجيديين من هلبا سويد من جذام من العرب القحطانية »

قلت : يوجد الآن فرقة من قبيلة المغاربة المارة الذكر يقال لها عائلة أبى خمادة منهم قوم اسمهم الجواشنة

قال : « الحدادّة (بتشديد الدال الثانية) بطن من لبيد من سليم من العـدنانية منازلهم بلاد برقة »

قلت : يوجد الآن الحدادّة من العواقير ويوجد حدادّة فى نفس بنغازى ويوجـد حدادّة فى مصراطة

قال : « الحساسنة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم برقة »

قلت : يوجد الآن حساسنة فى جهات اجدابية

قال : « الفحوص بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم بلاد برقة »

قلت : موجودة الآن عشيرة اسمها « الفحاصى » غربى بنغازى لعلهم هؤلاء

قال : « الدروع بطن من لبيد من سليم من العدنانيــة مساكنهم بلاد برقة مع قومهم »

قلت : موجود الآن عائلة الاديرع من فرقة السديدى من العواقير . ومما لا يجوزأن ننساه أن أسماء العلائلات والقبائل تتغير وقد تتحرف عن أصلها . ثم مما لا يجوز أن ننساه ان القبيلة كثيراً ما يدخل فيها أقوام ليسوا منها فى الأصل ثم يندمجون فيها تماماً

قال : « الرقيعات بطن من لبيد من سليم من العــدنانية منازلهم مع قومهم لبيد بلاد برقة »

قلت : فى الحاسة اليوم عائلة الرقاعة

ثم قال : « الزرازير بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

ثم قال : « السبوت بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

ثم قال : « السوالم بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

قلت : يوجد الآن عشيرة اسمها السوالم فى عائلة مطاوع من العواقير منهم بأرض بنغازى ومنهم بمصراطة

قال : « الشبله بطن من لبيد من سليم من العدنانية بلادهم برقة »

قلت : يوجد الآن جاعة اسمهم « الشبلة فى قبيلة المغاربة باجدابية »

قال : « الشواعبة بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

قلت : فى قبيلة المغاربة عائلة اسمها الشعيبات

قال : « الشعوب بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم برقة »

قلت : فى الدرسة الآن عائلة شعيب وفى المغاربة الشعيبات فلا نعلم هل الشعوب هم هؤلاء أم أولئك أم هو تشابه أسماء ؟

قال : « الشنغة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم مع قومهم صبيح بلاد برقة »

قلت : لا نعلم هل هى بنون فغين أم بنون فعين أم محرفة وأصلها « شعغة » لأنه سيأتى ان من فزارة بطنا اسمهم الشعغة

ثم قال : « الصريرات بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

ثم قال : « العقيبات بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم مع قومهم صبيح بلاد برقة »

قلت : فى غربى بنغازى اليوم قوم يقال لهم العقيب.

قال : « العواسى بطن من صبيح من فزارةمن العدنانية منازلهم مع قومهم صبيح بلاد برقة »

قلت : من العواسى اليوم فى نفس بنغازى وفى ترهونة

قال : «العواكلة بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم مع قومهم لبيد ببرقة»

قلت : قد تقدم ان العواكلة فرقة من العبيدات يسكنون القيقب وسط الجبل الأخضر ومنهم الجبالية بكفر الزيات بمصر

قال : «العلاونة بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم مع قومهم لبيد ببرقة»

قلت : بلغنى أنه يوجد علاونة فى ناحية غريان بطرابلس ثم انه تقدم كون العلاونة من مرابطى البراعصة فى الجبل الأخضر

قال : « العلاوى بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم مع قومهم صبيح ببرقة »

قلت : وفي العواقير عائلة « عليوه » فربما كان العلاوى هم هذه العائلة

ثم قال : « الغشاشمة بطن من صبيح من فزارة منازلهم مع قومهم صبيح برقة »

قلت : ويقول القلقشندى نفسه فى صبح الاعشى : « ان فزارة هو ابن ذبيان قال فى العبر : وكانت فزارة بنجد ووادى القرى ولم يبق منهم بنجد أحد ونزل جيرانهم من طيء مكانهم وذكر بأن بأرض برقة الى طرابلس الغرب منهم قبائل رواحة هيب وفزارة قال : وبافريقية والمغرب منهم الآن أحياء كثيرة اختلطوا مع أهله (الى أن يقول) : ومنهم مع سليم بافريقية طائفة أخرى أحلاف لأولاد أبى الليل من كعوب بنى سليم يستظهرون بهم فى مواقف الحرب ويقيمونهم لأنفسهم مقام الوزراء للملوك . (ثم يقول) : وفى برقة ببلاد هيب جماعة منهم نازلون بها ومنهم طائفة بصحراء المغرب »

قلت : لم أجد اسم «هيب» الآن الا اسم فرقة من العوا كلة يقال لها «الهيب» يغلب على الظن انه بقية الاسم القديم الذى كان أعم وأشهر . والأسماء كالمسميات تشقى وتسعد

ثم قال : « القيوس بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مساكنهم مع قومهم ببلادبرقة »

قلت : وفى أولاد على مرّ بنا اسم فرقة يقال لها القيسات إلا أن تكون مصحفة

ثم قال : « اللواحق بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مساكنهم مع قومهم بلاد برقة »

ثم قال : « المساورة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مساكنهم مع قومهم بلاد برقة »

قلت : من المساورة الآن فى نفس درنة وفى مصراطه

ثم قال : « المسامير بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مساكنهم مع قومهم بلاد برقة »

قلت : تقدم ذكر قبيلة مستقلة بنفسها اسمها المسامير تنزل الجبل الأخضر ويظن أن أصلها من الأشراف . فان كانت هى البطن الذى ذكره بحسب هذه الرواية ليست من الأشراف الفاطميين الا أن يكون دخل فيها بيت منهم كما يجرى كثيراً بين القبائل . ثم من مرابطى الحاسة قوم اسمهم المسامير . فأىّ المسامير هم الذين أشار القلقشندى الى انهم بطن من صبيح ؟ الجواب عنه متعذر

ثم قال : « المواحـدة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مسا كنهم مع قومهم بلاد برقة »

ثم قال : « المقادمة بطن من سليم مسا كنهم الجيزة من الديار المصرية ومنهم ببرقة والامرة فيهم الآن لأولاد التركية من بنى فائد »

قلت : يوجد اليوم فى العواقير عائلة اسمها « المقادمة » وأما « الترا كى » فهى قبيلة من قبائل الجبل الأخضر تُعد من مرابطى العبيدات . وللحاسة مرابطون يقال لهم بنو اسماعيل الترا كى

ثم قال : « والمواسى بطن من صبيح المقدم ذكرهم مسا كنهم برقة »

قلت : اليوم من الحاسة فرقة كبيرة اسمها المواسى . وفى المغرب الأقصى قبيلة اسمها المواسى

ثم قال : « الموالى بطن من لبيد من سليم من العدنانية مع قومهم لبيد ببرقة »

ثم قال : « النبلة بطن من لبيد من سليم من العدنانية مع قومهم لبيد ببرقة »

ثم قال : « النحاحسة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مع قومهم ببرقة »

قلت : النحاحسة وقد يلفظونها النعاعسة قبيلة معروفة اليوم فى تاجورة بطرابلس

قال : « النوافلة بطن من لبيد من سليم من العدنانية مسا كنهم ببرقة »

قلت : فى جهات اجدابية وسرت قوم اسمهم النوافلة

ثم قال : « بنو بعجة بطن من هلال بن عامر بن صعصعة . قال ابن سعيد : منازلهم بين مصر وافريقية »

قلت : سمعت أنه يوجد اليوم بنفس بنغازى عائلة بهذا الاسم

ثم قال : « بنو ذياب من سليم من العدنانية . قال فى مسالك الأبصار : منازلهم من فاس الى طرابلس من بلاد المغرب . وذكر فى العبر أن منازلهم مابين فاس و برقة »

قلت : سمعت أن منهم الآن فى زوارة بطرابلس وجنوبى يفرن

ثم قال : « بنو زغب بطن من سليم من العدنانية ذكر ابن سعيد ان ديارهم كانت بين الحرمين ثم انتقلوا الى الغرب فسكنوا بافريقية بجوار اخوتهم بنى ذياب بن مالك ثم صاروا فى جوار بنى هيب »

قلت :يوجد الآن قوم اسمهم الزغيبات فى مدينة بنغازى

ثم قال : « بنو زنارة بطن من لواتة من البربر . قال فى مسالك الأبصار : مساكنهم فيما بين الاسكندرية والعقبة الكبيرة و برقة »

قلت : و يقول القلقشندى نفسه فى صبح الاعشى عند ذكر نسب البربر : ومن لواتة هؤلاء زنارة (بضم الزاى وتشديد النون والف ثم راء مهملة مفتوحة وهاء الآخر) وهم ولد زنارة من ولد برّ بن قيذار بن اسماعيل عليه السلام . وقال انه اخو هوارة وأكثر زنارة ببلاد المغرب ومنهم جماعة بالبحيرة وجماعة بالمنوفية . وقد عدّ الحمدانى من بطونهم بالبحيرة بنى مزديش وهم مزداشة و بنو صالح و بنو سام و وريغة وغرهان ولقالا . وزاد بعضهم بنى حبون و وا كدد وفرطيطه وغرجومه وطازوله ونغاث وناطوره و بنى السعوية و بنى أبى سعيد . وهم عرب بدر بن سلام . ومن لواتة أيضاً مُزاته (بضم الميم وفتح الزاى والتاء المثناة فوق وهاء فى الآخر) وهم بنو مزاتة بن لواتة الأصغر ومنازلهم من البحيرة الى العقبة الكبيرة ببرقة »

قلت : وقبيلة حبون فى دفنة و بنو سعيدة هم فى تلك الجهات . ومن العواقير فرقة يقال لها عائلة اللواتى

ثم قال : « و بنوسماك بطن من العرب عدهم الحمدانى فى عرب البحيرة و برقة والعقبة الكبيرة ولم ينسبهم فى قبيلة »

ثم قال : « بنو شماخ بطن من هيب من سليم من العدنانية قال ابن سعيد : منازلهم بالمحصّب من بلاد برقة مثل المرج وطلميثه»

قلت : فى قبيلة المغاربة اليوم عائلة الشامخ لا نعلم هل الشماخ والشامخ واحد أم هو تشابه اسماء ؟

ثم قال :« و بنو عوف بطن من بهثة قال الحمدانى : ومنهم بالصعيد والفيوم والبحيرة أناس كثيرة وفى برقة الى الغرب مالا يحصى »

ثم قال : « بنو فزارة بطن من ذبيان من العدنانية ومن بطونهم الآن أولاد محمد والجماعات والدمالى والشعوب والشعغة والعقبان والعواسى والعلاوى والغشاشمة والقيوس والمساورة والمسامير والمقادمة والمواحدة والمواسى والنحاحسة . قال فى العبر : وكانت فزارة

فى نجد و وادى القرى ولم يبق بنجد منهم أحد ونزل جيرانهم من طيء مكانهم وذكر ان بأرض برقة الى طرابلس منهم قبائل »

قلت : يوجد الآن فى برقة أولاد محمد و يوجد «الجماعات» فى سرت و يوجد فى الحاسة عائلة الجماعة بالتشديد و يوجد « الجميعات » فى اورفلّة من عمل طرابلس وكذلك فى أولاد سليمان من العواقير . وأما العواسى فقد تقدم أن منهم اليوم فى بنغازى وفى ترهونة . وقد تقدم أن فى درنة اليوم قوماً اسمهم المساورة . وكذلك يوجد اليوم فى الجبل الأخضر قبيلتان باسم المسامير . وأما القيوس ففى أولاد على الذين بين الاسكندرية والعقبة فرقة اسمها القيسات . وأما المقادمة فيوجد الآن فى العواقير بطن اسمهم المقادمة . وأما المواسى ففرقة من الحاسة كما تقدم . وأما النحاحسة فيوجد اليوم فى تاجورة من طرابلس من يحمل هذا الاسم كما سبق القول عليه

ثم قال : « بنو قطاب بطن من لبيد من العدنانية مساكنهم مع قومهم برقة »

قلت : يوجد اليوم بنو خطاب فى الفواخر فى برقة ولانعلم هل هو الاسم نفسه محرفاً أم اسم آخر ؟

ثم قال : « بنو لبيد بطن من سليم من العدنانية مساكنهم برقة وهم خلق كثير لا يكادون يحصون منهم أولاد سالم والحواشبة وقطاب و بطون أخرى متسعة »

ثم قال : « بنو محارب من سليم من العدنانية ذكرهم فى العبر ولم يرفع نسبهم وقال : ديارهم ببرقة فى الشرق عن بنى أحمد المجاورين لبلاد المغرب الى العقبة الكبيرة والصغيرة »

قلت : يشبه أن يكون قاصداً بنى محارب القبائل التى يقال لها اليوم الحرابى .

ثم قال : «بنو قرة بطن من هلال بن عامر بن صعصعة من العدنانية وذكرهم الحمدانى فى عرب الديار المصرية وقال : بلادهم اخميم من صعيد مصر . وذكرهم ابن سعيد فى عرب برقة وقال : منازلهم فيما بين مصر وافريقيـة . قال فى العبر : وكانت منازلهم ببرقة وكانت رئاستهم أيام الحاكم العبيدى لماضى بن مقرب . ولما بايعوا لأبى ركوة من بنى أمية بالأندلس وقتله الحاكم سلط عليهم الجيوش والعرب فأفناهم وانتقل من بقى منهم الى الغرب الأقصى فهم مع بنى جشم هناك »

وذكر القلقشندى بنى هلال فى صبح الأعشى فقال : « هم بنو هـلال بن عامر بن

صعصعة قال الحمدانى : وكان لهم بلاد صعيد مصر . وذكرهم ابن سعيد فى عرب برقة وقال : منازلهم فيما بين مصر وافريقية . ثم ذكر ماورد فى العبر مما جرى عليهم فى أيام الحاكم العبيدى وقال ان بحلب طائفةً منهم وانه صارلهم بلاد اسوان وما تحتها ولم يخصص منهم بنى قرة الا عندقوله : وباخيم منهم بنو قرة الى عيذاب وبساقية «قلته» منهم بنو عمرو و بطونهم وهم بنو رفاعة و بنو مجير و بنو عزيز و باصفون واسنه منهم بنو عقبة و بنو جيله »

وذكر القلقشندى نسب سليم الذى منه أكثر قبائل برقة فقال : «هو سليم بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان قال الحمدانى : وسليم أكبر قبائل قيس . قال فى العبر : وكانت منازلهم فى عالية نجد بالقرب من خيبر . ثم قال : وبافريقية منهم حى عظيم قال الحمدانى : مساكنهم ببرقة ممايلى الغرب ومما يلى مصر وفيهم الأبطال الأنجاد والخيل الجياد . قال فى العبر : وقد استولوا على اقليم طويل متسع الأطراف» . قات : وقد ذكر فى صبح الأعشى انه كان لسليم من الولد بهته (بضم الباء الموحدة فى أوله وفتح المثناة بعد الهاء) ومنه جميع أولاده . وقد اتفقت الروايات على انه كان بنوسليم بن منصور بن عكرمة و بنوعقيل ابن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة و بنو تغلب بن وائل بن جديلة كلهم فى البحرين وكانوا أعظم القبائل هناك وكان أظهرهم بالكثرة والغلب بنو تغلب . ثم اجتمع بنو عقيل و بنو تغلب على بنى سليم فأخرجوهم من البحرين وآل أمرهم الى أن نزلوا بصعيد مصر ثم تقدموا الى برقة واستولوا عليها وانتجعوا جبلها الأخضر ولم يتركوا بها ولاية ولا امرة الا لمشايخهم . قال القلقشندى: «قال والدى رحمه الله : وقد عدّ لى بعض عرب برقة من بطونهم أولاد سلاّم وأولاد سليمان الركاب والبَشَرة والبلانيش والجواشنة والحدادّة والحُوتة والدروع والرقيعات والزازير والبيوت والسوالم والشبلة والشواعبة والصريرات والعواكلة والعلاونة والقدوة والنوافلة انتهى »

قلت: تقدم أن من العواقير عائلة سليمان والحدادّة والرقيعات وتقدم أن الحوتة قبيلة من العرب المرابطين وتقدم ان العواكلة هم من فرق العبيدات . وتقدم ان بنى سلاّم منهم ماجدابية وأما سائر الأسماء فمنها ما تغير بكرور الأيام وربما بقى ولكن لم يتصل الينا لأنه لا نقدر أن نقول ان الذين قد أعطونا هذه المعلومات قد أحاطوا بكل سكان برقة وطرابلس علما

قال المقريزىّ فى « البيان والاعراب عمن نزل بأرض مصر من الاعراب » : فاما بنو هلال فانهم بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان و يقال قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.
وقال المقريزى : و بأرض مصر عوف بن سليم بن منصور بن عكرمة بن قيس بن عيلان وهم فخذ . و بنو عوف بن بهر بن امرئ القيس بن بهثه فخذ . و بنو عوف بن فالح بن ذكوان بن ثعلبة بن بهته فخذ . وعوف هؤلاء فى بلاد الصعيد وفى الفيوم وفى البحيرة وفى برقة الى بلاد المغرب منهم أمم لا تحصر كثرة

وقال المقريزى : « ومن سليم بنو عوف بن بهتة ما بين قابس و بلد العناب بالمغرب و بنو هيب بن بهتة اخوة عوف بن هيب ما بين السدرة من برقة الى حدود اسكندرية و بنو أحمد لهم عدد و يرجعون الى شماخ ولها العز فى هيب . ومن هيب سبال ومحارب و رئاستهما فى عزاز . ولهِيَب فى سليم عزة لاستيلائها على اقليم طويل خربت مدنه وصارت ولايته لأشياخهم وتحت أيديهم خلق كبير من البربر وفيهم طائفة الأبطال الانجاد والامارة فيهم فى أولاد عزاز بن مقدام »

قلت يغلب على الظن أن يكون « المقادمة » الذين هم من العواقير يرجعون الى اسم مقدام هذا وأن يكون « العازّة » يرجعون الى عزاز . ثم ظهر من كلام المقريزى هذا انه كان فى برقة بربر كثيرون وأن بعض القبائل العربية الآن مثل حبون مثلا أصلها بربر ثم قال المقريزى :

« وفيما بين الاسكندرية والعقبة الكبرى جماعة فائد و زنارة ومزاته وخفاجه وهواره وسمال ولبيد جماعة سلام وفزارة ومحارب والعلاونة وقطاب والزعاقية والبشرة والجواشنة والبعاجنة والقبايص وأولاد سليمان والقصاص ومنازلهم من العقبة الكبرى الى سوسة . ثم جماعة جعفر بن عمر وهم المثانية والميامنه وعرعره وعظيمه والعكمه والمزايل والمعزه ومن المعزه الجعافرة جماعه ابن عمر ومنهم البدارى أيضاً ومنهم السهاونة والجلده . وأولاد أحمد . ومنازلهم من سوسه الى بير السدرة وهى آخر حدود ديار مصر مسافتها من الاسكندرية نحو شهر بسير القوافل »

قلنا : جماعة فائد منهم نزر اليوم بالجبل الأخضر وجماعة فى الديار المصرية . ولقد

مرّ بنا أن زنارة هم بربر وهم أصل قبائل عدة مستعربة الآن مثل حبون . وأما خفاجة ففي اجدابية . وأما الهوارة فقبيلة شهيرة أصلها بربر . وأما فزارة فقد تقدم ذكرهم بطن من ذيبان واما محارب ففي هذا الزمان لا نعلم قبيلا فى برقة وطرابلس اسمهم محارب الا ان كان المراد بهم الحرابى . والعلاونة قد مر أنهم موجودون الآن كما ان الجعافرة مشهورون فى بلاد أورفلة من طرابلس ومشهور انهم من بنى سليم بن منصور . وأما القُصَّاص ففى أورفلة وهون عائلة أبى قصيصة . أفتراهم هؤلاء ؟ الجواب لا يبعد ذلك . وأما البدارى فربما كانوا هم البدور الذين من العواقير . وأما أولاد أحمد والجلده فقد تقدم ان قبيلة البراعصة أصلها أحمد وجليد فيظهر ان المقصود بهذين الاسمين البراعصة لأن النسبة الى برعاص ابن الشريف المغربى غلبت عليهم . واما بنو سلام فمنهم فى بنغازى

ثم قال : « وفى برقة احياء لبنى جعفر وكان شيخهم أبو ذؤيب وأخوه حامد بن كحيل وهم ينسبون فى العرب تارةً فى بنى كعب بن سليم وتارة فى فزارة والصحيح انهم ينسبون الى مصراطه أحد بطون هوارة . وفيما بين برقة والعقبة أولاد سالم . وما بين العقبة الكبيرة والاسكندرية أولاد مقدم وهم بطنان أولاد التركية وأولاد فائد مقدم وسلام معاً وهم ينسبون الى لبيد بن على بن هبة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر . وقال فى آخر الكتاب : قال العلامة الشيخ حسن العطار . ماذكر فى هذه الرسالة من القبائل اختلط حالهم الآن فالبعض لا وجود له والبعض صار معدوداً من جملة فلاحى مصر الا قبائل باقية على عدم اختلاطها بغيرها » انتهى

قلت : هذا ما أمكننا أن نردَّه من أسماء القبائل الحالية الى الأصول المعروفة فى الكتب ولا شك انه قد فاتنا منها كثير الا اننا نظن ان الذى ذكرناه من هذا الباب هو أوفى ما ورد فى كتاب مطبوع

ولنذكر الآن توابع برقة الى الجنوب داخل الصحراء فنقول :

ان أهم ملحقات برقة جغبوب وفيها زاوية سنوسية كانت هى مركز السادة وفيها مدرسة وفيها مدفن سيدى محمد بن على السنوسى مؤسس الطريقة رضي الله عنه . وقد علمنا أن الطليان بعد احتلالهم جغبوب أغلقوا المدرسة فخلت جغبوب من الشيوخ والمريدين والطلاب وأقفرت تلك الواحة . وقد استولى الطليان على جميع الزوايا السنوسية التى فى

برقة وطرابلس مع أوقافها ثم جالو وأوجلة وقد تقدم ذكرهما

ثم واحة الكفرة الشهيرة وفيها زاوية التاج السنوسية مركز السادة وفيها أودية وجنان ومزارع كثيرة وسكانها أكثرهم من قبيلة « زوية » ويبلغ عددهم أربعة آلاف مقاتل ومن أودية الكفرة « الهوارى» و « الهوبيبرى » و « الجوف » و « والزرق » و « الطلاب » و « الطليليب » و « تاهيده » و « بزّيمه » و « ربيانه » وفيها كلها النخل والتين والعنب والرمان وقصب السكر ومن مزروعاتها الحنطة والشعير وعندهم عيون جارية وآبار وسوان

ثم « تزربو » على مسافة خمسة أيام من الكفرة وأهلها زويه أيضاً

ثم « ونّ » وهى بلادمنها « بلتو » و « اهدّة » و « دربية » و « الزواية »وفيها أربعة آلاف من السكان

ثم « قرو » وهى واحة فيها ألف نسمة

ثم « عين كلك » محركة وهى واحة شهيرة فيها زاوية سنوسية كان الفرنسيس قد جاءوها بقوة من بلاد كانم وقاومهم السنوسيون وجرت بين الفريقين معارك قرأت تفاصيلها فى كتاب لأحد ضباط الفرنسيس ممن شهدوا المعارك و بعد ذلك تغلبت فرنسة على عين كلك. وفى عين كلك وجوارها نحو من سبعة آلاف نسمة من السكان

و واحة « قورى » وهى على ثلاثة أيام من قرو وفيها ألف وخمسمائة نسمة و واحة « أرضى » على مسافة يوم من قورى و يقال ان فيها أربعة آلاف ثم هناك « الوجنقات »

فالوجنقة الأولى على مسافة ١٢ يوماً من الكفرة الى الجنوب . والوجنقة الثانية على مسافة يوم من الأولى وفيهما ألفاً نسمة

ثم « فرم» على مسافة نصف يوم من « ارضى » الى الغرب وفيها ٥٠٠ نسمة ثم « بودوّ » على مسافة يوم من « ارضى » الى الجنوب و يقال ان أهله سبعة آلاف

و « العميان » على مقربة من عين كلك وأهلها ألفان

والى الشرق من كلك « بميّة » وفيها ١٥٠٠ نسمة

و « الدور » وأهلها من قبيلة ذوية نحو من ألفى نسمة وهى عن كلك على مسافة أربعة أيام الى الجنوب وعلى مسافة ١٦ يوماً من مملكة واداى و ١٤ يوماً من دارفور فى

السودان المصرى وستة أيام من الوجنقات وستة أيام من قرو

ثم « وادى الاكاوره » تابع كلك وهو من الوجنقات الى الجنوب وأهله عرب بادية زهاء ثلاثة آلاف

و « ويته » بين الدور والوجنقات أهلها من جيل يقال لهم القرعان سودان فيهم جمال وهم هناك من ثلاثة الى أربعة آلاف

و « باكيه » من « ويته » الى الجنوب على مسافة يوم واحد وكلها مراع وأهلها قرعان نحو من ألفين

و « وادى ندّو » على مسافة يوم من « باكيه » الى الشمال وهى مراع أيضا وأهلها قرعان زهاء ألفين وهم يأكلون الحنظل يصلحونه حتى يقدروا على أكله

و « رشىّ » على مسافة يوم ونصف من باكيه الى القبلة كلها مراع وفيها ثلاثة آلاف قرعان وعندهم نبت اسمه الكريب له حب

و « بسكرى » الى الشرق من « رشى » على مسيرة يومين وهى مراع أيضاً وفيها نبت الكريب أيضاً وأهلها ثلاثة آلاف قرعان

وكل أهل هذه الواحات اخوان سنوسية تابعون لزاوية كلك

ثم «أم جرس » على مسيرة ثلاثة أيام الى الشرق من كلك أهلها سودان يقال لهم البديّات وهم خمسة آلاف

والى الشرق من أم جرس على مسيرة ثلاثة أيام « باو » وكلها مراع وفيها المواشى بكثرة وأهلها بديات عددهم ستة آلاف

و « جبل مردى » بين أم جرس و باو و وادى الاكاورة فيه ١٢ ألف مقاتل كلهم قرعان يقال لهم المرداوية وعندهم مواش بكثرة

وأما « التيبو » فهم جيل من السودان الى الغرب وهم أعداد كثيرة وكانوا من الجهل فى أقصى مايتخيل العقل فهذبهم السنوسية وعلموهم الصلاة والدين وحفظوهم القرآن

وأما اعراب كانم فبعد ان احتل الفرنسيس كانم انكفأوا الى كلك والدور. وجبال الدور وعرة جداً وفيها مراع ومياه غزيرة وعندهم نخيل واشجار واللحم عندهم كثير ولهم من الخيل والابل وسائر المواشى ما يذكر. وأهل الدور من زوية وهم أشد أهالى تلك

الجهات بأساً . وكان شيخ الدور يوم أخذت هذه المعلومات منذ عشرين سنة صالح أبو كريم الزوّيي وأما شيخ الجميع فى تلك الاقطار فقد كان شيخ زاوية عين كلك وكان وكيل الحضرة السنوسية وكان عنده خمسمائة مقاتل بمعاشات مرتبة ضمن الزاوية وكان للدولة العثمانية عسكر فى كلك

ووجدت فى كنّاشاتى فى مكان آخر ان « ونّ » تبعد عن مملكة واداى مسافة ٢٠ يوماً وفيها زاوية سنوسية وزهاء الفي مقاتل و١٥ شيخاً سنوسياً . ومزروعاتها القمح والشعير والقطن وعندهم عيون جارية وآبار . وكان الفرنسيس جاءوها ثم رجعوا عنها .

ومن ون الى كلك مسيرة يومين . وفى كلك رباط نحو ٧٠٠ مقاتل من رجال السنوسى .

ومن كلك الى قرو مسافة سبعة ايام وفيها ١٥ وادياً جميع سكانها عرب . وفى قرو زاوية سنوسية يتبعها ٥٠٠ مقاتل . ومن قرو الى الكفرة الى الشرق مسيرة ٢٠ يوماً . وفى الطريق مياه استنبطها السيد السنوسى من عمق ٣٠ قامة

ومن كلك الى واداى ٢٠ يوماً . ومن كلك الى ون شمالاً يوم . ومن كلك الى قرو شمالاً خمسة أيام . ومن قرو الى الوجنقات ثلاثة أيام . ومن الوجنقات الى الكفرة ٢٠ يوماً . ومن الكفرة الى جالو ١٥ يوماً . ومن جالو الى بنغازى ثمانية ايام

ولما اتفق الفرنسيس والانكليز على تقسيم افريقية منذ سنة ١٩٠٢ وقعت واحة الكفرة ضمن الحدود الانكليزية وجعلوا من الكفرة الى جهة واداى التابعة لفرنسة مسافة ٤٤٠ كيلو متراً وجعلوا جميع الصحارى التى الى الغرب من جالو واوجله ضمن المنطقة الانكليزية وعدوا جالو واوجله آخر حدود المملكة العثمانية الى الغرب . ومثل ذلك انهم جعلوا الحدود العثمانية من مرزوق قصبة فزان الى الجنوب ٣٥٠ كيلو متراً فقط على حين كانت أحكام المملكة العثمانية جارية على مسافة ٨٠٠ كيلو متر الى الجنوب من الكفره وكان العلم العثمانى يخفق فى كلك وون وقرو فضلاً عن الكفره وتزربو

ومقيد فى كناشاتى الاحصاء الآتى :

	كيلو متر		كيلو متر
من إسكندرية الى الحجاج	٢٥٠	من خس الى طرابلس	١٠٠
من الحجاج الى السلوم	٣٠٠	من طرابلس الى زواره	١١٠
من السلوم الى دفنه بئر الشيخ رسلان	٥٠	من زواره الى تخوم تونس	٦٠
من دفنه الى طبرق	٩٠	من حدود تونس الى غدامس في الداخل	٥٠٠
من طبرق الى عين الغزال	٦٢	من طرابلس الى مرزوق	٨٣٠
من عين الغزال الى درنه	١٠٦	من درنة الى الكفرة خطاً مستقيما	٨٧٦
من درنه الى بني غازى	٢٥٠	من الكفره الى قرو	٧٧
من بني غازى الى طرابلس	٩٢٠	من درنه الى اوجله	٤١٠

هذا ولنختم كلامنا على برقة بما قاله المقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم » :

« برقة قصبة جليلة عامرة نفيسة كثيرة الفواكه والخيرات والأعسال مع يسار وهى ثغر قد أحاط به جبال عامرة ذات مزارع على نصف مرحلة من البحر فى هوية قد أحاط بها تربة حمراء [1] شربهم من آبار وما يحوونه من أمطار فى جباب وهى على جادة مصر يحسنون الى الغرباء . أهل خير وصلاح وأقل انقلاباً من غيرهم »

وذكر اجدابية فقال :

« عامرة بنيانهم حجارة على البحر وشربهم من الأمطار و « سرت » كذلك ولها بوادٍ وشعارى . وأما المسافات فتأخذ من برقة الى الندامة مرحلة ثم الى تاكنست مرحلة . ثم الى المغار مرحلة . ثم الى حليان مرحلة . ثم مخيل مرحلة . ثم الى جب المذعار مرحلة . ثم الى جناد الصغير مرحلة . ثم الى حى عبد الله مرحلة . ثم الى مرج الشيخ مرحلة . ثم الى العقبة مرحلة ثم الى خرائب أبى حليمة مرحلة . ثم الى خربة القوم مرحلة . ثم الى قصر الشماس مرحلة . ثم الى سكة الحمام مرحلة . ثم الى جب العوسج مرحلة . ثم الى حنية الروم مرحلة . ثم الى ذات الحمام مرحلة . ثم الى بومنبة مرحلة . ثم الى الاسكندرية مرحلة »

(١) أظنه يقصد ببرقة هنا مدينة بنغازى لأن هـذا الوصف ينطبق عليها والهوية هذه قد عرفناها الى الشرق من المدينة

ولنذكر الآن شيئاً عن طرابلس أخت برقة والتي ينسب ذلك القطر اليهـا فنقول طرابلس مدينة عامرة كانت مركز الولاية أيام الدولة العثمانية وهي الآن لعهد الطليان مركز الولاية وكان يتبعها نوثلاث اح جفارة وتاجورة وزنزور . ثم قضـاء النواحي الأربع وهي ناحية هاني وناحية المنشية وناحية الساحل وناحية الرفيعات . ثم قضاء نجاد . ثم قضاء غريان . ثم قضاء أورفلة . ثم قضاء ترهونه . ثم قضاء الزاوية . ثم قضـاء زوارة . ثم قضاء العزيزية . ثم قضاء العجيلات . ثم لواء لبده ويتبعه ناحيـة خمس وناحية الساحل وناحية تاورغه . ثم قضاء مصراطه . ثم قضاء زليطن . ثم قضاء مسلاّته . ثم قضـاء سرت . ثم لواء الجبل الغربي ويتبعه ناحية يفرن وناحية ككله وناحيـة الحوض وناحية مراده وناحية زنتان . ثم قضاء فساطو . ثم قضاء غدامس . ثم قضاء نالوت . ثم لواء فزان يتبعه رأساً ناحية مرزوق ثم الوادي الشرقي ثم الوادي الغربي ثم الحفرة الشرقية ثم سبن وسمنو ثم زلهٌ ثم قطرون ثم قضاء سوكنـه . ثم قضاء الشاطي . ثم لواء غات مربوط به رأساً ناحية جانت وناحية البركة وقضاء تيبورشاده الجلة أربعة ألوية و ٢٠ ناحية

وقد كان في الدولة العثمانية لواء بنغازي يتبع طرابلس أحياناً وينفصل أحياناً وكان يتبعه أربع نواح ناحية البراعصة وناحية سلوك وناحية قيمنس وناحيـة برسيس ثم قضاء درنه يتبعه ناحية السلوم وناحية طبرق وناحية بمبا وناحيـة القبة وناحية الحاسة . ثم قضاء المرج يتبعه ناحية الدرسه . ثم قضاء جالو وأوجله يتبعه ناحيـة بريقه . ثم قضاء أجدابية الى الغرب من بنغازي . ثم قضاء الـحفرة مع توابعها السالفة الذكر

ومما وجدته في كناشاتي عن طرابلس ما يلي :

أول بلد من طرابلس الى الغرب من برقة سرت وهي مركـز قضاء وهي سرت البيضاء وسرت الحمراء . وبعد سرت عين تاورغا ووادي بن وليد ومصراطة وهي مركز قضاء وزليطن قضاء أيضا والخمس متصرفية . ومصراطة تمتد مسافة يوم الى الجنوب وآخرها من الغرب زاوية محجوب عند مقام سيدي أبي رويه . وبأراضي مصراطة الزيتون والنخيل والتفاح والرمان وجميع أهلها تقريباً خيالة لـكثرة الخيـل في بلادهم ويخرج منهم ألوف مؤلفة من الفرسان وهم بغاية الشدة . وينقسمون الى قروغلية ورعية . فالقروغلية تحريف « قول أوغلي » وهم أولاد العساكر والمأمورين الأتراك والأرناؤوط والجركس والبشناق

وغيرهم ممن كانوا يخدمون فى الجيش العثمانى والحكومة فى طرابلس . والرعية هم الأهالى الأصليون . ومن القروغلية فى أكثر المدن كبنغازى ودرنه ومصراطة ومنهم يدّر ومنهم الزوابى والشواهدة والجراكسة . وأما الرعية في مصراطة يقال لهم زمورة ومنهم أهل قصر حمد وقزير وزاوية المحجوب وغيران والشتاونة وأولاد الشيخ والهريشات . وفى مصراطه عشيرة اسمها خدّام الزرّوق وهم الرعيضات وسورجابر وبلاّله والشويخات والحسون والفرجان ومعدان وبركات . وكل قبيلة من هؤلاء لها قرية هى مستقلة بها وبعض خدام الزرّوق يسكنون فى المضارب . وزعماء القروغلية عائلة الأدغم فى نفس مصراطه وبنو المنتصر زعماء الآخرين ومزروعات مصراطه الحنطة والشعير والدخن وأرضها سهول ورمال والخيل عندهم لا تحصى وماؤهم من الآبار والسوانى ولكنه كثير

وأما سرت فأهلها أولاد سليمان وهم بدو وعشيرة يقال لها القبائل والقذاذفة والفرجان وبركات ومعدان والحسون وزاوية . وكل هؤلاء منهم بدو ومنهم حضر وفى آخر سرت الى الغرب بلد تاورغا أهلها حضر وهم سمر الألوان مثل السودان . وفى تاورغا أنهر جارية وعين اسمها عين سمهود ماؤها وبىّ وفى تاورغا النخيل والقمح والشعير وكان أهل سرت يوم جمعنا هذه المعلومات ازيد من ٢٠ الف مقاتل اما الآن فلا نعلم الحقيقة وانما نعلم أن أهل طرابلس وبرقة منذ مجئ الطليان الى الآن قد تناقصوا الى النصف مما كانوا وذلك بالقتل والرحيل وتوالى المحن

والى الغرب من مصراطه قضاء « اورفلّه » واهله بغاية الشدّة يقولون « أورفلّى ما يوالّى » وهم جماعة سيدى عبد السلام ابن سليم الأسمر من أكابر أولياء الله .وأهل أورفله منهم حضر ومنهم بدو وفى الصيف يأوون الى بيوت الحجر وفى الشتاء يسكنون المضارب . وإلى الغرب من أورفله بلاد زليطن ويقال لأهلها الفواتير وهم أشراف وسيدى عبد السلام الأسمر منهم وهؤلاء الفواتير يبلغون عدة آلاف ويوجد فى زليطن قبائل أخرى كأولاد غيث والعمائم والبراهمة وغيرهم . وفى زليطن قروغليّة كما فى مصراطه . والى الغرب من زليطن الساحل وفيه نهر جار يقال له عين كعاوه وأهل الساحل اسمهم الجوامد وعندهم زيتون ونخل وهم يزرعون الحنطة والشعير والذرة والقصب ومن الساحل الى الغرب محل يقال له المرقب ثم مركز يقال له الخمس كان مركزا للمتصرفية لعهد الدولة العثمانية وكانت

سرت ومسراطه وزليطن وترهونة تابعة لمتصرفيـة الخمس .وأما ترهونه فتمتد من المحـل المسمى بالساحـل الى تاجورة بقرب مـدينة طرابلس وسكان ترهونة قبيلة يقال لها ترهونة أيضا وكانت كثيرة العدد جـداً لأيام الدولة العثمانية وكان زعيم ترهونة على بك المُرَيّض. وفى أيام الحرب الكبرى عندما انتقض أهالى طرابلس على الطليان وطردوهم وحصروهم فى مدينة طرابلس ومدينة بنغازى ومدينة درنه لا يقدرون أن يخرجوا إلى الخارج استقلت ترهونة بحكومـة خاصة بها كما استقلت مصراطه واستقلت أورفـله وغيرها . و بقيت الحال كذلك الى أن حضر نورى أخو أنور من جهات بنغازى على أثر اتفاق السيد إدريس السنوسى فى ذلك الوقت مع الطليان وعقدهم معاهدة معه يعترفون له فيها بالامارة فجاء نورى منهزماً الى مصراطه ومعه الاستاذ عبد الرحمن عزام المصرى فسلم له رمضان السواحلى الذى كان مستبداً بأمر مصراطه أمور تلك البلدة و بعـد ذلك بحسن تدبير نورى ومستشاره عبد الرحمن عزام اتحدت جميع تلك الحـكومات حكومة واحدة وصار بر طرابلس كله تحت إمارة نورى الذى كان يمثـل السلطان وكان أخوه أنور يرسل اليه بالامدادات من الاستانة بواسطة الغواصات الألمانية وانحصر حكم الطليان فى مـدينة طرابلس وأما بنغازى فـكانت الامارة فيها للسيد إدريس السنوسى ما عدا مدينتى بنغازى ودرنه . و بقيت الحال كذلك حتى جاء حكم الفاشست فى إيطاليا فنقضوا المعاهـدة التى كانت ايطاليا عقدتها مع السنوسى المشار اليـه وفرّ السيد ادريس الى مصر حيث هو الآن وسلك الفاشست بمسلمى طرابلس وبرقة المسلك الفظيع الشنيع الذى سلـكوه ونقلنا طرفاً من أخباره فى هذا الفصل

هذا والى الجنوب من ترهونه قضاء مسلاّته وكان لعهد الدولة العثمانية تابعا لمتصرفية جبل غريان وفى مسلاّته قبائل كثيرة وأكثر محصولها العنب والزيتون ومن مسلاّته الى فزّان عشرون مرحلة . وأما جبل غريان ففيه نحو من مائة قرية وفيـه بيوت منحوتة فى الصخر وهناك جبل يفرن وجبـل نالوت وجبل فساّطو وجبل شفانه والجبـل الغربى وقصبة زوارا على البحر وأهل الجبل الغربى و زوارا أباضيه وكذلك أهل فساطو ونالوت وأكثر محصول جبـل غريان التين . والى الغرب من بلاد طرابلس الزاوية الغربيـة ثم غدامس على حدود بلاد تونس ومما وجدته أيضاً فى كناشاتى أن طريقة سيدى عبد السلام الأسمر ولى الله الأكبر رضى الله عنه هى الطريقة العروسية وأتباعها كثيرون

هذا ما اخترنا ذكره عن طرابلس و برقة ولأجل اتمام الفائدة يجب أن نذكر خلاصة عن كيفية احتلال ايطاليا لطرابلس فليعلم القارئ أن مبدأ هذه النازلة كان احتلال الفرنسيس لفاشودة فى منطقة السودان المصرى جاءوها من جهة السودان الغربى فاعترضت عليهم انجلترة وحصل خلاف شديد بين الدولتين وأنذرت انجلترة الفرنسيس بالحرب إن لم يرجعوا عن فاشودة فرجعوا عنها ولكنهم طلبوا تحديد الحدود بين المنطقة الانجليزية والمنطقة الافرنسية فى السودان فبعد أن حددوا الحدود بدا لهاتين الدولتين أن تتقاسما افريقية فيما بينهما سراً وكان ذلك سنة ١٩٠٢ فنزلت فرنسا لانجلترة عن مصر والسودان المصرى وأوغندة وغيرها ونزلت انجلترة لفرنسا عن مراكش وشمالى افريقية والبلاد التى كانت فرنسا احتلتها فى السودان الغربى وقد كان هذا التقسيم من أفظع ما سجله التاريخ لأن الدولتين تقاسمتا به بلدان الناس بدون علمهم وتجاوزتا على حقوق دول كثيرة مستقلة اعتداء محضاً وتسلطاً صرفاً وقد كان هذا التقسيم لافريقية بين فرنسا وانجلترة أكبر عامل فى الحرب الكبرى لأنه على أثره قامت ألمانيا تعترض على سعى فرنسا بالاستيلاء على المغرب وكذلك اعترضت دول أخرى كايطاليا واسبانيا فانتهى الأمر بعقد مؤتمر دولى فى الجزيرة الخضراء أمام جبل طارق وهناك قررت الدول استقلال سلطنة المغرب برغم ما كان بين انجلترة وفرنسا من الاتفاق السرى ولكن هاتين الدولتين وقعتا على معاهدة الجزيرة من جهة و بقيتا تعملان لتنفيذ الاتفاق السرى الذى بينهما و بناء على هذا الاتفاق تعرضت فرنسا للمغرب وساقت جيوشها وتجاوزت على هذه السلطنة من جهة الشرق واحتلت « وجدة » ثم أرسلت جيشاً نزل بالدار البيضاء وكان ذلك مبدأ لبسطها الحماية على مراكش كما لا يخفى . وقد كان أهالى المغرب رأوا فى سلطانهم عبد العزيز ابن مولاى الحسن ضعفاً عن مقاومة الفرنسيس فبايعوا أخاه عبد الحفيظ على أمل أن يقوم هو بالمدافعة عن البلاد ولم يبايعوه الا على شرط تنظيف البلاد من الأجانب ولكن الفرنسيس أعملوا القوة العسكرية من جهة والسياسة والمصانعة من جهة أخرى وانتهى الأمر باقناع عبد الحفيظ بقبول الحماية الافرنسية ولعب فى ذلك الوقت قدور بن غبريط المشهور دوراً مهماً فى اقناع السلطان عبد الحفيظ بقبول الحماية بعد ان كان هذا السلطان امتنع عن قبولها أشد الامتناع وأراد الاستعفاء من السلطنة . وخلاصة القول أن فرنسا وانجلترة من

و رائها ظهير نقضتا معاهدة الجزيرة بفعلهما وكان ذلك مما أثار غيظ ألمانيا وحمل امبراطور ألمانيا على المجيء بنفسه الى طنجة واعلان أن استقلال المغرب لا يمكن أن يمسه أحد ولو لم يكن السلطان عبد الحفيظ قد قبل الحماية الافرنسية من نفسه لبقيت ألمانيا متمسكة بمبدأ استقلال المغرب التام . وهذا الذى دعاها قبل الحرب العامة بقليل الى ارسال بارجة الى مرسى أغادير يوم ثار الخلاف بينها و بين فرنسا وكادت الحرب بينهما تنشب الا أن ألمانيا نكصت أوانئذ عن الحرب لكون انجلترة وعدت فرنسا بجعل الأسطول الانجليزى تحت ارادتها فيما اذا نشبت حرب بين فرنسا وألمانيا . وقد كانت هذه من أمهات المسائل التى أوجبت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ ومقصدنا من ذكر هذه المقدمة أن ايطاليا بعد أن رأت تقسيم انجلترة وفرنسا لأفريقية واستئثار كل منهما بممالك و بلدان طويلة عريضة واحتلال فرنسا للمغرب واعطاء قسم منه لاسبانيا اسكاتاً لها عن الاعتراض قامت فطالبت فرنسا وانجلترا بحصة لها فى أفريقيا واقترحت أن تنزلا لها عن طرابلس الغرب و برقة وتم الاتفاق على ذلك بين هذه الدول الثلاث سرا و بعد ذلك هاجت ايطاليا طرابلس الغرب بغتة بدون أدنى سبب سوى أن فرنسا وانجلترا تقاسمتا افريقيا وأنها هى ايطاليا دولة كبيرة فلا يمكنها أن تبقى بدون حصة من هذه القارة ولما هاجت ايطاليا طرابلس الغرب أبلغت تركيا أنها ان رضيت أن تتخلى لها عن طرابلس و برقة تعوض عليها بعض تعويضات مالية وتبقى للسلطان العثمانى السيادة الدينية ولكن العالم الاسلامى يومئذ ثار ثائره لهذا الاعتداء الفظيع واضطر الدولة الى المقاومة . نعم انه لم يكن للدولة قوة فى طرابلس أكثر من أربعة آلاف عسكرى على حين ان ايطاليا جهزت لاحتلال ذلك القطر مائة ألف عسكرى الا أن الاهالى ثاروا بأجمعهم ورأى الباب العالى أنهم قوة قادرة على مقاومة الطليان فأمدهم بما أمكن من الأسلحة وجاء أنور متنكراً ودخل الجبل الأخضر من الحدود المصرية وجاء على فتحى ودخل طرابلس من الحدود التونسية وكان بلغ أهالى مصر وتونس استعداد أهالى طرابلس و برقة للحرب فأرسلوا اليهم بالأرزاق وأمدوهم بما أمكن من الأموال وكانت الحية الاسلامية فى ذلك الوقت غير ما آلت اليه بعد الحرب الكبرى فرأت ايطاليا ورأى العالم الأوروبى كله من مقاومة الطرابلسيين مالم يخطر لهم على بال . ولقد كانت ايطاليا تعتقد ان احتلالها لذينك القطرين يتم فى خمسة عشر يوماً . وأتذكر أنى

قرأت بيانات للورد كتشنر ان هـذا الاحتلال أصعب مما يظنون وانه قد يأخـذ مدة ثلاثة أشهر ... فـكان من مقاومة الطرابلسيين أن استمرت الحرب بينهم و بين ايطاليا عشرين سنة تامة بدلا من ثلاثة أشهر ولم تنقطع الا فى السنة الماضية بعـد أسر الشهيد عمر المختار . وقد بلغت خسائر ايطاليا فى هذه الحرب مدة العشرين سنة مائة وخمسين ألف قتيل وثلثمائة مليون جنيه ذهب ولو تيسر للاهالى السـلاح اللازم والعدة لـكان يستحيل أن تتقـدم ايطاليا من ساحل البحر الى الداخـل ولو مسافة بضعـة كيلو مترات ولـكن الذى فت فى أعضاد الأهالى هو فقد السلاح والذخيرة كما لايخفى . وكان نزول الطليان فى طرابلس النهار الرابع من اكتوبر سنة ١٩١١ وخرجت الحـكومة العثمانيـة من طرابلس ومعها العسكر بقيادة نشات بك وخيموا فى جهات غريان وكانوا ينتظرون الأوامر من البـاب العالى بالتسليم وكانت ايطاليا تنتظر ذلك لعـدم تصور العقل امكان ادنى مقاومة . ورأى الأهالى أن الدولة تركتهم فخضعوا فى أول الأمر للطليان وهؤلاء أخـذوا يوزعون الأمـوال على وجوه الاهالى فى طرابلس وناحيتها وفى بنغازى وفى درنه واستجلبوا كثيراً منهـم وكان من جملة من خـدم الطليان من أعيان بنغازى المعروفين منصور الـكاخيا وكان منهم ابن المنتصر فى مصراطه . وفى ذلك الوقت بينما ظن الطليان أن الأمر اسـتوثق لهم قام سليمان البارونى زعيم الاباضية الذى هو اليوم وزير امام الأباضية فى مملـكة عمان وقام معه فرحات وغيرهم من زعماء طرابلس واستنفروا الأهالى فأتوا بالسلاح وهددوا العسـكر العثمانى المنسحب الى خارج طرابلس بالقتال ان لم يصلِ الطليان الحرب فاشتد عزم العثمانيين وعلم الباب العالى أنه يقـدر أن يعتمد على الاهالى وفى أواخر شـهر اكتوبر المذكور كان المتطوعون منهم قد تـكاثروا جداً فزحف العسكر العثمانى والمتطوعون الى مدينة طرابلس وقاتلوا الطليان قتالا شديداً وفى أحـد الأيام ظنوا أنهم مستولون عليها لا محالة . ولـكن مدافع الطليان من البر والبحر حالت دون تحقيق هذه الأمنيـة . وكان قد لحق بالجيش العثمانى أهالى ترهونه وأهل الساحل والمنشيه والرجيحات تحت قيادة على بك الشابى الذى امتاز فى معركة بيرطبراس والتحق أيضاً بالجيش أهالى تاجوره بقيادة على محمد كرموس وجاء أيضاً الطوارف والفزانيـة وأهالى زليطن وتاورغه وزمتان ورجبان ومزده وأهالى غريان وأورفله ومصراطه وناوير والزاوية وزنزور والعجيلات وغيرهم وبدأت الحرب

وجاء خمسمائة فارس من أولاد أبى سيف وهم سنوسية يسكنون فى سكنه وكان جميع هؤلاء الأهالى مقبلين على الحرب كأنهم مونضون الى أعراس واستردت الأهالى جميع النواحى التى حول مدينة طرابلس حتى دخلت سيدى الهانى وسيدى المصرى فشاهد العالم بأجمعه من بسالة هذه الأقوام ما قضى بالعجب العجاب ولكن الطليان ضاعفوا قواتهم ومعداتهم وفى ٢٦ نوفمبر استرجعوا سيدى الهانى وسيدى المصرى ثم بدءوا بتلك الأفعال الفظيعة وقد ذكرنا فيما تقدم مذبحة المنشية التى تبقى عاراً على ايطاليا أبد الدهر. ولولا مدافع الطليان ومعداتهم ما كان يمكنهم أن يثبتوا فى مدينة طرابلس فضلا عن أن يتقدموا الى الداخل وكان جميع المدافع التى فى المعسكر العثمانى سبعة مدافع فقط معها ثلاثون من المدفعية وهم قائد اسمه أحمد شكرى قاوم جميع مدافع الطليان بمدافعه هذه ووصل الى مسافة كيلو مترين فقط من الطليان والى مسافة ستة كيلو مترات من المدينة وكانت قنابره تسقط فى حديقة البلدة وفى واقعة قارقاريش قاوم أحمد شكرى هذا بأربعة مدافع جميع مدافع الطليان الهائلة وفى واقعة عين زاره بقى يقاوم مدافع الطليان مدة عشر ساعات إلى أن تمكن العثمانيون من الرجوع بانتظام. وقد وصل الينا ونحن فى معسكر درنه المسيو دريمون مراسل جريدة الألستراسيون المصورة فحدثنا عن وقائع الحرب التى شهدها فى طرابلس وقال إنه لم يجد قوما عندهم شغف بالقتال واستخفاف بالموت كهؤلاء القوم. وقرأت له مقالة فى الالستراسيون أنه شاهد فى المعسكر العثمانى أمام طرابلس متطوعة من الطوارق ومن فزان ومن جبل غريان وزليطن وأورفلة وترهونه ومن الساحل قال: «واذا سمع هؤلاء نداء الحرب قامت قيامتهم وتدفقوا إليها كالسيول من الجبال وبالجملة فالحرب عندهم أشهى لذة تتصورها عقولنا» ثم إن الدولة العثمانية جعلت معسكرا آخر فى مصراطه بقيادة خليل بك عم أنور ونورى أخى أنور واشتعلت الحرب بينهم و بين الطليان الذين كانوا فى قصر حمد على البحر. وأما من جهة بنغازى فان الحرب بدأت بعد ١٨ يوما من إعلان ايطاليا الحرب على تركيا. وفى الليلة الثانية من نزول الطليان فى بنغازى هجمت عائلة ابراهيم والبراغثة بغتة على محلة يقال لها الصابرى وسط نخيل بنغازى كان الطليان أرسلوا إليها جانبا من جيشهم فحصلت معركة شديدة انهزم بها الطليان الى محل يقال له الزرايب وتلف منهم ذلك اليوم نحو من تابورين. ووقعت واقعة أخرى يوم نزولهم اسمها وقعة جوليانة قتل منهم فيها

ثلاثمائة ومن العثمانيين سبعون وكان الطليان يضربون بنغازى بمقذوفات مدافعهم من البحر فقتل من الرجال والنساء والأطفال نحو أربعمائة وتمكنوا بمدافعهم من النزول الى البر لأنه لم يكن عند العثمانيين مدافع تحمى البلدة فنزلت عساكر الطليان واحتلت الثكنة العسكرية فقاتلها الأهالى وسقط من الطليان جماعة فى ميدان الثكنة . وخرجت الجنود التى كانت فى بنغازى مع قائدها شاكر بك الى سيل الهوَّارى على مسافة أربعة كيلو مترات من المدينة وبقيت خمسة عشر يوما فى الهوارى وكانت أربعمائة جندى فقط ثم تأخرت هذه القوة الى الأبيار على مسافة ثلاثين كيلو مترا . وكان سيدى عمران السكونى شيخ الزاوية السنوسية فى قصبة المرج وقد عرفته يوم ذهبت الى بنغازى فرأيت فيه صنديداً من الصناديد رحمه الله وأكثر من مثله فهذا الرجل استنفر قبيلة العرفا التى هو شيخ على زاويتها وقبائل أخرى والتحق بالجند العثمانى الذين بقيادة شاكر بك وزحفوا الى الطليان فكسروهم الى مدينة بنغازى ومن ذلك الوقت لبثوا فى بنغازى تحت حماية اسطولهم . وأقام المعسكر العثمانى ومعه العرب بالمحل الذى يقال له الرجه . وكان الطليان قد قصدوا قرية الكويفية على مسافة ساعة ونصف الى الشرق من بنغازى وعلى ربع ساعة من شاطئ البحر ولم يكن فى الكويفية الا نزر من المقاتلة وكان الطليان عدة آلاف فانهزم الطليان وقتل منهم مئات وغنم منهم العرب بنادق ومسدسات وأعتدة كثيرة

وفى ١٥ يناير سنة ١٩١٢ بعد حضور عزيز بك المصرى قائداً للعسكر العثمانى فى بنغازى جرت وقائع كثيرة نذكر منها أن أربعمائة عربى هجموا على استحكام اسمه شويليك دخلوه من شاطئ البحر فذبحوا الطوبجية الطليان على المدافع وأحضروا المكاتيب التى فى جيوبهم من أهلهم اليهم وفى ١٦ الشهر المذكور دخل سبعون عربياً الى استحكام الفويهات وقتلوا وغنموا مقداراً من البنادق وفى ١٨ منه جرت وقعة الزريرعية اذ دخل من العرب ليلاً ٣٥٠ رجلاً بين استحكامين من استحكامات الطليان وقعدوا فى حفرة وقعد ٥٠ عربياً من الجهة الأخرى فسار الطليان فوقعوا فى الحفرة بغتةً ونشب قتال شديد بين الفريقين وكانت أربع بوارج طليانيـة تطلق القنابر من البحر منعاً للعرب من امداد ذويهم ولكن أصيب الطليان ذلك اليوم برزايا فادحة وقتل منهم مئات وقيل ١٥٠٠ جندى وقتل من العرب ٣٥ مجاهداً وجرح ثمانون . ومن بعد هذه الوقعة ازداد اهتمام الطليان

بالاستحكامات ووضعوا حولها الأسلاك الشائكة

وفى ٣١ ديسمبر سنة ١٩١١ ذهب ٥٠ عربياً من قبيلة الفوارس ودخلوا استحكام الفويهات وغنموا وقتلوا وقتل منهم ١٠ رجال وجرح ١٢ رجلا

وفى ٢٢ فبراير سنة ١٩١٢ هجم العرب من جهة اللثامه على الاستحكام الطليانى الذى هناك فغنموا خيلاً قتلوا فرسانها وغنموا بنادق وأدوات

وفى ٢٦ منه اجتهد الطليان فى احتلال « غريونس » على شاطئ البحر جاءوها من جهة شويليك فردهم العرب وغنموا منهم ١٩ بندقية

وفى ١٢ مارس ١٩١٢ جرت وقعة الفويهات الشهيرة وكان سببها أن ٢٠٠ عربى دخلوا بين استحكامَى الفويهات والبركة فثار فى وجوههم الطليان واشتدت الحرب وأحاط الطليان بهذه المائتى مجاهد من العرب وقصد عزيز بك المصرى ومن معه من العرب امداد هؤلاء فلم يتمكنوا من ذلك بسبب القنابر التى كانت تتساقط كالمطر من البر والبحر . فلبث هؤلاء العرب يقاتلون مستميتين الى الظلام وعند ذلك نجا فلّهم ولحقوا بالمعسكر العربى بعد قتال استمر طول النهار ويقال انه نجا ٨٠ رجلاً من المائتين . وأما الطليان فقتل وجرح منهم ألف وخمسمائة مقاتل منهم ٢٨ ضابطاً برتب مختلفة وجنرال برتبة لواء وأصيب بالجنون عدة ضباط من هول تلك الوقعة . وكانت هذه الواقعة قد شقّت كثيراً على العرب وقامت النوادب تندب أولئك الأبطال الذين حالت مدافع الطليان دون امكان نجدتهم . وبينما العرب فى مأتم على قتلاهم اذ وردت برقية من أنور القائد العام فى درنه الى عزيز على المصرى قائد مجاهدى بنغازى عن برقية من الاستانة عن برقية من برلين عن برقية من رومة تفيد أن وقعة الفويهات هذه كانت من أشد المصائب على الطليان خسروا فيها ألفاً وخمسمائة مقاتل ومنهم ضباط كثيرون قتلى وجرحى ومنهم من أصابهم الجنون من هول ذلك اليوم . فلما بلغ العرب ذلك شفى من حرقتهم على أبطالهم وتحوّل حزنهم سروراً

وفى ٤ ابريل اشتبكت دورية من العرب مع ثلاثة آلاف جندى طليانى فى الفويهات أيضا فانكشف الطليان بغير انتظام وخسروا ٨٠ قتيلا ولم يقع من العرب الا قليل من القتلى والجرحى

وحصلت بين الفريقين وقعة اسمها وقعة السلمانى وذلك أن ٦٠ عربياً هجموا على

استحكام السلمانى فخرج الطليان ودارت رحى الحرب ووردت نجدات للعرب فكسروا الطليان وألزموهم داخل الاستحكام بعد أن تركوا مئات من القتلى على الحضيض . ثم وقعة البركة وهى أن الدرسه والعبيد دخلوا ليلاً بين الاستحكامات فى راس عبيدة وكانوا ثلاثمائة مقاتل فدارت رحى الحرب طول الليل وأصبح الصباح عن ٣٠٠ قتيل من الطليان ولم يقتل من العرب سوى ثمانية مجاهدين وجرح ١٢ مجاهداً . وفى ١٩ يونيو جرت وقعة مع دورية الكويفية وكانت ٥٥ مجاهداً لا غير فتلاقت مع الطليان فى سوانى عثمان وكان هؤلاء تابورين من المشاة والاى من الفرسان ومعهم بطارية مدافع جبلية و بطارية صحراوية وثبت العرب مع قلة عددهم نحواً من ساعتين الى أن وصلت اليهم النجدات فعند ذلك انهزم الطليان ونقلوا عشر عربات وثلاث سيارات كهربائيـة ملأى بالقتلى والجرحى منهم ثلاثة ضباط وغنم العرب أسلاباً كثيرة

وهكذا كانت وقائع بنغازى فى بداية الغارة الطليانيـة واستمرت بعد ذلك بدون انقطاع الى أن جرت الحرب العامة وخدع الطليان بالاتفاق مع الانكليز السيد ادريس السنوسى نجل سيدى المهدى واعترفوا به أميراً على برقة وانقطع بذلك القتال وصارت الامرة فى البركه للامير ادريس و بقى كذلك سبعاً الى ثمانى سنوات اذ جاء الفاشيست ونكثوا بالمعاهدة واستأنفوا الحرب ففر الأمير ادريس الى مصر وتولى قيادة المجاهدين زعماء متعددون أشهرهم الشهيد عمر المختار الذى ثبت الى الآخر و بلغت مدة جهاده عشرين سنة

وأما مبدأ نزول الطليان فى درنه فهو أنهم جاءوا ودمروا فيها بيت التلغراف اللاسلكى ثم ضربوا المدينة بالقنابر . وكان فى درنة ٦٠ جندياً عثمانياً لاغير تحت قيادة البيكباشى شاكر بك فانضم اليهم بعض الأهالى وجاء على افندى العوا كلى قائم مقام قصبة المرج ومعه عشيرته العوا كلة و بعض عائلة غيث فقاوموا الطليان بشدة لكن أهالى درنة اختاروا التسليم . وخرج شاكر بك بجنده الى عين « ماره » وأخذ الطليان يستجلبون الأهالى بالمصانعة ووزعوا أموالاً وكاتبوا مشايخ الزوايا السنوسية ورؤساء القبائل ومع هذا فالعرب بقيت تابى طاعتهم فأخرجوا تابور بحرية وثلاثة توابير مشاة و بطارية مدافع وصعدت هذه القوة الى رأس نبع درنه فى الوادى المعروف بوادى الشواعر فصدمهم على افندى العوا كلى بقومه وتوافت اليه الاعراب فهزموا الطليان هزيمة شنعاء قتل منهم فيها

مئات وجرح مئات بعد أن استمر القتال ١٢ ساعة وغنمت قبيلة الشواعر ٨٠ بندقية والعوا كله ١٢٠ بندقيــة ومن الحيوانات وقرطاس البنادق شيئاً كثيراً . ولم يسقط من العرب الا ١٢ مجاهداً من العوا كله وستة من الشواعر . فاشتدت بهذه النصرات عزائم العرب وتقوت قلوبهم وكان أنور قد وصل الى « دفنا » يوم جرت واقعة وادى الشواعر هذه فكاد يطير فرحاً وعلم أنه يقدر أن يقاتل برجال كهؤلاء . وقبل واقعة وادى الشواعر لم يكن حصل الا مناوشتان مع العرب بنى جازيه من العبيدات قتل فيهما ٥٠ طليانياً . أما بعد وصول أنور فان الطليان امتنعوا عن الخروج مدةً واعتصموا باستحكاماتهم وأخيراً خرجوا بقوة عظيمة وصارت الواقعة المسماة بواقعة « الضَبَط » وألحوا على معسكر أنور ولكن العرب هزمتهم وتركوا مئات من القتلى والجرحى وغنم العرب ١٣ بغلاً موقرة ومئات من البنادق واستشهد من العرب ٤٠ مجاهداً . وكانت هذه المعركة فى ٣١ ديسمبر ١٩١١

ثم فى ١٧ يناير سنة ١٩١٢ جرت وقعة بين الطليان وجيش العرب الشرقى أى المخيم شرقى درنه فتقهقر العرب وقتل منهم ١٨ مجاهداً وأسرع الجيش الغربى لنجدته فوجد فى طريقه تابورين من الطليان فهزمهما وقتل منهما ١٥٠ جندياً . ثم فى ٣٠ يناير هجمت قبيلة البراعصة على استحكام سيدى عبد الله ليلا وهو ملآن بالمدافع الهائلة الكبيرة وكان هجوماً بجرأة نادرة المثال فى تواريخ الحروب الا أن البراعصة لم يقدروا على الاستحكام ووقع منهم ٧١ شهيداً . وجرت وقعة فى ٣٠ مارس ١٩١٢ استمرت طول النهار وانهزم الطليان وقتل منهم أربعمائة منهم ثلاثة ضباط كبار وقتل من العرب ٣٧ وجرح ١٥٠ مجاهداً وغنموا ١٥٠ بندقية وثمانية صناديق ملأى بالمقذوفات

وفى شهر مارس جرت واقعة كنت أنا السبب فيها لأنى كنت وصلت مجاهدا ومعى خمسة رجال من أخصائى من جبل لبنان باق منهم فى الحياة واحد هو عجاج أغا عبد الصمد من عماطور فلما وصلت الى معسكر عين منصور تقابلت مع أنور ومصطفى كمال وغيرهما من القواد وصرت مترقباً نشوب واقعة لأشهدها . فمضت أيام ولم يحصل شئ سوى مناوشات بين الطلائع . فبينما أنا أتحدث الى رشيد بك ابن المشير فواد باشا الجركسى [1] قال لى :

(١) استشهد رحمه الله فى حرب البلقان عند استرداد العثمانيين لادرنه سنة ١٩١٢

ان شئت نريك وقعة غداً . فذهبت أنا واياه الى ضلع جبل مناوح لاستحكام سيدى عبد الله و بينهما واد عميق وجميع تلك الهضاب مكسوة بالأشجار من عفص وغيره وقررنا أن تكون الوقعة هناك وجررنا مدفعين صغيرين من خمسة مدافع صغار هى كل ما كان فى جيش أنور ووضعناهما بازاء استحكام الطليان . وثانى يوم بكرنا الى ذلك المكان وجثمت العرب فى المتاريس بازاء الاستحكام . وذهبت أنا وتقدمت وجثمت مثلهم وراء متراس . ثم جاء مصطفى كمال وكان يومئذٍ قائد ألف وثانى أنور فى القيادة فجلس بجانبى . ثم جاء أنور رحمه الله ثم جاء رشيد بك ابن فؤاد باشا ثم جاء ضابط دمشقى ذهب اسمه من بالى ثم جاء ضابط ألمانى اسمه البارون غومبنبرغ من أنبل عائلات مونيخ وهو لا يزال فى الحياة ومن أعز أصدقائى . و بعد أن أخذنا مقاعدنا بدأنا برمى القنابر من المدفعين الصغيرين اللذين كنا وضعناهما هناك قبل الوقعة بيوم . فما كادت أصوات قنابرنا تدوى حتى انفتحت أفواه مدافع استحكام الطليان المسمى بسيدى عبد الله تقصف قصف الرعود وأخذت القنابر تتساقط علينا كالمطر وهى من نوع الشرابنل واشتد رمى الرصاص من العرب . فاستمرت الواقعة من الصباح الى الظلام لكن بقى كل فريق فى أرضه فلا نحن زحفنا اليهم ولا هم زحفوا نحونا . ولما انتصف النهار اشتد بنا الجوع وكان مع مصطفى كمال رغيف من الخبز فقسمه بيننا وكنا خمسة وراء ذلك المتراس فاصاب كلاً منا فرزدقة . وكان الهلال الاحمر المصرى قد جعلنى مفتشاً على بعثاته الطبية فى تلك الحرب فلما رأوا فى مخيم الهلال الاحمر انه انتصف النهار والحرب مشعلة ولا نقدر أن نبرح المصاف أرسلوا لنا غداءً تاماً فيه ما يكفى من الخبز والجبن والزيتون والعسل وارسلوا زمزمية ماء وجاء شاب صفا قسى اسمه على كنت استخدمته عندى ومعه الطعام فاخذ يدب بين المتاريس الى أن وصل الينا فنفحجنا السفرة وأكلنا وقد نال منا الجوع كل منال فلم أعهد فى حياتى انى أكلت أكلة أشهى منها . و بعد الطعام غلب علىّ النعاس لأنى نهضت ذلك اليوم من الفجر لحضور الواقعة فاشار علىّ مصطفى كمال بان أبيت فى ظل شجرة عفص صغيرة على مسافة ٢٠ متراً من المتراس . فذهبت واضطجعت على التراب ومن شدة النعاس غلب الكرى علىّ برغم قصف المدافع وأغفيت نحواً من ٢٠ دقيقة واذ بكتلة تراب غمرتنى فجأةً فاستيقظت مذعوراً فاذا بكرة شرابنل سقطت بجانبى وانفجرت فاصابنى منها التراب الذى اطارته من الارض فقمت

ورجعت فجلست الى جانب مصطفى كمال وانور وراء المتراس . واخذ البارون غومبنبرغ بالفتوغرافيا صورنا جميعاً ونحن هناك ولا تزال هذه الصورة محفوظة . ذكرت هذه القصة لأنها من ألذ ذكريات حياتى ولأن رفاقى ذلك اليوم صاروا فيما بعد من رجال التاريخ أحدهم أنور أشهر من أن يذكر والثانى الغازى مصطفى كمال رئيس جمهورية تركيا الحالى ولم يقع منافى تلك الوقعة الا نزر من القتلى والجرحى

ثم جرت وقائع فيمابعد أشهرها واقعة قصر اللبن استشهد فيها من العرب ٤٠٠ وقتل من الطليان أكثر من هذا العدد . وما زالت المعارك هناك تتوالى الى أن نشبت حرب البلقان فألحّ الأتراك على أنور بالرجوع الى الاستانة فرجع مكرهاً وسلم القيادة الى عزيز بك المصرى الذى واصل قتال الطليان . ثم لما عقدت الدولة الصلح مع ايطاليا رأى عزيز بك نفسه مضطراً الى ترك القتال فسحب العسكر النظامى الذى كان فى برقة وكانوا زهاء أربعمائة وأخذ الأسلحة التى أمكنه أخذها وسار قاصداً الحدود المصرية . وهو بهذا لم يعمل الا بحسب الأصول الدولية ولكن المجاهدين السنوسيين نقموا عليه انه عطّل المدافع التى بقيت عندهم ودفن القراطيس والقذائف فى الأرض . وهذه روايتهم التى رووها لجميع الناس وحرروها وقدموها الى الاستانة والله أعلم بها . ثم ان عزيز بك أبى أن يسلم العرب البنادق التىمع عسكره وذلك وفقاً للأصول الحربية التىتقضى بعد انعقاد الصلح بين تركيا وايطاليا أن لايسلم العسكر العثمانى أسلحة لأعداء ايطاليا . ولكن العرب لميقبلوا هذا العذر أيضاً ولم يفهموا كيف أن الدولة بعد أن عقدت الصلح مع ايطاليا مكرهة مرغمة بسبب حرب البلقان تعود فتسحب هذه القوة الضئيلة التى كانت باقية لها فى برقة ثم تأبى أن تترك لهم البنادق التى كان يحملها الأربعمائة عسكرى الذين مع عزيز بك ؟ ولذلك أصرّوا على عزيز بك فى تسليمهم البنادق وبدأوا أولاً معه بالجدال وانتهوا أخيراً الى الجلاد . فوقعت حادثة مؤسفة مؤلمة نرى من واجبات الأمانة التى تلزم المؤرخ عند ذكر الوقائع أن لاندعها مسكوتاً عنها كيف كان الخطأ فيها . وذلك أن الاعراب بجهلهم عند ماقطعوا أملهم من تسلم البنادق بالرضى أطلقوا الرصاص على العسكر العثمانى وكان قد خيّم فى « دفنا » غربى السلوم ولم يبق الا أن يصل الى الحدود . ولعلهم قتلوا أو جرحوا بعضاً من العسكر . فأمر عزيز بك بمقابلتهم بالمثل فنشبت معركة سقط فيها أكثر من ستين قتيلاً من العرب وبضعة

عشر قتيلاً من الجند . وعنـد ذلك امتد صريخ العرب بعضها الى بعض وأقبلت من كل صوب تريد الانتقام من عزيز بك وعسكره . وهذا كله فى دفنا والأراضى المسماة بالبطنان . وأخذت العرب تجتمع لمهاجمة الجند النظامى . وكان السيد أحمد الشريف السنوسى فى الجبل الأخضر وقد سفر الجو بينه و بين عزيز بك المصرى بسبب سحب هـذا للعسكر النظامى وتخليته لبرقة ولـكنه لم يكن ليرضى بأن تـكون النهاية قتل المسلمين بعضهم بعضاً وان يوقع العرب بجند الدولة التى كانت تحافظ على بلادهم . فارسل السيد السنوسى الأكبر الشهيد السيد عمر المختار لتلافى الشر ومنع الأعراب من الهجوم فقطع عمر المختار مسافة أربعة أيام فى يوم واحد مواصلاً الاغذاذ الى أن أدرك العرب قبل هجومهم فحجز الشر وابلغهم مافى مقاتلة عسكر الدولة من الفضيحة والشماتة وسوء القالة وسد أبواب عواطف الدولة على عرب طرابلس ومازال بهم حتى اقنعهم بأمر السيد السنوسى أن يتركوا ثأرهم و يعدوا هذه الواقعة كأنها لم تـكن . و بمقابلة ذلك أخذ لهم فيما سمعت البنادق التى كانت مسئلتها هى سبب الشر الذى وقع . ولـكن عزيز بك على المصرى وصل الى مصر ثم الى الاستانة وقد امتلأ صدره وغراً على السنوسية كما أنهم هم أيضاً قدموا الشـكوى بحقه الى الدولة بعد أن صار أنور ناظراً للحربية واتهموه بأشياء كثيرة أحالته الدولة من اجلها الى المحاكمة . ثم خلت بعد ذلك سبيله بشرط أن يغادر تركيا فغادرها الى مصر وطنه فى خبر ليس هذا محله لأنه يتعلق بموضوع الحركة العربية على تركيا أكثر مما يتعلق بطرابلس الغرب

و بعد أن خرج عزيز بك من برقة أصبحت القيادة الفعلية بيد السيد أحمد الشريف السنوسى كبير الطريقة السنوسية وكان أكثر اعتماده فى الأمور الجهادية على عمر المختار . واهتبل الطليان غرة الحرب البلقانية مع تركيا فأوجفوا عـلى السنوسية بقوتهم لعلهم يدوخون ذلك القطر بتخلى الأتراك عنـه فلم ينالوا أرباً لأن السنوسيين صدوهم من كل جهة . ولبث الطليان منحصرين فى المدن الساحلية . فلجأ الطليان الى الخديوى السابق واقنعوه بالتدخل فى القضية لعل السنوسى يخضع لايطالية بواسطته — ولغط الناس يومئذ بأن الطليان وعدوا الخديوى بأن يشتروا منه خط حديد مريوط الذى كان يخصه والله أعلم فأرسل الخديوى رسلاً من قبله عدة مرات يقترح على السنوسى الاتفاق مع ايطالية فاعتذر السنوسى عن قبول ذلك حسبما حدثنى هو بفمه وأجاب الخديوى بأنه هولايملك ذلك القطر

لينزل عنه لايطالية وان الاسلام يمنعه من تسليم البلاد للطليان مادام فيه عرق ينبض . ولعل الخديوى السابق أراد بهذا التوسط تخفيف الشر ولم يكن له مقصد فى ضرر السنوسية الا أن قضية بيع سكة مريوط من الطليان قد دارت على الألسن سواء كانت صحيحة أم لم تكن خدشت وجه الوساطة وأصمّت آذان السنوسية عن سماع الكلام . ثم ان الطليان لم يتمكنوا من شراء سكة مريوط نظراً لمعارضة الحكومة المصرية لذلك بالتواطؤ مع الانكليز سراً .

ولقد أشار جيوليتى رئيس نظار ايطالية الشهير فى «مذكراته» الى مساعدة الخديوى السابق لايطالية فى الحرب الطرابلسية ولكنه لم يذكر شيئاً من قضية سكة مريوط وانما قال : « إن عباس حلمى الخديوى السابق كان مساعداً لنا من أول هذه الحرب وبواسطته أمكننا الاتفاق مع الادريسى فى عسير ويقول الخديوى انه أراد بما فعله مكافأتنا على حسن المعاملة التى لقيها منا أبوه عند ما كان منفياً من مصر وأقام بنابولى »

ومن هذه الجملة يعرف القارئ ان جيوليتى لا يؤخذ كلامه قضية مسلّمة افلا ترى انه يخلط بين والد الخديوى وجدّه اسماعيل باشا الذى كان هو المنفى الى ايطالية لا والد الخديوى ولا عجب فى هذا فان جيوليتى حرر مذكراته بعد أن ناهز الخامسة والثمانين من العمر ومن علت سنه الى هذه الدرجة فأحر به أن يروى عن زيد ما يكون أحياناً صدر عن عمرو . والله أعلم بالحقيقة

ونعود الى خبر برقة بعد أن تركها الاتراك فنقول ان السيد السنوسى أسس فيها حكومة سنوسية وبقى يجاهد فيها الطليان ويقمعهم فى الثغور البحرية بنغازى ودرنه الى الحرب العامة اذ بعث اليه أنور بأخيه نورى ومعه الاوامر بالزحف الى مصر لمشاغلة الانكليز فيها . وكان السيد غير مرتاح الى هذه الغزاة خوف الفشل وكان الانكليز كتشنر وماكسويل وغيرهما يصانعونه ويقدمون اليه الهدايا اللطيفة يكتفون بها شره عليهم وقرأت عنده كثيراً من رسائل اللورد كتشنر والجنرال ماكسويل وهما يبالغان فى تعظيمه واسترضاء خاطره ومما استجلب نظرى أكثر من الجميع مكتوب بالعربى من اللورد كتشنر محرر بعبارة بليغة وباسجاع رشيقة وبخط لم أجد أبدع منه فى حياتى يخاطب فيه اللورد كتشنر السيد أحمد الشريف كما يخاطب الملوك ويلقبه بسلالة النبى الأعظم ﷺ وكل هذا مداراةً منهم له ليكف عن مهاجمة مصر . ولم يكن السنوسى قد تلكأ عن الزحف الى مصر بسبب هذه المصانعات

الانكليزية وانما كان يعوقه ان القوة التي كانت بيده لم تكن كافية وكان يخشى أن تدور عليه الدائرة فلما رأى ما رأى من الحاح أنور ونورى وتوبيخ الوطنيين من المصريين اياه على التثاقل اختار الزحف وكان من الأمر ما كان من الفشل الذى قد توقعه مما قد استوفينا شرحه فى صفحة ١١٤ وصفحة ١١٥ وصفحة ١١٦ الى صفحة ١٢٩ من الجزء الاول من الطبعة الاولى من هذا الكتاب فمن شاء فليراجع هذا المبحث هناك ولكننا هنا ننشر مما وجدناه بين أوراقنا كتبا واردة من السير مكماهون معتمد انجلترة بمصر ومن اللورد كتشنر ومن الجنرال مكسويل القائد العام للجيوش الانكليزية بمصر الى السيد السنوسى أحمد الشريف أخذنا نسخها من نفس السيد المشار اليه وهى من أهم الوثائق التاريخية المتعلقة بالحرب العامة

هذا وأحسن تاريخ عربى لطرابلس الغرب هو « المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب » تأليف أحمد بك النائب الاوسى الانصارى الطرابلسى أصله من جالية الاندلس فى القرن السابع للهجرة وهذا التاريخ مطبوع فى الاستانة العلية سنة ١٣١٧ هجرية

وأول رحلة قام بها أوربى الى طرابلس الغرب المسيو لومير قنصل فرنسة فى طرابلس جوّل فى تلك البلاد وكتب عنها رحلة بأمر لويس الرابع عشر ملك فرنسة . ثم اقتفى أثره بولس لوكاس فزارها سنة ١٧١٠ ثم سنة ١٧٣٣ ثم الدكتور توماس شاو زارها سنة ١٧٣٨ ثم فى سنة ١٧٦٠ جاءها من مصر فرنسى معلم طبيعيات اسمه غرانجه وفى سنة ٧٦٨ و ١٧٧٢ زارها جس بروس السائح الى الحبشة

وفى أوائل القرن التاسع عشر المسيحى ساح فيها الدكتور سرفلى الايطالى وتحرير ذلك أن والى طرابلس يوسف باشا القرمانلى سيَّر جيشاً لعقاب ولده الذى كان فى درنه وعصاه . فكان فى هذه الحملة الدكتور سرفلى وحرر أشياء مهمة نشرتها جمعية فرنسة الجغرافية . ثم عصى بعض العرب فى جهة المرج بالجبل الأخضر فسرح اليهم الوالى جيشاً كان فيه طليانى آخر اسمه « دلاسلا » فكتب رحلة ترجمت الى الانكليزى سنة ١٨٢٢ ثم زار برقة والجبل الأخضر الأب باسيفيك جاءها من طرابلس . وسنة ١٨٢٠ أراد جنرال بروسيانى أن يعمل سياحة فى هذا القطر فاستصحب علماء وكتّاباً وسار اليه من مصر لكنه فقد ثلاثة من أصحابه قبل أن وصل الى الجبل الأخضر فرجع أدراجه . وسنة ١٨٢١

ساح القبطان بيشى فى بر طرابلس وصور المواقع بالضبط وسنة ١٨٢٤ و ١٨٢٦ خرج باشو الفرنساوى وقام برحلة فى القطر الطرابلسى وكتب عنه أربعة مجلدات . وكان المسيو دوبورڤيل قنصلا لفرنسة فى بنغازى وذلك سنة ١٨٤٨ فجمع كثيرا من الآثار القديمة التى وجدها فى الجبل الأخضر وهى الآن فى متحف اللوڤر . ثم ان الدكتور برث ساح فى طرابلس قبل أن ساح الى تنبكتو . وسنة ١٨٥٥ ساح المستر جس هاميلتون من بنغازى الى أوجله الى سيوه الى مصر

وسنة ١٨٦٠ و ١٨٦١ أجرى هذه السياحة القبطان مردوك سميث والكومندور بورشر الانكليزيان وكتبا كتابا طبع سنة ١٨٦٤

وكان للقطر الطرابلسى من الصولة والمنعة وهبوب ريح العز فى البحر المتوسط ما للقطر التونسى وللقطر الجزائرى وللقطر المراكشى وكانت له الأساطيل القاهرة وكان ولاة طرابلس يأخذون الجزى من الدول الاوربية وتدفعها هذه لهم . وقد روى صاحب كتاب « المنهل العذب » السالف الذكر فى حوادث سنة ١٢١٣ ما يأتى :

« وفى هذه السنة كلف يوسف باشا [1] دولة الاسويج بدفع مائة ألف فرنك عطية وثمانية آلاف فرنك سنوية فرفض قنصلها هذا الاقتراح فأرسل يوسف باشا الأساطيل لمهاجتها وبث السرايا على سواحلها والقبض على مراكب رعاياها التجارية فغنموا سبع سفائن فالتجأوا الى نابليون بونابرت وهو وقتئذ بمصر . وسنة ١٢١٣ انعقد الصلح بواسطة مندوب بونابرت على أن تدفع السويج ثمانين ألف فرنك غرامة وثمانية آلاف فرنك سنوية وتترك تلك السفائن للحكومة المحلية وتعاد أسارى الاسويج »

وذكر بعد ذلك وقائع كثيرة كانت تحصل بين دولة نابولى وطرابلس و بين دولة سردانية [2] وطرابلس من أجل استنكافهما عن دفع الهدية السنوية لولاة طرابلس . وتلك الأيام نداولها بين الناس

---

(١) أي القرمانلى والى طرابلس

(٢) دولة آل سافوى ملوك ايطالية الحاليين

الكتب الواردة

على السيد احمد الشريف السنوسى

من اللورد كتشنر والسير مكماهون والجنرال مكسويل

* (١) *

من مصر القاهرة فى ٢٢ صفر ١٣٣١

بسم الله قبل كل شئ

من عبد الله المتوكل على الله سبحانه وتعالى لورد كتشنر المعتمد السياسى لجلالة جورج الخامس ملك بريطانيا العظمى بالقطر المصرى

الى مهبط اسرار الحضرة الربانية ومصدر صفوة الارشادات اللدنيّة صاحب التجليات الأنسيّة والنفحات القدسيّة قطب دائرة أهل الفضل والكمال وخلاصة أرباب الحجا والجلال المتحلى بروحانيه اسلافه الطيبين الطاهرين والمتجمل بصفات أهل الجمال واليقين والمتخلى عن أوضار الاغيار فى مهيع عبادة رب العالمين دوحة الشجرة الهاشميّة وبضعة السلالة العلوية خليفة صاحب ذلك النور القدوسى سيّدى أحمد الشريف السنوسى رضى الله عنه وايّده بروح منه

أما بعد فان الفرصة التى دعتنى الآن لمكاتبة السيد الجليل أحسبها من أشرف الفرص وان كانت قصتها الداعية اليها ليست من أحسن القصص على أن السيد الجليل والشريف النبيل خليفة ذلك الامام المهدى العظيم وولى الله الكريم قد يسره أن ترفع اليه الظلامات ليحقق آمال رافعيها وأن تصل اليه أصوات الضراعات ليكون ملجأ ضارعيها ولهذا يسرنى أن أكون الواسطة لديكم لرفع مظالم قد ارتكبها من لم تخالط هدايتكم قلوبهم ولم تستأصل ارشاداتكم العالية من نفوسهم الخاطئة ذنوبهم ولذلك أكتب لمقامكم الجليل بما يلى :

قد ورد لى من سعادة حاكم السودان العام أن جماعة من عربان الكبابيش التابعين لحكومة السودان ويبلغ عددهم تسعة وعشرين رجلا قصدوا بير النطرون التابع لمديرية دنقلا وبينما كانوا عند البئر اذ انقضّ عليهم عدد عظيم من العربان بينهم نحو مائة من

أهل فزان أتباع الطريقة السنوسية الشريفة والباقون من أهل زغاوة والبديات واعتدوا عليهم شر اعتداء وكان دافعهم الى هـذا الشر وداعيهم اليه قبـل كل أحد زعيم الفزانين واسمه الشيخ محمـد أبو دوشى الفزانى أحد الخاضعين لسلطانكم والمستظلين بظل حمايتكم واحسانـكم اذ ذهب برجاله الى عربان غزاوة والبديات وطلب منهم الانضمام اليـه لمقاتلة الـكبابيش وحرضهم على ذلك حتى انصاع اليه جمع منهم فبلغ ذلك عدد عصابته التى أغار بها على ذلك النفر القليل زهاء مائتين وسبعة وأربعين رجلا . أغار بهذا العدد الـكبير على أولئك النفر القلائل ولم يخف سطوة الله عز وجلّ ولم يذكر أن عمـله المنـكر فضلا عن دونه يغضب الله وملائـكته سيجلب عليـه سخطـكم وغضبكم الذى هو من سخط الله وغضبه وكأنه لم يكفه أن يكون عـدده كثيراً كالجيش الجرار بازاء جماعة الـكبابيش الذين كانوا عنـد البـئر بل أخذهم غدراً وفاجأهم على غرة منهم فبينما كانوا آمنين لا يحسبون للشر حساباً اذ أطلق عليهم رجاله من بنادقهم ناراً حاميـة كادت أن تحصدهم حصداً فلما رآهم قد وقفوا أمامهم برهة من الزمن حملوا عليهم بسيوفهم ورماحهم فطعنوهم فى صدورهم أنـكى الطعنات وقتلوا بذلك ثمانية وجرحوا ثلاثة وأسروا اثنين وسلبوا ما كان معهم من سلاح ومتاع ثم استاقوا جمالهم وعددها مائة وواحد وأربعون بما عليها من الاحمال غير مبالين بأن يعدوا فى شريعـة الاسلام من العاثين فى الأرض فساداً وأن جزاءهم فيها اذا وجدوا قضاة عدولا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض الخ الآية الـكريمـة فيرى السيد حفظه الله ووفقه لاجراء عدله على حكم الله وسنة رسوله الأمين أن جماعة الفزانين الذين ينسبون أنفسهم لطريقتـكم الشريفة ويعتزون فى طول البـلاد وعرضها بعزها قد خانوا الله وخانوا محجة رسول الله البيضاء وخانوا عهد طريقتكم السمحاء ولم يبالوا بغضب الله ولا بغضبكم ولم يذكروا اليوم الآخر وحسابه و بطش الله وعقابه وهذا غريب جداً أيهـا السيد الـكريم مع ما يعلم القصى والدانى من خضوع هؤلاء الأقوام لسطوتـكم وائتمارهم بأوامركم ومع ما سارت الركبان والأمثـال من أخبار عدلـكم المشهور وشدة بأسكم على أهل البغى والعنـاد وما تحلى به شخصكم الـكريم من صفات الأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر التى انتهت اليكم تراثا عن أسلافكم العظماء الأكابر ذوى البأس الشديد والتاريخ المجيد فـكيف مع هذا يجرؤ قوم أشداء كثيرو العدد

من أتباع طريقتكم الشريفة على الاعتداء على قوم مستضعفين قليلى النفر فيقتلون منهم الأنفس ويسلبون الأموال والمتاع وهم مع هذا يرون أنهم من أتباعكم خليقون بحمايتكم وحسن رعايتكم

لقد كان فى وسع حكومة جلالة الملك أن تتخذ فى مثل هذا الحادث اجراءات أخرى عظيمة التأثير والأثر على أمثال أولئك الطغاة البغاة وتضرب بهم الأمثال للناس وهى لاتعدم الوسيلة لذلك ولكنى بما أعرفه عن سيادتكم من حب العدل والانصاف والغيرة على اقامة معالم الشريعة الغراء فى البلاد والجهات التى يصل لها نفوذكم وتمتد اليها سطوتكم قد فضلت أن أراجع مقامكم السامى فى هذه النازلة لرفعها طبق ما يقتضيه العدل الاسلامى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

فاذا شاء السيّد حفظه الله تحقيق آمالى فى عدله وانصافه فما أسهل على حضرته أن يأمر تابعيه بكف الاذى عن جيرانهم واخوانهم فى الدّين وأن يكلف اولئك المعتدين بردّ الجمال والاحمال التى سلبوها مع دفع التعويضات كما يراها السيّد بالحق الدية للمقتول والتعويض للمجروح ظلما وعدوانا ولست أظن انه يوجد من الموانع ما يحول دون توقيع هذه الجزاءات على مستحقيها عند فضيلة السيّد ولكن اذا كان هناك مانع لا اعرفه فاننى أرجو من حضرته الكريمة أن تشرفنى بافادتى عن الطريقة التى يحسن اتباعها للوصول الى تلك الغاية من غير ان يمسّ كرامتكم التى اودّ أن أحافظ عليها دائما وأطلب من الله المزيد فيها

وقد أرفقت بكتابى هذا بيانا مشتملاً على أسماء الاشخاص المعتدى عليهم من عرب الكبابيش ومن قتل ومن جرح منهم لتكونوا على بيّنة من الامر ولتجروا العدل فيهم كما أمر الله جعلكم الله ملاذا أعلى لتحقيق عدله بين خلقه وامدكم بروح منه مادامت احساناته اليكم متواصله وعنايته بكم شامله ونفعنا الله ببركاتكم على الدوام آمين

(اللورد كتشنر باشا)

* (٢) *

مصر القاهرة فى ١٥ يناير سنة ١٩١٥ — ٢٩ صفر ١٣٣٣

قطب دائرة أهل الفضل والكمال وخلاصة أرباب الحجى والجلال أمام المصلحين وقدوة المرشدين الاستاذ الاعظم والملاذ الافخم السيد أحمد الشريف السنوسى أعزه الله

سلام الله الاسنى وتحياته المباركة الحسنى تخص مقام السيادة و بعد فانى بحمد الله ومعونته وصلت الى مصر نائباً عن جلالة الملك جورج الخامس ملك بريطانيا العظمى وامبراطور الهند الذى أعلن حمايته على هذا القطر السعيد ليحفظ سلطنته من اعتداء المعتدين ويرقى به و بأهله فى معارج التقدم والفلاح . ولما كانت علاقة حكومة هذا القطر على الدوام ودية مع سيادتكم رأيت أن أبلغكم وصولى وأؤكد لكم ان العلاقات الوديّة التى كانت لكم ولاسلافكم الكرام مع الحكومة المصرية ستستمر فى هذا العهد الجديد كما كانت عليه من قبل من الود والسلام

الامضاء

السير مكمهون   المهر الرسمى

* (٣) *

مصر القاهرة فى ٣ ديسمبر سنة ١٩١٥ – ٢٥ محرم سنة ١٣٣٤

حضرة الاستاذ الأعظم السيد أحمد الشريف السنوسى الخطابى الادريسى الحسنى دام وجوده الكريم

تحية وسلاماً و بعد فقد أدهشنى ما وجدته بعد عودتى الى مصر من زيارة الجيوش المتحالفة فى غليبولى — ان العلاقات بيننا قد حدث فيها تغيير . وان اتباع سيادتكم قد ارتكبوا أعمالاً عدائية ضد الحكومة المصرية .

وقد سمعت بارتياح انكم أرسلتم كبيراً من مستشاريكم الى البرّانى ليسعى فى ارجاع بعض اتباعكم الذين عصوا أوامركم ولكنى تعجبت اذ سمعت ان هؤلاء الاتباع قد تمادوا فى العصيان حتى انهم لم يطيعوا الأوامر فقط بل أطلقوا الرصاص فعلا على جعفر أفندى . هذا وقد بلغنى أيضاً ما همنى وهو أن سبعين رجلا من رعايا الدولة البريطانية الذين نجوا من مركب غرّقته غوّاصة العدو قد حجزوا غرب حدودنا . فأسألكم برهاناً على العواطف الودّية التى أظهرتموها لنا أن ترسلوا هؤلاء الرجال المنكودى الحظ حالاً بدون اذًى الى مرسى مروح .

هذا و يظهر ان نفوذ نورى بك وأصدقائه الألمان عليكم يشبه نفوذ أنور باشا على جلالة سلطان تركيا . وهذا النفوذ الضارّ هو الذى زجّ تركيا فى هذه الحرب المهلكة والتى

ستنتهى حتما بزوال دولة الأتراك من الوجود إنكم تعلمون أن الحكومة المصرية والحكومة البريطانية عاملتا سيادتكم بكل اهتمام واحترام وأما الآن فقد اضطررت بسبب المقاصد السيئة التى تحيط بسيادتكم أن استدعى رجالى من نقطة السلوم وأتخذ لهم مركزاً فى مرسى مطروح . وعليكم الآن أن تبينوا بأعمالكم وأعمال اتباعكم اذا كنتم تحبون بقاء العلائق الودّية أم لا .

ومن الآن فصاعداً كل رجل من أتباعكم يتعدّى الحدود حاملا سلاحه أضطرُّ أن أعده كمن له مقاصد عدائية وأعامله كذلك . لقد سألتكم أن تظهروا مقاصدكم الودّيه بابعاد الأشخاص الذين معكم الآن المعروفين بعداوتهم لنا وأتأسف أن أرى أنكم لم تتمكنوا الى الآن من ابعادهم .

انى لا أشك فى أن السيد محمد شريف الادريسى قد سلمكم كتابى وفاوضكم فى جميع الشؤون التى ولّج اليه مفاوضتكم فيها ولا أشك فى أنه بين لكم ان مقاصدنا نحوكم ودّية محضة وان ما أوجب التغيير فى العلاقات بيننا هو اعمال صدرت من جهتكم لا من جهتنا .

ولا يسعنى الا الظنّ بأن الدساسين قد نقلوا اليكم أخباراً كاذبة عن الحرب الأوربية والحقيقة هى ان خسارة امبراطور الألمان وحلفائه بطيئة ولكنها أكيدة على جميع خطوط القتال والمستقبل يريكم ما أراده الله .

وانى أسألكم ان تنعموا النظر فى الأمر وتعتبروا انه اذا اتخذتم لسوء الحظ خطة عدائية فانكم لا تجلبون عليكم ايطاليا فقط بل فرنسا وانكلترا ومصر وتتحملون مسئولية جميع النفوس التى تضيع فى هذا السبيل وتعرّضون بلادكم للجوع اذ تُسَدّ عليكم طريق الزاد والمؤونة براً وتحصر الشطوط البحرية . واذا كان مستشاروكم يعتمدون على غواصات الأعداء فاعتمادهم قائم على لا شئ وانى أبسط لكم ذلك كله ليس بقصد التهديد بل بقصد النصيحة كصديق . والأتراك يقضون بكم مأربهم ثم ينبذونكم نبذ النواة وراء ظهورهم .

ان الحالة الحاضرة لا يمكن أن تبقى على ما هى عليه الآن ولذلك فانى أسألكم أن تبرهنوا حسن مقاصدكم بالأعمال وليس بالأقوال وأن ترسلوا حالا الى مرسى مطروح الرجال

الانكليز الذين نجوا من مركبهم وهم الآن غرب حدودنا. وأن تعيدوا العلاقات الودية معنا وتخرجوا من بلادكم المستشارين الأتراك والألمان أى نورى بك ومانسمان وغيرهما من الذين لا شك فى أنهم يجلبون عليكم وعلى بلادكم بلاءً عظيماً .

ولى الرجاء انكم توفون هذه المسائل حقها من الاهتمام قبل أن يقع ضرر لا يمكن تلافيه والسلام

الجنرال السيرجون مكسويل
القائد العام لجنود جلالة ملك بريطانيا العظمى بمصر

* (٤) *

مصر فى ٤ جمادى الأولى سنة ١٣٣٤ الموافق ٨ مارس سنة ١٩١٦

حضرة صاحب السيادة الأستاذ السيد أحمد السنوسى الكبير

تحيةً وسلاماً و بعد فقد وصلنى كتابكم المرسل بيد رسولكم موسى وليس لى أن أزيد فى الرد عليه عماقلته فى كتبى السابقة . انى كنت دائماً أحذّركم من خطر الاصغاء الى نصائح نورى بك وجعفر وغيرهما لأن مصلحة هؤلاء تناقض مصلحتكم على خط مستقيم . فانكم بالاصغاء الى نصائحهم قد أثرتم حرباً على مصر ونسيتم جميل بيت محمد على باشا الكبير الذى يمثله صاحب العظمة السلطان حسين سلطان مصر الحالى .

إنكم تعدّيتم الحدود ودخلتم الأراضى المصرية برجال مسلّحة ومدافع وقد أطلقتم نيرانكم على العساكر المصرية والانكليزية . وأظهرتم بكل جلاء ووضوح أن مقاصدكم عدائية .

تقولون انى صدقت مقالة سنو بك ولم أصدّق ماقلتموه أنتم . فما هو الصحيح ؟

إن جماعات من المحافظية المسلحين كانت على الدوام تأتى الى الأراضى المصرية امابعلم منكم أو بغير علم منكم وتسيء معاملة العرب الذين تحت إدارتنا وتأخذ منهم ضرائب بالقوة وقد أطلق أتباعكم النيران على الغواصات الانكليزية لغير ماسبب . وأنزلت الغواصات الألمانية الأسلحة والعساكر وغيرها بقرب برديّه وأطلقت نيرانها على طرادٍ لخفر السواحل وأغرقته وأتباعكم لم يطلقو النار على الغواصات الألمانية بل استقبلوها بالترحاب .

ثم انكم حفظتم فى الأسر جماعة من رعايا الدولة البريطانية الذين غرق وابورهم ولجؤ الى سواحلكم . وقدهاجم أتباعكم نقطنا فى البرّانى والسبيل وأسرو عساكر الحرس

وسرقو بنادقهم وقطعو خطوطنا التلغرافية وهددو نقطنا بالسلوم حتى اضطررت أن أصدر الأمر الى سنو بك بالرجوع الى مرسى مطروح وفى الوقت الذى كنتم فيه تصرحون بأن علاقاتكم معنا على غاية الوداد كنتم تستبون وترسلون مع رسلكم كتبا كالتى أرفقها بكتابى هذا وإنى مرسلها اليكم لتعلمو الحقيقة .

أرى انكم لازلتم تذكرون أمر معاهدة عقدت مع الطليان ووجدت بين أوراق سنو بك . وأنا أعود فأكرر القول انذلك غيرصحيح لسببين . الأول لأنه لم نعمل معاهدة مثل هذه قط والثانى لأن سنو بك لم يكن عنده السلطة لأن يعقد معاهدة كهذه .

انجعفر الذى هوالآن أسير حرب يقول ان الانكليز الذين نجو من الوابور والآن فى الأسر عندكم هم فى شقاء عظيم وليس عندهم مايلزم من الثياب اوالطعام . وانتم تقولون انهم على أتم الراحة والأمان . فأى القولين أصدق .

إنكم تشكون من أنى حجزت رسلكم هنا وأنا لم أفعل ذلك الا بعد أن بادأتمونى بالعداء . إن الله وحده يعلم بالخفايا وما هو فى ضميركم . وكل ما يمكننى أن أقوله لكم ان أعمالكم كلها دلت على عدم تبصر وروية ويلزم أن تحصدوا الزرع الذى غرستموه .

إنكم بأعمالكم قد وقفتم موقف العدو ومادام فى الأراضى المصرية رجل مسلح من رجالكم فانى أعتبركم عدواً وقد سبقت فأخبرتكم عن الشروط التى بها وحدها يمكننى أن أبدأ بالمفاوضة معكم . وهذه الشروط أرسلتها فى كتاب مؤرخ فى ٢٨ صفر سنة ١٣٣٤ الموافق ٤ يناير سنة ١٩١٦ وهى كما يأتى :

(١) أن تردو بسلام جميع الأسرى البريطانيين أوالهنود أوالأوربيين الذين فى يدكم .

(٢) يجب أن تبعدو كل الأتراك أوالألمان الذين عندكم . وإن كنتم تجدون صعوبة فى إبعادهم فيمكنكم أن تسلموهم لى أسرى حرب .

(٣) يجب أن تخرجو جميع رجالكم المسلحين من الأراضى المصرية وتتعهدوا بعدم دخول رجال مسلحين الى الأراضى المصرية و إذا دخلو عوملو معاملة أعداء حيثما وجدوا .

(٤) يجب أن تجلو جلاء تاما عن سيوه والسلوم وعن جميع البلاد التى الى الشرق منها وتقيمو بسلام فى الجغبوب فاذا كنتم الآن تجيبون هذه المطالب وتظهرون بالأعمال أنكم تريدون أن تكونو على الوداد فانى مستعد للتساهل معكم أكثر مما تؤملون ؟

المهر الرسمى الجنرال السرجون مكسويل

القائد العام لجيوش جلالة ملك بريطانيا العظمى

ماسبق فى التاريخ من استيلاء الافرنج

على طرابلس الغرب

الأمير شكيب

عند ماضعف شان العرب فى صقلية وطردهم منها الملك رجار النورمندى واختلت إدارة أمورهم فى تونس وطرابلس فكر رجار فى غزو طرابلس والمهدية فبعث بأسطول نازل طرابلس آخر سنة ٥٣٧ للهجرة فنقب الافرنج سور طرابلس وكادوا يستولون عليها إلا أن العرب انحدروا من الجوار فهزموا الافرنج وغنموا أسلحتهم ودوابهم ورجعوا خائبين . ثم ان رجار لم يقطع الأمل من تلك البلاد وصار يترقب الفرصة لغزوها وفى سنة ٥٤٣ للهجرة أرسل أسطوله بقيادة جورجى أمير البحر عنده فاستولى على المهدية بثلاثمائة مركب ثم استولى على صفاقص وحصلت فى طرابلس مجاعة أصاب الناس منها شدة عظيمة واختلت الأحوال وفنيت الحامية فاهتبل الافرنج الغرة وجاء أسطول رجار ونازل طرابلس وقاتلها الافرنج برا وبحرا وكان أهل طرابلس قد اختلفوا فيما بينهم وأخرجوا الأمير الذى كان عليهم محمد بن خزرون وولوا عليهم أميرا من لمتونه وحصلت بينهم فتنة استفاد منها الافرنج فتمكنوا من البلدة وأثخنوا فى القتل والنهب ونجا كثير من أهل طرابلس الى الداخل وبعد أن تمكن الافرنج من البلدة نادوا بالأمان فتراجع المسلمون إليها وأقاموا تحت حكم الافرنج وانقرض أمر بنى خزرون من طرابلس ثم ولى الافرنج أبا يحيي رافع بن مطروح على طرابلس وأخذوا رهنا منه على الطاعة ونادوا فى صقلية بالمسير الى طرابلس كما ينادى الآن موسولينى بالمسير إليها لأجل استعمارها فسار إليها أناس كثير من الافرنج واستولوا على بلاد الساحل كلها وضربوا على أهلها الجزية وصار لهم من طرابلس الى قرب تونس ولم يزالوا الى أن استنقذ تلك البلاد كلها منهم عبد المؤمن بن على سلطان دولة الموحدين وكان ذلك سنة ٥٥٥ إذ نقض يحيي بن مطروح طاعة الافرنج واستنصر عبد المؤمن بن على الذى طرد الافرنج من المهدية بعد حصار شديد

ثم إن الافرنج رجعوا فغزوا طرابلس بعد ذلك بمائتي سنة . وكان فيها أمير اسمه ثابت بن محمد فجاءها الجنوية سنة ٧٥٥ وكانوا جمعاً غفيرا فنزلوا بالبلدة أولا كأنهم آتون للتجارة ثم بيتّوها ذات ليلة وصعدوا الأسوار وملكوها على الأهالى وهتف هاتفهم بالحرب ولبسوا السلاح فاستيقظ الأهالى من مضاجعهم فرأوا بلدتهم بيد الافرنج فلم يكن منهم إلا النجاة بأنفسهم فاستباحها الافرنج ونهبوها ثم داخلهم أبو العباس أحمد بن مكى صاحب قادس فى فدائها فاشترطوا عليه خمسين الف مثقال من الذهب العين فجمعها الأهالى من قابس والحامة و بلاد الجريد ودفعوها الى النصارى وأخرجوهم من طرابلس و بقيت أيضاً نحوا من مائة وخمسين سنة خالية من الافرنج . ثم غزاها الاسبنيول سنة ٩١٦ وكان أهلها قد استناموا الى الدعة وأهملوا الدفاع عن بلدتهم فلما جاء الافرنج لم يكن منهم إلا الفرار و بقى الاسبانيول فيها الى زمان بنى عثمان فأرسل أهالى طراباس وفداً سنة ٩٢٦ الى الاستانة العلية يستمدون السلطان سليمان القانونى رحمه الله لأجل إخراج الاسبانيول من طراباس وكان الوفد الطرابلسى قد سهلوا الأمر على السلطان فأرسل معهم رجلا اسمه مراد آغا ومعه قليل من الجند فنزل مراد آغا فى قرية تاجوره على اثنى عشر ميلا شرقى طرابلس وحاصر طرابلس فعجز عن فتحها بتلك القوة القليلة ثم كان أهالى نابولى وجنوة غزوا المهدية واستولوا على جزيرة جربة فأرسل السلطان سليمان أساطيله فأوقعوا بهم وطردوهم ثم فى سنة ٩٥٨ قدم طرغود بك أمير البحر الى طرابلس فى مائة وعشرين سفينة وحاصرها وفتحها وجاء مراد آغا من تاجوره وتولى الأمر فيها و بعد ذلك رجع طرغود بك الى الاستانة ثم فى سنة ٩٦٢ جاء طرغود بك بالأساطيل ونازل وهران وأخرج الاسبانيول منها ثم نازل بنزرت وأخرجهم أيضاً منها ثم غزا ميورقه وكورسكه ورجع الى الاستانة بغنائم وافرة

عرب طرابلس

(خاتمة : كنت رغبت الى حضرة الوجيه الأخ الفاضل السيد عبد الستار الباسل أحد كبار قبيلة الرماح بالفيوم ومن سراة بر مصر أن يكتب لى خلاصة عن عرب طرابلس لأن صاحب البيت أدرى بما فيه فأرسل لى بالخلاصة التالية نثبتها حرفياً) :—

فى القرن الخامس من الهجرة رحلت قبيلة هلال من جزيرة العرب الى مصر . ورحل معها بطن من سليم خؤولته فى بنى هلال . أقاما فى مصر ما أقاما ثم رحلا الى افريقية وكانت اذ ذاك تابعة لخلافة الفاطميين فى مصر

سبب الرحيل الى افريقيا

كان فى تونس عامل للفاطميين يدعى ابن باديس فخلع طاعة الفاطميين وخطب للخليفة العباسى ببغداد ورفع شعار العباسيين على دور الحكومة . كلفت حكومة مصر هاتين القبيلتين بالذهاب الى افريقية ومحاربة ابن باريس وفعلا رحلا الى تلك الجهة وحاربا ابن باديس ونصراءه من البربر وكانت زعامة قبائل البربر اذ ذاك فى زناته . انتصرت هاتان القبيلتان على ابن باديس ومن معه وفتحتا البلاد وأرسلتا الى مصر بخبر هذا الفتح . ولبداوتهما لم يطمعا فى الحكم ولا فى الملك . بل سلما البلاد للفاطميين واكتفتا بأن تعيشا فى الصحراء كما كانتا تعيشان من قبل . ثم اقتسمتا الصحارى والمراعى بينهما فأخذت سليم صحراء طرابلس وأخذت هلال صحراء تونس . فى هذه القسمة غبن على سليم لأن صحراء تونس أخصب من صحراء طرابلس . والسبب فى ذلك أن سليم أقلية وهلال كثيرون لأن سليم لم ترحل من جزيرة العرب كلها كما رحلت هلال بل رحل بطن واحد منها وهو الذى خؤولته فى هلال أما باقى سليم فبعضها فى الجزيرة الى الآن وبعضها فى السودان المصرى وهو ما يسمونه الآن (بعرب بقارة سليم)

سليم طرابلس

تقسم سليم فى طرابلس الى فخذين كبيرين . الكعوب وأبو الليل . أما الكعوب فهم ما يسكنون بين قصر سرت شرقا وحدود تونس غربا وتشمل الكعوب قبائل « المحاميد »

« وترهونه » و « أولاد سليمان » و « الرفلة » وقبائل أخرى صغيرة بعضها سكن مدن السواحل و بعضها اندمج فى هذه القبائل الكبيرة

أما أبو الليل فهؤلاء المسمون الآن بالسعادي نسبة الى امرأة تدعى سعدى من قبائل زناته بنت عظيم من عظمائهم أخذت فى حرب ابن باديس وتزوج بها زعيم سليم اذ ذاك (أبو الليل) وهؤلاء كانوا يسكنون بين قصر « سرت » غرباً وعقبة السلوم شرقاً.

يقسم أولاد سعدى هذه الى ثلاث قبائل (١) براغيث (٢) عقاقرة (٣) سلالمة

١ ـ السلالمة أو بنى سلام يكونون الآن ثلاث قبائل جميعها تسكن مصر وهم (١) الهنادى (٢) بنى عونه (٣) الجبالية

٢ ـ العقاقرة أو بنى عقار . يكونون الآن أولاد على وهم جميعاً بمصر . والحرابى وهذه القبيلة يتكون منها خمس قبائل وهى البراعصة والعبيدات والدرسة والحاسة وأولاد فايد وهؤلاء فريق منهم فى مصر وفريق فى طرابلس

٣ ـ البراغيث وهم يكونون (١) الفوائد وهذه جميعها بمصر (٢) الرماح (قبيلتنا) وهذه غالبيتها بمصر وقليل منهم فى طرابلس (٣) الجبارنه أو أولاد جبريل وهم ثلاث قبائل (١) العواقير وجميعها بطرابلس (٢) الجوازى وجميعها بمصر (٣) المغاربة وجميعهم بطرابلس

٤ ـ العبيد وجميعهم بطرابلس

٥ ـ العرفاء أو أولاد عريف وكلهم بطرابلس

هذه هى قبائل سليم التى سكنت طرابلس وأول مجىء بعض هذه القبائل الى مصر فى أواخر القرن الثانى عشر من الهجرة وأول من جاء منهم بنو سلام ثم بعدهم جاءت قبيلة أولاد على من العقاقرة . ثم فى أوائل القرن الثالث عشر جاءت بعض القبائل الأخرى وكان ذلك بسبب حروب وقعت بينهم و بين اخوانهم الذين بقوا فى طرابلس الى حرب الطليان

هذا ياسيدى الأمير مختصر تاريخ هذه القبائل بعضها أخذته من ابن خلدون وصبح الأعشى . أما بعد القرن التاسع من الهجرة فهى روايات تتناقلها الأبناء عن الآباء أخذتها من الشيوخ نقلا عن شيوخ قبلهم مدعمة ببعض أشعارهم وأغانيهم

السنوسية

للأمير شكيب

سبق ذكر مجمل الدعوة الوهابية ، وانها اصلاح دينى وانابة الى عقيدة السلف الصالح لولا ماأصابها من الغلو والافراط . أما السنوسية[١] فهى طريقة عمل بالسنة والشريعة بدون شرط ولا قصور . مؤسسها سيدى محمد بن على السنوسى الخطابى من عيون أعيان القرن الثالث عشر للهجرة ، أصله من الجزائر من قبيلة مجاهر من جهات مستغانم ، جده سيدى عبد الله بن خطاب المجاهرى . واطلعت لهم على نسب ينتهى الى على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء رضى الله عنهما ويقال ان عدد أبناء هذا الحى يبلغ ٧٠ ألف نسمة وانه ينتمى اليهم وينضوى حولهم نحو ٢٠٠ ألف أكثرهم فى (عمالة) و (حران) بجوار نهر شلف . وقرأت أن رئيس هذه القبيلة اليوم هو سيدى أحمد الشارف بن تلوك[٢] وان سيدى احمد الشارف هو شيخ الطريقة السنوسية بالقطر الجزائرى . والذى أعلمه أن الحكومة الفرنسية فى المغرب لا تسمح بنشر الطريقة السنوسية التى تعدها خطراً عظيما على الاستعمار ، وأنها تسمح لسائر الطرق مع المراقبة اللازمة لها لكنها لا تقبل صرفاً ولا عدلا من جهة السنوسية التى تعلم من قوتها ومن مقدرتها العملية ما تعلم .

أما سيدى محمد بن على السنوسى فقد كان عالماً عاملا ، كبيراً مجتهداً ، خرج من الجزائر عند ما احتلها الفرنسيس . وطاف بالبلدان وحج البيت الحرام ولقى كبار الأشياخ من جلتهم والد الادريسى القائم بعسير . ويظهر أنه رأى القطر الطرابلسى أكثر استعداداً من غيره لقبول دعوته فابتدأ بتأسيس طريقته فى طرابلس وعاونه على ذلك سيدى أبو القاسم العيساوى والد الشيخين الاجلين سيدى أحمد العيساوى شيخ زاوية السنوسى ببنغازى ، وصديقنا سيدى عبد العزيز العيساوى الذى أوفده السادة السنوسية ثلاث مرات الى الاستانة فيما يعرض لهم من الأشغال لدى الدولة ، آخرها فى أثناء الحرب العامة . وقد

---

(١) راجع صفحة ٣٠٠ من الجزء الاول

(٢) ولا أعلم درجة قرباه من صديقي سيدى محمد الشارف ابن عم السادة السنوسية وشيخ احدى زوايا دفنا من جهة السلوم

وفق الاستاذ السنوسى الأعظم الى نشر طريقته فى أكثر بقاع طرابلس وبرقة ، ولا سيما برقة فان أهلها فى الحواضر وقبائلها البادية بأجمعهم سنوسية مجاهدون وفى كل بلدة زاوية وعند كل قبيلة زاوية . واذا تعددت أفخاذ القبيلة فلكل فخذ منها زاوية ، وكذلك زوايا السنوسى ممتدة الى مصر ، فلهم زوايا عظيمة فى سيوة والواحات الدواخل الى الفيوم ؛ وزواياهم متسلسلة مطردة من بنغازى الى اسكندرية وعندهم نحو ١٢ زاوية فى نفس الحجاز لها تبع كثير من قبائل حرب وغيرها وزواياهم كثيرة فى السودان وانما أشهر زواياهم زاوية جغبوب على مسافة يومين أو ثلاثة من الحدود المصرية الى الغرب وهى بلدة تامة فى عظمها واتساعها وعدد سكانها . وكانت جغبوب واحة مالحة يأوى اليها الدعار واللصوص ولا تجسر القوافل أن تمر بها من جراء العيث فى أنحائها فلما اختارها سيدى محمد بن على السنوسى مقراً له و بنى بها زاويته الكبرى صارت مهد امان ، ومركز عبادة ومشرق أنوار ومعلم هداية فغرس بها الأشجار ، ونسق الجنان واستنبط العيون ، وتوسع فى البناء ، وأسس مدرسة لتخريج مريدى الطريقة ، أجلس للتدريس فيها جلة العلماء . وكان مركزه بادئ ذى بدء فى الزاوية البيضاء من الجبل الأخضر على مقربة من شحات ، وهى قرية مبنية على خربة « سيرنا » عاصمة برقة أو « سيرنا ييك » فيها بقايا آثار من ايام يونان ومن قبلهم ومن بعدهم ، وموقع سيرنا هذه أوشحات على جبل عال مشرف اشرافاً قائماً على علو ثلاثمائة الى اربعمائة متر ومن حذاء هذا الجبل الى البحر مسافة ساعتين وهناك مرسى اسمه سوسة ولا مبالغة اذا قيل ان هذا الموقع هو من أبدع ما خلق الله فى أرضه ، لمحة منظر ، وحسن هواء ، وطيب نجعة ، لا سيما وفى أعلاه مغارة تنبجس منها عين فياضة بمياه كذوب اللجين ، تنحدر من هناك فى مثل شلال الى أسفل الجبل حيث تسقى البساتين والغياض ، وأما الزاوية البيضاء فليست فى شحات بل فى هذه زاوية أخرى لقبيلة الحاسة [1] يديرها سيدى محمد الدردفى ولكن الزاوية البيضاء على مسافة ساعة من شحات الى الجنوب مبنية فى وسط غابة من غاب الجبل الاخضر على مسافة خمس دقائق من مقام سيدى رافع الانصارى أحد الصحابة الذين فتحوا تلك البلاد ، وقد كان سيدى محمد السنوسى بناها وجعلها مقره ، وقد رأيتها رأى العين فى اثناء جهادى

---

(١) التى ينتسب اليها عقيلة الحاسى الشهير فى مرج ابن عامر من ديار فلسطين

بتلك الديار سنة ١٩١١ و بت مرة بتلك الزاوية فاذا هى عبارة عن مدرسة تحيط بصحنها الغرف لاقامة الطلبة وفيها جامع حسن ، وهى اليوم زاوية قبيلة البراعصة المشهورة بالشجاعة والنجدة ، وعهدى بمشيخة البراعصة ورئاسة هذه الزاوية لسيدى محمد العلمى الغمارى من ذرية سيدى عبدالسلام بن مشيش المدفون فى جهات طنجة من المغرب الأقصى ولكن هذه الزاوية فقدت كثيراً من رونقها بعد تحول السنوسى عنها الى جغبوب ، ويقولون انه كان قد شعر بدنو استيلاء الاجانب على تلك الديار فاختار الايغال الى الجنوب والاقامة بالصحراء فعمر زاوية جغبوب وتوفى بها رضى الله عنه وله فيها ضريح يزوره السنوسية من جميع الديار ، وولد له بالزاوية البيضاء سيدى المهدى والد سيدى ادريس أمير برقة الحالى وسيدى الشريف والد سيدى أحمد الشريف نزيل الأناضول عند كتابة هذه السطور وامام الطريقة السنوسية كلها ، ولقد استخلف السنوسى ولده المهدى وأنبأ بأنه سيكون له شأن عظيم . وصدقت فراسته فيه فانه أكمل عمل والده ، و بنى زوايا عديدة ، وذاع ذكره فى الأقطار وحسبت له دول الاستعمار حساباً كبيرا وحاولت أن تتقرب اليه بأنواع الوسائل ، وأصناف الالطاف ، فأعرض عن كل هذه المداخلات ، وعكف على عمله الذى هو بث الدعوة وايقاظ الأمة ، وتأسيس الزوايا وربط الأهالى بها ، حتى هال أمره السلطان عبد الحميد فأراد أن يكتشف حقيقته و يستطلع طلع حاله ، فأرسل اليه بمقره فى جغبوب وفداً كان فيه صديق المرحوم صادق بك المؤيد من آل العظم فى دمشق وأحد حجاب السلطان ، فحدثنى رحمه الله عن تلك الرحلة وعما لقوه فى جغبوب وان السيد السنوسى لم يكن الا داعياً مرشداً ، وانه دائماً يدعو الله بتأييد الدولة العثمانية وتوفيق الحضرة السلطانية ثم ان سيدى المهدى السنوسى تحول من جغبوب الى الكفرة ، وهذه هى واحة كبيرة تسكنها قبيلة اسمها زوية فى وسط الصحراء تبعد مسافة ٢٥ يوماً عن بنغازى الى الجنوب ، يمر السائر اليها فى طريقه على بلدتى جالو وأوجلة اللتين هما فى أول الصحراء على مسيرة ثمانية أيام من بنغازى فاختلفت الأقوال فى أسباب ترك السيد السنوسى مركزه الذى فيه قبة المقدس والده ، والمدرسة التى شادها مبعثاً لأشعة أنوار الشريعة والطريقة ، واختياره الانزواء فى الكفرة بمكانها من البعد عن العمران ، فقال بعضهم انه لما استقرت قدم الانكليز بمصر أجفل السنوسى ووضع نصب عينيه الايغال فى الصحراء ، وانتجاع واحة تكون أقصى من جغبوب مكاناً وأعز منالاً ،

وقال آخرون بل السنوسى منذ زمن مديد كان يتكهن بوقوع الحرب مع النابوليتان (الطليان) وان هؤلاء لابد فى يوم من الايام ان يغزوا طرابلس وبرقة ، فشرع يهيء اتباع طريقته للمقاومة ، ويعلم فضائل الجهاد ، مما ظهر أثره فى حرب ايطالية سنة ١٩١١ ظهوراً أدهش الشرق والغرب ، وأثبت أن الطريقة السنوسية هى عبارة عن دولة بل كثير من الدول لا تملك ما تملكه الطريقة السنوسية من الوسائل الحربية وذلك بكونها طريقة عملية لا تعرف سوى العمل بالكتاب والسنة والاقتداء بسلف هذه الامة ، ومن جملة ما فكر فيه أن يجعل مركزه بعيداً ما أمكن عن مطارح انظار الدول الاستعمارية ليخلو له الجو فى تجهيز قومه وبث دعوته ، فانتبذ هذا المكان القصى من الصحراء فى النقطة الوسطى بين ساحل البحر المتوسط والسودان . وقال آخرون بل ساءته معاملة بعض مأمورى الأتراك فى التحرى والتنقيب عن السلاح وكبس زوايا السنوسية فى الجبل الأخضر وشاع أن الدولة أخذت تشتبه فى أمره ، وتتوجس خيفة ادعائه الخلافة فقصد أن يعتزلها الى الصحراء الكبرى ، ولعل هذه الاسباب جميعها متوفرة فى قضية تحوله الى الكفرة يضاف اليها انه من الكفرة كان يقصد القرب من السودان وبث دعوته فى تلك الاقطار ونشر الاسلام فى أواسط افريقية من طريق واداى ، وبرنو ، وكانم ، وادامو ّا ، والداهومى ، وغيرها من أواسط افريقية وغربيها مما كان ولا شك فيه للسنوسية اليد الطولى ، فضلا عن كون اقامته بواحة الكفرة سببت عمران تلك الواحة وازدياد الغراس والفلاحة فيها وترقية عقول أهليها ، فبنى فيها زاوية عظيمة سماها التاج وجعلها مقرّه وبنى فى أماكن أخرى من تلك الواحة ، وفى واح قريبة منها زوايا أيضاً وأسس مثلها فى واحات الوجنقات التى تقع وراء دارفور الى الشمال ، وأخرى فى واحة ونّ وواحة قرو وزاوية فى عين كلك التى وقعت فيها الحرب بين السنوسية والفرنسيس الذين قصدوها من واداى. وزوايا عديدة عمر بها واحات الصحراء الكبرى وآنس بها وحشتها ، ونضر غبرتها ، وأيقظ غفلتها ، وشغل أفكار الدول الاستعمارية من كل جهة ، فانكلترة تحسب حسابه من جهة السودان المصرى ، وفرنسا من جهة واداى ومستعمراتها فى أواسط افريقية وشماليها وغربيها . وايطاليا كانت تتزلف اليه لعلها تنال سدوته فيما كانت تنويه من الغارة على طرابلس . ولم يخل الأمر من كون السلطان عبد الحميد الذى كان لا يهدأ له بال قد أراد أيضا معرفة مقاصد

السنوسى من انتباذ ذلك المحل القاصى . فبلغنى أنه أوفد اليه مرة ثانية المرحوم صادق بك المؤيد الى نفس الكفرة فأخذ منه الجواب بأنه لا يقصد سوى خدمة الاسلام ، وأبث الدعوة لطاعة السلطان . هذا ولم يزل سيدى المهدى السنوسى يبث طريقته ويكمل أهبته ، الى أن مضى الى ربه منذ نحو ٢٠ سنة فخلفه سيدى احمد الشريف ابن أخيه الذى اشتهر أثناء الحرب الطرابلسية وقام فيها المقام المحمود الذى لم يقمه أحد ، ولولاه لم يمكن انور ولا غيره من أبطال الدفاع عن بر طرابلس أن يعملوا شيئاً ، واتصل جهاده من الحرب الطرابلسية الى ما بعدها فلم تخمد له نار الى الحرب العامة ، الى ان دخل الانكليز والطليان فى المفاوضات مع ابن عمه سيدى ادريس ابن سيدى المهدى وأقنعوه بالاتفاق معهم على أن يكون هو أميراً على داخل برقة ويكون الحكم للطليان فى مدينتى بنغازى ودرنه ، ويكون لهم احتلال بعض المراسى فانعقد الاتفاق على شروط معلومة كانت خلاصتها ما تقدم . ولما رأى سيدى احمد الشريف ذلك وكان الوئام بين أبناء البيت السنوسى من القواعد المقدسة لم يستحسن فى باطنه خطة ابن عمه ولكنه لم يشأ أن يجاذ به الحبل وصبر على المرّ ، وأرسل الى المرحوم أنور ناظر الحربية يومئذ وذلك سنة ١٩١٨ يطلب منه ارسال غواصة لنقله الى الاستانة فاستقلها بحاشيته الى تريسته ومنها ركب قطار الحديد الى فينا ومنها جاء الى الاستانة واستقبله أهلها استقبالا فائقاً ، وأعظم السلطان محمد وحيد الدين قدومه وصادف ذلك بداية جلوس السلطان على عرش آل عثمان ، فاختار السيد المشار اليه لتقليده السيف فى الحفلة المعتادة لذلك فى جامع أبى أيوب الانصارى فى الخليج وهو الذى يسميه الاتراك جامع سلطان أيوب . ولما دخل الحلفاء الاستانة أقام ببروسة ثم لما احتلتها اليونان تحول منها الى قونية ثم ذهب الى حدود العراق العربى داعياً الى الوحدة الاسلامية . ولم أحصل الى هذا اليوم على شرف معرفته شخصياً وان كنت أمتّ اليه بصداقة أكيدة وكانت المراسلة بيننا متصلة منذ سنين عديدة . أيده الله وأبقاه ونفع هذه الأمة على يده

بعد تحرير ما تقدم بشأن السادة السنوسية ، أسعف القدر ، ووفى الدهر ، بعد أن غدر ، بتحقيق الامنية التى طالما كنت اتمناها ، وادراك الغاية التى كنت من سنين عديدة أتوخاها ، وهى مشاهدة الحضرة السنوسية ، واجتلاء تلك الأنوار الأنسية ، بعد ان حال بيننا وبينها طول السفار وتباعد الاقطار ، واحتلال الاعداء بعد الحرب الكونية أكثر

الديار . فلما كنت فى معسكر الجبل الاخضر ، بعين منصور فى ظاهر درنة سنة ١٩١٢ كان الاستاذ الأكبر سيدى أحمد الشريف نجل سيدى محمد الشريف ، نجل سيدى محمد بن على السنوسى مؤسس الطريقة السنوسية وخليفة عمه سيدى محمد المهدى رضى الله عنهم جميعاً ، لا يزال فى واحة الكفرة الواقعة فى وسط الصحراء على مسافة ٢٥ يوماً الى الجنوب من مدينة بنى غازى ، ترد منه الافادات والأوامر الى الادوار المرابطة فى وجه الطليان (١) وهو بعدُ فى زاوية التاج مركز السادة السنوسية ، ثم تقدم السيد من واحة الكفرة الى واحة الجغبوب ، ليكون أقرب الى ميدان الحرب ، ولتشتدّ به عزائم المجاهدين . فكان فى ذلك الوقت قد وافق سفر هذا العاجز من الجبل الاخضر ، قاصدا الاستانة لمذاكرة رجال الوزارة الجديدة وهى وزارة مختار باشا وكامل باشا وحسين حلمى باشا ، فى أمر طرابلس وثنى عزمهم عن التساهل فيها مع الطليان كما كان شائعاً . فلم يقسم لى القدر فى تلك الآونة ملاقاة الاستاذ السنوسى المشار اليه ، و بقيت العلاقات فيما بيننا بالمراسلة ، الى أن شبت الحرب الكبرى ، فانقطعت قليلا ثم استؤنفت ببرد الغواصات التى كان المرحوم الشهيد أنور ينفذها الى سواحل طرابلس .

ولما قدم السيد الى الاستانة العلية بالغواصة سنة ١٩١٨ صادف وجودى بألمانية بمهمة التاليف بين العثمانيين والألمان ، فيما شجر بينهم فى بلاد القافقاس . فلما وصل السيد الى العاصمة لم يكن انتهى شغلى فى برلين ، وما انتهى شغلى هناك الا وقد طلب البلغار الهدنة وبدأ الانهيار فى أجرف ألمانية وحلفائها . فأبرق الىّ أنور ببرقية رقمية بواسطة سفارة الدولة ببرلين يترجانى سرعة الاوبة . فذهبت قاصداً الاستانة من طريق رومانية ، وركبت الباخرة من مرسى برايلا على الطونة ، ومنها الى ميناء كوستنجه ، حيث تلقت الباخرة أمراً بعدم دخول البوسفور والانصياع الى اودسا . فذهبت مكرهاً وضاق صدرى جداً بهذا التأخير ، والمسافر عليل دواؤه الوصول . ولكن قد يكون الخير فيما كره الانسان ، « ولو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع » . اذ لو أكملت الباخرة الشقة الى الاستانة ، لم يلبث الحلفاء

(١) أهالى طرابلس الغرب يسمون المعسكر دوراً ، وأصل هذه التسمية ــ والله أعلم ــ أن قبائل العرب تأتى الى الحرب بالمناوبة ، كل قبيلة تفرض عليها خدمة كذا من الأيام أو من الاسابيع ، أو من الاشهر ، فتقوم بها أو ترسل عدداً معيناً يقوم بها ، ثم تذهب الى مناجعها ويأتى الى محلها غيرها ؛ وهكذا بالتعاقب الى أن تكون نوبتها ثانية ، وهلم جرا ، فسمى المعسكر الذى تخيم به تلك القبائل دوراً

أن قبضوا على مع رفاقى ، وغربونى الى مالطة . فكان فى نكوص الباخرة عن اكمال الجرى الى دارالسعادة ، وذهابها الى اودسا ، وملاقاتى ثمة المرحومين الاستاذ الشيخ عبدالعزيز جاويش والاستاذ الشيخ صالح التونسى ، والأستاذ الشيخ خضرحسين التونسى ، ورفاقهم من مصريين وتوانسة ، وما علمته منهم من انسلال انور وطلعت وغيرهما من الاستانة ، ما غير وجهتى واعادنى مغرّباً بعد أن كنت مشرقاً ، مما سبق تحريره فى موضع آخر .

فلهذا لم يتيسر لى وقتئذ لقاء سيدى احمد الشريف . وبقيت أكاتبه من اوربا الى الاستانة ، ثم الى الاناضول . فلما يسر الله الاجتماع فى هذه الايام الاخيرة ، حدثنى هو بنفسه عن أمور كثيرة وحوادث جرت معه ، آثرت أن الخصها لقراء هذا الكتاب ، لكونى سمعتها من فمه ، وأحسن التاريخ ما أخذه الانسان من فم صاحبه ، وأروى الروايات ما استقاه المؤرخ من رأس نبعه .

ذكر لى السيد ، حفظه الله ، خلاصة رحلته من طرابلس الى الاستانة ، الى الأناضول ، الى أن حصل فى مرسين التى يقيم بها اليوم . وذلك أن أنور كان أنفذ أخاه نورى أثناء الحرب الكونية الى طرابلس الغرب قائداً عاماً ، وعززه ببعض ضباط وأسلحة ونقود ، وأمره باقناع السادة السنوسية بمهادنة الطليان ، ومهاجة الانكليز فى مصر ، حال كون سيدى أحمد الشريف اعتقد عكس هذه السياسة ، وهو مهادنة الانكليز ومطاردة الطليان . فشرع نورى يغادى سيدى أحمد ويراوحه فى أمر الزحف صوب مصر ، والسيد ثابت فى رفضه . حتى وقع الخلاف بينهما . وليس من المظنون أن يكون أنور أمل فتح مصر بتلك القوة الضئيلة ، وانما يغلب انها كانت سياسة المانية ، المقصود منها تحميل انكلترة خسائر جديدة ، وتحويل جانب من قوتها الى جهة السنوسية ، اذ كل مايتحول من قوة الانكليز نحو الأقوام الاسلامية كان يخف عن الألمان . حتى ان كثيراً من أركان الحرب يذهبون الى أن حملة الترعة نفسها لم تكن على أمل كبير بافتتاح الديار المصرية ، وانما كان هدف الألمان منها تحويل جانب كبير من قوة انكلترة لحماية الترعة ، التى هى مجرى نفس هذه الدولة . أما سيدى أحمد الشريف ، فلم يكن يعتقد بصواب الهجوم على مصر ، أولا : لأنه كان يريد حصر قوة العرب فى مجاهدة الطليان ، وعدم الاشتغال بغيرهم . ثانياً : انه كان يخشى فيما لو هاجم مصراً ، أن يقع الفشل فى صفوفه ، لما كان يعلمه من عظمة الاستعدادات

الانكليزية . فاذا فشلت حملته على مصر ، فترت عزائم العرب ، وضعف فألهم . ثالثاً : انه كان يهمه بقاء الطريق مفتوحة بين مصر والجبل الأخضر ، خوفاً على العرب من الجوع ، ويعلم أنه لوهاجم مصراً لسد الانكليز طريق مصر ، ووقع العرب فى حيص بيص . وكان الجنرال ماكسويل الانكليزى يصانع السيد كثيراً ، ويراسله دائماً ، ويتحفه ببعض الكتب ، ويتزلف اليه بكل الوسائل ، اتقاء غارة من جهة السنوسية على مصر ، كما أن السيد كان يصانع الجنرال ماكسويل ، ويؤمنه من جهة السنوسية ، ويستخدمه فى قضاء أغراضه ، وكان يستصنع فى مصر ألبسة لتوابير الجيش السنوسى ، وغير ذلك من لوازمه ، ولا يجد من جهة الانكليز حرجاً . فكل من الفريقين كان فى الواقع يتقى الآخر ، ووقعت فى يد السيد أسرى انكليز ، نجوا الى بر طرابلس من بارجة انكسرت عند مالطة ، فقيدوا من ساحل طرابلس الى السيد وهو فى السلوم ، فألبسهم وأكرمهم وبعثهم هدية الى الجنرال ماكسويل . وكان هذا ينفذ اليه من وقت الى آخر بعض كبار ضباطه ، ممن يعرفون سياسة العرب ، ويعرض على السيد محالفة انكلترة ، ويطمعه فى مغانم كثيرة ، بشرط أن السيد يطرد نورى أخا أنور من السلوم ، ويترك الأتراك . فكان السيد يصم أذنه عن هذه الاقتراحات ، ولايعد الجنرال ماكسويل الا بالمسالمة فحسب . ولكن أنور كان يصدر الأمر تلو الامر الى أخيه ، بأن يتحرش بالانكليز ، ويستقدح زناد الحرب بينهم وبين السنوسية ويكتب الى السيد ملحاً عليه بشد عضد نورى ، وأنه لا يقبل له عذراً فى التباطؤ . ولما تلكأ السيد عن غزو مصر وقع الخلاف بينه وبين نورى ، وشرع نورى يتحكك بالانكليز ، بدون معرفة السيد ، ويضرب بالقنابر سفائنهم التجارية ، التى كانت تأتى بالبضاعة والأرزاق الى السلوم . فاغتاظ السيد من عمله ، وبين له سوء مغبة ذلك ، فلم يأبه لكلامه وبقى على عمله ، بل كتب الى أخيه فى الاستانة بأن سيدى أحمد الشريف لايريد معاداة الانكليز ، بل انه ممالىء لهم سراً ، وغير ذلك من الأقاويل . ثم أرسل نورى سعاة الى مصر يقولون ان السيد يأبى الزحف الى مصر مداراة للانكليز ، مع انه هو حضر من الاستانة لأجل اعداد حملة على مصر ، وانقاذها من أيدى الانكليز . فصارت تتوارد من مصر الرسل الى السيد ، تعاتبه على موقفه هذا ، وتبين له مايخالج المصريين بحقه من الظنون ، بسبب تخلفه عن الزحف . عند ذلك استدعى السيد نورى وقال له : هوذا أنا

حاضر للسير ، فلاتقدر أن تقول ان العائق كان منى ، وانما اذا فشلت هذه الحملة فلا أكون أناالمسؤول . وركب السيد وسار بالجيش ، ومعه نورى قائداً أول ، وجعفر العسكرى قائداً ثانياً(١) وكان عدد كل ماجمعوه من الجند أربعة آلاف . ولما أحس الانكليز بالحركة أخلوا منطقة السلوم ثم بقبق ،وانكفأوا الى الوراء . ولكنهم بعثوا الى السيد ونورى انكم إن تجاوزتم سيدى برّانى الى الشرق ، فليس بيننا و بينكم الاالحرب . فتجاوز العرب سيدى برانى ، ومازالوا حتى خيموا بزاوية أم الرخم غربى مرسى مطروح . وليلة ما كانوا هناك جاءأميرالاى انكليزى يحسن العربية متزيياً بزى بدوى متجسساً فدخل على نورى وأركان حربه ، فلم يعرفوا حقيقة أمره ، ونظر فى القوة التى معه ، فرآها ضئيلة ، وفى جوف الليل انسل من المخيم ، فأخبر قومه بالواقع . فكانت انكلترة جهزت ثلاثين الف مقاتل ، ومعها عدد كبير من المدافع ، وفيها كثير من كواكب الفرسان ، فصمدت الى القوة التى مع نورى ، فلم تقف هذه لها ، وتراجع المجاهدون الى الوراء واحتشد منهم ألفان فى محل يقال له بئر تونس ، فطمع الانكليز فى أسرهم ، وساقوا عليهم ١٣ الف مقاتل ، فأرادوا أن يحيطوا بهم ، فخابوا ، وثار فى وجههم العرب ودحروهم وألحقوا بهم خسائر جمة . وكان السيد أحمد الشريف بنفسه فى هذه المعركة . فلما ارتد الانكليز الى الوراء ، رجع بمجاهديه هؤلاء الى السلوم . وأما الانكليز فقصدوا الباقى من القوة التى تحت قيادة نورى فهزموها ، وأخذوا جعفر العسكرى أسيراً ، وأفلت نورى من أيديهم بأعجوبة . ثم سار السيد الى سيوه ، وتقدم الى الواحات الدواخل على مسيرة سبعة أيام من سيوه نحو الفيوم . فجهز الانكليز قوة عظيمة لقتاله ، فاضطر أن يرجع أدراجه الى سيوه ، فتعقبوه الى سيوه ، فدافع عن نفسه فى سيوه دفاعا شديداً ، ودحرهم وخرب عدداً من دباباتهم المصفحة والطرابلسيون يسمونها بالكهربات ــ جمع كهربا ، لكونها تسير بالقوة الكهربائية ــ و بعد أن ارتد الانكليز الى الوراء أجاز السيد من سيوه الى الجغبوب ، وهى مسيرة ثلاثة أيام وتحصن بها . وكان الانكليز بعد أن قطعوا الأمل من سيدى أحمد ، شرعوا فى مخاطبة ابن عمه سيدى ادريس ابن سيدى المهدى فى الصلح ، والاعتراف بامارته على برقة ، والجبل الأخضر بشرط أن يطرد نورى ومن معه من الاتراك ، و يشير الى ابن عمه سيدى أحمد الشريف بالخروج

(١) هو جعفر باشا العسكرى رئيس وزراء بغداد بالأمس ومن أعضاء الوزارة اليوم وهو من أعز أحباء الانكليز

من تلك المنطقة ، وأبلغوه أنه ان بقى سيدى أحمد فى الجغبوب فانهم يهاجمون الجغبوب ويستولون عليها . فارسل سيدى ادريس بالخبر الى سيدى أحمد ، ففارق الجغبوب مغذّاً السير الى جالو ، واوجله ، وهى مسيرة ١٢ يوماً من الجغبوب ، فى صحراء يباب تيماء ، لاعشب ولاماء ، وصادف رحيلهم حارّة قيظ فكادوا يهلكون من العطش ، ولم يتوقف السيد أحمد فى جالو واوجله اتقاء الخلاف مع ابن عمه سيدى ادريس ، وهو أحرص الناس على الوفاق بين السنوسية ، لاسيما بيت الرئاسة ، الذى هو القدوة لجميعهم . فقصد السيد الغرب ، ونزل بسوكنه من بر طرابلس ومعه ثلاثة آلاف مقاتل . واعصوصب حوله السنوسيون الذين بتلك الديار ، مثل بنى سيف النصر وغيرهم ، أماسيدى ادريس فلما رأى الضيق الذى وقع فيه العرب بين الانكليز من جهة ، والطليان من جهة أخرى . والمخمصة التى أصابتهم على أثر سد الطرق ، بين الجبل الأخضر ومصر ، جنح الى الصلح ، وعقد مع ايطالية وانكلترة الاتفاق الذى اعترفتا له فيه بامارة برقة والجبل الأخضر ، وتقلد بموجبه ادارة أمورها ، ماعدا مدينتى بنغازى ودرنة ، وتعهدت ايطاليا بدفع الرواتب لجنوده . وهو الاتفاق الذى نقضته ايطاليا ، بعد حكم وزارة الفاشيستى مباشرة ، وجدّت من بعده الحرب ولما كان شرط هذا الصلح الأصلى هو اخراج نورى والأتراك من هناك ، خرج هؤلاء من برقة الى الغرب لاحقين بمصراطة . وكان استبدّ بأمر مصراطة رجل أصله من غمار الناس اسمه رمضان شتيوى ، ساد بشجاعته وحزمه ومضائه ، وكان فى خدمة ايطاليا أولا ، ثم انقلب عليها ، واستخلص من يدها مصراطة وما جاورها ، بعد الواقعة الشهيرة المسماة بالقرضابية ، التى انهزم بها الطليان شر هزيمة سنة ١٩١٥ ، وكان مبدأها بين الطليان والسنوسية . فالطليان استنفروا لمعاونتهم رمضان شتيوى وقومه ، فزحف ببضعة آلاف من رجاله ، فلما وجد السنوسية وهم الف وخمسمائة مقاتل قد وقفوا فى وجه ١٢ الف مقاتل من الطليان ، وأذاقوهم مرّ الكفاح ، هجم هو على الطليان من الوراء ، وهم على غير انتظار ، فلم ينج من ذلك الجيش الايطالى كله سوى خمسمائة شارد فروا الى جهة البحر ، وغنم العرب جميع أثقال ذلك الجيش . واسترجع العرب بعد هذه الواقعة جميع بر طرابلس ، سوى مدينة طرابلس المحمية بالبوارج الحربية ، واستمر ذلك من سنة ١٩١٥ الى سنة ١٩٢٣ ، اذ جهزت وزارة الفاشيستى جيشاً جراراً استرجع مصراطه ، ومسلاته ، وترهونه ، وغريان ،

وغيرها . ثم كر العرب عليها وأخذوها ، ثم زحف الطليان ثانية واسترجعوها ، والأحوال بين الفريقين لاتزال مدّاً وجزراً . وقد مثل دوراً عظيما فى هـذه الوقائع رمضان شتيوى هـذا الملقب بالسواحلى ، وجاهـد فى الطليان حق الجهاد ، ولـكنه كان صعب المقادة ، أشوس ، مرّ العداوة ، وكان يناصب السنوسية العداء . فلماقدم عليه نورى مغتاظاً مما فعله سيدى ادريس ، تلقاه براً وترحيباً ، وعزّز به مركزه ، مما كان يرد على نورى من نظارة الحربية بالاستانة من الأموال والاعتاد ، وعلت كلمته بانتسابه الى الدولة ، وقبوله نورى قائداً وواليا ، وان كانت فى الحقيقة الـكلمة بقيت لرمضان فى الأمر والنهى . وقد وفق الله طرابلس فى أمر ، وهو أنه كان الاستاذ عبدالرحمن عزام ، من آل عزام بالجيزة ، ومن شبان مصر الناهضين (١) ذوى الحصافة والنجابة ، يجمع حنكة الشيوخ الى حماسة الشبان ، قدالتحق بمجاهدى السلوم يوم زحفوا لقتال الانـكليز ، شهد الوقائع ثم غرّب مع نورى الى طرابلس ، ولما دخل نورى مصراطه ، كان عبد الرحمن يده اليمنى ، فعرف كيف يأخذ رمضان بالحسنى ، ولاين بقـدر الامكان من شـدته ، وأصلح بينه وبين أهالى ترهونه ، وزليطن ، واورفله ، وغيرها ، وشـكلوا حكومات متحالفة ، مركزها مصراطه ، وعلى رأسها نورى باشا . وكان القائم بأعبائها عبدالرحمن عزام المؤمأ اليه . ثم لما استدعى أنور أخاه نورى الى الاستانة ، وولاه قيادة جيش القافقاس ، استصحب معه الى الاستانة الأستاذ عبد الرحمن عزام ، وقال لى نورى مرة هـذه الجملة ، واسـتدللت منها على عقـله وانصافه : « لولا هذا الشاب ، ماكان يمكننى أن أوفق فى طرابلس » .

ثم لما أرسلت الدولة الأمير عثمان فؤاد ، ابن الأمير صلاح الدين ، ابن السلطان مراد ، ابن السلطان عبد المجيد خان ، الى طرابلس أميراً وقائداً عاماً عليها ، مكان نورى باشا ارسلت معه عبد الرحمن عزام المصرى مستشاراً ومديراً ، فلما انتهت الحرب الـكبرى وانعقدت المتاركة ومن جملة شروطها اخلاء الأتراك لطرابلس ، صدرت الارادة السلطانية الى الأمير عثمان فؤاد بترك تلك البلاد . فذهب الى تونس ، وسلم نفسه الى الفرنسيس ، وهؤلاء سلموه الى الطليان الذين أفرجوا عنه . ولـكن بقيت الحـكومة الوطنية فى طرابلس على ما كانت عليه ، وهى حكومة حلفية ، مركزها مصراطه ، وعبدالرحمن عزام هو الذى يدير

(١) وهو من أعضاء مجلس النواب المصري فى عهد الوزارة الوفدية

أمورها ، ويرتق فتوقها ، ويؤلف بين الجهات المتنافرة ، حتى يتسنى لهم بالاتحاد حفظ استقلالهم . الا أن شرة رمضان السواحلى ، كانت غالبة عليه ، فقصد مرة قتال اورفله ، فعطل أهل اورفله فى وجهه الآبار ، وأنشبوه فى معاطش هلك فيها أكثر زجاله ، وقيد فيها أسيراً . ولما أرادوا احضاره الى عبد النبى بلخير زعيم اورفله ، قال هذا لقومه : « لا تدعوه يصل الىّ خوفاً من أن يغلبنى الحياء فأستحييه » . ففهموا منه انه يرجح قتله فقتلوه ، وبعد رمضان المذكور جعل الطرابلسيون رئيساً على حكومتهم الوطنية الحلفية أحمد بك المريّض وهو زعيم ترهونه ، وظل رئيساً مقيما بمعسكر المجاهدين جنوبى البلاد التى استرجعها الطليان .

ثم نعود الى سيدى أحمد الشريف . فنقول انه لما فارق برقة ، تفادياً للخلاف مع ابن عمه الذى صار أميراً على برقة ، غرّب الى سوكنه كما سبق فأرسل اليه رمضان السواحلى قوة تقاتله ، عليها ضباط من الترك ممن كانوا مع نورى باشا أخى أنور . فالسيد هزم القوة التى جاءت تقاتله ، وقتل فى تلك الواقعة الضابط المدعو برتو توفيق . ولكن اشتدت الأزمة بالسيد لانقطاع المدد عنه من كل الجهات ، فالانكليز أصبحوا أعداءه وضبطوا أملاكه ، وزواياه ، فى سيوه والواحات الدواخل ، وذلك لانقياده الى الاتراك ومسيره مع نورى لمهاجمة مصر . والأتراك تركوه أيضاً ، لانحياز نورى باشا الى رمضان السواحلى فى مصراطه ، واعتصامه به ، وهذا كان عدوًّا للسنوسية . فوصل الأمر بالسيد وعساكره التى كانت نحو ثلاثة آلاف ، أن أخذوا يقتاتون الحشائش ، وأن مات منهم خلق كثير جوعا ، وهو صابر على هذه البلية صبر الكرام ، والازمة تزداد به و بأجناده يوماً فيوماً ، وهو لا يقدر أن يعود الى الجغبوب ، خوفا من الخصام مع ابن عمه ، واتقاء التحرش بالانكليز . ولا يقدر أن يدخل مصراطه والبلاد التى حولها ، لكون رمضان السواحلى وغيره من أعداء السنوسية له بالمرصاد . قال لى السيد من فمه : « بلغ بى الضيق من هذه الحالة ، وأنا أرى رجالى امام عينى تموت جوعاً ، أن وصلت الى درجة اليأس ، وقررت فى نفسى الصلح مع الانكليز مستخيراً الله ، وفى تلك الليلة رأيت فيما يرى النائم ، استاذى سيدى أحمد الريفى يقول لى : قد عرف الاخوان مرادك ، فلم يرضوا لك بما عزمت عليه ، فارجع الى ما كنت عليه واستأنف العمل ، فلما استيقظت من النوم أقلعت عن تلك الفكرة وحررت الى

أنور كتابا ، بعثت به ضمن كتاب الى نورى قائلا له : احذر أن تؤخر ارسال كتابى الى أخيك . فأرسل بالكتاب الى الاستانة ، وجاءنى من انور الجواب » .

وكان السيد قبل ذلك ، بعث الىّ ، انا محرر هذه السطور ، بكتاب يشكو لى به من معاملة نورى ، أيام كانا فى السلوم ، ويبدى لى شيئاً من التعتب على انور ، ولكن لم تقع له فرصة لارساله ، وبقى محتفظاً بذلك الكتاب الى أن جاء الى الاستانة العلية ، وانتهت الحرب ، وشرعت أراسله من اوربا الى مكانه ببروسه ، فارسل الىّ بذلك الكتاب بعينه ، بعد فوات وقته ، كأنه يريد أن يطلعنى على تلك الماجريات الماضية ، ولولا كون هذا الرقيم فى أوراقى التى تركتها فى أوربا ، لكنت أكملت هذه القصة بنشره . ومن الغريب ، اننى مع كون هذا الكتاب من السيد لم يصلنى يومئذ ، فقد قمت تجاه السيد بما لم أكن لا عمل زيادة عليه فيما لو وصلنى كتابه اذ كنت بدأت اشم من معية أنور رائحة الوحشة من سيدى احمد الشريف ، وأسمع بعض رجال الدائرة المسماة بدائرة « التشكيلات » التابعة للحربية يلمزون السيد ، ويعزون اليه امورا ، كنت على يقين انها بهتان محض . مثل كونه يريد الخلافة لنفسه ، ومثل أنه غير مخلص للدولة وما أشبه ذلك. وكان أنور دعانى مرة للافطار معه فى رمضان فقلت له : « ان بعض بطانتك بدأوا يغمزون السيد احمد الشريف ويشيعون عنه أراجيف يصعب تصديقها ، وهذا الأمر يمس جانبك أنت ، ولا ينحصر فى السنوسية ، لأن أكثر مظهرك كان بهؤلاء الجماعة . فان ظهر بعد ذلك انهم خائنون ، لا سمح الله ، فتكون أنت الملوم ، ويستدل الناس بذلك على كونك فائل الرأى . وان كان عندك شئ راهن بحقهم ، فصرح لى به لنعلم درجة الخبر من الصحة » . قال لى أنور رحمه الله : « حاشا ، ما يقدر أحد أن يتهم سيدى أحمد الشريف بالخيانة ولكن الانكليز كانوا يخدعونه أحيانا » . قلت له : « ان سيدى أحمد الشريف لم ينخدع للانكليز ، وانما كان يصانعهم كما يصانعونه ، وما تلكأ عن محاربتهم الا خشية الفشل ، إذ كان يعلم أن القوة التى لديه غير كافية للدخول الى مصر ، أفلا ترى كيف أن الانكليز بمجرد زحف الأربعة الآلاف مجاهد الى مرسى مطروح ، رموهم بثلاثين ألف مقاتل ، وبالمدافع ، والطيارات ، والدبابات ، ولولا لطف الله بهم لوقعوا جميعاً أسرى وأخوك من الجملة ... » قال لى انور : « أنا أعطيتهم أوامر بأن يتجنبوا المعارك الفاصلة » . فقلت له : « ياسبحان الله ! انت

عسكرى صنعتك الحرب وأدرى منى بهذه الامور ، أفاذا هاجم الانسان من هو أقوى منه مراراً ، أفيبقى له الاختيار فى الكرّ والفرّ ؟ . » وانتهت هذه المحاورة باقتناع أنور ، وتركه مؤاخذة السيد . ثم أخذت منه الاذن لسيدى عبد العزيز العيساوى ، الذى كان معتمداً للسادة السنوسية فى استانبول ، وهو من الفضلاء الاجلاء ، أن يواجهه فى نظارة الحربية ، بعد أن بقى محجوباً عنه عدة أشهر ، ثم أن يعود الى وطنه بالغواصة . فأذن له وأعاده معززاً مكرماً ، وكتبت معه كتاباً الى السيد . وما مضت مدة حتى جاء مكتوب السيد الى أنور ، حسبما تقدم . فأنفذ أنور يوسف بك شتوان بالغواصة ، فتلاقى مع السيد وتقرر مجىء السيد الى الاستانة بالغواصة ، فركب من مرسى العقيلة من ساحل سرت ، قاصداً بحر الادرياتيك .

قال لى السيد : « قبل ركوبى الغواصة ، تحادثت مع الضباط الألمان الذين فيها ، وسألتهم عن خطر ركوبها فقالوا لى : لا يخلو الأمر من الخطر ، ولكننى ما باليت بذلك لأننى كنت رأيت أستاذى سيدى احمد الريفى فى المنام فقال لى : الشئ الفلانى ستأخذه من «بولا» ففى اليوم التالى سألت الضباط هل يوجد محل اسمه بولا ؟ فقالوا لى : « نعم ان المرسى الذى سننزل فيه من بلاد النمسا اسمه « بولا » فاعتقدت أننا بالغو هذا المكان ، بحول الله وقوته » قال لى : « وقد عرضت لنا الهلكة ثلاث مرات ، ونحن فى البحر : أول مرة صادفنا بوارج للعدو فغصنا تحت الماء ، ورأيت مراكب العدو بعينى ، بواسطة مرآة يرى الانسان بها من تحت البحر ما هو فوق البحر ، وما زلنا متوارين عنهم حتى مضوا . ومرة ثانية أصاب الآلة المحركة تعطيل ، فكنت أرى ضباط الغواصة يجيئون ويذهبون ، وهم فى حيرة عظيمة ، فلم يخبرونى بالحقيقة الا بعد أن أصلحوا الآلة . ومرة ثالثة نام قيم الآلة ، فصادمت الغواصة صخراً وكادت تغرق ، ولكن كنا على مقربة من « بولا » وقد فصل سيدى أحمد الشريف من مرسى العُقَيْلة بساحل سرت فى ٧ ذى القعدة سنة ١٣٣٦ ، ووصل الى « بولا » من ساحل النمسا فى بحر الادرياتيك بعد أسبوع من ركوبه وسافر من « بولا » الى فينا ومعه حاشيته ، ويوسف بك شتوان . ولما حصل فى فينا أرسل الامبراطور يبغى مشاهدة السيد ، فاجاب شتوان معتذرا عن امكان هذه الملاقاة قبل أن يذهب السيد الى الاستانة ويقابل السلطان . ولكن هذا

الجواب وقع بدون اطلاع السيد ، ولما اطلع عليه فيما بعد لم يستحسنه اذ رأى أنه كان يليق مقابلة الامبراطوار فى عاصمته لا سيما أنه طلب ذلك . ثم سافروا الى الاستانة ، فاستقبل فى محطة « سركه جى » بمزيد الاجلال والاكرام ، وكان أنور باشا فى المحطة بنفسه . وأقبل علماء الترك عليه ، وهنأوه بالقدوم ، وتبركوا بمعرفته . وأنزلته الدولة بسراى « طوب قبو » مقر السلاطين القديم . وصادف وقتئذ الاحتفال بتقليد السلطان محمد السادس السيف ، فى مسجد أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه ، الذى يقول له الأتراك : « سلطان أيوب » . وكانت العادة أن الذى يقلد السلطان السيف عند جلوسه ، هو الشلبى شيخ الطريقة المولوية وسلالة مولانا جلال الدين الرومى ، قدس الله سره . فاختار السلطان السابق محمد السادس ، الاستاذ السنوسى لتقليده سيف السلطنة فى ذلك المحفل المشهود ، وأنعم عليه برتبة الوزارة السامية ، وبالنشان المرصع ، واحتفى به كثيراً ، هو وولى العهد الأمير عبد المجيد ابن السلطان عبد العزيز خان ، الذى تولى الخلافة بدون سلطنة بعد انتصار الأتراك على اليونان ، وخروج محمد السادس من دار السعادة . ثم خلعته الجمهورية التركية أخيراً وأقصته هو وجميع آل عثمان عن المملكة ، والسلطنة وأسقطتهم من التابعية التركية .

وكانت الحرب أوشكت أن تنتهى ، وأيقن الأتراك أن الدائرة ستدور عليهم وعلى الألمان فتكلم أنور مع السيد السنوسى ، فى لزوم رجوعه بالسرعة الى طرابلس ، وقال له كلاماً يدل على كون آماله فى مسلمى افريقية صارت أكثر منها فى سائر العالم الاسلامى . وصرح له أن السلطان نفسه ، يريد أن تعود الى بلدك لتقوى بك عزائم المجاهدين ، ونحن حاضرون أن نقويك بالمال والعتاد والسلاح . وقرر أنور اعطاء السيد (١٢) ألف بندقية مع عدتها ، و (١٠) مدافع و (٣٠) رشاشاً و (٢٠٠) ألف جنيه . فساله السيد قائلا « بلغنى من بعض الضباط الطرابلسيين الذين فى خدمة الدولة ، انكم تبغوننى أقاتل ابن عمى سيدى ادريس ، لكونه اتفق مع الانكليز والطليان » . فقال له أنور : « معاذ الله أن نبغى منك ذلك ، لأننا نعلم أنه لم يبق للاسلام فى افريقية حصن أحصن من هذا البيت السنوسى الكريم ، وانه ان وقع لا سمح الله الشقاق فى هذا البيت فسد الأمر واضمحلت القوة السنوسية التى عليها معول الاسلام فى افريقية . فكن على ثقة باننا نبغى اتحادكم قبل كل شىء ، نصحاً بالاسلام وضناً باستقلاله ، وان معاونتنا لكم

انما هي محض حمية على الاسلام ، لأن تركيا من جهتها لم يبق لها أدنى أمل باسترداد طرابلس ، ولكننا لا نحب أن نرى اخواننا مسلمي افريقية تبعة للاجانب » . وكان أنور كما هو مشهور عنه ، متمسكا بوحدة الاسلام ، يغار عليه في أي بقعة كانت ، ولا يفرق بين عربي وتركي وهندي الخ ، وطالما اختلف مع زملائه من أجل هذه السياسة .

و بعد أن أجمع السيد الاوبة الى طرابلس ، جاء من قال له ان الغواصة ستنزلك في ساحل مصراطة ، وهي بيد رمضان السواحلي اليوم ، فلا يجوز أن تأمن جانبه ، فأخذ السيد يفكر في كيفية النزول الى البر بحيث يطأ ساحلا لا يكون فيه عليه يد لا من الطليان ولا من رمضان شتيوي ، واذ ذاك صارت تتتابع الحوادث بسرعة البرق ، فتغيرت الوزارة ، وسقط أنور ، وندم السيد على تأخره عن السفر ، وحاول الانسلال من الاستانة الى النمسا ، حتى يركب منها الغواصة قافلا الى وطنه فلما أحس محمد السادس وحيد الدين بذلك ، أخذ يداوره عن عزيمته هذه ، ويقول له : «يعز علينا أن تفارقنا في هذه الآونة الحرجة» . والسيد يظن أنه أثناء عقد الهدنة مع تركيا شدد الحلفاء على السلطان في ملاوصة السيد عن الابحار الى طرابلس ، حتى اذا دخلوا الاستانة كان السيد في قبضة يدهم ، أما أنور فكان السيد يختلف اليه بعد سقوطه فكان يداور السيد في السفر معه الى أوربا ويقول له : « لا يجوز أصلا بقاؤك في الاستانة والحلفاء على وشك دخولها . » وأما الصدر الأعظم ، المشير احمد عزت باشا ، فلما كان السفر بالغواصة ممكناً من بحر الادرياتيك ، أشار على السيد بالسفر خفية واللحاق ببلاده ، وبان لا يبالي بكلام السلطان . فلما انعقدت المتاركة ، وصار السفر بالغواصة متعذرا اشار على السيد في الذهاب الى بروسه ، وكان هذا رأي وحيد الدين ايضا . فتحول السيد من الاستانة الى بروسه ، وقامت الحكومة العثمانية بكل ما يلزم له . وكان السلطان يديم السؤال عنه وكلما تعين وال لبروسه يتلقى الامر بالذهاب الى السيد قبل كل شئ ، والوقوف عند خاطره ، والمبادرة الى مراضيه . فالسيد السنوسي من أول يوم قدم فيه الى تركيا ، الى هذه الساعة ، لقي من بر الاتراك وحفاوتهم واجلالهم ، سواء من حكومة الاستانة مع تقلب وزراتها ، أو من حكومة انقره في مختلف صفحاتها ، ما لم يطرأ عليه أدنى تغيير ، ولا اوجب التبرم في قليل ولا كثير . حتى كأن جميع الايام التي قضاها بين اظهرهم يوم واحد . فكانت الامة التركية اينما حل وكيف

ارتحل ، تهرع اليه على اختلاف الطبقات ، بدون تكلف ولا تصنع ، ولا انتظار أوامر حكومة ، بل بشعور عام أوجده فيها اتحاد الكلمة على نزاهة هذا الرجل ، وتجرده عن المآرب الشخصية ، وعزوفه عن حظوظ الدنيا وانصراف همه كله الى الذب عن بيضة الاسلام بدون غرض سوى مرضاة الله ورسوله ، وحفظ استقلال المسلمين . فكان كثير من الترك ، والكرد ، والجركس ، والارناؤوط ، يقصدون زيارته لمجرد التبرك بتقبيل يده ، والاقتداء بهديه وتلقي وارداته الروحية ونفحاته القدسية ، وكثير منهم اخذوا عنه الطريقة السنوسية . وكانت مدة مقامة ببروسه ما يقرب من سنتين تأسست خلالها الحكومة الانقروية ، فارسل اليه رئيسها مصطفى كمال باشا يدعوه الى الانحياز الى انقرة ، شداً لعضد الاسلام ، وترجيحاً لكفة الجهاد على كفة القعود . وكانت القوى الملية التى مركزها انقرة ، هى فى الحقيقة آخر ما بقى من قوة الدولة الفعلية ، فاعمل السيد الروية فى هذا الامر ، فرأى ان حكومة الاستانة ، لا سيما فى ايام الداماد فريد ، اصبحت كالحلس الملقى ، لا تملك ضرا ولا نفعا ، ولا تقدر أن تذود عن حق مسلم ، فضلاً عن كون بقائه فى بروسه مع دنو اليونان منها ، يعرض شخصه للوقوع فى ايدى الحلفاء . فأزمع السيد التحول الى الاناضول ، واول بلدة نزل بها اسكى شهر ، حيث وافاه مصطفى كمال باشا ومعه رهطه باجمعهم ، وتلقوه براً وتكريما ، واحتفلوا بمقدمه احتفالا عظيما . ثم ان بعض الترك ، ممن لا حاجة الى بيان اسمائهم ، استطلعوا رأيه فى أمر الخلافة ، وارادوه عليها ، وأبدوا واعادوا فى اقناعه بها ، فاعتذر عن ذلك وأفهمهم ان لا سبيل الى قبوله هذا الأمر ، لاسباب عددها . فتركوا مراجعته فى هذا المشروع ، وخيروه فى الاقامة بأى بلد يريده فاختار قونية ، وأقام بها عدة أشهر . وأثناء إقامته بقونية ثارت تلك الثورة على الحكومة الانقروية ، لأسباب ليس هنا موضعها ، فبذل السيد كلمته فى اخماد الثورة ، ونصح الأهالى بطاعة الحكومة الملية ، وصعد المنبر يوم الجمعة ، فحث الناس على اجتناب الفتنة ، وبصرهم عواقب الشقاق بينما العدو آخذ منهم بالخناق ، وبين لهم كيف أن أنقرة هى ثمال الاسلام ، وثمالة ما بقى فى حوضه فى هذه الأيام ، فلا يجوز لهم والحالة هذه الخروج عليها ، وتوهين قوتها ، حتى لقد عاتبه كثيرون من أهل قونية فى تشيعه لأنقرة ، وغضب آخرون . ولو لا احترامهم لمقامه العظيم ، ونسبه الكريم ، لمسه السوء يوم سالت الدماء فى أسواق قونيه ،

وما زال فى الوعظ والارشاد ، حتى وصلت العساكر الملية فبددت شمل الثائرين وقبضت على مئات منهم وحاكمتهم فى ديوان حرب ، وصلبت كثيراً منهم ، وكادت تبطش بالشلبى شيخ المولوية وسلالة مولانا جلال الدين الرومى البكرى الصديق قدس الله سره . فكان السيد واسطة خير وشفيعاً له ولغيره . فأنقذ كثيرين ولطف مصائب كثيرة ، بحسن شهادته ولطف مواعظه ، فى هذه الفتنة التى كسائر الفتن لا تصيب الذين ظلموا خاصة . ثم انتدبته الحكومة الملية للذهاب الى بلاد الاكراد ، لاخماد بعض الفتن ، واعمال نفوذه الدينى فى نصيحة العشائر التى كانت غير راكنة . فذهب السيد الى ديار بكر ، وأقام بها و بماردين و باورفا ، مدة وفدت فيها عليه زعماء القبائل العربية والكردية الضاربة فى هاتيك الديار ، وراودوه على الاقامة بينهم ، وأظهروا له من الطاعة لأمره والانقياد لكلمته ما هو فوق الوصف ، ولكنه أبدى لهم استحالة ذلك عليه وكونه مقيداً ببلاده ، لا بد له من الرجوع الى الغرب ، وانما نصح لهم فى الاتفاق مع الحكومة الملية ومظاهرتها توحيداً لكلمة الاسلام واتقاء الفتنة ، التى انما يستفيد منها العدو أثناء حرب لاقح لايدرى ما تلد . وكان يشدد عزائم الناس ، ويحثهم على الجهاد . واحدى المرار بينما هو فى ماردين ، قال : « ان هجوم الأعداء سيبدأ بهذين اليومين وسيكون نصيبهم الخذلان » فلم يمض يومان حتى ورد عليه برقية من الغازى مصطفى كمال باشا قائلا له : « ان العدو بدأ بالهجوم نسألك الدعاء . فكان ذلك مدعاة لدهشة الضباط الأتراك ، الذين سمعوا من السيد أن العدو سيهاجم بهذين اليومين وقيدوا ذلك بالورق يوم قاله لهم ، فكان الأمر طبق ما قال . وكان الغازى فى برقيته طلب أيضاً من السيد قراءة البخارى الشريف تبركا واستنزالا للنصر على جيوش الاسلام ، فذهب الى المسجد الجامع بماردين ، وشرع بالقراءة ، وداوموا عليها الى أن وردت البشائر بكون العدو ارتد خاسراً من وقعة سقاريا . ثم أقام السيد بطرسوس فراراً من برد الأناضول . و فى أثنائها تم الظفر الأخير بالعدو ، وأخرج من كل أقسام تركيا ، وجاء مصطفى كمال باشا الى ولاية أطنه ، وزار السيد فى منزله بطرسوس ، فبالغ السيد فى الاحتفال به ، وقدم بعض هدايا نفيسة للسيدة الخاتون حليلته . و بعد ذلك ذهب الى أنقره لتهنئة الحكومة بظفرها الأخير ، واستتباب الأمر وعقد الصلح ، وكانت زيارات السيد لأنقره ثلاث مرات : أولاها يوم توجه الى بلاد الأكراد بطلب من الحكومة

الملية . والثانية أثناء الحرب بعد هزيمة العدو فى سقاريا . والثالثة بعد نهاية الحرب وعقد الصلح . وفى هذه المرة الأخيرة كان معه عجيمى باشا السعدون ، أمير المنتفق الذى لم يفارق جيش الدولة وترك وطنه العراق حباً بها ، ومداومة على مبدئه . وقد كان السيد فى جميع زياراته لأنقره يلقى من الغازى ومن هيأة الحكومة جميع ما هو أهله من الاجلال والاكرام . وآخر مقامه كان بمرسين ، التى آثرها على طرسوس ، فنزل بقرية « خريستيان كوى » التى كان يسكنها الأروام قبل المهاجرة ، وهى على مسافة نصف ساعة

وكان كولونل ايطالى قد وافى أنقره آخر مرة من زياراته لها ، واستأذن السيد فى ملاقاته ، فأذن له ، فتكلم مع السيد فى حقن الدماء فى طرابلس ، والاتفاق على أساس للصلح . فاجابه السيد بأنه لا يكره الصلح ، على شرط استقلال وطنه الحقيقى وبعد الاخذ والرد ، أحال السيد أخذ خلاصة الاقتراحات الايطالية الى الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش . وكان السيد قبل أن رضى بالاخذ والرد مع هذا الكولونل سأله : « أعندك تفويض من حكومتك بالدخول معى فى حديث الصلح ؟ » فقال له الكولونل : « كلا . وانما يمكننى الحصول على التفويض من اليوم الى شهر » . فقال له السيد : اذا ، بعد الحصول على الاذن من حكومتك ، تفيض بما تريد بيانه الى الاستاذ الشيخ جاويش » . وأوعز السيد الى الشيخ جاويش بان يعيد عليه الجواب . فبعد مدة جاءه الشيخ بخلاصة الشروط . فوجدها السيد غير موافقة وقال للشيخ جاويش : « قل لهم لا نقبل أن تكون القوة العسكرية فى أيديهم ، ولا أن تكون الشرطة منهم ، وكل ما نتسامح معهم فيه هو الامتيازات الاقتصادية ، واستثمار البلاد حقا لهم دون غيرهم من الاجانب . فاما حقوق الملكية فلا ننزل عن شئ منها ، وسلاحنا لا بد أن يبقى فى أيدينا ، وعلى غير هذه الشروط فلا سلام ولا كلام ، لأن طرابلس وبرقة ليستا ملكى لأجود به على الطليان ، بل هما ملك أهلهما » . فلما عاد الشيخ الى الطليان بالجواب علموا أن لا سبيل الى الصلح ، فاذاعوا فى الجرائد أن خبر مفاوضتهم للسيد السنوسى بالصلح غير صحيحة . والحال أنه قبل هذه الاذاعة بقليل ، كان ورد الى السيد الخبر من الشيخ جاويش بان الكولونل الايطالى قادم الى مرسين لمواجهته ، كما أن هذا الكولونل لما واجه السيد وشافهه بأمر الصلح فى أنقره ،

أخبر السيد الغازى مصطفى كمال بما جرى فاشار عليه بالصلح ان طاب له ووافقته شروطه .

عند ما قدمت الى الاستانة فى أواخر سنة ١٩٢٣ ، وهى أول مرة دخلتها بعد الحرب قررت لأجل الاستجمام من عناء الاشغال وترويح النفس بعد طول النضال ان أسكن ببلد صغير تتهيأ لى فيه العزلة وتسهل الرياضة ، ويكون دانياً من وطنى سورية لملاحظة شغلى الخاص ، وتعهد أملاكى فيها ، فاخترت مرسين ، والقيت مرساة غربتى فيها . وكان السيد السنوسى بلغه قدومى الى دار السعادة ، فكتب لى يرغب الىّ فى سرعة المجئ ويرحب بى . فلما جئت الى مرسين ذهبت توراً لزيارته ؟ فأبى الا أن انزل عنده ، ريثما اكون استأجرت منزلا فى البلدة ، وقد رأيت فى هذا السيد السند بالعيان ، ما كنت اتخيله عنه بالسماع وحق لى والله أن أنشد :

كانت محادثة الركبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت اذنى بأحسن مما قد رأى بصرى

رأيت فى السيد حبرا جليلا ، وسيدا غطريفا ، وأستاذا كبيرا ، من أنبل من وقع نظرى عليهم مدة حياتى ، جلالة قدر ، وسراوة حال ورجاحة عقل ، وسجاحة خلق ، وكرم مهزة وسرعة فهم ، وسداد رأى ، وقوة حافظة ، مع الوقار الذى لا تغض من جانبه الوداعة ، والورع الشديد فى غير رئاء ولا سمعة . سمعت أنه لا يرقد فى الليل أكثر من ثلاث ساعات ، ويقضى سائر ليله فى العبادة والتلاوة ، والتهجد ، ورأيته مراراً تنفج بين يديه السفر الفاخرة اللائقة بالملوك فيأكل الضيوف والحاشية ويجتزئ هو بطعام واحد لا يصيب منه الا قليلا ، وهكذا هى عادته . وله مجلس كل يوم بين صلاتى الظهر والعصر لتناول الشاى الأخضر الذى يؤثره المغاربة . فيأمر بحضور من هناك من الأضياف ورجال المعية ، ويتناول كل منهم ثلاثة اقداح شاى ممزوجاً بالعنبر . فأما هو فيتحامى شرب الشاى لعدم ملاءمته لصحته . وقد يتناول قدحا من النعناع . ومن عادته أنه يوقد فى مجالسه غالبا الطيب ، وينبسط السيد الى الحديث ، وأكثر احاديثه فى قصص رجال الله وأحوالهم ورقائقهم وسير سلفه السيد محمد بن على بن السنوسى ، والسيد المهدى ، وغيرهما من الاولياء والصالحين واذا تكلم فى العلوم قال قولا سديداً ، سواء فى علم الظاهر أو علم الباطن . وهو يذهب الى تعظيم الاولياء ، ويرى فيهم الوسائل بين الله والعبد . وينكر على القائلين أن لا وسيلة

بين الخالق والمخلوق ، بل يقول ان الانبياء ، صلوات الله عليهم ، ان هم الا وسائل الى الله . و يقول اذا وقع خلاف فى مسئلة بين علماء الشرع ، و بقيت غامضة ، فالقول فيها ما يقوله علماء الباطن أهل التصوف . وهو شديد الاعتقاد والاقتداء باثنين : الاول عمه سيدى محمد المهدى الذى لا يرى فوق طبقته احداً الا سيد الكائنات ، ﷺ . والثانى استاذه ومرشده سيدى احمد الريفى ، من أكابر السادة السنوسية ، وأركان هذه الطريقة ، ويقول انه كان علامة بحراً فى جميع العلوم . قرأ فى فاس وأتقن العلوم بأسرها حتى الفلك والاسطرلاب ، والهندسة ، والرياضيات . وهو يعتمد على كلامه له ، ومن جملة ذلك أنه قبل وفاته ، رحمه الله ، بأيام قال له : أمامكم جهاد طويل عريض ، فينبغى لك أن تجاهد ولا تقعد ، وان الجهاد ينتهى بنصركم . وانما لا تجعل لنفسك مركزاً معيناً تلازمه ، ولا تكن مهاجاً للنقاط المحكمة بل قف دائماً على قدم الدفاع . واياك والصلح »فسأله السيد «اين يكون هذا الجهاد ؟» وكان ظن انه يعنى حرباً تقع بين السنوسية والفرنسيس فى جهة واداى ، لانه كان القتال مستمراً بين الفريقين على عين كلك . فأجابه سيدى احمد الريفى : « كلا ! هذا جهاد ضد عدو يأتيكم من جهة البحر ، وهو الطليان » . قال له : « وستأتيكم النجدة من استانبول . » فما مضى على وصاة سيدى الريفى شهران ، حتى نشبت حرب طرابلس وتحقق كل ذلك . فالسيد متمسك بكلام استاذه لا يحيد عنه . وقد لحظت منه صبراً قل أن يوجد فى غيره من الرجال وعزماً شديداً تلوح سيماؤه على وجهه ، فبينا هو فى تقواه من الابدال، اذا هو فى شجاعته من الأبطال . وقد بلغنى أنه كان فى حرب طرابلس يشهد كثيراً من الوقائع بنفسه ، ويمتطى جواده بضع عشرة ساعة على التوالى بدون كلال ، وكثيراً ما كان يغامر بنفسه ولا يقتدى بالأمراء وقواد الجيوش الذين يتأخرون عن ميدان الحرب مسافة كافية ، أن لا تصل اليهم يد العدو فيما لو وقعت هزيمة . وفى احدى المرار أوشك أن يقع فى أيدى الطليان ، وشاع أنهم أخذوه اسيراً . وقد سألته عن تلك الواقعة فحكى لى خبرها بتفاصيله ، وهو أنه كان ببرقة فبلغ الطليان بواسطة الجواسيس أن السيد فى قلة من المجاهدين ، وغير بعيد عن جيش الطليان ، فسرحوا اليه قوة عدة آلاف ومعها كهرباة[1] خاصة لركوبه . اذ كان اعتقادهم أنه لا يفلت من أيديهم تلك المرة . فبلغه خبر زحفهم ،

(١) سيارة كهربائية

وكان يمكنه أن يخيم عن اللقاء أو أن يتحرف بنفسه الى جهة يكون فيها بمنجاة من الخطر ، أو يترك الحرب للعرب تصادمهم فلم يفعل . وقال لى « خفت انى ان طلبت النجاة بنفسى ، أصاب المجاهدين الوهل ، فدارت عليهم الدائرة ، فثبت للطليان وهم بضعة آلاف بثلثمائة مقاتل لا غير ، واستمات العرب ، وصدموا العدو ، فلما رأى هؤلاء وفرة من وقع من القتلى والجرحى ، ارتدوا على اعقابهم ، وخلصنا نحن الى جهة وافتنا فيها جموع المجاهدين . » قال لى : « وفى هذه الوقعة جرح الضابط نجيب الحورانى ، الذى كان من أشجع أبطال الحرب الطرابلسية ، كان قائداً ولكنه كان يغامس بنفسه فى كل واقعة ، فجرح مرتين واستشهد فى الثالثة رحمه الله . ولم يحزن السيد على أحد حزنه عليه ، لباهر شجاعته وشديد اخلاصه . وكان السيد يكتب لى من الجبل الأخضر وافر الثناء عليه ، وهو اليوم دائم الترحيم عليه . والشهيد المذكور هو نجيب بك بن الشيخ سعد العلى ، من مشايخ بلاد عجلون ، ترك فى بلاد الغرب ذكراً خالداً .

والسيد أحمد الشريف سريع الخاطر ، سيال القلم ، لا يمل الكتابة أصلاً . وله عدة كتب منها كتاب كبير أطلعنى عليه فى تاريخ السادة السنوسية ، وأخبار الاعيان من مريديهم والمتصلين بهم ، ينوى طبعه ونشره فيكون أحسن كتاب لمعرفة أخبار السنوسيين وانما يفهم الانسان من مطالعة أخبار سيدى محمد السنوسى ، و ولده سيدى المهدى ، ومحادثة سيدى أحمد الشريف ، ان طريقتهم طريقة عملية ، تعمل بالكتاب والسنة ، ولا تكتفى بالاذكار والاوراد ، دون القيام بعزائم الاسلام ، كما كان عليه الصدر الأول . ولذلك وفقوا للجهاد ووقفوا فى وجه دولة عظيمة كدولة ايطالية ، منذ ثلاث عشرة سنة ، لولاهم كانت سيدة لطرابلس و برقة منذ أول شهر من غازاتها عليهما . ويذكر الناس ان الطليان قدروا لتدويخ طرابلس و برقة كلهما مدة خمسة عشر يوماً ، من أول نزولهم . وان قواداً من الانكليز المحنكين فى حروب المستعمرات والبوادى ، قالوا ان الطليان افرطوا فى التفاؤل بظنهم الاستيلاء على بر طرابلس فى ١٥ يوماً ، والحقيقة انه قد تأخذ هذه المسئلة معهم ثلاثة أشهر ... فلينظر الانسان كيف ان المدة التى قدرها أركان الحرب فى ايطالية ١٥ يوما وقدرها أركان الحرب فى انكلترة ثلاثة أشهر ، تطاولت ثلاث عشرة سنة كاملة ، والحرب اليوم هى كما كانت فى بدايتها . وكل هذا بفضل السادة السنوسية ، ولا سيما هذا السيد

العظيم سيدى أحمد الشريف . وكان الاوربيون فى عهد السلطان عبد الحميد يشكون الى السلطان حركة السنوسى ، ويتوجسون خيفة من تشكيلاته وحركاته ويرون فيه أعظم خصم للدعوة الاوربية فى افريقية ، وطالما ضغطت دول أوربا على السلطان لاجل أن يستدعى سيدى المهدى الى الاستانة ، ويأمره بالاقامة بها ، ولا يأذن له بالعودة الى وطنه ، ايخلو للأوربيين الجو فى تقسيم أواسط افريقية ، وخضد الشوكة الاسلامية فى تلك الديار. فكان السلطان يماطل هاتيك الدول ، ويعتذر لهم بصنوف الاعذار ، بل كان يلاطف السنوسى كثيراً بالهدايا والكتابات ، الى ان اشتد الضغط على السلطان فى قضية السنوسى ، فارسل رجلا اسمه عصمت بك الى بنغازى ، ومنها الى جغبوب ، بمأمورية سرية ، فبلغ المهدى ما هو عليه السلطان من الارتباك من جهة ضغط الدول عليه فى أمر الدعاية السنوسية ، فاجابه السيد المهدى بحسب ما قرأت فى التاريخ الذى تقدم ذكره ، بكلام لا يتضمن نفيا ولا ايجابا ، وانما تلا له آيات كريمة فى معنى الاتكال على الله ولكن السيد المهدى لم يعتم بعدها ان فارق جغبوب الى واحة الكفرة ، وبنى فيها زاوية التاج ، وعمر الكفرة عمارة جعلتها جنة فى وسط الصحراء . والأغلب ان سبب تحوله من واحة الجغبوب ، القريبة من مصر وبرقة ، الى واحة الكفرة ، التى هى فى أواسط الصحراء الكبرى ، ثم توغله من الكفرة الى ناحية قرو التى اختاره الله فيها ، وهى على أبواب السودان هما من ارتياحه الى العزلة ، وميله الى التنائى عن مراكز السلطة الرسمية ، والخروج من مناطق تأثير الدول الاستعمارية ، بحيث انتبذ مراكز محاطة بالفيافى والقفار ، مأهولة باقوام لا يزالون على الفطرة ، فاصبح حراً فى بث دعوته لا تصل اليه يد بضغط ، ولا تعلو فوق كلمته كلمة ، وعكف على تهذيب تلك الأقوام ، ونشأهم فى طاعة الله بعد ان كانوا يتسكعون فى مهامه الجهل فبدلت به الأرض غير الأرض ، وانقلبت به أخلاق هاتيك الأمم انقلاباً حير العقول ، ولم يقف فى الدعاية الروحية على واحات الصحراء ، واطراف السوادين ، بل بث دعاته فى أواسط افريقية فكان منهم مثل الشيخ محمد بن عبد الله السنى ، والشيخ حودة المقعاوى ، والسيد طاهر الدغمارى . ورجالات آخرون جابوا السوادين مبشرين وهادين ، فكان السيد المهدى هو المزاحم الاكبر لجمعيات المبشرين الاوربية ، المنبثة فى قارة افريقية كلها ، وعلى يده وبسبب دعايته الحثيثة اهتدى للاسلام ملايين من الزنوج ، فلهذا جمعيات المبشرين باسرها

تشكو حزنها ، و بثها من نجاح الاسلام فى أواسط افريقية ، مثل بلاد النيجر ، والكونغو والكامرون ، وديار بحيرة تشاد ، وتوجه أكثر شكواها الى الطريقة السنوسية ، كما طالعنا ذلك فى مؤلفات أوربية عديدة : هذا من جهة القوة الروحية وأما من جهة القوة المادية ، فقدكان السيد المهدى يهدى هدى الصحابة والتابعين ، لا يقتنع بالعبادة دون العمل ، و يعلم ان أحكام القرآن محتاجة الى السلطان ، فكان يحث اخوانه ومريديه دائماً على الفراسة ، والرماية ، و يبث فيهم روح الأنفة والنشاط ، و يحملهم على الطراد والجلاد ، و يعظم فى أعينهم فضيلة الجهاد ، وقد أثمر غراس وعظه فى مواقع كثيرة ، لا سيما فى الحرب الطرابلسية التى أثبت بها السنوسية أن لديهم قوة مادية تضارع قوة الدول الكبرى وتصارع أعظمها جبروتا وكبراً ، وليست الحرب الطرابلسية وحدها هى التى كانت مظهر بطش السنوسيين بل سبقت لهم حروب مع الفرنسيس فى مملكة كانم ومملكة وادای من السودان استمرت من سنة ١٣١٩ الى سنة ١٣٣٢ هجرية ، وحدثنى السيد أحمد الشريف ان عمه المهدى،كان عنده خمسون بندقية خاصة به ،وكان يتعاهدها بالمسح والتنظيف بيده ، لايرضى أن يمسحها له أحد من اتباعه المعدودين بالمئات ، قصدا وعمدا ليقتدى به الناس ويحتفلوا بأمر الجهاد ، وعدته وعتاده . وكان نهار الجمعة يوما خاصا بالتمرينات الحربية ، من طراد ورماية ، وما أشبه ذلك . فكان يجلس السيد فى مرقب عال ، والفرسان تنقسم صفين . و يبدأ الطراد ، فلا ينتهى الا فى آخر النهار . وأحياناً يضعون هدفاً ، و يأخذون بالرماية حتى كنت ترى طلبة العلم والمريدين أكثرهم فرساناً ورماة ، لكثرة ما كان يأخذهم بهذا المران . وكان يجيز الذين يسبقون فى الطراد أو يقرطسون فى الرمى بجوائز ذات قيمة ، ترغيباً لهم فى فضائل الحرب . كما أنه كان يوم الخميس من كل أسبوع مخصصاً عندهم للشغل بالأيدى ، فيتركون فى ذلك اليوم الدروس كلها ، و يشتغلون بأنواع المهن من بناء ، ونجارة ، وحدادة ، ونساجة ، وصحافة ، وغير ذلك ، لا تجد منهم ذلك اليوم الا عاملا بيده والسيد المهدى نفسه يعمل بيده لا يفتر حتى ينبه فيهم روح النشاط للعمل . وكان السيد المهدى ، وأبوه من قبله ، يهتمان جد الاهتمام بالزراعة ، والغرس تستدل على ذلك من الزوايا التى شادوها ، والجنان التى نسقوها بجوارها ، فلا تجد زاوية الا لها بستان أو بساتين ، وكانوا يستجلبون أصناف الأشجار الغريبة الى بلادهم من أقاصى البلدان . وقد أدخلوا

فى الكفرة وجغبوب زراعات وأغراساً لم يكن لأحد هناك عهد بها . وكان بعض الطلبة يلتمسون من السيد محمد السنوسى أن يعلمهم الكيمياء فيقول لهم : « الكيمياء تحت سكة المحراث » . وأحياناً يقول لهم : « الكيمياء هى كد اليمين وعرق الجبين » . وكان يشوق الطلبة والمريدين الى القيام على الحرف والصناعات ، ويقول لهم جهلاً تطييب خواطرهم ، وتزيد رغبتهم فى حرفهم ، حتى لا يزدروا بها أو يظنوا أن طبقتهم هى أدنى من طبقة العلماء ، فكان يقول لهم : « يكفيكم من الدين حسن النية ، والقيام بالفرائض الشرعية ، وليس غيركم بأفضل منكم » . وأحياناً يدمج نفسه بين أهل الحرف ، ويقول لهم وهو يشتغل معهم : « يظن أهل الاوريقات والسبيحات انهم يسبقوننا عند الله لا والله ما يسبقوننا » . يريد بأهل الاوريقات العلماء وبأهل السبيحات العابدين والقانتين فكأنه يريد أن يقول للمحترفين والصناع لا تظنوا أنكم دون العلماء والزهاد مقاما ، بمجرد كونكم صناعا وعملة ، وكونهم هم علماء وقراء . هذا ليزيدهم رغبةً وشوقا ، ويعلم الناس حرمة الصناعة التى لا مدنية الا بها .

هذه الفرقة فرقة عملية لاتعتمد على مجرد التلاوة والذكر دون العمل والسير . فهى تجمع بين العمل الشرعى بحذافيره ، والتجرد الصوفى الى أقصى درجاته ، وتنظم بين الظاهر والباطن ، نظما لم يوفق اليه غيرها . ويظهر أن مؤسسى هذه الطريقة السيد محمد بن على بن السنوسى ، وولديه السيد المهدى ، والسيد الشريف ، وكبار أعوانهم مثل سيدى أحمد الريفى ، وسيدى عمران بن بركة ، وسيدى أحمد التواتى ، وسيدى عبدالرحيم بن أحمد ، وسيدى عبدالله السنى ، وسيدى أبى القاسم العيساوى ، وغيرهم كانوا على أخلاق عظيمة ومدارك سامية ، تدل عليها أقوالهم وأفعالهم . حدثنى سيدى أحمد الشريف أن عمه الأستاذ المهدى كان يقول له :« لاتحقرن أحدا ، لا مسلما ولا نصرانيا ولا يهوديا ولا كافرا ، لعله يكون فى نفسه عند الله أفضل منك . اذ أنت لاتدرى ماذا تكون خاتمته » . وبمثل هذه الآداب كانوا يأخذون أولادهم ومريديهم ، فكان من هؤلاء أقطاب وأبطال ، يتجمل التاريخ بذكرهم . وواسطة عقدهم اليوم هو السيد أحمد الشريف الذى نحن فى ترجمته .

وقد ذرف السيد المشار اليه على الخمسين ولكن هيئته لاتدل على وصوله الى هذه السن ، لندورة الشيب فى شعره ، وهو رائع المنظر ، بهى الطلعة ، عبل الجسم ، قوى

البنية ، لا يمكن أن يراه أحد بدون أن يجله ويحترمه (١).

بقى علينا شئ لابد من الاشارة اليه وهو ان الذين يقرأون هذه السيرة من الناشئة الجديدة يرون فيها مالا يوافق مشربهم ، من القول بالولايات والكرامات ، والاعتقاد بالكشف ، و بمافوق الطبيعة ، مما يرونه حديثاً ماضياً ، لايليق بالتربية العصرية التي ينبغي أن تكون مبنية على محض الحقائق الفنية . وقلما يعظم فى أعين هذه الناشئة رجل ينطوى على هذه العقائد ، مهما كان عظيماً . بل قصارى ماهنالك أنهم يحترمونه لحسن نيته وخلوص اعتقاده لاغير .

وانى أحب أن أجاوب هذه الطبقة التى قد توجه مثل هذا الانتقاد الى هذا المقام بأن العالم المتمدن لايزال حتى هذه الساعة منقسما الى فريقين : روحى ومادى ، وأن الفريق الروحى هو أكبر جداً وأحصى عدداً من الفريق المادى ، بل يوجد فى أوروبا وأميركا واليابان عدد لايحصى من فحول علماء الطبيعة ، يعتقدون بوجود العالم الروحى ، وآخرون يعترفون بأن مشكل الروح لم ينحل بعد ولا أكنه سر الروح واتصالها بالجسد أحد . واذا رأينا أناساً مثل فلاماريون الفلكى الشهير وفيكتور هوغو أكبر شعراء الفرنسيس ، وسواهما من صيابة العلماء ، يعتقدون باستحضار الأرواح ويشهدون بوقوع المحاورات بينهم و بين الأموات ، وعرفنا أن جمعيات لاتعد ولاتحصى فى أوروبا مؤلفة خاصة للمباحث الروحية ، واثبات الحوادث التى لاتعلل الابوجود شئ وراء المادة ، لم يحق لنا أن نعجب من اعتقاد بعض العظماء بالخوارق والكرامات والمناسبات الروحية . واذا علمنا أن رجالا مثل باستور بمكانه من العلم والاكتشافات الكيماوية التى لم يسبق اليها أحد ورجالا مثل غلادسطون فى الشهرة ، و بتوقد الذهن كانوا من أشد الناس تمسكا بالدين ومن الموقنين بأن السيد المسيح اله وانسان معاً ، ظهر لنا أن الالحاد التام أو الرفض للاعتقاد بكل ماهو خارج عن المادة ، ليسا بشرط فى علو درجة العقل ، ولابدليل على التبحر فى العلم . وماأوتيتم من العلم الاقليلا .

---

(١) لقد كتب سعادة أمير البيان هذا الفصل من عهد بعيد وحدث فى أثناء طبع الكتاب للمرة الثانية أن وافتنا أخبار الحجاز بوفاة السيد أحمد السنوسى فى المدينة المنورة فى منتصف ذى القعدة سنة ١٣٥١ والعشر الأول من مارس سنة ١٩٣٣ رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح رياضه « الناشر »

الجزائر والامير عبد القادر وفرنسا

الأمير شكيب

ليس هنا محل سرد تاريخ المغرب الأوسط من أوله الى آخره ، وانما نذكر بمناسبة الامير عبد القادر الحسنى الجزائرى سبب استيلاء فرنسا على الجزائر ، وأوليات ذلك ومصايره ، تمهيداً للدور الذى قام به هذا المجاهد الكبير فى الديار المغربية فنقول :

لا يخفى انه عندما استولت فرنسا على الجزائر كان هذا القطر من جملة أجزاء السلطنة العثمانية التى افتتحته منذ سنة ١٥١٦ وأجلت الاسبانيول عن أكثر مدنه البحرية التى كانوا احتلوها وامتدوا الى ما وراءها . وكان القائم بهذا الفتح هو عروج الريس البحرى التركى ، ثم أخوه خير الدين الملقب بيربروس ، أى ذى اللحية الحمراء ، الذى وصلت القوة البحرية الاسلامية فى أيامه الى أوجها الأعلى بحيث أصبحت هى سيدة البحر المتوسط بلا مراء ، وتضاءلت أمامها جميع أساطيل النصرانية . وكان مركز خير الدين هو مدينة الجزائر ، وقد مد منها جناح سلطته باسم السلطان العثمانى على سواحلها ودواخلها ، فصارت تلمسان وما يليها ، وقسطنطينة وما يتبعها ، داخلة تحت الحكم العثمانى . وقد توالى بعد خير الدين الولاة من قبل الدولة على تلك البلاد يتولون أمورها على شكل ادارة داخلية مستقلة أشبه بادارة تونس ومصر . وكان هؤلاء الولاة فى شغل دائم ونصَب مقيم من مكافحة الدول المسيحية فى البحر المتوسط ورد غاراتها المتوالية على سواحل المغرب . ولما كان أساس نزول خير الدين بهاتيك الديار هو القوة البحرية فقد بقيت تلك الايالة مركز قوة بحرية عظيمة مدة ثلاثة قرون ، استفحل فيها شأنها طيلة القرن السابع عشر وأدرك أمرها الهزال والضعف فى القرن الذى بعده . وكانت الدولة العثمانية تتوكأ دائماً فى حروبها على أسطول الجزائر ، وتجعله ردءاً للاسطول العثمانى فى كل موقف خطير ، الى أن انقلب أسطول الجزائر من الجهاد الى اللصاص ، ومن الدفاع الشريف عن حوزة الاسلام الى الاعتداء على الناس والسبي والنهب والاسترقاق ، مما لم يزل يتمادى ولا تنجع فيه الوسائل حتى ضاق بذلك ذرع دول النصرانية ، وآل الأمر الى تولى احداهن (فرنسا) كبر اسقاط تلك القوة واستئصالها

من شأفتها ، والاستيلاء على العش الذى درجت منه . فقد صارت لصوصية البحر ، أو القرصنة ، فى أواخر القرن السادس عشر مورد رزق وواسطة كسب لحكومة الجزائر ولأهلها وأصبح هؤلاء يؤلفون الشركات و يبنون السفن ويجهزونها بالعدد اللازمة ، ويبثونها فى البحر تغزو وتعيث ، فتأخذ السفن غصباً وتنهب البضائع التى فيها ، وتسطو على ركابها فتسوقهم أسارى من رجال ونساء وأطفال وتبيع بعد ذلك الأموال والأرواح فى أسواق الجزائر ، فتأخذ الحكومة من ذلك نصيباً معلوماً و يتقسم الباقى على أصحاب السفن والبحرية . واذا كان الأسير من أسرة ذات ثروة أو وجاهة فنعم الغنيمة اذ كان أقارب الأسرى وحكوماتهم المتبوعة و بعض رهبانيات النصارى يفكون الأسرى بمبالغ طائلة . واستمرت هذه الحال دهراً حتى عيل صبر الدول الاروبية لا سيما فرنسا وانكلترة وضربتا الجزائر بالمدافع سنة ١٦٥٩ و سنة ١٦٦٤ وتكرر ذلك سنة ١٦٨٢ و ١٦٨٣ ثم سنة ١٦٨٦ الى أن تمكنت دولتا انكلترة وفرنسا من صيانة سفائنها من اعتداء قرصان الجزائر وصارت تجول فى البحار بدون معارض . أما الدول التى من الدرجة الثانية مثل السويد وهولندة والدانمرك ونابولى الخ فكانت مضطرة أن تدفع لحكومة الجزائر جزية سنوية تشترى بها حرية سير سفائنها . وكانت دولة أوستريا والمجر معفاة بوصاة خاصة من الباب العالى. وما زال الأمر كذلك حتى أيام نابوليون ، فانتهز قرصان الجزائر فرصة الحروب التى اشتعلت يومئذ فى كل أوربا وضاعفوا عيثهم فى البحر المتوسط ، فارتفع العويل من كل جهة ، ولما تقرر الصلح قررت الدول فى (اكس لاشابل) منع الجزائريين بتاتاً من التعرض لأى سفينة ، فلم يسمعوا لأحد كلاماً فأطلق الانكليز مدافعهم على الجزائر انتقاماً

وفى سنة ١٨٢٧ حصلت منافرة بين حسين داى والى الجزائر ودفال قنصل فرنسا فمد يده الداى الى القنصل وضربه بالمروحة ، فحصرت فرنسا سواحل الجزائر واغتنمتها فرصة لفتح تلك البلاد ، فاحتلت الجزائر فى ٥ ايلول سنة ١٨٣٠ وكان ذلك لعهد الملك كارلوس العاشر ، وكان مراد الفرنسيس فى الأول الاحتفاظ ببعض المدن البحرية وتقرير نظام لادارة البلاد الداخلية بالاتفاق مع الدول ، ثم انقلبت الأفكار وتألفت لجنة اسمها « اللجنة الافريقية » للمذاكرة فيما اذا كان الاولى ترك الجزائر تحت شروط معلومة ، تفادياً من الكلف الباهظة التى يقتضيها فتح القطر الجزائرى أو الاستمرار على سياسة الفتح والاحتلال

الى النهاية . مسئلة شبيهة جداً بمسئلة سورية اليوم بين الحزب الذى يرى تركها لأهلها خوف التورط فى حروب مستقبلة اما مع العرب أو مع الترك أو مع غيرهم ؛ والحزب الذى يرى التمسك بسورية والسيطرة عليها لأجل نفوذ كلمة فرنسا فى المشرق مهما كلف ذلك من المشاق . وفى سنة ١٨٣٤ رجح رأى الاستيلاء ، وتعين حاكم عام للجزائر ، ولكن بقى الفرنسيس مترددين فى قضية الزحف الى الداخل ، وجعلوا يدخلون المدن تدريجاً ، فاستولوا على وهران ومستغانم وعنابة وبجاية . وسنة ١٨٣٦ قصدوا قسطنطينة ، وكان فيها أحمد بك فهزمهم . فأعدوا حملة ثانية فى السنة التالية ففتحوها وامتدوا من هناك الى الصحراء . وفى سنة ١٨٤٤ كانوا فى بيسكرة

أما فى الجهة الغربيـة فان المقاومة كانت أطول أمداً ، وأصعب مراساً ؛ وذلك أن الأهالى اختاروا لهم أميراً قاتلوا تحت لوائه وهـذا الأمير كان رجلا من أعاظم الرجال وهو عبـد القادر بن محيي الدين الحسنى . أصل سلفهم من المغرب الأقصى ومن آل البيت فيما يقال . هاجروا من هنـاك الى نواحى وهران ، واشتهر منهم رجال بالورع واقتـدت بهم الناس ولا سيما السيد مصطفى بن محمـد المختار ، والسيد محيي الدين والد المترجم . وكانت ولادة المترجم سنة ١٢٢٣ الموافقة لسنة ١٨٠٨ ونشأ فى مهد العلم والتقوى ، واعتنى بالتحصيل جد الاعتناء ، حتى تفوق بالأدب والفقه والتوحيد والحكمة العقليـة ، وكان مع ذلك لا يهمل المثاقفة بالسلاح وركوب الخيل بحيث نبغ من جهة عالما فاضلا ، ومن جهة ثانية ثقفاً فارساً فجمع بين السيف والقلم . وفى سنة ١٨٢٧ وقعت مشاحنة بين والده السيد محيي الدين و بين حسن بك حاكم وهران التركى ، فانتهى الأمر بجلاء السيد محيي الدين عن وطنه ، فأزمع الرحلة الى المشرق وحج البيت الحرام وكان معه ولده عبد القادر . و بعد سنتين من غيابهما عادا الى وطنهما ، فـكانت بعـد ذلك الحرب بين أتراك الجزائر والفرنسيس فيقال ان عبـد القادر منع والده من الانضمام الى حسن بك حاكم وهران فسلم الحاكم البلدة الى الفرنسيس ، ودارت رحى القتال بين الحامية الفرنسوية و بين الأهالى ؛ فتولى قيادة هؤلاء السيد محيي الدين ، وظهر فى أثناء هذه الحرب من بسالة عبد القادر و إقدامه ورباطة جأشه واصالة رأيه ، ما جمع له محاب القلوب وعقد به آمال الناس . ولما أراد أهالى تلك البلاد مبايعة السيد محيي الدين أميراً عليهم ؛ اعتذر بعلو سنه ، وأشار عليهم بولده عبد القادر فى

٢١ تشرين الثانى سنة ١٨٣٢ فبويع بالامارة ، وقيل بالسلطنة أولا ، فتحاشى لقبها مراعاة لسلطان فاس ، وا كتفى بالامارة . ونص هذه المبايعةمنشور فى كتاب « عقد الاجياد فى الصافنات الجياد » تأليف أكبر أولاده الأمير محمد باشا .

فجعل عبد القادر عاصمته مدينة المعسكر ، ورتب جنوده وباشر القتال ، ولم يكن قتاله قاصرا على جهاد الفرنسيس فحسب ، بل اضطر ان يقاتل حساده ورقباءه من أهل البلاد أنفسهم ، فقام بجميع ذلك أحسن قيام ، حتى دانت له كل عمالة وهران تقريباً ، وفى ٢٦ شباط سنة ١٨٣٤ انعقدت بينه و بين الفرنسيس المعاهدة المعروفة « بمعاهدة دميشل » التى بها تعترف فرنسا لعبد القادر بجميع العمالة الوهرانية خلا مدينة وهران وآرزاو ومستغانم وكان له الحق بموجب هذه المعاهدة ان يعين معتمدين (قناصل) فى وهران والجزائر ومستغانم وغيرها ، وان يستورد الاسلحة من أى جهة أراد . فعظم شأن عبد القادر وتأثل سلطانه . وصار الامير الشرعى لجميع أهالى الجهات الغربية من المغرب الاوسط . ثم مد رواق ملكه على البلاد التى لم تكن داخلة فى ضمن حدوده ، مثل ميدية ومليانة ، ورتب فيها المسالح بالرغم من احتجاج حاكم الجزائر العام ، ولما كان الحسد والمنافسة هما أقتل أمراض المسلمين . بحيث لا تثقل عليهم سلطة الغريب كما تثقل سلطة أخيهم ، ثار على الامير قبيلتا الدوائر والزمالة وانضمتا الى فرنسا فطلب تسليم رؤسائهم اليه فأبى الجنرال « تريزل » ذلك فبرز عبد القادر الى القتال وانتصر على الفرنسيس فى يوم المقطع (٢٦ تموز ١٨٣٥) فجردت فرنسا جيشاً كثيفاً استولى على عاصمته المعسكر تحت قيادة المارشال « كاوزل » وكانت بقية من الاتراك لا تزال فى قلعة تلمسان فناوشوه من الوراء . فانهزم هزيمة ثانية فى حرب مع الجنرال الفرنساوى « بوجو » ولكنه بقى ثابت العزم متوفر القوة . وتمكن بدهائه السياسى ان اصطلح مع الفرنسيس على شروط تضمن له أحسن مما ضمنته معاهدة (دميشل) وذلك فى معاهدة « التفنة » (٣٠ ايار ١٨٣٧) التى اعترفت فرنسا له فيها بجميع عمالة وهران وقسم كبير من عمالة الجزائر . فلما انتهى الخصام بينه و بين فرنسا شرع يقوى سلطته على البلاد التى ادخلت حديثا تحت حكمه . ورتب مسالح فى لاغوات وميجانة وزيبان وخضع له أهل هاتيك الاطراف ما عدا المرابط محمد التيجانى الذى أبى الاعتراف بامارته . فزحف عبد القادر بنفسه الى (قصر عين ماضى) وحصره و بعد

حصار خمسة أشهر افتتحه مع أنه حصن منيع لم يتمكن الاتراك طول مدة حكمهم فى الجزائر أن يدخلوه ثم رتب عبد القادر جيشاً منظماً على نمط جيوش الدول ، وقسمه الى مشاة وفرسان ومدفعية ، واستجاد لتعليمه وتدريبه ضباطاً من الجيش التونسى ومن الجند التركى الذى بطرابلس ومن الفارين من الجيش الفرنساوى . وسن لهذا الجيش نظاما يتعلق بمأكله وملبسه ورواتبه ومدة التعليم وشروط الترقى فيه ونيل الاوسمة وغير ذلك . وجعل دهاليز لادخار الحبوب وانابير للاقوات ومعامل للسلاح ، ورمم القلاع ، ولم يغفل عن شئ مما يلزم لتاسيس الحكومات الشرعية

ولما كانت معاهدات الدول الاستعمارية مع أهالى الاقطار التى تضع نصب اعينها الاستيلاء عليها هى فى الغالب محاط استراحة بين الحلة والحلة . ومنازل استجمام بين مراحل الحرب لا غير بحيث لدى توفر القوة لا تعدم عذراً فى نقض تلك المعاهدات التى لم تبرمها منذ البداية الا على نية النقض ، وكانت فى الواقع مصدقة لقوله تعالى فى هؤلاء « وما وجدنا لاكثرهم من عهد » شرعت فرنسا بالتعلل من جهة تفسير بعض فقرات معاهدة التفنة ، وارادت التفصى منها ، حال كون الامير يتقاضى العمل بها فنشبت الحرب بين الفريقين . لأن فرنسا كانت اعدت عدتها والامير ابت نفسه النزول عما خولته اياه المعاهدة ، فزحف المارشال « فالى » و « الدوق دومال » من جهة ، واغارت عساكر الامير على متيجة من جهة اخرى . ونادى الامير بالجهاد وذلك فى ٢٠ تشرين الثانى سنة ١٨٣٩ فاستمرت الحرب من ذلك التاريخ الى سنة ١٨٤٣ بدون انقطاع . وقام فيها الامير عبد القادر مقامه المحمود الذى طبق ذكره الآفاق . وان كان عدم تكافؤ القوتين المتقابلتين آل أخيراً الى سقوط اكثر حصونه ، واستيلاء العدو على اكثر مدنه ، مثل تاغدمت والمعسكر وتازة ووادى الشليف . فانكفأ الى الغرب ، فزحف العدو الى تلمسان ونواحى ندرومة واحتلها فتحول الأمير الى الجنوب وهناك ايضاً كبس (الدوق دومال) محلته (ما يسميه الأتراك بالقرار كاه) وغنم أكثرها ففت هذا الحادث فى عضده وخذله أكثر أنصاره ففر الى المغرب وسعى فى حمل سلطان المغرب على اصلاء الفرنسيس الحرب فكانت بين جيش المغرب والجيش الفرنسارى « واقعة ايسلى » (١٢ أغسطس ١٨٤٤)

ولما كان المغاربة لا يملكون من آلات القتال ما يملكه الفرنسيس انتصر الجنرال « بوجو » على الجيش المغربي ، وكانت بوارج فرنسا ضربت بالمدافع ثغرى طنجه ومغادور ، فضيقت فرنسا على سلطنة المغرب من البر والبحر . وأجبرت السلطان مولاى عبد الرحمن صاحب الغرب على عقد الصلح (١٠ ايلول ١٨٤٤) بالشروط التى تريدها . وأولها منع عبد القادر من تجاوز حدود الجزائر . فلبث هذا نحو سنتين متربصاً منتظراً غرة من العدو ليهتبلها . فلما لاحت له فى ثورة سنة ١٨٤٦ انقض على بلاد الجزائر ثانية وأوجف فى الغارة حتى بلغ بلاد البربر المسماة عند الفرنسيس (كابيلى) ، وأعاد الأمر كما بدأ. الا أن قوة عبد القادر كانت هذه النوبة قد تناقصت ، وقدم الفرنسيس فى الجزائر قد رسخت . فلم تستمر غارته وأحاطت به الجيوش من كل جهة . فأسرع الاوبة الى الحدود المراكشية فعادت فرنسا تتقاضى مولاى عبد الرحمن تسليمه . وما زالت تلح فى ذلك حتى ساق عليه السلطان قوة عظيمة . فلما رأى نفسه بين نارين وان اخوانه المسلمين قد صاروا عليه ألباً مع الفرنسيس ، اشتد به الغضب وسلم نفسه الى الفرنسيس على يد « الجنرال لامور يسيار » (٢٣ كانون الأول ١٨٤٧) . ووقع الاتفاق على أن يخرج بعائلته من الجزائر ذاهباً الى الاسكندرية أو عكا

وعلى رواية أخرى وهى التى مال اليها صاحب « تاريخ الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى » لما يئس الأمير عبد القادر من الفوز على الفرنسيس بقوته الخاصة ، حدثته نفسه بقلب سلطنة المغرب ، والجلوس على عرش فاس ، فأوجس السلطان عبد الرحمن خيفة من دسائسه ، وأرسل تلك القوة لمطاردته وخضد شوكته ، قبل أن يستعصى أمره . ولذلك صاحب الاستقصا بعد أن أثنى أولا على جهاده وعلو همته ، عاد فرماه أخيراً بسوء النية والفساد فى الأرض . وهو فى كلتا الحالتين لم يلقبه بالأمير بل « بالحاج عبد القادر بن محيي الدين »

فأخذ الأمير الى طولون حيث كان المراد تسفيره الى الشرق بحسب العهد الذى انعقد . الا انه فى تلك الايام حصلت فى فرنسا ثورة سنة ١٨٤٨ وسقط الملك لويس فيليب فاعتلت الحكومة الموقتة فى اطلاق سراحه وأبقته فى بلادها أسيراً الى سنة ١٨٥٢ اذ بشره لويس نابليون بنفسه انه تقرر اخلاء سبيله . فذهب الى الاستانة ثم أقام ببرصا. وسنة ١٨٥٥

استاذن فى الذهاب الى الشام بمعرفة الحكومة الفرنسوية فأذنت الدولة العلية له بذلك . ولما حصلت فى دمشق الحادثة المؤلمة المسماة بحادثة سنة الستين . التى كان منشأها من رعاع القوم ، اهتم الأمير عبد القادر بوقاية المسيحيين وأنقذ منهم عدداً وافراً . وان لم يكن هو المنفرد بذلك بل شاركه فى هذه المبرة كثير من أعيان دمشق مثل محمود أفندى حمزة ، و بنى العابد ، و بنى المهايني وغيرهم ، فاستحق بهذا الفعل الجميل ثناء الجميع وجاءته الأوسمة مع عبارات الشكر من فرنسا وأكثر الدول الأروبية . وقضى بقية حياته فى مثافنة العلماء واسداء الخيرات ، وكان كل يوم يقوم الفجر و يصلى الصبح فى مسجد قريب من داره فى محلة العمارة . لا يتخلف عن ذلك الا لمرض . وكان يتهجد الليل و يمارس فى رمضان الرياضة على طريقة الصوفية وما زال مثالا للبر والتقوى والاخلاق الفاضلة الى أن توفى رحمه الله سنة ١٨٨٣ فدفن بمقام الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربى فى الصالحية . وترك من الولد الأمراء محمد باشا ، ومحيي الدين باشا ، والهاشمى ، وابراهيم ، وأحمد ، وعبد الله ، وعلى وعبد الرزاق ، وعبد المالك ، فالأمير محمد باشا وشقيقه محيي الدين انتقلا الى الاستانة وجعلتهما الدولة فى مجلس الأعيان الى ان توفيا وكان الثانى منهما شاعراً أديباً ، عالى الهمة ، وذهب سنة ١٨٧٠ بدون علم أبيه الى الجزائر ليترأس الثورة القبائلية التى اشتعلت يومئذ فلما بلغ الخبر أباه أعلن سخطه عليه لأن الامير بعد أن أعطى عهده لفرنسا حافظ على قوله الى الممات واما الهاشمى فمن ولده الامير خالد الذى هو على رأس الحركة الوطنية الحاضرة فى الجزائر وأما الامير عبد الله فهو فى قيد الحياة بدمشق ، وأما الامير على فقد كان مبعوثاً عن الشام منذ سنة ١٩١٤ فى مجلس الأمة بالاستانة ، وكان محرر هذه السطور قد انتخب عن حوران أيضاً وسفرنا يومئذ الى دار السعادة معاً ، فلما افتتح المجلس وصارت المذاكرة فى انتخاب الرئيس ونواب الرئيس وكانت العادة أن يكون الرئيس الاول تركيا والرئيس الثانى من أبناء العرب ، واستشارنى طلعت بك حينئذ ، وكنت العضو العربى الوحيد فى القلم العمومى لمجلس الامة ، وطلعت هو الرئيس ، فاتفقنا على دعوة المبعوثين لانتخاب الامير على رئيساً ثانياً ، وهكذا كان ، ولما شبت الحرب العامة أرسلته الدولة الى ألمانية حيث قابل الامبراطور غليوم وأمضى مناشير ألقت بها الطيارات الالمانية على العساكر المغربية ، تحثهم على ترك العسكر الفرنساوى . والالتحاق بالالمان حلفاء الدولة العلية ، فأخذ الفرنسيس حذرهم من

مفعول هذه المناشير ، وصاروا يؤخرون المغاربة الى الوراء بعد ان كانوا يضعونهم دائما فى الأمام وقوداً للنار . و بعد أن قضى الامير على مدة فى ألمانية عاد الى الاستانة ومنها الى سورية اذ وجد أخاه الامير عمر محبوساً مع من حبسهم جمال باشا قائد الجيوش فى سورية اثناء الحرب لأوراق وجدت عليه فى قنصلية فرنسا ، فتشفع الى جمال فى أخيه فلم يقبل شفاعته ، ونفاه هو أيضاً مع أولاده وسائر أسرة الامير عبد القادر الى برصا ، ولم يرع حرمة جهاد والده ولا خدمة الامير على فى ألمانية ولا قبل ذلك فى حرب طرابلس الغرب ، فاشتد عليه الغم ولم يلبث ان مرض ونقل الى الاستانة وتوفى بها رحمه الله . وأما الامير عمر فكان من جملة الاعيان المشنوقين . وطالما راجعنا فى أمرهم وطلبنا عنهم العفو أو تحويل جزاء القتل الى النفى فلا أمر يريده الله أبى جمال باشا الا ازهاق الانفس ، فكانت من الاغلاط الكبرى التى ذاقت الدولة العلية مرارة مغبتها وسهلت طريق الاجانب . ومما أتذكره ان جمال باشا سألنى عما اذا كنت انكر ممالأة الامير عمر لفرنسا مع انه هو لم يقدر على الانكار . فأجبته لست ممن ينكر ذلك ولكن أرى وجوب الصفح عنه حرمة للمرحوم والده الذى لا يخفى ماله من المكانة فى العالم الاسلامى فقال لى جمال بالتركية (بكانه) أى وماذا يجيئنى من ذلك . وأما الامير عبد الرزاق فذهب شاباً وكان نادراً فى الذكاء وجمال الصورة والسيرة . وآخر أولاد الامير عبد القادر هو الامير عبد المالك قضى بضعة عشرة سنة مجاهداً فى المغرب بين القبائل الثائرة على فرنسا وعلى اسبانية . ولم يزل فى تلك الديار يتحرك تارة و يسكن أخرى الى كتابة هذه السطور

وكان المرحوم الامير عبد القادر متضلعاً من العلم والادب ، سامى الفكر ، راسخ القدم فى التصوف ، لا يكتفى به نظراً حتى يمارسه عملا ، ولا يحن اليه شوقاً حتى يعرفه ذوقاً . وله فى التصوف كتاب سماه (المواقف) فهو فى هذا المشرب من الافراد الافذاذ وربما لا يوجد نظيره فى المتأخرين وله كتاب آخر ممتع اسمه (ذكرى الغافل وتنبيه الجاهل) فى الحكمة والشريعة . وقد ذكر مؤرخو الافرنجة أن مملكته العلمية والدينية كانتا من أكبر أعوانه على تأسيس الحكومة التى أسسها وانه كان ينال باللسان ما قد يعجز عنه بالسنان . ولم ينكروا عليه حفاظه للعهود لكنهم زعموا انه كان لا يتوقف ان يخفرها فيما لو رأى فى ذلك مصلحته المندمجة فى مصلحة الاسلام . قال فى دائرة المعارف الاسلامية

الفرنسوية : « كان عادلا لـكن على الطريقة الشرقية ، براً رؤوفا ، لـكن يجوز أن ينقلب سفا كا للدماء جاسياً اذا رأى ضرورة ايقاع الرعب فى قلوب الاعـداء »

قلنا يظهر ان الافرنج يريدون أن يحفظوا مزية خفور العهـد لدى تبـين المصلحة لأنفسهم دون سواهم ، وكذلك سفك الدماء لأجل القاء الرعب عنـد الضرورة . وحبـذا لو حصروها فى دائرة الضرورة ، بل اعمالهم فى غاراتهم الاسـتعمارية ثم فى الحرب العامة الاوربية قد فضحت أمورهم وأثبتت أنهم يسفـكون الدماء فى ضرورة وفى غير ضرورة . وليس مثلهـم بمن يحق له أن ينتقد فى هـذا الباب رجلا شهدت له جميع أعماله بالوفاء كالامير عبد القادر . ولنختم هذه الترجمة بشئ من شعر الامير الذى يدل على علو نفسه :

تسائلنى أم البنين وانها لأعلم من تحت السماء بأحوالى
الا فاسألى جنس الفرنسيس تعلمى بأن مناياهم بسيفى وعسالى
ومن عادة السادات بالجيش تحتمى وبى يحتمى جيشى وتمنع أبطالى

الجزائر وقبائل البربر

للأمير شكيب

بعد أخذ الأمير عبد القادر أسيراً وانعقاد معاهدة الصلح بين فرنسا والمغرب (١٨٤٥) تحددت الحدود بين الجزائر ومراكش ، وعلت كلمة فرنسا فى القطر الجزائرى ، فأخذت العساكر الفرنسوية تتقدم الى جهات الصحراء وتبنى فيها المخافر وتؤسس المسالح توطيداً لقدمها فى البلاد ، فثار ثائر يقال له أبو زيان فى واحات زيبان من الصحراء ، فكان نصيب ثورته الفشل فثار زعيم آخر اسمه الشريف محمد بن عبد الله فسيقت عليه العساكر الفرنسوية فافتتحت مدينة لغوات وزحفت الى ورغله (١٨٥٤) وفر الشريف شريداً .

وكانت البلاد المسماة (كابيلى) أى القبائلية ، اشارة الى قبائل البربر التى تسكنها ، لا تزال مستعصية على الفرنسيس شامخة بانفها ، لا تعطى المقادة ، فوالى هؤلاء عليها الزحوف بقيادة « الجنرال بوجو » و « الجنرال سانت آرنو » و « الجنرال راندون » فما زالوا يغادونها القتال ويراوحونها من سنة ١٨٤٤ الى سنة ١٨٥٧ والدماء جارية من الفريقين حتى خضعت تلك القبائل فى وادى الساحل و وادى سيباو ، وانهزم أبو بغلة الذى اشتهر فى تلك الحرب و بقيت قبائل الجرجورة مدة حافظة استقلالها ، الى أن أذعنت هى أيضا ولكن على شرط حفظ تشكيلاتها الادارية وعاداتها وعرفها ، فولت فرنسا على بلاد القبائل رؤساء مسلمين يراقب عليهم ضباط فرنسيس بجانبهم ، وجعلت أقلاماً عربية فى تلك الادارات ، وسمحت للقبائل بالمحافظة على عاداتهم وأوضاعهم مما هو سنة الدول الاستعمارية فى الأقوام التى تبلو منها شدة البأس وصعوبة المراس ، الى أن تكون تمكنت منها بطول عهد الحكم وازالة ما بقى من أسباب المقاومة ، فتعدل حينئذ الى اجراء الأحكام الاستعمارية على وجهها الأكمل ، ولكن الثورات فى الجزائر لم تكن انتهت لذلك العهد بل كان على فرنسا ان تخمد ثورات أخرى ، كلما انطفأت نار احداها اشتعلت أخرى . ففى عام ١٨٥٩ كانت ثورة بنى سناسن على حدود المغرب الأقصى ، فكلفت فرنسا حملة عسكرية .

وفى جنوبى وهران كانت ثورة أولاد سيدى الشيخ التى استمرت ثلاث سنوات متتابعة . واضطر بها الجنرال « فيمفن » الى تعقب الثوار الى وادى الجير من عمل المغرب ، ولم تسكن هذه الفتنة الا سنة ١٨٦٧ . ولكن لما انكسرت فرنسا فى الحرب مع المانيا سنة ١٨٧١ كانت الثورة الكبرى اذ لاحت الفرصة للجزائريين ورأوا الصيد سانحاً، فثار المقرانى قائد ميجانه ، وضافره على الحركة مرابط يقال له الشيخ الحداد مع ولده سى عزيز ومعهم أتباع الطريقة الرحمانية ، فاشتعلت الفتنة فى جميع القبائل ، وامتدت الى بعض أعمال قسنطينة واتصلت ببعض عمل الجزائر ، ولكن العمالة الوهرانية فى تلك الآونة بقيت ساكنة لم تشارك سائر اخواتها ، أما الثائرون فأحاطوا بجميع الحصون الفرنسوية التى فى بلاد القبائل وخربوا قرية « بالسترو » وكادوا يستولون على متيجة ، فجردت فرنسا جيوشاً جرارة عقدت عليها للاميرال « غويدون » لشهرته بالصرامة والمضاء ، فدارت رحى القتال ونشبت هناك ٣٤٠ واقعة انتهت أخيراً بسبب التفوق الفرنساوى فى فن الحرب ووفرة اعتادها بخمود نار الثورة ، وسقط المقرانى قتيلا فى وادى سفلات ، فخلفه فى الزعامة أخوه أبو مزراق ، فما زال هذا يكافح حتى وقع أسيراً بمحل يقال له الرويسات فى ٢٠ كانون الثانى سنة ١٨٧٢ وكان ذلك ختام الثورة فاقتصت فرنسا من القبائل أولا بأن الغت لهم استقلالهم الادارى ، ثانيا بأن اغتصبت من أراضيهم ٤٥٣ الف هكتار (الهكتار ١٠ آلاف متر مربع) سلمتها الى المستعمرين الفرنسيس الذين يقال لهم « الكولون » ، ثالثا بان ضربت عليهم غرامة حربية فادحة تجعلهم دائما رازحين تحت أوقار الديون ، ومن بعد هذه الثورة لم يحصل من مقاومات الجزائريين مايستحق الذكر الا ثورة أبى عمامة سنة ١٨٨١ ، ومن ثمة ساد السكون فى ذلك القطر وانقطع الأمل من القيام بالسيف ، لاسيما بعد أن لحق القطر التونسى ثم القطر المراكشى بالقطر الجزائرى وصارت كلها مستعمرة واحدة يلقبها الفرنسيس بافريقية الفرنسوية . الا أن الحرب العامة انشأت روحاً جديدة فى بر الجزائر لم تكن موجودة من قبل ، وهى ان الجزائريين قدموا لفرنسا جزراً للسيوف وقوداً للكرات النارية أكثر من ٢٠٠ الف مقاتل فى الحرب العامة قتل منهم نحو ٦٢ الفا كانوا فداء لفرنسا بأرواحهم ، وكان الفرنسيس يوم نشوب الحرب العامة واحتياجهم الى عضد المستعمرات قدبالغوا فى التملق للاهالى ، وتبذلوا جلودالنمور بأصواف النعاج ، وطافوا

على الجزائريين يقولون انما هو وطن واحد ندافع عنه جميعا حتى اذا فزنا بما نرجوه قسمنا حقوقه بالمساواة بدون تمييز لفرنساوى عن جزائرى ، ولا لمسيحى عن مسلم ، وان ادارة الجزائر بعد الحرب ستكون شكلا آخر لا يشبه شيئا مما كان الى ذلك الحين ، وان المسلمين سيتمتعون بجميع الحقوق التى تتمتع بها الامم المستقلة ، الى غير ذلك من المواعيد التى كانت فرنسا وسائر دول الحلفاء توزعها جزافا على الأمم المهتضمة ، ترغيباً لها فى القتال الى جانب الحلفاء ، مما يعرفه عرب آسية اكثر من سواهم ، كيف لا وهم الذين وعدهم الحلفاء بأنهم اذا انحازوا الى صفهم فى الحرب العامة أعادوا لهم السلطنة العربية بحذافيرها ، والخلاصة مواعيد بدون حساب يبذلها أناس كانت تجول فى محاجرهم دموع التماسيح ؟ وهم يقولون هلموا ايها الاقوام الى القتال فى جانب الحلفاء لنصرة الحق على الباطل ، وانفروا خفافاً وثقالا لمكافحة هذه الامة الالمانية الغاشمة التى تريد استعباد الامم ، حال كون مقصد الحلفاء من هذه الحرب هو رفع سلطة القوى عن الضعيف ، وايتاء كل امة قسطها من حق الاستقلال . فما زالت هذه المواعيد تبذل ، وتلك الالفاظ تتكرر وتصقل ، حتى استوسق للحلفاء النصر وانتهت الحرب ، وقضى الأمر فقلب الحلفاء لتلك الامم ظهر المجن ، وتناسوا جميع تلك الوعود ، ونكثوا بعامة هاتيك العهود ، وادرك اولئك الاقوام الذين بذلوا ارواحهم فى سبيل نصرتهم أن هذه النصرة انما كانت عليهم لا لهم ، وانهم انما اعانوا على انفسهم ، وشاركوا فى تخريب بيوتهم بايديهم . ومن جملة هذه الامم اهل الجزائر ، فثارت خواطرهم وغلت قلوبهم وتنجزوا فرنسا ما سبق من وعودها ، وذكروها بالاثنين والستين الف قتيل الذين ذهبوا منهم فى سبيلها ، فبعد اللتيا والتى اعطتهم فرنسا حق الانتخاب بمعنى أن تقبل اصواتهم فى الانتخابات البلدية ، وكذلك حق الترقى فى الدرجات العسكرية . بعد أن كانت لهم دائرة معينة لا يتجاوزونها مهما بلغ من نصح خدمتهم . وكذلك تساووا مع المستعمرين فى الاموال الاميرية ، بعد أن كان هؤلاء يدفعون مالا والجزائريون يدفعون أمثاله عن الارض الواحدة . وكل هذه الحقوق الجديدة ليست شيئا مما كان الفرنسيس يمنونهم اياه اثناء الحرب ، وما هى الا فلك بعض حلقات من تلك السلسلة الطويلة التى هم راسفون بها منذ نحو قرن . فلذلك قاموا يناصبون الفرنسيس الحرب المعنوية التى بدأت تتجلى فى الانتخابات والاجتماعات ، واخذت تمتد بينهم الحركة الفكرية النازعة الى

الاستقلال ، وانتهز حزب الشيوعيين فى فرنسا فرصة القنوط والغضب اللذين استوليا عليهم ، فبثوا فيهم الدعوة الاشتراكية الشيوعية . فتلقاها كثير من عملتهم وصعاليكهم وربما من المتمولين منهم ؟ لا رغبة فيها بذاتها بل فيما يصاحبها من تخفيف السلطة الحاكمة والوطأة الاستعمارية .

ولقد كان الفرنسيس يظنون ان الواسطة الوحيدة لنزع فكرة الاستقلال من رؤوس الوطنيين ، واماتة روح المقاومة ، هى ملاشاة التعليم الاسلامى ، وطمس معالم الشريعة التى يظنونها هى وحدها موقداً للحمية الاهلية ، ومنزعا للتماص من الحكم الاجنبى ، فلهذا كانت سياستهم فى الجزائر من الاول الى الآخر سياسة تساهل دينى فى الظاهر ، مع التحامل فى الباطن ، فانهم متعوا ليس الفرنساوى فقط ، بل الايطالى والاسبانيولى ، بل اليهودى والمالطى ، بحقوق لم يسمحوا بها للجزائرى المسلم . وجعلوا المسلمين هم الطبقة الدنيا فى السياسة والادارة والاجتماع وكل شئ . وقصروا امتاعهم بالحقوق ــ التى يتمتع بها كل الخلق من سواهم ــ على تجنسهم بالجنسية الفرنسوية ، وقبولهم القانون الفرنساوى الذى يصادم الشريعة فى كثير من الاحوال الشخصية ، بحيث لا يقدر المسلم ان يقبل العمل به الا بعد أن ينزل عن اسلامه . وجعلوا كثيراً من التمتع بالنعم والأعطية والمكافئات موقوفاً على التنصر . ولم يرق الجنرال يوسف رتبة جنرال الا على هذا الشرط . ومنذ سنتين طلب أحد النواب الأحرار فى البارلمان فى باريز الغاء القانون الذى تمنح بموجبه فى الجزائر الهبات العقارية للاوربى ولليهودى والجزائرى الذى يرضى أن يتنصر . وهو قانون سنته الحكومة الفرنسوية منذ نحو ثلاثين سنة لا غير أى على عهد الجمهورية التى تزعم ان الاديان عندها سواء ، وقد أجاب ممثل الحكومة يومئذٍ موافقاً على استهجان هذا القانون ، ومعلنا نية الحكومة الغاءه ، لا سيما بعد التفادى الذى تفاداه المسلمون فى هذه الحرب ، ولكن لست على ثقة من كونهم قرنوا القول بالفعل اذ طالما قالوا ولم يفعلوا ، ولم يجتزئ الفرنسيس بهذه الوسائل الرسمية لتزهيد المسلمين فى الاستمساك بعروة شريعتهم ، بل فسحوا المجال للبعثات الدينية ، وعضدوا « الكردينال لا فيجرى » فى بث مرسليه الملقبين بالمرسلين البيض ، والتقطوا كثيراً من أطفال الفقراء من المسلمين وأيتامهم ، ونشأوهم فى المدارس الدينية ، وقد جمعتنى الاقدار فى احدى مدن ايطالية بقائد الف فى

الجيش الايطالى كان يرغب الىّ أن أرسله الى احدى الحكومات الاسلامية لاجل الخدمة فيها فسألته عن سبب هذا الحنين ، فاجابنى انه مسلم مغربى ، وكانت سحناؤه تدل على ذلك ، فقلت له وكيف صار ضابطا فى الجيش الايطالى ، فقال لى انه تربى فى احدى تلك المدارس على أن يجحد الاسلام ، ويتجنس باحدى الجنسيات الثلاث الكاثوليكية : الفرنسوية ، والايطالية ، والأسبانيولية . فهو يومئذ اختار الايطالية ولكنه اليوم يبغى الرجوع الى أصله

وبالجملة فانه وان كانت الحكومة الفرنسوية غير دينية فى بلادها الأصلية ، فهى فى الخارج سائرة على قول غمبتا : « عداوة الدين ليست من بضائع التصدير » . وهذا مرجعه الى سببين أحدهما أنها تعتقد أن الدعوة الدينية قد تكون عضداً للحركة الاستعمارية،ومن هذا الباب كان جذب فرنسا بضبع الجزويت فى سورية ، مع أن الجمهورية تناصب هؤلاء العداوة فى فرنسا ، والثانى أن أكثر النفوذ فى المستعمرات انما هو للقوة العسكرية ، وأكثر أمراء الجيش تجدهم من الحزب الكاثوليكى . ومما لا ينبغى أن ننساه أن الفرنسيس قلبوا كثيراً من مساجد الاسلام فى الجزائر كنائس . فجامع القشاوة فى نفس مدينة الجزائر هدموه وبنوا محله كنيسة ، والمسجد المسمى بمسجد «ميزومورتو» حولوه كنيسة ، وكثير من الجوامع حولوها ثكناً عسكرية وانباراً ، وكان فى مدينة الجزائر يوم فتحوها ١٧٦ مسجداً وزاوية فلم يبق منها الا ٤٨ فقط . وأما الأوقاف وما استولوا عليه منها فذلك شرحه طويل ، لا يسعه هذا المكان ، وقد تقرأ فى التآليف الرسمية عن حالة الجزائر ما يخيل لك أنه وان كان لا أثر للمساواة بين الأوربيين والمسلمين فى الادارة ، ولا فى القضاء ، ولا فى الهيئة الاجتماعية ، فهناك شئ من الاعتناء بحالة المسلمين ، ومن النظر فى رفاهيتهم وسعادتهم ولكن اذا سألت هؤلاء أو قرأت مؤلفات الأحرار من الفرنسيس أنفسهم ، تعلم من الحقائق ما يسوء كل ذى وجدان سليم ، وفى العام الماضى ذهب المسيو « فاليان كوتوريه » أحد النواب الشيوعيين فى البارلمان ، وساح مدة طويلة فى الجزائر وتونس فنشر فى جريدة « الأومانيته » مقالات متعددة عن درجة اهتضام أولئك الاهلين لا يبقى معها أدنى مجال للمكابرة . وحسبك أن ستمائة ألف ولد من أولاد الجزائريين لايجدون مكتباً يتعلمون فيه القراءة ، من أصلهم ستة آلاف فى نفس مدينة الجزائر ، فكيف يقال ان الحكومة تعتنى بهم .

وقد لجأ الفرنسيس الى وسيلة أخرى لتمكين قدم استيلائهم فى المغرب ، وهو زرع الخلاف بين العرب والبربر ، واقناع البربر بكون أصلهم من سلالة أوربية ، وان لغتهم غير عربية ، فلا ينبغى ان يتعلموا العربى . ومما لا يكتمه بعضهم ان على فرنسا قصر اللغة العربية ضمن حدود معلومة ، وحمل جميع من أصلهم بربر على اللغة البربرية ، وهذا ينافى دعواهم ، من كونهم انما يتوخون فى الاستعمار نشر المدنية ، لأنه مما لامشاحة فيه أن البربرية لا تصلح للمدنية بخلاف اللغة العربية التى تعد فى الدرجة الأولى من لغات الأرض شرقا وغرباً ، وانما هناك سبب آخر نأتيك منه بشاهد واحد :

قال « فيكتور بيكه » الفرنساوى فى كتابه المسمى (مراكش) Le Maroc, Par Victor Piquet الذى ظهر سنة ١٨١٨ ما ترجمته :

« ان البربر كان منهم مجوس ووثنيون ويهود ، وفى صدر النصرانيــة قبلوا الدين المسيحى لكنهم نسوه عنـد ما تمكنوا من الاستقلال . ثم دانوا بالاسـلام الذى ببساطة قواعده يستميل العقل ويرسخ فى جميع الأمم التى تدين به » .

ثم قال : « ان البربر أسلموا اسلاماً لا يزال مشوباً بأحوال وأوضاع خاصة بهم »

ثم قال : « ان العالم الاختصاصى فى أمور البربر المسيو « دوته » الذى جال بين قبائل البربر نوه بمحاسن سجايا هذا الشعب البربرى . وقال ان به مناط الآمال فى شمال افريقية »

ثم قال : « انه شعب يظهر عليــه الميل من نفسه الى المدنية الفرنسية . لذلك يجب علينا قبل كل شئ أن لا نعربه أكثر مما هو . ولأجل بلوغ هـذه الغاية يجب أن يحمل البربر على الثقافة الفرنسوية ، وأن يتكلموا بالفرنساوى قبل وصول الثقافة العربية واللسان العربى اليهم . وعلى هـذا الشكل يتحقق بلا ريب ــ أكثر ممـا هو مظنون ــ خيالنا العظيم بمراكش فرنسوية » .

ثم قال فى صفحة ٣٠٢ من كتابه :

« وفى النية تأسيس مكاتب فرنسوية بربرية فى الجهات التى لم تستعرب من بلاد البربر . وهـذا تصور حسن جداً لكننا لسوء الحظ قد تأخرنا فى انفاذه . فاذا كانت بلاد القبائل من الجزائر ليس فيها الا بعض أقوام من البربر . فان قسما عظيما من أهل المغرب الأقصى لا يعرفون العربيــة أو يتكلمون باللغتين البربرية والعربيــة ، وليس لنا أدنى

مصلحة أن ننشر بينهم اللغة العربية — لغة الجامعة الاسلامية — بل بالعكس » .

ولسنا ممن يقول ان جميع المفكرين من الفرنسيس هم على هذا الرأى من مناصبة اللغة العربية والشريعة الاسلامية بالوسائل الممكنة ، كلا فان فئة منهم تجنح الى الحرية التامة ، وتناضل دائما عن حقوق الأهالى ، وتعتقد عقم تلك الوسائل الاستعمارية ، ولكن مع الأسف لا تزال هذه الفئة هى الفئة القليلة ولا تزال الدولة لاولئك ، وأنت ترى أنه مع كل مساعى الفرنسيس فى مناصبة العربية والشريعة لم يقدروا أن يمنعوا الحركة الوطنية التى تتقوى يوماً فيوماً فى الجزائر ، مع أن أكثر القائمين بها هم ممن حصلوا جميع علومهم باللغة الفرنسوية »

ونود أن نلخص هنا فصلاً من كتاب « البسيكولوجيا السياسية » للفيلسوف الافرنسى الشهير غستاف لوبون وذلك فيما يتعلق بسياسة فرنسة الاستعمارية فى الجزائر . قال فى صفحة ٢٢٨ مايلى :

« إننى لاأتوخى هنا انتقاد الأشخاص وانما أريد انتقاد الآراء والمبادئ التى ينفذها الأشخاص بقطع النظر عنهم لأنى أعلم أن الضرورات السياسية لا المبادئ والنظريات هى التى تدير أعمال رجال السياسة . فليس على الأشخاص إذاً يجب توجيه الاعتراض فان هؤلاء مقيدون بمبادئ وأوضاع معلومة وان تغييرها فى غاية الصعوبة . ومن نظر الى ظاهر الشعب الافرنسى حسبه أشد الشعوب نزوعاً للثورة ولكن الشعب الافرنسى فى الحقيقة هو فى نفسه محافظ أكثر من كل شعب آخر

«لجزائر الغرب قطر مساحته كمساحة فرنسة ولكن سكانه قليلون بالنسبة الى سعة أرضه . وفيه خمسة ملايين من المسلمين تؤكد التقارير الرسمية أنهم مخلصون للحكومة الفرنسوية إلا انهم برغم اخلاصهم المزعوم يحتاجون الى ستين الف عسكرى لتقيمهم على الطاعة أى إلى جيش بمثله تقريباً تخضع انكلترة ٢٥٠ مليوناً من الهنود من هؤلاء ٥٠ مليوناً من المسلمين أشد مراساً من الجزائريين[1]

وبين هذه الخمسة الملايين من مسلمى الجزائر ثمانمائة ألف أوربى نصفهم افرنسيون

(١) غستاف لوبون عول على احصاءات قديمة والحقيقة أن عدد أهل الهند اليوم ٣٢٠ مليوناً منهم ٧٧ مليوناً مسلمون

والنصف الآخر طليان واسبانيون وغيرهم . وهؤلاء الأوربيون لا يختلطون فى النسب مع المسلمين وانما يختلطون بعضهم مع بعض بحيث يتكون منهم فى المستقبل شعب قائم بذاته

«أما المسلمون فثلثاهم بربر والثلث عرب والفوارق بينهم قليلة أهمها انقسامهم الى حضر وبدو »

«ولقد كتب المسيو « لوروا بوليو » Leroy Beaulieu من أساتيذ مدرسة «كوليج دوفرانس » كتاباً مهماً عن مسئلة الجزائر هو زبدة التعبير عن الرأى السائد فى فرنسة بشأن الجزائر والجزائريين وهو أنه يجب علينا « أن نفرنس المسلمين »

أما الكيفية التى يريدون أن يفرنسوا بها هؤلاء المسلمين فهى قريبة من طريقة الأمريكيين الأوائل فى اغتصابهم أراضى الأقوام الحمر فى أمريكا وتركهم اياهم أحراراً أن يموتوا جوعاً

«نعم هذه هى طريقتنا الادارية فى الجزائر وانظر كيف يصفها المسيو « ڤينيون » Vignon فى كتابه الذى هو من أهم الكتب فى هذا الموضوع . قال :

«لما رأت الادارة أن الولاة كانوا بعد كل ثورة يضبطون جانباً من أراضى القبائل رأت أنه يمكن أيضاً اعتيام أحسن الأراضى وتسليمها للمستعمرين « الكولون » ودحر القبائل الى الصحراء . وكلما كان العنصر الأوربى فى الجزائر ينمو كانت القبائل تخرج بالقوة من أراضى آبائها وأجدادها وتُدحَر الى الصحارى حتى خرجت قبائل بأسرها من بلاد كانت هى أوطانها ومساقط رؤوسها . ولا جرم أن نتيجة هذه السياسة التى استمرت نحواً من ثلاثين سنة على وتيرة واحدة لم تكن غير المنتظر . فان العربى المدحور بدون انقطاع الذى ليس آمناً ولاساعة أن يجنى ثمرة تعبه قدفترت همته وأصبح لايعتنى بحرث ولا زرع . ولو فرضنا أنه حرث وزرع فلم يكن له أن يسترجع البذر الذى زرعه فى الأرض لأن القبائل كانت قد أُخرجت من الأراضى الصالحة الخصيبة ودُحرت الى أراض جرداء محرومة من المياه لاتخرج مايقوم بقوت الزراع ولا ما يكفى لعلف مواشيهم . وهكذا كانت تزداد بغضاء الوطنيين للمستعمرين وتزداد الهوة الفاصلة بينهما عمقاً

«ولما قرر المجلس الاستشارى سنة ١٨٦٣ أن أصحاب الأملاك يلبثون متصرفين بالأملاك التى كانت فى أيديهم لم يمنع ذلك من تتبع سياسة دحر الأهالى الى الصحراء وانما

لجأوا فيها الى طريقة ثانية وهى تغيير الصيغة والاسم . فهى الآن تسمى « بالاستملاك لأجل المصلحة العمومية » وطريقة هـذا الاستملاك تمتاز بأمرين أحـدهما انها لاتجد أراضى للمستعمرين الامن أراضى المسلمين وانها تحدث دوائر استعمارية خالصة للأورببين لايحق لأهالى الجزائر المسلمين أن يسكنوا فيها كذوى أملاك[1] الثانى أن المسلم يأخذ تعويضا عن الأرض التى نُزعت من يده ٥٠ أو ٦٠ فرنكاً عن كل هكتار[2] فاذا كان الجزائرى المسلم يملك ٣٠ أو ٤٠ هكتاراً خرج منها بألف وخمسمائة فرنك . هذا كل مايحوزه لمعيشته طول حياته وهو مبلغ لا يقوم بأوَده أكثر من سنتين » . اه

قال : « ومن أغرب الحوادث التى جرت فى الجزائر وتجلى فيها استبداد الحكومة بافظع شكل الاستعمار الرسمى الذى أورد له المسيو ڤينيون أمثلة من أعاجيب الدهر من قبيل توزيع أراضى على أناس يعرفون من الزراعة بقدر ما يعرفون من لغة السنسكريت و بناء دور لم يبقَ فيها الآن ديّار وذهبت نفقاتها كلها سدىً . ولم تفد هذه التجاريب رجال حكومتنا أدنى عبرة لأنه من عهد قريب كان والى الجزائر يطلب من الحكومة ٥٠ مليونا لينزع بها أراضى من أيدى العرب و يبنى قرى للمستعمرين مكان قرى كانت قد خربت ولكن مجلسى البرلمان والسنات لحسن الحظ رفضا هذا الاقتراح خشية أن يؤدى تنفيذه الى ثورة

« فلا عجب اذا كنا بأعمال كهذه أنفقنا على استعمار الجزائر أربعة مليارات من خزانة فرنسة فضلاً عن دخل بلاد الجزائر

«فاننا مذ احتللنا الجزائر لم يوجد عندنا فى أمرها الا رأيان أحدهما أن نطرد العرب الى الصحراء ونأخذ أراضيهم والثانى أن نفرنسهم ونصبغهم بصبغتنا . فأما العرب فلم يتهيا طردهم كما كان المظنون لأن الصحراء لاتنبت مايعيش به هؤلاء وهم ملايين من النسم ولأن طردهم قولا واحداً لا يمكن بدون مقاومة منهم . وكذلك لم يتيسر لنا أن نفرنسهم كما ظننا لأن نقل أمة من عقلية نشأت عليها الى عقلية أخرى غريبة عنها شديد الامتناع

«فكل من هاتين الطريقتين مذمومة ولامصلحة لنا بها . ولاتزال فرنسة باستعمالها

---

(١) أى يسكنون فيها كفعلة لاغير

(٢) ثلاث ليرات عن مساحة ١٠ آلاف متر مربع فتأمل

تخسر وتضيع الى أن تفهم أن أمثل الطرائق هى ترك أهالى الجزائر على عاداتهم وعقائدهم وطرز معيشتهم كما هو عمل الشعوب المستعمرة كالانكليز والهولانديين فى مستعمراتهم فهى أبسط الطرق وأقلها خساراً وأعلاها حكمة

«ولكن الرأى العام فى فرنسة ضد هذا الأسلوب فى الاستعمار . وعندنا الناس لا يعرفون أهمية الأوضاع الدينية فى الشرق وان الحياة عند أتباع محمد كما عند أتباع سيوا (معبود الهنود) واتباع بوذا (معبود الصينيين) هى كلها جارية وفق أوامر دينية . وليس عند الانكليز من يعتقد أنه لأجل حياة مبدإ يجوز أن تموت بلاد .

«فنحن كان يجب أن تكون سياستنا تعزيز الديانة الاسلامية ورجالها بدلا من مناصبتها العداء وكذلك كان يجب علينا احترام العادات والمنازع والأوضاع العربية التى هى عند هذه الأمة من الدين . فالمسيو « لوروا بوليو » يسفه هذا الرأى ويقول « ان احترام منازع العرب وتقاليدهم وقواعدهم يوجب خروج جيشنا ومستعمرينا من افريقية . ولعمرى لم نجد تعليلا معقولا لهذه الدعوى . وهانحن أولاء نرى الانكليز يحترمون قواعد المسلمين وعقائدهم فى الهند وليس فى نية الانكليز أن يجلوا عن الهند» اه

ثم يذكر غستاف لوبون رأى « لوروا بوليو » فى البربر وزعمه انهم أوربيون وانه من الممكن كثيراً أن يتفرنسوا . وهو يهزأ برأيه هذا ويرد على زعم « لوروا بوليو » ان العرب كلهم رعاة وبدو ويقول ان القبيلين فيهما بدو وحضر بحسب طبيعة الأرض وان من العرب حضراً فى الجزائر كما فى سورية ومصر وجزيرة العرب . وان قابلية العرب للتمدن ثابتة بالحضارة الزاهرة التى كانت لهم ولم يكن مثلها للبربر

قال :« ثم يذكر « لوروا بوليو » من الأمور التى أوجبت تأخر العرب تعدد الزوجات ولا أريد الآن الخوض فى هذا المبحث ولكنى أكتفى بالقول ان تعدد الزوجات الشرعى عند المسلمين أفضل من تعدد النساء بدون صورة شرعية عند الأوربيين وماينشأ عن ذلك من الولادات غير المشروعة . ولقد أعطيت هذا البحث حقه فى كتابى « تاريخ مدنية العرب » وأثبتُّ أنه فى ممالك العرب تعلمت نسوة تحت الحجاب ونبغ منهن مثلما نبغ من مدارس الاناث فى عصرنا »

ثم قال : « لقد تحقق الآن ان تعدد الزوجات لم يكن فى يوم من الأيام سبباً فى جمود المسلمين . أيلزم أن ننبه قومنا الى أن العرب وأن العرب وحدهم هم الذين عرّفونا بالعالم اليونانى اللاتينى وان جامعات اوربة ومن جملتها جامعة باريز بقيت مدة ستة قرون متوالية تعيش بتراجم كتب العرب وتطبيق قواعدهم العلمية . نعم لقد كانت المدنية العربية من أبهر المدنيات التى عرفها التاريخ ولقد ماتت كما مات غيرها ولكن تعليل موتها بكونه من نتائج تعدد الزوجات ليس فيه شئ من التدقيق »

ثم قال : « وقد عدّ « لوروا بوليو » الثقافة اللاتينية من جملة العوامل التى يجب أن نعتمد عليها فى استجلاب العرب الينا . وهذا هو الرأى السائد فى فرنسة اليوم وقد كنت أنا نفسى من القائلين به ولم أعدل عنه الا باسفار ومراقبات كثيرة . ومع انى لا اؤمل أن أهدى طريق قارئاً افرنسياً واحداً فانى أرى الموضوع أجل من أن لا اصارح فيه بكل أفكارى . ولقد خصصت الفصل الآتى من كتابى هذا بهذا المبحث وسيجد القارئ أن الثقافة الاوربية بعيدة عن اصلاح حالة الشرقيين بل هى أجدر بأن تزيدهم بؤساً فى مادتهم ومعناهم . فان هذه الثقافة التى هى نتيجة احساساتنا واحتياجاتنا نحن منذ قرون وأعصر لم تكن لتطابق احساسات أقوام آخرين واحتياجاتهم فتكون نتائج تطبيق ثقافة مخالفة لأذواقهم وشواعرهم واحتياجاتهم هى تجريدهم دفعة واحدة سواء كانوا عرباً أو هنوداً أو شرقيين آخرين من أفكارهم وعقائدهم الموروثة التى عليها قائم بناء وجودهم. فان صح حلم « لوروا بوليو » وأمثاله ممن يشيرون بتنشئة العرب فى الثقافة الاوربية فان الجزائر تكون لنا ما كانت البندقية لاوستريا وايرلاندة لانكلترة والالزاس لالمانيا

«ان مؤرخينا يندبون فقدنا الهند بعد أن كنا فتحنا جانباً منها. وأنا أقول : لا ينبغى لنا كل هذا الأسف لأنه لو بقيت لنا الهند وأخذنا نديرها كما ندير سائر مستعمراتنا الآن أى بالمبادئ والطرق التى يشير بها « لوروا بوليو » لما طال الأمر حتى اشتعلت بها الفتنة وعم الخراب وخرجت من يدنا .

«ولقد طبقوا فى الهند الصينية وفى السودان والسنيغال هذه السياسة بعينها أى حمل الأهالى الوطنيين على أوضاعنا وقوانيننا فجاءت باقبح النتائج وكرّهتنا الى أولئك الأقوام

وأفقدتنا الأموال والرجال »

الى أن قال : « لقد أثبت التاريخ ان مدنيّتين مختلفتين تمام الاختلاف لاتندمجان وأنه مارؤيت الأمة المغلوبة مندمجة فى الغالبة الا اذا كانتا متشابهتين من الأصل . فالشرقى يندمج فى الشرقى أما فى الغربى فلا . وهذا هو سر نفوذ العرب فى الشرق وفى الصين وفى الهند وفى افريقيــة فانهم كانوا كيفما تقلبوا طبعوا تلك الأمم بطابعهم وأعطوها صبغتهم وحيث حلت حضارة الاسلام ظهر أنها استقرت وثبتت . فهى فى الهند قد غلبت على حضارات أقدم منها وهى فى مصر قد عرَّبت بلداً دخــل فيه الفرس والرومان واليونان ولم يؤثروا فيها الا قليلا . واننا لنجد الاسلام يتقدم فى الهند والصين وفى القارة الافريقية وهذا برغم معاكسة المبشرين بالانجيل المنبثين فى كل مكان .

« ان الاوربيين مستعمرون ماهرون بدون نزاع ولكن من بعد رومة العظمى لم يأت ممدنون بالفعل أقدر من المســلمين الذين تمكنوا من أن يحملوا أمماً كثيرة على دينهم وشريعتهم وصناعاتهم

« والاوربيون نظير الانكليز فى الهند يقدرون أن يتغلبوا على شعوب شرقية هى متأخرة عنهم فاما محاولة تغيير عقلية هذه الشعوب فليست مما ينال لأن الفرق بينهم و بيننا فى الأذواق والمشارب والشواعر والاحتياجات عظيم جداً لايتأتى قطع مراحله الا بأعصر طويلة ولأن مايلزم لهم لايلزم لنا . ولقد كنت أقضى العجب من أن أرى المتأدبين الشرقيين الذين زاروا أوربة هم أقل الشرقيين افتتاناً بحضارتها . وكنت أجدهم يرون دائماً الشرقى أسعد وأصلح وأقوم من الاوربى مادام لم يتصل به » انتهى ببعض اختصار

وفى الصفحة ٢٥٣ قال غستاف لوبون :

« ان الرأى الذى أنا مبديه فى استحالة صبغ العرب بصبغتنا واقامتهم على ثقافتنا ليس هو رأياً خاصاً بى بل تجده عند جميع الاوربيين الذين ساحوا فى الجزائر واطلعوا على امورها حق الاطلاع ونظروا الى الحقائق كما هى لا كما هو الهوى . وهو أيضاً رأى الأدباء الراسخين من العرب . ولقد شافهت من المسلمين عدداً لايحصى من مراكش الى أقصى آسية ورأيتهم مجمعين على أن التربية الاوربية للمسلمين تزيدهم عداوة لاوربة وقد تكون

عداوتهم من قبل فاترة أو غير موجودة . ولقد أكد لى أرباب المعرفة من المسلمين الذين حادثتهم ان النتيجة الوحيدة لتعليمنا ناشئتهم هى افساد أخلاقها ، وايجاد احتياجات لم تكن بضرورية لها وايجاد روح الثورة فيها . وأنا على ثقة ان التربية الاوربية ان تمت وعمت فى الجزائر تـكون نتيجتها صوتاً صارخاً من جميع مسلميها : «الجزائر للعرب» . وذلك كما ان جميع الهنود المتعلمين يصرخون بصوت واحد الهند للهنود » اه

وفى الصفحة ٢٦٣ يتكلم غستاف لوبون عن عقم مساعى المبشرين المسيحيين وكيف ان عـدد الذين نصّر وهم هو قليل جداً بالقياس الى الملايـين والملايين الـتى بذلوها وان المتنصرين لايكونون الا من أدنى الطبقات . و يفيض فى هذا الموضوع . ثم يذكر على سبيل الاستشهاد الأربعة آلاف يتيم مسلم الذين رباهم الـكردينال لافيجرى فى الديانة المسيحية فقد كانوا فى محيط منقطعة فيه جميع علائقهم مع المسلمين وقد تلقوا التربية المسيحية بكل معناها وما بلغوا الرشد حتى عادوا الى الاسلام دين آبائهم الا النادر منهم » اه

بلاد الطاغستان والشيخ شامل

للأمير شكيب

على الضفة الغربيـة من بحر الخزر بين ٤٣ و ٤١ من العرض الشمالى بـلاد يقال لها طاغستان مساحتها نحو ٢٩٧٦٣٠ كيلو متر مربع وعـدد نفوسها سبعمائة ألف ، أما اذا انضم اليها جميع بلاد القوقاس الشمالية فيقال ان أهلها يبلغون مليونين الى ثلاثة . وقد فتح العرب فى خلافة هشام بن عبد الملك الطاغستان سنة ١٠٥ للهجرة و وطد أخوه مسلمة الحـكم العربى فى تلك الديار ، وكانوا يلقبونها بالدر بنـد ، وكانت ثغرا من ثغور العرب ومنها انتشر الاسلام فى تلك الاقطار ، وكان الاهالى من قبـل وثنيين ونصارى ويهوداً . و روى المؤرخون ان احـد ملوك تلك الامة صاحب مملـكة خيدان كان يقيم شـعائر الملل الثلاث فيصلى يوم الجمعة مع المسلمين والسبت مع اليهود ، والاحـد مع النصارى . وكان فى تلك الاقطار عدة ملوك يلون عدة شعوب صغيرة معروفة باسم اللزقيين ، ولما اجتاح المغول بلدانهم كان أكثر هؤلاء صاروا مسلمين ، ولما كانت غارة تمرلنك (سنة ١٣٩٥ مسيحية) كان أشهر شعوب الطاغستان قبيلين أحـدهما القايتاق ، والآخر القومق ويقال لهم غازى قومق ، وكان حكم القايتاق الذى يلى الدر بنـد فى يد السلطان طوقتاميش شرف الدين اليزدى ، وكان ملك القومق يسمى بالشامكال أشبه بلقب كسرى لفارس وفرعون لمصر ، وكان هؤلاء من أشد أنصار الاسلام وأحسهم فى بث دعوته . وفى سنة ١٥٧٨ استولى على هاتيك البقاع الاتراك العثمانيون ولـكن لم تطل فيها مدتهم . وأكثر أشراف الطاغستان يدعون انهم من أصل عربى وان آباءهم قدموا مع مسلمة بن عبد الملك واحياناً يخلطون معه أبا مسلم ويجعلون قبره فى مدينـة غنزاق ويقولون انه هو بانى الجامع الأول فى بلاد القمق . وقد صادفت فى الروسية بعض أشراف الطاغستان فقالوا لى ان أصلهم من العرب يوم فتحوا الدر بند وهم يفتخرون بذلك . واشتهر من ملوك القايتاق السلطان أحمد خان المتوفى سنة ٩٩٦ هجرية أى ١٥٨٧ مسيحية وهو الذى يقال انه بنى مدينة « المجالس »

لأنه كان يجتمع فيها شيوخ الأمة و يتفاوضون فى الأمور العامة . وفى سنة ١٦٤٠ انفصلت فرقة من القايتاق وانتجعت الأراضى الواقعة جنوبى الطاغستان وأمرت عليها حسين خان ، فجعل مركز امارته ساليان وكوبا ، ومن هذا الفرع ظهر فى القرن الثامن عشر فتح على خان أمير كوبا والدربند

وقد طمع الروس فى الاستيلاء على الطاغستان منذ أواخر القرن السادس للمسيح فلم يفلحوا وهزمهم أولاد الشامكال وأخرجوهم من بلد سولاك التى كانوا احتلوها ، ثم سنة ١٦٠٤ كروا ثانية على الطاغستان وقصدوا بلدة طاركهو فلم يفوزوا بطائل

وكان الشامكال قد خضع لآل عثمان ، وتبعه أمير تابازاران ، والأمير الآخر الملقب بالعصمى ، فلما زحف الشاه عباس سلطان العجم على هذه البلاد سنة ١٦٠٦ انحاز اليه العصمى رستم خان و بقى الشامكال متمسكا بالعثمانيين الا أن رستم خان انحاز أخيراً الى هؤلاء فخالفه الشامكال الى سلطان العجم ولما ضعف أمر الدولة الصفوية فى فارس ثارت أهالى الطاغستان ونبذت طاعة الفرس ، واستقل سركاى خان بامارة القومق . ثم تحالف هو والأمير الملقب بالعصمى ، والمدرس الحاج داود ، ممن كان مطاعا بين العامة واستولوا على شامكى ثم أرسلوا الى استانبول يطلبون من الدولة أن ترسل اليهم خلع الولاية وتعرفهم من رعاياها . فاحتج بطرس الأكبر صاحب الروسية بأن ثلاثمائة تاجر روسى قد قتلوا يوم فتح شامكى وساق جيشاً استولى على الدربند وسائر سواحل الخزر الغربية (١٧٢٢) الا ان نادر شاه صاحب فارس غزا هذه البلاد واسترجع أكثرها من أيدى الروس (١٧٣٥) وزحف تتر القريم التابعون للدولة العثمانية على الطاغستان فى تلك الأثناء ففشلوا ، و بقى الحكم هناك للعجم لكن المملكة الفارسية بعد نادر شاه تضعضع أمرها ، فتقلص ظلها عن الطاغستان ، و زحف الروس ثانية فاجتاحوا البلاد سنة ١٧٧٥ وفى سنة ١٧٨٤ خضع لهم الشامكال مرتضى على و بعد ذلك استولوا على القوقاس ، فتمكنت قدمهم فى الطاغستان ولما استولى آل قاجار[1] على فارس أحبوا أن يستردوا حقوق فارس على الطاغستان فاشتعلت الحرب بينهم و بين الروس ولم تنته الا سنة ١٨٠٦ اذ فاز الروس بالاستيلاء على هذا القطر ، وسنة ١٨١٣ نزل لهم العجم عن كل حق لهم فيه

---

(١) الأسرة المالكة فى ايران عند كتابة هذه السطور

ولما تخلى الترك من جهة والفرس من جهة عن الطاغستان ، عقد أمراء البلاد محالفة فيما بينهم على مناهضة الروس فاشتبك القتال بين الفريقين ، وتجشمت الروسية كلفا عظيمة الى أن تمكنت من تدويخ البلاد فألغت لقب العصمى من أمراء قايتاق (١٨١٩) ولقب المعصوم أمير تبازاران (١٨٢٨) وجعلت لدى الأمراء الباقين ضباطاً روسيين يأخذون على أيديهم ، فاستسلموا جميعاً للحكومة الروسية ، فثار الشعب على الروس وعلى الأمراء وتولى كبر الثورة علماؤهم وشيوخ الطريقة النقشبندية المنتشرة هناك ، وكأنهم سبقوا سائر المسلمين الى معرفة كون ضررهم هو من أمرائهم الذين أكثرهم يبيعون حقوق الأمة بلقب ملك أو أمير ، وتبوء كرسى أو سرير ، ورفع علم كاذب ، ولذة فارغة ، باعطاء أوسمة ومراتب ، فثاروا منذ ذلك الوقت على الأمراء وعلى الروسية حاميتهم ، وطلبوا أن تكون المعاملات وفقاً لأصول الشريعة لا للعادات القديمة الباقية من جاهلية أولئك الأقوام ، وكان زعيم تلك الحركة غازى محمد الذى يلقبه الروس بقاضى ملا ، وكان من العلماء المتبحرين فى العلوم العربية ، وله تأليف فى وجوب نبذ تلك العادات القديمة المخالفة للشرع اسمه « اقامة البرهان على ارتداد عرفاء طاغستان »

وفى ٢٩ تشرين الاول سنة ١٨٣٢ بعد جهاد طويل احيط بغازى محمد فى قرية جيمرى ، واستشهد فى معمعة القتال رحمه الله ، فخلفه حمزة بك الذى استشهد أيضا رحمه الله بقرب غنزاق بعد ذلك بسنتين ، فتولى زعامة الثورة الشيخ شامل افندى المقصود بهذه الترجمة . وهو على نمط الامير عبد القادر الجزائرى ، خرج من المشيخة الى الامارة ، وتناول السيف من طريق القلم . ولم يدن الشيخ شامل فى سعة علم سلفيه ولكنه كان احسن منهم ادارة للامور ، و بصيرة بالحروب ، فشمر عن ساق الجهاد والتف ذلك الشعب الأبى من حوله ، فذب عن حوض ملته نحو ٣٥ سنة ظفر فيها بالروس فى وقائع عديدة والقى الرعب فى قلوبهم . وجلاهم عن جميع البلاد الا بعض مواقع ثبتوا فيها فى الناحية الجنوبية وكانت أعظم الدبرات التى والاها عليهم هى فى سنتى ١٨٤٣ و ١٨٤٤ حيث افتتح جميع الحصون التى كانت لهم فى الجبال وغنم منهم ٣٥ مدفعاً وأعتاداً حربية ومؤناً وافرة ، وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى ، فجردت الروسية بعظمة ملكها وسلطانها جيوشا جرارة ونادت هى بالجهاد فى الطاغستان . ونظم شعراء الروس القصائد فى وصف تلك الحروب ،

وما زالت توالى الزحوف حتى تمكنت من البلاد ولكن بقى الشيخ شامل عشر سنوات يناوشها القتال فى الجهات الغربية من الجبال ولم يسلم هذا المجاهد العظيم للروس الا فى ٦ ايلول سنة ١٨٥٩ فعمد الروس على أثر تسليمه الى اعادة سلطة الأمراء ليتمكنوا بهم من خضد شوكة العلماء الذين لم تمن المقاومة الا بهم ومنهم . ولكن لما استتب لهم الامر بواسطة هؤلاء الامراء عادوا فخلعوهم هم أيضا كما هى العادة بأن هذه الدول تبدأ اولا باستعمال نفوذ الامير الوطنى فى اغراضها . وتصريفه فى حاجاتها ، حتى اذا قضتها كلها رجعت اليه ونبذته نبذ الحصاة ، وذهب يقرع سن الندم على استرساله اليها واعتماده عليها ، ففى عام ١٨٦٢ استأصلت الحكومة الروسية جميع ما كان بقى من جرائيم الامارة الاهلية وأنزلت اولئك الامراء حتى عن كراسيهم الوهمية . و بقى الامر كذلك الى سنة ١٨٧٧ اذ نشبت الحرب بين الروسية والعثمانية فثار الطاغستانيون وافتتحوا قلعة القومق ، ورفع ابناء البيوتات التى كانت مالكة من قبل أعلام الثورة ، واستعادوا لقب العصمى ، ولقب المعصوم ، ولكن لما دارت الدائرة على الدولة العثمانية فى تلك الحرب ، تمكن الروس من قمع الثورة بدون عناء كبير

ولما انحلت الحكومة الروسية القيصرية ، وقامت الحكومة البولشفيكية سنة ١٩١٧ محلها وأعلنت استقلال الأمم المهضومة ، وخيرت الشعوب التى كان القياصرة الروس قد أخضعوها بحد السيف بين أن تبقى منضمة الى الروسية الأصلية ، أو تنفصل عنها ، كان أهالى بلاد القوقاس أجمعين ممن أعلنوا استقلالهم التام ، فتألفت جمهورية فى كرجستان ، وأخرى فى الطاغستان ، والثالثة فى آذر بيجان ، والرابعة فى أريفان ، وأوفدت كل من الجمهوريات الأربع وفودها الى الاستانة لمفاوضة الأتراك والألمان فى الاعتراف بهذه الجمهوريات الاربع ، وصار الحديث فى ارتباطها بعضها ببعض بشكل حلفى ، وكان الوفد الطاغستانى الجركسى مؤلفاً من عبد المجيد بك ، وعلى بك ، وحيدر بك بامات الذى كان ناظر الخارجية الطاغستانية . وما مضت مدة قصيرة حتى داخل الكرج الدولة الالمانية وطلبوا حمايتها فاعترفت لهم بالاستقلال دون غيرهم واحدث ذلك خلافا بين الاتراك والالمان لان تركيا تقاضت حليفتها المانيا الاعتراف باستقلال الجمهوريات الثلاث الباقية حتى ان طلعت باشا الصدر الأعظم يومئذ سعى لدى ألمانيا فى معرفة استقلال جمهورية اريفان الارمنية التى كانت

تتقرب من الدولة العليـة ، وكان رجال الدولة يريدون بمساعدتها اصلاح ذات البين بينهم وبين الأرمن فتقدم أنور باشا الى هذا العاجز أن أذهب الى برلين وأتـكلم فى هذا الموضوع وأقنع نظارة الخارجيـة الألمانية بلزوم المساواة بين جمهوريات القوقاس كلها ، والا لم يكن مناص من الاختلاف . وكلفنى الوفد الطاغسطانى أيضاً أن أهتم بقضيتهم نوعاً لأنهم حسبوا أن الترك قد يصرفون معظم عنايتهم فى مصلحة جمهورية أذربيجان التركيـة فقط فبذلت فى تلك الأيام جهدى مع نظارة الخارجية فى برلين فى تمهيد الخلاف ، وكان أكثر الكلام مع فون روزنبرغ الذى كان مديراً للامور الشرقية ، وهو هو اليوم بينما أحرر هذه الأسطر ناظر الخارجية الألمانية . ولم يلبث أن حضر الى برلين طلعت باشا والكونت برنستورف سفير ألمانيا فى الاستانة ، واشتركنا فى حل هذه المسائل جميعاً وتم الاتفاق لولا أن الحرب فى الجبهة المقدونية جاءت بما لم يكن فى الحساب . وطلبت بلغاريا الهدنة ، وابتدأت نهاية الحرب فوقف كل شئ من جهـة ألمانيا وتركيا ، واحتل الانكليز القوقاس ، وعلق القوقاسيون عامة آمالهم بانـكلترة أنها تعترف باستقلالهم وتوطد لهم حكوماتهم ، لا سيما أنهـا كانت تعطف على الطاغستانيين قديماً أثناء مقاومتهم الطويلة للروس فـكان الأمر بالعكس اذ حصرت انـكلترة جهودها فى مناهضة البولشفيك واعادة الحـكم الامبراطورى على أصله وأمدت الجنرال دنيكين عدو هؤلاء بالمال والسلاح ، فما بدأ الجنرال بالحرب مع البولشفيك حتى غزا الطاغستان وحاول القضاء على استقلالهم فجرت بين الفريقين الوقائع الداميـة ، وما زالت الى أن انقضى أمر دينيكين ، واستتب الأمر للبولشفيين أنفسهم ، فجرد هؤلاء جيوشاً على جمهوريات القوقاس الأربع . فقبضوا على أزمتهـا وألحقوها بحكومة موسكو خلافاً لوعدهم الأول ، وثار أهالى الطاغستان عليهم فتغلبت الحـكومة البولشفية على الثوار وقبضت على بعضهم وألقتهم فى السجون ، وشرد قسم من رؤساء الحـكومة المستقلة ، ومنهم عبد المجيد بك وصديقنا حيدر بك بامات الى أوربا ، حيث يواصلون مساعيهم لأجل قضيتهم القومية الى يومنا هذا .

وبلاد الطاغستان متعددة اللغات فمنها لغة الآقار ، ولغة القومق ، ولغـة القايتاق ، ولغة الدارغا ، ولغة تابازاران ومنهم من يتـكلم بلغة فارسـية ، وفى الدردبند والسواحل يتـكلمون بالتركيـة الاذرية أى الجغطاى ، وهى أرقى جداً من اللغات السابقة الذكر ،

ولكن لسان العلم فى جبال الطاغستان هو اللسان العربى ، وهو اللسان الذى يتكاتب به أعيان تلك الأمة ، وقد صادفت سنة ١٩١٩ الوفد الطاغستانى الجركسى فى « برن » قاعدة سويسرة ولزمتهم مكاتبات الى رؤساء بلادهم ، فكلفنى حيدر بك بامات بتحريرها لهم بالعربية الفصحى ، وكثير من علماء طاغستان معدودون من علماء العربية .

قد حرر تاريخ الطاغستان كثير من مؤرخى الألمان والروس والفرنسيس مذكورة أسماؤهم فى دائرة المعارف الاسلامية الفرنسوية ، ولصديقنا الاستاذ عزيز بك مكير ناموس السفارة التركية الحالية بموسكو وأحد فضلاء الأمة الجركسية ، رسالة باللغة الفرنسوية وافية بأخبار تلك الأمة . ولميرزا حسن افندى ابن الحاج عبد الله افندى الأقدرى الطاغستانى تاريخ باللهجة الآذرية اسمه « كتاب آثار طاغستان » طبع فى بطرسبرج سنة ١٨٩٥ ولم يسمح الروس بنشره الا سنة ١٩٠٢ بعد رفع المراقبة عن المطبوعات ، ومحرر هذا التاريخ كان ممن اشترك بثورة ١٨٧٧ ونفاه الروس مدة مديدة .

وقد عرفت فى المدينة المنورة قبل الحرب العامة بأشهر كامل باشا حفيد المرحوم الشيخ شامل ، وانعقدت بيننا الصحبة لما رأيت من حسن أخلاقه ، ولما نشبت الحرب الكبرى استدعته الدولة الى الاستانة وكانت له مواقف فى خدمتها تليق بمن كان حفيدا لذلك الجد الأمجد .

المهدى المنتظر

للأمير شكيب

اتفقت الأديان السماوية الثلاثة على ظهور واحد فى آخر الزمان . فاليهود لايزالون منتظرين المسيح الذى يجدد ملكهم قبيل انقراض الدنيا . والنصارى يرون فى عيسى عليه السلام المسيح الذى بشرت به الأنبياء ويقولون برجوعه فى آخر الوقت لابادة الدجال الذى ينبئ به يوحنا . والمسلمون أيضاً عندهم المهدى الذى يظهر قبل قيام الساعة ليملأ الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت جوراً وظلماً . ويروون عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال مامعناه لاتقوم الساعة حتى يخرج من ذريتى رجل اسمه كاسمى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً ويظهر الاسلام على الدين كله . وبعضهم قال ان المهدى الذى سيظهر فى آخر الزمان هو عيسى عليه السلام . وبعضهم قال بل هو على بن أبى طالب . والشيعة الامامية يقولون انه محمد الحجة ابن الحسن العسكرى ، بن على النقى ، بن محمد التقى ، بن على الرضا ، بن موسى الكاظم ، بن جعفر الصادق ، ابن محمد الباقر ، ابن على السجاد زين العابدين ، ابن الامام الحسين السبط ، ابن سيدنا الامام على رضى الله عنه وعنهم جميعاً ، وان محمد الحجة هذا دخل مع أمه صغيراً سرداباً بالحلة من أرض العراق واختفى فهم ينتظرونه الى الآن . قال القلقشندى فى صبح الاعشى : ويقال أنهم فى كل ليلة يقفون عند باب السرداب ببغلة مشدودة ملجمة من الغروب الى مغيب الشفق ، ينادون أيها الامام قد كثر الظلم ، وظهر الجور ، فاخرج الينا . وروى ياقوت أنهم كانوا فى قاشان من بلاد العجم يركبون كل صباح الى لقائه ، وذلك فى أواخر القرن الخامس للهجرة . وروى ابن بطوطة انه لما مر بالحلة رأى مسجداً مسدولا على بابه سجف من الحرير ، وأنه كان يأتى كل يوم مائة رجل متقلدين السلاح فيصلون العصر ، ثم يذهبون الى قائد البلد ، فيعطيهم بغلة ملجمة مسروجة فيطوفون بها ، وهم يطبلون ويزمرون ، حتى اذا انتهوا الى باب ذلك المسجد نادوا : ياامام الزمان اخرج فان الظلم قد ظهر ، والفساد قد كثر .. الخ .

والفرقة الكيسانية يجعلون المهدى محمداً بن الحنفية[1] وينتظرونه ويقولون انه لم يمت وانه مختف فى جبل رضوى ، بين المدينة وينبع . وكان عند ملوك الصفوية فى العجم عادة ، وهى اسراج رأسين من الخيل معدين دائماً فى القصر لاستقبال المهدى وعيسى المنتظر مجيئهما كل ساعة . وهذا يشبه عمل بعض المتهوسين من الافرنج الذين يقيمون بالقدس منتظرين مجىء السيد المسيح ويوم الدينونة . روى هوارت Huart الفرنساوى صاحب تاريخ العرب المطبوع سنة ١٩١٣ أن انكليزيا ورد بيت المقدس وأقام بالوادى الذى يقال انه ستكون به الدينونة ، وشرع كل صباح يقرع الطبل منتظراً الحشر . وسمعت أن امرأة « انكليزية فيما أظن » جاءت القدس وكانت تغلى الشاى كل يوم لأجل أن تقدمه للسيد المسيح ساعة وصوله وحدث لامرتين الشاعر الفرنسوى العظيم فى رحلته بجبل لبنان أنه زار فى قرية جون السيدة استيرستانهوب ابنة أخى بيت Pitt الوزير الانكليزى الشهير فرأى عندها فرساً مسرجاً دائماً ليكون ركوبة للسيد المسيح المنتظر وصوله .

وقد استخدم قضية المهدى كثير من الدول الاسلامية لترويج دعواتها فالدولة الفاطمية عند ماظهرت بتونس ادعت أن عبيدالله مؤسسها هو المهدى . ومحمد بن تومرت لما قام بمصمودة فى المغرب قام بالدعوة الى المهدى ، وبها تأسست دولة الموحدين بنى عبد المؤمن . وقام فى أيام الدولة المرينية بفاس رجل اسمه التويزرى أصله من توزر من تونس وادعى أنه المهدى واعتصم برباط حصين اسمه (ماسا) بالسوس الأقصى . واعصوصب حوله رؤساء صنهاجة فقتله المصامدة.وكذلك ظهر رجل آخر اسمه العباس بين سنتى ٦٩٠و٧٠٠ للهجرة فى نواحى الريف من الغرب وقال انه المهدى وثار معه جماعة فقتل وانتهى أمره . وظهر فى السنيغال سنة ١٨٢٨ ميلادية رجل ادعى أنه المهدى وأحدث ثورة ثم انكسر وذهبت ريحه . ولما احتل الفرنسيس مصراً فى زمان بونابرت قاتلهم بين دمنهور ورشيد رجل مغربى من طرابلس ادعى أنه المهدى ومازال يقاتلهم حتى قتل .

وبعد ثورة أحمدعرابى بمصر ظهر فى السودان رجل اسمه محمد أحمد ادعى أنه المهدى ويقال ان والده كان يسمى عبدالله وأمه كانت تسمى آمنة ، وكان له أخوان أكبر منه يصنعان السفن فى النيل الأبيض ، فأرسلاه يحصل العلم فى نواحى الخرطوم ، ولما بلغ الخامسة

(١) أحد أولاد سيدنا على

والعشرين من سنه انقطع الى العبادة فى أحد الكهوف ، وظهر من ورعه وزهده ماتحدث به الناس فاتبعته قبيلة البقارة وهى قبيلة عظيمة عربية الأصل من جهينة فنصرته وقالت انه هو المهدى . وأعلن هو ذلك سنة ١٣٠٠ هجرية . وكان رؤوف باشا والى السودان المصرى أرسل ٢٠٠ جندى للقبض عليه ، فقتلهم جماعة محمد أحمد جميعاً ، وانحاز هذا الى جبل هناك والتف حوله السودانيون فجردت الحكومة المصرية جيشاً تحت قيادة جيفلر باشا البافارى فهاجمه نحو ٥٠ الف سودانى وأبادوه ، ولم ينج من المصريين سوى ١٢٠ رجلا، فدخل المهدى الأبيض سنة ١٨٨٣ فى ١٧ كانون الثانى وجعلها كرسى حكمه . فجردت الحكومة المصرية جيشاً آخر بقيادة هيكس باشا فأباده السودانيون أيضاً وأخيراً أبادوا قوة غوردون باشا فى الخرطوم ، واستولوا على السودان كله . وبعد موت المهدى خلفه التعايشى أحد زعماء قبيلة البقارة ، واستفحل أمره فأشار الانكليز على مصر « والاشارة هنا بمقام الأمر » أن تتخلى عن السودان وتتركه وشأنه ، ولم يكن ذلك الاتوطئة لفتوحهم هم للسودان ، فانهم مالبثوا أن جردوا جيشاً من المصريين يقوده ضباط انكليز رئيسهم الجنرال كتشنر فاستفتحوا السودان برجال مصر ومال مصر ، وعادوا يقولون للمصريين ان السودان مشترك بيننا وبينكم ، والحقيقة أن لاحق لهم بهذه الشركة ، لأن السودان كله لمصر ولاتستغنى عنه مصر طرفة عين فضلا عن كون هذه الشركة هى اسمية ، لأن كل شئ فى السودان هو فى يد انكلترة ، ومن ولى أمر السودان فقد أخذ بمخنق مصر ، لاتملك هذه معه أن تصعد نفساً ، ولذلك مسئلة السودان هذه هى العقدة الكبرى المعضلة الواقفة فى وجه حل المسئلة المصرية بين انكلترة ومصر ، واذا تخلت مصر عن السودان فقد تخلت عن نفسها .

افغانستان

للامير شكيب

هنا موقف عظيم من أعظم مواقف الاسلام فى العالم ، ومعترك شهير من أجل مقاماته فيما حدث ، فضلا عما تقادم ، ولعمرى لولم يبق للاسلام فى الدنيا عرق ينبض ، لرأيت عرقه بين سكان جبال الحلايا والهندكوش نابضاً ، وعزمه هنالك ناهضاً ، ألا وانه من هناك غزا الفاتح العربى محمد بن القاسم فى صدر الاسلام الهند ، وفتح السند (٧١٢ ميلادية) ووصل الى حدود الملتان ومن تلك الجبال انحدر ذلك المجاهد الكبير اسكندر الاسلام ، وحامى المعارف والعلوم فى عصره ، السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى التركى ، فى أوائل القرن الحادى عشر للميلاد ، ودوخ الهند من أقصاها الى أقصاها ، وتألب عليه رجاوات (ملوك) لاهور ، وانانغبال ، ودهلى ، واجمير ، وقنوج ، وغفاليور ، وكالنجار ، واودجين ، حزمةً واحدةً ، و وقف العالم البراهمى بازاء العالم الاسلامى ، واصطفت الاقران ، وانتصب الميزان ، فادال الله للعالم الاسلامى من العالم البراهمى فى واقعة «باتنداه» ، وتمزق شمل الراجاوات كل ممزق ، وفتح محمود كشمير ودهلى ، واقام ولاة من قبله فى لاهور ، وجعل راجا قنوج من أتباعه ، واكمل توطيد ملكه فى جميع البنجاب ، وغزا كالنجار تلك المدينة الموصوفة بمنعتها ، فانقاد له ملوك تلك الديار صاغرين وقصد كوجرات وحطم الصنم الأعظم المعروف بسومنات وفتح بهاضية ذلك الفتح الذى تحدثت به الركبان ، وكتب فيه تلك الرسالة الطنانة شيخ الكتاب أبو الفضل بديع الزمان ، فقال انه « الفتح الذى تضاءلت أمامه الفتوح ، وأثنت عليه الملائكة والروح » الخ وذكر عن الهند وعجائبها وعظمة الخلائق التى فيها ، ماعرف بقدر تلك الفتوحات التى أتاحها الله للاسلام على يد أمين الدولة ويمين الملة[١] قال المسيو رينه غروسه René Grousset صاحب تاريخ آسية الذى ظهر سنة ١٩٢٢ فى ثلاثة مجلدات متمحصاً من روايات أكابر المحققين ، وذلك فى بحث الهند لعهد الاسلام ، مايأتى تعريبه :

(١) هو لقب السلطان محمود الغزنوي

« ان محمودا قام بصليبية اسـلامية (١) استمرت الى القرن الثامن عشر وكانت كسائر الصليبيات ، جامعـة بين روح الدعوة الدينية ، وروح الطمع فى السحت ، وان محموداً بقيت صورته العالية مشرفة على ثمانية قرون ملأى بالفتوحات ؛ لأن الجهاد الذى كان هو أول أبطاله ، لم يبلغ حـد النهاية الا فى فجر العصر الحديث بعد أن عرفت أرض البراهمة من جبال حملايا الى سواحل كور وماندل ، اسم الله تعالى ودانت لسلاطين الترك المغوليين »

واقتفى أثر محمود بن سبكتـكين التركى ، محمد الغورى الأفغانى ، الذى استولى على سلطنة آل سبكتـكين وغزا مثلهم الهند ، وشتت فى واقعة « تانسوار » الثلاثمائة ألف فارس والثلاثة آلاف فيل التى حشـدها لغتاله ملوك الهند ، وافتتح دهلى ، وقنوج ، وميرات ، وآغرا ، وضمها الى ممالـكه (١١٩٤ ميـلادية) وأتم عمله مملوكه آيبك التركى الذى فتح بنارس ، وضرب الجزية على ملوك كافالبور ، ومالقا ، وافتتح كوجرات ، وكالنجار ، وضم الى المملـكة بوندلـكاند . ثم القائد بختيار الأفغـانى ، الذى افتتح مغـدلا ، والبنغاله ، وأزال الدولة البوذية من تلك الأقطار فـكان عمل هؤلاء الفاتحين مقدمة لسلطنة اسـلامية عظمى قاعدتها دهلى وقد بسطت جناحها على الهند بحذافيرها ، واستتبت من القرن العاشر للمسيـح الى أوائل القرن التاسع عشر اذ هرمت وعجزت وانقرضت على أيدى الانـكليز كما هو معلوم . وليس المرادهنا تاريخ الدول الاسلامية التى تعاقبت من ذلك الوقت على الهند ؛ ولـكن المراد هو ذكر العلاقة الشديدة التى بين اسلام الهند و بلاد الأفغان التى منها انحدر الفاتحون المسلمون سواء كانوا من العرب ، أو من العجم ، أو من الترك ، أو من الأفغان واثبات ان تلك الجبال كانت ولم تزل على ما يعلوها من الثلوج مستوقد حماسـة ، ومثار حمية ، وموطن فتوة ، ومعدن فروسة ، واليك ملخص تاريخ علاقاتها مع الانـكليز منـذ وضعوا أيديهم على الهند الى يومنا هذا : ــ

قال المسيو لومارشان Le Marchand أحد ضباط الجيش الفرنساوى ومن أعضاء الأكادمية العسكرية فى كتابه « حرب الانـكليز مع الأفغان » الذى ظهر سنة **١٨٧٩** ما ياتى تعريبه ملخصا :

---

(١) يعنون بذلك سلسلة حروب أشبه بحرب الصليب

« ان مبدأ علاقة انكلترة مع افغانستان كان فى القرن التاسع عشر ، وذلك عند ما أرسل نابليون الأول « الجنرال غاردان » لمفاوضة العجم فى عقد محالفة بينها و بين فرنسا ، لأجل فتح الهند ، فلما بلغ الانكليز ذلك أسرعوا بارسال وفد الى كابول ليتخذوا من الأفغان ردءاً ضد العجم ، وكان يومئذ فى كابول أمير عليه لقب شاه مثل شاه الفرس فحصلت عليه ثورة ، واستولى على الملك أخو الصدر الأعظم الذى كان عند ذلك الشاه وفر أخو الشاه الأفغانى الى الهند ، ملتجئاً الى الانكليز مستمدا نصرتهم لاسترداد ملكه كما ان أمير الأفغان الجديد ، وهو المسمى دوست محمد خان ، عقد حلفاً مع الروس فكان عمله هذا كافيا لتجريد حملة انكليزية على افغانستان ١٨٣٩ . وكان قد سبق الحملة الى كابول السائح الانكليزى المشهور برنس Burnes ليقاوم فيها دسائس الضابط فيكوفيتش الروسى فلما رجع برنس الى الهند أقنع « اللورد اوكلاند » بوجوب الزحف واعادة الشاه القديم شجاع الملك ، ولكن ما أعيد الشاه المذكور حتى وجد الانكليز حاجة ماسة الى تعزيزه بجيش عظيم ، لما كان قد انتشر فى البلاد من الفوضى ، وظهر من عدوان الأهالى للانكليز. وفى سنة ١٨٤١ شبت نار الثورة فى كابول ، وقتل فيها المعتمد البريطانى ، وعدد من ضباط الانكليز ، ثم اضطر القائد الانكليزى ، بالنظر الى تحرج موقعه ، الى طلب الأمان على نفسه وعلى جنده ، على أن يخرج من البلاد بدون توقف لا يلوى على شىء ، وهكذا خرج فى أشد زمهرير الشتاء ، وكان ما كان من الملحمة المشهورة التى استأصل فيها الأفغانيون ١٦ ألف أو ١٧ ألف جندى انكليزى ليس منهم سوى ٤ الى ٥ آلاف مقاتل ، وذلك فى كمين نصبوه لهم فى « خورد كابول » فلم ينج سوى الطبيب العسكرى « بريدون Brydon » الذى فر الى جلال آباد ليخبر قومه بالفادحة العظمى . ثم ان الأفغان تقدموا وحصروا جلال آباد التى كانت فيه حامية انكليزية ، فقاومتهم زهاء شهرين الى أن زحف « الجنرال بولوك » من الهند فأنقذها . ثم بعد مدة زحف الانكليز بحملة عظيمة على كابول ونسفوا قلاعها ، ودار الملك وأخذوا بثارهم عما سبق (قال) : وقد أردنا الاشارة الى هاتين الحملتين اللتين تقدمتا للانكليز فى افغانستان لما لهما من العلاقة بالحرب الحاضرة (١) كما أنه لا يخلو من الفائدة معرفة ما يعترض جيشاً أوربياً يريد التوغل فى تلك الديار من العقبات

---

(١) أى حرب سنة ١٨٧٨ الى سنة ١٨٨٠

الصعاب وما يستجلب النظر من كون كتائب العساكر الأفغانية التى كان الانكليز قد كتبوها واستخدموها وظنوها أصبحت من جلة جيشهم قد انقلبت عليهم وكانت أشد أعدائهم وطأة فى تلك الحرب » انتهى

نقول ما أستأصل جيش أوربى قوة وطنية فى آسية أو افريقية ، وخطر ببال مؤرخ أوربى أن يذكر ما هناك من الاعذار المشروعة ، والاسباب المعقولة ، التى قضت بالطائلة للاوربيين على الوطنيين ، مع ما بين الفريقين من التفاوت فى الأعتاد الحربية ، والاختراعات الفنية ، والمعرفة بعلم التعبية ، وأصول القتال ، فاذا أتاح الله واقعة بالعكس قضى فيها بغلبة الوطنى على الاوربى أسرع المؤرخون الأوربيون الى تمويه تلك الدبرة بالتماس الأسباب المخففة ، وانتحال الأعذار المتنوعة ، التى لا تكاد تخلو منها هزيمة، وذلك حرصاً على الشرف الاوربى أن يمسه نقص ، وعلى المكانة الافرنجية أن تتزعزع فى نظر الوطنيين . فالجيش الانكليزى فى خورد كابول وهو ١٧ ألفاً قد أفنى على بكرة أبيه ، سواء كان كله مقاتلين أم كان بعضه مقاتلا والآخر حاملا للذخيرة . والانكليز قد تعلموا من تلك الواقعة أن ينظروا الى الأفغان بغير العين التى ينظرون بها الى جيرانهم الهنود وعرفوا ان الآفغانى لا ينام على الثار ، ولا يقبل أن يطأ الاجنبى وطنه ولا يواطئ العدو على استقلال بلاده ، كما حصل من كثير من أمراء المسلمين الذين كان الواحد منهم يسعى بين يدى القوة الأجنبية ، ويذلل أمامها مناكب قومه ، طمعا فى أن تلبسه تاجا موهوما ، أو تركبه عرشاً اسميا ، كلا . ان الافغان منذ أول احتكاكهم بالانكليز أفهموا بأعمالهم هؤلاء أنهم ليسوا من طينة غيرهم من جيرانهم ، وأن المنافسة فيما بين أمرائهم على الملك لا تصل الى حد الاجتزاف بالاستقلال ، والمسامحة بأمور الملك ، وأن الوفاء بالعهد عندهم لا يبلغ درجة تواطؤ الرجل مع الاجنبى على قومه ، ومقاتلة الجندى الافغانى جنديا افغانياً آخر يذب عن حوض وطنه ، بسبب كون الاول يأخذ جراية من ذلك الاجنبى ؟ كما فعل كثير من سلاطين الاسلام ورؤسائه واجناده ، واغتروا بالنعمة الزائلة والجائزة الموقتة التى لم تلبث أن ألفحت بكاءهم دما ، وأكلهم اناملهم ندماً ، بعد انقضاء الوطر ، واستتباب الأمر للفاتح الغريب ، مما لا تحصى ولا تعد أماثيله ، سواء فى آسية أو فى افريقية . ونقول مع الأسف ان الاسلام لما يبل تماما من هذا المرض ، وانه ان كان ورد فى أثره الشريف انه لا

يلدغ المؤمن من جحر مرتين فتراه اليوم يلدغ من جحر واحد مائة مرة و لا يتوب . وقد رأينا أن أكثر فتوحات اوربا فى بلاد المسلمين والشرقيين عموما انما اتسقت لها على أيدى المسلمين والشرقيين ، فاوربا اعتادت أن تستعين عليهم بهم وأن تضرب الأخ بالأخ وان تقرع النبع بالنبع ، وان تجرد على الاقطار التى تنوى استعمارها جنوداً من أهالى المستعمرات ، تخلطهم بنزر من جنود اوربية ، وتضع على رأسهم قواداً اوربيين ، وتنال بذلك مناها ، وفى حرب افغانستان هذه ، وفى التى تليها . قد استعملت من أجناد الهند ورجالها وجمالها وأفيالها ، ومن العساكر المتقدمة من ملوكها وأقيالها ، حتى من نفس ملوك الاسلام فى الهند ، ما لا حاجة الى احصائه هنا ، كما انه فى ثورة الهند الكبرى سنة ١٨٥٧ وهى التى اشفت انكلترة فيها أن تخسر الهند بأسرها ، يعترف المؤرخ المتقدم ذكره وغيره أنه لم يكن بقى فى جميع الهند سوى ١٠ آلاف جندى انكليزى لحفظ ١٩٠ مليوناً [1] يردفها لواء واحد من متطوعة البنجاب ، وانه فى تلك الأزمة ظهرت مهارة اللورد لورانس باستنفار بعض الزعماء لتكتيب جنود من الأهلين ، اجتمع منهم فيما بعد فيلق جرار ، كان هو السبب فى حفظ انكلترة لا للبنجاب فقط بل لجميع الهند . فالهنود هم الذين فى الحقيقة فتحوا أنفسهم بأنفسهم لحساب انكلترة أولاً وآخراً ، وقد حاولت هذه الدولة أن تجرى على هذه الطريقة فى أفغانستان فلم تتسق لها لا أولاً ولا آخراً ، ولو كان الأفغان مثل الهنود أو البلوج أو غيرهم من الأمم التى علقت فى الحبائل الاوربية لكانت أفغانستان اليوم ولاية من ولايات الهند ، أو امارة يليها بالاسم أمير من أهلها والحكم الحقيقى فيها للوزير المقيم أو للمعتمد أو للعميد كما يسمونه ، ولم يكن فى عرض البلاد وطولها بندقية واحدة يتقى بها أفغانى ذل العبودية ، بل الشعب كان يومئذ كله أعزل مقلم الأظفار ، والقوة العسكرية التى تكون عنده يومئذ عبارة عن حامية انكليزية مؤلفة من بريطانيين وهنود وأفغان يخدمون فى بلادهم على بلادهم ، بدراهم معدودات . هكذا كان شأن الأفغان لو اتبعوا خطة غيرهم من الأمم الشرقية الغافلة ، أو لو اقتدوا بنوابى « ايسا كل » و « تانك » و « تاونا » وخان « خطا » السير خوجه محمود وغيرهم من أمراء الهند الذين كانت لهم اليد الطولى فى قمع الثورة الهندية الكبرى . بل تجد المسيو لومارشان يقول فى الصفحة ٢٨٩

---

(١) عدد سكان الهند فى ذلك الوقت

من المجلد الأول من تاريخه « ان القبيلة الدورانيـة التى هى ثلث الأفغان ومنهـا الأسرة المالـكة عندهم من الاعتزاز بنسبتهم وقومهم ما يجعلهم مؤثرين لأى أمير كان مهما كان سيئ السيرة ، على الحـكم الأجنبي ، ولم يـكونوا يأسفون على سقوط الأمير وتشريده مع عترته على شرط أن يكون لهم الخيار فيما بعد فى اختيار حكومتهم »

ثم نعود الى ذكر غزاة الانـكليز فى بلاد الأفغان فنقول : ورد فى دائرة المعارف الاسلامية المحررة بالفرنسوية بقلم المسيو هوتسمه Houtsma ورفاقه خلاصة تاريخ الأفغان مستخلصة من نحو مائة مصنف بالعربية والفارسية والانـكليزية والفرنسية والألمـانية ومن جلة ما فيها أن الانـكليز بعد أن دخلوا بلاد الأفغان للاخذ بثأر جيشهم سنة ١٨٤٢ وحاولوا اجلاس الشاه شجاع الملك على عرش تلك المملـكة ، رأوا ما هناك من صعوبة المراس ، وتعذر البقاء . وهجم على شجاع الملك من قتله ، فأزمع الانـكليز الخروج من تلك البلاد وأخذوا معهم فتح جنك ابن الشاه المقتول ، ثم عمـدوا الى مصالحة دوست محمـد خان الذى علموا أنه هو الملك الوحيد الذى يمكنه أن يضبط زمام الأفغان ، فانعقد الصلح بين الفريقين على شرط أن الانـكليز يحترمون حدود الأفغان ، وانصرف دوست محمـد خان الى تحصين بلاده ، واسترد بلخ ، وكولم وقندز ، وبذخشان . ولما اشتعلت الثورة الهندية الـكبرى سنة ١٨٥٧ التزم الحياد ، ولم يهتبل تلك الغرة لمقاتلة الانـكليز . ومات دوست محمد سنة ١٨٦٣ فثار الخلاف بين أولاده وتقاتلوا مدة طويلة ، والانـكليز ينظرون اليهم من بعيد معتزلين الخلاف كله لعلمهم أنهم لو أنشبوا أظفارهم فيه لتعرضوا لخسائر لا تحصى كالتى عرفوها من قبـل ، ولـكان آل الأمر الى اتحاد الأفغان كلهم يداً عليهم ، فلم يزالوا متربصين الى أن استوسق الأمر لشير على خان أحد أولاد دوست محمد خان ، وأطلق أحد أدباء الانـكليز كلمة « عزلة رئيسية » على خطة الحـكومة البريطانية يومئذ وسارت مثلا . فلمـا أجمع الأفغان على طاعة شيرعلى اتفق معه اللورد لورانس أولا ثم خلفه اللورد مايو فأيد اتفاق سلفه على شروط معلومة ، أولها أنه لا يدخل عسكرى انـكليزى واحد بلاد الأفغان لأجل اطفاء ثورة أو تدويخ قبيلة عاصية (١) وأنه لا يرسل ضابط انـكليزى معتمداً فى مدينة من مدن الافغان

(١) هـذا خلاف طلب الذين تواثقوا مع الانـكليز على أن يدخـل هؤلاء بلادهم ويخمدوا لهم الثورات ويخضعوا لهم العصاة ثم بعد استتباب الطاعة يجلون عن البلاد بزعمهم

وأنه لا يكون للامير راتب معين من انكلترة مشاهرة ولا مسانهة . وقد توارث أولاد دوست محمد خان هذه الغيرة الشديدة من رؤية الأجنبي فى بلادهم من والدهم الذى كان يقول للورد لورانس سنة ١٨٥٦ ما يأتى : « ان كنتم تريدون أن نبقى أصحاباً فلا تكرهونى على قبول ضباط انكليز فى بلادى »

ويقول المؤرخ لومارشان السابق الذكر « انه قد بقيت العلاقات بين الانكليز وشيرعلى سائرة على هذه الوتيرة ، الى أن دخل الروس خيوه سنة ١٨٧٢ فراع ذلك شير على خان ، وأوفد من قبله من يسبر غور الحكومة الهندية فيما لو وصل الروس فى الاعتداء الى بلاده ، فورده الجواب بقبول رأى انجاده ان جرى عليه اعتداء بدون حق من جهة الروس ولكن الشروط التى وضعت لأجل القيام بتلك النجدة لم تكن لترضيه » .

قلنا : ان صاحب حرب تاريخ الانكليز والأفغان أغفل ذكر هذه الشروط عمدا لأنه من أول هذا التاريخ الى آخره مؤيد لسيرة انكلترة ، الا أنه بالبداهة يدرك القارئ أن الشروط التى وضعها الانكليز ولم تعجب شير على فى حال احتياجه اليهم لا بد أن تكون مرة المذاق على أمير يهمه أن تبقى مملكته بكراً لا تطمثها قدم أجنبى ، ولا شك ان أول شرط منها كان اقامة مسيطرين انكليز فى افغانستان ، ووضع حاميات انكليزية فى بعض المواقع الافغانية وربما يكونون اقترحوا عليه قبول الحماية البريطانية ، ليصبح كأحد نوابى الهند أو نظام حيدر آباد ، ظانين أنهم يستفيدون من فرصة أزمته هذه لبسط حماية لا تزال تحدثهم أنفسهم بها . ولكن لننظر الآن ماذا فعل شير على خان . يقول لومارشان

« انه لما ورده جواب الانكليز نفر وامتعض وصارت علاقاته مع الانكليز فى فتور مستمر ، وأبى السماح بالمرور لضابط انكليزى أرادوا انفاذه الى حدود شمالى افغانستان للفحص عن حالة الحدود ، وكذلك لم يأذن للسير دوغلاس فورسيت Douglas Forsyth العائد من كاشغر الى الهند . ورفض قبول مبلغ من النقود كان الانكليز بعثوا اليه به وبعكس ذلك كانت علاقته ودية مع الحاكم الروسى فى تركستان . ووقع هذا الجفاء فى أواخر أيام اللورد نورثبروك ، فلما جاء اللورد ليتون خلفا لنورثبروك بذل الجهد المستطاع لتأليف ذات البين مع شير على ، واقترح عليه ارسال جرى من قبل انكلترة هو السير بلى Pelly ليفاوضه فى كابول فى رغائبه ومراضيه ، فأبى شير على قبول هذا المعتمد ، واقترح هو ارسال معتمد الى بشاور للمفاوضة فى النقاط

الواقع الخلاف عليها ، وهى تدخل انكلترة بينه و بين ابنه يعقوب خان [1] وخطتها فى مسئلة حدود سجستان ، بين افغانستان والعجم ، وارسال حاكم الهند هدايا رأساً الى أحد أمراء الافغان ، مع أنه تابع لمملكة شير على ، ورفض انكلترة رأى التحالف معه والاعتراف بتولية عهده ابنه عبد الله خان الى غير ذلك . فرضيت انكلترة بهذه المفاوضة فى بشاور ، لكنها لم تجب شير على الى مطالبه واعتلت عن كل منها بسبب ، فلم يسفر ذلك المؤتمر عن أدنى طائل . ثم ان هناك مسئلة القبائل الافغانية العاتية المحادة للهند فان هذه القبائل بأجمعها تعترف برئاسة الامير ، وليس منها واحدة خلا قبائل البلوج التى الى الجنوب تقر بسلطان انكلترة عليها أو ترضى باختيارها وطأة قدم انكليزى لأرضها . وان جميع ما عند الانكليز من المعلومات عن هذه القبائل أو عن منازلها لم يتيسر لهم الا بواسطة الجغرافيين والمخططين الذين كانوا تابعين للجيش أثناء الحملات العديدة التى حملها الانكليز على تلك الديار ، ومن الغريب أنه مع شدة غيرة هذه الأقوام على بكارة بلادهم ، وحرصهم على أن لا تطأها قدم انكليزى تجدهم يجولون من بلدة الى بلدة فى الهند ويتجرون بما يريدون فى أسواقها ، ويخدمون جنوداً فى الجيش البريطانى ، وتجد منهم عند الانكليز عمالا ومأمورين ينتقدون الرواتب الجزيلة . فلا يبالغ الانسان اذا قال انه لا يكاد يخلو الاى فى البنجاب من ضابط أو من ضباط متعددين من أبناء هذه القبائل ، وترى منهم ضباطاً فى مدارس وبمباى وحيدر آباد . وبالرغم من كل هذه الأسباب التى كان ينبغى أن تجعل اللحمة بينهم و بين الانكليز شديدة ، فلا بد من الاعتراف بأن هذه الحالة منذ استولى الانكليز على البنجاب وجاوروا تلك القبائل لم تتغير تقريباً » .

قلنا ان الوطنيين فى أكثر البلدان ، الا من رحم ربك ، عودوا المستعمرين أنهم متى قبلوا وظائفهم وانتقدوا رواتبهم جاروهم فى جميع مقاصدهم وتبعوهم فى كل مراميهم ، حتى فيما هو على الضد من مصلحة قومهم ، وفيما يمس استقلال وطنهم ، وأكثر ما سقطت البلدان المستعمرة تحت السلطة الاوربية انما كان على أيدى مأجورين من أنفس الأهالى ، يبيعون أوطانهم بخسيس الحطام وقليل المتاع ، ولهذا تجد المؤرخين الأوربيين نظير لومارشان هذا يقضون العجب من صنيع هذه القبائل الأفغانية المحادة للهند كيف أنها مع شدة اختلاطها

(١) كان ثار عليه وأخذت انكلترة تحميه

بالانكليز وارتفاقها بأموالهم ووظائفهم لم تواطئ الانكليز على بلادها ، ولم تمكن لها في أرضها كما صنع كثير من غيرها ، فهؤلاء قد خالفوا العادة الجارية من غيرهم ، وهذا الأمر يدهش الاور بيين كثيراً .

ويقول هذا المؤرخ « ان القبائل البلوجية هي على خلاف ذلك فلهذا ادارة السند كانت دائماً أرفق وأهنأ من ادارة البنجاب. أما القبائل التي بين جبال ماهابون وجبال بوزدار فانها نحو خمس عشرة قبيلة ، منها ثلاث عشرة سالت الدماء غزاراً بينها و بين الانكليز ، وساق عليها هؤلاء لا أقل من ٣٠ حملة [١] فمن هذه القبائل قبيلة الجادون يسكنون المنحدر الجنوبي من جبل ماهابون وقوتها تقوم بنحو ٥٠٠٠ مقاتل ، وكانوا اذا شنوا الغارات على الأراضي الهندية اكتفى الانكليز بحصرهم ، وسنة ١٨٦٣ جردت عليهم حملة بقيادة السير فايلد فما عادت العساكر أدراجها الا عادوا هم الى الثورة . ثم قبيلة البونارفال وهم من أشجع أعداء الانكليز وقعت الحرب بينهم و بين الانكليز سنة ١٨٦٣ فخسر الانكليز في مصارعتهم ٩٠٠ رجل بما بلوه من مر كفاحهم . و بعدهم قبيلة السواتي الذين ساق عليهم الانكليز حملة سنة ١٨٤٩ ويقدر مجموع هاتين القبيلتين بنحو ٢٥ ألف مقاتل . ثم قبيلة الرانيزاى وقد غزاهم الانكليز مرتين سنة ١٨٥٢ وعددهم ٣٠٠٠ مقاتل . ثم قبيلة عثمان كيل [٢] وعددها ١٠ آلاف رجل اشتدت وطأتهم على الانكليز ، حتى جردوا عليهم ثلاث حملات الواحدة عام ١٨٤٩ بقيادة الكولونل برادفورد ، والثانية عام ١٨٥٢ بقيادة السير كولين كامبل ، والثالثة سنة ١٨٦٦ بقيادة الجنرال دونسفورد . ثم الى الجنوب من هؤلاء قبيلة الماهموند الكبيرة وهي تقدر أن تحشد ٢٠ ألف مقاتل ، وقد ناجزها الانكليز سنة ١٨٥٠ و ١٨٥٢ ثم بعد ذلك بسنتين تجددت الفتنة بينهم و بين أحد أفخاذها وسنة ١٨٦٤ نشبت بين الفريقين معركة في سهل شو بكودور

«وجميع هذه القبائل تنزل شمالي مضيق خيبر الشهير بالجبال التي تتاخم الهند الانكليزية ويوجد الى الجهة الغربية ، قبائل أخرى لا تقل عن هذه شدة بأس ، وصعوبة مراس ، مثل الباجوري والشنيفاري وغيرها ، ولكن مرادنا الكلام على القبائل التي بجوارها لتخوم الهند كانت الحروب متواصلة بينها و بين الانكليز . فبين مضيق خيبر وكوروم منازل

---

(١) هذا الى عام ١٨٧٩ فما ظنك بما جرى من الحملات منذ ٤٥ سنة الى اليوم

(٢) معنى كيل فصيلة أو رهط

قبيلة الافريدى التى تعد ٢٥ ألف محارب ، وهى على ما يظن أهم قبائل التخوم وقد تبارزت مع الانكليز مراراً عديدة ، وساقوا عليها زحوفا سنة ١٨٥٠ و ١٨٥٣ و ١٨٥٥ وأخيراً سنة ١٨٧٧ بقيادة الجنرال كايس والجنرال روس

«وكذلك قبيلة الميرانزاى التى تجهز نحو ٥٠٠٠ محارب تبارزت مع الانكليز سنة ١٨٥١ و ١٨٥٥ و ١٨٦٩ وقبيلة التورى وهى تعادل الأولى فى العدد ، غزاها الانكليز عام ١٨٥٦

«ثم الى الجنوب من هذه تجد قبيلة الاوراكزاى من ١٥ الى ٢٠ ألف مقاتل حمل عليها الانكليز سنة ١٨٥٥ و ١٨٦٨ و ١٨٦٩ بقيادة شامبرلين وجونس وكايس . و بين مضيق كوروم وغومول ، تسكن قبيلة الدافارى قاتلها الجنرال كايس عام ١٨٧٢ ، ثم قبيلة الوزيرى الشهيرة التى زحف عليها الانكليز سنة ١٨٥٢ بقيادة نيكولسون وسنة ١٨٥٩ بقيادة السير نفيل شامبرلين ، وسنة ١٨٦٩ بقيادة كايس لردعها عن الغارات والعاديات على حدود الهند.

« وعلى جانبى غومول تسكن قبيلة المحسود وزيرى التى طالما أقلقت راحة التخوم الهندية ثم قبائل البوزدار ، والكازرانى ، والشهورانى ، التى هى دائماً فى جدال مع الجنود الانكليزية

«ولكن الى الجنوب من هذه قبائل أخرى كانت دائما فى وئام تام مع الانكليز مثل الكتران ، والكوزاه ، واللاغارى ، والغورشانى ، والمارى ، والبوغتى ، ويقول لومارشان ان سبب هذه المسالمة هو حب هذه القبائل للمال وايثاره على ماسواه ، فالانكليز عالجوهم بالدواء الذى رأوه الانجع فيهم » انتهى

ومما لا يجوز أن ننساه أن الاحصاءات التى أوردها هذا المؤرخ عن عدد هذه القبائل انما هى عن الوقت الذى كان فيه عدد سكان الهند ١٩٠ مليوناً بدلا من ٣٢٠ مليوناً عند كتابة هذه السطور فلاجل صحة الحساب ينبغى اضافة ٣٥ فى المائة على الأقل الى الأعداد التى أوردها ، كما أنه قد وقعت منذ ٤٠ سنة معارك كثيرة بين البريطانيين وهذه القبائل من بعد الوقائع التى ذكرها ، واليك شاهداً ما جرى مع الافريدى :

ورد فى دائرة المعارف الاسلامية الآنفة الذكر «أن الافريدى هم عدة أفخاذ وهم الآدم كيل ، الذين منهم الجافا كى المجاورون لمضيق كوهات ولقبيلة خاتاق ثم الآكا كل

الممتدة منازلهم من آكور الى باراه . ثم الكوكى كيل والكمبركيل والزا كا كيل ، والمالكدين كيل ، والكامركيل ، والسيباه و يقال لهؤلاء الافريدى الخيبريون ، ينتجعون فى الصيف الميدان فى ناحية تيراه ، و ينزلون فى الشتاء الى السهول ، وهؤلاء الخيبريون معدودون فى أشد القبائل عتواً وتوحشاً ، وأصعبهم مقادة ، ولا يزالون يشنون الغارات على السهول ولا سيما الزا كا كيل الذين هم أقبحهم سيرة . وكانوا الى تاريخ سنة ١٨٩٧ يتباهون دائما بأن أرضهم لم تطأها قدم فاتح ، ولكنهم فى تلك السنة نفسها رأوا العساكر الانكليزية الهندية تجوس خلال ديارهم كلها[1] »

ثم يقول « انهم كانوا ينتقدون مبالغ من المال لأجل أن يتركوا المضايق مفتوحة للسابلة ، و بعد أن استلحقت انكلترة بلاد بشاور لم تتعرض لاستقلالهم ، و بقيت تؤدى اليهم هذه الأعطيات لأجل حرية المرور ، ولكن مضيق كوهات كان أكثر الاحيان مسدوداً بسبب المنازعات التى بينهم بحيث ان الانكليز غزوا الجافا كى منهم فى شرقى ممر كوهات سنة ١٨٧٧ و ١٨٧٨ ولكن لم تطل مدة الاحتلال[2] ثم انه فى سنة ١٨٩٧ أعلن أحد المشايخ الجهاد فى بلاد الشينفارى ، فاتصل الصريخ بالافريدى والماهموند ، وهاجم الثائرون قلعة لاندى كوثال وافتتحوها ، وكذلك دخلوا عنوة المواقع العسكرية التى فى جنوبى بلاد الاورا كزاى ، فجرد الانكليز جيشاً بقيادة السير لوكارت ، فاصطلت معارك حامية دامية ، وأصيب الجيش بخسائر ثقيلة ، ولكن جميع زوايا الديار قد جيست ، وجميع الفصائل العاصية قد اقتص منها . و بعد موقف طويل فى ناحية الميدان ، عاد الجيش الى سهول بارا . ثم جردت حملة ثانية الى أودية خيبر و بازار ، و بعد ذلك أطاع الافريدى كافة وصاروا ينتظمون فى جيش الحدود ، ولكن سنة ١٩٠٨ عاد الزا كا كيل الى عيشهم المعتاد فسيق عليهم جيش الى أودية بازار و بارا ونكل بهم »

ثم ورد فى دائرة المعارف «أنه بموجب المعاهدة المنعقدة سنة ١٨٩٣ بين انكلترة والامير عبد الرحمن خان ، تخلى الامير عن بلاد الافريدى وسنة ١٨٩٧ أرسل هؤلاء وفوداً الى

---

(١) يلاحظ أن يعرف أن محرر هذا الفصل من دائرة المعارف هو انكليزى .

(٢) لا بد أن يكونوا لقوا منهم عذابا واصباً ؛ لأن عدم اطالة الاحتلال لا سيا فى نقطة كهذه لا تنطبق على عادة الانكليز

كابول يستنصرونه على الانكليز فلم يلب نداءهم » انتهى

فيظهر أن حالة هذه القبائل ومرودها على العيث والاخلال براحة الحدود الانكليزية منذ استولى الانكليز على الهند ، ولا سيما على البنجاب وديار بشاور كانت تدعو الحكومة البريطانية الى التحرش بأمير الأفغان لتناجزه حرباً تكون عاقبتها اعترافه لها بالسلطة على منازل هذه القبائل لتتمكن بذلك من الاخذ بنواصيها . وهكذا حصل فان الانكليز حشدوا جيشاً عظيما عام ١٨٧٨ وقاموا بتجهيزات لا يقدر عليها غيرهم ، وتطوّع معهم كثير من أمراء الهند ومن المرتزقة من القبائل التى فى شمالى البنجاب ، ومن أمة السيك الهندية المشهورة بالبسالة والتى لاتقل فى شدة البأس عن قبائل الباتان السابقةالذكر وزحفوا بعدد وعدد تضمن لهم نجاح الحركة ، فبعد وقائع عديدة دخلوا كابول بقيادة اللورد دوبرتس ، وفرّ شير على خان الى مزار شريف فى القسم التركى من مملكته حيث مات سنة ١٨٧٩ وكان شير على قد غضب على ولده يعقوب خان لمقاومته له ، وحار به فى هراة ، فلم يقدر عليه ، فأمهله ريثما صرف جنوده ، وأظهر له العفو عما سلف ، فاستدعاه الى حضرته وأمنه ، فلما قدم اليه ألقاه فى السجن و بقى مسجوناً الى أن دخل الجيش البريطانى الهندى كابول فأخرجوه من سجنه ، ونصبوه أميراً وعقدوا معه معاهدة غاندامق التى تخلى لهم فيها عن بعض الأراضى بجوار مضيق بولان ووادى كورام ، وتعهد بقبول بعثة بريطانية تقيم بعاصمة الأفغان فلم تمض على هذه المعاهدة أشهر قلائل حتى جرت ثورة فى هذه العاصمة ، وذبح الأهالى أعضاء هذه البعثة بأجمعهم ، فعاد اللورد روبرتس بجيشه ودخل كابول ثانية ، الا أن الافغان جمهروا من خلفه وجاءوا لحصروه فى كابول ، فخلع الانكليز يعقوب خان وأشخصوه الى الهند وداخلوا الامير عبد الرحمن خان بن أفضل خان بن دوست محمد خان فى قبول الامارة ، وكان جيش انكليزى فى قندهار ، فزحف الى كابول على أن يكون من هناك جلاء جميع الجيوش الانكليزية عن افغانستان ، فلاقاه فى الطريق قبيلة أحمد كيل وأذاقوه علقم القتال فلم يخلص منها الا بشق الانفس ، ثم حشد أيوب خان ابن شير على جيشاً فى هراة وزحف به الى قندهار فالتقى بعسكر انكليزى فكسرهم ، فأسرع اللورد روبرتس الى قندهار واصطلت الحرب مع أيوب خان ، وأدرك الانكليز بهذه التجربة الثانية انه ما كل حمراء تمرة وان الاولى اخلاء افغانستان بأسرها فاتفقوا مع الامير

عبد الرحمن على أن يكون هو الامير وجلوا سريعاً عن البلاد . فأدار الامير عبد الرحمن الامور بحكمة سلم له بها أهالى الشرق والغرب ، ورمّم فتوق بلاده وأقام العدل وأرهف الحد فى المفسدين ، ووطد نفوذ الحكومة وأسس معملا للسلاح ، وأصلح بقدر امكانه تدريب الجيش ، ووسع حدود البلاد من جهة الشرق ، واستولى على ولاية كافرستان التى هدى الله أهلها على يده الى الاسلام فسماها نورستان ، وبالاجمال فقد ذاقت مملكة الافغان فى زمانه طعم الراحة ، وعرفت معنى الوحدة . ومازال يسدد أمورها الى أن قبضه الله اليه سنة ١٣١٩ هجرية وفق ١٩٠١ ميلادية . وهو معدود من أفضل ملوك هذا العصر فى سداده وحكمه ومضاء عزيمته وبلغنى أن له تاريخاً مطولا بالفارسى ذكر فيه ماجريات حياته . وخلفه ولده الأمير حبيب الله خان الذى خاطبته الحكومة البريطانية بلقب ملك ، وان كان لم يتمكن من تأسيس علاقات خارجية مع غيرها مما بقى معه استقلال افغانستان مشوباً بشئ من القصر لم ينفك قيده الابهمة ولده من بعده .

ولما نشبت الحرب العامة أحب الأتراك والألمان أن يجتذبوا الأمير حبيب الله خان الى جهتهم وسارت بعثة ألمانية الى كابول وخاطبته فى ذلك فكان يعتقد أنه لوخاض غمرات هذه الحرب لجنى على نفسه وعلى وطنه فلم يأت بأدنى حركة تغيظ الانكليز ، وقد يعد عمله هذا مستحسناً لأن حفظ العهود أمر محمود ، والنظر فى العواقب من أجل المناقب . الا أنه عفا الله عنه ، كان يقدر أن ينتهز تلك الفرصة لمطالبة انكلترة بكثير من حقوق الافغان التى التهمتها أثناء ما كانت أفغانستان فى الضيق وذلك نظير أخذ البلاد التى ابتزتها اياها بدون حق والحجر الذى وضعته عليها فى الأمور السياسية الخارجية وكمنعها من الحصول على ثغر بحرى تكون حرة فيه بوارداتها وصادراتها . فأهمل الأمير حبيب الله ذلك ، ومشى فى سياسته على مقتضى مكارم الأخلاق الشرقية التى تأبى مهاجمة العدو فى حالة ضيقه ، لا على مقتضى السياسة العملية الأوربية التى لاتعرف هذه المكارم بل تعدها من قبيل الخيالات الشعرية ، أومبادئ الفطرة الأولى التى ليست فى شئ من مبادئ المدنية الحاضرة المبنية على الحقائق الراهنة ، وذلك بخلاف مايدعى الأوربيون من كون الشرقيين لايحترمون سوى القوة ولا يتأخرون عن نقض العهود اذا آنسوا من عدوهم الضعف . فيرمون الشرقيين بما هو فى الحقيقة دأب الغربيين . ولقد ذهبت أمانة حبيب الله خان مع انكلترة سدى اذ

بعد أن وضعت الحرب العامة أوزارها لم ينل من الانكليز أدنى مكافأة على وفائه وكيف ينال وجميع الحلفاء صاروا بعد الحرب غير ما كانوا أثناء الحرب ونسوا عهودهم مع كثير من الأمم التى نصرتهم فى الحرب نصراً عزيزاً . وفى سنة ١٩١٩ وجد حبيب الله خان فى مشتاه بجلال آباد مقتولا ولم يعرف قاتله ، ولا سبب قتله ، وتنوعت الأقوال ولم يزل سر هذه الغيلة مجهولا ، وسمعت أن مصطفى الصغير الجاسوس الهندى الانكليزى الذى افتضح أمره أخيراً فى انقره بعد أن قدمها جاسوساً فى ثياب صديق ، قد زعم أثناء محاكمته التى آلت الى قتله أنه هو الذى دبر مؤامرة اغتيال حبيب الله خان باشارة من الانكليز ، ولا أعتقد بصحة ذلك اذلا يمكن أن دولة عظيمة كدولة انكلترة تقدم على أفعال كهذه ليس فيها شئ لامن حفظ الكرامة ولامن الحكمة ، والانكليز موصوفون بهذين الأمرين . وفضلا عن هذا فالمرحوم حبيب الله خان كان للانكليز صديقاً وفيا . وابث بهم طول مدة ملكه براً حفيا ، فلايعقل أن تكون هذه الضربة منهم بل الأليق بالعقل أن يكون قتله وقع بمؤامرة أناس متحمسين نقموا عليه شدة محافظته على ولاء الانكليز ، واضاعته فرصة الحرب العامة التى كان يمكنه فى أثنائها أن يسترد كثيراً من حقوق الافغان المغتصبة . وان الذين عرفناهم من رجال الدولة الافغانية يكذبون زعم مصطفى الصغير ، ويقولون ان هذا لم يكن يومئذ هناك ولا الأمير قتل فى المكان الذى عينه من جوار كابول ، بل استشهد رحمه الله فى جلال آباد . وقد ثبت أن مصطفى الصغير هذا افترى روايات كثيرة فى تضاعيف استنطاقه فى انقرة ، لايعلم الانسان مقصده منها ، ومن جلتها اقحام نفسه فى حديث هذه المؤامرة . ثم ان الأمة الافغانية بعد استشهاد الأمير عولت على مبايعة جلالة ولده أمان الله خان ، مع كون ولى العهد هو نصر الله خان أخاه الأكبر ، فمن حسن الحظ أن عدول الأمة عن ولى العهد الى أخيه لم يحدث شيئاً من القلق ، ولاصحبه شئ من الكوارث مما يدل على تعقل كل من الأميرين الأخوين اللذين أحدهما لم ينهض الى الحسام ، ولا أسرع الى الفتنة لأجل الملك ، والثانى لم يعامل أخاه الاباالحسنى ، ولاحمله الحذر منه على التضييق عليه ، كما كان يفعل الملوك السابقون . فاستتب أمر الدولة الافغانية على أحسن مايرام ، واتفقت الكلمة ، ولكن الأمير الجديد لم يستو على عرش كابول حتى أرسل الى الانكليز بطالب أمته التى منها اعادة الأراضى التى اغتصبوها من ضمن حدود أفغانستان الجنوبية ، والتفرغ عن مرفأ بحرى

تكون الدولة الافغانية فيه حرة ، وحق تأسيس العلاقات الخارجية رأساً مع سائر الدول مما كان الأفغان لايفتأون يطالبون به ، فأبى الانكليز التسليم بهذه الشروط وجرّ ذلك الى زحف الجيش الافغانى ومن ضافره من قبائل البوتان السابقة الذكر ، واختراقهم حدود الهند ، ودارت رحى الحرب فكانت سجالاً ، وصادفت خروج بريطانيا العظمى من الحرب الكبرى وملل الشعب الانكليزى من سفك الدماء وبذل القناطير المقنطرة ، وعلم الانكليز ما أمامهم من العقبات فى حرب الافغان وانها ستكون أشد عليهم من الحروب السابقة فجنحوا الى السلم ، وعرضوا على الافغان الهدنة ، وذهب محمود ترزى خان ناظر الأمور الخارجية فى كابول الى الهند واتفق مع الانكليز على متاركة السلاح ، وأوفدت انكلترة وفداً الى عاصمة الافغان للتفاوض على شروط الصلح أثناء كون الجيوش من الطرفين مرابطة على العهود ، فانعقد الصلح فى سنة ١٩٢١ على شروط . أولها استقلال الافغان فى الأمور الخارجية كما كانت مستقلة فى الأمور الداخلية والثانى حق امرار السلاح من طريق الهند والثالث تحديد منطقة متحايدة من بلاد قبائل البوتان لاتكون ملكاً لا للانكليز ولاللافغان . ولم ينتظر شاه افغانستان عقد المعاهدة لتأسيس سفاراته لدى الممالك الاسيوية والأوربية بل قبل الصلح أرسل سفيراً الى طهران ثم سفيراً الى أنقرة ، وعقد مع الأتراك معاهدة متينة للسلم والحرب ، ثم معاهدة مع حكومة موسكو ، وأرسل اليها سفيراً هو أول سفرائه فى أوروبا ، وهو الفاضل النبيل محمد خان . ثم أوفد الوزير الجليل الجنرال محمد ولى خان ببعثة فوق العادة الى أوروبا لتأسيس سفاراته فى عواصمها فبدأ بفارسوفيا عاصمة بولونيا ثم قدم برلين ، ثم ذهب الى رومة ، ثم الى باريز ، ثم الى أميركا ، وأثناء مقامه بواشنطون دعاه سفير انكلترة فيها باسم حكومة بريطانيا العظمى أن يزور لندن فلبى الدعوة ، ولما جاء الى العاصمة استقبله رجال حكومتها براً وترحيباً ، الا أنه رأى وزير المستعمرات يفاوضه فى بعض المسائل ، فأبى محمد ولى خان الدخول فى أدنى مفاوضة مع وزير المستعمرات ، كما سمعت ذلك من فمه ، وقال : لاشغل لنا الامع نظارة الخارجية . فاعتذروا له عن هذا الخطأ غير المقصود ، وشرعت الخارجية تفاوضه فى عقد معاهدة الصلح فأجاب : انما ذلك هو عائد الى الحكومة الافغانية فى كابول ، وهى فى مذاكرة مستمرة مع الوفد البريطانى الذى هناك . ولما تم عقد الصلح أرسلت الحكومة الافغانية عبد الهادى

خان من أنبه نبهاء شبانها سفيراً الى لندن ، كما انها جعلت غلام صديق خان من أنجب نجبائها أيضاً سفيراً ببرلين ، والامير شير أحمد خان سفيراً فى رومة ، ثم عند ما استقال الوزير الجليل الفاضل محمود ترزى خان من نظارة الخارجية التماساً لترويح النفس فى أوروبا ، بعد ان التاث مزاجه لكثرة الاشغال التى عاناها عينه الامير سفيراً له فى باريز ، وهو ممن قاموا بخدمات جلائل لا ينساها له تاريخ الافغان . فانتدب الامير لنظارة الخارجية محمد ولى خان السابق الذكر . ثم ان ممن قام بخدمة الحكومة الافغانية فى أوروبا محمد أديب خان من أجل أدباء دمشق اذ كان هو الممثل للدولة الافغانية فى برلين لاول تأسيس السفارة الى أن تعين مؤخراً معتمداً لها فى وطنه الاصلى دمشق . وقد كان لمحرر هذه السطور حظ معرفة هؤلاء الاماثل باجمعهم ، وعند ما قدم الوفد الافغانى برلين ، احتفلنا بهم فى النادى الشرقى الذى برئاسة هذا العاجز ورأينا من ذكائهم وشهامتهم وحميتهم ما صدّق لنا التواريخ المأثورة عن جنسهم ، أما الوزير محمود ترزى خان فقد سبقت لنا معرفته منذ مدة مديدة اذ كان وقع بين والده المرحوم غلام خان و بين المرحوم الامير عبد الرحمن خان نفور أدى الى هجرة غلام خان وطنه واقامته بالشام وهناك أسعد الحظ بمعرفته عرضاً فكان له نحوى عاطفة أبوية ، وأهدانى مرة تذكاراً نفيساً وهو مديح نظمه بالفارسى فى شمائل الحضرة النبوية ، عليها أفضل الصلاة وأزكى التحية ، وكتبه مذهباً بخطه الانيق . وكان رحمه الله من صناديد الكتائب والكتاب ، وابطال الحرب والمحراب ، وذرّف على التسعين ، وهو يقوم الفجر ويصلى فى الجامع الاموى ، لا يتخلف يوماً واحداً ، وكان معه ولده محمود ترزى خان الذى هو اليوم سفير افغانستان فى باريز ، وهو الوطنى الذى حرر مدة طويلة جريدة « سراج الاخبار » وجاهد فى ترقية ادارة بلاده وتثقيف قومه بالفنون العصرية ، بقلمه البليغ ورأيه الاصيل ، ما لم يوفق الى مثله غيره .

ولقد باشر شاه الافغان الحالى تنظيم ادارة البلاد الملكية ، وتعليم الجيش وتسليحه على الطرق الحديثة وتوسيع معمل السلاح الذى فى كابول ، وأرسل عدداً وافراً من الطلاب للتحصيل فى أوروبا ، من جملتهم أولاده واخوته الصغار ، فجعل قسماً منهم فى برلين والقسم الآخر فى باريز ، وانتدب عدداً من ضباط الاتراك لتدريب الجيش ، وعدداً من الاساتذة والمتخصصين الاوربيين لترقية التعليم والادارة ، واستدعى طائفة من المهندسين

لتخطيط الطرق الحديدية ، واستخرج المعادن واستثمار خيرات البلاد فالمملكة الافغانية سائرة فى أيام الامير امان الله خان الشاه الحالى سيراً حثيثاً الى الامام بحيث يحكم العارفون أنه لا تمضى ٢٠ سنة على أفغانستان ، حتى تصير أعز دولة فى آسية الوسطى ، وتعود ركنا للشرق والشرقيين . وهى الآن تحتوى على نيف وتسعة ملايين من السكان ، ولما انعقدت المعاهدة بين كابول وموسكو سنة ١٩٢١ كان من جملة شروطها تخيير ولاية كوشكه فى الرجوع الى الأفغان ، وهى ولاية على حدود تركستان كان الروس اغتصبوها منذ نحو أربعين سنة ، وصبر عبد الرحمن خان على ذلك خشية أن يتهور فى حرب مع دولة عظيمة كالروسية لا طاقة له بها . فبعد استرداد أفغانستان لهذه الولاية يناهز عددها ١٠ ملايين نسمة وعلاقات الدولة الأفغانية جيدة مع جميع الدول ، الا أنها متضامنة مع تركيا تضامناً تاماً ، حمل الأمير أن يصرح لسفير انكلترة عندما عقد الصلح معه فى كابول وأن يخاطب نفس ملك الانكليز ، بأن أفغانستان لا يمكنها أن تخلص الود لانكلترة ما دامت هذه تنصب العدوان لتركيا ملجأ الخلافة الاسلامية . ولعمرى انه لا يوجد فى العالم الاسلامى فرد فيه ذرة من العقل الا وهو يتمنى الوئام بين انكلترة و بين تركيا ، وأفغانستان ، ومصر ، و بلاد العرب ، وسائر بلاد الاسلام ، لما لانكلترة من المصالح الشابكة والعلاقات الكثيرة فى الشرق ، وما فى الائتلاف بين هذين العنصرين من المنافع الجزيلة لهما معاً . ولكن ما دامت انكلترة سائرة على الطريقة التى اتبعتها منذ ٤٠ سنة ، وهى السعى فى تفكيك أوصال الاسلام ، واباحة حماه من كل جهة ، استئصالاً لشأفة قوته السياسية ، وتقليما لجميع أظفاره أن تحدثه نفسه بأدنى وقوف فى وجه قوة استعمارية ، وما دامت هى آخذة على نفسها القيام بمعظم هذه العداوة ، فان أمد الصراع بين هاتين القوتين لا يزال طويلا ، وليس من المرجح أن الانكليز هم الذين سيربحون فى هذه اتجارة .

أما القبائل المار ذكرها فقد ازدادت الوقائع بينها و بين الانكليز بعد الحرب العامة ولا يمضى شهر واحد حتى تأتى جوائب الأخبار بمعركة أو واقعة ، وقد عول الانكليز على قتال هذه القبائل بالطيارات القاذفة من عل بالكران المحشوة ديناميتاً ، وهى طريقة عمدت اليها أوربا بعد الحرب الكبرى التى ترقى فيها فن الطيران الى هذا الحد ، فصار لكل دولة مستعمرة أسراب من هذه الطيارات مرصد أكثرها للتنكيل بالأقوام التى تثور على

السلطة الاستعمارية أو تطالب بحق استقلالها ، أو لا تريد أن تطيع الأحكام الجائرة الجارية عليها . ولا ينحصر عمل هذه الطيارات بالفريق الثائر أو العصابة الخارجة ، بل الطريقة المتبعة هى أنه عند ما تبدو من ناحية علامة عصيان أو مقاومة ، ترسل الطيارات فوق القرى أو المدن فتقذف عليهـا أحمالا من الديناميت تنسف الديار ، وتقتل النساء ، والأطفال ، ولو لم يكن لأحد من أهالى تلك المدن أو القرى أدنى صلة مع الثائرين انمـا هو الارهاب ، والقاء الرعب فى القلوب ، واجراء المثلات بهؤلاء ليخشى أولئك . وقد وجدت دول الاستعمار هذه الطريقة أقرب منالا وأقل نفقة من تجريد العساكر وتعقب الثوار الى مكامنهم . ولانكلترة وزارة خاصة بالطيران تنفق سنوياً خمسة ملايين جنيه انكليزى على طيارات الشرق التى هى مرصدة لقبائل البوتان وأهل الهند وأهل جزيرة العرب والعراق ومصر الخ . كما ان عند فرنسا ألوفاً مؤلفة من هذه الطيارات تستخدمها فى المغرب وسورية . ومع هذا فـكل من هاتين الدولتين تدعى أن استخدام هـذه الوسائل الجهنمية وقتـل النساء والأطفال انما هما لأجل المدنية . . . .

* * *

من بعـد صدور هـذا الكتاب طبعته الأولى جدّت فى بلاد الافغان حوادث ذات بال خلاصتها ان الشعب انتقض على أمان الله الملك الذى تولى المملـكة بعد والده حبيب الله خان وهزم الثوار جنده فالتجأ أمان الله الى الفرار من كابول الى قندهار ومنها الى الهند حيث ركب البحر من بمباى وجاء الى أوربة واختار الاقامة برومة . وتولى عرش الأفغان من بعده نادر خان الذى كان ناظر الحربية لأوائل عهد أمان الله ثم صار سـفيراً لأفغانستان فى باريز ثم استعفى واعتزل وأقام مدة سنوات بمدينة طولون

وتحرير القصة ان أمان الله تولد فيه الميل الى التفرنج والاقتداء بالاوربيين فى كل شئ وأعجبه فى هـذا الباب مسلك مصطفى كمال المستأثر بأمور تركيا ووجد فى مصطفى كمال حجة على من خالفه فى هذا الرأى وكثر كلامه فى القضاء على العادات الاسلامية القديمـة ولا سيما حجاب النسـاء . وكان يزعم ما يزعمه رجال انقرة اليوم من أن التمسك بهـذه العادات هو الذى أفضى بالاسلام الى هذا الضعف وأن طريق النجاة الوحيد للمسلمين هو الاقتداء بالاوربيين فى مآخذهم ومتاركـهم ولباسهم وطعامهم وجميع ما عولوا عليه . وبالاختصار فـكل ما رآه الافرنج حسناً فهو حسن ولولا أن يكون الافرنج أقدر على معرفة

الحسن من غيره ما كانوا نجحوا هذا النجاح الباهر الى غير ذلك من التعليلات الانقرية الواهية المردودة بالبداهة و بحجة ان علماء الافرنج أنفسهم معترفون بأن رقى الامم المادّى لا يتم لا ضمن مقوماتها الروحية ومشخصاتها الاجتماعية و بدليل أن الافرنج تقدموا هذا التقدم فى العلوم والمعارف والفنون والصناعات ولبثوا عاضّين بالنواجذ على تقاليدهم المسيحية لا يخرجون عنها وقد يكونون أشد اعتصاماً بها من المسلمين بتقاليدهم

فأمان الله خان أعجبته خطة مصطفى كمال فى هذا الموضوع ويقال ان محمود ترزى خان الذى هو أبو زوجته وناظر الخارجية عنده كان يزين له هذا المسلك وان العلاقة الوثيقة التى كانت بينه و بين الحكومة التركية الكمالية هى التى كانت أكثر السبب فى جنوحه الى هذه الخطة

وسنة ١٩٢٨ أراد أمان الله أن يقوم بسياحة فى أوربة والبلاد الشرقية فجاء الى مصر ومعه زوجته الملكة ثريا و وافاه اليها محمود ترزى خان حموه قادماً اذ ذاك من أنقرة . و يظهر ان مصطفى كمال كان أرسل الى أمان الله بوجوب الظهور فى مصر بمظهر التفرنج الذى كان الغازى قد حمل عليه أهل تركيا وجاء ثقيلا على الشعب التركى ورأوا أنفسهم منفردين عن العالم الاسلامى فكان من جملة سياسة مصطفى كمال أن ينشر عادة سفور النساء ولبس القبعة وعادة الرقص المختلط وغير ذلك من الأمور التى أوجبها على الأتراك وأن يحمل عليها المسلمين من غيرهم كما جرى منه مؤخراً فى تقاضيه من سفير مصر بانقرة عبد الملك بك حمزة أن يخلع طربوشه فى حفلة رسمية مما أدّى الى منازعة بين مصر وتركيا وصارت مسئلة دولية بينهما . فلا شك فى أن محمود ترزى وصل الى مصر متزوداً تعليمات مصطفى كمال باشا الى أمان الله خان بأن يبدأ بنبذ التقاليد الاسلامية من مصر لأن الناس لحظوا ان الملكة ثريا دخلت الى مصر متحجبة على عادة نساء المسلمين وانها بدأت بالسفور فى مصر . وكذلك بدأ أمان الله بلبس القبعة فى مصر وأفضى الى الصحفيين بحديث معناه وجوب عدول الشعوب الاسلامية عن أزيائها الحاضرة . وذهب أمان الله خان الى الجامع الأزهر بالقبعة فبعد ان كان العلماء قد اجتمعوا هناك اعظاماً لقدومه عند ما شاهدوه آتيا بالقبعة انصرفوا مشمئزين ولكن ملك الأفغان لم يكن عنده يومئذ الا الرغبة فى تقليد مصطفى كمال وهذا الذى هوى به عن عرشه

ثم جاء أمان الله الى أوربة مع الملكة ثريا وزار عاصمة ايطاليا ثم عاصمة فرنسة ثم عاصمة سويسرة ثم عاصمة ألمانيا ثم موسكو ثم انقرة وغيرها ولقى فى كل مكان اكراماً وحفاوةً الا انه كانت أخبار تفرنجه وسفور زوجته قد وصلت الى افغانستان وهاجت عليه رجال الدين والشعب الأفغانى

ولقد كان أمان الله يكره علماء الشرع الاسلامى فى مملكته ويحب خضد شوكتهم اقتداء بجدّه عبد الرحمن خان لكن جدّه كان يقهر رجال الدين ويحطّ من مكانتهم وفى الوقت نفسه يحافظ على الدين من حيث هو وعلى العوائد الاسلامية فلهذا أمكن عبد الرحمن خان ان يقهر علماء زمانه بدون أن يتعرض لخطر الثورة فى بلاده بخلاف حفيده الذى باقدامه على ما أقدم عليه من نبذ العوائد الاسلامية والتشبُّه بالافرنج فى الكلى والجزئى قد هاج عليه حنق العلماء وأوجد لهم عليه طريقاً فهاجوا عليه القبائل وأشاعوا أن الملك استخف بالدين واستهتر واقتدى بالافرنج فى مآخذه ومتاركه وبدأ الهيجان على أمان الله فى غيابه الا أن الثورة لم تشتعل عليه الا بعد أوبته الى كابول ولم تنحصر أسبابها فى التفرنج وحمل النسوة على السفور بل اتهم الملك أعداؤه بأنه غلّ من مال الدولة وذهب الى اوربة يتنزّه وينفق على لذاته بينما قد مضى أشهر على الجند وهم لا يقبضون أرزاقهم ولا رواتبهم فتغيرت عليه قلوب عسكره . وعند ما أثار العلماء قبائل الافغان على الملك كان أكثر الناس قد انفضوا من حوله ونشبت الحرب فانكسر الجند الذى كان بقى معه وثار رجل اسمه ابن السقا أصل أبيه سقاء من رعاع الناس وهو نفسه كان من قطاع الطرق فاعصوصب حوله كثير من الدعار وممن كانوا يتربصون بالملك الدوائر وهاجوا كابول وكادوا يدخلونها ففر الملك الى قندهار التى هى مركز عشيرة الدرّانية التى ينتسب اليها بيت الملك وترك الملك لأخيه الأكبر عناية الله خان ظانا أن المشكل ينحلّ بنزوله هو عن العرش . وبايع رجال الحكومة أخاه وبقى ملكا نحواً من ثلاثة أيام اذ دخل ابن السقا هذا بأعوانه فخلعوه ايضاً ولحق بأخيه وتسلم ابن السقا زمام الأمر وقتل وفتك وحرض القبائل على قتال أمان الله والزحف اليه فى قندهار فأحس هذا بثقل الحالة وفرّ بالطيارة الى الهند ومنها أبحر الى اوربة وأول مدينة صعد اليها رومة واستقر بها لسبب لا نعلمه

أما ابن السقا فقد عضده رجال الدين واستوسق له الأمر وبقيت الامرة بيده عدة أشهر وربما كان قد طال حكمه لولا ماحدثته به نفسه من مبايعة الناس له أميراً غير مكتف

بالوزارة . ولم يكن الافغان ليقبلوا السقا أميراً لجنى بذلك على نفسه . وذهب نادر خان من طولون ومعه اخوته وزحف الى كابول بالقبائل الموالية لبيت الملك وعضده رجال الدين الذين كانوا لا يرضون بالسقا اميراً ولكنهم يخشون رجوع امان الله فهزم جنود السقا وقبض عليه وقتله ومزق شمل اتباعه واستوسق له الامر وسار بالرعية سيرة الامير العادل الحازم فى غير عنف ، الشفيق فى غير ضعف واقتفى سنتى امان الله فى الاعتناء بالعلم والتعليم وتنظيم الجيش وترقية وسائل العمران الحقيقى لكن بدون تعرض للمسائل الاجتماعية ولا تشبث باحداث انقلابات فى الازياء والعوائد والتقاليد كما أراد أن يفعل ابن عمه امان الله . ولقد خرجت بلاد الافغان من هذه الثورة منهوكة القوى فشرع نادر خان يرأب الصدوع و يضمد الجروح ونرى جيع الناس يتمنون له النجاح ويرجون الخير والفلاح لهذا الشعب الباسل المجيد الذى هو فى طليعة الشعوب الاسلامية فى الذكاء والحمية وكرم المهزة وشدة البأس

اما امان الله فبقى مدة يترقب ان يدعوه نادر شاه الى الاستواء ثانية الى العرش ولكن نادر شاه احتفظ بالعرش لنفسه لا لمجرد حبه الامارة ولا مطاوعةً للنفس الامّارة بل نزولا عند ارادة الاهالى وعلماء الشرع . فكان ذلك مما أحفظ امان الله خان وأحدث بين الملكين السابق واللاحق من الجفاء ما كل انسان يود زواله

ولما كانت الحودث التاريخية التى تهم التاريخ العام أقرب الى الثقة فيما اذا استقاها الراوى من منابعها الاصلية وحدث فيها عن اصحاب الشان رأساً رأيت ان اختم هذا المبحث عن افغانستان برواية ما جرى من الحديث بينى و بين جلالة امان الله بعد نزوله عن العرش الافغانى

كنت جد معجب بامان الله فى الدور الاول من امارته كما يتضح من الفصل الذى كتبته عنه فى الطبعة الاولى من هذا الكتاب وذلك لكونه تمّم استقلال الافغان واجتهد فى ترقية شؤون تلك الامة وكانت لى علاقة بسفرآئهِ ورجاله يوم كنت رئيساً للنادى الشرقى فى برلين سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٢٣ ولما تألفت جعية المانية افغانية فى تلك العاصمة وانتخب لها رئيس أول من الالمان انتخبت أنا لها رئيساً ثانياً . وكانت ترد لى الكتب من كابول متضمنة الشكر من جانب امان الله خان عما كنتِ ابذله من الجهد فى خدمة الدولة الافغانية .

ولهذا لما سمعت بخبر قدومه الى الغرب كنت متحفزاً لاستقباله وتقديم الواجب لجلالتهِ كرجل سبقت له معه علاقة الا انى لما علمت بما ظهر منه من مصر ثم فى اوربة من مشايعة

السياسة الانقرية التي لم أوافق ولن أوافق عليها وعلمت ان الملك فؤاداً نصحه بالمحافظة على أوابد قومه وعوائدهم ولم يسمع نصح جلالة الملك فؤاد أمسكت عن السلام عليه حتى بعد مجيئه الى لوزان حيث كنت مقيماً وتكرر عتاب حاشيته لى على ذلك ولم أفعل. وكنت متوقعاً ان لا تطول امارة امان الله بعد هذه المظاهر التي ظهر بها فى بلاد كافغانستان أهلها شديدو الاستمساك باوضاعهم الدينية والقومية.

ففي شهر رمضان سنة ١٣٤٩ جاء الملك امان الله الى سويسرة ومعه أديب خان الاديب الدمشقي الذي لى معه صحبة من ايام برلين وهو خال الملكة ثريا ونزلا فى مونترو وكالمني أديب خان بالهاتف لاجل السلام على الملك فذهبت من لوزان الى مونترو وسلمت عليه وتلطف هو فاعاد لى الزيارة بمنزلى بلوزان. وجرت بيني و بينه عدة مجالس نخلنا فيها جميع المسائل التي أوجبت الانقلاب الذي جرى فى افغانستان ولم اكتم عنه شيئاً من الانتقادات التيوجهتها علىسياسته وحررت بها بعض مقالات فىالجرائد العربية فكان جوابه عن ذلك انه قسم ماعزى اليه من الامور الى ثلاثة أقسام قسم أقرّ فيه بالخطأ والتسرُّع وقال ان مجلس وزرائه لم ينبهه له. وقسم قال انه جرت فيه مبالغة كثيرة بحسب عادة الرواة فى المبالغة. وقسم أنكر وقوعه منه بتاتاً وقال انه من باب الافتراء عليه. واخذ يذكر لى متعدد خدماته للامة الافغانية. وأجبته بان هذه الخدمات لم ينكرها أحد ولكن الناس يتمنون لو اتفق مع ابن عمه نادر خان حباً براحة هذه الامة التي أتعبتها الفتنة التي وقعت فيها واستمرت اكثر من سنة.

ثم ذكر لى رغبته فى اداء فريضة الحج الشريف وقال ان الوقت لم يسمح له بادائها يوم جاء الى أوربة ماراً بالشرق الادنى مع انها كانت فى نيته فبينت له ان ذلك كان أيضا من جملة ماآخذ الناس عليه ولكن من الممكن تلافى هذا الأمر. فابدى لى رغبته فى الكتابة لجلالة ابن سعود فى عزمه على الحج ذلك العام. فقلت له ان مثل جلالته يلاقى فى الحرمين الشريفين كل الاجلال اللائق بامثاله وان الملك ابن سعود من أحسن خلق الله وفادةً ومعاملة لكل قادم فكيف اذا كان القادم ملكاً من ملوك الاسلام. ومع هذا فقد كتبت الى جلالة ملك الحجاز ونجد بنيّة الملك أمان الله الحج تلك السنة. ولما توجه الى الحجاز لاداء الفريضة عامله الملك ابن سعود معاملة الأخ لاخيه وعاد الملك امان الله من مكة الى رومة حيث هو مقيم الآن وحيث لا يرى الناس لاقامته بها وجها.

المسلمون فى الصين

لامير شكيب

مسلمو الصين[١] كأنهم ليسوا من هذه الدنيا فالمعلومات عنهم قليلة والروايات بشأنهم متناقضة والى هذه الساعة لم يعرف المؤرخون كيف كان وصول الاسلام الى الصين. أوصل اليها بحراً من طريق الهند أم وصل براً بطريق تركستان وما وراء النهر كما أن الجغرافيين وعلماء الاحصاء الى اليوم لم يتفقوا على عدد المسلمين الصينيين فنهم من يجعله عشرين مليوناً ومنهم من يجعله خمسة وعشرين مليوناً ومنهم من يقول ثلاثون ومنهم من يقول أربعون وكثيرون أكدوا القول بأن فى الصين ٦٠ مليون مسلم ومن هؤلاء بعض علماء من مسلمى الصين جاءوا الى الاستانة ومصر وأكدوا أن المسلمين هناك لا يقلون عن ستين مليوناً وكذلك روى لى مستشار سفارة الصين فى برن قاعدة سويسرة وبخلافه قال غيرهم فأكدوا أن مسلمى الصين لا يزيدون على عشرة ملايين وان بعثة أولون Mission d'Ollone التى أرسلت بمساعدة نظارة المعارف الفرنسية وجابت بعض أقطار الصين لا تجد المسلمين يزيدون على خمسة ملايين فى جميع بلاد الصين وان كانت تقول انها لا تقدر أن تجزم بشئ .

وأما دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية ، فتقول انه لا يمكن الاعتماد على قول وثيق من جهة العدد ولكن برومهال Broumhall أرسل سؤالا الى نحو ثمانمائة شخص من أهل الصين فجاءه نحو ٢٠٠ جواب من أماكن مختلفة فأستخلص ما يأتى :

ولاية كانسو أقل ما يقدر فيها مليونان من المسلمين ومعظمه ثلاثة ملايين ونصف مليون . والمسلمون فى كانسو كثيرون فى غربى هذه الولاية ومواليدهم تزيد بالنسبة على مواليد الصينيين ويوجد نواح خلت من الاسلام بعد الثورات التى جرت ففى « ليانغ تشوفو » لم يبق سوى ٧٠ مسلماً . وفى « هسى نينغ فو » يوجد ٢٥٠ ألفاً وفى « لان تشوفو » قاعدة الولاية ٢٥ ألفاً وهم جوامع عظيمة وربما منعوهم بسبب الثورات الأخيرة من السكنى فى داخل المدن فسكنوا فى الضواحى وكانت لهم جوامع فيها كما هو الحال فى

(١) راجع صفحة ٢٩٣ و ٣٠٠ من الجزء الأول

« نينغ هسيا » و « يبنغ ليانغ » .

ولاية « شنسى » كان فيها قبل الثورات مليون مسلم ولا يظن أنه باق فيها اليوم أكثر من خمسمائة ألف . ويوجد فى « سنغان فو » سبعة جوامع وفى (تشونغ فو) ثلاثة

ولاية شانسى يقال ان فيها ٢٥ ألف مسلم

ولاية (تشيهلى) الاحصاآت تختلف كثيراً فنها ما يجعل مسلمى هذه الولاية ٢٥٠ ألفاً ومنها ما يجعلهم مليوناً وفى باكين من ٣٠ الى ٤٠ جامعا ومنها المسجد الأعظم (نين شيه) الذى يدرس فيه على رضا التركى . ويقدر عدد المسلمين فيها بعشرة آلاف . وفى أرباضها مسلمون كثيرون . كذلك فى الشمال من جدار الصين الكبير عدد وافر من المسلمين .

ولاية « شانتونغ) هم فيها من ١٠٠ الى ٢٠٠ ألف نسمة .

ولاية (هونان) هم فيها أكثر من ٢٠٠ ألف نسمة فى مدينة (هوى شينغ فو » أربعون ألفاً والقرى المجاورة كلها مسلمة وفى (شنغ شو) عشرة آلاف وأهالى « هوى تين شى » كلهم مسلمون ومساجدهم كثيرة .

ولاية (كيانغ سو) مظنون أن فيها ٢٥٠ ألف مسلم . وفى « نانغ كينغ عشرة آلاف لهم ٢٥ جامعاً

ولاية « ستشوان » ليس عندنا معلومات راهنة الا عن قسم منها فيه ٥٠ ألف مسلم والمظنون أن الولاية كلها تحوى ٢٥٠ ألفا . ومركز الاسلام هو فى الشمال الغربى من البلاد مثل (سونغ بان تينغ) وينمو الاسلام كثيراً على حدود التيبت . و بلدة (كيوشياو) فيها ١٢ اماماً و ١٠٠ اهونغ (أى عالم)

ولاية (كوى تشوا) لا يوجد فيها أكثر من عشر آلاف مسلم ولهم أربعة مساجد .

ولاية (ينان) يختلف الاحصاء فيها من ١٦٠ ألفا الى مليون . وقد نسفت الثورات من بلاد الاسلام فيها جانبا كبيراً وان مدنا كثيرة صارت قاعا صفصفا . ويقال ان مسلمى ينان يخفون عددهم الحقيقى اجتناباً لمخاوف الحكومة الصينية . ولا يختلف مسلمو ينان عن الصينيين لا فى الزى ولا فى الفكر و يظن دافيز Davies أن المسلمين فى السهول هم أضعاف

مضاعفة عماهم فى الجبال وانهم ثلاثة فى المائة أى ثلاثمائة ألف نسمة لا غير . وأما سوليه Soulié فنى مجلة العالم الاسلامى سنة ١٩٠٩ حزرهم من ٨٠٠ ألف الى مليون وكذلك المبشر رود يقول ان فى ينان مليوناً من المسلمين وعلى كل حال فحساب تيرسان Thiersant صاحب كتاب (المحمدية فى الصين Le Mahamétisme en Chine) بأن مسلمى ينانهم أربعة ملايين هو بعيد .

ولاية « هو به » ليس فيها أكثر من عشرة آلاف وفى (فوشانغ) ثلاثة مساجد وفى (هانكو) مسجدان

ولاية (كيانغ سى) هم أكثر قليلا من ٢٥٠٠

ولاية (آن هوى) فيها أربعون ألفا ويكثرون فى شماليها وفى العاصمة (انكينغ) ستة آلاف ومسجدان

ولاية « تشيكيانغ » فيها ٧٥٠٠ فقط . ومدينة (هانغ تشوفو) التى يذكرها جغرافيو العرب وشاهد فيها ابن بطوطة محلة اسلامية عظيمة غنية لم يبق فيها اليوم الا مئات من العائلات ونحو أربعة مساجد .

ولاية (كوانغ تونغ) فيها ٢٥ ألفا وأما خانسو التى يسميها جغرافيو العرب الخنساء وابن بطوطة يقول لها (سيني كالان) فلم يبق فيها سوى ١٠ آلاف مسلم وخمسة جوامع .

ولاية (كوانغ سى) فيها من ١٥ الى عشرين ألفا منهم ثمانية آلاف فى العاصمة (كوى لين) وفى هذه المدينة وفى (فوتشو) ستة جوامع .

ولاية (فوكيين) فيها ألف مسلم فقط ولهم مساجد فى (آموى) وفى (فوتشو) وفى (تشانغ تشوفو) ولا يوجد فى آموى أكثر من أربعين الى خمسين مسلما هم من طبقة مأمورى الحكومة .

ولاية منشوريا فيها ٢٠٠ ألف مسلم منهم فى مدينة موكدن ١٧ ألفا .

ولاية مونغوليا : المسلمون فيها هم فى الجنوب واحصاؤهم متعذر .

أما التركستان الصينى وان لم يدخل هنا فالاحصائيون يجعلون فيه من مليون الى مليونين وأربعمائة ألف مسلم .

ونتيجة هـذه الاحصاءات ان حدها الأصغر هو ثلاثة ملايين وسبعمائة ألف وان حـدها الأعظم هو سبعة ملايين وار بعمـائة ألف . ومن أغرب الغرائب ان المبشرين الاور بيين يناقض بعضهم بعضا فى الشهادات فى مثل ان بعضهم يذكر وسطا اسلامياً عظيما فيـه المدارس والمساجد والآخرين يقولون اننا لم نشاهد من ذلك شيئا . « انتهى بتصرف عن الانسيكلو بيدية الاسلامية » .

على أن تيرسان صاحب كتاب (المحمدية فى الصين) الواقع فى مجلدين يحصى المسلمين ٢٥ مليونا فى الصين وكذلك الجغرافى الفرنسى الشهير اليزه ركلوس يقول فى جغرافيتـه العامة ما يأتى :

« ان المسلمين لهم بال كبير فى المملـكة الصينية وقد حزرهم سكاتشـكوف بعشرين مليونا ولـكن هـذا العـدد يظهر ضئيلا بالقياس الى أقوال مؤرخين آخرين من الصين ففى ولاية كانسو كان المسلمون هم الأكثرية كما أنهم كانوا فى كثير من نواحى شمالى الصين نحو ثلث السـكان ويجب أى نحسب معهم الدونغان وسائر مسـلمى دونغارية وكولجه وتركستان الشرقى لأجل أن نعلم أهميتهم ويراهم الانسان أعلى درجة من سائر أبناء وطنهم وأعز نفوساً وأصرح نظرا وفى ولايات غربى الصين يتقلدون السـلاح وهم لايشربون المسكرات ولا التبغ ولا الافيون فتجدهم أصح اجساما من أبناء الملل الأخرى ويوجد بينهم تضامن يجعلهم أسعد حالا وأعظم ثروة من غيرهم ويفرضون على جماعاتهم ضريبة معلومة نظير العشر من الدخل لأجل انفاقه فى مصالح الجماعة وهذا فى ولايات كانسو وشنسى وفى بلاد يننان عندهم مدارس يتعلمون فيها العربية ويفهمون معانى القرآن كما ان الصلاة هى فى كل مـكان بالعربية وفى كانسو يوجد مئات من الجوامع ثم ان التجارة فى الشمال تـكاد تـكون منحصرة فى أيديهم لاسيما تجارة المواشى فتجدهم هم الذين يميرون باكين وسائر المدن الشمالية الساحلية الخ » .

وقد همت مسألة إسلام الصـين دول أوربا كثيراً لأنها توجست ولا تزال تتوجس خيفة من انتشار الاسلام فى الصين الى حد أن يصير هو الغالب عـلى تلك المملـكة التى عددها يزيد على اربعمائة مليون فاذا قدر الله دخول هذه المئات من الملايين فى الاسلام حصل انقلاب فى وجه العالم .

الاسلام فى الصين

والاسلام قديم بالهجرة فى بلاد الصين يذكر الصينيون أن أول ظهوره بين ظهرانيهم كان لعهد السلطان (تايتسونغ) وذلك فى القرن السابع للمسيح وان أول داخل من المسلمين الى تلك الديار رجل من عصبة النبي يقال له ابن حمزة جلا الى الصين بثلاثة آلاف مهاجر ونزلوا فى (سنغان فو) وانه جاء على أثرهم مسلمون آخرون من طريق البحر وأقاموا بجهات يونان . ويذكر مؤرخو الصين انه فى نواحى سنة ٧٥٨ اقبل على بحر الصين متلصصة من العرب يأخذون كل سفينة غصباً فعاثوا فى تلك البحار وجاسوا خلال الديار واكتسحوا ضواحى كنتون واحتووا على مافى الاهراء السلطانية التى هناك . وهذه تباشير دخول العرب لتلك البلاد بحسب ماورد فى تواريخ الصين .

ولم أجد الى الآن فى الكتب التى طالعتها من كتب العرب أثراً لقصة ابن حمزة هذا ولا ما يوافقها وانما روى المسعودى فى تاريخه قصة تحكيها من بعض الوجوه نؤثرها بالاختصار . وهى أن رجلا من قريش من ولد هبار بن الأسود ، خرج الى مدينة سيراف ، وكان من أرباب البصيرة وذوى الأحوال الحسنة . ثم ركب منها فى بعض مراكب بلاد الهند ، ولم يزل من مركب الى مركب ، ومن بلد الى بلد ، الى أن انتهى الى بلاد الصين الى مدينة (خانقو) ثم دعته همته الى أن سار الى ديار ملك الصين ، وكان الملك يومئذ بمدينة حمدان وهى من كبار مدنهم فأقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع ويذكر انه من أهل بيت نبوة العرب ، فأمر بعد هذه المدة الطويلة بانزاله فى بعض المساكن وازاحة العلة بما يحتاج اليه . وكتب الى الملك المقيم بخانقو يأمره بالبحث عنه ، ومسألة التجار وعما يدعيه من قرابة نبي العرب صلى الله عليه وسلم . فكتب صاحب خانقو بصحة نسبه ، فأذن له بالوصول اليه ووصله بمال واسع وأعاده الى العراق .

ويظهر من كتب العرب ، ان أول صقع عرفوه من بلاد الصين هو كاشغر . وذلك منذ سنة ست وتسعين للهجرة اذ غزاها قتيبة بن مسلم الباهلى فى خلافة الوليد بن عبد الملك الأموى . قال ابن الأثير الجزرى فى تاريخه انه سار وحمل مع الناس عيالاتهم ليضعهم بسمرقند فلما عبر النهر استعمل رجلا على معبر النهر ليمنع من يرجع الابجواز منه ،

ومضى الى فرغانة وأرسل الى شعب عصام من يسهل الطريق الى كاشغر ، وهى ادنى مدائن الصين ، فغنم وسبي وأوغل حتى بلغ قريب الصين ، فكتب اليه ملك الصين أن ابعث الى رجلا شريفاً يخبرنى عنكم وعن دينكم . فانتخب قتيبة عشرة رجال لهم جمال وألسن و باس وعقل وصلاح فأمر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن من الخز والوشى وكان منهم هبيرة ابن مشمرج الكلابى فقال لهم اذا دخلتم عليه فأعلموه انى قد حلفت أنى لا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبى خراجهم . فساروا وعليهم هبيرة فقال لهم ملك الصين قولوا لصاحبكم ينصرف فانى قد عرفت قلة أصحابه والا بعثت اليكم من يهلككم . قالوا : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون . وأما تخو يفك ايانا بالقتل فان لنا آجالا اذا حضرت فاكرمها القتل لسنا نكرهه ولا نخافه . وقد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم و يختم ملوككم وتعطوا الجزية . فقال فانا نخرجه من يمينه ونبعث تراب أرضنا فيطأه ونبعث اليه بعض ابنائنا فيختمهم ونبعث اليه بجزية يرضاها . ثم اجازهم و بعث بما ذكر الى قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم و وطئ التراب . فقال سواد ابن عبد الملك السلولى :

لاعيب فى الوفد الذين بعثتهم للصين ان سلكوا طريق المنهج
كسروا الجفون على القذى خوف الردى حاشى الكريم هبيرة بن مشمرج
ادى رسالتك التى استدعيته فأتاك من حنث اليمين بمخرج

و وصل الخبر الى قتيبة فى هذه الغزاة بموت الوليد ثم قتل قتيبة فى السنة نفسها ولا يبعد انه لو بقى حيا لاستأنف الكرة على الصين لما هو معهود من بعد همته فى الجهاد . ولا شك أن الاسلام كان قد دخل فى البلاد منذ ذلك الوقت وكثرت أتباعه ومازالوا على نمو وازدياد يلحظ ذلك من تضاعيف الحوادث المذكورة فى تواريخ العرب فقد ذكر ابن الأثير انه فى سنة أربع وستين ومائتين ظهر ببلاد الصين انسان لايعرف جمع غماراً من العامة وأهل الشر وقصد بهم مدينة خانقو وحصرها . قال وهى حصينة ولها نهر عظيم و بها عالم كثير من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس وغيرهم من أهل الصين . هذا فى القرن الثالث للهجرة وأما بعد ذلك فترى الأخبار عن مسلمى الصين كثيرة : نقل الامام أحمد القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ عن الشريف حسن بن الجلال السمرقندى وكان من السفار وممن جال الآفاق

ودخل الصين وجاب آفاقه وجاس خلاله انه قال ان من عجائب مارأى فى مملكة القان (أى الخان) انه مع كفره فى رعاياه من المسلمين أمم كثيرة وهم عنده مكرمون محترمون ومتى قتل أحد الكفار مسلماً قتل القاتل الكافر وأهل بيته ونهبت أموالهم وان قتل مسلم كافرا لايقتل به بل يطلب بديته ودية الكافر عندهم حمار لايطلب بغيره .

ولم يدخل الاسلام بيت الملك فى تلك البلاد الا ما كان ببلاد المغول فى ذرية جنكيزخان وفى كاشغر . قال ابن خلدون فى الجزء الخامس من تاريخه عند ذكر الترك انه كانت لهم دولة ببلاد تركستان وكاشغر وان ملوكهم أسلموا بعد صدر من الملة على بلادهم وملكهم وكان بينهم و بين بنى سامان القائمين فيما وراء النهر بدولة بنى العباس حرب وسلم .

قال يحيى بن أحمد بن على النسابى كاتب جلال الدين خوارزم شاه فى تاريخ دولته ان مملكة الصين منقسمة من قديم الزمان على تسعة أجزاء كل جزء منها مسيرة شهر و يتولى كل جزء منها ملك يسمى بلغتهم خان ويكون نائباً عن الخان الأعظم وكان جنكيز أحد الخانات المذكورين فتغلب عليهم جميعاً وصار الملك الأعظم . وفى كتاب ابن فضل الله محكيا عن الصاحب علاء الدين عطاء ان دينه ودين قومه كان المجوسية حتى ملكوا الأرض واستفحلت دولتهم بالعراق والشمال وماوراء الهند فأسلم من ملوكهم من هداه الله للاسلام .

وذكر ابن خلدون فى الكلام على ملوك بنى جغطاى بتركستان وكاشغر وما وراء النهر انهم كانوا أولا كلهم على دين المجوسية يعضون عليها بالنواجذ فاما صار الملك الى ترماشين منهم أسلم سنة خمس وعشرين وسبعمائة وجاهد وأكرم التجار المترددين .

وذكر الملك المؤيد صاحب حماه فى تاريخه فى خبر الملوك بنى دمرش خان وهو من أولاد جنكيز خان انه لما مات دوشى خان ولى مكانه ابنه ناظو خان ثم مات و ولى بعده طرطو خان ثم مات فولى بعده ابن أخيه واسمه بركة فأسلم على يد شمس الدين الباخورى وكان مقيما ببخارى كتب اليه يدعوه الى الاسلام فأسلم وان بركة هذا أعمل الرحلة الى لقاء شمس الدين فلم يأذن له فى الدخول حتى تطارح عليه أصحابه وسهلوا الاذن لبركة فدخل وجدد اسلامه وعاهد الشيخ على اظهار الاسلام وأن يحمل عليه سائر قومه فحملهم واتخذ المساجد والمدارس فى بلاده وقرب العلماء والفقهاء ثم ذكر المؤرخون اسلام أزبك بن طغرلجاى من سلالتهم واسلام تكدار بن هولاكو وخربندا بن ارغو ثم أحمد بن هولاكو.

وفى مختصر الدول لأبى الفرج الملطى صورة كتاب كتبه الى سلطان مصر فى ذلك الوقت جاء فيه « بقوة الله باقبال قاان فرمان أحمد . أما بعد فان الله تعالى بسابق عنايته و بنور هدايته قد كان أرشدنا فى عنفوان الصبا و ريعان الحداثة الى الاقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام بصدق نبوته (الى أن قال) وأنفذنا أقضى القضاة قطب الدين والاتابك بهاء الدين وهما من ثقات هـذه الدولة القاهرة ليعرفاهم طريقتنا و يتحقق عندهم ماينطوى عليه لعموم المسلمين جيل سنتنا و بينا لهم أنا من الله على بصيرة وأن الاسلام يجبّ ماقبله الخ ».

وقال القلقشندى (فى صبح الأعشى) ان أول من أسلم من ملوك هـذه المملكة ترماشيرين فأسلم وأحسن اسلامه وأخلص وأيد الاسلام وقام به حق القيام وأمر به أمراءه وعساكره وذكر أيضاً عن بكدار أنه أسلم .

وقد بقى الاسـلام فى أعقاب الاويغور طائفة جنكيزخان الى يومنا هـذا . ففى جغرافية اليزه ركلوس أن الاويغور والطانغون سكان بلاد كانسو كانوا قديماً من عبادة اللاما ومن النساطرة فأسلموا وأسلم بهم جميع سكان الشمال والغرب من مملكة جغطاى ثم ازداد عـددهم بمهاجرة المهاجرين من أهالى التركستان الشرقى ومسلمى المغول الذين بقوا من عهد تمرلنك و بهذا صارت الأغلبية للاسلام فى هذا القسم من مملكة الصين .

ولما دخل ابن بطوطة الصين على ماذكر فى رحلته كان الاسـلام فيها غضا وافراً حسب مايفهم من كتابه فهو يقول فى الجزء الرابع من رحلته : وفى كل مـدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون فيها بسكناهم ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها وهم معظمون محترمون .

ولما ذكر مدينة زيتون قال : وهـذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للانسان بها البستان والأرض وداره فى وسطها كمثل مافى بلدة سجلماسة فى بلادنا و بهذا عظمت بلادهم والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة . ثم قال ممن تعرفه من صدور تلك البلاد وجاء الى قاضى المسلمين تاج الدين الأردويلى وهو من الأفاضل الكرماء وشيخ الاسـلام كمال الدين عبدالله الأصفهانى وهو من الصلحاء وجاء الى من كبار التجار فيهم شرف الدين التبريزى أحـد التجار الذين استدنت منهم حـين قدومى على الهند وهؤلاء التجار لسكناهم فى بلاد

الكفار اذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح وقالوا جاء من أرض الاسلام وله يعطون زكوات أموالهم فيعود غنيا كواحد منهم .

وقال عند ذكره مدينة صين كلان ان ببعض جهاتها بلدة المسلمين لهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق ولهم قاض وشيخ ولابد فى كل بلد من بلاد الصين من شيخ الاسلام تكون أمور المسلمين كلها راجعة اليه وقاض يقضى بينهم وكان نزولى عند أوحد الدين السنجارى وهو أحد الفضلاء الأكابر وذوى الأموال الطائلة .

وذكر عند وصوله الى مدينة قنجنفو ان المسلمين فيها يسكنون داخل السور الثالث وانه نزل عند شيخهم ظهير الدين القرلانى وقال عن الخنساء انها ست مدن كبار وان بالمدينة الثانية منها مسكن اليهود والنصارى والترك وبالثالثة مسكن المسلمين وبها المساجد ولأولاد عثمان بن عفان المصرى وهم كبراء المسلمين فيها زاوية تعرف بالعثمانية وبها طائفة من الصوفية والمسلمون كثيرون فى هذه البلدة .

والظاهر أن الاسلام ما برح ينتشر فى آفاق الصين حتى بلغ عدد أهله عشرات من الملايين . زعم سكاتشوف أنهم عشرون مليوناً فقط وذهب الأكثرون الى أن عددهم فوق هذا بكثير وأحصاهم صاحب كتاب (Le Mhaométisme en Chine المحمدية فى الصين) خمسة وعشرين مليوناً وزعم بعضهم انهم أربعون مليوناً وقال آخرون انهم يربون أيضاً على ذلك وان السواد الأعظم فى ولاية كانسو هو منهم وهناك مدينتا سالار وكنسكيابو محطا رحال الطلاب والمتفقهين من جميع أقطار الاسلام الصينية . وقد أحصى عدد المساجد فى بعض مدن كانسو فبلغ مئات وهو مالم يعهد الا لعواصم الاسلام الكبرى مثل الاستانة العلية ودمشق والقاهرة وان كثيراً من ولايات الصين الشمالية ثلثها من المسلمين وهم أهل التجارة والكد والعمل ولذلك تجد حالتهم أجل وأزين من حالة بقية الصينيين وكثيراً ما يأخذون أولاد الفقراء من الوثنيين ويربونهم فى حجر الاسلام خصوصا عند حصول المجاعات الشديدة . وقد شدد فقهاؤهم عليهم فى أداء الزكوات فيجمعونها فى صناديق لكل بلد ينفقون منها فى شدائدهم ويسدون بها عوز محاويجهم فتجد المعدمين منهم قليلين ولهم بعضهم على بعض حنان ورأفة وحفيظة فيما بينهم وعلى عدوهم لا توجد فى الأمم التى تساكنهم كذلك بسبب تجافيهم الأفيون وأنواع المسكرات تجد أجسامهم أحسن

من اجسام غيرهم فهم يفوقون جيرانهم الصينيين صورة ومعنى و يسميهم الصينيون «هواى هواى» وهذا لقب طائفة الاو يغور فى الماضى وأما هم فيؤثرون أن يسموا «كيا ومن» اى أهل الدين عطفاً على «ان الدين عند الله الاسلام» . ومسلمو بلاد يونان الجنوبية يعرفون باسم «بانطى» وجميع المسلمين هناك يتميزون عن سائر الأهالى بملامحهم وشاراتهم ووحدة ملابسهم ويلوح عليهم من النعرة والأنفة مالا يلوح على سواهم وكلهم من أهل السنة والجماعة ولكنهم فى الفقه فئتان الحنفية والشافعية وهم يكرهون جداً الاختلاط بالوثنيين ولا يزوجونهم وانما يأخذون من بناتهم فى الأحايين شراء بالدرهم .

وقد وقعت لمسلمى الصين فى هذا القرن مع أهل تلك المملكة حروب تشيب لها الأطفال اذا استقصى خبرها المؤرخ لم تكفه فيها المجلدات وملخصها أن اول ثورة حصلت هناك هى فى بلاد يونان بسبب عملة من الفريقين كانوا يعملون فى أحد المعادن فأسفر القتال عن الغلب للمسلمين وتكررت الحوادث والظهور لهم حتى بلغ الحنق من ولاة الصين مبلغه فاستنفروا اليهم الوثنيين قاطبة ونادوا باستئصال شأفتهم وتعفية آثارهم وذلك فى يوم معين من شهر ايار (مايو) أحد شهور سنة ١٨٥٦ فاستشعر المسلمون ذلك قبل وقوعه وأخذوا له أهبتهم وجروا واستلأموا فلما وقعت الواقعة توفرت الطائلة لجهتهم ولم تنل الحكومة منهم مأرباً الا فى القرى التى مسلموها قليلون . وتكررت الوقائع وصمد الفريقان بعضهم لبعض من أكثر جهات البلاد والمسلمون فى غلبة وظهور حتى افتتحوا عنوة مدينة «طالى فو» وهى منيعة حصينة من الطراز الأول فى حصون الصين وفتحوا منها طريقاً الى برمانيا يسربون منه اليها الميرة والسلاح ثم استولوا على مدينة «يونان فو» حاضرة البلاد ومضى على دولتهم هذه وهبوب ريحهم بتلك الأرض ثلاث عشرة سنة والصين لا تزداد أمامهم الا انخذالا حتى أيقنت أن لا قبل لها بقهرهم بذباب السيف فمالت الى اعمال الحيلة والدسائس وجاذبت زعماءهم حبال الرشوة ومنتهم الأمانى وأدرّت عليهم العطايا الوافرة سراً وولتهم الأعمال الخطيرة حتى فصمت عرى اتحادهم وحلت بنفثات سحرها عقدة جامعتهم بل استمالت بعض رؤسائهم الى أن وقفوا فى صفها يقاتلون بنى ملتهم فبديهىّ أن تنحل بعد ذلك عصبتهم وتفشل ريحهم وأن يزرع الصينيون فيهم الانتقام حتى يهلك منهم ثلاثون الفاً بحد السيف ويلحق اقوام منهم بمملكة برمانيا .

أما فى شمالى الصين فاستطار شرر الفتنة سنة ١٨٦٠ وذلك فى « هواتشيو » شرقى « سينغان فو » وكانت الدائرة على الصينيين وتأثرهم المسلمون فى كل سهل وجبل يقتلون ويسبون ولكنهم عجزوا عن دخول « سينغان فو » لمناعة أسوارها ثم امتد لهيب الثورة فى تلك البلاد ونادى منادى الاسلام بيا للثارات فقاموا قيامة الرجل الواحد وفر الصينيون والمغول من أمامهم وانهال المسلمون فى أثرهم يشلونهم شلا ويستقصونهم أسراً وقتلا وامتلأت ولايات شانسى وكانسو عيثاً ودمارا والتجأ الوثنيون الى الكهوف والمغاور وظنوا أنها ما نعتهم فلم تكن بمانعتهم واشتمل الخراب على تلك البلاد حتى لم يبق قرية الا خوت على عروشها ولم يذر المسلمون الا على المسيحيين ولم يبق عامراً من تلك الجهات الا الأمصار الكبيرة بما أدير عليها من سياج الأسوار . وقدّر عدد الذين هلكوا فى هذه المعمعة بالملايين . وحدث بعض مؤرخى الافرنج أن من المسلمين من بلغ منه الحنق أن قتل أولاده وامرأته ليتوفر على الجهاد . والحاصل أن هذه الفتنة كانت من أكبر الفتن واستمرت خمسة عشر عاماً كاد ينقطع أمل الصين فى خللها من استرداد البلاد ولكن لم يلبث الشقاق ان دخل بين المسلمين فأدخل عليهم الوهن وتشظت عصاهم قطعاً فنالت منهم عساكر الامبراطور واسترجعت الشانسى ثم الكانسو ثم معاقل تيان شان و بددت شمل الباقين من الثوار فى دز ونغاريا ولكنهم لا يزالون الى الآن أهل صولة وشوكة وشأنهم على ازدياد وجدهم فى صعود ومنهم كثير من الحكام وقواد الجيش . وكثير من المؤرخين الأوربيين يظنون أن لهم وحدهم مستقبل السلطان فى الصين . وقد بعثت الدولة الروسية مرة بعثا علميا جال فى الصين وجاب آفاقها واطلع على دخائل أمورها فكان من جملة ما قرره تحذير الروسية من مستقبل الاسلام فى تلك المملكة لأنه ينمو و يتقدم واذا أخذ يوماً بزمام الدولة انقلبت هيئة الشرق الأقصى انقلاباً عظيما لأن الصين اسلامية ليست كالصين وثنية (وأنتم الأعلون إنْ كنتم مؤْمنينَ) (١)

(١) كان محرر هذه السطور قد نشر مقالات متتابعة فى مجلة المقتطف عن الصين وأحوالها فى سنة ١٩٠١ ؛ وعقد فصلا خاصاً بالاسلام فى الصين يغنى اعادة نشره عن البحث والتنقيب فى كتب ورحلات كثيرة لأنه تمحص تمحيصاً جيداً (وهو هذا الفصل المتقدم) فلذلك نقلناه بعينه عن مجلة المقتطف جزء تموز (يوليو) سنة ١٩٠١ . ونضيف اليه التحقيقات التى جدت بعد هذا العهد مثل أقوال بعثة اولون وكلام الانسيكلوبيدية الاسلامية مع ملاحظاتنا عليها .

***

ولقد ذهبت بعثة أولون الفرنسوية فجالت فى كثير من بلاد الصين من سنة ١٩٠٦ الى سنة ١٩٠٩ ونشرت عن مشهوداتها وما اتصلت اليه من المعلومات كتاباً ذكرت فى مقدمته أن أصل ارسالها كان من نظارة المعارف لأجل فحص عام عن أحوال الصين. ولكن بعض العلماء استجلبوا نظر النظارة المشار اليها الى موضوع اسلام الصين بنوع خاص. فلذلك وجهت همها الى التحقيق عن أحوال المسلمين فى الصين ونشرت ذلك الكتاب الذى تضمن خلاصة تدقيقاتها.

وهى ان المسلمين لم يكونوا يؤلفون فى كل ولاية وحدة مستقلة قائمة بذاتها وان بين مسلمى الصين مذاهب مختلفة خلافا لما كان يظنه السياح من قبل وان الطرق الصوفية معروفة لديهم. وظهر لبعثة اولون هذه فى آخر أيام سياحتها وجود علاقات سرية بين مسلمى الصين ومسلمى الشرق الادنى.

و بعد تحرير بعثة اولون ما حررته عن مسلمى الصين ظهر كتاب انكليزى اسمه (الاسلام فى الصين) لسائح اسمه بر ومهال وذلك فى ٢٥ يناير سنة ١٩١١ وهو كتاب قضى صاحبه ١٩ سنة فى السياحة فى الصين والبحث والتنقيب وأخذ عن نحو ٢٠٠ رجل أمدوه بمعلوماتهم. فتهافت على قراءته رجال بعثة اولون لعلهم يجدون شيئاً لم يحصوه فى كتابهم فاذا به بزعمهم لم يكشف شيئاً جديداً فاتهم واذا هو لايخرج عن كتاب تيرسان Thiersant الفرنسى.

و بحسب تحقيقات بعثة اولون كان ظهور الاسلام فى ولاية يناں ور بما فى كل الصين على يد الرجل الملقب « بالسيد الاجل » وهو سيد شريف من آل البيت اسمه شمس الدين عمر دخل فى خدمة دولة الصين ونصح لها وكان من أفراد الرجال فى جميع المزايا فتقدم فى الدولة وتولى المناصب العالية وانتهى الامر بأن السلطنة عهدت اليه بولاية يناں فأفاض الخير ونشر الامان ووزع العدل وأتى من المآثر مالا يزال الصينيون يلهجون به الى هذا اليوم وكان دخول الاسلام الى يناں فى عهده.

وجاء فى تاريخ « كيوسين تانغ شو » انه فى صدر الاسلام ورد الصين عسكر عربى عدته ثلاثة آلاف ومن ذلك الوقت دخل الاسلام فى الصين و يظن ان هذا الحادث وقع سنة ٧٥٦ مسيحية.

ويقال ان أصل مجيء المسلمين الى الصين هو لأجل معاضدة سلطان مخلوع من سلاطين الصين . ومن ذلك الوقت صاروا يخدمون قواداً وأجناداً فى بلاط السلاطين و بقيت هذه العادة الى عصرنا الحاضر فيجد الانسان توابير تامة من المسلمين يقودها أمراء من المسلمين فى دولة الصين .

وأما السيد الاجل فقد اطلعوا فى ينان على تاريخ محرر فى سنة ١٦٨٤ يقال فيه انه لما زحف جنكيز خان الى الغرب جاء السيد الاجل عمر بألف فارس وقدم له الطاعة فأكرمه وجعله من بطانته (١٢٠٦ — ١٢٢٩) ولما آل الأمر الى السلطان أوغوناى (١٢٣٠ — ١٢٤٢) ولاه ثلاث ولايات وهى « فونغ » و (تسينغ) و (يون ناى) ثم استدعاه الى باكين وعهد اليه بمنصب عال . ثم لما تولى السلطان نانغو (١٢٥١ — ١٢٥٩) عهد اليه بادارة ست نظارات بالاشتراك مع (تا اول هوان) ثم جعله مديرا عاماً لمقاطعة (يان كينغ) فأحسن الادارة جداً فعهد اليه بنظارة الاستخبارات . ثم لما زحف السلطان الى بلاد (تسو تشوان) جعله ناظرا للميرة العسكرية فقام بها أحسن قيام فلما تولى السلطان قو بيلاى أعطاه رتبة الوزارة وجعله عضواً فى مجلس أمانة السر الاعلى . وكان كلما تقلد عملا ظهرت فيه فضائله وحاز رضى السلطنة . وسنة ١٢٧٤ تقدم اليه السلطان فى ان يقبل ولاية ينان وكانت أحوالها مختلفة وكان أهل ينان شديدى الغباوة والجهل فلما ذهب الى هناك وجد القيادة فى يد أمير من بيت السلطنة نخاف هذا منه واراد أن يجاذبه الحبل الا ان السيد الاجل بحكمته وحسن سياسته استماله اليه وصيره صديقا . وكانت تلك الولاية فى غاية الانحطاط والبلاد خرابا فنشر السيد الاجل العلم و بنى المدارس واعتنى بتهذيب الاخلاق وكذلك وجه همته الى عمارة الارضين فمهد الطرق و بنى المعابر والجسور والسدود لاجل المياه مما تلافى به خطر القحط فكانت بعض الانهار تطغى على الاراضى فتذهب بها زروع الفلاحين فجعل لها حواجز تقى من ضرر الطغيان . وكانت أراضى أخرى تعطش فى الصيف من قلة المياه فبنى خزّانات وحياضا احتياطا من وراء العطش . وأزال المغارم والمظالم وأبطل السخرة وشيد ملاجئ للايتام والعجزة وخفف المكوس وأحدث انموذجات زراعية يحتذى على مثالها وحفر الآبار وأقام الأسواق وأدخل فى طاعة الدولة مالا يعد ولا يحصى من الأقوام وأثناء وجوده فى تلك الولاية عمر مساجد للاسلام ولكنه شيد أيضاً هياكل لكونفوشيوس

ولبوذا . وكانت ولايته تضم عشرين مقاطعة فيحدها من الشرق سونغ ومن الغرب بيرمانيه ومن الشمال التبت ومن الجنوب آنام. وبحسن سياسة السيد الاجل خضع ملوك التونكين وآنام لسلطان الصين .

ومن نوادر حكمته أن ملك لوبان ثار على السلطنة ، فصدر الأمر الى السيد الاجل بالزحف اليه فلما سار بالجيش رآه الناس حزيناً كئيباً فسألوه عن سبب كآبته فأجاب : است كئيبا لكونى ذاهباً الى الحرب بل لكونى أتصور منكم كثيراً سيهلكون فى هذه الملحمة بدون ذنب اقترفوه وأنهم سيقتلون وينهبون أناساً كثيرين موادعين لا ذنب لهم أيضاً . ولما وصل الى مكان الثورة أرسل الى الثوار يعرض عليهم التسليم فلبثوا ثلاثة أيام لا يجاوبون فهاج العسكر وطلب القواد الاذن بالهجوم فلم يأذن لهم بل راجع رئيس الثوار فى أمر التسليم فأظهر هذا الطاعة لكنه لم يسلم البلدة فوثب رؤساء الجند على البلدة فغضب السيد الاجل واستدعاهم وقال لهم : ان ابن السماء أمرنى أن أتولى بلاد ينان وأحكم فيها بالعدل والأمان لا بالقتل والعدوان فلا أرضى أن تهاجموا البلد ما دام الثائرون وعدوا بالطاعة فان أبيتم الا سفك الدماء فجزاؤكم القتل . ثم أوثق الضباط الذين أرادوا الهجوم خلافا لأمره . فلما سمع الثوار بما حصل جاءوا وسلموا وسكنت البلاد وأطاعت على بكرة أبيها .

وكان سائر العمال يقتدون بسيرة السيد الاجل ويتباهون بأعماله فأمنت السوابل واستراحت الرعية وساد العدل وفاضت الخيرات وعمرت البلاد وصار يقال هنيئا لبلاد ينان . أما آثاره فى الزراعة فلا تزال بقاياها الى الآن وان كثيراً مما بناه من الجسور لا يزال قائماً الى يومنا هذا .

وكانت بلاد « تشاوتيان » تطغى عليها الأنهر فتتحول الى بحيرة ، فحفر السيد الأجل نهراً حدر اليه تلك المياه كلها فصرفها عن الأراضى التى كان الماء يغمرها من قبل . وحفر ترعا كثيرة وخلجا لسقيا البقاع المحتاجة الى الرى . وجعل بريداً مؤلفاً من ٣٦٠ فارساً وحراساً بقدرهم يسهرون على السدود بحيث اذا حصل فتق فى أحدها أسرعت البرد باخبار الحكومة فجمعت الحكومة الاهالى ونهضوا لرتق الفتق .

وفات السيد الاجل رحمه الله سنة ١٢٧٩ (مسيحية) فكان له مأتم عم الصين

بأسرها و بكاه أهل ينان كما يبكى الاولاد أباهم . وعم الحداد البلاد المجاورة الى بلاد سونغ وتبت وغيرها وذبحت القرابين فى البلاط السلطانى .

وخلف خمسة أولاد و ١٩ حفيدا فكان خلفه فى الامارة ابنه ثم ابن ابنه وتداول أحفاده الامارة وكانوا جميعا أعضادا للسلطنة .

وفى أيام دولة «مينغ» راجع السلطان « تاى تسوكاو هوانغ تى » (١٣٦٨ — ١٣٩٩) تراجم وزراء الدولة السابقة فلم يجد بينهم فى الحكمة والعدل والرفق بالرعية ووفرة آثار العمران مثل السيد الاجل فأمر بتسجيل سيرته فى كتاب خاص بقيد المآثر اسمه « ين تشه شو » وأن يدرس هذا الكتاب للطلبة و ينشر فى المملكة وقد ثبت هذا السلطان لقب السيد الاجل وهو « الأمير الأمين المحسن » وأمر ببناء هياكل تذبح فيها القرابين عن روحه .

وسنة ١٤٠٥ صدر أمر الحكومه الصينية بتأليف سيرة للسيد الاجل بقلم « تسينغ هو » ويوجد فى بلاد ينان هيكل باسم الامير « هيان يانغ » وهو لقب السيد الاجل عند الصينيين . ولا تزال أعقاب السيد الاجل الى اليوم وأسرته معروفة منذ ٨٥٠ سنة . وأما أولاده الخمسة فأولهم نصير الدين والصينيون يقولون له « ناسولا تينغ » صار وزيرا للدولة ثم واليا على شنسى ثم على ينان ومات سنة ١٢٩٢ والثانى حسن صار قائدا عاما لجيوش « كوانغ تونغ » والثالث حسين صار وزيراً للدولة ثم والياً على ولاية « كيانغ سى » ثم والياً وقائداً عاماً لولاية ينان بعد أخيه نصير الدين والرابع شمس الدين عمر كان مديراً عاما لمقاطعة « كيين تشانغ » من ولاية كيانغ سى والخامس مسعود والصينيون يقولون له « ماسوهو » وصار وزيراً ثم والياً على ينان .

أما أحفاده فأشهرهم « بايان فنتشان » من أولاد نصير الدين صار وزيراً للعدلية ثم والياً عاماً على ينان بعد عمه الحسين وقد نال ألقاب جده كلها وأسرع لنجدة الامبراطور فى باكين فنال لقب الأمير الأمين المجتهد . وهو الذى رمم المسجد الأعظم فى سينغان فو ونال للدين الاسلامى من الدولة الصينية اسم « الدين الطاهر الحق » . ومن أولئك الاحفاد عمر والصينيون يقولون له « قوما أول » وكان من وزراء الدولة وصار واليا على « كيانغ تشو »

ومنهم جعفر كان قائدا عاماً لعساكر « كينغ هو » ومنهم حسين صار وزيراً للدولة وخلف أخاه بايان تشيان على ولاية ينان . وشادى صار حاكما فى احدى مقاطعات ينان . وأيوب والصينيون يقولون له « ايونغ » وكان مدير قلم التشريفات فى دار القرابين . و بيانتشار صار وزيراً للقلم الأعلى ولقبه الامبراطور بالجابى الأكبر . وبرهان وصار حاكما فى « يونان سين » و « كولى » وكان قائداً عاماً لعساكر هونان

ومن أحفاد أحفاد السيد بعده بسبعة بطون رجل يقال له حاجى والصينيون يقولون له « سى هاتشى » أدى اليه سلطان الصين مبالغ من النقود بنى بها مساجد فى نانكين وسينغان فو . ومن أعيان هذه الاسرة رجل اسمه يوسف بينه و بين السيد الأجل ١٤ بطناً ولد فى نحو سنة ١٦٠٠ والصينيون يسمونه ماشيكونغ وكان عالماً فاضلا ذهب الى باكين سنة ١٦٦٥ واستشاره الامبراطور فى الأمور الدينية والعسكرية وصار مدرساً فى مدرسة « كووتسوكيين » وسنة ١٦٨٥ نشر كتاباً اسمه « بوصلة الاسلام »[1] ومنهم فى عصرنا هذا أمير ألاى كان فى الجيش الصينى سنة ١٩٠٧ . ومنهم رئيس جاعة مسلمى « ينان فو » وناظر أوقافهم . ورأس هذه الأسرة اليوم هو « نافاتسينغ » امام جامع ماشوكيا .

و يوجد أسر أخرى هاشمية فى الصين فان كتاباً اسمه « حياة محمد » ألفه صينى اسمه « ليوتشيه » فيه مقدمة من قلم رجل يقال له سايو من ذرية الرسول ﷺ وتاريخ هذا الكتاب سنة ١٧٧٥ .

وسنة ١٤٤٥ كان فى مدينة سينغان فو أسرة شريفة نبوية منها حافظ بن كولى محمد ابن الشريف بدر الدين بن شمس الدين . والذى يظهر أن الثورات التى قام بها المسلمون فى القرن الماضى قد أضرت بهم وأوقفت تقدمهم ولولاها كانت لهم الكلمة العليا فى حكومة الصين . وقد ظهرت لبعثة أولون آثار الفتنة الأخيرة ورأت بعينها الخراب الذى أصاب الديار ولحظت النقص الذى لحق بالنفوس والثمرات وعرفت أن كثيرين من المسلمين لا يزالون تحت المراقبة . وقد سألت بعثة أولون أحد أدباء « لان تشيو » واسمه « قوق ين » قيل لها انه أعلم من يوجد بأخبار هذه الثورة فقص لها ما يأتى : —

(١) البوصلة ابرة المغنطيس التى يعتمد عليها البحارة

«سنة ١٨٦٤ ثارت فتنة فى الشرق والغرب من الصين أصلها اثنان « مياو باى لين » و « ماهوا لونغ » فأخذا يعيثان فساداً فى كانسو واتصل الثانى منهما بثوار كانوا عصوا فى جنو بى شنسى وشماليها فأثار أهالى «تينغ هيا» وأهالى «شان هوا» وأهالى «منينغ تيا واينغ» وهذه هى مدينة فى شمالى سور الصين فساقت الحكومة جيوشاً على نينغ هيا وحاصرتها وقتلت خلقاً كثيراً ثم افتتحتها عام ١٨٦٥ بعد حروب طويلة . الا أنه سنة ١٨٦٨ عادت الثورة فاشتعلت فساقت الحكومة جيوشا وسفكت دماء كثيرة واستردت كثيراً من المدن العاصية . وسنة ١٨٧١ أسرت ماهوالونغ وزعيما آخر اسمه ماباتسياو وصلبتهما وهاجت مدن هوتشيو وسينينغ وسوتشيو وأخذت الثورة فى جميع بلاد شنسى وكانسو . وسنة ١٨٧٤ زحف جيش « ليوكين تانغ » وجيش « كين شوان » قاصدين الزعيم الدينى « باى ين هو » وهاجا « نغان تسى ين » أو كاشغر فانهزم الزعيم الى أرض الروس وقتل ملك كاشغر وتحددت حدود « سين كيانغ » أى التركستان الصينى من الشمال والجنوب . ونصبت الصين ليوكين تانغ والياً عاماً على كاشغر» انتهى

فظهر من هنا أن ماهوالونغ الثائر المسلم حمل كبر الثورة مدة ست سنوات ولولاه لم يتمكن يعقوب بك سلطان كاشغر من يعمل شيئاً وأن سلطنة كاشغر لم تستمر ١٣ سنة الا بفضل ثورة ماهوا لونغ المذكور وقد لعب الدور الأعظم فى قتال المسلمين الجنرال « تونغ فوسيانغ» وهو هو الذى ترأس ثورة البوكسر الشهيرة على الأوربيين سنة ١٩٠٠ ولما طلبت دول أوروبا من الصين تسليمه فر الى كانسو وتخبأ بها . وكانت له قصور شاهقة وأراض واسعة ومات سنة ١٩٠٧ وأعيدت اليه بعد الموت الألقاب التشريفية التى كانت دولة الصين نزعتها منه اجابة لطلب الدول وكانوا يظنون فى أوربا هذا الجنرال مسلماً وذلك لوجود عساكر كثيرة من المسلمين يلبسون العمائم فى جيشه فالتبس عليهم الأمر والحقيقة أن هذا الجنرال كان أعدى أعداء الاسلام وأنه من شدة خبثه ومكره ضرب بعضهم ببعض وأوقع بأسهم بينهم لا سيما بواسطة القائد المسلم « مغان لينغ » الذى فتك كثيراً بأبناء ملته .

وأما ثورة يونان فاستمرت من سنة ١٨٥٥ الى ١٨٧٣ وانتهت بالويل على المسلمين . وسبب انكسارهم اختلاف رؤسائهم وعدم تذكرهم قوله تعالى « وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » فان الثائر « توفنسيو » نودى بهسلطانا فى « تالى » ولكن الزعيمين

« ماتوسين » و « ماجولونغ » قاتلاه وانتصرا لحكومة الصين . وكان للثائر ماهوا لونغ شيعة يقولون انه قطب الوقت وان القطبانية انتقلت بعد وفاته الى خلفائه . وقد خلفه صهره « ماتاهي » وفى سنة ١٩٠٨ كان عمره ٥٥ سنة وحفيده « مااول هي » وكان عمره ثلاثين سنة تبع كلا منهما حزب الا أن حزب الصهر أعظم . ومركز الصهر « شاكيو » ومركز الحفيد « تانغ كياوتشوان » وهذه هي ناحية عظيمة الشأن فى اسلام الصين فيها مدرسة كافية لهم فى « بينغ لينغ » وهذه الفرقة تلقب سائر المسلمين بالظاهرية . ويقولون فى كانسو ان الخلفاء الراشدين الأربعة أسسوا كل منهم طريقة فأبو بكر طريقته الخفية يذكرون بصوت منخفض والثانية الجهورية يذكرون بصوت عال وهى طريقة عمر والثالثة الكبارية أو الكبروية وهى طريقة عثمان لأنه كان كبيراً مسنا والرابعة القادرية وهى طريقة على . والحاصل أن الانقسام الذى يراه السياح الأوربيون ورواد حكوماتهم بين مسلمى الصين ويؤولون له التأويلات بحسب عادتهم هو عبارة عن فرقة القائلين بالشريعة المحضة بدون نظر الى التوصف وفرقة القائلين بالتصوف والآخذين بالطرق على أنها لاتنافى الشريعة . فالأوربيون مثل بعثة اولون يرون فى ذلك ديانتين .

ومن عادة مسلمى الصين أن يشتروا أولاد الوثنيين ويربوهم فى الاسلام روى ذلك تيرسان صاحب « المحمدية فى الصين » وغرونارد Grenard وقالت بعثة اولون انها لما مرت من هناك كانت فى الصين مخمصة شديدة فكان الصينيون يبيعون أولادهم والمسلمون يشترونهم لأن المسلمين بتماسكهم أيسر حالا من الصينيين . وفى ثورة البوكسر قتل ألوف من المسيحيين ونهبت أموالهم وبيعت نساؤهم وأولادهم فاشترى مسلمو « نينغ هيا » عدداً منهم وهذا محقق لأن مطران مغولية كان يسعى فى استردادهم .

وفى شمالى نينغ هيا عاد الاسلام ينمو ويزداد وجميع المسلمين يتجرون بالجلد والصوف وكل نواتية الأنهر لاسيما النهر الأصغر هم منهم . والمدينة التى على هذا النهر المسماة « باوتار » شغلها كله فى أيديهم . والمدينة المسماة « كوكوكوتا » أى الزرقاء التى فيها من كل الأجناس يسكنها ٢٠٠٠ أسرة مسلمة . ويقول اولون انه صادف فيها رجلا مسلما يعرف وجود الخليفة فى الاستانة لأنه كان ذهب الى باكين وتلاقى مع على رضا وحسن حافظ ورجع ومعه صورهما وصورة راية الخليفة . قال أولون : على أنه اذا انبثت هذه الدعوة هناك

دخل الاسلام الصينى فى طور جديد . ولكن أولون لو انتظر الى هذه الأيام لعرف أن كثيراً من حزب التجدد فى الأتراك يرون الخلافة ضرراً عليهم ولذلك قد ألغوها وأخرجوها من الاستانة .

وكان السلطان عبد الحميد أرسل من الاستانة حسن حافظا وعلى رضا فأسسا مدرسة فى مسجد نيوكياى كان فيها ١٢٠ طالبا وأقبل المسلمون عليهما لالكونهما قادمين من قبل خليفة المسلمين لأن هؤلاء فى الصين لم يكونوا يعرفون هذا الأمر وانما احتفلوا بهما لأنهما آتيان من الآفاق التى ظهر فيها النبي صلى الله عليه وسلم ولقد بث هذان الداعيان روح الانضمام الى الخلافة ورفعا العلم العثمانى و زارا بلاد هونان ونغان هواى وكوانغ تونغ أعظم الحواضر الاسلامية ونشرا فى الصين الجرائد الاسلامية منها عثمانية أو تركية ومصرية وروسية و بلغارية ويوجد اليوم جريدة اسلامية فى باكين اسمها « تشنغ تسونغ نغاى كوباو » أى الجريدة الوطنية .

وفى باكين ٢٩ جامعا أكبرها « نيوكياى » ومنها جامع « سيتان باى ليو » كان هيكلا وثنياً الى سنة ١٩٠٠ فلما ثارت ثورة البوكسر جعلوه مركزا لهم فلما زحفت جيوش الدول الى باكين خاف الصينيون أن يحرقوه فعرض أحد علماء المسلمين أن يحوله جامعا ويرفع منه الأصنام حتى يظنه الأوربيون مسجدا للاسلام فلا يتعرضوا له فرضى الصينيون بذلك ولما انتهت الحرب أبقوه جامعا وهو من أعظم جوامع باكين .

أما بلاد كاشغر فبعد أن خمدت فيها الثورة أخذت الدولة الصينية ادارتها بيدها وجعلت فى كل من مدنها الكبار مفوضاً امبرطورياً وقائداً عسكرياً . فمدن غربى كاشغر هى كاشغر و باركند و يانغى حصار وقوطان . وأما مدن شرقى هذا القطر فهى أوش واكسو وكوتشار و بيدجان وهالى وطورقان وهار اشار . والجميع احدى عشر مدينة كل منها يتبعها مدن عديدة فعين لكل منها قاض لفصل قضايا المسلمين ولا بد لكل هؤلاء أن يذهبوا كل سنة مرة الى العاصمة كما أنه يأتى كل سنة مفتشون من العاصمة للتفتيش عن أحوال المسلمين .

أما الانسيكلو بيدية الاسلامية فتذكر ما ملخصه : أن أصل دخول الاسلام فى الصين هو لأجل التجارة لأن المسلمين بعد أن تاثلت دولتهم فى بغداد سارت سفنهم من خليج

فارس الى الهند والصين وعرفوا ثغور الصين من صدر الاسلام كما أنهم من الجهة الأخرى دخلوا الى شمالى الصين بواسطة الترك من زمان جنكيز خان وأعقابه فان جنكيز لم يكن يعبأ بالدين وكان يجمع حواليه من جميع الملل ودخل فى جنده كثير من الترك والأفغان والبا تتان وأناس من الفرس وفى زمان قو بيلاى خان دخل جماعة من الفرس فى خدمة دولة الصين وذكر منهم ابن بطوطة أناساً فى رحلته وأشار اليهم السائح الايطالى ماركو بولو وكان كل هؤلاء مسلمين فنشروا الاسلام فى الصين . وكان فى زمن جنكيز اتصل بخدمة بلاطه رجل من بخارى يدعى أنه من آل البيت اسمه السيد الأجل ولهذا الرجل تراجم عديدة ذكرتها الأنسيكلو بيدية ونقلت منها تتفاً وقالت ان ماركو بولو تكلم على ابنه نصير الدين وروت كثيراً من أخباره عن رحلة أولون واليه والى ابنه هذا تعزو ظهور الاسلام فى ينان .

أما حالة المسلمين الاجتماعية فهى كما هى فى سائر بلاد الاسلام والعمل انما هو بالشرع الشريف . على أن تيرسان يروى أن مسلمى الصين مضطرون فى أمر الزواج أن يتقيدوا بقانون المملكة الصينية ولو خالف الشرع ولا نعلم مبلغ ذلك من الصحة . ويقول أولون ان الحجاب غير معهود عند نساء المسلمين فى الصين بل النساء يخرجن سافرات وهكذا يقول غره نار الا أنه يستثنى من ذلك نساء الأغنياء ، وفى هوتشو يتنقب النساء المسلمات بنقاب أسود تحت الاعين. وعادة وضع القدم فى القالب لتصغيره معروفة عند المسلمين كما عند سائر الصينيين وفى كانسو يتنافس بها المسلمون اكثر من سواهم . ويتزوج المسلم بالصينية بل يستحب أن يأخذ غير مسلمة لعل الله يشرح صدرها للاسلام ولكن لا يحل لمسلمة أن تتزوج بغير مسلم . ومع التشديد فى منع ذلك يوجد حوادث مستثناة فان الامبراطور « شيسين لونغ » كان متزوجا بأميرة تركية مسلمة . أما العفة وطهارة العرض فهما محفوظتان عند المسلمين اكثر مما هما عند سائر الصينيين .

واحترام الآباء والاجداد معروف عند مسلمى الصين ، وتراهم يحفظون شجرات الانساب كسائر أهل الصين . ولا يوجد عندهم تفاوت فى الطبقات الاجتماعية الا ما كان من تعظيم آل البيت وتمييزهم ولكن مسئلة ادعاء النسب النبوى غير فاشية هناك كما فى سائر بلاد الاسلام لذلك عدد أصحاب هذه الدعوى قليل وكان منهم الزعيم الثائر ما هوالونغ . أما

سحنة مسلمى الصين فهى فى الغالب كسائر أهل الصين وانما يجد فيهم الرائى كثيراً من السحنات العربية والتركية بسبب المهاجرة ومجىء الطرّاء . وعلى كل الأحوال فالسواد الأعظم من مسلمى الصين هم من السلالة الصينية ولغتهم هى لغة الصين وكتابتهم هى كتابة أهل الصين وان كان يوجد فى لهجة نطقهم مالا يخلو منه مكان من الاختلاف بحيث يعرف الصينى المسلم من الصينى الوثنى من لهجته . ولا شك أن اختلاف الدين أوجد بين الصينى المسلم والصينى الوثنى تبايناً كبيراً فالمسلمون يرون أنفسهم أعلى جدّاً من الصينيين وهؤلاء يلقبون المسلمين باسم « هوى هوى » والمسلمون يكرهون هذا اللقب ويحبون أن يقال لهم « باى شان » أى أصحاب العمائم البيض . ويوجد فى الصين جنس من الاسلام هم مباينون لسائر مسلمى الصين وللصينيين فى اللغة والسحناء وهم قوم يقال لهم « السالار » يسكنون على الضفة اليمنى من « هوانغ هو » وما جاوره فهؤلاء يشبهون أتراك كاشغر فى الخلقة ولغتهم من التركى المحرّف ومذهبهم حنفى ويعرفون الحروف العربية ولا يوقدون البخور ولا يضعون أسماء سلاطين الصين فى جوامعهم وهم يجهرون فى الصلاة وقد ظهر بينهم مرشد فى نحو سنة ١٧٥٠ اسمه « مامينغ هسين » أو محمد أمين وهو الذى يقلدونه الى الآن .

ويمتاز مسلمو الصين على سائر الصينيين بعلو الهمة وقوة الجسم فتجدهم من أجل ذلك مشغوفين بالخدمة العسكرية وتجد عدداً كبيراً من ضباط الجيش الصينى مسلمين ومنهم كثير فى المناصب المدنية الا أنهم فى المناصب العسكرية أرغب . وأما المهن فان بعضها يكاد ينحصر فيهم وذلك نظير المكاراة وقيادة المواشى ويقال لصاحبها « مافو » فان هذه المهنة هى فيهم خاصة وكذلك حرفة الخانات والاماكن المعدة للمسافرين فهى مما يختص بهم . وبالاجمال تجد الصينيين أقوم من المسلمين على الزراعة وتجد المسلمين أقوم من الصينيين على تربية المواشى

وأهل الصين ينظرون الى المسلمين بعين الحذر ويعتقدون أنهم يريدون تأسيس سلطنة ضمن السلطنة ولذلك تجد المسلمين يميلون الى الاوربيين بعض الميل ويحسبونهم اخواناً بازاء الصينيين . وان كنت تجد فى قواد الجيش الصينى من المسلمين من اشتهروا ببغض الاجانب فالعامل فيه هو غطرسة الاجانب الاوربيين لا التعصب الدينى . ومما لا ينكر أن مسلمى الصين يلجأون الى جميع الوسائل لاجل زيادة عددهم فيشترون فى المخامص مئات

ألوف من أولاد الوثنيين ويربونهم فى الاسلام ويجذبون الى دينهم كثيراً من الصينيات بواسطة الزواج . وضباط الجيش من المسلمين يهدون الى الاسلام كثيراً من جنودهم . وقد أخبر أولون أنه صادف جمعا من الذين أسلموا حديثاً . نعم ان ثورات المسلمين الاخيرة وقفت سير الاسلام بعض الشئ ولكن مما لا نزاع فيه ومما اتفق عليه جميع سياح الاوربيين الذين سبروا غور الصين أنه لا يعد مستحيلا دخول الصين فى الاسلام لا سيما بعد أن أعلن الصينيون المجددون سنة ١٩١٢ كون الماندشو والمغول والمسلمين والتيبتيين والصينيين كلهم متساوين ويذهب بعض الاوربيين الى امكان حصول ديانة جديدة يمتزج فيها الاسلام بعقيدة كنفوشيوس لا سيما أن فى العالم الاسلامى حركة دينية ظاهرة نحو التجدد .

أما الحركة الدينية الحاضرة فى اسلام الصين فهى عبارة عن أن « ماهوالونغ » الذى تقدم ذكره قام بطريقة خاصة من قواعدها الجهر فى الصلاة وارخاء الأيدى بدل القبض والاعتقاد بالأولياء وزيارة القبور وتزعم بعثة أولون أن المسلمين الصينيين انقسموا بذلك الى قسمين : أصحاب الديانة القديمة ويقال لها « لاوشياو » وأصحاب الديانة الجديدة وتسمى « سين شياو » وعقبت على ذلك الانسيكلوبيدية الاسلامية بقولها ان هذه الحالة هى فى سائر بلاد الاسلام فان هناك من يتمسك بالأولياء والأقطاب ويعتقد بتصرفهم فى الكون باذن الله ، ومنهم من لا يعتقد بذلك ولا يخرج عن ظاهر الشرع

ثم ذكرت الانسيكلوبيدية أن السلطان عبدالحميد فكر فى الاستفادة من مسلمى الصين بايجاد علاقات معهم باسم الخلافة فأرسل الى الصين سنة ١٩٠٠ أحد القواد وهو أنور باشا[١] لهذه الغاية فأخفق اخفاقا تاما . ثم ان الاهونغ[٢] وانغ هاوزان الياس عبد الرحمن مفتى باكين قدم الى الاستانة فالتمس من السلطان ارسال بعثة اسلامية الى الصين فأرسل اثنين هما على رضا وحافظا فأسسا مدرسة سنة ١٩٠٧ وجالا فى بعض بلاد الاسلام « ولكن الحكومة الصينية قضت على الدسيسة التركية » فالتجأ ذانك التركيان الى سفارة المانية فى باكين ووعدت سفارة المانية فى الاستانة بأن تحمل سفارة المانية فى الصين على حمايتهما ولكن الحكومة الصينية لم ترد أن تسمع كلاما فلما رأى المرسلان المذكوران أن السلطان

(١) غير أنور باشا الشهيد ناظر الحربية
(٢) الاهونغ عند أهل الصين العالم المسلم

تركهما التجأا الى سفارة فرنسا فحمتهما ثم عادا الى الاستانة ولا يزال في تركية الدستورية نية تأسيس سفارة في باكين وهي جنة ليست على ما يظهر قريبة التحقيق (كذا) .

ثم أردفت ذلك بقولها : انه وان كان المستقبل لا يأذن بالتكهنات . فيمكن مع ذلك أن يقال ان استيلاء الاسلام على الصين وظهوره على سائر أديانها هما شبح لا يفيد المسلمين سوى الخراب والخسار . ولكن اذا كان بتسلسل حوادث غير منتظرة تحققت آمالهم في هذا الأمر ولو لمدة موقتة فتكون مصيبة على الصين لأن الاسلام ليس بدين مدنية والاسلام هو قبل كل شيء عدو للمدنية الافرنجية حال كون استعداد الصين انما هو لاقتباس هذه . فان كان المسلمون يريدون الاشتراك في حركة التجديد الصيني فلا بد من أحد أمرين : اما أن ينقادوا الى الأفكار الجديدة ويسيروا مع دعاة الاصلاح الصينيين الى تجديد مملكة صينية على قاعدة القومية الصينية وبذلك يكونون غير مجرمين . واما أن تبقى في قلوبهم نيات التسلط على سائر الصينيين فبمجرد ظهور هذه النيات يسحقهم الصينيون سحقاً لأن المسلمين عددهم قليل جداً في وسط رؤساء الحركة الاصلاحية وان الأمة الصينية تحسن عملا في الحذر من العناصر الاسلامية التي في داخلها وفي منع نمو الاسلام في الصين بشراء أولاد الصينيين . انتهى بالحرف .

وقد يأخذ القارىء العجب كيف ان دائرة المعارف الاسلامية تصرح بمثل هذه الأقوال التي فيها من التحامل والبغضاء وسوء النية بحق المسلمين مالا يمكن المراء فيه . ولماذا ارسال السلطان عبدالحميد بعثة تهذيبية الى باكين يعد « دسيسة » وبعثات الدول الأوروبية التي هي مالئة الصين والشرق والغرب لاتعد « دسائس » ؟ ولماذا وجود سفارة تركية في باكين يعد جنة حال كون أولى الأمم بأن تكون لهم سفارة عند الصين هم الترك نظرا لتجاور الترك مع الصينيين ولوحدة الأصل ثم لماذا يجب على الصين هذا الحذر كله من الاسلام والاسلام دين قسم وافر من أهلها ولايجب عليها الحذر من الافرنج الذين مانشبوا أصابعهم في مكان الا انتهى الأمر باستيلائهم عليه واستعبادهم لأهله ولماذا الدين الاسلامي عدو المدنية وقد شهد كثير من أعاظم أوربا ونخبة المستشرقين انه خدم المدنية ؟ وأخيرا لماذا يغار هذا الكاتب على الصينيين أكثر من غيرتهم على أنفسهم فانهم تسامحوا مع المسلمين في تركهم يأخذون أولادهم في المساغب ويربونهم في حجر الاسلام وهذا الكاتب

لا يسامح فى ذلك .

ولكن من علم أن محرر هذا الفصل من الانسيكلو بيدية الاسلامية الفرنسية هو الاستاذ المستشرق مرتين هارتمان الألمانى بطل عجبه . فان هذا الأستاذ قضى حياته فى محاربة الاسلام والاجتهاد فى اظهار معايبه والتحامل عليه فى كل فرصة وهو أشبه بلامنس اليسوعى بكون كل منهما استشرق فى مدينة بيروت ووقف عمره على مجادلة الاسلام وأسلس فى هذه السبيل العنان لهواه واحنة صدره . عرفت هارتمان هذا وأنا طالب فى مدرسة الحكمة فى بيروت لم أتجاوز الخامسة عشرة سنة من عمرى ثم لقيته بعد ذلك باثنين وثلاثين سنة فى برلين وهو يحرر فى مجلة « الشرق الجديد » أثناء الحرب . وكان يتردد الىّ ولم أكن أعرف حقيقة مشربه ولا اطلعت على كتاباته اذ ذاك الا أنه قيل لى مرة ان الأستاذ هارتمان كان من ألدّ أعداء الأتراك لا يفتر عن الطعن فيهم فما باله عاد الآن يحمد طريقتهم أترى ذلك من أجل كون الترك حالفوا الألمان ؟ فبحثت عن السبب فعلمت أنه رضى عن الأتراك بمجرد ما علم أن فئة منهم تسير فى خطة غير اسلامية ولهذا كان معجبا بمبادئ ضيا كوك ألب وأمثاله . وحدثنى المرحوم الشيخ صالح التونسى أنه جرى اجتماع فى برلين أثناء الحرب حضره كثير من المسلمين فقام هارتمان وعرّف الجهاد عند الاسلام بكيفية تقشعر منها الأبدان فانبرى له الشيخ صالح وتكلم فى حقيقة معنى الجهاد وفند دعوى هارتمان فى الأمور التى زعم أن الشرع يجيزها للمجاهد فأجاب هارتمان أن ما يقوله الشيخ صالح هو شئ جديد غير ما فى الشريعة . فرد عليه الشيخ صالح بقوله بل هذه هى أحكام الشريعة وان هارتمان يجهل الشريعة وطالت المشاحة بينهما وفصل بينهما الاستاذ المستشرق ميتفوخ وقال ان حد الجهاد هو ما قاله الشيخ صالح لا ما قاله الشيخ هارتمان .

ومن أغرب شواهد التهور الذى كان عليه هارتمان هذا فى احتقار الاسلام أنه فى مقالته عن الصين هذه أشار الى الحديث النبوى الذى نقله المستشرق المجرى غولد سيهر وهو : « اتركوا الترك ما تركوكم » فهزأ به وزعم أنه حديث موضوع يقصد به اضافة العلم الى النبي ﷺ وتعظيم قدره والحال أنه قد يكون محمد لم يسمع بذكر الترك فى حياته . ولولا كون هارتمان قد مات بعد الحرب بقليل وقبل أن اطلعت على جملته هذه لكنت أظهرت له ما فيها من قلة المعرفة وعدم التمييز وفساد الاستشراق واثبت له أنه لا يصح أن يعد مستشرقا

من يعتقد أن سيداً من سادات العرب — بصرف النظر عن النبوة — لايعرف وجود الترك فى الدنيا مع أن العرب فى الجاهلية كانوا يعرفون الترك والروم كما يعرفون العجم. وكان اسم الترك معروفاً لديهم وارداً فى أشعارهم ولم يكن جهل العرب واصلا الى حد أنهم يجهلون وجود الترك . وانما القول بأنهم كانوا بهذه الجهالة هو عين الجهالة وقلة العقل والظن بأن محمداً بن عبد الله بن عبد المطلب ربما لم يسمع فى حياته بوجود أمة اسمها الترك هو منتهى الصغارة والضعة ولا يشابهه الا أقوال لامنس اليسوعى التى يأسف من يقرأها على تصدر أناس أعماهم الغرض الى هذا الحد لدعوى الاستشراق وتصديهم للكتابة عن الشرق والاسلام . وقدصنف المسيو دينه Dinet وسليمان بن ابراهيم كتاباً بالفرنسية اسمه « انك فى واد وأنا فى واد » أظهرا فيه مافى تآليف لامنس من السخافات والآراء الخيالية التى لاتشين الا صاحبها ولاتنقص الا كاتبها .

هذا ونعود الى موضوع الاسلام فى الصين فنقول ان أحد أدباء الصين ورد مصراً فى العام الماضى فنقلت جرائد مصر عنه أحاديث عن بلاده من جلتها أن فى الحكومة الصينية الحاضرة أربعة وزراء مسلمين وهم الجنرال محمد كاشونغ ناظر الحربية ثم الجنرال محمد شيسانغ ناظر الطرق وناظرين آخرين أحدهما وزير الزراعة والثانى وزير الأمور الدينية الاسلامية الذى هو بمثابة شيخ الاسلام . وقال هذا السائح انمسلمى الصين متفقون مع حكومة الصين فى مبدأ تعزيز الرابطة الشرقية . وذكر أنعدد المسلمين فى الجيش الصينى هو نحو نصف مليون منهم ٥٠٠ ضابط وأخبرعن وجود جريدة اسلامية فى الصين اسمها « راية الاسلام » والله أعلم .

***

ولقد اطلعنا على كتاب اسمه « مسلمو يُنّان » Les musulmans du Yunnan لكاتب افرنسى أقام بجنوبى الصين عدة سنوات اسمه المسيو « كورديه » Cordier من أعضاء اكادمية علوم المستعمرات قال فيه ان مسلمى الصين يبلغون عشرين مليوناً أى واحداً من عشرين من الأمة الصينية لكن لهذه الاقلية الاسلامية هناك شأن لا يستهان به

ولما كان صاحب هذا التأليف عالما مؤرخاً فيما يظهر من كلامه أحببنا ان نأثر عنه بعض معلومات تتم بها فائدة هذا البحث

فهو يرى أن دخول الاسلام فى الصين بدأ من القرن الاول للهجرة وذلك ان الفاتح العربى قتيبة كان بين سنة ٧١١ و ٧١٤ قد وصل بفتوحاته من سمرقند الى كاشغر وانه قد وجد فى المجموعة الكبرى الصينية صور الكتب التى وردت من ملوك بخارى وسمرقند وتركستان الى عاهل الصين لذلك العهد يستصرخونه لانقاذهم من العرب . ومنها يستدل على الرعب الشديد الذى حلّ بالترك أوانئذ من سطوة العرب (١) وان قتيبة بعد أن حمل تلك الشعوب التى أطاعته على الاسلام أرسل الى ابن السماء برسالة يدعوه الى الاسلام و يشرح له عقيدة القرآن و بحسب قول مارغوليوث قد راع عاهل الصين الاخبار التى جاءته عن قوة العرب فارتضى بأن يرسل الى قتيبة بالجزية

والمسيو كورديه يشك فى تأدية عاهل الصين للجزية نظراً للمعهود من كبرياء ملوك الصين ولكنه يرى محققاً أن عاهل الصين أعجب جداً بشجاعة العرب واقدام قائدهم قتيبة لانه سنة ٧٥٦ كان ثار أحد العصاة المسمى « آنلوشان » على العاهل « سوتسونغ » واستفحل أمر الثائر هذا فأرسل العاهل الى الخليفة أبى جعفر المنصور يستنجده على الثوار فأمدّه بجيش أربعة آلاف مقاتل من العرب فذهبوا الى الصين وأخمدوا الثورة وأعادوا الى الامبراطور ملكه بعد ان كاد يذهب من يده . ولما سكنت الحال استقر هؤلاء الجنود العرب فى بلاد الصين وتزوجوا وتولدت منهم طبقة خاصة وهذه بلا نزاع النواة الأولى للاسلام فى الصين

وهل كان مجئ هذه النجدة العربية للامبراطور « سوتسونغ » بحراً أم براً ؟ الجواب هذا غير معلوم الا أنه مما لا شك فيه ان مدينة كانتون كان فيها مسلمون من القرن الأول للاسلام مؤلفون من تجارة العرب والعجم الذين كانوا فى تردد دائم على سواحل الصين وقد كثر عددهم الى حد انهم سنة ٧٥٨ ثاروا على الحكومة بسبب ضريبة أرهقتهم فنهبوا البلدة وأحرقوها وخرجوا . ثم لم يطل الأمر ان رجعوا الى هناك لأن العلاقات التجارية لم تنقطع بين سيراف وكنتون وكانت المحطة بينهما جزيرة سيلان

وسنة ٨٧٢ وصل الى كنتون السائح العربى ابن وهب وقصد بلاط العاهل وأراه هذا صور الأنبياء نوح وموسى وعيسى ومحمد وصور حكماء الصين . و بعد هذا التاريخ بسبع

(١) راجع الصفحة ٨ من كتاب كورديه

سنوات ثار ثائر اسمه « هوانغ تشاو » ونهب كنتون وقتل فيها مائة ألف مسلم

و بعد ذلك تسكت التواريخ الصينية عن ذكر المسلمين فى الصين الى زمن ثوراتهم الأخيرة اه

قلت : اما ارسال قتيبة بن مسلم الباهلى فاتح بلاد الترك رسالة مع وفد انتخبه الى ملك الصين فقد ذكره ابن الأثير تفصيلاً كما سبق لنا نقل ذلك فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب والذى يظهر هو أن ملك الصين راعه الامر و وجد العرب قد كادوا يطأون بلاده فأرسل الجزية الى قتيبة خلافا لما ذهب اليه كورديه من أن كبر ملوك الصين أعلى من ذلك . ولو كان الكبر يمنع مثل هذا الامر لما استنجد عاهل الصين أبا جعفر المنصور و بينهما مسافة بضعة أشهر

وأما ذهاب ابن وهب من البصرة الى كنتون ثم الى بلاط ملك الصين وكون هذا أراه صور الأنبياء والحكماء فهذه القصة واردة فى كتب العرب

والذى يظهر أن العرب كثروا جدا فى كنتون صدر الاسلام وكانت السفن لاتنقطع بين مرافئ الاسلام ومرافئ الصين

جاء فى كتاب « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » قال .

« حدثنى القاضى احمد بن سيار قال حدثنى شيخ من التجار بعمان قال : كنت بالابلة أريد الخروج الى البحر فرأيت سائلا بباب الجامع فصيح اللسان مليح المسألة فرققت له وأعطيته دراهم صالحة وخطفت فى الوقت الى عمان فقضيت بها شهورا ثم قضى لى ان مضيت الى الصين فدخلتها سالماً فاذا أنا يوما أطوف فاذا الرجل بعينه قائماً فى السوق يتصدق فتأملته فعرفته فقلت له : ويحك سائلا بالابلة وسائلا بالصين . فقال : قد دخلت الى هذا البلد ثلاث دفعات وهذه الرابعة لطلب المعيشة فلا أجدها الا من الكدية فأرجع الى الابلة ثم أرجع الى ههنا . قال فعجبت من شدة حرمانه » اه

والذى أريد استخلاصه من هذه النكتة أن كنتون كانت لعهد دولة العرب أشبه ببمباى الهند اليوم بالنسبة الى البصرة أو الى الكويت أو الى البحرين الخ

وكورديه يرى أن الاسلام دخل الصين من الطريقين البحرى والبرى . اما مقاطعة « يُنَّان » فيذهب هذا الرجل الى ان الاسلام جاءها من الشمال عن طريق مقاطعة

« شانسى » كما أنه يجوز أن يكون جاء المسلمون من الهند الى بيرمانيا الى ينان . ولكن هذا الاحتمال ضعيف . وبحسب الروايات المأثورة فى الصين دخل الاسلام فى ينان فى أيام دولة «تانغ » ثم ازداد فى أيام جنكيزخان الذى غزا جنوبى الصين وكان فى جيشه مسلمون فاستوطنوا تلك البلاد . وكان السيد الاجل مغولياً مسلماً من هؤلاء فاعتنى بتمكين المسلمين هناك ولهذا لما وصل السائح الايطالى الشهير الى « يونان فو » ذكر أن أهلها مزيج من وثنيين ونصارى نساطرة ومسلمين . وزعم الجنرال « فيتش » Fytche فى مجلة « ادنبورغ رڤيو » ان الامبراطور « هويو تسونغ » من عائلة « تانغ » عند ماحصلت عليه ثورة « نغالوشان » استنجد العرب فى قمع الثورة فأرسلوا اليه عشرة آلاف مقاتل أخمدوا له الثورة ولكنهم لم يرجعوا الى بلادهم فأسكنهم الامبراطور فى ينان . ولم يذكر الجنرال مصدر هذه الرواية . وذهب «جون آندرسون» John Anderson الى أن مسلمى ينّان هم من سلالة العرب ومعهم عنصر تركمانى هبط اليهم من شانسى وكانسو

وذهب « بورن » Bourne الى أن مسلمى ينّان هم قسمان : جماعة «تاليفو» وجماعة « لينّنغان » فالأوائل هم سلالة عسكر جنكيزخان . والأواخر هم من مهاجرى شانسى . قال وقد أسكن الأوائل فى غربى ينان الأمير « هيان يانغ ڤانغ » المعروف بالسيد الاجل

وذهبت مادام ڤاسال Madame Vassal فى كتابها على « ينانغو » الى أن أصل مسلمى ينان هو من الملاحة العرب الذين جاءوا الى كنتون فى القرن السابع المسيحى ونهبوا هذه البلدة ثم تفرقوا فى جبال ينّان . ولكن كورديه يقول : كيف لم يترك هؤلاء آثاراً اسلامية فى طريقهم بين كنتون وينان

قال كورديه : وكيف كان أصل وجود الاسلام فى ينان فالمسلمون لم يزالوا ثمة فى ازدياد بصورة منتظمة ولولا الذين ذهبوا منهم فى الثورة الأخيرة من سنة ١٨٥٦ الى سنة ١٨٧٣ لكان عددهم عظيما جداً . أما عدد الذين ذهبوا منهم فى المذابح التى وقعت فى المدن الكبار مثل « كين تسينغ» و « تشنغ كيانغ » و « سين هينغ » و « كوانغ ىى » ولا سيما « تالى » فيظن أنه ثلاثمائة ألف نسمة . وقد قتل فى تالى وحدها ٣٠ ألفاً . وهذا هو تعديل الأب بورياس Pourias الذى كان معاصراً للثورة .

أما عدد مسلمى يونان فى الوقت الحاضر فغير معروف بالتمام فبعثة «اولون» D'ollon[1] لاتزيدهم على مائتين وخمسين الفاً . وقال « داڤيس » Davies انهم ثلاثمائة الف . وقال « كاراى » Carey انهم ثلاثمائة وخمسون ألفاً وقال « سوليه » Soulié انهم من ثمانمائة الى تسعمائة ألف . وجعلهم « تيرسان » Thersan من ثلاثة الى أربعة ملايين . قال كورديه : أما أنا فقد سألت المسلمين أنفسهم محلة محلة و بلداً بلداً وقابلتها مع المعلومات التى عنـدى من المبشرين المسيحيين فوصلت الى عدد يتراوح بين ٣٠٠ الف و ٤٥٠ ألفاً

وأهم المراكز الاسلامية هى « ينانسن » و « شاتيين » و « تشاوتونغ » و « تونغ تشوان » و « سين هينغ » و « تالى » و « يونغ تشانغ » و « بوويل » و « بووهى » و « سماو » و « يون تشيو » . ثم حرر كورديه جدولاً تقريبياً عن عددهم فى كل بلد ثم قال : ولا أضمن مع هذا ان هذا العدد هو الصحيح اذلابد لمن أراد أن يعرف ذلك أن يقيم فى ينان مدة سنتين بالأقل وهو يفحص فى كل ناحية وفى كل كورة

ثم ذكر كورديه انه قد اختلف السياح كثيراً فى هذا الأمر وان « موير » Muir ذهب الى أنه يوجد مسلمون منتشرون الى حدود التبّت . والحال أن مسلمى ينان اكدوا لكورديه انه لايوجد مسلمون وراء « لى كيانغ » وقال « موريسون » Morrison انه يوجد قرى اسلامية متعددة فى الجبال . ويقول ان فى « تشاوتونغ » ثلاثة آلاف عائلة مسلمة وان فيها شارعاً ملآن بالمساجد وكلها نظيفة وان تجارة الجلود فى تلك الناحية كلها بأيدى المسلمين

وقد ذكر موريسون أنه صادف فى أحد الجوامع « مُلاّ » أى شيخاً يقرئ بعض الاحداث فأخذ يحادثه فوجد أنه لايعلم شيئاً عن الخارج . وسأله عما اذا كان جامع قرطبة وجامع القرويين بفاس أجل أو أكبر من جوامع تشاوتنغ ؟

ثم قال كورديه : ان الاسلام انتشر فى وقت واحد فى « كوانغ تونغ » و « ستشوان » و « شانسى » و « شنسى » و « كانسو » و « ينان » ولكن ثورات المسلمين لم تقع الا فى المقاطعات الثلاث الأخيرة . وليس ذلك الالأسباب طبيعية . فولاية « كانسو » هى قطعة مستطيلة بين « الغوبى » و « التبت » يحدها الجبل من جهة والمفازة من أخرى . فالصينيون يهمهم

(١) التى تقدم الكلام عليها فى حواشى الطبعة الأولى

أن تبق هـذه الولاية بأيديهم لأنها نقطة الاتصال بين الشرق والغرب ومنها يتمكنون من ردع قبائل التركمان عن التجاوز . والمسلمون أيضاً تهمهم هـذه الولاية لأنهم بها يتصلون باخوانهم مسلمى التركستان وفى الوقت نفسه بمسلمى ستشوان و ينّان . و يأملون أن يركبوا سلطنة من هذه الولايات الثلاث . فمن هنا كثرت الثورات فيها

و ينّان نفسها معدودة كأنها قطر منفصل عن الصين تحدها أعالى التبّت وحراج بيرمانيا والتونكين العليا والمسلمون فيها يقدرون أن يكونوا على اتصال بمسلمى الهند

ولكن هذه التعليلات لايقبلها الجميع ومن الناس من يقول ان ثورات مسلمى الصين لم يكن لها منشأ الا الظلم . فالأب داود يقول ان مسلمى شانسى لايفكرون أبداً فى انشاء حكومة ولايريدون الاالذب عن حياتهم ومالهم وأن يعيشوا بسلام وأمان وان كانت الثورة امتدت واشتدت فما ذاك الامن عسف العسكرية ونهبهم للأهالى . ثم قال : « وليس مسلمو الصين متعصبين كمسلمى الغرب وجميع اسلامهم الاعتقاد ببعض مبادئ اسلامية والختان والامتناع عن أكل الخنزير . وقليل من شيوخهم حجوا الى مكة واذا قرأوا القرآن لم يفهموه » وذهب جون أندرسون الى أن ثورة ينان كان سببها ظلم ولاة الصين . وهكذا قال « برومهال » Broomhal قال ومن سنة ١٨٣٤ الى سنة ١٨٤٠ نشبت ثورة أساسها قتل حاكم « شوانغ نينغ فو » لألف وستمائة مسلم فى « مونغ ميان تينغ »

وذهب « كارنيه » Carné الى عكس ذلك و وصف مسلمى ينان بالشدة والقسوة والافراط فى العصبية ومزيد الجرأة وقال انهم هم البادئون بالشر . وهكذا زعم الاب بورياس الذى كان سنة ١٨٦١ فى ينان فأكد ان المسمين هم الذين أشعلوا الحرب وطمحوا الى الاستقلال وان بلاد ينان كانت تقريباً فى أيديهم وكانت طاعتهم للحكومة اسمية وكان الصينيون يتقون شرهم فأنت ترى اختلاف الآراء وتناقض الروايات فى هذه المسئلة . وقال فرنسيس غارنيه Francis Garnier ان المبشرين الكاثوليك أعطونا عن أسباب الثورة معلومات يعارض بعضها بعضاً بحسب الاماكن التى كانوا فيها

وقال « كولبورن بابر » الانكليزى : ان مسلمى ينان هم من أصل واحد مع البوذيين وغيرهم من الصينيين الاصليين . وقال الكاتب جونستون وغيره من السياح ان التعصب الدينى لم يكن السبب فى الثورة

ولقد كانت ذكرت بعثة « اولون » أنها لم تحب فى ينان كثرة الاختلاط بالمسلمين والاحفاء فى الاسئلة خشية ايجاد الوساوس عند حكومة الصين التى لا تطمئن اليهم

وقد أدهش كورديه هذا الكلام . وقال انه بعد سفر بعثة اولون بقليل جاء الى ينانغو وخالط المسلمين وذهب الى الجوامع وأخذ صوراً فوتوغرافية وأحفى ما شاء فى أسئلة شيوخ الدين وطلبتهم ولم يثر ذلك أدنى شبهة عند مأمورى حكومة الصين . وربما أثار الشبهة بحق بعثة أولون أن رجالها كانوا كلهم عسكريين . ومرة أراد أحدهم وهو بزى مدنى أن يزور دار السلاح فى ينانغو ووجد من سار به اليها أشبه بمتفرج . وكان مدير دار السلاح أراد أن يطلعه على كل ما فيها الا أن هذا الضابط لم يلبث ان عرف بنفسه وصرح بكونه ضابطاً وان رتبته كذا . فعندها اشتبه مدير دار السلاح بالامر وبعد ان قدموا الى المتفرج الافرنسى الشاى والحلواء بحسب العادة اعتذروا له عن اطلاعه على المعمل بحجة ان العملة كانوا فى العطلة وما أشبه ذلك

ثم قال كورديه — ويظهر انه هو كان هناك مدير مدرسة — انه لم يجد أدنى فرق فى السحناء بين الصينيين المسلمين والصينيين البوذيين وانه كان عنده فى المدرسة ٢٥٠ طالباً منهم ٥٠ كانوا مسلمين ومع شدة تحديقه وتدقيقه لم يجد فى خلقتهم فرقاً . فهو يرى انهم باجمعهم من سلالة واحدة . وأما الاب داود الذى ساح كثيراً فى ينان فيقول انه برغم وجود دم عربى ودم تترى فى مسلمى ينان فالغالب عليهم السحنة الصينية

ثم ذكر كورديه ان مسلمى ينان يدخنون ومنهم من يشرب الأفيون ومنهم من يشرب المسكرات لكن سراً . وهم فى هذا كسائر الصينيين لكن الاجماع عندهم واقع على اجتناب لحم الخنزير

قال : وليس للمسلمين هناك مهن خاصة بهم بل هم أرباب أشغال وحرف مختلفة كغيرهم . وقد كانوا فى القديم يحبون الجندية وكان القواد المسلمون يستكثرون منهم . فلما تحول الجيش الى النسق الجديد قل عددهم فيه لأنه فى الجيش لا يقدر الجندى المسلم ممارسة شعائر دينه فى الوقت الذى يريد اذ كانت الخدمة المنظمة تقيّده بواجبات أخرى

وقال كورديه : كل من يعرف الجزائر يحار من شدة المشابهة التى يجدها بين هيئة بيوت مسلمى الجزائر وهيئة بيوت مسلمى ينان . فجميعها مساكن تحيط بدار فى الوسط

وأمام المسا كن أروقة يمر بها الانسان من محل الى محل بدون أن تصيبه الشمس أو المطر

وليس للجوامع طرز بناء خاص يميزها عن غيرها الا ماندر كما على باب جامع ينانغو الذى فيــه شئ من الزينة مع كتابة عربية . وليس للجوامع مآذن كما فى سائر البلدان . قال كورديه : وفى ينانغو ستة جوامع . ويقال ان فى تالى ١٥ جامعاً وان فى شرقى ينان ووسطها ٣٥ جامعاً . ثم قال : ان بين جوامع المسـلمين وهياكل البوذيين بوناً عظيما من جهة النظافة فان هيا كل الصينيين ليس فيها شئ من النظافة التى تجدها فى مساجد الاسلام سواء فى ذلك داخل المسجد أو صحنه . ولعل السبب فى هـذا ان المساجد هى دائما مشغولة بالمصلين على حين أن الهيا كل لا يأتيها أهلها الا فى الأعياد . قال : واذا دخـل الانسان جامعا لم يقـدر الا أن يشعر بخشوع اكيد لا سيما إذا قايستها بمعابد الوثنيين بما فيها من أدوات ومواعين وأصـنام بشعة المنظر وآلهة سمجة المبسم . وأشد ما يكون الخشـوع اذا اجتمعت جماعة المؤمنين للصلاة يدخلون بثيابهم البيضاء فيتركون نعالهم عند الأبواب ويتوضأون وهم يقرأون شيئاً بصوت منخفض ثم يتقـدمون رويداً الى الصـلاة صفوفا وراء « الاهونغ » (الامام) الذى يؤم بهم

والاهونغ لا يمارس الامامة عندهم الا ثلاث سنوات فقط . ولـكن ان شاءت الجماعة تمدد له هذه المدة . وامام الجامع الأكبر فى ينانغو مضى عليه ٢٥ سنة وهو فى هذه الخدمة . ومعاشات الأئمة هى من جماعة المؤمنين لا يستثنى منهم الا الفقراء . وعلى الاهونغ خـدمة ثانية وهى تعليم الاحداث العقيدة الدينية واللغة العربية ففى جانب كل جامع مكتب للاولاد . وفى بعض المساجـد يوجد مـدارس تعلّم فيها الآداب الصينية وغـيرها من مواد برامج المدارس الابتدائية .

وليس لهـذه المدارس امتحانات رسمية لـكن مـتى رأى الأهونغ تلميذه قـد أتمّ دروسه يامره فى أحد الأعياد أن يفسر آية من القرآن أمام جماعة المؤمنين . ومن ثمة يحق لهـذا الدارس الذى أتم تحصيله أن يلبس الثوب الأخضر وينتعل نعال المخمل الاسود ويتعمم بعمامة بيضاء تدور بطربوش ذى قنزعة . وهذه الحوائج يشتريها له جماعة المؤمنين أو الذين انفقوا على تحصيل هذا الطالب الى أن صار منتهيا . ثم ان هذا يعود فيقرئ غيره العقيدة والعربية

وليس للأئمة معاش محدد بل معاشاتهم تابعة لدرجة غلة أوقاف المساجد التى يقومون عليها . وقد يخصص للامام مقدار من الارز من غلة اراضى المسجد . ثم ان المؤمنين يؤدون اليهم شيئا عند عقد الأنكحة وفى الجنائز

وتسعة أعشار المسلمين هناك لا يعرفون من العربية الا « سلام عليكم » و « بسم الله » و « الله أكبر » و بعض كلمات . وأما الأئمة فليسوا بعلماء فى العربية

قال كورديه : حدثنى أحد الاهونغات ان ٢٠ فى المائة من المسلمين يقرأون العربى بدون أن يفهموه . وخمسة أو ستة يقرأون العربى ويفهمون بعض الصلوات . وواحد فى المائة يقرأ العربى ويكتبه ويفهمه كما يلزم . لكن ليس فى الالف واحد يقدر أن يتحدث كما يريد باللغة العربية . ويقول كورديه انه لم يلحظ عند الائمة اجتهاداً فى نشر العربية كأنهم يخشون بنشرها المزاحمة على وظائفهم

قال كورديه : وكل مرة كان الاهونغات يتشهدون لى بآية من القرآن كانوا يتلونها باللغة الصينية . ويقال للاستاذ منهم فى علم التوحيد « هوليفو » ثم اذا ارتقى قيل له « اهونغ » وهو من « اخوند » بالفارسية . واذا ذهب الى الحج قيل له « اولتش » والشيوخ الكبار من هؤلاء يقال لهم « سوفو » ويوجد من يقال لهم « أوسوتو » أى الاستاذ . وهؤلاء هم الذين حصلوا العلم فى « تاوتشيو » أو « بين لينغ » من مدن كانسو وهناك مدارس أساتيذها من خريجى الأزهر بمصر . وليس فى ينان الا أستاذان من هذه الدرجة أحدهما درس العربية مدة ١٨ سنة منها ١٠ سنوات فى كانسو . وهو الآن مدرس فى « شاتيين » . وقال كورديه انه يعرفه

ثم قال ان مسلمى الصين هم سنّيون على المذهب الحنفى . و بلاد « هينكيانغ » و « كانسو » و « ينان » أهلها هم أشد المسلمين تمسكا بالسنة

قال كورديه : ولم أرهم يتوضأون بالتدقيق الذى يتوضأ به مسلمو المغرب والجزائر لأن الصينى بفطرته يكره الغسل والاغتسال . وهذه الامة الصينية بأجمعها هى كما قال الدكتور « سفيفت » Svaift الانكليزى أمة قذرة (كذا)

قال : والصدقة والزكاة جاريتان . وجميع الشرقيين بفطرتهم يحبون الصدقات الا أنهم لا تجدهم يجرون أحكام الزكاة الشرعية بحروفها . فالحكم الشرعى هو أن على المسلم أن

يؤدى للزكاة واحداً من ٤٠ من نقوده ورأس بقر من كل ٣٠ رأسا وخروفا من كل ٤٥ من الخراف والخمس من المعادن الخ الا أن مسلمى ينان أفقر من أن يقوموا بكل هذا وان كانت هذه الامور جارية فى سائر بلاد الاسلام . والضيافة أيضا أمر مقدس عند المسلمين وكل غريب أو ابن سبيل يقدم الى محل يقال له ضيف الله و يطعم ولا يسال . وكان محمد ﷺ يوصى بالصدقات الخفية ولكن غلب على المتصدقين حب الظهور

قال : وأقل أركان الاسلام نفوذاً فى الصين الحج نظراً لبعد المسافة الى مكة فلا يستطيع الحج الا الأغنياء المترفون . ومن كل ينّان لا يحج فى السنة الا خمسة أو ستة . ومن كانسو عشرة . ومن « ستشوان » عشرة

نعم ذهب سنة ١٩٢٣ من ينان ١٠ حجاج الى مكة وفى السنة التى بعدها بلغ عددهم ٢٣ حاجاً

ثم ذكر كورديه شيئاً غريباً وهو أنه قد بلغ مسلمى ينّان أن فرنسة أحسنت معاملة اخوانهم مسلمى تركيا أكثر من انكلترة فمالوا الى فرنسة وسنة ١٩٢١ جاء منهم ٢٢ شخصاً فأخذوا تواصى من قنصلية فرنسة ولم يذهب الى قنصلية انكلترة الا واحد فقط

وطريق الحج من ينان الى التونكين حيث يبحرون من « هونغ كونغ » الى سنغافوره الى جدة

ثم ذكر كورديه بعض عادات المسلمين هناك فقال : اذا ولد المولود استدعوا الاهونغ فقرأ له بعض الأدعية وأعطاه اسما عربياً ولأجل أن ينتخب الاسم يفتح كتاب الله و يقلب الصفحات سبعاً بسبع ثم ينتخب الكلمة السابعة من السطر السابع . و بعد ثلاثة أيام من الولادة يكون ما يسمونه بالحمام الثالث . و يومئذٍ يقدم الأصحاب هدايا من ثياب وعقود للمولود و يعمل أهله خبزاً خاصاً من دقيق وسكر معجوناً بالزيت . وأما سنة الختان فيجرونها اذا كان الولد فى السابعة أو الثامنة . وأما فى الزواج فلا فرق فى الأعراس عن البوذيين غير أنه فى ليلة الزفاف يأتى خمسة من الاهونغات و يجتمعون الى العروسين و يلقون عليهما نصائح و يدعون لهما

وأما الجنازة فعند ما يحتضر الانسان يستدعى الاهونغ ليقرأ له ما تيسّر و بعد الموت يوضع فى نعش هو النعش العام لجميع الموتى من المسلمين . وعند الخروج بالميت يكون

محمولاً على الأكف الرأس الى الامام والأرجل الى الوراء لكنهم فى الطريق يعكسون الأمر ويجعلون الأرجل الى الامام . وعند الدفن يكشف الاهونغ عن وجه الميت ويوضع فى الحفرة والوجه متجه الى مكة . وبعد الموت بثلاثة أيام يوزعون فى بيت الميت خبزاً معجوناً بالزيت

وعلى وجه الاجمال لا تجد عند مسلمى ينان شدة التمسك التى عند مسلمى تركيا أو افريقيه باسلامهم ولا ترى ما تراه فى الجزائر مثلا وهو أنه متى جاء وقت الصلاة أينما وجد المسلم خر ساجداً

وفى ينان طائفتان من المسلمين « كوكياو » و « سين كياو » واختلافهما انما فى بعض الآراء الدينية لافى الشعائر . والفئة الثانية هى الضعيفة والفئة الاولى هى الجماعة

والحرية الدينية تامة فىالصين وقد أعلنت رسميا فى القانون الأساسى الذى أعلن سنة ١٩١٣ وبعد ذلك نشرت الحكومة وصايا أدبيةفى كتبخاصة فيها : «إن الصينيين والمغول والمندشو والتبتيين والمسلمين كلهم أبناء جمهوريتنا الصينية بدون تفريق بين أجناس ولا أديان . ولكل أن يعتقد ببوذا أو عيسى أو محمد فليس للدولة ديانة رسمية بل الديانة حرة والحرية هى عبارة عن مجموع الحقوق المدنية لكل إنسان فى شخصه وأمواله وشرفه وعقيدته فكل ذلك يحميه القانون»

وبرغم هذا فقد أحدث الانقلاب الجمهورى فى الصين ثورة فى الافكار والمبادئ نشأ عنها اعتداء على الاديان والعقائد . وأراد بعض دعاة التجدد جعل مذهب كنفوشيوس هو دين الدولة الرسمى وهدموا هياكل للديانة البوذية والديانة الطاوية وأقفلوا هياكل ومنعوا شعائر . ولم يسلم المسلمون من بعض الاذى وحملت بعض الجرائد عليهم . ولكن هذه الثورة عادت فسكنت [1] ورجع البوذيون يبنون هياكل ويقيمون شعائرهم وكذلك المسلمون تمتعوا بتمام حريتهم فى اقامة شعائرهم الدينية ورجع الولاة فى الصين ورجال الدولة يعززون مذهب بوذا

ولقد استفاد المسلمون من هذه الحرية الدينية وصاروا يجاهرون بشعائرهم أكثر من ذى قبل وصاروا ينقشون على أبواب المساجد الآيات بالحروف العربية والاعلانات بأن

(١) هذا شئ شبيه بما جرى فى فرنسة يوم الثورة الكبرى سنة ١٧٨٩

هنا مدرسة لحفظ القرآن وهنا جمعية خيرية وهلم جراً

يقول كورديه : لو أن الحكومة الصينية أظهرت من التسامح الديني منذ مائة سنة ما أظهرته منذ سنة ١٩١٣ لما كان جرى شيء من هذه الثورات التي ثارها المسلمون في كانسو وتركستان ويننان

ومما لا شك فيه أن المسلمين تساهلوا في كثير من شعائرهم في الماضي مراعاةً للحكومة الصينية ولدين الأكثرية . ومن الجملة اصطلاحهم على عدم بناء المآذن في جوامعهم . لم يكن لهذا سبب سوى ضعفهم . ولهذا يمكن القول بأن الانقلاب الذي حصل في الصين قد أفادهم

وفي اوربة كانوا يحبون أن يعرفوا كيف كانت حركة المسلمين بازاء هذا الانقلاب في الصين ؟ والحقيقة أن هذا الانقلاب لم يدخل فيه غير رجال العسكرية وأن الشعب سواءً كان بوذيًّا أو مسلماً لزم الصمت وكان الناس قابعين في بيوتهم من الخوف أربعة أيام الثورة ولما استوسق الأمر للجمهورية واستقر الحكم الجديد زين الناس منازلهم وقدموا التهانئ للحاكم . وكان المسلمون من الجملة فقد زينوا البيوت والجوامع واشتركوا بالافراح

ويميل كورديه الى القول بأن سكون مسلمي يننان الزائد ولزومهم العزلة التامة أصلهما الخول الذي كان عكس فعل الثورة التي أبادت خضراءهم منذ خمسين سنة . ومن ذلك الحين صاروا لا يتعرضون لشيء من الأمور العامة . نعم لهم بعض رؤساء من الاهونغات أو من التجار نالوا هذه الرئاسة اما بصفتهم الدينية أو بخدمتهم لجماعتهم أو بلوغهم من حجاج البيت الحرام . وقد عرفت من هؤلاء الزعماء رجلاً موسراً اسمه « ماسين كيين » عمره ٣٨ سنة ليس لزعامته سبب غير ثروته . أما سرواتهم القدماء الذين كان لهم الحول والطول في الماضي فلم يبق منهم أحد

ثم ذكر لجمود مسلمي يننان وخمولهم اسباباً أخرى هي قلة اتصال بعضهم ببعض وبسائر مسلمي الصين ثم استيلاء الفقر عليهم مما يعرف من الأرزاق التي يقدمونها للائمة وخدمة المساجد فانها كلها ضئيلة وأكثرها من الحبوب والارز والزيت والنقد نادر . وكثير من المساجد في حال الخراب وقبر السيد الأجل الشهير هو بحال الخراب أيضا وليس من يرممه

وبالجملة فخمول مسلمي يننّان ناشئ عن خوفهم من السلطة الصينية لقرب عهدهم

بالثورة الكبرى التى جرفت منهم نحواً من ثلاثمائة ألف نسمة

ثم ان نظام الحرية فى الصين أفاد المسلمين من جهة أخرى وهو أنه نشأ عندهم كما نشأ فى تركيا وغيرها من بلاد الاسلام فكرة التأليف بين العلم والدين وبين العقائد القرآنية والمنازع العصرية وان القائمين بهذه الفكرة وان كانوا لا يزالون فئة ضعيفة فانهم ماضون فى عملهم يرون أن بقاء المسلمين على هذا الجمود الذى هم فيه يؤدى الى تلاشى الاسلام

ورأس القائمين بهذا العمل هم المسمى « شا » امام جامع باب الجنوب فى « ينانغو » والمسمى « ما » مدير المجلة الاسلامية المنشورة فى ينان

وهذه المجلة هى لسان هذه الفئة الناطق بالاصلاحات التى يريدونها

وبرنامجهم هو ما يلى :

(١) تأليف جمعيات اسمها « جمعيات الترقى » وقد تألف منها فى ينان ستون جمعية لكنها فى غير ينان لا تزال قليلة

(٢) ايجاد علاقات بين هذه الجمعيات كلها لتوحيد المساعى

(٣) نشر جرائد اسلامية بقدر الامكان . وكان فى الصين ثلاث جرائد اسلامية الأولى فى بكين والثانية فى شنغاى والثالثة فى ينان . والاوليان احتجبتا و بقيت الثالثة (١)

(٤) تأسيس مدارس منظمة يقوم عليها مديرون مسلمون

(٥) ايجاد وحدة تامة فى العمل واشتراك فى السعى والوصول الى تأسيس شئ أشبه بجمعية الشبان المسيحيين

ويقول السيد « ما » ان الذى أبقانا بحال التأخر ولم يساعدنا على تبوّء المقام اللائق بنا هو أن المثقفين فى حزبنا قليلون واننا أشبه بمبشرى الكاثوليك لم نقدر أن نستجلب الينا الا الطبقة الدنيا من الشعب . فيجب علينا العمل لبث المعارف بكل جهدنا حتى يتسنى للمسلمين أن يرشحوا لمناصب الحكومة رجالاً أكفاء فانه فى ينان اذا استثنينا الجنرال « ما تسونغ » وثلاثة من معاونى الحكام يبقى جميع المامورين المسلمين شاغلين وظائف صغيرة .

---

(١) المسموع أن قد صدرت الآن مجلات وجرائد اسلامية جديدة

ثم قال كورديه : ان كلام السيد « ما » هو الصحيح فالملة التى لا تتألف الا الجهلاء تبقى فى حال الانحطاط . ثم قال كورديه :

ان الاسلام انتشر فى أوربة بالقوة القاهرة باديء ذى بدء [1] لكنه ما لبث أن نبغ من أبنائه علماء وفلاسفة كانوا هم الوصلة بين العالم اليونانى اللاتينى القديم والعالم المسيحى الجديد وكان لجامعات العرب العامية فى قرطبة واشبيلية وغرناطة وطليطلة تأثير عميق فى المدنية الاوربية . ثم قال : أما جيوش جنكيز خان فانتشرت فى ممالك آسية بدون أن تعنى بشيء من الفتوحات العلمية أو الأدبية أو الصناعية

ثم ذكر أن انتشار الاسلام فى الصين كان بواسطة طبقة الجند فانحصر فى أوساط غير راقية وأبى به الجمود على منازعه وعوائده القديمة الانتشار فى جميع الأوساط ولا ينكر أنه وجد قواد مسلمون كثيرون فى الجيش الصينى ولكنه لم يوجد ولاة وحكام كثيرون

ونقل كورديه عن مجلة العالم الاسلامى الافرنسية أن الجمود هو الذى أوقف سير الاسلام فى الهند أيضاً وهذا الجمود كان مصدره الآداب الاسلامية (؟)

ثم قال ان تأخر الصين كلها كان منشؤه الآداب الصينية أيضاً لأنه كما قال « ركلوس » Reclus (الجغرافى الافرنسى) أخذ أدباء الصين بقواعد كنفشيوس فلا يقدرون أن يتصوروا وجود أحسن منها ولا أن يعدلوا عن البحر الى السواقى بزعمهم . وما زالوا على هذه الأفكار الى أن بدأت تذهب بالتعليم الجديد

ثم قال ان لجنة « شا » و « ما » هذه وان لم يكن عملها عظيما الى الآن فليس مما يستخف به . وهى ماضية فى توحيد الحركة الاسلامية الصينية . ومذ الثورة الجمهورية الصينية تحمس مسلمو الصين كما تحمس غيرهم من أبناء وطنهم وألفوا لجاناً كل منها مستقلة بذاتها لكنها فى صلة دائمة مع أخواتها . وقد كان رئيس الجمعية الاسلامية فى ينانغو الجنرال « ڤانغ » ثم صار مكانه الجنرال « ماتسونغ » ولهذه الجمعية فروع فى النواحى . وللرئيس اثنان معاونان ثم للجمعية مدير ادارة وهو اميرالاى الآن و بيده ادارة دار السلاح . ولهذا معاون أيضاً وهو اليوم أحد تجار الملح واسمه « ما »

ولهذه الجمعية نفاذ عظيم فى جماعة الاسلام هناك فهى التى تزيد أو تنقص عدد الأئمة

(١) هذا من كورديه وهم وعدم تحقيق

وتؤسس المدارس وتفصل الخصومات الشرعية

وكان السيد « ما » القائم بحركة التجديد قد أصدر مجلة اسمها « مجلة الجوامع » وتوقفت مرتين بسبب قلة المشتركين وهى الآن تظهر للمرة الثالثة (سنة ١٩٢١)

ثم قال ان لهذه المجلة ملحقاً اسمه « السراج المتلألئ » وذكر أن الجريدة تقبل جميع ما يكتب اليها العلماء والمفكرون والفقهاء ولا تؤدى اليهم بمقابلة مقالاتهم شيئاً سوى أن الجريدة ترسل اليهم مجاناً وان الجريدة تنشر رسوماً وتصاوير وتكافئ من ينقشها وانه ان أعان الجريدة أحد بشيء تكتب اسمه وتشكره على مبرته وان كان مبلغ الاعانة طائلاً تنشر صورته

ثم نقل كورديه بعض أنموذجات من منشورات هذه المجلة . مثلاً : أن نفوذ الوعظ فى الجمهور هو على نسبة تبحر الواعظ فى المعارف فعلى المسلمين أن يتعلموا

واليك مثالاً آخر : ان المعارف فى أوربة ما نمت وترقت الا بعد ظهور البروتستانتية . ولولا الاسلام كانت أوربة قبلاً فى جهل وكانوا يقصدون بلاد العرب للتعلم

واليك مثالاً آخر : بينما المسلمون فى الغرب مظلومون مقهورون نحن معاشر الاسلام فى الصين أحرار نتمتع بالحقوق التى يتمتع بها سائر أبناء وطننا . فلنعكف على التعلم والتهذب وبذلك نكون جاهدنا لأجل عظمة الصين

واليك مثالاً آخر : اذا كنا لا نتعلم الا العربيــة أصبحنا كالصم البكم فى بلادنا . وان كنا لا نتعلم غير الصينى لم يتيسر لنا أن نتفاهم مع الخارج . فيجب علينا اذاً تعلم اللغتين . ان مدرسينا لا يعرفون الصينى كما يجب فلذلك ان خسروا وظائفهم صعب عليهم تحصيل معيشتهم

وفى أحد الأعداد يدعو الى ارسال مرشدين لوعظ النساء ولارشاد الأحداث الذين يجهلون القراءة

وفى عدد آخر يعلن أن الجريدة فقيرة تعيش من الاعانات وان من النفقات ما لا بد منه فيجب على المشتركين أن يؤدوا ما عليهم

وفى عدد آخر يقول : تفتأون تذكرون « توفنسيو » زعيم الثورة اليننانية [١]

(١) من سنة ١٨٥٦ الى سنة ١٨٧٣

وتنسون أنه ما قام الا ليخلع سلطنة المانشو وأنه كان فى جميع أحواله يحذو حذو الملوك القدماء الخ

وفى أحد الآعداد يتساءل : هل يلزم تعليم البنات ؟ فيجيب بالايجاب قائلاً ان قوة الأمم الاوربية ناشئة عن كون الجميع متعلمين نساءً ورجالاً

وفى أحد الأعداد يقول انه ليس للاديان أن تعنى بالمظاهر الجذّابة بل يجب أن تعنى بتعليم الحقائق .

قال : ولهذا فأقوى الأديان البوذية والبروتستانتية والاسلامية

قال كورديه : وان لجنة ادارة المجلة كانت مؤلفة من الجمعية الاسلامية ومن مجالس الأوقاف ومن جمعية طلبة المسلمين القدماء ومن جماعة المدرسة العربية فى عاصمة يئان ومن أئمة المساجد ومن ذوى الحمية

لقد أحببنا أن نلخص هذا الكتاب الذى ألفه المسيو كورديه فى التعريف بمسلمى يئان لأنه أشبه بصورة مصغرة عن مسلمى الصين بأجمعهم ولأن يئان ولاية من ولايات الصين والبلاد هناك متشابهة والمسلمون بخاصة يشبه بعضهم بعضاً أكثر من جميع الأمم ولو تباينت أصولهم . ثم اننا نقلنا أماثيل من كتابات جريدة المسلمين فى «يئان» لأن الجرائد من أدلّ الأمور على عقليات الشعوب وطرز تفكيرها وعلى اختلاجاتها الروحية

ورأينا فيما أثرناه عن هذا الكتاب مافيه كفاية عن تلك البلاد بالنسبة الى مايلزم القرّاء معرفته عنها . وبقى من هذا الكتاب القسم المتعلق بثورة يئان العظيمة الشهيرة فهذه قد اكتفينا منها بالخلاصة التى أسلفناها[1] وبالاختصار كان المسلمون قد غلبوا على ولاية يئان واستبدوا بأمرها وأصبح زعيم الثوار سلطاناً بالفعل واستمر استقلالهم ثلاث عشرة سنة الى أن تمكن الصينيون من ضرب بعضهم ببعض وايقاد الفتنة فيما بينهم فتنازعوا وفشلوا وذهبت ريحهم كما حصل فى كثير من مواطنهم وانتهى الأمر بمجزرة قلّما سمع التاريخ بمثلها . والى اليوم لم يقم مسلمو يئان من هذه المجزرة التى أبادت منهم مئات ألوف

ولقد ختم كورديه كتابه هذا بلمحة دالة على الاسلام فى الصين بازاء البانيسلاميسم أى الجامعة الاسلامية ولم يقتصر فيها على مسلمى الصين فحسب بل تناول مسلمى الهند ومسلمى

---

(١) راجع صفحة ٢٢٧ من هذا الجزء

الجاوى وتوابعها ومسلمى الفيلبين.ونحن ملخصون رأيه فى حالة الاسلام بهذه الأقطار الأربعة

رأى كورديه فى حالة الاسلام

فى الصين والهند وجاوى والفيلبين

قال:ان حركة ابن عبدالوهاب فى قلب الجزيرة العربية خيلت لأوربة ان هناك نهضة عربية واسعة النطاق لاستئناف عظمة السلطنة العربية الا أن جيوش محمد على قضت عليها

ثم قال : ان كثيرين من المؤرخين الأوربيين وفى مقدمتهم « لوتروب ستودارد » يذهبون الى أن « العالم الاسلامى فى مخاض شديد وان المائتين والخمسين مليون مسلم المنتشرين من مراكش الى الصين ومن تركستان الى الكونغو يختلجون تحت تأثير أفكار جديدة وانهم سيدخلون فى طور جديد قد يحدث انقلاباً فى العالم كله » يقول كورديه : ان فرنسة لاينبغى لها أن تراقب حركات مسلمى الجزائر وتونس ومراكش فقط بل حركات مسلمى آسية أيضا . نعم ان المسلمين الذين فى مستعمرة فرنسة فى الهند الصينية هم عدد قليل الا أن مركز هذه المستعمرة الكبيرة هو واقع بين الصين والهند وماليزيا والفيليبين والاسلام فى جميع هذه الأقطار راسخ القدم كما لايخفى فيجب على فرنسة أن تراقب سير الأفكار الاسلامية فى آسية لتعرف مابينها من اتصال لأن أكثر الثورات انما تنشأ عن اتجاهات فكرية جديدة

ثم ذكر كورديه حركة الاسلام فى الهند وقال : ان المسلمين فى الهند كانوا وقفوا بازاء الهندو الذين يتطلبون الاستقلال التام وينادون « بانديمتاران » أى سلام على الوطن الأم . وذلك لأن معنى هذه الجملة عند الهندو هو اخراج كل غريب من الهند والاسلام من الجملة . ولذلك كان المسلمون فى البداية عضداً للانكليز . فلما حصلت الحرب الكبرى وانتهت بتقسيم الانكليز لتركيا ورأى المسلمون ان انكلترة أرادت القضاء على الخلافة وابادة تركيا غضبوا وانضموا الى الهندو . وهى أول مرة اتحد فيها هذان الفريقان بسوء سياسة انكلترة

فأما فى بلاد اندونسيا أى المستعمرات الهولاندية جاوى وسومطرة وتوابعهما فبعدأن ذكر كورديه تاريخ دخول الاسلام فيها وصل الى الحالة الحاضرة التى عليها مسلمو هذه الجزائر فقال : ان اسلامهم ليس بشديد الصبغة وان العالم الاسلامى لم يزدد بهم الا زيادة عدد

فقط . وان ادارة هولاندة هى من التسامح بحيث لاتجعل لاتتقاضهم سبيلا . قصارى الأمر ان مسلمى اندونسيا ينشدون العلم والتعلم ويجتهدون بواسطة العلم أن يحصلوا على حق ادارة أنفسهم بأنفسهم . ولم يخلُ الأمر من وقوع ثورات هناك كما جرى فى بلاد «اتشين» وهذا فيها قديم يقال ان أصله من أغلاط الهولانديين وأخذهم البرئ بذنب المجرم وارتكابهم فى تلك البلاد الظلم وسفك الدماء

ثم ذكر اسلام الفيلبين فقال : ان ظهور الاسلام فى تلك الجزائر التى يقال لها «مينداناو» وفى أرخبيل سولو كان فى وقت ظهور الاسلام فى بورنيو . يقال ان تجار العرب نشروا الاسلام هناك فقيل لهم « المورو » كما كان يقال لمسلمى الأندلس . وعم من بعدها مسلمى الفيليبين . وقد بدأ وجود الاسلام فى هذه الأماكن من قبل سنة ١٥٠٠ وكان سلطان بورنيو تزوج بابنة سلطان ميندناو فأسس سلطنة سولو التى استفحل أمرها . ولما كان بين الاسبانيول وبين المورو عداوة من عهد الأندلس فقد غلظوا على المسلمين وأحرجوهم فبدأت الثورة فى « لوسون » من سنة ١٥٧٦ وصارت الحرب متصلة بين الفريقين فمن جهة المسيحيين الحرب الصليبية ومن جهة المسلمين الجهاد فى سبيل الله

وكان سلطان سولو أشد أمراء المورو مقاومة فاعترف الاسبانيول باستقلاله سنة ١٨٣٦ لكنهم عادوا فقاتلوه سنة ١٨٤٤ و١٨٥٠ ثم تصالحوا سنة ١٨٦٠ ولم يكن لهم فى سلطنة سولو الى حد سنة ١٨٧٦ الاسيادة اسمية

أما اميريكيو الولايات المتحدة فلما انتزعوا الفيليبين من أيدى الاسبانيول استخفّوا بأمر سلاطين المورو فعرفوا عاقبة خطئهم لأن هؤلاء كانوا لايتناهون عن العيث والقتل والفساد فى الأرض حتى ملّت الحكومة الاميريكية منهم . وكان الامريكيون يرجون بواسطة التعليم وفتح المدارس أن يصلوا الى السلام ولكنهم أسرعوا فى التفاؤل وكانوا وعدوا الفيليبين بالاستقلال الداخلى لكنهم استعجلوا فى الوعد[١]

قال كورديه : ان جميع هذه الثورات لم تنشأ عن بانيسلامسيم ولاعن ارتباط عام بين المسلمين ولاعن مجرد بغض وشنآن للأجانب . بل هذه ثورات منشؤها نهوض الأهالى بطلب حقوقهم من الأمم التى تسلطت عليهم . ولايوجد مسلم واحد لاعالم ولاجاهل يحلم بجمع

---

(١) قلنا انه فى أواخر هذه السنة المنصرمة سنة ١٩٣٢ قرر مجلس النواب الأمريكى استقلال الفيلبين

بلاد الاسلام تحت سلطة أمير واحـد واستئناف دولة الخلفاء . نعم لما كان أكثر المسلمين وقع تحت عبودية الأجانب فتجدهم يحنون بعضهم الى بعض بسبب اتحاد العقيدة والتشابه فى المصيبة الأجنبية الواقعة عليهم . ولانرى أدنى عجب فى هذا الأمر

ثم عاد كورديه الى ذكر منشأ الاسلام فقال : انه لم توجد ديانة من الديانات الكبرى لا الزرداشتية ولا البوذية ولا النصرانية انتشرت بسرعة انتشار ملة محمد . فانها بدون عضد امتدت فى ثلاثة قرون من البيرانه الى حملايا ومن قلب آسية الى قلب افريقية . ولم تكن أسباب سرعة هـذا الانتشار سوى ضعف مملكتى بيزنطية وفارس وحماسة العرب الفائقة وفروسيتهم الباهرة وسذاجة العقيدة التى نشروها . ثم باختلاط الغالبين بالمغلوبين تولدت هذه الحضارة الاسلامية التى لمعت لمعاناً شديداً بينما كان الغرب هائماً فى الظلمات (١)

الا أن لمعان الاسلام لم يكن طويل الأمد . بل بدأ بالانحطاط من القرن العاشر (المسيحى) الى أن قال : انه من سنة ١٠٧١ تغلب الترك على القدس وانتهت دولة العرب ومع أن الترك كانوا محاربين أشداء فلم يكونوا أهل ملكة عمرانية . وفى سنة ١٢١٣ سقطت خلافة قرطبة بتغلب النصارى . ثم فى سنة ١٢٥٨ سقطت بغداد فى أيدى المغول فاضمحلت القوة الاسلامية . ثم استأنف الترك السلطنة وأخذوا بيزنطية و بلاد البلقان والمجر وشمالى افريقيـة والشرق الأدنى فصار لهم من فارس الى مراكش . الا انهم من بعد فشلهم أمام اسوار ڤينا (سنة ١٦٨٣) تراجعوا القهقرى

وكان جاء عصر التجدد فى أوربة « رنيسانس » واهتـدى الأوربيون الى كشف أمريكا فاتسعت موارد ثروتهم وامتد ظل سلطانهم . ومن ثمة لم يكتفوا بدفع المسلمين عن بلدانهم بل تجاوزوا عليهم وأخـذوا يفتحون بلاد الاسـلام قطراً قطراً فانفصلت بلاد اليونان ثم رومانيا ثم بلغاريا عن تركيا . واستولت انكلترة على مصر والهند . واستولت الروسية على القوقاس وآسية الوسطى . و بسطت فرنسا يدها على شمالى افريقية . وهلم جرا وعند نهاية الحرب العامة لم يكن بقى مستقلاً من ممالك الاسـلام غير تركيا . وهذه أيضا كانت معاهدة ڤرساى أخنت على استقلالها

لكن ان كانت قوة الاسـلام العسكرية والسياسية قد سقطت فان قوته الأدبية لم

(١) قال هذا كورديه بالحرف

تسقط ومن القرن السابع عشر الى الآن نراها على ازدياد

ثم مثّل كورديه نمو قوة الاسلام المعنوية بالوهابية ثم بالسنوسية التي هي أقوى الفرق الاسلامية بعد الوهابية . وذكر ان امامها الحالي هو السيد أحمد الشريف ابن شقيق سيدي المهدي

وعاد فختم كلامه بذكر اسلام الصين قائلا ان ثورات شانسي ويتان هي كما قال غارنيه والأب داود واندرسون وغيرهم لم تحصل عن تعصب ديني بل عن حس المحافظة على النفس . وكذلك ثورات كانسو سنة ١٨٦٤ و ١٨٩٥ كانت للأسباب نفسها وانتهت صلحا . وبقيت مقاطعة ستشوان التي هي بين شانسي وكانسو ساكتة ساكنة مع اشتعال أربع ثورات من عن جوانبها

قال : ولقد كثر تكهن العلماء والمؤرخين على مستقبل اسلام الصين وكل منهم أدلى بدلوه وقال « فاسيليف » سنة ١٨٦٧ : اذا انتشر الاسلام في الصين كما انتشر مذهب بوذا ينقلب وجه العالم

وقال « دوترسان » صاحب كتاب « المحمدية في الصين » انه ان تقسّمت الصين وفقدت وحدتها السياسية استفاد المسلمون في المقاطعات التي أكثرها منهم واستقلوا . وتكون مدة استقلالهم بحسب حسن ادارتهم ومشيئة الله . وان ترقّت الصين في العلوم والمعارف وصارت دولة من أعظم دول الكرة الأرضية كان لا مناص لها من أن تترك أضاليلها وعقائدها الوثنية وأن تأخذ بديانة تعبد بها الواحد الأحد ولن تجد لها حينئذٍ أقرب من الاسلام الذي يدين به عشرون مليوناً من أبنائها . ولكن لتكن أوربة من حادث كهذا على ثقة انه لن يحدث انقلاباً لأن اسلام الصين سيكون مصطبغاً بصبغة مسيحية (؟) لا يهمه الا السلام ونشر المدنية الحق (؟) . وقد انتقد كورديه هذا الكلام وقال : هذا حلم من الأحلام . فمن يقول ان اسلام الصين سيصطبغ بصبغة مسيحية ؟

وممن تخوفوا من مصير الصين الى الاسلام الكاتب الانكليزي آرنولد

قال كورديه . وقد مضى خمسون سنة على هذه الآراء ولم يتقدم الاسلام في الصين شبراً وذلك لأن الأمة الصينية ليست بأمة ذات اشتغال بالعقائد وانما هي أمة مادية لا يهمها الا الحياة الدنيا

وقال « اولون » ان الثورات كثيرة فى الصين والانقلابات مستمرة فان وصلت النوبة الى قائد مسلم وتمكن من الاستواء على العرش لا يبعد أن يتحول قسم كبير من أهل الصين الى الاسلام

وهذا أيضاً خطأ بحسب رأى كورديه لأن الجنرال « ماتسونغ » فى ينّان هو مسلم وهو القائد الأول فيها وما أسلم على يده واحد . وكذلك الجنرال « ما » المشهور

والنهاية بحسب رأى كورديه ان مسلمى الصين يقبلون على تيار التجدد نظير أبناء وطنهم الصينيين وان جميعهم مع ذلك يغلب عليهم السكون بمقتضى فطرتهم . انتهى

***

تعليقات على مبحث مسلمى الصين

مقالات وأحاديث للصينيين أنفسهم

أحببنا لأجل زيادة شفاء الغليل من مبحث اسلام الصين أن ننشر خمس مقالات احداها ظهرت فى جريدة الأهرام تاريخ ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣١ والثانية ظهرت فى الأهرام أيضا سنة ١٩٢٣ والثالثة والرابعة فى جريدة الفتح تاريخ غرة رمضان و ٦ ذى القعدة سنة ١٣٥١ والخامسة فى الجامعة العربية بتاريخ ٢٤ شوال سنة ١٣٥١

فالأولى تتضمن حديثاً لرئيس البعثة الصينية فى الجامعة الأزهرية والثانية تتضمن حديثا لعالم صينى نزيل تكية الكلشنى بمصر والثالثة هى محررة بقلم السيد محمد مكين الصينى من المجاورين بالأزهر

حديث لرئيس البعثة الصينية الازهرية

الاسلام والمسلمون فى الصين

قصدت فى صبيحة أمس الى الدار التى اعـدتها وزارة الاوقاف ليسكن فيها اعضاء البعثة الصينية التى أوفدتها حكومة الصين لدراسة العلوم الدينية والمدنية فى الجامعة الازهرية وسألت عن أعضائها وعن رئيسهم فأخبرت بان ادارة المعاهد الدينية قد أعدت هـذا اليوم لاختبارهم فى اللغة العربيـة وفى القرآن الكريم وفى الخط العربى والامـلاء والانشاء ، فذهبت الى مقر لجنة الامتحان فى الجامع الازهر وظللت أنتظر حتى انتهوا ، ثم تقدمت الى مدير البعثة وطلبت منه أن يحـدثنى عن الحالة الاجتماعية فى الصين وعن الاسلام والمسلمين فى تلك الديار النائية القاصيه فابتسم وقال لك عنـدى كل شئ وانى على استعداد لان أتحـدث معك فى كل شئ إلا السياسة فانى لا أعرفها ولا أكلف نفسى عناء الغوص فى اسرارها و بواطنها واكناهها ، فقلت له وهل محظور عليك ان تتكلم فى السياسة . وهـل السياسةعندكم شئ ثانوى أو كمالى لا يعنى بها لا بمقدار ، وهل بلغت الصين فى السياسة شأوا بعيدا ونالت كل ما تصبو اليـه الامم من الحضارة والمدنية فأضحت لا تنظر الى السياسة الا كما تكون اللحية عنـد الرجل الدينى المتعمق فى معانى الايمان ؟؟ فنظر الى رئيس البعثة نظرة ذات طابع صينى وقطع على حديثى وقال : انى يا سيدى رجل دينى فقط : وأرأس بعثة دينية فقط ، وهناك فوارق متعددة بين الدين والسياسة ، ولقـد درسنا الدين فى بلادنا الى درجة محدودة وجئنا نطلب المزيد هنا ، وما اتصلت ولا اتصل أحد من أعضاء البعثة بالسياسة ولا جالسنا أحد الرجال السياسيين لاننا نرعى فى مزرعة وهم يرعون فى مزرعة أخرى . وما أبعد الفارق بين المزرعتين . وسكت . فقلت وهل لنا أن نتحدث عن الناحية الاجتماعية والدينيـة فى الصين ، فقال لك هذا ، وجلس ، وجلس حوالينا أعضاء البعثة وجرى بيننا هذا الحديث :

قلنا ــــ ما هو عدد المسلمين فى الصين وما هو عدد غيرهم من الطوائف الاخرى ؟

وهـل هناك تنافس دينى بين المسلمين وغيرهم من تلك الطوائف ، ولاى سبب يرجع ذلك التنافس ، اذا كان موجودا ؟

قال — أما عدد المسلمين فى الصين فخمسون مليونا ، وعدد السكان أربعمائة مليون ، والمـذاهب الدينية فى الصين متعددة كالكونفوشيسية فالبوذية فالمسيحية ومع ذلك فان أكثر أهـل الصين لا دين لهم ، وهم يعبدون أشياء متعـددة ، كالجبال والنور والنار ، وبعضهم يعبد الماشية والدواب ، وهناك مـذهب دينى قليل الانتشار يسمى « التوصينية » نسبة الى رجل يقال له « لوتزا » وأصحابه هم المتصوفة المتقشفون الزاهدون الذين لا يتزوجون طوال أيام حياتهم ، ولا ينظرون الى المرأة ولا يتصلون بها أى اتصال وانى أقرر لك ان بين المسلمين و بين أفراد الطوائف الاخرى تنافسا دينيا بعيد المـدى شديد الاثر ، وذلك لان الطوائف غير المسلمين تمقتنا وترمينا فى اعتقادنا الدينى ، وهم متعصبون ضدنا كثيرا ويرجع السبب فى أغلب المعارك الدموية الداخليـة الى ذلك التعصب الدينى ولـكن الاديان فى الصين أمام القانون سواء وحرية المعتقـدات مكفولة والحـكومـة لا تناصر طائفة على طائفة ولا تؤازر مذهبا دون مذهب فهى لا دينية ولا تتبع خطط دين معين

قلنا — وهل يوجد بين الموظفين فى الحـكومة أفراد مسلمون ؟ وما هو عددهم ؟؟

قال — نعم يوجد بين الموظفين فى الحـكومة أفراد مسلمون . منهم خمسة قواد فى الجيش ومحافظ لاحدى عواصم المقاطعات ، و بعضهم يشغل وظائف فى المجالس البلدية والمحلية و بعضهم فى وظائف التـدريس ، وهناك مسلمون كثيرون فى الجيش كجنود لانهـم مشهورون بالشجاعة والاقدام . واما فى الوظائف الملـكية المدنية فعددهم قليل جداً .

قلنا — أليس هناك قانون عام للتجنيد ، وكيف تـكون أكثرية الجنود من المسلمين مع أن القانون عام ينفذ على الجميع ؟؟

قال — المسألة نسبية . والقانون حقيقة عام ولـكن عدد المسلمين فى بعض المقاطعات الصينية أكثر من عدد أية طائفة من الطوائف الأخرى لانى اذا قلت لك ان عدد المسلمين فى الصين خمسون مليونا لوجب أن يـكون عدد كل طائفة من بقية الطوائف الاخرى أقل من ذلك بكثير وفى الصين أكثر من خمسين دينا ومذهبا

قلنا — هل لك ان تحدثنى عن نظام الزواج والطلاق عندكم ؟؟

قال — ان جميع المسلمين يتزوجون ويطلقون وفق ما جاء به القرآن الكريم والزواج عندنا لا يتم الا بعد موافقة الزوج والزوجة ورضائهما عن بعضهما رضاء تاماً موثوقاً به . ووثيقة الزواج واشهاد الطلاق عندنا تسجل أمام المجالس البلدية والمحلية . ومن يتزوج أو يطلق من غير أن يثبت زواجه أو طلاقه أمام تلك المجالس يعاقب بالسجن

قلنا — يؤخذ من هذا أن ليس هناك محاكم شرعية لكى تفصل فى المنازعات الزوجية التى تحدث بين الزوجين المسلمين بمقتضى أحكام الشريعة الاسلامية ؟ ؟

قال — لا ، لا ، ليس عندنا محاكم شرعية لمثل هذا النوع من القضايا ، بل ان المنازعات الزوجية عندنا وما اليها من المشاكل الشخصية تدخل ضمن المسائل المدنية . ويفصل فيها مجلس قضائى مؤلف من أعضاء متعلمين ومنتخبين انتخابا حرا عن طريق التصويت المباشر وهو يصدر احكامه فى المسائل المدنية التى تدخل ضمنها مسائل الزواج ، والحكومة ملزمة بتنفيذ أحكامه

قلنا — أليس للمسلمين فى الصين رياسة دينية ؟ ؟

قال — نعم ليس للمسلمين عندنا رياسة دينية وليس لنا رئيس دينى ، وليس هناك من يشرف على التقاليد والأصول الاسلامية غير الجمعيات الأهلية المحلية وانى لأذكر لك هنا أن لمسلمى كل مقاطعة نوعاً من التقاليد مصطلحاً عليه ، ومقاطعة يونان فو ، هى أشد المقاطعات حرصاً على الاسلام ، وغيرة على آدابه وتقاليده

قلنا — هل المسلمون فى الصين مثقفون تثقيفا علمياً عصرياً يسمح لهم بان يزاولوا أو يتقلدوا الوظائف المدنية الراقية ، وما هى نسبة المتعلمين منهم ؟ ؟ وهل أحوالهم المالية تسر على وجه العموم ؟ ؟

قال — إنى آسف لان اقرر هنا ان عدد المسلمين المتعلمين تعلما عصريا قليلون جدا ، والاغلبية منهم أمية ، واما نسبة المتعلمين فهى اثنان فى المائة أو أقل من ذلك فى بعض المقاطعات ، والمسلمون فى الصين فقراء كثيرا وحالتهم المالية لا تسر على وجه العموم

قلنا — هل الذى يرتكب جريمة هتك العرض مثلا ، يعاقب عقابا دينيا ام مدنيا ؟ ؟

قال — ان الذى يرتكب أية جريمة جنائية يحاكم أمام المحاكم الجنائية التى لها قانون مدنى أهلى

قلنا — وهل المسلمون متمسكون بدينهم ، وهل هناك مساجد للصلاة

قال — أعود فاكرر الاسف إذ أقول ان مسلمى الصين لا يفهمون الاسلام على الوجه الصحيح ، وذلك يرجع الى جهلهم وعدم تعليمهم ، وعندنا مساجد كثيرة بنى بعضها منذ دخل الاسلام فى الصين ، وأول من بنى مسجدا هو الملك « طان » الذى أسس مسجد كوانتونج ، ومع أن المساجد كثيرة إلا انها خربة لا يؤمها إلا القليلون

قلنا — ما هو مركز مصر الدينى عند مسلمى الصين ، وما هو مقام الازهر عندهم ؟؟

قال — ان مركز مصر الدينى عندنا هو مركز كبير لا يسمو عليه أى مركز فى الوجود ، واننا نحب مصر من قلو بنا ونعدها قبة الاسلام ، و بخاصة لانها بلد الجامع الازهر الذى نعتقد فيه أنه منبع الاسلام الصحيح

قلنا — وهل المرأة الصينية متحجبة أم سافرة ، وهل لها حقوق مدنية مقررة فى دستور البلاد ؟

قال — ان المرأة الصينية سافرة وحالتها الآن أحسن بكثير من ذى قبل وهى تتمتع بالحقوق المدنية التى يتمتع بها الرجل . اذ ان لها حق الانتخاب والتوظيف فى القضاء والادارة وفى المجالس البلدية والمحلية

***

وانتهى الحديث بنا الى هذا القدر وشعرت انه متعب فاستأذنت فى الانصراف وشكرته وودعنى بما يبدو عليه من الحياء والتواضع

أحمد عبد الحليم العسكرى

حديث عالم مسلم صيني

نزيل تكية الكلشنى فى مصر

فى صباح الخميس أول يوم من عيد الفطر المبارك قصدنا نحن الثلاثة زيارة هذا العالم الذى قرأنا بعض أخباره وآثاره فى الجرائد والمجلات المصرية . فلما بلغنا شارع تحت الربع صعدنا الى باب التكية واستقبلنا مقام الكلشنى و به وجهة مصنوعة من الفسيفساء الجميلة الألوان المتقنة الصنع ثم اتجهنا ذات اليمين وصعدنا درجاً فسيحاً و بالدور الأعلى وجدنا غرفة عليها منظر البساطة والزهد و بها سريران وصندوق مملوء بالكتب والأوراق وفى وسطها رجل فى نحو الستين من عمره قصير القامة نحيف البنية أصفر الوجه عالى الجبين بارز الفك الأعلى لا نبات بعارضيه ويكاد يكون شعر شار به عذارا و بجواره فتى فى نحو العشرين من عمره فحييناهما باللغة العربية فرد العالم تحيتنا بعربية فصحى وأظهر سروراً عظيما بزيارتنا فى هذا اليوم المبارك ثم أجلسنا وقدم لنا الشاى الصينى الحقيقى فى آنية صينية ثم قدمنا اليه أسمائنا ودار بيننا الحديث الآتى . قال العالم : —

« اسمى « واى ون كين » وترجمته بالعربية سعيد إلياس وصناعتى عالم اسلامى وامام بلدى تنسين ومحرر جريدة تنسين وقد سافرت من بلدى منذ عام وغايتى من هذه السياحة الاطلاع على أحوال الأقطار الاسلامية والاستنارة بالأفكار الجديدة الموجودة فى الشرق الأوسط والشرق الأدنى فزرت بلاد الهند وها أنا فى مصر وسأزور سوريا والأناضول والاستانة ثم أعود الى وطنى »

قلنا — كم عدد المسلمين فى بلادكم وما هى حالة تعليمهم وشئونهم الاجتماعية

أجاب — يبلغ عدد المسلمين فى الصين نحو سبعين مليوناً وكلهم يقومون بواجباتهم الدينية و فى بلدى نحو أربعين مسجداً ومعظمهم يقرأون الكتب العربية بنطق صينى ما عدا العلماء الذين يتعلمون العربية منذ الصغر . و يؤدون الصلاة باللغة العربية . وتعدد الزوجات وان يكن مباحاً بالشرع فى الدين الاسلامى الا أنه مفقود من عاداتنا فلكل رجل امرأة واحدة بحكم عاداتنا والطلاق نادر جداً ويكاد يكون معدوماً . وقد درست فى صغرى

وشبابى الفقه والحديث والسنة وعلوم الكلام والتصوف والتوحيد وآداب اللغة العربية

سالناه — هل يوجد لبوذا وكونفوشيوس أتباع كثيرون فى الصين

أجاب — ان بوذا متبع فى بلاد الهند فقط وذكره عندنا قليل أما كونفوشيوس فله أتباع كثيرون فى الصين ويطلق عليهم اسم « أصحاب كونفوشيوس » ولم يكن هذا الزعيم المصلح نبياً مرسلا ولم يقل بذلك هو نفسه أو أحد من أصحابه بل كان حكيما وكل تعاليمه خاصة بشؤون هذه الدنيا وتدبير الأمور المادية والسياسية والادارية وأصحابه ليسوا مقيدين بعبادة إله معين فهم يعبدون ما يشاءون كأجدادهم فيعبدون الأشجار والانهار وبالجملة فانهم مشركون .

سألناه — وما حالة الصين منذ دخول الحكم الجمهورى فى البلاد ؟

أجاب — ان الشرق عامة محتاج الى حكم قوى يكون مصدره العدل والحكمة وحب الخير ولكن الحكام الذين من هذا القبيل لا وجود لهم فى هذا الزمان وأفضل مثال لهم الخلفاء الراشدون فى صدر الاسلام ونحن المسلمين فى الصين نعتقد فى أن الاسلام دين شورى وديموقراطية وقد جاء فيه « وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ »

سألناه — هل حصل تقدم فى البلاد فى الأعوام الاخيرة ؟

أجاب — نعم فقد أبطلت عادات كثيرة من العادات الرديئة مثل تقييد أقدام الفتيات ومنعها من النمو ظناً بأن هذا أثر من آثار الجمال وأصبح هذا الفعل معاقباً عليه وبدأت بلاد الصين تشعر بوجودها القومى وتسترد المقاطعات التى كانت اغتصبتها منها بعض الدول الاجنبية وهى سائرة ببطء لانها أمة عظيمة وملكها مترامى الأطراف .

سألناه — وما هو شعوركم نحو الدول الاجنبية

أجاب — ان اليابان وان كانت من جنسنا الا أنها دولة قوية وميالة لالتهامنا فهى كلما وجدت فرصة للانقضاض علينا فلا تتأخر وهذا دليل على أن اتحاد الجنس والدين لا يقف فى سبيل المصلحة السياسية فنحن نبغضها . أما الدولة المحبوبة لدينا فعلا فهى الولايات المتحدة وهى التى ننسج على منوالها كل شئ وهى تظهر لنا المحبة وكل معاملتها معنا كانت بالاقوال والكتابات لا بالافعال الهمجية كغيرها مثل الحرب أو الاستيلاء على بلادنا

سألناه — ما رأيك فى علماء مصر ممن زرتهم وزاروك

قال — لم يزرنى أحد منهم ولا أعرف الا اسماعيل بك رأفت والشيخ طنطاوى جوهرى. وقد عرفت كثيراً من العلماء بالكتب مثل الشيخ محمد عبده وأظنه كان من أعظم رجال العالم قاطبة ولا ينتظر أن يجود الزمان بمثله فى الوقت الحاضر فقد كان عالما دينياً وسياسياً واجتماعياً وليس فى مصر من يخلفه . واسم مصطفى كامل باشا معروف جداً لدينا فى الصين لأنه أسس الحركة الوطنية فى مصر كذلك اسم مصطفى كمال غير أننى غير مشتغل بالسياسة ولا يهمنى أمرها الا من حيث تهم ترقية شؤون قومى وقد ترجمت كتباً كثيرة من اللغة العربية الى اللغة الصينية مثل تاريخ مصر القديم أما التاريخ الحديث فليس معلوماً لدينا ولم تصلنا كتب عنه ونحب أن تكون علاقة مصر بمسلمى الصين قوية

سألناه — هل تستطيعون وتودون أن تلقوا محاضرة باللغة العربية عن حالة المسلمين بالصين من الوجهة الدينية والاجتماعية فى جمهور من المتعلمين المصريين

أجاب — أستطيع ذلك على شرط أن أؤلفها بالكتابة أولا ثم أقرأها لأننى لا أستطيع أن أرتجل خطبة . فشكرناه واستأذناه فى الانصراف ونرجو من وزارتى الأوقاف والمعارف وعلماء مصر وأدبائها أن يعتنوا بزيارة هذا العالم واكرام وفادته فقد قال لنا عند ذكر مصطفى كامل انه يعلم أن شعار المصريين هو — « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا »

(الأهرام) ا . رؤوف — ح . رمزى — لطفى

الاسلام في الصين ـ غابره وحاضره

— ١ —

يسالنى دائماً اخواننا المسلمون عن أحوال الاسلام فى الصين ، و يسرنى غاية السرور عنايتهم بالدين ورغبتهم فى العلم ولوفى الصين . فأكتب بحول الله هذا الكلام الوجيز لقضاء حاجتهم الشديدة وتوطيد التعارف والتفاهم بين شعوب الاسلام وأسأل الله تعالى أن يوفقنا لما فيه الخير وهو القريب المجيب

تاريخ دخول الاسلام فى الصين

متى دخل الاسلام فى بلاد الصين ؟ هذه مسألة غامضة فيها روايات متعددة مختلفة وعلى الرواية المشهورة عند المسلمين الصينيين أنه فى سنة ٦٣٧ م (قبل وفاته عليه السلام) وعلى رواية أخرى كان ذلك فى سنة ٥٩٩ م (قبل الهجرة النبوية) وعلى تحقيق حجة التاريخ الاسلامى الصينى البروفسور جنيون أن أول وافد من الدولة الاسلامية الى الدولة الصينية أوفد سنة ٦٥١ م (فى عهد سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه) وقال البروفسور : ان مناط الاختلاف فى ذلك تباين التقويم الصينى مع التقويم العربى لأن السنة الصينية سنة قمرية شبيهة بالسنة الشمسية فى كل سنة بسيطة ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً كالسنة القمرية تماماً ، وأما السنة الكبيسة فيزاد فيها شهر واحد وتكبس السنة مرة فى كل ثلاث سنوات ومرتين فى كل خمس سنوات وسبع مرات فى كل تسع عشرة سنة لتتفق مع السنة الشمسية ، واستعملت الحكومة الصينية التقويم العربى سنة ١٣٨٤ م وهى توافق سنة ٧٨٦ ﻫ فطرحت ٧٨٦ سنة من التقويم الصينى ليعرف مبدأ التقويم العربى بالنسبة الى التقويم الصينى ، فوقع الخلاف ، وهذا كلام معقول مرجح عندنا . والله أعلم

العلاقة بين الدولتين الاسلامية والصينية

ذهب فى عهد الخلفاء الراشدين الى الصين الوفود الاسلامية والتجار المسلمون من العرب والفرس متعاقبين ، وكانت الجالية الاسلامية فى عاصمة الصين وحدها عددها أربعة

آلاف شخص وهى أكثر من الجالية الافرنجية الموجـودة الآن فى بكين ، وعلى احصاء البروفسور جنيون بعثت الى الصين فى عهد اسرة «تان» وأسرة «سون» من سنة ٦٥١ الى سنة ١٢٠٧ م الوفود الاسلامية ٧٦ مرة واستنجد سنة ٧٦٢ م عاهل الصين بالمسلمين على الثائر الفاتك شيچوبى

العظماء المسلمون المتقدمون

كان عواهل الصين يجاملون المسلمين . وفى عهد أسرة «يون» وهى أسرة چنكيزخان (سنة ١٢٧٧ — ١٣٦٧ م) كان للمسلمين منزلة عالية سياسية واجتماعية ، والأعيان المسلمون المسجلة أسماؤهم فى سجل طبقة الأعيان الملكى كانوا أكثر من مائة نفر . وكان السيد جاسر الدين والياً عادلا على ولاية يونان ، وحفر فى نواحى عاصمتها قنوات كثيرة مازالت باقية مفيدة ، و بنى فيها لأهليها الكافرين هيكلا للفيلسوف الأكبر كونفوشيوس ، وهو أول هيكل بنى له فى ولاية يونان . وللسيد جاسر الدين ذكر خالد عند سكانها فأقاموا تمثالا له فى هيكل الحكماء (الباتيون) فى عاصمتها وقد تولى ابنـه السيد بابنْ رئاسة الوزراء سنة (١٣٣٣ — ١٣٤٠ م) . وألف الأديب المسلم جنس بضعة عشر مؤلفا ، ومازال ديوان البارّ المسلم دنهاتنى منتشراً حتى الآن . وكان يَحدير مهندساً فى بناء سور القصور فى بكين ونال سـنة ١٣٣٣ م عشرةٌ من الأدباء المسلمين الشهادة العلمية الملكية العليا وفى أسرة «مين» (سنة ١٣٦٥ — ١٦٤٣ م) استعمل التقويم العربى فقام الشيخ محمود بترجمة الكتب التقويمية العربية وأرسل العاهل سنة ١٤٠٦ م الطواشى المسلم جِنها قائداً الاساطيل الصينية المؤلفة من ٣٧٠٠٠ بحرىّ الى جزائر الهنـد الشرقية وسيلان وسواحل الهنـد الجنوبية والعراق وسواحل جزيرة العرب وساحل أفريقية الشرقية ليدعو سكانها لأداء الخراج لعاهل الصين واهـداء التقادم ، ومن رفض دعوته هدده بالقوة والسلطنة . وجده وأبوه كانا حاجين ، ومسقط رأسه فى ولاية يونان . وصنف العلامة صالح ليوجلين (رحمه الله) فى آخر القرن الثامن عشر باللغة الصينية كتاب (سيرة سيد المرسلين) وكتاب (شريعة الاسلام) وكتاب (أسرار الاسلام) وهذه المؤلفات هى التى تيقن بها الصينيون أن الاسلام دين حنيف لايخالف مبادئ الفيلسوف كونفوشيوس بل يؤازرها ، فأدخلت فى دار الكتب الملكية فانكشفت ستور الإسلام فى الشرق الأقصى . ومسقط رأس العلامة صالح ليوجلين

ومدفنه فی نانـكین عاصمة الصـین الجدیدة وقد زرت روضته الطاهرة سنة ١٣٤٧ ﻫ وألف العلامة یوسف مافوسو (رحمه الله) باللغتین العربیـة والصینیة مؤلفات مفیدة فی العربیـة والعلوم الاسلامیة وطبع مولفات العلامة صالح لیوجلین (رحمه الله) بعد التصحیح فازدهر الاسلام مرة أخری . وطلع عقبه المعلم العظیم الحاج نورالحق ماجبان (رحمه‌الله) فتخرج فی مدرسته العاماء العاملون أفواجا ، ومسقط رأسهما فی ولایة یونان

ثورة المسلمین

كان طغاة الأسرة المنشوریة (سنة ١٦٤٤ — ١٩١١ م) قد اضطهدوا المسلمین وساموهم خسفاً وزاد علیهم فی اضطهاد المسلمین الأمراء المنشوریون الظالمون فی ولایة سنكیانج (التركستان الصینیة) فأخذوا أموالهم وفضحوا عیالهم ، فقام المسلمون یدافعون عن أنفسهم وأعراضهم ، فوقعت الثورة الهائلة فی مائة سنة تقریبا (سنة ١٧٥٨ – ١٨٧٣م) خمس مرات وناهیك بالكتب التاریخیة الأمیریة فی هذه الثورات وعدد أجزائها كالآتی :

(١) تاریخ ثورة سوسیسان فی ولایة كنسیو (سنة ١٧٥٨ م) ٢٠ جزءاً

(٢) تاریخ ثورة مامنسین فی ولایة كنسیو (سنة ١٧٦٨ م) ٢٠ جزءاً

(٣) تاریخ ثورة جنقغ فی ولایة سنكیانج (سنة ١٨٢٥ — ١٨٢٧ م) ٨٠ جزءاً

(٤) تاریخ ثورة سلیمان دوونسیو فی ولایة یونان (١٨٥٥ — ١٨٧٣) ٥٠ جزءاً

(٥) تاریخ ثورة یعقوب فی ولایات شانسی وكنسیو وسنكیانج (سنة ١٨٥٥ — ١٨٧٥ م) ٣٣٠ جزءاً

آثار الاسلام

هی كثیرة ، وأهمها مازرته سنة ١٣٤٦ وهی كالآتی :

(١) ضریح سعد بن أبی وقاص فی خارج ربض مدینـة كنتون بنی هذا الضریح وسط القرن السابع تقریباً

(٢) مسجد مدینة كنتون ، وهو أول مسجد فی الصین أسس وسط القرن السابع تقریباً أیضاً وفیه منار شامخ علیه مسحة من جمال الفن العربی

(٣) المسجد الأعظم فی عاصمة ولایة شانسی بنی بنفقات الخزانة الملكیة سنة ١٤٤٣م

على نحو ماوصفه النصب التذكارى الحجرى الموجود الآن فيه

(٤) مسجد نانكين بنى سنة ١٣٨٨ م بنفقات الخزانة الملكية أيضا

أسباب انتشار الاسلام فى الصين

انتشر الاسلام فى الصين انتشاراً سريعاً مدهشاً والأسباب فى ذلك أربعة وهى :

(١) تجارة المسلمين : هى سبب دخول الاسلام فى الصين الأصلية فى عهد أسرة « تان » (سنة ٦١٨ – ٩٠٥ م) وازدهار الاسلام فى عهد أسرة « سون » (سنة ٩٦٠ – ١٢٧٦ م) وأسرة « مين » (سنة ١٣٦٨ – ١٦٤٣ م)

(٢) الفتوح الاسلامية : هى سبب اسلام سكان ولاية سنكيانج (التركستان الصينية) فى عهد أسرتى « سون » و « مين » فضلا عن أنها كانت سبباً فى اسلام التركستان الروسية فى عهد أسرة « تان »

(٣) تناسل المسلمين : هو سبب ازدهار الاسلام وازدياد المسلمين فى الصين الأصلية بعد أسرة « يون » (سنة ١٢٧٧ – ١٣٦٧ م) وأسرة « مين »

(٤) اختلاط الكافرين بالمسلمين وتأثرهم بآدابهم : هو سبب اسلام أبناء التتار فى التركستان الصينية والروسية

لاعجب فى السببين الأول والثانى وأما السبب الثالث فهو من خواص الاسلام اذيحرم المسلمون النكاح بينهم و بين الكافرين ليحفظوا اعتقاداتهم التوحيدية وعاداتهم الاسلامية فتوارثوا دينهم جيلا بعدجيل ، بخلاف الكافرين اذ يمكن أن تعتنق أفراد أسرة من أسرهم أدياناً مختلفة فاذا مات المعتنق انقطع دينه عن أهله. وجواز تعدد الزوجات عند المسلمين من أهم أسباب زيادة أنسالهم أيضا . وأما السبب الرابع فلايوجد الا فى الاسلام مثلا تغلب فى القرون المتوسطة الميلادية التتار بسيوفهم على المسلمين وأسلم أبناؤهم من بعد بتهذيب وتأثير المسلمين ، وما أعجب قوة تأثير الاسلام

و يوجد فى ذلك سوى الأسباب السابقة السببان الآتيان :

(١) عدم اذاعة الدعوة الى الاسلام . لأجل هذا مانمى الاسلام بحسد الكافرين ، فلم يوجد قط فى تاريخ الاسلام فى الصين ماحصل بين التروية والبوذية زمن الأسر الست (سنة ٤٢٠ – ٥٨٨ م) وأسرتى « تان » و « يون » من النزاع الشديد ، ولم يصب الاسلام

ماأصاب الأديان الأخرى من اضطهاد كما حصل (سنة ٨٤١ - ٨٤٦ م) اذ حتم أتباع كنفوشيوس هدم الأوثان . وليس فى الاسلام أوثان يلزم هدمها . وزد على ذلك أن الكافرين لم يقاوموا المسلمين كما قاوموا أصحاب الأوثان لأن المسلمين ما كانوا يدعون الناس الى الدخول فى دينهم كما كان يفعل أصحاب الأوثان فظهرت عند أتباع الفيلسوف كنفوشيوس فكرة هدم الأوثان خشية أن يكثر معتنقوها

(٢) عدم نقد مبادئ الفيلسوف كنفوشيوس : المسلمون لم ينقدوا مبادئه التى تثبت وجود الملك الحق وتعلم الناس بمكارم الأخلاق ، بل أسس السيد جاسر الدين هيكله لمن لم يتأدبوا بآداب هذا المعلم المعظم واستدل العلامة صالح ليوجلين (رحمه الله) بمبادئه على بعض أسرار الاسلام ، ولذلك تعايش المسلمون مع أتباع كنفوشيوس بالألفة والمودة فلم يسمع أحد ينقد الاسلام كما نقدت البوذية فى عهد أسرة « تان » والمسيحية فى عهد أسرة « مين » والحمد لله الحكيم العليم

* * *

— ٢ —

عدد مسلمي الصين ومساكنهم

المسلمون فى الصين يزداد عددهم عاما بعد عام حتى بلغوا خمسين مليوناً يتفرقون فى الولايات كلها وأكثرهم فى ولاية كنسيو ثم ولاية يونان ثم ولاية هانان ثم ولاية شانتونغ ثم ولاية هابى . وعدد سكان الصين أربعمائة مليون فالمسلمون ثُمْنُهم

لغة مسلمى الصين ومذهبهم

المسلمون فى ولاية سينكيان يتكلمون باللغة التركية لأنها منشأ الأتراك ، والمسلمون فى الصين الأصلية يتكلمون باللغة الصينية . وأما الكتب الدينية فأكثرها العربية وتليها الفارسية ولذلك يعرف رجال الدين هاتين اللغتين ولكنهم فى المطالعة أقوى منهم فى المخاطبة وبعبارة أخرى إنهم يفهمون كثيراً ويعبرون قليلا . والسبب فى ذلك أنهم يتوارثونها من أساتذتهم الصينيين الذين يعلمونهم الترجمة ولا يعلمونهم الانشاء ، وانهم ينقطعون عن المتكلمين بهما فلا يجدون فرص الممارسة . وزد على ذلك انهم يقرأون الكتب الدينية

ولا يقرأون الكتب الأدبية ، فضعفت الثقافة العربية يوما فيوما بطبيعة الحال . وأما مذهبهم فكلهم أحناف

مهنة المسلمين

المسلمون فى المدن يعالجون التجارة وأهم تجارتهم فى شنغهاى و بكين وتينجين جواهر وحجارة كريمة وتحف قديمة . وفى الولايات المجاورة لسور الصين الكبير فراء وأصواف وأوبار وخيل ومواش . وفى ولاية يونان جلود وأرز ولحوم شجرية . والمسلمون فى القرى والارياف يشتغلون بالزراعة وتجارهم وزراعهم مشهورون بالاجتهاد والاقتصاد

مكانة مسلمى الصين

الأدبية والاجتماعية والسياسية

المسلمون هناك أكثرهم لا يملكون من الرزق إلا كفاف حاجتهم . والسبب فى هذا ان فى مشاركتهم مع الكافرين عسراً فى الأكل والشرب ، مع أن رؤساء دينهم ينصحونهم دائماً بالزهد والقناعة ، فيكفّون عن التكاثر والتسابق . و يعيبون درس اللغة الصينية لاعتقادهم أن اللغة العربية لغة الكتاب والسنة فيجب على كل مسلم أن يدرسها و يقدسها وأما اللغة الصينية فهى لغة الكفرة لا تسلم من العناصر المخالفة لديننا حتى قال بعضهم من قرأ الكتب الصينية فقد كفر والنتيجة من ذلك ان صار رجال الدين فى الصين أميين فى اللغة الرسمية إلا نادراً ومن يعرف القراءة والكتابة من المسلمين واحد فى المائة أو أقل ومن الكافرين تسعة فى المائة أو أكثر فكيف يمكن المسلمين أن ينافسوا غيرهم فى معركة الحياة وان قررت فى الدستور الصينى حرية الدين ومساواة الشعوب فى الحقوق

الجمعيات الاسلامية الصينية

أنشئت (جمعية التقدم الاسلامية الصينية العمومية) سنة ١٣٢٩ ﻫ فى بكين عاصمة الصين والجمعيات الفرعية لها فى عواصم بعض الولايات ، واضمحلت هذه الجمعيات الفرعية سنة ١٣٣٢ ﻫ لسبب من الأسباب السياسية فما بقى منها الا ما فى ولاية يونان ، فمثل جمعية التقدم الاسلامية الصينية كمثل شجرة ذابلة فروعها الا فرع واحد لولاه لحكم على الشجرة

باليبس وهذا الفرع الناضر هو (جمعية التقدم الاسلامية الصينية) فى عاصمة ولاية يونان وقد أنشأت فيما يسكنه المسلمون من المدن والقرى فى ولاية يونان جمعيات فرعية كثيرة ، وأنشأت أيضاً واحدة فى حدود ولاية كويجو و واحدة فى حدود ولاية سيچيوان وواحدة فى رنجون (ميناء بروم) وفيها ادارات للمعارف والهداية والصلح والافتاء ، ولها نفوذٌ ماض على جمعياتها الفرعية بأسرها وثقة كاملة عند الحكومة المحلية حتى انها تستشيرها فيما يتعلق بالمسلمين ووكلت اليها تسوية الخلاف بين المسلمين وهى الصلة الوحيدة بين الحكومة والمسلمين فهى ترفع شكاية المسلمين وعرائضهم الى الحاكم وتبلغ قوانين الحكومة وأوامرها إلى المسلمين وتصدر منها (مجلة المنبه الاسلامى) باللغة الصينية بنفقات جمعياتها الفرعية الشهرية وهى أول جمعية اسلامية صينية استأذنت صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر. شيخ الجامع الأزهر الشريف فى ارسال أعضاء البعثة الصينية الأولى الى الجامعة الأزهرية ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم فما يرجع الفضل فى مجئ البعثات الصينية الأزهرية متعاقبات الا الى رحابة صدر الأزهر الشريف وجهد هذه الجمعية العظيمة ولما رجع فضيلة الأستاذ الجليل الحاج هلال الدين هاديجين من مصر الى الصين أنشأ مع زملائه فى شنغهاى سنة ١٣٤١ هـ (الجمعية العلمية الاسلامية الصينية) لاذاعة دعوة الاسلام وإحياء العلوم الدينية وتنشيط التعليم الاسلامى وتوطيد كتلة المسلمين بوساطة مجلتها وأنشأ المرحوم الجنرال مافوسيان و بعض كبار المسلمين فى نانكين عاصمة الصين المحروسة سنة ١٣٤٥ هـ (نقابة المسلمين) باذن الحكومة المركزية

المدارس الاسلامية الصينية

لمسجد كل ريف يسكنه المسلمون مدرسة دينية أولية يدرس فيها الأولاد بالحروف الهجائية العربية ، ثم بعض السور القصيرة ثم كتاب يشتمل على الدعوات الكثيرة الاستعمال فى العبادات ، ثم بضعة أجزاء من القرآن الكريم ، ثم كتاب فى أسئلة الايمان وأجوبتها يسمى (أربعة فصول) وكتابان فى الفقه الحنفى يسمى أحدهما (المهمات) والآخر (عمدة الاسلام) . وهذه الكتب الثلاثة كلها باللغة الفارسية ، وكذلك دروس مدرسة البنات التى تدرسها المعلمات ، الا أنه يدرس فيها بعض الحكايات والقصص الاسلامية مثل قصة موسى عليه السلام وقصة عيسى عليه السلام وقصة زواج نبينا محمد عليه السلام

بخديجة رضى الله عنها ، وقصة زواج ثابت والد الامام الأعظم أبى حنيفة وما شاكل ذلك

ولمسجد كل قرية أو مدينة يسكنها المسلمون مدرستان ثانوية وعالية يؤمهما الطلبة من الأرياف والقرى ويدرس فى الثانوية الصرف والنحو وكتب الدراسة فى الصرف (قسم الصرف) للعلامة يوسف مافوسوا ، و (مفتاح المراح) للحاج نور الحق ماجيبان ، و (مراح الأرواح) لأحمد بن على . وفى النحو (قسم النحو) للعلامة يوسف مافوسوا ، و (حواصل النحو) للحاج نور الحق ماجيبان و (الكافية) لابن الحاجب . ويدرس فى العالية النحو والمنطق والبلاغة والتفسير والفقه والكلام ، وكتب الدراسة (شرح الكافية) و (قسم المنطق) و (قسم البيان) و (شرح التلخيص) و (تفسير الجلالين) و (شرح الوقاية) و (شرح العقائد النسفية) والمدرس هو إمام المسجد غالباً ويسكن هو والطلبة فى أروقة المسجد ينفق عليهم الأغنياء من المسلمين الغيارى . واذا أتم الطالب دروس الأقسام بعد بضعة عشر سنة خلع عليه أستاذه خلعة ، وهى جبة خضراء من الجوخ ، وأهدى اليه الموسرون نفقات السفر فرجع الى وطنه ظافراً مفتخراً ، فأقام له أهل بلده حفلة التكريم بعد أن استقبلوه خارج البلد ووكلوا اليه منصب الامام أو الخطيب أو المؤذن أو المدرس . وأما الذين لم يحظوا بمنصب من المناصب الدينية فمنهم من يشتغل بالزراعة ومنهم من يعيش بالصدقات من تلاوة القرآن الكريم فى المآتم . هذا هو نظام المدارس الاسلامية القديمة فى وطنى ولاية يونان ، ويقرب من ذلك ما فى سائر الولايات ، بيد أنه يدرس فى مدارس ولاية كنسيو (تفسير البيضاوى) و (تفسير حسين) باللغة الفارسية و (الدر المختار) وكتاب فى أصول الدين يسمى (المكتوبات)

ولما شعر حضرات رؤساء جمعية التقدم الاسلامية الصينية فى ولاية يونان بنقصان النظام القديم أنشأوا فى عاصمتها سنة ١٣٢٦ ه القسم الأولى والقسم الابتدائى للمدرسة الاسلامية وقسمها الثانوى سنة ١٣٣٩ ه وتدرس فى هذه المدرسة اللغة الصينية واللغة العربية والعلوم الدينية والعصرية اللازمة وقد قرروا منهاج الدراسة ونظام الامتحان ومدة الدراسة ، وسجلت وزارة المعارف العمومية الصينية اسمها فى سجل أسماء المدارس القانونية سنة ١٣٢٩ ه . وأنشأ المرحوم الجنرال مافوسيان على هذا النظام (مدرسة المعلمين الاسلامية الثانوية) فى عاصمة ولاية شانتونغ سنة ١٣٤٣ ثم نقلت فى السنة التالية لسبب من الاسباب

الى بكين عاصمة الصين المنسوخة سنة ١٣٥٠ ﻫ وكذلك أنشأت الجمعية الكلية الاسلامية الصينية فى شنغهاى سنة ١٣٤٥ ﻫ (الأكاديمية الاسلامية) التى تخرجتُ فيها سنة ١٣٥٠ ﻫ بعد ما أخذت شهادة المدرسة الحكومية الثانوية فى عاصمة يونان سنة ١٣٤٣ ﻫ . وأنشأت فى ولاية سيجوان سنة ١٣٤٥ (مدرسة المعلمين الاسلامية الثانوية) وهذه المدارس الأربع هى المدارس الجديدة لتدريس اللغة العربية والدين الاسلامى ، وتقوم كلها على الصدقات والهبات الشخصية ، وأما المدارس القديمة فما زالت باقية فى القرى والمدن . وأما المدارس الالزامية فكلها على قانون وزارة المعارف العمومية وقد يعلّم فيها شئ قليل من المعلومات الاسلامية وتكاد تعم القرى والمدن التى يسكنها المسلمون

المجلات الاسلامية الصينية

لما سمع اخواننا الصينيون أنباء النهضة الاصلاحية فى المهاد، الاسلامية قاموا يتسابقون ويتفاخرون باصدار المجلات لاشاعة هذه النهضة ، فتظاهرت متتابعة كما تورق الأشجار بعد مطر الربيع ، ولكن قلة المال وأدت بعضها قبل البلوغ وأشهر باقيتها (نضارة الهلال) فى بكين و (المنبه الاسلامى) فى يونان و (نور الاسلام) فى تينجين و (مجلة العلوم الاسلامية) فى كانتون وهذه المجلات ما زالت ضعيفة بسيطة بالنسبة الى سائر المجلات الصينية لقلة التغذية المالية والعلمية ولو صافحتها اليد البيضاء لكانت الصلة الوثيقة لاتحاد المسلمين فى الصين مع إخوانهم فى الدنيا مشارقها ومغاربها

النهضة الجديدة والخلاف بين المسلمين

كان العلماء فى الصين يبالغون فى ثواب النوافل ، فاشتغل المسلمون بها عن الواجبات وأكثرهم لا يصلون ولا يصومون ولا يزكون ولا يحجون ، بل يهتمون باقامة المآتم ويدعون اليها رؤساء الدين والمتعلمين ليقرأ كل واحد منهم سوراً من سور جزء عمّ أو جزءاً من أجزاء القرآن الكريم ، وليصلوا على النبى عليه السلام بالترجيع والتغريد ، ثم تقدم اليهم الوليمة الفاخرة والصدقات الجزيلة ، واذا جاء مولد النبى عليه السلام أو مولد السيدة فاطمة رضى الله عنها أقاموا حفلة الذكرى بصدقات المسلمين وعملوا الولائم فى أروقة المسجد يحضرها المسلمون والمسلمات جميعاً يسمعون القرآن والصلوات والوعظ واذا حان

وقت الصلاة صلى بعضهم و بعضهم يأكلون و يشربون . فلما وجد بعض علماء الدين الخطر فى هذه العادات المستبشعة نصحوا المسلمين بأداء الواجبات بدلا عن النوافل ، وأخذوا يحرمون الطعام والصدقة لأجل تلاوة القرآن ، فعارضهم المتعصبون والمنتفعون بهذه الحال ، وانشقت عصاهم و وقعت الفتنة بينهم غير مرة ، وهذه الخصومة تميل الآن الى الضعف والنقصان بحول الله ، وأسأله تبارك وتعالى أن يوفقنا للاتحاد و يعصمنا من كل خصام وشقاق انه جواد كريم

كتب أحد سفلة الكتّاب الكفار فى (مجلة الآداب الصينية) حكاية فكاهية بهيمية خلاصتها أن المسلمين لا يأكلون لحم الخنزير لأنهم أبناء الخنزير وطبعت المطبعة الحديثة بشنغهاى هذه الحكاية كتاباً مستقلا ، فقام المسلمون فى شنغهاى يتشاورون فى الجمعية العلمية الاسلامية الصينية فى هذا الأمر الخطير فاتفقوا على أن يقدّموا احتجاجاً على ادارة المجلة ، فوعد رئيس تحريرها أن ينشر فى الجرائد اليومية المشهورة اعتذاره الى المسلمين و يصحح الغلط فى الحكاية فى العدد الأخير من نفس المجلة ويضمن أن لا يقع فيها مثل هذه الحادثة مرة أخرى ويحرّق بحضرة المسلمين الباقى من العدد الذى فيه الحكاية . ولكن المسلمين فى بكين لم يقتنعوا بهذه التسوية ، فاجتمعوا وتشاوروا فى لجنة الدفاع عن الاسلام وفى أثناء الاجتماع قطع السيد الغيور «ليهيتين» سبابته فسال الدم منها فكتب بدمه هذه الكلمة : « دافعوا عن دينكم ! » فبلغت حماسة المسلمين الحاضرين ذروتها ، وغطت الغيوم سماء المجلس ، فتحالف الحاضرون أن يدافعوا عن دينهم الى النهاية مهما كلفهم الأمر ، وأجمعوا على أن يبرقوا الى المسلمين فى البلاد كلها و يوفدوا أربعة مندوبين الى نانكين ليشكوا الى الحكومة الصينية المركزية ما فى هذه الحكاية الخبيثة ، وقد شاركهم فى ذلك المندوبون من قبل المسلمين فى شنغهاى ، والرسائل البرقية طارت الى الحكومة الصينية المركزية بشكاية المسلمين من أقطار الصين فأمرت [1] الحكومة الجمهورية الصينية بمعاقبة الكاتب الملعون وتعطيل مجلة (الآداب الصينية) و إغلاق (المطبعة الحديثة) وسنّت قانوناً خاصاً لحماية الأديان توطيداً لما فى الدستور من حرية الدين ومساواة الشعوب فى الحقوق ، وأعلنت أن المسلمين من العناصر المهمة للامة الصينية ولهم تاريخ مجيد فى خدمة

(١) فى ٨ نوفمبر سنة ١٩٣٢ م

الوطن و يحترمهم أبناء الأمة كل الاحترام ، فانتهى الأمر بذلك واستقبل المسلمون فى محطة سكة الحديد بشنغهاى المندوبين وأقاموا لهم فى الجمعية العلمية الاسلامية الصينية حفلة التكريم شكراً لهم على جهدهم و إخلاصهم للدين الحنيف والكرامة الاسلامية جزاهم الله عنا وعن دينه خير الجزاء

هذا ولأجل أن يقف قراء الفتح على مبلغ ما كان لهذا الحادث من الأثر فى الصين ننقل لهم من تعليقات جريدة « شينبو » أكبر جرائد الصين اليومية العبارة الآتية :

قد ورد فى أمر مجلس التنفيذ للحكومة الجهورية الصينية «المسلمون عناصر خطيرة للامةالصينية وقد اشتهروا بخدمة الوطن واحترمهم أبناء الأمة جيعاً»،وانى لمعجب باتحاد كلمة المسلمين وحماستهم الفائقة فى الدفاع عن دينهم ، وانى لمعتقد أن أبناء وطننا لو كان لكل واحد منهم فى الدفاع عن الوطن مثل هذه الروح لكانت مكانة وطننا السياسية أحسن مما هى عليه الآن ، ولما سقطت منشوريا فى أيدى اليابانيين ، وان اخواننا المسلمين ما صاروا عناصر خطيرة للامة الصينية الا بتأديب القرآن،وقد قال الله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة « وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ » ، لم يكن اعتداء اليابانيين فى منشوريا أشد من القتل ! لو قام ولاة الأمور منا يدافعون أعداءهم كما أوصانا القرآن لما شهق اليوم ثلاثون مليوناً من اخواننا تحت حوافر خيول اليابانيين . فأرجو من اخواننا المسلمين أن يعملوا بأمر الله تعالى فى الدفاع عن الوطن كما يدافعون عن الدين ، لترسم مآثرهم ومفاخرهم فى تاريخ الأمة ولتحترمهم أمم العالم جيعاً . انتهى كلام الجريدة الصينية

يأيها القراء الكرام جاهدوا فى سبيل الله على حسب الامكان بعد ما تعرفون قدر الجهاد مما تقدم !

محمد مكين الصينى

المسلمون فى الصين

وأحوالهم الاجتماعيـــة والسياسية

حديث طريف للوفد الصينى المسلم مع مندوب « الجامعة العربية » بالقدس

«و بينما كنا نحرر هـذا الـكتاب قدم وفد من علماء مسلمى الصين الى مصر ومعهم عدة من الطلبة الجدد يريدون ادخالهم فى الجامع الأزهر وأقبل على هـذا الوفد مندوبو الجرائد يستعلمون منه عن أحوال مسلمى الصين . وقد جاء رجال الوفد المذكور الى القدس الشريف وأخذت منهم جريدة الجامعـة العربية المعلومات الآتية نأثرها هنا لأنها أحدث حديث فى الشرق الأقرب عن مسلمى الشرق الأقصى» . أما المذابح التى أجراها الجـنرال الصينى المسيحى فونغسيانغ واستأصل بها ألوفاً وألوفاً من المسلمين فقد كنا أول من نبّه الناس لهـا يوم وقوعها وذلك بمقالات فى جريدة الشورى بمصر واقترحنا حينئذ على المسلمين أن يرفعوا احتجاجاتهم الى دولة الصين والى الدول وعلى جمعية الرابطة الشرقية أن تفحص عن هذه الفادحة وتتوسط لدى الصين والدول وكل هذا لم يحرك من أحد سا كناً و ياللاسف واننا لا نقدر أن ننكر هذه الحقيقة المؤلمة»

أما حديث الوفد الصينى للجامعة العربية فهو هذا :

اغتنمت فرصة وصول الوفـد الصينى المسلم الى القـدس المؤلف من السيدين الحاج عبد الله الصديق جاو بين سكرتير مدرسة المعلمين الاسلامية فى بكين ومدير مطبعتها ومكتبتها ومحرر مجلة نضارة الهلال فى بكين ، والحاج عبـد الرحيم ما سون تين إمام جامع تونسيبا لو فى بكين و وكيل مدرسة المعلمين الاسلامية فيها . فتقدمت اليهما باسم جريدة « الجامعـة العربية » حيث يقيمان بالزاوية النقشبندية ملتمسا منهما ان يتفضلا على قرائها بحديث عن رحلتهما وعن حالة اخواننا مسلمى الصين ، فاجابا ملتمسى بكل بشاشة وسرور . وقد ازداد ابتهاجهما عنـدما أطلعتهما على العدد الاخير من الجامعـة العربية المشتمل على مقال عن مسلمى الصين و بعض معلومات عنهم . والى القراء موجز الحديث الذى اشترك فيه السيدان المذكوران :

غادر السيدان الحاج عبد الله الصديق جاو بين والحاج عبد الرحيم ماسون تين مدينة

بكين عاصمة الصين السالفة فى أول شهر شعبان الماضى على رأس بعثة صينية مؤلفة من خمسة طلاب من مدرسة المعلمين الاسلامية فى بكين فوصلوا الى القاهرة فى الثالث من شهر رمضان المبارك ليدخلوا البعثة المذكورة فى الازهر الشريف لتعلم العلوم الدينية الاسلامية والقرآن الكريم واللغة العربية .

أما أعضاء هذه البعثة العلمية فهم : سعيد ونجش مين ، على خان خون كوى ، شعيب جندان كوى، اسماعيل ماجن بوم ، سليمان جنبنتو . وقد دخلوا فى الازهر الشريف ولقوا كل مساعدة من الحكومة المصرية والشعب المصرى

والسيدان المذكوران ينويان زيارة بلاد الحجاز لقضاء فريضة الحج ، وذلك من أسباب رحلتهم الرئيسية كما ان من أسبابها أيضا زيارة بيت المقدس والمدينة المنورة والتعرف على اخوانهم المسلمين فى هذه الاقطار والوقوف على أحوالهم

ويبلغ عدد المسلمين فى الصين نحو خمسين مليونا وهم آخذون فى الازدياد بالتدريج وأكثرهم يقطنون فى الولايات الغربية والشمالية وفى ولاية « يوننان » فى الجنوب . أما حالتهم لحسنة وتقدمهم مطرد . وحالتهم المادية متوسطة وحالتهم العلمية بالنسبة الى أهل الصين عامة فى المقام الاول . واكثر أهل الصين بوذيون وكونفوشيوسيون وقليل منهم اعتنقوا الديانة المسيحية ولكن عدد النصارى آخذ فى الازدياد بسبب كثرة الارساليات الدينية الاجنبية والوسائل المادية التى تلجأ اليها هذه الارساليات . والمسلمون والنصارى فى الصين فى درجة علمية واحدة وهم أرقى على وجه العموم من البوذيين . أما الكونفوشيوسيون فهم متعلمون اكثر من الجميع .

ومن الغريب فى المذاهب الصينية ان البوذى أو الكونفوشيوسى الذى يعتنق النصرانية ، يقوم بالطقوس الدينيه المسيحية فى الكنائس ثم يقوم أيضا بالطقوس البوذية والكونفوشيوسية فى المعابد الوثنية ، فهم يخلطون بينهما خلطا عجيبا . والكتب الدينية النصرانية كالتوراة والانجيل مترجمة الى اللغة الصينية . أما المسلمون فهم مستقلون فى شؤونهم الدينية معتصمون باسلامهم و بصلاتهم و بصيامهم و بزواجهم وعباداتهم ومعاملاتهم وتقاليدهم الاسلامية . ولا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر ، والنكاح فيهم محصور بالمسلمين والمسلمات ونادر من المسلمين الذين يتزوجون من غير المسلمات ، واذا حدث

حادث مثل هذا فلكى يحمل المسلم زوجته غير المسلمة على اعتناق الاسلام وهى بعد زواجها منه لا بد أن تصير مسلمة كما أن المسلمين لا يستعملون الآنية التى يستعملها غير المسلمين

والمسلمون فى الصين غير مكروهين من قبل بقية الطوائف الصينية وهم وطنيون بكل معنى الكلمة و يعيشون مع مواطنيهم بكل وفاق و يتعاملون معهم أحسن التعامل

وعلماء المسلمين فى الصين يقرأون القرآن وكتب الفقه والحديث والتفسير والتوحيد و بقية العلوم الدينية والاسلامية باللغة العربية و يفهمونها ولكنهم لا يحسنون التكلم بها ، وكذلك يدرسون علوم الصرف والنحو والبلاغة بالعربية ويدرسونها فى المدارس و يستعملون الحروف العربية ، كما أنهم يقرأون اللغة الفارسية .

ولهم مساجد كثيرة . و فى كل مسجد مدرسة ابتدائية . أما المدارس الثانوية والعالية فقليلة عندهم . ومدرسة المعلمين الاسلامية فى بكين تتألف من ٦ صفوف ابتدائية و ٦ ثانوية. على أن هذه المدارس خاصة بالمسلمين يجمعون أموالها من أنفسهم . وهم فى الوقت نفسه يتعلمون فى مدارس الحكومة العمومية .

وهم يقيمون الصلاة بواسطة الاذان ولكن مآذنهم غير مرتفعة والوضوء عندهم يكون بالماء الساخن والمساجد تحتوى على ماء ساخن للوضوء . وهم يعنون بالنظافة . وأكثرهم يشتغلون بالتجارة والزراعة

وقبل نحو سنتين عند ما اشتد ساعد الجنرال فونغسيانغ الصينى الملقب بالمسيحى الذى قام ضد حكومة الصين وشق عصا الطاعة وقاد الجيوش للزحف عليها ، ظل مسلمو الصين على ولائهم لحكومتهم وصمدوا فى وجه الجنرال فونغسيانغ السفاح الذى حاول اجتياح ولاية كانسو الاسلامية وذبح كثيراً من أهالى المسلمين وارتكب فيهم شتى الفظائع وكان هذا هو السبب الظاهرى لتلك المذابح . أما السبب الحقيقى فهو تعصب الجنرال المذكور ومقته للمسلمين ليس الا .

ومسلمو الصين أهل نجدة وشجاعة ، وهم رجال حرب وقتال وكثير منهم جنود فى الجيش وفيهم قواد وجنرالات كبار مثل الجنرال عماد الدين ماخون كوى حاكم ولاية كانصو الذى تحت امرته جيش مؤلف من خمسين ألف مسلم صينى . ومثل الجنرال ماشن جن حاكم ولاية شنغاى — كوكونور — فان جيشه مؤلف من ثلاثين الف جندى مسلم ، ومثل

الجنرال ماخو بين حاكم ولاية تنغشاى فان جيشه مؤلف من عشره آلاف جندى مسلم ، وغيرهم . ومسلمو الصين يشاركون مواطنيهم غير المسلمين فى مقتهم لليابان التى اتخذت ظلم الصين والاعتداء عليها ديدنا لهم . وهم لا يوافقون على استقلال منشوريا الذى تم بمساعدة اليابان وفصلها عن جسم الصين

والمرأة المسلمة فى الصين لا تحتجب وهى تتمتع بالحقوق التى يتمتع بها الرجل وحالتها آخذة بالتقدم

ورئيس الجمهورية الحاضر غير مسلم ولكن ليس فى دستور الحكومة الحاضرة ما يمنع من أن يكون الرئيس مسلما . وفى الوزارة وزيران مسلمان أحدهما محمد ماتوشيان وزير منغوليا والتيبت وقد توفى الى رحمة الله وهو والد الجنرال عماد الدين ماخون كوى حاكم ولاية كانصو . والثانى وزير المعارف واسمه ما جنغ وو .

وليست للمسلمين فى الصين رئاسة دينية وانما تقوم الجمعيات المحلية بالاشراف على التقاليد الاسلامية .

وقد ختم السيدان الفاضلان حديثهما باظهار شديد رغبتهما باتخاذ الاسباب والوسائل الكاملة لحفظ الصلات وتوثيق الروابط بين مسلمى الصين الذين هم اكبر كتلة اسلامية بعد مسلمى الهند ، و بين بقية اخوانهم المسلمين فى العالم الاسلامى .

ثم أثنيا الثناء المستطاب على سماحة المفتى الاكبر السيد محمد أمين أفندى الحسينى وقالا إن أعماله الباهرة وخدمته للمسلمين قد تطايرت أنباؤها الى الصين وانهم هناك معجبون بسماحته كل الاعجاب ، ثم تمنيا أن تقترن مشروعاته الجليلة بالخير والفلاح

مسلمو الروسية

فى عهد البلاشفة

الأمير شكيب

عند ما ذهبت الى موسكو فى حزيران أو يونيو عام ١٩٢١ ، لتفحص الأحوال ، عن قرب ومعرفة ما اذا كان ممكناً فعلا انتفاع الشرق من الروسية الحاضرة ، وما هى درجة هـذا الانتفاع ، سألت عن أحوال المسلمين فى الروسـية ، وتلاقيت مع بعض أدباء الطاغستانيين والقازانيين ، فاستقصيت منهم عما أريده وقيل لى : ان بموسكو بضعة عشر ألف تترى" لهم مسجدان جامعان ، وكذلك فى بتروغراد كان نحو عشرة آلاف منهم ، ولهم جامع بديع البناء . وكنت فى احدى الجمع أديت الصلاة فى أحد جامعى موسكو ، حيث يؤم" فى الجماعة الشيخ عبد الودود فتاح الدين قاضي المسلمين فى موسكو و بتروغراد ، و يتبعه فى القضاء المسلمون الذين فى ولايات « باراسلوله » و « تو ير » و « يقالومنـه » و بلدتى « ايفانو » و « جنيسنسكى » والأخيرة بلدة معامل ، فيها عملة مسلمون كثير ون . و يقولون له هناك « حضرة عبـد الودود » و يسمونه المحتسب . ومعنى المحتسب عندهم ، هو الذى ينظر فى الأمور الدينية ، و يرجع اليه أئمة المساجد . فالاسـتاذ عبد الودود فتاح الدين هو المحتسب فى جميع البلدان المار ذكرها . ومرجعه المجلس الاسلامى الأعلى الذى بمدينة أوفا . وقد رأيت منه عالماً فاضلا ، مطلعاً على الأمور ، بصيراً بأمور قومه ، وقبل أن تحادثت معه سمعت خطبته فى صلاة الجامع ، فالعادة عندهم هى أن يبدأ الخطيب بخطبة بالتركية القازانية

. . . فيها و يتـكلم فى أهم الأمور التى تناسب الحال ، فاذا انتهى من هذه

خطب الخطبة الرسمية بالعربية . فحضرة عبـد الودود وقف بحذاء المنبر

، و بقى يتـكلم أ كثر من نصف ساعة ، ومع كون تركية التتر تختلف

لفاظ وتصريف الأفعال عن تركيـة العثمانيين فقد كنت أفهم كل ما

ى جداً وعظه ونسق خطابه ، وعلمت أنهم مدركـون الاحتياجات

العصرية ، متنبهون لما يجب أن يتنبهوا اليه . ولما انتهى من خطبته بالتركى صعد المنبر أخوه ، وهو مثله من العلماء فخطب بالعربية بالتسجيع على نمط خطباء بلادنا ، ولكن باعراب صحيح ولفظ فصيح لا تفرقه عن لفظ خطباء العرب فى شئ ، مما حملنى على الظن أن هذا الخطيب كان مجاوراً فى مكة أو فى المدينة مدة طويلة ، حتى أمكنه أن يخرج الحروف العربية مخارجها كأحسن المجودين من العرب ، اذ لم أعرف فى أمة الترك من يقدر على ذلك الا من نشأ منذ صغره فى بلاد العرب ، فانه قد يتقن القارئ التركى علم التجويد ، ولا يزال معروفاً من لفظه أنه تركى ، ولا يبرح عاجزاً عن اخراج الحاء والعين والواو ، مثلا ، مخارجها الصحيحة الا اذا ربى بين العرب. فأما خطيب جامع موسكو ، فسمعت منه لفظ خطيب عربى ، فدهشت عندما عرفت أنه لا يعرف بلاد العرب ، وانه انما تعلم التجويد فى قازان ، وقد ازددت دهشاً لما سمعت بعض القراء يقرأون كقراء العرب نغمة وترتيلا ، بدون أن يكون أحد منهم جاور فى الحرمين ، ولا عرف البلاد العربية . مع أن اخواننا الترك العثمانيين يتعلمون التجويد ويحفظون القرآن ، ويتقنون كل ذلك ، وتبقى نغمتهم على ما هى عليه .

سألت حضرة عبد الودود بعد الصلاة وقد دعانى الى الشاى فى منزله المناوح للمسجد ، عما هم عليه فى عهد البولشفيك ، وما هو الفرق بين الادارة القيصرية السابقة والادارة الشيوعية الحاضرة ، فأخذ يقص لى المحاسن والمساوئ الا أنه قال : « أما من جهة الحرية الدينية فقد صرنا فى بحبوحة عظيمة ، اذ أن البولشفيين لا يسألون الانسان عن عقيدته ، ولا يعرفون الا كلمة « روسى » أياً كان دينه ، وكان الدخول فى الاسلام ممنوعاً لعهد الحكومة السابقة أما الآن ، فالحكومة لا تعترض أحداً ، وان كثيرين فى هاتين السنتين أسلموا على يدى . بل كان أهالى مائة قرية من جوار قازان قد حملتهم الحكومة القيصرية على النصرانية قسراً منذ مائتى سنة وحولت مساجدهم كنائس وأرسلت اليهم القسوس ، وكانوا لا يزالون فى الباطن مسلمين ، لكن لم يقدروا أن يظهروا اسلامهم الا بعد أن سقطت القيصرية وجاء البولشفيك ، فعادوا الى الاسلام وأعادوا مساجدهم الى أصلها » .

ثم سألته عن تشكيلاتهم الشرعية فقال : ان قازان وسيبيريا و بلاد الباشقرد والغرغيز والمدن التى فيها مسلمون من جوار موسكو ، هذه لها مجلس اسلامى أعلى مركزه بمدينة أوفا . وهذا المجلس مؤلف من أربعة قضاة ، يرأسهم المفتى لأعظم . والمفتى الأعظم اليوم هو

العلامة جان بارودى بن محمد بارودى ، وهذا الرجل هو من فحول العلماء وله تصانيف ، وكان أصلح أصول التدريس الاسلامى فى الروسـية ، وأيقظ المسلمين ، فلهذا نفاه القيصر الى سيبيريا ، ولم يعد من منفاه الا بعـد سقوط القيصرية ، فانتخب مفتياً أعظم فى أيام البولشفيك أما القضاة الأربعة اليوم فهم ، العلامة رضاء الدين بن فخر الدين من المشهورين فى البلاغة والتاريخ ، وكشاف الدين ترجانى امام قازان سابقاً ، وصابر جان الحسنى امام أوفا والسيدة مخلصة بوبيا ، وهى سـيدة عالمة فاضلة قد اقترحت الحكومة البولشفية ادخالها فى المجلس الأعلى بقولها : ان النساء هن نصف البشر ، وانه من العدل وجود امرأة فيه للمحافظة على حقوق المسلمات (١) . فهذا هو المجلس الاسلامى الأعلى ، وفيـه تنحل جميع المسائل الشرعية . ويتبع هذا المجلس تسعون ناحية ، كل ناحية منها فيها محتسب مثل الاسـتاذ عبد الودود ، فالمحتسبون مرجعهم المجلس الأعلى ، والأئمة فى المساجد مراجعهم المحتسبون .

وأما تركستان فلها تشكيلات دينية ، ومفت أعظم مركزه طاشقند . وكذلك يوجد مفت أعظم لمسلمى القوقاس ، ومفت لمسلمى القريم .

سألت حضرة عبد الودود عما يقال من عدد مسلمى الروسـية كلها فقال لى : « فى ولايات قازان ، واورنبورغ ، وأوفا وتوابعها ، مع الباشقرد ٥ ملايين . والغيرغيز ٥ ملايين . وتتر سيبيريا نصف مليون . وولايات تركستان ، طاشقند ، وسمرقند ، وخوقند الخ ١٢ مليوناً . وبخارى مليونان وخيوه مليون واحد . فهذه ٢٥ مليوناً ونصف مليون . » فقلت له ، وفى القوقاس ثلاثة ملايين الى أربعـة طاغستانيون ، وجركس . وثلاثة ملايين فى اذربيجان وكرجستان . ونصف مليون أو أكثر فى القريم . فهـذه نحو ٣٣ مليوناً . فوافقنى على هـذا القول ، وسألت غيره حتى ممن كانوا من أعضاء مجلس الدوما الروسى ، فقالوا ان عدد مسلمى الروسية نحو ٣٥ مليون نسمة .

وفى بولونيه نحو ١٥ ألف نسمة مسلمون ، يقطنون عدة قرى . وفى مملـكة ليتوانيه من ممالك البلطيك المستقلة بعـد الحرب نحو ١٠ آلاف نسمة ، لهم بعض قرى ، وعندهم مساجد ، ولـكنهم لا يعرفون لا العربية ، ولا التركية ، وانما يتكلمون بالليتوانية والروسية وكان يحسن أن يؤخذ منهم بعض طلبة الى الاسـتانة وآخرون الى مصر لأجل تعليمهم العربى والتركى . وكان منهم طالب أديب فى برلين ، جعلناه عضواً فى النادى الشرقى .

(١) روى الطبرى أن كثيراً من الفقهاء أجازوا قضاء المرأة

السيد جمال الدين الافغانى

حكيم الشرق

الامير شكيب

فيلسوف الاسلام ، وعلم الاعلام ، وكوكب الاصلاح ، الذى أطلعه الله فى افق المشرق بعد أن اشتد به الظلام ، حجة الشرق الناهضة ، وآية الحق الباهرة ، الذى قال عنه ارنست رنان ، الفيلسوف الفرنسى المشهور بعد أن عرفه : « كنت أتمثل أمامى عند ما كنت اخاطبه ابن سينا ، أو ابن رشد ، أو واحداً من أساطين الحكمة الشرقيين » . قد بلغ من شهرته ، واللهجة بذكره ، والضراوة بعبقريته ولاسيما بمصر والشام ، وسائر البلاد العربية ، ان ترجمة حاله تكاد تكون احدوثة الجميع ؛ فلا حاجة الى الاطالة بجميع تفاصيلها ، ولا الى الاحاطة بغررها وحجولها ، قصارى مافى الأمر ان هناك حوادث لم تكتب الى اليوم ، وان الروايات تضاربت فى أمرين أحدهما ، هل هو أفغانى مولود فى افغانستان ، أم فارسى مولود فى همذان كما زعم بعضهم ، والثانى ، هل هو فيلسوف الهى أم مسلم ، أم فيلسوف مادى معطل . وعلى الأمر الأول نقول : ان كل من عرفوا السيد جمال الدين علموا منه انه من افغانستان ، وانه من سادات كنر الحسينية المشهورين فى تلك الديار ، ووالده السيد صفتر وكان مولده فى اسد آباد بقرب كنر سنة ١٢٥٤ هجرية وفق ١٨٣٨ ميلادية وكذلك عرّف به كبير تلاميذه ، الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، مفتى الديار المصرية ، فى صدر رسالة الدهريين تأليف السيد جمال الدين . ولقد لقيت فى المدينة المنورة قبل الحرب العامة بأشهر السيد حسيناً أحد ولاة افغانستان ، ومن سادات كنر المشار اليهم ، ومن أفاضلهم ، وعلمت منه ان السيد جمال الدين رحمه الله هو منهم ، كما انى سمعت ذلك من جميع رجال الدولة الافغانية وسفرائها ، الذين جمعتنا بهم التقادير فى اوربا بعد تأسيس سفاراتهم بها ، فلا أعلم كيف تتفق كل هذه الروايات من أهل تلك الديار ، على كون المترجم

أفغانى الدار علويا حسينيا ، من أسرة نسبتهم كالشمس ، ومقامهم فى بلاد الافغان أشهر من أن ينوه به ، ويكون فى الحقيقة من همذان ومولوداً بها ؟ ونقول على الثانى : ان الاستاذ الشيخ محمد عبده تعرض الى ادحاض هـذه التهمة أكثر من مرة وعرب من الفارسية بمساعدة عارف افندى أبى تراب الافغانى رسالة « النيتشريين » أى الطبيعيين التى يرد فيها السيد جمال الدين على الملحدة والمعطلة ، ويقيم العقيدة الالهية على أساطين المنطق ، والحكمة العقلية ، ويثبت صحة الوحى ، وينتهى الى ايضاح البراهين المحمدية ، كل ذلك بملكة قلّ أن تتاح قوتها لفيلسوف غيره ، ولكن بعض الناس — ولا سيما العلماء الحشوية — أبوا أن يروا فى الفلاسفة الا ملحدين ومعطلين ، ومن هذا جاء قولهم العامى : من تمنطق تزندق . وبمثل هذه المبادئ السخيفة والكلمات المحزنة ، أضلوا العوام ، ووضعوا عقائدهم فى خصومة دائمة مع الحقائق العلمية ، وجنوا على الاسلام جناية كبرى ظهر أثرها فى الانحطاط السياسى والاجتماعى ، الذى نراه عليه الآن . واذا قام مصلح أو مجدّد يتكلم باسم الحكمة والعلوم العالية ، ويحث على النظر ، وينهى عن التقليد ، ويبين مضار الجمود ، كان أول مايتسرعون اليه رميه بالزندقة ، واتهامه بوهن العقيدة . وقد يصادف ذلك هوى فى افئدة من يميلون الى التعطيل فعلا ، فيلقفون مايسمعونه من هذا القبيل بدون تثبت ، ويسارعون الى اذاعته بين الناس ، لأن من أحب شيئاً أحب أن يرى كبار الرجال شركاء له فيه ، ولهذا صدر الاستاذ الشيخ محمد عبده رسالة الدهريين ، التى أسلفنا ذكرها ، بمقدمة فى ترجمة حال استاذه السيد جمال الدين قال فيها تقريباً مايأتى : « يحملنا على ذكر شئ من سيرة هـذا الرجل مانراد من اختلاف آراء الناس فى أمره ، وتضارب أقوالهم فى حقيقة حاله ، حتى كأنه قوة روحية قامت فى كل ذهن بما يلائمه ، أو حقيقة كلية نزلت فى كل عقل بشكل يشاكله ، والرجـل على صفاء جوهره ، وزكاء مخبره لم يتناوله وضع الوضاعين ، ولا حزر الخرّاصين الخ » . ثم شرع بترجمته على الوجه الصحيح ، الذى هو أدرى به من كل مترجم غيره ، بمكانه من خلطة السيد الاستاذ ، وماله به من تمام الخبرة ، ومعه من إطول العشرة . فذكر نسبه ، وحسبه ، ومولده ، ومنشأه ، ورحلته ، ومذهبه فى السياسة ، ومذهبه فى الفقه ، وقال فى هذا : « انه حنبفى حنفى مع ميل الى مشرب السادة الصوفية ، رضى الله عنهم » . وذكر عن مذهبه السياسى انه كان جل اجتهاده ، فى أن

يرى احدى الدول الاسلامية ، فى صف كبريات الدول الاوربية . وأطال فى وصف مواهبه العقلية ، وقدرته العلمية ، الى أن قال : « وبالجملة فلو قلنا ان ما أوتيه من الذكاء ، هو أقصى ماقدّر لغير الأنبياء ، لكنا غير مبالغين » . ووصف شمائله الباهرة ، وأخلاقه العظيمة ، وهممه العالية ، وشجاعته التى لاتعرف للموت معنى ، وعدم مبالاته بالدنيا ، وانتهى الى قوله فيما أتذكر : « وهو حليم يسع حلمه ماشاء الله أن يسع ، الى أن يدنو أحد ليمس دينه ، أو شرفه ، فينقلب الى غضب ، تنقض منه الشهب ، فبينما هو حليم أواب ، اذا هو أسد وثاب » . قلت وسترى عاقبة غضبه عندما أهانه الشاه ناصر الدين ملك العجم ، والصورة الفجيعة التى انتهى بها ذلك الخلاف ، مما سنرويه لك فى آخر هذه الترجمة . وقد اتفق أرباب النظر فى هذا العصر ، على أن قدوم السيد جمال الدين الافغانى الى مصر كان مبدأ الحركة الفكرية ، التى بدأت فى البلاد العربية وسائر الشرق الأدنى ، ولم تزل تنمو الى الآن ، رامية الى تحقق الشرق بالمعارف التى ساد بها الغرب ، ورفع سيطرة هذا عن ذاك ، واعادة الشرق سيرته الأولى من الرقى . ولم يقرأ السيد جمال الدين على أحد بالأزهر ، ولكنه كانت له حلقة خاصة فى منزله انتظم فيها عدد من أدباء القطر ، يستفيضون بحر حكمته ويستمطرون صوب صوابه ، اشتهر منهم الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، وابراهيم افندى اللقانى ، والسيد وفا القونى ، وسعد باشا زغلول ، الذى قيل لى انه أدرك أخريات أيام السيد بمصر ، ولازمه ثلة من أدباء الشام ، النازلين بمصر مثل أديب اسحاق ، وسليم النقاش ، وسعيد البستانى ، وغيرهم واندفع مريدوه وحملة علمه ، يكتبون ويخطبون وينثون الى الملأ ماالتقطوه من فوائده ، وانتظموه من فرائده ، وكان ذلك لسانا عاليا لاعهد للناس بأمثاله ، وأسلوباً راقياً انقطعت منذ قرون عديدة نسبة رجاله ، فأحدث فى الأمة حركة أفكار لم تكن من قبله ، ونفخ فيها روحا سرية ظهر عليها طابع عرفانه وفضله ، فنشطت همم واستجدت عزائم ، وهبت قوى وفاضت قرائح .

وقال الشيخ محمد عبده فى وصف تلك الحركة ما يأتى تقريبا : — لأن نص كلامه ليس بيدى الآن — فاستنارت الألباب ، واستضاءت البصائر ، وانحلت عقل الأوهام عن قوائم العقول . الى أن قال انه لم يكن بمصر للكتابة قبل جمال الدين شأن يذكر ، ولم يكن يعرف من الكتاب سوى عبد الله باشا فكرى ، وخيرى باشا ، وفلان على ضعف

فيه ، وفلان على اختصاص فيه ، و بقية من بقى فاما ساجعون فى المراسلات الخاصة ، واما مؤلفون فى بعض الكتب الأدبية الخ ، ولم تكن الثورة التى أحدثها السيد جمال الدين فى السياسة بأقل منها فى المعارف ، ولعمرى هاتان توأمان ، فقلما انتشر العلم فى مكان الا هتف بالحرية. وأول أثر ظهر لجمال الدين فى ميدان السياسة ، هو الحركة التى هبت فى أواخر أيام الخديوى اسماعيل باشا وآلت الى خلعه من الخديوية ، وكان للسيد اليد الطولى فيها ولما جلس توفيق باشا على كرسى مصر شكر لجمال الدين مساعيه ، لكن لم يطل الأمر حتى دبت عقارب السعاية فى حقه ، وجاء من دس الى الخديوى الجديد أن السيد لن يقف عند هذا الحد ، وقد تحدثه نفسه بثورة ثانية ، و باقامة حكم جمهورى وما أشبه ذلك ، مما لا يعيى تنميقه السعاة والمتملقين ، فصدر الأمر فجأة بنفى جمال الدين وأخرج الى السويس، ومنها ذهب الى الهند ، ولم يدخل بعدها مصر . وجرت الحركة العرابية فى غيابه ، واحتل الانكليز مصر . ومما لا مراء فيه أن المبدأ الوطنى ، الذى رأس تلك الحركة كان من زرعه هو ، وان كان هب على ذلك الزرع ، من سموم الجهل ونقصان التربية السياسية ، ولفحه من الدسائس الأجنبية ماصوح نضرته ، وأذهب ثمرته ، شأن تلك الدسائس على كل نهضة تحدث فى الشرق أو حركة اصلاح تشفق من ورائها الدول أن تتمزق حجب الغباوة التى هى أصدق عوامل الاستعمار الا أن ذلك الزرع لم تذهب بزرته من الأرض ، وعاد فأخرج شطأه ، وما زال ينمو حتى استوى على سوقه ، يعجب جمال الدين لو عاش الى اليوم ، و يغتاظ به الذين لا يبرحون مماطلين فى الجلاء عن مصر ..

وفى سنة ١٨٨٥ ذهب جمال الدين الى أوربا ، وأول مدينة صعد اليها لندرة ثم تحول منها الى باريز حيث وافاه الشيخ محمد عبده أكبر تلاميذه ، وأكمل وعاة علومه ، فأصدرا فيها « العروة الوثقى » التى بلغت من ايقاظ الشرق وهز أعصاب العالم الاسلامى ، مالم تبلغه صحيفة سيارة قبلها ، ولا بعدها ، ولكن لم يسعفهما الوقت أن يصدرا منها الا بضعة عشر عدداً ، فعاد الشيخ محمد عبده الى بيروت حيث كان منفاه على أثر الحادثة العرابية ، و بقى جمال الدين فى أوروبا يجول فى مدنها ويثافن أهل العلم فيها الى أن تلاقى بالشاه ناصر الدين صاحب فارس بلغنى أنهما تصادفا فى منيخ عاصمة بافاريه ، فدعاه الشاه أن يكون بمعيته لما شاهده من وفرة علمه وفضله ، وتقدم اليه فى الذهاب معه الى طهران ، فابى السيد دعوته ،

وأكرم الشاه نزله فى عاصمة فارس ، ومازال فى علياء عنده ، حتى نفس عليه الحساد منزلته هذه لدى الشاه ، ولما كان السيد جمال الدين لا يكتم فكره ، ولا يحتاط من قوة نفسه ، أن يجهر بكل ما يجيش به صدره . وكان بعد ذا وذا يجد فى ادارة أحكام العجم ، مالا يطيق عليه صبراً أقل منه بكثير ، فى الهمة ، واباء الضيم ، وصحة الوجدان فما ظنك برجل نظيره . لم يصعب على أولئك المفسدين ، أن يحكموا الوشاية ، و يوقعوا العداوة بينه و بين الشاه حتى انتهى الأمر باعتقاله وحبسه ، ثم باخراجه مهاناً من فارس الى بغداد ، حيث خاطب المجتهد الكبير ، ميرزا محمد حسن الشيرازى رأس الشيعة فى وقته بكتاب شهير ، عدد فيه مساوىء الشاه ، واستيلاء العته على عقله ، وشرح فيه مضرة امتياز شركة التنباك ، الذى يقضى باستئثار الأجانب بأهم محصول بلاد العجم ، فكان هذا النداء ، من أعظم أسباب الفتوى التى أفتاها ذلك الامام ببطلان هذا الامتياز ، واضطرت الحكومة الفارسية خوف انتقاض العامة الى الغائه . ولكن السيد جمال الدين لم يشف غليله بهذه الحركة وحدها ، وأخذ يعاكس الشاه وحكومته بكل وسيلة ، وكان كلما تذكر اهانة الشاه له ، و بين جنبيه تلك النفس العظيمة ، التى لو قلنا ان أنفس الملوك فى جنبها تعد أنفس سوقة ، لكنا غير مغالين هاج به هائج الانتقام ، وتقصد الأخذ بالثار ، لا سيما أنه كان رأى بعينه فى ايران ، من آثار الاستبداد والظلم وفجائع العسف والغشم وذهاب مصالح الأمة العامة فى سبيل اهواء افراد ، وشهوات آحاد ، ما مكن فى خلده فكرة العمل لقلع الشاه من مركزه . وصادف بعد ذلك أنه ذهب الى لندرة مرة ثانية ، فحرر فى مجلة سماها « ضياء الخافقين » مقالات على أحوال فارس تقيم وتقعد ، وكان السلطان عبد الحميد قد دعا السيد جمال الدين الى الاستانة وذلك فى سنة ١٨٩٢ فجاءها وكانت هذه المرة الثانية لدخوله هذه العاصمة . اذ كان قد عرف الاستانة مرة قبلها فى زمن السلطان عبد العزيز . هذا ولما كانت سبقت لمحرر هذه السطور معه مراسلات بواسطة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده كان أول من سألت عنهم عند سفرى الأول الى أوربا سنة ١٨٩٢ المذكورة ، هو المرحوم السيد جمال الدين فقيل لى انه قصد الاستانة وأظهر لى التخوف على مصيره فى الاستانة هنرى روشفور ، الكاتب الفرنسى الشهير ، الذى عرفته وهو منفى بلندرة . وكان روشفور يحب السيد جمال الدين ويحترمه ، وقد وصفه فى كتابه « ما جريات حياتى » بقوله هكذا على أسلوبه الخاص به فى الكتابة :

« السيد جمال الدين الأفغانى من سلالة النبي ، والمعدود هو أيضاً أنه أشبه بنبي » ثم قال : « انني شعرت نحو هذا الرجل بعاطفة الحب التى أجدها تربطني بكل داع الى ثورة أو مقاوم لسلطة . »

ولما ورد السيد جمال الدين الاستانة أنزله السلطان منزلا كريما ، فى دار ضيافة خصه بها فى نشان طاش ، وأجرى عليه الأرزاق الوافرة ، وكان يدخل على السلطان ويصلى صلاة الجمعة معه . ومضت مدة وجمال الدين حظىّ عند أمير المؤمنين ، لا خوف عليه ولا هو يحزن وكان الجو لم يسفر بينه و بين السيد أبى الهدى الصيادى فنسأ ذلك أجل القصص بحقه الى السلطان ، وانما كانت تلك فترة لايعبأ بها ، اذ ماعتم الأستاذ الصيادى أن وجه عليه حملاته عند مولاه ، واندفع يتهم جمال الدين بالكفر والزندقة ، كما هو ديدن هؤلاء فى شأن كل من أرادوا تنقصه من الحكماء . وقد اطلعت على نشرة من جانب السيد أبى الهدى تتناول ثلاثة من أعدائه وهم السيد فضل العلوى الحضرمى أمير ظفار ، والشيخ ظافر المدنى الطرابلسى شيخ الطريقة الشاذلية ، والسيد جمال الدين الأفغانى ، وثلاثتهم كانوا من المقربين الى السلطان ، وكان لكل منهم نصيب وافر من الشتم والوقيعة فى هذه النشرة ، وحصة السيد جمال الدين كانت تهمة الالحاد وفساد الاعتقاد . ومن جملة الشواهد على ذلك كونه قال مرة : « أنا أطوف بأشجار البندلر طواف الحجيج بالكعبة » . والبندلر هى السدود بالتركية وذلك أنه يوجد محل نزهة بظاهر الاستانة قد سد السلاطين العظام فيه أودية بحيث تكونت منها بحيرات لسقيا العاصمة ، وقد أحاطت بتلك البرك غابات ملتفة بديعة ، فغاية مايقال ان جمال الدين عبر عن نزاهة ذلك المكان بعبارة شعرية ، فاستخرج منها أبو الهدى الحاداً وكفراً . وكان جواسيس السلطان يحصون عليه جميع حركاته وسكناته ، ليقدموا ذلك الى السلطان . فما يروى أنه كان هو وعبد الله نديم الكاتب المصرى المشهور فى متنزه « الكاغد خانه » ، فصادفا الجناب الخديوى عباس حلمى ، وسلم بعضهم على بعض ، وتحادثوا نحو ربع ساعة تحت شجرة هناك . فيقال ان السيد أبا الهدى قدم تقريراً للسلطان بأن جمال الدين وعبد الله نديم تواعدا مع الخديوى على الاجتماع فى الكاغد خانه . وهناك عند الاجتماع بايعاه تحت الشجرة . لكن السلطان بحسب قول جمال الدين لم يحفل بهذه الوشاية . ولكن هذا الخلاف مع أبى الهدى لم يزعزع مكانة جمال الدين

من السلطان وربما زاده لديه زلفى ، وانما أدى الى وحشة الخليفة منه ، استمراره فى مجالسه التى كانت تنتابها الناس دائماً على القدح فى شاه العجم مما حمل سفير ايران على رفع الشكوى الى السلطان ، فاستدعى السلطان اليه السيد جمال الدين وقال له : « ان سفير العجم ترجانى أن أتكلم معك فى الكف عن الوقيعة فى الشاه وأنا بناء على أملى فيك وعدته بأنك تكف عنه » وقد روى لى السيد رحمه الله هذه القصة عند مارجعت من أوربا الى الاستانة فى أواخر سنة ١٨٩٢ . فقال لى هكذا بالحرف : « فقلت للسلطان ما كنت ناويا أن أترك شاه العجم حتى أنزله فى قبره ، ولكن بعد أن أمر أمير المؤمنين بالكف عنه ، فلابد من طاعته . » بمثل هذا كان المترجم يخاطب الملوك ولا يبالى عن موقع مثل هـذا الكلام منهم ، مع أن أشدهم حذراً ووسواسا كان السلطان عبد الحميد ، فلا عجب ان وقع فى نفسه شئ منه . ولكن ليت السيد كف بالفعل عن أذى الشاه ، اذ لم يلبث أن عاوده الغضب الذى هو العيب الذى عوذ الله به حسناته العديدة ، والذى جرّ عليه كثيراً من المصائب ، حتى قال الشيخ محمد عبده فى وصفه : « وكثيراً ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة » . ففى أحد الايام قدم على جمال الدين رجـل من العجم ، بابىّ المذهب ، اسمه رضا آقا خان ، صادف أنه وجد مع جمال الدين فى حبس واحد فى قزوين عندما اعتقله الشاه ، فحصلت بينهما صحبة أكيدة ثم تفارقا عند ما أخرج جمال الدين من الحبس ونفى الى بغداد ثم أخلى سبيل رضا آقا هذا ، ولما بلغه مجئ السيد الى الاستانة جاء يزوره فيها ، فسر به السيد كثيراً ، وكان دائما يحادثه ويتكلمان على شقاء الأمة الايرانية بسوء ارادة سلطانها ناصر الدين . فقال رضا آقاخان يوماً انه هو حاضر أن يفدى نفسه لتخليص أمتـه فقال له جمال الدين : « ان كان كذلك فاذهب وافعل » فذهب رضا آقاخان ، وبعد أشهر بينما ناصر الدين شاه فى جامع عبد العظيم فى طهران اذ دنا منه هذا الرجل وقتله غيـلة وقال له : « بدى از جمال الدين » أى خذها من يد جمال الدين ووردت الأخبار الى الاستانة وتحدث بها الناس كما لا يخفى ، فأبدى السيد جمال الدين مزيد سروره بهذا الخبر وشرع يقول : « قد تحقق الآن أن الأمة الفارسـية لم تمت وانها أمة لم تنقطع منها الآمال ، لأن الأمـة التى يقوم من أبنائها من يأخذ بثارها ويفتك بالطاغى الذى على رأسها ، لا تـكون قد فقدت جراثيم الحياة» . وكلاما من هذا القبيل كان يردده . ثم لما ورده عدد من مجلة «الايلوستراسيون»

التصويرية الفرنسية ، وفيها صورة القاتل رضا آقاخان مصلوباً معلقاً ، والناس ينظرون من حوله هتف : «علو فى الحياة وفى الممات . وقال : انظروا كيف علقوه عالياً عليهم حتى يكون ذلك رمزاً الى أنهم كلهم كانوا من دونه » . وكان الجواسيس ينقلون الى السلطان كل كلمة يفوه بها السيد ، فلم يشك عبد الحميد فى كون قتل الشاه كان بسبب جمال الدين ، وانه مازال وراء الشاه حتى « أنزله فى قبره » كما قال . ومن الغريب أن الشاه بعد أن خلى سراح جمال الدين ، وذهب هذا الى أوربا بلغ الشاه أن المترجم كان يسعى فى تدبير مكيدة مع بعض الايرانيين ، لخلع الشاه أو لقتله ، فندم جداً على افلاته ، ويقال انه هو الذى بعث الى السلطان عبد الحميد يرجو منه استقدام جمال الدين اليه ، ووضعه تحت المراقبة أماناً من شر غوائله ، فاستقدمه السلطان بكتاب من قلم أبى الهدى . ولما ورد الاستانة أمر بالمبالغة فى برّه واكرامه ، ليلهيه عن عداوة شاه العجم ، فكان مع ذلك ما كان ، ولا يمنع حذر من قدر . فلما تحقق السلطان كيفية قتل الشاه غضب غضباً شديداً . وأمر بتشديد المراقبة على المترجم ومنع أى أحد من الاختلاط به الا بارادة سلطانية ، فأصبح السيد فى قصره محبوساً . وكانت الحكومة الايرانية شرعت فى تحقيق حادثة القتل فثبت لديها اغراء جمال الدين لرضا اقا خان بالاشتراك مع شخص فارسى آخر اسمه رضا آقاخان أيضاً ، وشخص بغدادى [اسمه الشيخ ابراهيم . فطلبت الدولة الايرانية من الباب العالى تسليمها هؤلاء الثلاثة ، فالسلطان عبد الحميد أبى تسليم جمال الدين ، ولكن الشخصين الآخرين بلغنى أنه جرى تسليمهما وقتلا فى ايران بحجة اشتراكهما بالمؤامرة . ثم ان التضييق بلغ حده على المترجم حتى أرسل الى فيس موريس مستشار سفارة انكلترة يلتمس منه ايصاله الى باخرة يخرج بها من الاستانة ، فحضر فيس موريس اليه وتعهد له بما طلب ، واذ ذاك بلغ السلطان الخبر ، فأرسل اليه أحد حجابه يستعطف خاطره باسم الاسلام أن لايرضى بمس كرامة الخليفة الى هذا الحد ، ولايلتمس حماية أجنبية . فثارت فى أنفه حمية الاسلام ، وبعد أن كان زمّ حقائبه للسفر قال لفيس موريس انه عدل عن السفر ، ومهما كان فليكن . ولكن المراقبة عليه كانت لم تزل باقية ، وكل من أراد أن يشاهده فلابد له من اذن خاص . وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر فى حنكه مرض السرطان واشتد عليه ، فصدرت الارادة السنية باجراء عملية جراحية يتولاها قمبور زاده

اسكندر باشا ، كبير جراحى القصر السلطانى ، وكان هذا مقربا جداً الى الحضرة السلطانية، فأجرى له العملية فلم تنجح ، ومالبث الا أياما قلائل حتى فاضت روحه رحمه الله وعفا عنه . وهنا تقوّل الناس أشكالا وألواناً فى قضية هـذا السرطان وهذه العملية الجراحية ، لقرب عهد المرض بحادثة قتل الشاه ، وما كان معروفا من وساوس عبد الحميد . فقيل ان العملية الجراحية لم تعمل على الوجه اللازم لها عمدا ، وقيل لم تلحق بالتطهيرات الواجبة فنا : بحيث انتهت بموت المريض . وحدثنى صديق الكونت لاون أوستروروغ ، المستشرق العلامة ، مترجم كتاب الأحكام السلطانية للماوردى ، وحديثه هذا كان لى فى هـذه الأيام الأخيرة فى لوزان (شهر يناير سـنة ١٩٢٣) . أن المترجم كان صديقه فدعاه اليه بعد اجراء العملية الجراحية وقال له ، ان السلطان أبى أن يتولى العملية الا جراحه الخاص ، وانه هو رأى حاله ازدادت شدة بعد العملية ، فيرجو منـه أن يرسل اليه جراحا فرنسويا ، مستقل الفكر ، طاهر الذمة ، لينظر فى عقب العملية . فأرسل اليه الدكتور لاردى ، وهو رجل لايزال حيا واقامته بجنيف من سويسرة ، فوجد ان العملية لم تجر على وجهها ، ولم تعقبها التطهيرات اللازمة ، وان المريض قد أشفى بسبب ذلك ، وعاد الى أستروروغ ، وأنبأه بهـذا الأمر المحزن ، ومامضت أيام حتى فارق جمال الدين الحياة . وقال لى واحد ممن كانوا فى خدمة عبد الحميد وقد رويت له هـذه القصة : أن قبورزاده اسكندر باشا كان أطهر وأشرف من أن يرتكب مثل تلك الدناءة ، ولكن كان رجل عراقى اسمه جارح طبيب أسنان يتردد كثيراً على جمال الدين ويعاين له أسنانه ، وكانت نظارة الضابطة قد استمالت جارح هـذا بالدراهم وجعلته جاسوساً على المترجم ، فصار له عدواً فى ثياب صديق . قال لى صاحب هذه الرواية : فأردت مرة أن أمنع جارحاً من الاختلاط بجمال الدين فأشار الىّ ناظر الضابطة اشارة خفية بأن اتركه ، وفهمت من الاشارة انه يذهب الى هناك ويطبب أسنان السيد بعلم من النظارة والسيد لايعلم بشىء من ذلك ، ويستخلص جارحاً ويثق به . قال فلا أعلم ماذا فعـل جارح بواسطة طبه وثقة جمال الدين به ، قصارى ما أعلم انه لم تمض عدة أشهر عـلى حادثة الشاه ، حـتى ظهر السرطان فى فك السيد من الداخـل ، وأجريت له عملية جراحية فلم تنجح ، وجارح هـذا ملازم للمريض . وبعد موته كنا نراه دائماً حزينا ، كئيبا ، كاسف البال ، واجم الوجه ، خزيان ، مما جعلنا نشتبه أن يكون ذا يد فى افساد الجرح بعد العملية ، أوفى

توليد المرض نفسه من قبل بوسيلة من الوسائل ، فلما مات السيد آخذ يعذبه وجدانه على خيانته هذا الرجل العظيم ، الذى كان وثق به . قال ولا أجزم بكونه هكذا فعل ، ولكننى أجزم بأنه كان جاسوساً على السيد والله من وراء العلم . وكانت وفاته رحمه الله فى ٩ آذار سنة ١٨٩٧ وصلى عليه فى جامع التشويقية فى نشان طاش ، ودفن فى مقبرة على مقربة منه. ولى فى جريدة الاهرام يومئذ مقالة بين يدى فقده ليست فى يدي الآن لمراجعة تاريخها .

وكنت لما عدت من أوربا الى الاستانة سنة ١٨٩٢ ، ذهبت اليه فى نهار وصولى ، فاستقبلنى براً وترحيباً ولزمته تلك المدة الى أن اضطررت الى السفر الى وطنى سورية ، ففارقته آسفا وأنا أمنى نفسى بالعودة الى الاستانة ، لمشاهدته والاستفادة منه . وسألنى مرة عما شاهدته فى أوربا وأىّ نتيجة استخلصتها من حال أولئك القوم ، لأنه كان فيلسوفا تاما لايرى الجزئيات الامن خلال الكليات ، فلما أردت أن أبدى له مايعن لى فى هذا الباب ، وكنت يومئذ فى أول شبابى لم أجاوز الثانية والعشرين من العمر ، غلبتنى مهابة حكمته وخشيت أن لا أصيب المحز ، فتحوطت لكلامى بشيء من انكار النفس واستكبار أن يكون مثلى ممن يجوز أن يتكلم بحضرة مثله ، فما رأيته الانهض وأمسك بيدىّ وهتف قائلا : « أنا أهنئ أرض الاسلام التى أنبتتك » . فسمع الناس هذه الجملة وما زالوا يتناقلونها ، وماخاله قصدبها الا الجذب بضبعىّ الى الأمام ، وجبر مانقص من قوتى المعنوية . وحكيت له مرة أن احدى جرائد اميركا بحثت فى موضوع اكتشاف تلك القارة ، فقالت يروى أن العرب خاضوا الاوقيانوس الاطلانتيكى ناشدين البر الذى وراءه ، وسالت هل عند مؤلفى العرب شىء من هذا الخبر ، فعربت ذلك جريدة النشرة الاسبوعية فى بيروت ، وألقت السؤال نفسه على علماء العرب وكنت فى باريز ، فلما اطلعت على القضية لبيت ذلك النداء وراجعت فى المكتبة الوطنية كتب الشريف الادريسى الجغرافى العربى الشهير ، ونقلت من كتابه نزهة المشتاق الى اختراق الآفاق ، خبر الاخوة المغرورين ، الذين ركبوا سفينة من أشبونة وجعلوا فيها كل مايلزمهم من الزاد والماء ، وخاضوا بها بحر الظلمات الى الغرب حتى وصلوا بعد مسيرة شهر الى جزيرة خالية لم يجدوا بها الا الوحوش ، فركبوا البحر متجهين الى الجنوب ، و بعد نحو شهر أيضا نزلوا بجزيرة فيها أناسى وملك يحكم عليهم ، فقفلوا من عنده متجهين شرقا ، حتى نفذوا بعد مدة الى مرسى اسفى بالمغرب الأقصى . فلما اكملت له الرواية

وانني حررتها جوابا على النشرة الأسبوعية ، وقد أثرتها عنها جميع الجرائد العربية ، التفت الى قائلا : « لا أريد أن أسرّ المسلمين بكلمة . هؤلاء قوم كلما قال لهم الانسان : كونوا بنى آدم . أجابوه : ان آباءنا قدكانوا كذا وكذا . وعاشوا فى خيال مافعل آباؤهم غير مفكرين بان ما كان عليه آباؤهم من الرفعة ، لاينفى ماهم عليه اليوم من الخمول والضعة . قال : ان الانسان اذا بنى قصرا مستوفيا جميع شروط البهاء والنيقة ، ولم يفته فيه شئ من الرفاهة والفراهة ، فهو يفكر حينئذ بأن يأتى الى قصره بالرياش الفلانى النادر من القطر الفلانى ، ويكمل زينة قصره بالآنية الفلانية التى لايملكها الا القليلون ، وأن يجعل فى حديقة القصر هذه الزهرة البديعة وتلك الريحانة العجيبة . فأما وهو قصر متداع الى السقوط ، والجص نازل الى الأرض ، والسقوف قدهوت من كل جانب ، وهو لايقدر على ترميمها ، فهل يخطر بباله أن يأتى لا كمال زينة قصره بهذه الآنية ، وتلك الزهرة ، وهاتيك الديباجة ، كلا ، لعمرى ان من أعوزته الضروريات ، لاحاجة به الى الكماليات ». قال لى : « وأنالا أقول لك لماذا حققت عن قضية جد العرب لاكتشاف أميركا ، ولكننى أقول لك ان الشرقيين قد أصبحوا بهذه المثابة ، وهى كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر ، قالوا : أفلاترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالا ، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم . فلايليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم الا أن تفعلوا فعلهم » . وكأنه ينظر بهذا الى قول القائل :

نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثلما فعلوا

وكان من شدة مايجد من الالم لحال الاسلام،تخطر له خواطر نادرة فى هذا الموضوع ، فقال لى احدى المرار : « قد فسدت اخلاق المسلمين الى حد أن لا أمل بأن يصلحوا ، الا بأن ينشأوا خلقا جديداً ، وجيلا مستأنفا ، فحبذا لو لم يبق منهم ، الا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر ، فعند ذلك يتلقون تربية جديدة تسير بهم فى طريق السلامة » . وقال لى نوبة أخرى : « لم يبق فى الاسلام أخلاق ، فهذا محمود سامى (البارودى الشاعر الكبير ، رئيس النظار أثناء حرب عرابى) عاهدنى ثم نكث معى ، وهو أفضل من عرفت من المسلمين» . وقال لى أيضا : « ان المسلمين قد سقطت هممهم ، ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شى واحد فيهم وهو شهواتهم » . وكان يندد هذا التنديد كله لما كان فيه من الوجد لاسترداد الاسلام مجده القديم ، ولما كان يراه من غفلة المسلمين عن الاخذ باسباب

الرقى ومن السبات العميق الذى أمعنوا فيه ، على حين صاح صائح الجد بسائر الامم هيا على الفلاح . ومن قرأ مجموعة العروة الوثقى التى كانت ترجمان أفكاره ، بقلم تلميذه الشيخ محمد عبده رأى انه أنبأ منذ أربعين سنة بما سيؤول اليه حال الاسلام ، وما ستكون معه سياسة الدول المستعمرة ، مما تحقق كله فيما بعد ، حتى كأنه كان ينظر الى الحوادث المستقبلة فى مرآة . وكان فى أطوار حياته ، فيلسوفا كاملا ، عالما عاملا ، فلا يقول ما لا يفعل ولا يكتفى من الحكمة بالنظر دون العمل ، كما هو شأن كثير من العلماء الحافظين الذين قلوبهم فى واد وألسنتهم فى واد . فكان يفطم نفسه عن الشهوات ، ولا يرى من اللذات الا اللذة العقلية العالية . وقد حاول السلطان عبد الحميد أن يعلق قلبه بالمال والبنين ، ويشغله بزينة الدنيا وراوده على الزواج ، فأبى وأعرض ، وقال له : قضيت حياتى مثل الطير على الغصن ، فلا أريد فى آخر أيامى أن أتعلق بعائلة . وكنت سامراً مرة عنده وعنّ هذا الموضوع ، فقال له أحد الدمشقيين : يا مولاى لماذا لا تتأهلون ويكون لكم الذرّية الصالحة ؟ فلم يعجبه قوله ، ولما انصرف الرجل أقبل علىّ السيد وقال « لم تدخل روح الفلسفة فى هذه الامة » . وليس مراده بذلك التزهيد فى الزواج ، وانما تقرير حقيقة وهى أن الفلسفة لا تبالى بالنسل والذرّية ، وان الفلاسفة قلوبهم فى شغل شاغل عن ذلك ، وكان ينظر الى المال نظره الى التراب فلا يدّخره ، ولا يعرف معنى تثميره ، ولا يتناول منه الا ما هو ضرورى للحياة . ولما كان فى الاستانة ، كان عنده قهرمان هو الذى بيده الحساب والقبض والصرف ، أما هو فلا يدرى من ذلك شيئاً ، وحاول السلطان أن يعطيه رتبة علمية كرتبة قاضى عسكر مثلا ، فأبى أن يقبل الرتبة ، وأن يلبس كسوتها المزركشة بالقصب ، وكذلك رفض قبول الوسام مهما كان عالياً ، فسألته عن ذلك فقال : أكون كالبغل يحمل على صدره الجلاجل ؟ وبالجملة فلم يكن يؤخذ لا رغبة ولا رهبة ، أما الرغبة فقد كان راغبا عن الدنيا بحذافيرها عيوفاً عن زينتها معرضاً عن زخرفها كما مر بك . وأما الرهبة فلم يكن يعرف الخوف الى قلبه سبيلا ، وفيما سردنا لك من قصصه ما فيه مقنع . وعرض حديث أجريت فيه ذكر الشيخ محمد عبده فقلت ، انه من الأفراد بمصر ، فاجابنى : « لا يوجد مثله بمصر » . وكان هذا قبل أن صار الاستاذ فى منصب افتاء الديار المصرية ، ونال تلك الشهرة العظمى .

تحرينا فى ترجمة حال هذا الحكيم الكبير ، هذه الدقائق لأنه مما لا مشاحة فيه ،

أنه هو الموقظ الأعظم للشرق ، وان طريقته ستزداد انتشاراً ، ومبادئه ستطبق فى يوم من الأيام الشرق بأجمعه ، فيسأل الخلف عن أحوال حياته ، و يستقصون عن خواطره ، ويجدّون فى جمع آثاره ، كما نرى الاورب بين اليوم يحرصون جد الحرص ، على اكتشاف أقل شئ يعزى الى عظيم من عظمائهم ، سواء من خبر أو أثر . ومن غريب ضرائب البشر أنهم لا يحرصون على آثار عظمائهم فى حياتهم معشار ما يحرصون عليها بعد ذهابهم ، وكنت أسأل مرة مارسل كاشين ، وجان لونفه ، وجماعة من رؤساء الاشترا كيين الفرنسيس ، عن جوريس نابغة السوسياليست فى هذا العصر ، فبعد أن حدثونى عنه ساعة قالوا لى : « لم نكن نقدره قدره فى حياته كما نقدره قدره اليوم » وأظن الحال كذلك مع رنان ، ومع فيكتور هوغو ، ومع سبنسر ، ومع بسمارك وجميع الأعاظم . فان أقدارهم تزداد بالوفاة ، والولع بآثارهم يتضاعف مع تقادم العهد . وهكذا شأننا مع جمال الدين ومحمد عبده ، وغيرهما من كبار المصلحين ، كلما تقادم عليهم العهد ، حرص الناس من آثارهم على اللفظة الشاردة ، والكلمة الفاردة ، ليكتبوها عنهم بماء الذهب . ولجمال الدين تاريخ للافغان ، ومقالات متفرقة كان عندى منها مجموعة ، سطا عليها لص علم ، وآخر ما نشر له ، رسالة الدهريين التى سبق ذكرها . وبالجملة فلم يكن يحفل بوفرة التصانيف ، وانما كان مؤلف أمم ومصنف ممالك .

***

ومن ترجم السيد جمال الدين ، العلامة غولد سيهر المستشرق المجرى المشهور ، شيخ المستشرقين فى العلوم الشرعية ، وصاحب التصانيف العديدة . فقد رأيناله فى دائرة المعارف الاسلامية ، المحررة باللغة الفرنسوية ترجمة خاصة بالمرحوم السيد جمال الدين ، جاء فيها ما ترجمته :

« السيد محمد بن صفتر ، من أعاظم رجال الاسلام فى القرن التاسع عشر ، كان بحسب رأى براون فيلسوفاً ، كاتباً ، خطيباً ، صحفيا . وقبل كل شئ ، كان رجلاً سياسياً يرى فيه مريدوه وطنياً كبيراً ، وأعداؤه مهيجاً خطيراً . وقد كان له تأثير عظيم فى حركات الحرية ، والمنازع الشوروية ، التى جدت فى العشرات الأخيرة من هذه السنين ، فى الحكومات الاسلامية وكانت حركته ترمى الى تحرير هذه الممالك من السيطره الاوربية ، وانقاذها من الاستغلال الاجنبى ، والى ترقية شؤونها الداخلية بتأسيس ادارات حرة .

وكذلك كان يفكر فى جمع هذه الحكومات بأجمعها ومن جملتها ايران الشيعية ، حول الخلافة الاسلامية . لتتمكن بذلك الاتحاد من منع التدخل الاوربى فى أمورها . فجمال الدين بقلمه ولسانه ، كان أصدق ممثل لفكرة الجامعة الاسلامية . وأسرته الشريفة تنتمى الى الحسين بن على بن أبى طالب بواسطة المحدث الشهير الترمذى ، فهو من أجل ذلك يلقب بالسيد . »

ثم يقول انه بعد اكمال تحصيله بكابل ، ذهب الى الهند ، ثم حج البيت سنة ١٢٧٣ ، أو ١٨٥٧ وبعد اوبته من الحج ، دخل فى خدمة دوست محمد خان أمير الافغان ، ورافقه فى حصار هراة ، ولما توفى دوست محمد خان ، دخل فى خدمة محمد أعظم الذى استوزره الى أن كان سقوطه واستيلاء شير على خان على المملكة . فرحل السيد جمال الدين الى الهند (١٨٦٩) ومنها قدم القاهرة حيث أقام أربعين يوماً ، ومنها قصد الاستانة ، فاقبل عليه وزراؤها وعلماؤها ، وأجلوا قدره ، وعرفوا فضله ،وعينته الدولة عضواً بمجلس المعارف وصار يلقى بعض الدروس فى أياصوفيا والسلطان أحمد، ودعى مرة الى القاء خطبة فى دار الفنون على فوائد الصناعة ، فذكر النبوة من جملة الوظائف الاجتماعية [١] فأدى ذلك الى أن حسن افندى فهمى شيخ الاسلام رماه بالزندقة ، واضطر الى مغادرة الاستانة قاصداً مصر . فأجرت الحكومة المصرية عليه معاشاً شهرياً ١٢ ألف غرش بدون أن تكلفه إلقاء درس خاص ، وانما كان يقرأ على حلقة من الطلاب فى منزله ، واجتمع حوله كثير من العطاش الى مناهل العلوم العالية الخ .

وذكر غولد سيهر سائر ما يعرف من أحواله مما حرره الشيخ محمد عبده ، فى صدر رسالة الرد على الدهريين ، وما هو بمعنى ترجمتنا له فى هذا الكتاب ، الا أنه يقول انه لما نفى من مصر الى الهند جعلوا اقامته بحيدر آباد الدكان ، وهناك كتب رده على الدهريين ، وانه قد زعم ويلفريد سكافن بلونت وهو مما لم يذكره غيره من مترجميه ، أن جمال الدين ذهب

(١) حقيقة هذه القصة أن السيد يومئذ شبه الاجتماع الانسانى بجسم أعضاؤه الصناعات المختلفة ، فشبه الصنعة الفلانية باليد ، والفلانية بالرجل ، وهذه بالعين ، وتلك بالأذن ؛ ثم قال وأما الرأس المدبر لهذا الجسم ، فهو اما النبوة أو الحكمة ، والفرق بينهما أن النبوة وحى إلهى معصوم من الخطأ ، وان الحكمة وضع بشرى قد يخطىء وقد يصيب. وكان حسن فهمى افندى شيخ الاسلام يومئذ ، ناقماً على الأفغانى قراراً سابقاً فى مجلس المعارف ينال من رزقه ، فانتهز فرصة هذا الخطاب ليقول ، ان الأفغانى جعل النبوة من جملة الصناعات

من الهند الى أمريكا ، وانه منها جاء الى لندرة سنة ١٨٨٣ .

وذكر غولد سيهر مناقشة جمال الدين مع رنان ، فى أمر قابلية الاسلام للعلم ، فقال ما يأتى بالحرف :

« وقد فتحت له أشهر الجرائد وأعظمها نفوذاً أبواب المراسلة ، فنشر فيها مقالات ممتعة ، عظيمة القيمة على السياسة الشرقية ، التى كانت تتنازعها انكلترة والروسية ، وعلى أحوال تركيا ومصر ، وعلى معنى حركة المهدى السودانى . وفى ذلك الوقت جرت بينه و بين ارنست رنان ، المناظرة التى أساسها محاضرة ألقاها رنان فى السوربون على الاسلام والعلم . فجمال الدين أراد تفنيد مزاعم رنان بعدم قابلية الاسلام للتوليد العلمى ، وذلك فى مقالة بجريدة « الدبا » ترجمت أيضاً الى الألمانية . ثم بعد ذلك بقليل ، ترجمت محاضرة رنان ، مصحوبة برد من قلم حسن افندى عاصم الخ » .

ثم ذكر غولد سيهر العروة الوثقى ، وكيف شددت الحكومة الانكليزية بمنعها من أول عدد صدر منها من الدخول الى مصر والهند . وقال انه سنة ١٨٨٥ ، بالرغم مما اشتهر به المترجم من عداوة انكلترة ، داخله الانكليز باشارة المستر بلونت فى أمر ايجاد حل لمسألة المهدى السودانى ، ولكن لم يقترن شئ من ذلك بالعمل . ثم زعم أن الشاه ناصر الدين دعاه بالبرق سنة ١٨٨٦ الى حاضرة ملكه طهران ، وأكرم مثواه و بالغ فى الاحتفاء به ، ولكن خشية الرقباء حملت جمال الدين على الاستئذان من الشاه والذهاب الى الروسية ، حيث أقام مدة وصارت له علاقات كثيرة ، وان لقاءه للشاه فى منيخ كان فى المرة الثانية ودعاه هذا الى الرجوع الى طهران ، وذلك سنة مجئ الشاه الى معرض باريز (١٨٨٩) وذكر غولد سيهر أن سبب الفتنة بين جمال الدين والشاه كان الصدر الأعظم ميرزا على أصغر خان الملقب بأمين السلطان ، نفاسة على جمال الدين بالمكانة التى أحرزها فى ايران ، وان جمال الدين التجا الى مقام عبد العظيم الذى هو أشبه بحرم من دخله فهو آمن ، وأقام به سبعة أشهر والناس تتردد عليه ، الى أن أرسل الشاه كتيبة ٥٠٠ فارس ، اخترقوا حرمة الحرم وأخذوا السيد منه عنوة ، وساقوه مكبلا بالحديد الى خانقين [1] .

ثم استوفى بقية خبره ، وكيفية معاكساته لحكومة الشاه ، ثم مجيئه الى الاستانة ، وموته فيها على الوجه الذى حررناه .

---

(١) على حدود العراق

الاسلام والجنود السوداء

مقالة روجر لابون والتعليق عليها

لامير شكيب

١ — الاسلام الاسود
٢ — الاسلام عند السنغاليين
٣ — الخلاصة
٤ — الجنس الاسود والاسلامية

انه مما يجدر بأن يطلع عليه الشرقيون عامة والمسلمون خاصة ، مايصدر فى أوروبا فى الأحايين من الكتابات المتعلقة بهم ، والتصانيف الباحثة عن مصيرهم ، والمقالات المصورة لأحوالهم وشؤونهم بلون مخيلات الكتاب الذين حرروها ، الناطقة عن هوى الأحزاب التى ينتمى هؤلاء الكتاب اليها ، بحيث يعرف منها الشرقى أو المسلم أو المستضعف المغلوب على أمره كائناً من كان ، ماذا يطبخ له فى الخفاء ، وماذا يدس بحقه تحت الستار ، وماذا يدبر عليه بدون علمه مما لا يطلع عليه الا فى الندرى ، ومما هو رام الى ادامة استغلاله ، والاحتياط من وراء اساره ، وتأمين رسفانه الأبدى فى سلاسل العبودية . فمن هذا القبيل ومما نورده مثالا ، مقالة مشبعة ظهرت مؤخراً فى مجلة من أشهر المجلات الفرنسية هى مجلة باريز Revue de Paris فى عدد أول ابريل سنة ١٩٢٣ ، لكاتب فرنساوى اسمه روجر لابون[١] Roger Labonne عنوانها « الاسلام والجنود السوداء » كشف فيها النقاب عن جميع ما ينوى بعضهم فى حق المسلمين الذين تحت نير الافرنجة عامة ونير الفرنسيس خاصة ، وتوخى عدم حصر ذلك فى الميدان السياسى والادارى ، بل تجاوزه الى الميدان الدينى والاجتماعى ، مما لا يجوز التهاون به ولا الاغضاء عنه ولو لأجل العلم به على الأقل . وقد جرت عادة المضللين والماحكين ومخدرى الأعصاب من الاوربيين ، عندما يحدثهم انسان بشأن مقالة

---

(١) راجع الصفحة ٣٠٦ من هذا الجزء

كهذه أو مصنف من بابها ، أن يكون جوابهم أبداً بأن هذه هى آراء أفراد ، لا يؤبه لها ولا يلتفت اليها ، وليست الحكومات المستعمرة لتقيم لها وزناً ، وكلمات كلها من هذا النمط ، فليحذر الشرقيون وجميع المسلمين من قبول هذه الأقاويل ، والاسترسال الى هذه التمويهات ، لئلا يندبوا عاقبة سذاجتهم وحسن ظنهم . ان المبادئ والآراء التى فى المقالة الآتى تعريبها ، وفى مئات بل فى ألوف من أمثالها الصادرة تباعاً فى العالم الأوربى هى عقيدة حزب كبير جداً فى أوروبا ، بل يمكننا أن نقول هى عقيدة السواد الأعظم من أهالى الممالك الاستعمارية ، لا يخرج عن هذه العقيدة سوى الاحزاب الاشتراكية ، والشيوعية ، وغلاة الراديكال ، ومن ند لعلة من العلل من جهور الأحزاب الأخرى المتوسطة والمتيامنة ومن يليها ، وذلك كعالم كبير طاهر الوجدان ، أو فيلسوف عامل واسع الفكر صادق الانسانية ، أو سياسى محنك راجح العقل يغلب ادراكه هواه ، ويعلم ما فى هذه الأفكار من التهور وما يترتب عليها من الاخطار ، وما يكون لاجرائها بالفعل من سوء العاقبة . وما عدا من ذكرناهم ، فالغالب من القوم هو على هذه العقيدة فلا ينبغى أن نخادع أنفسنا ، وأن نتغابى عن الحقيقة لذة بالتغابى كمن يكتم مرضه ، فانه اذا كان قبيحاً بالمرء أن يغش غيره ، فأقبح منه أن يغش نفسه . فمن الأمور التى لا يجوز أن نغش أنفسنا بها ، الذهاب الى كون هذه المبادئ الضارة بالشرق وبالعالم الاسلامى هى مبادئ الفئة القليلة ، وأن تلك الحكومات غير ماشية بموجبها . والحقيقة أن ليس هناك الا الفرق بين عدو عاقل يمنعه عقله ، وتربأ به رويته ، عن المجاهرة بمكنون فكره ، واقلاق خواطر الأمم المستضعفة بصراحة نيته ، وعدو متهور غلبت عليه حرارة صدره وشدة طمعه ، حتى باح بكل ما ينويه لتأبيد عبودية تلك الأمم المقهورة ، لا سيما المسلمين ، الذين يرونهم أشد خطراً من الجميع بما ينفث القرآن فى روعهم ، من روح العزة وتهوين الموت ابتغاء الحياة الكريمة . وهذا القسم الثانى هو نظير روجر لابون هذا الذى نأتيك بمقاله معرباً بالحرف قال :

— ١ —

لمحة على حالة الاسلام الحاضرة

« نجد الناس فى فرنسا ينظرون بدون قلق ، الى القلاقل والى حركات العصيان

« م ٢٠ — ثانى »

البادية فى العالم الاسلامى . بل ربما ينظرون اليها مع شيء من الشماتة أو السخرية ببعض جيراننا ، الذين لا يوصفون بخلوص النية ، ولا يكرهون أن تشتد وتمتد عندهم هذه الحركات ، ويعتقدون أن مجرد التزلف الى الشعوب الاسلامية ، وادعاء المحافظة على حقوقهم ، هما مما يزحزح عنا نحن هذا الخطر الذى يتهدد غيرنا . ثم انهم لا يريدون أن يسمعوا كلام المتشائمين ، الذين تهجس فى صدورهم علاقات الاناضول مع التونسيين والجزائريين والمراكشيين ، والدسائس الجارية على الحدود الشرقية من سلطنتنا الافريقية . بل يقابلون مخاوفهم هذه بتصريحات الاتراك ، الداعية الى الركون والطمأنينة . ويعتمدون على الفشل الذى لقيه اعلان تركيا الجهاد فى الحرب العامة بمعاونة المانية . ثم يسليهم الفرح ، الذى يبديه لنا المسلمون من جراء خطتنا الحاضرة ، وينخدعون بكل سهولة بظاهر الشرقى ، الذى من شأنه كتمان سريرته تحت ستار الادب الغض ، والكياسة الزائدة . وينسون أن الاسلام المبنى على قاعدة الخضوع للقوة الغالبة ، تصلح له الصراحة وسياسة الحزم ، اكثر من سياسة التودد والمراماة عن حقوقه .

نعم ان السكون الذى نرى رواقه الآن ممتداً على ممالكنا الاسلامية ، قد يصوب الخطة المتبعة عندنا ، لانه على ضد ما هى الحالة فى الريف الاسبانيولى ، وبرقة الايطالية ، ومصر الانكليزية . ولكن النار توشك أن تصل الينا ان كنا لا نريد أن نلتفت جهة الشرق الذى منه انبعثت الحرب ، والذى حوادثه الحاضرة ليست الا مقدمات لما هو أعم وأطم .

سنة ١٨٩٧ أثبت كوبولانى ودپونت Coppolani et Depont فى كتابهما على الطرق الدينية الاسلامية ما كان من التأثير لانتصار الترك فى تساليا ، فقالا ان الامم الاسلامية كلها مادت طربا لبشائر النصر الذى أحرزه أبناء ملتهم . ولكن هذا الغليان لم يكن يومئذ ذا بال . لان اوربا كانت يومئذ قوية ثابتة متحدة ، وكان المارد الروسى ملقيا بكلكله الثقيل على جميع العالم الشرقى والاسلامى ، فلم يكن ليجرأ أحد من المسلمين على أقل حركة بالرغم من دسائس عبد الحميد ، ومن مظاهرات غليوم الثانى الولائية للاسلام فى الارض المقدسة . أما الآن فقد تغير كل هذا ، فان أوربا قد ضعفت ، وجرأة المقلقين قد تضاعفت ، والحركة القومية تعمل عملها فى الشعوب ، وموسكو بدلا من أن تكون هى ذات اليد الضاغطة على المسلمين اذا هى التى تعضد هذه الحركة وتظاهر أصحابها على التملص من النير الاجنبى .

ان الاهتمام الذى يراقب به العالم الاسلامى حركات الثائرين من مسلمى آسية ، لاجل التخلص من ربقة الغرب ، هو ارهاص لا يجوز الاستخفاف به . فان فوز شعب اسلامى على حكومة اوربية لا يخلو أبداً من رد فعل يمتد الى أقصى البلدان عن مرزح المعركة ، فلو رأيت جرائد الاستانة أيام انكسار الاسبانيول فى الريف كيف كانت تهلل وتكبر ، وتنشر فى صفحاتها الاولى بشائر نصر المراكشيين المسلمين ، وخرائط ميادين الحرب ؛ لقضيت العجب ، وانك لترى أقل اضطراب يقع فى برقه أو تونس أو سورية أو الهند مبالغا فيه أشد المبالغة فى الصحف التركية .

مع ذلك سياسة محاسنة الاسلام لا تزال ماشية ، على ما فيها من تضليل الافهام . ونبذ النصائح المبنية على التجارب ، ولا يبرح بعضهم معتقدين أن لا خطر من هذه السياسة ، وان كان ثمة من خطر فيكون على جيراننا فقط . ولقد اشتدت مجارى الحب والبغض بعد الحرب ، الى حد أن أصبح الانسان يرى الصواب فى عدم اقتحام غمرتها ، وبدلا من أن يبين الخطأ الفظيع الذى دلّ عليه الاختبار الطويل ، تجده يجتزئ بالتعديل الخفيف ، منتظراً أن تأتى الحوادث بما يبرّد حرارة تلك الاهواء .

واننا فى هذه الدسائس التى يوشك أن يصل الينا أذاها ، نحس بتأثير برلين ، فهناك النادى الشرقى المؤسس سنة ١٩٢٠ ، تحت حماية مجلس برلين البلدى والجنرال لودندورف ، يصدر جريدة لواء الاسلام بالعربى والتركى والفارسى ، التى الغاية منها بث الدعوة ، وتفسير حوادث اوربا وآسية بالشكل المناسب . ويضاف الى هذه العوامل الناشئة عن حالة الحرب ، عوامل أخرى للهيجان ، هى غير واردة توّاً ، بل هى من فطرة الاسلام نفسه . فقد تكرر مراراً ان ديانة النبى تحتم على أتباعها الاستسلام للقوة ، وأنها تجعل القوة خاصة الهية تجب طاعتها ولو كان صاحبها كافراً ، فالقوة من الله ومن ذا الذى يقدر أن يناهض قوة الله .

وان هذا المشرب المخالف لديدن الاوربيين ، الذين يندفعون بعامل العاطفة ، هو السبب الوحيد فيما نجده من انقياد أشد الأمم الاسلامية للفاتح الاجنبي . واكثر مايحدث من

الاغلاط فى سياسة هـذه الأمم ناشئ عن الجهل بهذه الحقيقة ، [١] فالاسلام لايخضع بفطرته الا للسلطة القاهرة . والسلطة والعلاء عنده توأمان . وعند ما كانت أوروبا متحـدة وكان هناك ما يسمونه بالمجتمع الدولى ، كانت مكانة أوروبا فوق أن تنازع ، وكانت الشعوب الاسـلامية واحداً بعـد واحد تلقى السلاح ، ولم يكن ثمـة منها الا بعض حركات عارضة ، وثورات منحصرة ، فكانت قوة الثائرين ، من مهـدى وزعيم لا تنبسط ولا على جميع القبائل المجاورة . ولما جاءت الحرب الـكبرى ، كنت ترى بنجابيي لاهور ، وهنود البنغاله ، وكافنبور ، ومصريي وادى النيـل ، والاعراب ، والبرابر ، والمراكشيين ، والبامباره [٢] يتجندون تحت رايات دول الحلفاء ، وان مليونا ونصف مليون مقاتل من المسلمين ، قاتلوا بمزيد البسالة عساكر خليفة استانبول وقيصر برلين . وهـذا النفوذ التركى الذى يعدونه الآن عنصراً ضروريا للنظام والسكون فى العالم الاسلامى ، لم نجد له أدنى دور يذكر فى الحرب العامة ، ولا استجلب للألمان أدنى حليف من المسلمين ، ولا أحـدث أدنى مشاقَّة للحلفاء . بل تبارى المشايخ فى مراكش والمغرب ، على نشر الفتاوى المضادة لابناء ملتهم من الأتراك . فلما أمضيت متاركة مودروس ، ووقف جيش الحلفاء الظافر عند الدانوب ، وجيش الانـكليز عند الفرات . كانت ديار آل عثمان تموج بالعساكر الاسلامية المقاتلة تحت ألوية الحلفاء ، وفتوى شيخ الاسلام ودعوة الجون ترك لم يسمعهما أحـد . وكان الشرق كله يتوقع أحكام أوروبا التى أبطأ صدورها ، وكان موطناً نفسه على الطاعة ، لـكن لم يطل الأمر حتى انصرفت الجيوش ، وظهر الضعف والتردد فى عزائم الحلفاء . فعادت الحركة الى الشرق وعاشت آمال أهله ، وعرفت ذلك احدى جرائد انقرة بقولها : « ان أوروبا حل بها الوهن بسبب التنازع ، ويد الله أخذت على أيدى الصليبيين الغالبين ، بينما كانوا على وشك اغراق المؤمنين بسيلهم » فنشط الاسلام ، ونزعت تركيا ومصر والعراق وأفغانستان والهند الى الثورة ، وعجل فى ذلك التحالف مع البولشفيك ، وشعرت الدول الغربية على أثر الخسائر التى أولدتها الحرب بخور القوى ، وبالحاجة الى مداخلتها الثائرين فى أمر الصلح ، وجنح الجميع الى الهوادة . فانـكلترة مالت الى الرفق بافغانستان وفارس

---

(١) أى كون الاسلام عبداً للقوة

(٢) جيل من أوائل بلاد السودان ينزلون بين صحراء افريقية من الشمال وأعالى السنيغال من الجنوب

والعراق . وفرنسا أبدت التساهل فى كيليكيا . وايطالية سلكت مسلك التؤدة فى طرابلس الغرب والبانية . فسكنت الأمور وهدأت الأحوال ، ولكن سقط جاه أوربا فى نظر الاسلام وتشجع الثائرون . ورأيت هذه الثورات بأجمعها مطبوعة على غرار واحد ، فانه يوجد على رأسها دائماً بعض مفكرين ، ينحون بزعمهم المناحى الغربية ، آخذين ببعض معلومات قرأوها ، وأساءت هضمها عقولهم مع قلة الخبر وشدة الكبر ، ثم من تحتهم أمة جاهلة ليست على سوية واحدة ، ذات أخلاق حسنة ، لكنها لا تحسن شيئاً غير اظهار احتياجها الى النظام والسلام . على أن لها من يثير ثائر عصبيتها ، من المشايخ والمرابطين المستولين على العقول والافئدة .

وفى مصر ازداد عدد المتعلمين من أطباء ومحامين ومهندسين وصحفيين ، ممن يريد تحرير بلاده ، وينتظر أن يحل محل الانكليز الموظفين ، فتحرج بذلك مركز انكلترة . ومما لا شك فيه ، أن مبادئ الوطنيين جديرة بالاحترام ، لكننا نراهم لا يريدون أن يعترفوا بفضل الاحتلال الانكليزى ونجدهم متمسكين بكلمات فارغة غير متوقفين عن انتقاد الأحوال الضرورية التى هى بنات التجربة ، ولا متجنبين أخطار التعصب وعداوة الاجانب ، بل مجتهدين فى تلقين مبادئهم هذه ذلك الفلاّح الذى أثرى ببيع قطنه ، ودائبين فى اثارته ، على ادارة ذاق بها طعم الراحة والسعادة .

هذا هو تاريخ الحركة المصرية ، وهذا ما يمكن أن يكون غداً سير حركة الاستقلال فى بلدان تهمنا أكثر من مصر . فان المسئلة الوطنية القومية قد بدأت تنمو وتتقوى عند جميع شعوب الشرق ، لا سيما العرب . ومن العبث أن نتجاهل ذلك ، ونحن الآن بعد مضيّ مائة سنة على فتحنا افريقية ، أخذنا ندرك الخطأ الذى ركبناه ، فى طريقة ضمنت لنا الفتح الحربى والفوز السياسى ، لكنها أهملت الفتح المعنوى الذى كنا نراه من القسم المستحيل . ومن اهمال هذا الفتح المعنوى ، تأتى المتاعب كلما اشتد الهيجان فى العالم الاسلامى . ففى الجزائر بالرغم من الصداقة والأمانة اللتين أظهرهما الجيش الوطنى أثناء الحرب كانت نتيجة انتخابات ١٩١٩ مما يوجب قلق الفكر فان الستمائة ألف وطنى ، الذين آتيناهم حق الانتخاب بموجب أمر ٤ شباط ، رشحوا بأجمعهم كل من عرف ببغض فرنسا ، وكان

من جماعة الأمير خالد [١] وكذلك الشبان ، الذين حصلوا العلم فى مدارسنا وتلقوا تربية أوربية ، كانوا أشد الناس مناهضة لقضية تجنيد الوطنيين . فاما العامة ، فهى باقية بعيدة عنا جداً من الجهة المعنوية ، ومنذ خفق العلم الفرنساوى فوق مرسى الجزائر ، تكوّن بين هذه الأمة وبيننا ثأر لم تعرفه من قبل .

لقد عظمت الأغلاط التى ارتكبها ولاة الأمور الذين تسلموا مقاليد الجزائر ، بالغائهم العمل بعادات البربر وعرفهم القديم ، وحملهم طراً على شريعة القرآن . ومن المسموع ، أنه كان فى ذلك الوقت ٨٠٠ ألف بربرى غير مسلمين ولا مستعربين . فالولاة من الفرنسيس مراعاة للشرط الذى وقع عند تسليم الجزائر ، من عدم مس الشعائر الاسلامية ، تجنبوا الى حد المبالغة ، الاخلال بكل ما يخالف هذا الشرط ، وظنوا أنه صار من واجباتهم حمل البربر على أحكام مخالفة لعاداتهم وعرفهم . وبدلا من أن يجعلوا هذه العادات القديمة الباقية للبربر من عهد الرومان قوانين مرعية نافذة ، عدلوا بهم عنها الى أحكام الشرع التى بأيدى القضاة والمرابطين ، وهكذا أوجدوا وحدة دينية قومية ، عجز فاتحو شمالى افريقية [٢] منذ ١٢ قرناً عن ايجادها . ولقد دخلت الاهواء والعواطف فى هذه المسئلة ، فلم يبدأ احتكاكنا بالاسلام ، حتى جعل الاسلام يستفيد من أصحاب العقول الشاذة عندنا ، ومن دعاة البدع والأمور الغريبة ، الذين أخذ بعقولهم ما فى حياة اتباع محمد من الكرامة والرصانة ، وما فى الصلاة فوق ركام الرمل ، من السذاجة المقرونة بزعمهم بالوقار والهيبة . وكانوا يستحلون تلك الحركات البسيطة الجليلة ، التى تزيدها جمالا وجلالا فى نظرهم ، هيئة برانس المسلمين أثناء صلاتهم . نعم اشتغل هؤلاء المفتونون بحب العرب بالأمور الصورية عن الأمور المعنوية ، وتناسوا حالة العربى النفسية ، وما عنده من الكراهة لكل مخلوق غير مسلم ، وما هناك من عقيدة القضاء والقدر التى هى عقيدة الجمود ، والتى لا تمتزج مع الاحتياجات العصرية .

ان هؤلاء المفتونين بالاسلام ، الذين يمرون بأقطاره سراعا ، يذكرون دين الرسول

---

(١) ابن الأمير الهاشمى ابن الامير عبد القادر

(٢) الفاتحون المسلمون

بمزيد الاطراء [١] وسنة ١٨٣٨ نهت جريدة « الدبا » عن تنصير المسلمين بحجة أن ذلك يفقدهم صبغتهم المحلية ، وأن ذلك مخالف للمصلحة . وفى أيامنا هذه كاتب شهير [٢] يلوم على تنصير البنات المسلمات فى سان لويس (فى السنيغال) ، بحجة أن الراهبات يغيرن لهن ملابسهن الوطنية التى هى أليق بهن . فأحكام كهذه مستعجلة ، لا تزال تقوى عاطفة الميل عند الأمة الفرنسية الى المسلمين ، الذين منهم عدد عظيم فى تبعية فرنسا ، وتحول دون رؤية عيوب الدين الاسلامى ، المستورة بظواهره الشعرية ، فلفظة اسلام ومغرب وحجاز وما أشبه ذلك ، كادت تكون ألفاظاً صوفية تأخذ بلب بعض الناس .

على أننا لا نكون هجمنا على الاسلام ، ولا تعرضنا لهذه الشعوب الاسلامية فى عقائدها المحترمة اذا كنا ننبه الناس الى أخطار ديانة ، من جملة برنامجها الحرب المقدسة ، وعداوة غير المسلم ، والتوحيد بين الشرع الدينى والقانون المدنى ، مما يجعل الامتزاج صعبا . وناهيك أن الشرع الاسلامى بمنعه الزواج بين المستعمرين الأوربيين والنساء المسلمات ، قد وقف سداً دون كل اختلاط بين الفريقين ، مع أن الجنس اللاتينى هو غير الجنس الانكلوساكسونى ، فان الجنس الساكسونى حينما حل بأمريكا وزيلانده الجديدة واستراليه لاشى العنصر الأصلى هناك ، أما اللاتينى فهو يهوى الامتزاج مع العناصر التى يجدها أمامه ، فجيوش تراجانوس اللاتينى امتزجت بأقوام الدانوب وتكونت منها أهالى رومانيا الحاضرة ، وأما بربر شمالى افريقية الذين هم ذوو قربى مع اللاتين ، فلم يكن بينهم وبين هؤلاء امتزاج أصلا ، بل تجد الفروق تتسع يوماً فيوماً بين الفريقين . كذلك ترى التقدم بطيئاً جداً ، فى الأمم الاسلامية التى فى شرقى أوربا وآسية ، لأن فقد حرية البحث يقضى على روح الانتقاد ، ويعزز عقيدة الاستسلام والرضى بأى شئ كان . لا نكون أهنا الدين الاسلامى اذا بينا حالة التأخر التى عليها الأمم التى دانت به ، لاسيما اذا تركت وشأنها . فان الاسلام يعارض التقدم العصرى بحواجز قوانينه المدنية والدينية ، وحصون شرائعه الاجتماعية ، وما هناك من الأوامر والنواهى . فلو كان بربر أفريقية يتبعون غير

---

(١) وذكر الكاتب هنا اسم رجل من هذا النفر اسمه دوكاسترى De Casteries له مؤلف فى الاسلام

(٢) ذكر اسمه وهو المسيو آدم P. Adam ؛ فى كتاب اسمه قرطاجنة Cartage

دين الاسلام لـكان مركزنا هناك أقوى مما هو اليوم ، واذا قررنا هذه الحقيقة فلا يكون مرادنا منها الاقتداء برومة فى حملها الأمم المغلوبة على قبول ديانة الفاتحين .

ان تلك الآراء الفاسدة المتعلقة بالاسلام ، هى عبارة عن استنتاجات غير صحيحة ، من مقدمات واهية صارت عند البعض حقائق كلية . ومن جملة هذه النتائج الباطلة ، كون المسلم لا يصبأ عن دينه . فهذه الفكرة مع خشية فوران التعصب مما هو وهم بحت ، حمل رجال الحكومة الفرنسوية فى الجزائر منذ بداية فتح فرنسا لهذا القطر ، على معارضة مساعى جمعيات التبشير الفرنسوية ، الرامية الى تنصير المسلمين . حتى انهم كانوا يجعلون حرّاساً على أبواب الكنائس لمنع المسلمين من غشيانها . وكان قسيس عربى من سورية دخل الجزائر وصار له نفاذ عظيم بين أبناء جلدته (١) فطردته السلطة الفرنسوية من هناك . وبالجملة فقد حملوا الأهالى على الخضوع لأحكام القضاة القرآنية ،وتوقف بذلك سير حركة التنصير ، التى كانت قد بدأت بين البربر غير المتدينين . ثم لقيت مجاهيد الراعى جالابرت (Le Pasteur Galabert) فى مدينتى القصور وبجاية ، ومساعى الكردينال لافيجرى فى افريقية لأجل التقريب بين الوطنيين والأمة الفاتحة حذراً شديدا وأصبحت تلك المشروعات على شفا السقوط ، ولم يفهم بعضهم فوائدها ولاغاياتها الانسانية ، بل كانوا من شدة خوفهم أن تكون حركة دينية ، يضعون العراقيل فى وجه هؤلاء المبشرين ويطعنون فى المتنصرين ، ويصمونهم بجميع عيوب قومهم ، مضافة اليها عيوب الأمة التى دخلوا فى دينها فزعموا أن الرجال من المتنصرين هم من طبقة السكيرين المدمنين ، وأن النساء المتنصرات هن من الغانيات المتهتكات ، وغاب عنهم ان الهيئة الاجتماعية الاسلامية مع ماهى عليه من شدة التستر، فيها عيوبها ، وأن عيوب المتنصرين ، كان تخفّ جداً لو كثر سوادهم وصاروا جماعات .

بعد أن مضى قرن على فتح فرنسا للجزائر ، تضاعف عدد الوطنيين فيها واضمحلت العداوة التى كانت بين العرب والبربر . وترانا لانقدر أن نعتمد على أقلية غير مسلمة كما يعتمد الانكليز على القبط بمصر . ولهذا مثيل فى مستعمرات هولانده ، التى صار فيها مركز هذه الدولة حرجاً ، فقد كان مسلمو الجاوى وبورنيو وسومطره لأول فتح هولانده تلك الجزائر ، خمسة ملايين ، فصاروا اليوم ٣٠ مليوناً ، ولم يكن للاسلام ثمة بادئ ذى بدء الا

(١) أى عرب الجزائر

تبع قليل ، فصار الاسلام فى هذا الزمان سيد تلك البلاد . وتجد المسلمين هناك تحت ادارة فئة قليلة مستنيرة من ذوى الاطماع ، متحفزين لرفس وصاية هولانده الأبوية . فأما أرخبيل الفيلبين الذى أهله تنصروا لعهد الاسبانيول ، فان مطالبهم الاستقلالية بادية بشكل معقول بخلاف بلاد الاسلام التى تلاقى حركة الرقىّ فيها ، روح الفوضى والاختلاط التى هى من خاصيات الجماعات الاسلامية اذا تركت وشأنها . ان شبان الاسلام فى آسية الغربية ، يريدون أن يشبهوا قابليتهم للترقى بقابلية اليابان ، ويدّعون أنهم يقدرون على ماقدر عليه اليابان فى الأمور الاجتماعية والاقتصادية ، وينسون أن اليابان لم تكن لترقى هذا الرقىّ العجيب لو بقيت مقيدة بأثقال العقائد القدرية ، ويغفلون عن أن التجدد السياسى لابد أن يسبقه التجدد الاجتماعى .

ماعدا مدة قصيرة للأمويين فى اسبانية وللعباسيين فى بغداد ، لم يوفق الاسلام فى وقت من الأوقات الى تأسيس مدنية خاصة به ، بل جميع أجيال أمة محمد لم تلاحق مجهودا يأذن لها بتوليد عقول كبيرة . بل ان الخصائص التى اشتهرت بها هى خصائص التدمير ، سواء للمدنيات التى وجدتها أمامها ، أو التى حصلت فى داخلها . ومادام السيف فى يد الاسلام كان الاسلام قادراً أن يجرى أحكامه ، فلما قضت الأيام بأن تصحب قوة السيف قوة أخرى هى قوة العلم ، سقط الاسلام . واليوم لأجل أن يزحزح نير الغرب عن عنقه ، نراه يدرك قيمة العلم ويقدر قدر الثقافة الأوربية ، ولكن أكثر مايريد أن يأخذ من أوربا هو صنعة السلاح . ثم اذعلم أن صناعة الأدوات الحربية لاتكفى ، عاد يطلب الاسلحة المعنوية فصارت المطبوعات للمسلم سيفاً ذا طبع آخر يستله فوق رؤوس غير المؤمنين . وتجد الجرائد الاسلامية تتكاثر بمصر ، وتركيا ، والهند ، والجاوى ، والمستعمرات الانكليزية والفرنسوية وكذلك جرائد أخرى تصدر فى الولايات المتحدة ، والبرازيل ، والارجنتين ، عربية سورية وأرناؤوطية . وفى برلين يظهر لواء الاسلام ، وفى باريز ولندن ورومة تصدر جرائد اسلامية جديدة أيضاً ، تبحث فى الشؤون الاسلامية . ومنازع هذه الصحف تختلف باختلاف المراكز التى تصدر فيها ، فجرائد الشرق وجرائد أميركا وبرلين تمتاز بشدة اللهجة وفرط العداء ، وأما جرائد العواصم الأخرى فمزيتها ، لطف اللهجة وبراعة الطلب والكلام المعقول ، ولكن الهدف واحد ولو تنوعت الأساليب ، وهذا الهدف هو تقوية روح

التكافل بين الأمم الاسلامية ، ونشر الاسلام وتحرير أبنائه وزرع بذور الشقاق بين الدول الغربية لأجل تيسير فوز المشرق .»

— ٢ —

الاسلام الأسود

قال بينغر Binger : ان درجة حرارة المسلم الأسود هي على قدر ظاهر لونه ، فالعصبية الدينية العميقة التي تجدها عند المغاربة والأقوام السامية الأصل ، الساكنة فى جهات نهر النيجر وبحيرة تشاد ، لاتجدها عند المسلمين من أبناء اللون الأسود ، مثل البامباره Bambara والسيره Serès والبورو Boros ، الذين عندهم تساهل عجيب فى ممارسة شعائر دينهم . وماعدا حركات محدودة من آثار دعوة المرابطين ، ومن اجتهادات الحاج عمر واحد و بين السنيغاليين والفولبي Fulbés ، والسونينكه Soninké ، الذين فيهم شيء من الدم البربري ، لم نصادف فى افريقية السوداء حربا دينية ، ولا مقاومة أصلها عقيدة القضاء والقدر .

وان عقيدة السنة والجماعة فى افريقية الغربية ، مختلطة عند الأهالى مع عاداتهم القديمة ، ومع الأوضاع الفتيشية كالطلاسم والرقى . وقد أورد بينغر مثلا على ضعف حرارة المسلم الأسود قضية ساموري ، الذى بالرغم من كونه مسلماً ديناً ، أكل بدون تحرج من لحم ثور ذبحه العسكر السنيغالى ، على شكل يخالف الأوامر القرآنية ، فمثل هذه المخالفة تعد اثماً كبيراً عند مسلمى الشمال . ثم ذكر بينغر مثلا آخر وهو أنه كان أسود مسيحى يظهر الاسلام أحياناً ليستفيد من الرخص المعطاة للمسلمين فى عيد المولد النبوي أو العيد الكبير .

فهذا الفتور فى تمسك الزنجى بديانة يتمسك بها بأقصى الشدة ، الساميون والتورانيون ، يعده بعضهم دليلا على انحطاط عقل الزنجى وفقد قوة التمييز عنده ، والصحيح هو غير ذلك . بل الزنجى رجل حليم ، واسع المشرب ، سهل القياد ، قريب المأخذ ، مع حسّ صادق ومنزع عملى ، وميل الى الخير يجدر بابناء ملته من البيض والصفر أن يقتدوا فيه به . وهو يمتاز بعدم التشدد فى اقامة شعائر دينه ، وبالتساهل مع أبناء الأديان

الأخرى . وفطرته السليمة تمنعه أن ينظر الى الأبيض نظره الى رجل ذاهب الى النار ، بل هو يرى الأوربى من الرقى والتفوق ، بحيث لايصدق أبداً ان مثل هـذا الأبيض يمكنه أن يخطئ . ولاشك فى انه بحسب ميله للانقياد والانطباع لو صار به قليل عناء ، لـكان يتقبل دين سيده الأبيض ، الفاتح لبلاده ، بشرط أن هذا الفاتح يدعوه لذلك (!) وان كنت تراه يدين بالاسلام فهذا لظنه أنه ينال بذلك رفعة ، مع أنه أولى به أن يتنصر اذ الأوربى عنده أعلى من المسلم ، ومهما كان يرى من عزة المسلم ، فهو يعلم أنها ليست شيئاً بالقياس الى عزة أوربا .

وعليه فينبغى أن نعلم أن اسلام السودان هو سطحى قائم بصور ظاهرة فقط ، ولأجل تعليل هذه القضية التى لاتوجد الأئمة ، زعموا وجود علل أخرى غير ذهنية الزنجى نفسه ، فذكروا تأثير الاقليم والعادات والبيئات ، وقالوا ان البـلاد الشمالية من الـكرة هى غـير مساعدة على انتشار الاسلام ، لأن طول النهار المفرط وقصر النهار المفرط يحدثان اختلاطاً عظيما بعـلم الميقات القرآنى ، فصلاة الظهر وصلاة العصر تختلطان مع صلاة المغرب وصـلاة العشاء هنالك ، فيتطرّق الشك الى قلب المؤمن . ففى أواسط افريقية الحالة أيضاً هى مشابهة لتلك الحالة ، فالأنهار والشجر الـكبار التى يعد بها القرآن المؤمنين ، هى فى هذه الأصقاع من الـكثرة بحيث يصبح هذا الثواب لاقيمة له . فالاسلام لأجل نجاح دعوته محتاج الى صحارى واسعة تتجلى بها عظمة الله تعـالى كصحارى آسية الوسطى ، أما فى خط الاستواء فالاسلام مركزه قلق ، لأنه ينحصر ثمة فى الآفاق الضيقه بين الغابات الملتفة ، حيث يصعب على المؤمنين معرفة القبلة ، فيعدلون عن شعائر الدين . على أنه مهما فرضنا كون شعائر الاسلام سليمة فى الظاهر نتساءل ، هل يوجد لنا مصلحة فى تمـكينه يمتد وينتشر بين هذه الأقوام ، لابل فى أن نعترف به ديناً رسميا لمن دان به منهم . سيحصل لعمرى فى غربى افريقية ماقد حصل فى الجزائر ، ويمتد الاسلام وينتشر بسببنا (!) وتحت حماية أسلحتنا عند أقوام أشداء لم يزالوا منـذ قرون يرفضون الاسلام ، الذى يأتيهم به تجار الرقيق من العرب ويحبطون فتوحاتهم الدينية والعسكرية . ونحن كلما أوغلنا فى تلك الديار ازداد الاسلام بسطة . وقد أرادوا تأويل ذلك بأسباب عديدة منها ، كون العربية لسان الرسول القرشى هى لسان التجار الجائلين بتلك الأقطار ، ومنها أن مبادئ الاسلام تطابق عقيدة

الاستسلام للقدر التى عليها الزنجى ، ومنها أن هذا يميل الى بساطة الاعتقاد وتجذبه سذاجة الشعائر ، وقالوا ان ممارسة هذه الشعائر ، سهلة طبعية ، ثم هناك لذات النعيم التى يحبها هؤلاء الهمج عامل آخر ، ومعلوم انه لأجل أن يكتب المرء مع السعداء يكفيه لفظ كلمة لااله الاالله ، فانه بها يصير مسلما بدون أن يشعر . وعززوا هـذه الأقوال بأن عقائد الأور بيين تنافى البساطة ، وان شعائرها صعبة ، وان آدابهم كثيرة التجريد ، وفيها تحريج كثير على اللذات الحسية ومنع لتعدد الأزواج ، وبالجملة فقالوا ان الاسلام وجد ديناً موافقاً للزنجى كما وجد موافقاً للعربى ، ومن العبث الاجتهاد فى وضع دين آخر محله فى تلك الأصقاع . فهذه الظنون التى صارت قضايا مسلمة لم توضع موضع الحك والنقد ، ولو محصت لثبت أن ليس بصحيح كون الاسلام هو العقيدة التى تلائم الأسود الخالص أكثر من سواها ، فان أقلية مهمة من السنيغاليين قد أمكن تنصيرها . و بلاد الأوغانده صار أهلها كلهم نصارى . أما كون العرب والبربر يأبون كل دين غير الاسلام ، فلنا من القبط والحبشة مثال كاف لاثبات كون الاسلام ليس ذا تأثير عليهم الى ذلك الحد .

فثلاثة أرباع الحبشة وهم جنس آمهاره Amharas ومعهم أقلية بربرية وزنوج ، لبثوا متمسكين بالنصرانية بالرغم من تلاطم أمواج الاسلام فى جوانبهم . وأحسن من ذلك أن بلاداً بأسرها مثل هرر كانت أسلمت بعد ثورة الدراويش ، فعادت الى النصرانية بعد ظفر النجاشى منليك بالأمير عبـدالله سنة ١٨٨٤ . ولقد بقيت الديانة المسيحية والقومية الحبشية متحدتين كما هو الشأن فى الشرق ، بأن الديانة والقومية تسيران معاً ، وحفظتا استقلالهما أكثر من الف سنة . و بينما قبائل بربرنا فى الجزائر وأمم البويل Peuls والفولبى Fulbés ، الذين هم من جنس بربر الحبشة مشتتون هباء منثورا بسبب عقيدتهم الدينية ، الداعية الى الـكسل والخمول ، رأيت الحبشة بأمانتها لدينها ، واقفة فى وجه الفتح العربى . وتمـكنت المسيحية ان تعيش فى وسط هـذه الأمم الزنجية والبربرية ، وان كانت شعائرها هناك لاتزال معقدة ، لأنها ممتزجة بعقائد يهودية ، وعادات بيزنطية ، فالاكليروس (طبقة القسيسين) له فى الحبشة نظام صارم ، وهو تابع للـكنيسة الأرثوذكسية فى الزواج ، وعزوبة الـكهنة ، ويخرج القسيس فى المراسم الدينية بالأثواب المزركشة بالقصب بين قرع الطبول ونقر الدفوف . فالحبشى بهذه العادات هو بعيد اذاً عن سهولة الشعائر الاسلامية

وهو يصوم صوم المسلمين الشاق ، واذا بلغ الكبر يترهب فى دير . فمن هنا يظهر بطلان قول البعض « ان النصرانية شديدة التعقيد ، شاقة التكليف ، كثيرة المعانى المجردة بالنسبة الى مدارك الزنجى الساذج ، فهى تخالف ظروف حياته وتبطل نظام اجتماعه ، ولذلك فالأسود المتنصر هو أسود مقلوع من أصله ، حال كون الأسود المسلم هو مسلما بطبعه . »

فانت ترى أن النصرانية قد رسخت عند الامهاره ، الذين هم من قبيل السنيغاليين والبربر والبويل بدون أن يكونوا مقلوعين من أصلهم ، وتجدها تنمو هناك كما ينمو الاسلام ، وعقيدة أو توخيوس [١] تتلوّى هناك مع الزمان والمكان كالاسلام الذى يناسب الامم الفطرية مثل الأمم السوداء : واذا كان عمل المبشرين شاقا فى البلاد السودانية والاسلامية ، فانما هو لكونهم يريدون وضع عقيدة امم راقية جدا محل عقائد أقوام هم فى أدنى الدركات (تأمل) ، أما النصرانية ، كما كانت فى القرون الأولى ونصرانية الحبشة الحاضرة ، فنشرهما ممكن بسهولة نشر الاسلام ، الذى كان نجاحه بسبب المستوى العقلى الذى عند ناشريه ، لا لسبب معالى عقائدهم (تأمل أيضا) .

لا شك ان الزنجى عندما يدين بالاسلام يتقدم تقدماً محسوساً ، فبعض أرباب الخيالات الذين لا يحبون أن يروا الا المحاسن ، يجدون فى الاسلام الامتناع عن المسكرات ، وتهذيب الاخلاق ، وترقية سوىّ الحياة ، واعلاء حال المرأة فى الاجتماع ، فيشيرون بالسعى فى نشر الاسلام بين أمم الفتيش فى مناطق خط الاستواء ، وكأن من طبيعة هذا العصر ، ان الناس يقدرون قدر المذهب بنسبة درجة نجاحه بدون تأمل فيما يجر اليه من العواقب ، فحمل الزنجى على الاسلام هو من باب الرفع الى أسفل ، وهو من قبيل المداواة بالطلاسم والرقى ، مما هو وخيم العاقبة (تأمل) . ان اساس الدين الذى يدين به المسلم وتصطبغ به نفسه مهما كان حليما ، والذى لايعرفه الا ذوو الخلطة والخبرة الطويلة ، ان هو الا عامل ثورات مستقبلة ، من مصلحتنا ان لانتركها تفعل مفعولها . حتى ان هؤلاء المتهوسين بالاسلام أنفسهم ، يقفون حيارى احياناً عندما يرون من الجماعات الاسلامية ، تلك المطامح التى لا تقف عند

(١) عاش فى القرن الخامس للمسيح وكان يقول ان ليس فى المسيح سوى طبيعة الهية ، خلافاً لقول نسطور ، الذى كان يقول أن ليس فيه الا طبيعة بشرية وكما حرمت المجامع قول نسطور ، حرم المجمع الخلقيدونى قول اوتوخيوس وقرر الطبيعتين ، ولكن القبط والحبشة تابعون لمذهبه

حد ، وهاتيك الاحقاد المتأصلة فى نفوسهم .

أما البعض الآخر فقد هالهم هذا النزوع الاسلامى الى الثورة ، فانتقدوا طريقتنا فى بناء المدارس والمؤسسات الاسلامية والترغيب فى لغة القرآن ، وأوضحوا عظيم الخطر الناشئ من تضامن الشعوب الاسلامية ، ودهشوا من قضية ارسال معلمين جزائريين لتعليم العقائد الدينية فى جنة وتمبكتو [١] وهؤلاء النفر يقولون انه لا يكون من باب مس كرامة الاسلام ، ولا من السعى فى نقض مبانيه ، ولا من حجز الحرية الدينية اذا اتخذنا التحوطات اللازمة بازاء أخطار الحالة الحاضرة ، لا سيما ان هـذه المسامحات التى لا يجبرنا عليها أحد لا تقربنا زلفى الى الأمم الاسلامية ، وانه ليس للحكومة أن تدخل فى حياة رعاياها الخاصة ، بل عليها أن تأخذ حذرها من ديانة ، هى فيما عدا بعض مبادئ نادرة فيها شئ من السماحة ، يمكنك أن تختصرها بهذه الجملة « قاتلوا الكفار واستعبدوهم واطرحوهم فى الارض »[٢]

فبين آراء المقاومين المتشددين وآراء المتهوسين الميالين الى الاسـلام ، يوجـد مكان لعمل معتدل حازم ، وهو انه لا ينبغى أن يسار على سياسة اسلامية واحدة ، بل على سياسة متعلقة بالظروف و بالبلدان و بدرجة حرارة الاهلين ، فيمكن تنكب طريق قهر الاسـلام بدون السعى فى تأييـده . واذا أيدنا فى مستعمراتنا سلطة ادارتنا الملكية ، وجعلناها فوق الشريعة الاسلامية ، كان ذلك خطوة أولى فى منع انتشار الاسلام بين الاقوام ، التى لم ترسخ قدمه بينهم . ولـكن مادام القاضى الاوربى يرسل القضايا المعضلة ، التى يعجز عن حلها الى القاضى المسـلم ، وفى المسائل التى يتناكر فيها الخصمان ولا تمكن معرفة الصحيح بينهما ، يحيـل القضية على اليمين كما فى القرآن ، وهى طريقة بسيطة تـكفى أولئك القضاة مؤونة التدقيق لتهيئة الحـكم ، فنـكون قد جعلنا للقضاء الشرعى نفوذاً ليس من الحـكمة فى شئ ولا سيما فى هذا الوقت . كذلك تتحتم المراقبة الخفية للمشايخ والمرابطين ، الذين بين الزنوج المستعدين لقبول الدعوة الى الثورة ، فانه كما قال سنة ١٩٠٥ الحاكم العام بونتى Ponty :

(١) تمبكتو فى أول السودان الغربى مشهورة ، اما جنة فهى مدينة بالسودان على مسافة ٣٠٠ كيلو متر الى الجنوب الغربى من تمبكتو ، وعلى ١٦٠ كيلو متراً الى الشمال الشرقى من سيغو وسيكورو ، وأول أوربى دخل جنة هو رجل فرنساوي اسمه رينيه كاليه سنة ١٨٢٨

(٢) أين وجد هذا ؟

زيارات الغرباء القادمين من المشرق بحجة الصدقات مضرة ، اذ هؤلاء يجوبون بلاد السنيغال والبويل والسونينكه ، دعاة كثيراً أو قليلا الى الجامعة الاسلامية ، ويدّعون انهم شرفاء ، ويلبسون عمائم خضرا ، وكلما حدث هيجان اسلامى كانوا هم المشحذين لغراره ، والمذيعين للاراجيف . ولا ننس حج مكة فانه فى الآونة الحاضرة ، يؤثر تأثيراً مضرّاً بنا بين رعايانا المسلمين ، ومع هذا ، فالبعض غافلون عن منع حج رعايانا الى مكة وعما يحدثه هذا السفر من أسباب تشويش اذهانهم ، لما يستمعون فيه من الأخبار الملفقة عن وقائع البلاد الاسلامية ، فتى آبوا الى ديارهم عادوا أقل ميلا الينا . فان الحاج يسمع فى الحجاز أنباء عن جيع العالم لم تطبع فى صحيفة والاوربى مصوّر فيها بشكل ظالم غاصب (استغفر الله ...) لا تحصى سيآته والمسلم مصور بشكل غالب ظافر لا بد أن يأخذ بثاره . كما ان الطوائل التى أحرزها بعض الشرقيين تروى هناك بالمبالغة والغلو ، ويتفاءلون فيها بعودة الايام ، التى كان فيها العلم الاخضر منصوراً خفاقا فوق رؤوس الامم ، المغلوبة . وهناك المشعوذون المترنمون بنصرات الغازى (أى مصطفى كمال) واهلاكه الكفار كما أهلك المسلمون قريشاً يوم بدر . وكل هذه الوقائع تبرز فيها قوتها المخيلة الشرقية بشكل رائق رائع ، فيذهب الحاج من مستعمراتنا أمينا لنا ويعود غيرما ذهب ، بل تتبدل نفسه ، ويصير مبتهجا بنصرة أبناء ملته ، وتقوى فيه روح التضامن الاسلامى ، فيفرح بفوز أتباع محمد ، ويتمنى لهم الظفر النهائى . وبعد ايابه الى وطنه يستحيل أن لا يلقى الى بعض أهل بلده ولو نجيا ما سمعه فى مكة ، وحيث يكون نال لقب حاج فلا بد له من الاجتهاد فى اثبات أهليته لهذا اللقب ، هذ عدا ما يحمله معه من القصائد والجرائد والحاسيات التى يوزعها على أبناء وطنه ، وان كان ممن يعرف الكتابة راسل من تعرف بهم من الحجاج مكرراً لهم آيات الكتاب المقدس حول الحجر الاسود .

وينضم الى هذه التأثيرات السيئة نفوذ الطرق الصوفية فان دورها مهم . وربما كان لها القول الفصل فيما لو هبت العاصفة المتهيئة دائما للهبوب فى جو الاسلام . فان أتباع عبد القادر الجيلانى ولى بغداد مالئون افريقيتنا ، وهم هؤلاء التيجانية ، الذين كانت لهم اليد الطولى فى ثورة السينيغامبيا عندما قام بها الحاج عمر . ولهم زوايا فى باماكو ، وبافولاب ، وسيغو ، وجنة ، وتمبكتو ، ولهم وسيلة مع السنوسى فى طرابلس ، فكل هؤلاء المتحمسين

دعاة ثورة وعداوة للاور بيين . لا ينكر أن بعض الطرق قد أفادتنا فى الجزائر ومراكش وغربى افريقية ، وكان نفوذ رجالها السامى موافقاً لنا ، وهؤلاء مثل الشيخ سيديا ، والشيخ سعد بو ، والمختار الكنتى ، الذين هم فى موريتانيا (غربى مراكش) و بلاد النيجر . فقد كانوا معنا فى فتح تلك البلاد ، ولكن مساعداتهم هذه هى نوع من الأعمال التجارية ، التى يريد أصحابها دائما بقاء التوازن لأجل استدرار فائدته . وأما الخطر الأعظم ، فهو خطر الطرق الاسلامية التى مراكزها الأصلية فى غير مستعمراتنا ، كبلاد العرب والعراق وطرابلس لأنها خارجة من يد نفوذنا .

هذه على وجه الاجمال العوامل المضرة التى سلطنتنا الافريقية معرضة لها . ولاتقاء ضررها وصف الناس أدوية كثيرة ، منها علاج جمع كل الآراء وهو نشر اللغة الفرنسوية ، فهو أمر ضرورى وهو رأى لوشاتليه Le Châtelier الذى يقول : « يوم لا يبقى اللسان العربى هو لغة التجارة فى افريقية ، لا يبقى خطر من جهة الاسلام لأن مدارسه تصير قفرة » . وهذا هو رأى پول برت Paul Bert الفسيولوجى المعروف القائل : « حل المسألة العربية هو فى الكتاب ، وأتمنى أن أرى فى كل قرية مغربية معلماً عربياً ومعلماً فرنسياً » وهو أيضاً رأى الرحالة قاتل أمور افريقية علماً بينغر . وهو كذلك مشرب الكردنيال لافيجرى مؤسس جمعيات التبشير الذى قال : « لا حاجة بنا الى الدعوة لنفس الدين ، بل الحاجة هى الى التعليم والتمريض »

واذا نظرنا الى درجة انتشار لغتنا فى الشرق بين أولئك الأقوام والأمم المختلفة ، نأسف كيف لم نقدر أن ننشرها فى مستعمراتنا كما هى منتشرة فى الشرق ، وأغرب منه أنه لو كان علمنا انتشر فى مستعمراتنا بالسهولة التى انتشر بها فى السلطنة العثمانية ، لربما كان أناس يحتجون على ذلك قائلين ، يجب على حكومتنا أن تبقى متحايدة . مع أنهم يرون أن البعثات الفرنسية فى البلاد الاسلامية ، التى كالأناضول وكردستان والعراق وفلسطين قد نجحت نجاحاً تاماً بدون ايراث أقل قلق فى سلطنة آل عثمان الكريمة ، الرحبة الصدر ، وقد حصرت همها فى تعليم لغتنا للروم والأرمن والكرج واليهود والمسلمين والكاثوليك ، وجميع هذه الأجناس التى جمعتها فى عالم ثقافتنا . ولم يثر ذلك فى البلاد التركية ، ولا العربية ولا الفارسية شيئا من العصبية التى خيف من اثارتها فى الجزائر . ثم هذه مصر التى هى

تحت الحكم البريطانى ، تعرف لغتنا كما تعرف لغتها العربيـة . أما الجزائر فانها تجهل لغتنا تقريباً . ليس مقصدنا بهذا أن نوجد فى مستعمراتنا نخبة علماء ومفكرين ، اذ يجوز أن ينبغ فيها أدباء راسخون ، وأرباب عقول سامية ، لكن يخشى أن يظهر من هم متعلمون نصف تعلم تكون لهم مطامع ومآرب (تأمل) انما المقصد هو وضع لغتنا التى هى عامل مدنيتنا موضع لغة أخرى ، (أى العربيـة) هى قاعدة ثقافة أخرى وفكرة أخرى ، ان فرض معرفة العربى على عمالنا فى المستعمرات هو حسن ، لكن اغناءهم عن العربى بتعميم اللغة الفرنسية كما فى الشرق هو أحسن .

* * *

— ٣ —

الاسلام عند السنيغاليين

تجد السنيغالى فى بيته كما هو فى تابوره ، مرن الأفكار بعيداً عن التدين المشهود عند الجزائرى والمراكشى ، اعتقاده بالخرافات أكثر من اعتقاده بالدين ، مهتم الا ماندر بأمور معيشته أكثر من اهتمامه بالمذهب الدينى . وترى أنه فى جميع مواطن الحرب لم تفلح لدى السنيغاليين دعوة الجامعة الاسلامية ، وقد احتك هؤلاء بالاسلام فى البلاد العربية [١] ولم يحدث بذلك عنـدهم أقل انحراف ، بل بقى السنيغالى بسيطاً ، طيب السريرة أمينا لرؤسائه ، ولم تؤثر فيه تحريكات شيوخ الدين ، الذين طالما أثروا بعساكر الهند الانكليزية وفر هؤلاء على أثرها ، فالسنيغاليون لم يفر منهم ولا واحد الى العـدو ، لا فى سورية ، ولا فى كيليكيا ، ولا فى جميع الشرق الأدنى .

ان العرب والتورانيين يزدرون بالاسود ، وهذا الاسود يقابلهم على ذلك بالانفصال عن دياناتهم عند ما يختلط بهم ، وهذا أمر واقع سواء فى الشرق أو فى شمالى افريقية. وترى السنيغاليين فى الاستانة والأناضول لا يدخلون الجوامع ، ولا يخالطون المشايخ ، ولا المفتين ولا يحملون فى حقائبهم أوراقاً مضرة ، ولا بطائق من وارد بلاد الاسلام متضمنة مدائح الغازى غالب الكفار . وان العداوة بين الأهالى والسود فى شمالى افريقيـة وان لم تاخذ

(١) أى فى سورية والأناضول والاستانة

شكلا حاداً ، هي السبب الكافل عدم امتداد دعوة سياسية بينهم . وفى نفس السنيغال لا فى الجيش فقط ، لم يمكن التعصب الاسلامى احداث أقل عدوان لفرنسا ، بل بالعكس ، الاسلام فى تلك البلاد الى الوراء لا الى الأمام .

على أنه اذا كانت سذاجة هذا الجنس وسلامة عقولهم ، لا تجعلان فى جيشنا خوفا من دعوة الجامعة الاسلامية ، فلا يجوز أن نهمل التحوطات اللازمة لاتقاء روح سارية فى أماكن أخرى . فالأطباء يعلمون أن أحسن واق من أمراض المستعمرات ، هو تعاطى الاسباب المانعة لظهورها ، فكما أن العمال فى بلادنا الاسلامية يجب أن يعلموا منازع ديانة الأقوام الذين يولون عليهم ، كذلك القواد الذين دأبهم تعليم الجنود المسلمين يجب أن يعرفوا القواعد المبنى عليها الاسلام ، وما ذا يوجد فى أدمغة أتباعه . وعلى القائد أو الضابط أن يميز جيداً بين الاسود الذى هو مسلم حقاً ، من الاسود الذى اسلامه سطحى . فينبغى أن نعرف عناصر الاسلام المختلفة فى ممالكنا الافريقية ، لتمييز بين العناصر القابلة منها للاثارة ، والتى هى غير قابلة لها ، ثم أن نعمل فى السنيغال احصاء نجدده كل مدة للأجناس والأديان ، لنعلم تطورات الاسلام هناك ، والميول الروحية التى عند عساكرنا السنيغالية . ومن المهم أن نعرف ما هو اعتقاد الجزائريين بالسنيغاليين ، لأن هؤلاء فى نظر أولئك ، هم القوة التى وكل اليها توطيد السكينة فى شمالى أفريقية ، ولا ترى ذلك محدثاً عندهم أدنى غضب لأن من طبيعة المسلم أن يطيع دائماً القوة القاهره ولا يحنق من التدابير المتخذة بحقه ، والجزائري ولو كان يحتقر الاسود ، ينظر بدون حقد ، بل بعين الرضى الى ترتيب توابير السنيغاليين و بالاجمال المسلم السنيغالى فى سلك الجندية لايمارس فرائض دينه . وقد جرت العادة الى اليوم بان لا يعارض فى أمر دينه كصوم رمضان ، والاحتفال بالأعياد ، واقامة الصلوات ، وأن يترك هذا كله لارادته . وكلما قل التعرض له فى هذه الأمور كان خيراً . وكذلك لحظ أنه من العبث حمله على مراعاة فروض دينه ، أملا باستمالة المسلمين بهذه الواسطة ، فالمسلم أثناء الخدمة يفهم الضرورات التى تمنعه من أداء تلك الفرائض ، وهو يتعجب من اهتمام الأوربى بديانة المسلم أكثر من اهتمامه بديانة نفسه . انه من الواجب اذاً أن يراقب من العساكر السينغالية من يفرطون فى مراعاة شعائر

دينهم [١] ولعمرى ، أى فرصة أحسن من وجودهم فى الخدمة العسكرية لتعلم لغتنا ، إنها أحسن من كل المعلمين الذين يريد بينغر ارسالهم الى غربى افريقية . والذى حصل الى اليوم من النجاح فى هذا الباب ليس بقليل فاذا كان الضباط فى الجزائر مضطرين أن يتعلموا لغة جنودهم ، ففى السودان الضباط يجهلون لغة جنودهم ، فهؤلاء مضطرون أن يتعلموا لغة الضباط ثم هناك ضرورة أخرى لتعلم الفرنساوى ، وهى جهل الجنود أنفسهم بعضهم لغات بعض لأنهم من أصناف وألسن مختلفة ، فلا حيلة لهم أن يتفاهموا الا باللغة الفرنسية .

ومما جرت عليه القيادة ، اجتناب تكتيب الكتائب ، على صورة يكون فيها العنصر الاسلامى غالباً ، فتجد السنيغاليين مشتتين بين الجماعات الفتيشية والمسيحية . وهاك على ذلك مثالا : فى مدينة فيلبفيل بالجزائر يرابط الآلاى الخامس عشر السنيغالى ، الذى عدده ١٧٠٩ جنود ، فتجد فيه ٥٤٢ مسلما و١٣٢ مسيحيا و١٠٣٣ فتيشيا أو غير تابع لمذهب خاص . والتابور ١٣٦ الذى بمدينة الجزائر ، الذى عدده ٤٨٩ جنديا فيه ١٤٥ مسلما و١٨٢ مسيحيا و١٦٤ فتيشيا ، فازدياد عدد المسيحيين من يوم الى آخر هو ثمرة مساعى المبشرين والمؤسسات الخيرية . وتجد فى بيسكرة (بالجزائر) راهبات مستشفى لافيجرى يربين صغار السنيغاليين . انه الى يومنا هذا لم تدخل حكومتنا بصورة رسمية فى قضية تنصير السنيغاليين ولا تزال مظهرة الحياد فى هذا الموضوع ، لكن مع ملاحظتنا الوجهة السياسية فقط ، يحق لنا أن نتساءل هل من مصلحة مستقبلنا سوق الجماعات الفتيشية الى الاسلام أم الى النصرانية وعلى كل حال ، فقد دلت التجربة فى الجزائر ، على ان المجرى الدينى الاسلامى دخل فى حكم هذه القواعد البدهية التاريخية التى يتلقاها الخلف عن السلف بدون أدنى تحريف ولا تبديل ، فعساكرنا السنيغاليون ، مع كونهم غرقى فى بحر جماعات كلهم مسلمون ، لم يبدوا حتى اليوم أقل انجذاب الى المحمدية . ولقد شهدوا مواطن حربية عديدة كان الهياج الاسلامى فيها شديداً ولم تتزعزع صداقتهم ، مما هو جدير بكل تقدير ، وهو مما يبعثنا على الاكثار من تجنيدهم ، وعلى تأمين طرق مكافآتهم المالية ، واعطائهم رواتبهم فى أوقاتها

انه عندما انتصر الترك فى ازمير ، أشار الدكتور اسماعيل صدقى بك أحد كبار الوطنيين المصريين الى الحفلات التى اجريت يومئذ بمصر . والاجتماعات التى تداعت اليها

---

(١) انظر الى هذه الدناءة ...

الأهالى على صوت الطبل فقال : « هذا الطبل ، يؤذن بان أبناء مصر يقدرون أن يحرروا مصراً ، مثلما حرر اخوانهم الترك بلادهم » .

فنحن لنا الثقة التامة فى شعوبنا العربية الكريمة ، ولا نعتقد انها تتحرك بما يسوله لها المهيجون فى يوم من الأيام ، ولكن لا شك بأن أمانتهم تكون أمتن ، اذا صارت مبنية على قوة ، لا يمكن الدعوة ، ولا الديانة أن تزعزعها .

الخلاصة

ان أحد المؤلفين البلجيكيين المدعو المسيو كولله Collet ، بعد أن أتيح له أن يدقق تدقيقاً عميقا فى حالة تطور الاسلام ، فى الهند النيرلاندية [1] ألف كتاباً قال فيه : « ان التفاؤل الى حد التأميل بأنه يمكن احتكار قوة الاسلام الحيوية فى سبيل منفعة دولة أوربية هو حلم لذيذ ، لكنه غير مبنى الا على مطالعات كثيرة من ذوى العقول السطحية».

فهذه الكلمات هى ذات أهمية فى هذا الزمن ، الذى يظن فيه بعضهم ان التودد الى الاسلام هو العلاج الأفضل . ولقد سبقت ألمانيا الى هذه الفكرة ، لكن لا تصريحات غليوم الثانى فى الأرض المقدسة بصداقته للثلاثمائة مليون مسلم ، ولا سياسية برلين التركية لم تحدثنا أقل اضطراب فى مستعمرات الحلفاء الاسلامية ، ولا انضم شعب اسلامى واحد عدا تركيا الى ألمانيا ، بل جميع البلاد العربية انضمت الى الحلفاء ثم بعد المتاركة حاولت ايطاليا أن تعلن صداقتها للاسلام ، ووضع الدكتور انريكو انساباتو Enrico Insabato مصنفاً فى ذلك قائلا : « ان دولة غير مسلمة ، اذا عرفت أن تنهج خطة ولاء للمسلمين وتعطف عليهم ، أمكنها أن تصير صديقة لكل البلاد الاسلامية » فلم تلبث نتيجة هذا التأميل أن ظهرت بالعكس ، اذ بعد أشهر قلائل فسر زعماء طرابلس الغرب بحسب أهوائهم القانون السمح ، الذى جادت به عليهم ايطالية ، وطالبوا بالاستقلال التام ، فعدلت عندئذ ايطالية الى طرق أخرى عبر عنها المسيو آماندولا وزير المستعمرات الايطالية بقوله : « أرجو أن يعمد العصاة الى المقاومة ليكون ذلك واسطة لتدويخ القطر ، ولكن الحكومة لن تعاملهم كذى قبل » .

---

(١) مستعمرات هولانده

وقد سارت فى البانيـة الحوادث سيراً مشابها لهذا . ولا نبـكر أن مبادئ المسـيو انساباتو ، يمكنها أن توجـد بين أمة أور بية والاسـلام ، علاقات حسنة مبنية على حرمة متبادلة ، وعاطفة متقابلة ، لـكن هذا يجب أن يكون مبنيا على فـكرة نظام ثابت ، وراحة موطدة . وهذا هو رأى المستشرقين الحقيقيين ، الذين سبروا غور أفـكار المسـلمين باقامتهم سنين طوالا فى بلاد هؤلاء ، نابذين الأغراض الشخصية والخيالات المرسلة بدون تحقيق ، فقد قال أحد هؤلاء : « ان القوة هى وحدها علة بقائنا ، واذا أتينا بأقل علامة على نقص قوتنا ، فتحنا على أنفسنا باب الثورات » . وقال آخر : « نحن المـال ، والسلاح ، والعقل ، والعدل ، فاذا خسرنا هذه المستعمرات نـكون خسرناها برضانا » .
فهؤلاء المحققون الذين استبطنوا ثنايا دخائل النفس المحمدية فى غير الـكتب والحـكايات ، لا يستحسنون فرح الاسلام الفرنساوى بنصرات الأتراك الأخيرة . فان جداول التبرعات التى جرى الاكتتاب بها فى الجزائر وفاس ودا كار [1] وتاماتاف [2] لاعانة الترك الغالبـين والأدعية فى المساجد بفوزهم ، والتهانى التى وردت على أنقرة من ٣٠٠ مليون مسـلم ، هـذه كلها مقدمات لحوادث تاليـة . وكذلك هال هؤلاء المدققين ، ما شاهـدوه من تأثير الوقائع التركية فى تونس ، وصفاقس ، والقيروان ، وسوسه . فقد وردت برقية من المهدية تفيـد أن الشعور الذى كان يحصـل من تلك المظاهر الحفيـلة ، هو أن الشعب التونسى معجب جـداً بشعب كالشعب التركى يأخذ حقـه عنوة بقوة المدفع . أى أن التونسـيين يطمعون ، بان يأخـذوا هـذا الحق قريباً بالواسطة نفسها . ليس عامـة الوطنيين هؤلاء الساذجون طيبو السرائر . المقـدرون قـدر السعادة التى هم راتعون فى بحبوحتهـا . والعارفون فضـل الأمان والأطمئنان . هم الذين نحن منهم على حـذر . بل ليس الاسلام نفسـه ، الذى عرف أثناء الحرب العامـة أن يعـلى نفوس رعايانا هؤلاء ، الى أن تحملوا ما تحملوه من الرزايا الفادحة بصـبر الأبطال ، هو موجب عـدم ركوننا . بل حـذرنا انما هو من تلك الفئـة القليلة ، التى عليها مسحة التربية الأوربية ، والتنشئة الغربيـة ، الذين قرأوا ما هضمته عقولهم هضما سيئاً ، غلبت عليهم المـآرب ، واستغواهم التعصب ،

(١) أحد موانى السنيغال

(٢) مدينة بحرية فى ماداغسكر

وأحبوا وطنهم ، ولكن أحبوا أكثر منه منافعهم الشخصية . فهؤلاء الشبان المسلمون لا يقلعون عن غيهم مهما جرى ، ومهما أعطوا من الحقوق . ومهما أجرى معهم من التسامح ، فلا يكون ذلك الا طريقا لتوقيف الأوربى عند حده ، وأخذهم مكانه .

ففي وجه التضامن الاسلامى ، الذى يزداد كل يوم كلما ازداد نجاح اتباع الاسلام ، نجد الحصن الذى كان الغرب يمتنع به بدأ ينهار ، وعلاقات أوربا بعضها مع بعض تسوء . فاذا كنا لا نقدر على تلافى هذا النزاع الغربى ، فعلى الأقل يجب علينا فى وسط مستعمراتنا أن نوحد الجبهة بازاء المهيجين والمقلقين[1] بتدابير عامة شاملة ، ويلزم أن نمنع سريان العدوى الى الجيش ، فان السكون الحاضر فى مملكتنا الافريقية ، لا يجوز أن يصرف أنظارنا عن مشاهدة الغيوم المتلبدة فى الشرق .

ان صور أبطال الاسلام مالئة أسواق مصر و بيوت فلاحى الأرياف ، فهذه حالة روحية ، قد تسرى الى مستعمراتنا لا سيما تونس شمالا ، وممالك بحيرة تشاد جنوبا ، واذا نالت مصر استقلالها صارت مركزاً لتحرير الاسلام .

لا أحد يمكنه أن يتكهن على درجة هذه الحركة ، لكن من راقب الحوادث الجارية تهيأ له الاستنتاج بأنه لا يجوز التفاؤل المفرط ، كما لا يجوز التشاؤم بدون سبب . فالحالة تستدعى الاكتراث وان لم تكن التهلكة محققة الوقوع ، فعلى أىّ الأحوال يتعين حفظ القوة العسكرية التى لا يعتبر المسلم شيئاً غيرها ، هذا مع الحزم والعدل ، و بسط الأمان وتيسير المنافع المادية . انتهى

***

إدحاض الأباطيل والمفتريات

اعتنينا بتعريب هذه المقالة بحرفها حتى لا نترك مجالا للمكابرة ، ولا محلا للمناكرة . وكنا نود لو تركناها كما هى تكفى بنفسها مؤونة الرد عليها ، لولا أن يكون فى الشرق لسوء الحظ ، من يتلقى كلام كل أوربى تقريباً حقيقة رياضية ، أو قضية مسلمة ، ولولا أنه لا يزال عندنا من حسن الظن فى هؤلاء القوم ، ما يجعل التنبيه فرضا ، والتمحيص حتما .

نعم ان افتتان الناشئة من الشرقيين بعدل أوربا ، وانصافها ، ومعالى نزعاتها ، قد خف كثيراً بعد الحرب العامة عند ما تجلت عرائس الحقائق على مناص المذابح ، وقشعت رياح الحوادث غيوم الأوهام ، التى كانت متلبدة فى الشرق ، من جهة تلك الفضائل وهاتيك المعالى ،

(١) أى طلاب الحرية ..

ولكن مع الأسف نقول ، انه لم تبرح لهذا المرض عندنا عقابيل كافية للضرر ، و بقايا جازية للارتكاس فى الخطأ ، والانتكاس فى المرض ، فلم نر مندوحة من ادحاض ما فى هذه المقالة من الأباطيل ، واظهار ما فيها من التناقضات ، لا اكتراثا بنفس محررها ، بل بكونها نظرية الأكثرين فى قومه وأمثال قومه ، ولوكان بعضهم يكتمها والبعض الآخر يعلنها .

بدأ الكاتب بتخطئة الاوربيين ، الذين يشمت بعضهم ببعض عندما تقوم على فئة منهم ثورة اسلامية ، قائلا ما معناه : ان كل ثورة اسلامية هى خطر على جميع دول اوربا ، فالتى لم تصل اليها النار حالا تصلها فيما بعد . فهو من أنصار توحيد الجبهة الاوربية فى وجه الاسلام والشرق أجمع . والحال أن هذه المسئلة غير محتاجة فى أوربا الى تنبيه من حضرته ، بل هى قاعدة أساسية ماشية عليها الدول الاستعمارية ، منذ وجد الاستعمار ، وانبسطت يد الغرب الى الشرق . فانها مهما اختلفت هذه الدول وتنابذت فى أوربا ، تقف صفا كالبنيان المرصوص فىوجه الشرقيين، لاسيما المسلمين منهم . ولو شئنا استقصاء الشواهد والأدلة على ذلك لم تكفنا المجلدات ، فلا نعنى أنفسنا بالاستشهاد بتواريخ لاتنتهى وانما نقول اذا طرأ بعض الأوقات عوارض بسيطة تخالف هذه القاعدة الاستعمارية الكلية ، فتكون عوارض جزئية محدودة لأسباب مجبرة لا مناص منها ، وضمن الدائرة التى لا تخل بالتضامن الأوربى العام فى وجه الشرق ، وهو التضامن الذى لا يزال دستور الاستعمار الأعظم . مثلا : لما أسقطت فرنسا الحكومة العربية فى الشام وطردت الملك فيصلا خلافاً للمعاهدات التى كانت بين فرنسا وانكلترة ، و بين هاتين الدولتين والعرب ، ارتفع عويل العرب الى السماء ، واشتدت مشاحنتهم لانكلترة ومطالبتهم لها بمنطوق المعاهدات ، وصادف أثناء ذلك ، أن مسئلة العراق أعضلت وعز حلها ، فأرسلت انكلترة فيصلا الى العراق قياما بجزء مما تعهدت به للعرب ، وتوفيراً للمال والرجال على نفسها ، لأنها بقيت تقاتل فى العراق مدة سنتين بمائة وعشرين ألف جندى والنار لا تزداد الا اشتعالا . فكان نصبها لفيصل ملكا على العراق مخالفا لهوى فرنسا ، التى قابلت هذا العمل بعقد اتفاق مع الأتراك بشأن كيليكيا ، وأعادت تلك الولاية الى تركيا بدون أن تستشير فى هذا الوفاق حليفتها انكلترة . فعد بعضهم هذه السياسة من الحليفتين مخالفة لقاعدة التضامن الأوربى الاستعمارى ، وليس

الأمر كذلك ، فان انكلترة لم يكن ليمكنها أن تستخف تماما بالعهود التى قطعتها للامة العربيـة ، والى حـد أنها لا تفكر أن ترضى هـذه الأمة بشئ ، مع استمرار الحرب فى العراق وامكان نشوبها فى أماكن أخرى ، ومع ماكان يبدو لها من عـلامات تقرب العرب الى الترك لا سيما بعـد أن خـذلت العرب فى الشام ، ولم تبـد على اسقاط فرنسا للحكومة العربية بدمشق أدنى اعتراض ، فـكان ارسالها فيصلا الى العراق نوعا من الـكفارة لبعض تلك السيئات . وكذلك فرنسا أنفقت على كيليكيا نحو مليارين ، وخسرت فيها بضعة عشر ألف جندى ورأت نفسها مع حرج الحالة المالية وانصرافها الى تقاضى ألمـانية ، التعويضات التى ليس استيفاؤها بالأمر السهل ، عاجزة عن متابعة الأعمال الحربية فى كيليكيا . ولحظت من جهـة أخرى ان انـكلترة تستثمر لحساب نفوذها فى الشرق مجاهيـد فرنسا فى قتال الأتراك . فعدلت عن تلك الخطـة الأولى وجنحت الى مسالمة الترك ، وتركت لهم ولاية هى فى الواقع تركية ، وكان من أصعب الأمور على فرنسا أن تقدر على حفظها بدون جيش جرار . وبذل المليار بعـد المليار . فـلا الانـكليز حاولوا ارضاء العرب فى العراق حباً بالعرب . ولا الفرنسيس حاولوا ارضاء الترك حبا بالترك . بل التزاما من كل من الفريقين لمصلحتـه تحت ضغط الحوادث . ومع هـذا . فلم يحدث انفراد كل منهما بسياسته هـذه أدنى ثلمة فى جـدار التضامن العام بازاء الشرق . لأنه لا الانـكليز عضدوا العرب على فرنسا مع كثرة ما ناداهم العرب للمحافظة على عهودهم المقطوعة للعرب . ولا الفرنسيس أعانوا الأتراك على الانكليز فى شئ يذكر مما ظهر فى مؤتمر لوزان ، المنعقد أثناء تحرير هذه السطور ، اذ جبهة الحلفاء كانت فيه واحدة من الأول الى الآخر فى وجه الترك والعرب والمصريين الخ . وكل ما جرى فى أثناء هـذا المؤتمر من الاختلافات الآوربية وأولها مسئلة الرور ، لم يزعزع فى شئ بناء التضامن الغربى بازاء الشرق . وبالاختصار فـكل ما يقع من اختـلاف النظر بين الدول الغربية بشأن المسائل الشرقية ، يبقى محصوراً فى دائرة ضيقة ، لا يمكن أن يكسب صفة عامة وتبقى القاعدة عندهم ، هى ، ان نجاح أى غربى فى أى بقعة كانت من الشرق هو نجاح للجميع والعكس بالعكس .

أما الذين يشير اليهم روجر لابون من كونهم يشمتون بجيرانهم ، أى الفئة التى من الفرنسيس تفرح بمشكلات انـكلترة فى مستعمراتها الاسلاميـة ، فهؤلاء أكثرهم من

الشيوعيين والاشتراكيين وهؤلاء كما تقدم أضداد الاستعمار ، لأنهم يقولون ان الاستعمار قضية عائدة على الطبقة المتمولة ، وهم لا يريدون أن يسفكوا دماءهم فى افريقية وآسية ، ويموتوا بحميات هاتيك الاصقاع النائيـة لأجل زيادة ثروة المتمولين فى بلادهم ، ناهيك أن طبقة العملة تشبه أهالى المستعمرات بكون الفريقين مستضعفين هؤلاء من الخارج ، وأولئك من الداخل ، فبين الفريقين جاذب التضامن الذى بين الضعفاء والمظلومين ، وما عدا هؤلاء ، فيوجد غلاة الحزب الشمالى الذين يحبون الحرية كما لا يخفى ، وجميع هؤلاء لا يعدّون الا فئة قليلة بالقياس الى بقية الأحزاب ، وان وجد من غيرهم من الفرنسيس من يشمت بالانكليز فى مشكلاتهم الاستعمارية اما حسداً أو نفاسة ، أو على أثر اختلاف دولى اشتد بين الامتين ، فلا يتعدى ذلك بعض كلمات فارغة ، ولا ينشأ عنه شئ بالفعل أبداً ولا يدخل أصلا فى برنامج الحكومات السياسى .

فبعد أن تقرر وجود هـذا التضامن المتين بين جميـع الأوربيين فى وجه الاسلام والشرق بأسره ، لا عجب أن يكون هناك تضامن بين الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصا لاسيما أن بين هؤلاء رابطة دينية ، لا يمكن زوالها غضب روجر لابون أم رضى . وقد كان يمكن أن تتراخى هذه الرابطة الاسلامية بالعدل والاحسان من قبل الدول المستعمرة ، اذ كان لايوجد شئ تستصلح به قلوب الأعداء مثل العدل ، وكان الانسان كما يقولون أسير الاحسان من أى جهة أتى . فالدول المستعمرة بدل العدل والاحسان ، لم تعرف فى مستعمراتها سوى الضغط والظلم ، وامتهان الوطنيين والكيل لهم بمكيال وللاوربيين بمكيال آخر ، والحجر على حريتهم ، والتصرف بحقوقهم ودمائهم ومرافقهم ، وابتزازهم أراضيهم ، وهذا ماامتازت به فرنسا أكثر من غيرها بدليل نسق استعمارها بالجزائر وتونس مما لايحتاج الى بيان ، ومن شاء زيادة الوقوف فليقرأ كتاب « تونس الشهيدة » ليعلم ماذا يجرى هناك أو فليقرأ بعض كتابات الفرنسيس أنفسهم ومن جملتهـا ما كتبه المسيو فاليان كوتوريه Vaillant Couturier أحد أعضاء البرلمان الفرنسوى من الحزب الشيوعى ، على أثر سياحة طويلة فى الجزائر وتونس أجراها فى العام الماضى ونشر خلاصة مشاهداته فى جريدة الاومانيته ، بل فلينعم النظر فى المبادئ التى يوصى بهـا لابون نفسه والمرء مؤاخذ باقراره فيعلم درجة الضغط الواقع على أولئك المساكين ، و بأى نظر تنظر الأمة المستعمرة اليهم ، فليست اذاً الرابطة الاسلاميـة وحدها

هي التي تجمع قلوب الجزائريين والتوانسة والمراكشيين وغيرهم الى قلوب أهالى الأناضول بل هناك رابطة المستضعفين بعضهم مع بعض ، ورابطة الأخ الذى تحت نير العبودية مع خيه الذى تمكن من رفع ذلك النير عن عنقه . هـذه لعمرى روابط طبعية لا تزول ولا تخف ، لا بالسهر ولا بالمراقبة ولا بالحجر ولا بالحجز ، ولا بمنع القضاء بالأحكام القرآنية كما يشير به لابون ولا بالتعب فى تنصير المسلمين كما يريد اذ كل هذه التدابير لا يكون لها نتيجة سوى أن تزيد النار اضطراما . بل الواسطة الوحيـدة لا لازالة تلك الرابطة لأنها لا تزول أبداً ، بل لحصرها ضمن حدود لا تضر فيها بمصلحة فرنسا ، هى معرفة فرنسا حقوق الوطنيين المسلمين ، ومعاملتهم على سوى واحـد مع الاوربيين وعدم التذرع بأىّ الوسائل لوضع اليد على أملاكهم ، وتجنب استغلالهم كما يستغل الانسان حرثه ، وعدم القذف بهم فى الثغور والمهالك ، ليكونوا فداء عن أبناء فرنسا وهم غـير متمتعين بشىء من حقوق المساواة مع أبناء فرنسا الى غير ذلك من الشروط التى لو توفرت لعاش الوطنيون المسلمون فى دعة وراحـة مع الفرنسيس ولم يضمروا لهم الحقد ، ولـكانوا ارتبطوا معهم برابطة محبة أكيدة بخلاف ما هى الحالة الآن ، اذ الرابطة الوحيدة التى تربط شمالى افريقية بفرنسا هى قوة السلاح ، وهـذه كما لا يخفى مهما طال وجودها ، فقد يأتى يوم يخونها الدهر فيه ، فتذهب وتحل محلها قوة أخرى ، والدهر لا يدوم لأحد .

ثم يقول « يتسلون بالفرح الذى يبديه لنا المسلمون من جراء خطتنا الحاضرة » فلم نفهم ما هى خطتهم الحاضرة التى تستوجب كل هـذا المنّ على المسلمين ؟ هل هى اعادتهم كيليكيا الى تركيا ؟ فهذا قد بينا أسبابه ، وان فرنسا لم يمكنها أن تعمل غير ذلك فى الآونة الحاضرة أم اعطاؤها حق الانتخابات لمسلمى الجزائر ، وهو أدنى ما يمكن أن يكافأ به قوم قـدموا لها نحو ٣٠٠ . . ألف مقاتل فى الحرب العامـة ، تلف منهم ٦٢ ألفا . فبـدلا من أن تسويهم باليهود أو الماطيين على الأقـل ، كان أقصى ما منحتهم من الحقوق أن يكونوا ناخبين لاعضاء المجالس البلدية . أم سماحها بزيادة عدد الوطنيين فى الندوة التونسية ، لـكن بشرط أن لا يكونوا الاغلبيـة وان لا يكون لهم الحق فى التعرض للامور السياسية أبدا ، وان لا يمسوا بشىء المبادى الاستعمارية الماشية عليها حكومة تونس ؟ أم أخـذها لسورية التى ثلاثة ارباعها مسلمون نقضا لـكل عهـد وميثاق ، وتعـديا على حقوق الامم وخلافا

لنصر يحاتها اثناء الحرب ، ثم معاملة سورية بصفة مستعمرة ، واستزاف أموالها ، والخلل بوحدتها ، واثارة الاحقاد الدينية التى كانت ساكنة فيها منذ زمن طويل ، وحبس مفكريها ونبهائها لمطالبتهم اياها باستقلال بلادهم ، واعتبار سورية أرضا فرنسوية مع الهزؤ بأهلها بأنهم هم مستقلون ، وانها هى انما انتدبتها جمعية الأمم للوصاية عليهم لترشدهم وتعلمهم كيف يديرون فيما بعد أنفسهم بأنفسهم . . . أم الحرب القائمة بينها و بين أهالى مراكش والتى لولا حسن ادارة المارشال ليوتى بنفسه ، لكانت غير منحصرة فى بعض جهات تلك السلطنة بل كانت عامة لجميعها ؟ ما هى خطتهم الحاضرة اذاً ، وماذا فيها من هذه الأيادى البيضاء على المسلمين ؟ لما انتصر الاتراك على اليونان لم ترد فرنسا أن تنتصر لليونان كما أراد لويد جورج ، لكونها من النزاع مع المانية فى شغل يستغرق كل قوتها فمالت الى الصلح ولم تكن فى ذلك وحدها ، بل كان رأى الجميع والانكليز أنفسهم الذين أسقطوا لويد جورج وضع حد لهذه الحرب فى المشرق ، ومع هذا فقد أحمد الناس كلهم — الا اليونان فقط — سياسة الدول السلمية وسياسة فرنسا من الجملة ، وأظهر لها مسلمو المغرب الشكر على سداد هذه السياسة ، التى هى كلها فى مصلحة نفسها فى الواقع ولكن لم تلبث أن تقاضت بدل مسالمتها هذه التى لم تكن فيها بالمنفردة مطالب اقتصادية ثقيلة على الاتراك ودعاوى خارجة عن العدل والنصفة ، ومن جملتها التحريج على الترك فى النزول لها عن حق سيادة الدولة العثمانية على سورية .

اذاً بماذا تمن فرنسا وتعتد على المسلمين ؟ حتى يقرّع لابون بعض عقلاء قومه بانهم كانوا مسرورين من مظاهر الرضى التى أبداها مسلمو المغرب .

ثم يحذر أبناء جنسه من الاغترار بظاهر الشرقى الذى يخفى الحقد و يبدى الولاء . ولا تنكر أن هذا من الأمور التى يتجاوز بها الشرقيون الحد المعقول ، والتى كانت السبب فى كثير من المضار ، لأن الافرنجى من شأنه أن لايحمل الافراط فى الكياسة الا محمل الضعف وانه كلما تواضع الانسان أمامه احتقره واستصغر شأنه ، هذا مجرب فيهم الاماندر . ولكن الشرقيين مفطورون على المجاملة ، فتراهم يظهرون التودد الى أقوام استولوا على بلدانهم واستعبدوهم ، فهؤلاء الذين عرفوا جيداً ماذا فعلوا بهم و يعرفون أن سياستهم معهم لاتوجب أدنى مودة ، يعتقدون أن هذه الظواهر هى كلها كذب وملق ورئاء ، وانه كامن

وراءها الحقد والبغضاء اذلا يعقل أن الانسان يحب من أساء اليه . فليحذر الشرقيون والمسلمون من أن يأتوا بتصداق كلام هذا الرجل ، وليجعلوا للمجاملة حداً لئلا يتهموا بالرئاء والخداع . فلقد كان من الافراط بهذه المجاملة من النتيجة السيئة فى احتلال سورية ، وادعاء أن أهلها هم الذين طلبوا ذلك ماليس هنا محل بيانه وما طالما نبهنا اليه . أما دعواه بأن الاسلام مبنى على الخضوع للقوة القاهرة فكذب محض ، واختلاق منه ، فان الاسلام أمر بأوامر ونهى عن نواه لابد للمسلم أن يجرى عليها اذا أراد أن يبقى مسلماً ، مهما وقف فى طريقه ولو ذهبت بذلك نفسه . وهذا مبسوط فى كتب الشريعة التى يفترى عليها لابون بدون علم ولا حياء ، وليس للمسلم أن يتقى فى دينه الافى بعض نقاط لا يكون فيها خطر على وجود الاسلام ، ولو كان المسلم مأموراً بالاستسلام للقوة الغالبة ، لما قاوم الرسول صلى الله عليه وسلم قريشا وهى أقوى منه ، ولاقاوم الخلفاء الراشدون تلك الأمم كلها ودوّخوها وهم لم يكونوا شيئاً بالقياس الى ما كانت عليه تلك الأمم . كلا ، فالاسلام مبنى على العزة وعدم المبالاة بالحياة ولابالمال فى الذب عن شريعة الاسلام ، وان القرآن ملآن بذلك والحديث الشريف مستفيض به ، وما سقط الاسلام الابعد أن فتر عمل أهله بتلك الآى ، وغلبت عليهم « كراهية الموت وحب الدنيا » وفقاً للحديث النبوى الذى أنبأهم بالحالة التى وصلوا اليها و بالأسباب الداعية الى حصولها ، وهو حديث « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل جانب تداعى الأكلة على القصاع الخ ».

ثم يقول ان ابتهاج الاسلام بعضه بفوز بعض لم يكن من قبل ذا بال ، نظراً لقوة أوربا واتحادها فى وجهه بخلاف ماهى اليوم ، والروسية التى كانت أعظم ضاغط على الاسلام صارت فى هذه الآونة تناصره وتشد أزره . والجواب أن تضامن أوربا كلها على الاسلام كاف بدون الروسية ، ولاشك أن الحرب العامة قد استنزفت قوى أوربا والروسية ، وكرّهت الحرب الى السواد الاعظم من العالم فاستفاد الشرقيون كلهم من هذا الضعف بدون نزاع وهبوا للمطالبة باستقلالهم ورفع الانيار عن أعناقهم ، ومن يلومهم على ذلك الا الذين لاوجدان لهم مثل هذا الكاتب والحزب الذى هومنه ، على أنه لوفرض أنها لم تحصل الحرب العامة لما كان الشرقيون راضين بأن يبقوا عبيداً الى الأبد .

أما ابتهاج الاتراك بل المسلمين أجمع بنصرة المراكشيين على الاسبانيول فليس فيه

شئ من العجب ، فقد كان الاوربيون كلهم مبتهجين بانتصار البلقانيين على الاتراك ابتهاجاً أنساهم كل مارتكبه البلغار واليونان والصرب من الفظائع فى تلك الحرب ، وكان أحلى مايروق للانكليز يومئذ وقائع الجبل الأسود التى تجلت فيها بسالة ذلك الشعب الصغير الأبى ، أفلا يحق للمسلمين أن يبتهجوا بنصر فئة قليلة من المغاربة ، كلهم قبائل متطوعة ، على دولة عظيمة ساقت عليهم ٢٠٠ ألف مقاتل ، فاستأصلوا منهم نحو ٣٠ ألفا وغنموا ١٧٠ مدفعاً و٧٠ ألف بندقية وانتهى الامر بان عاد الاسبانيول كما جاءوا لم يفوزوا بطائل . ان فرنسا وقتئذ مع بغضها لاسبانية والمنافسة بينهما على طنجة وغيرها ، لم يسرها فوز الريفيين ، بل أوجست منه خيفة وعاونت اسبانية بما أمكنها . وان الأمير محمد عبد الكريم أرسل وفداً الى لندن يلتمس وساطة انكلترة فى الصلح ، فلم تقبل انكلترة هذه الوساطة ، مع شدة ادعائها محبة السلام . فلماذا لعمرى ؟ الجواب بسيط ، وهو لأجل التكافل الأوربى فى وجه الاسلام . وكذلك المسلمون يفرحون بظفر الريفيين ، أولا ، لكونهم اخوانهم فى الدين ، ثانياً ، لكونهم فئة قليلة مظلومة ، غلبت فئة كثيرة قوية ظالمة ، طامحة الى استعباد تلك الفئة القليلة العدد الأبية للضيم .

أما ما ادعاه من كون النادى الشرقى ببرلين هو من مراكز دعوة الجامعة الاسلامية ، وانه يصدر جريدة لواء الاسلام لبث هذه الدعوة ، فلما كان محرر هذه السطور هو رئيس النادى الشرقى ببرلين قد نشرنا فى بعض الجرائد تكذيبا لدعواه هذه ، ولكون النادى هو تحت حماية مجلس برلين البلدى والجنرال لوندوروف ، كما افترى علينا كذبا وبهتانا ، و بينا أن النادى هو محفل اجتماعى ليس له شغل بالسياسة ، تأسس مجتمعا للشرقيين من كل الأجناس والأديان ، ففيه أتراك ، وعرب ، وجركس ، وتتر ، وافغان وفرس ، ومصريون وهنود ، ومغاربة ، وفيه مسلمون ، ونصارى ، ويهود ، و براهمة الخ . وأن جريدة لواء الاسلام ليس لها أدنى علاقة بالنادى الشرقى . فاذا كانت كل معلومات لابون هى من قبيل هذا الخبر فيكون مقصده التهييج فقط ، لايهام أبناء جلدته وجود حركة اسلامية ألمانية ، يتوسل بها الى زيادة الضغط على المسلمين .

ثم زعم أن ليست نتائج الحرب العامة هى العاملة فقط فى هياج المسلمين ، بل هناك عوامل من طبيعة الاسلام نفسه ، لأن الاسلام لايخضع بزعمه الا للقوة . فكرر هذيانه

الأول الذى لم نعلم على أى شئ بناه ، اذسنة الأمم كلها انها تخضع للقوة وتنشز عند فقدها ، لم يختص الاسلام وحده بذلك . بل الاسلام والشرق فيهما بقايا من كرم الأخلاق ، والعفو عند المقدرة والسجاحة ، وترك الانسان حقه لمجرد علو الهمة ، والميل الى المساكين وهذه كلها مناقب يهزأ بها الغرب ولا يفهم لها معنى ، بل يسمعون ويقرأون نوادر كثيرة عن الشرقيين لا سيما العرب منهم ، وينقلونها فى كتبهم من باب الكرم العريض والايثار على النفس وعفو الموتور عن الواتر بمجرد دخوله بيته ولو كان قاتلاً ابنه فلذة كبده ، وكم من والد سامح بقتل ولده و والدة سمحت بقتل ولدها لمجئ القاتل الى بيتهم مستصفحاً ، وكم من تجاوز عن القود وعن الدية معاً ، فهل سمعنا أو قرأنا أن فذاً أوربيا فعل مثل ذلك مما يقع عند العرب كل يوم تقريباً ؟ وكم فى التاريخ للاسلام من نوادر عفو عندالقدرة ، قدعرف منها الافرنج شيئاً كثيراً باحتكاكهم مع عرب الأندلس ، وفى أثناء الحرب الصليبية مع صلاح الدين الأيوبى الذى كانت سيرته بهم بعد سيرتهم بالاسلام عند دخولهم القدس سبب عار لا يمحى للصليبيين ، [1] كما أقر بذلك المؤرخون المنصفون من الافرنجة ، لأنها أظهرت ما هناك من سعة الفرق فى علو النفس ، ورقة الاحساس ، بين الأمم الاسلامية والأمم الأوربية . أفيقال بعد هذا ان المسلمين لا يخضعون الا للقوة القاهرة ، وانهم لا يؤثر بهم حسن المعاملة ولا العدل ، بل العامل الوحيد الذى يؤثر بهم ويكفل طاعتهم هو ارهاف الحد ؟ كبرت كلمة تخرج من أفواه هذا الكاتب وأمثاله ، ان يقولون الا كذبا .

والحقيقة هى أن القوة المسلحة هى العامل الوحيد الذى يؤثر بالافرنج ، وأقرب شاهد على ذلك مثل الترك الذى لا حاجة لبيانه اذ كل أحد يعرفه ، فقد أصمت أوربا آذانها عن جميع ما نادوها به من العهود والمواثيق والمتاركات والحقوق الدولية ، الى أن أثبتوا قوتهم بالغلبة على اليونان وغيرهم ، فعرفتهم حينئذ بشراً ، ورضيت أن تجالسهم فى مؤتمر لوزان وأخذت تصانعهم وتداريهم . وهناك مثل اليابان التى لم تعتبر عندهم دولة متمدنة الا بعد أن قهرت الروس ، وأثبتت قوتها العسكرية . كان أحد كبار الوزراء اليابانيين يحادث على

---

(١) قتلوا ٧٠ ألفاً فى المسجد الأقصى ولم يعفوا عن النساء ولا الأطفال ، فلما استرد صلاح الدين القدس لم يقتل منهم أحداً

نظامى باشا سفير تركيا فى رومة مؤخراً فقال له : « ان شئتم أنتم الأتراك أن تكونوا متمدنين فى نظر أوربا ، فاجتهدوا أن تكونوا أقوياء لا غير . فاننا نحن اليابانيين كنا بلغنا مبلغهم ، وتجاوزنا أمدهم فى العلم والصناعة ، وصرنا نصنع من الأمتعة ما يضاهى الذى يصنعونه ، ونبيعه بأثمان أرخص من أثمانهم ، ولبثوا يعدوننا مع البرابرة . الى أن هجمنا فى يوم من الأيام على الروسية ، ونسفنا لها بوارج بدون اعلان حرب منا مخالفين بذلك الحقوق الحربية الدولية ، ثم تابعنا الحرب الى أن انتصرنا على الروس نهائياً ، وعرفوا أننا نعرف أن نقتل ونهلك وندمر مثلما يقتل الأوربيون ويدمرون ، صرنا عندهم دولة عظيمة وصاروا يعدوننا متمدنين » . هذا كلام وزير يابانى كان تولى الصدارة فى اليابان ، وان شاء الشرق أن يفهم جيداً ما هى أوربا فليستظهر دائما هذه الامثولة . ويعلم الله أننا لم نكن لنوضح كل هذا من شأنهم فى تقديس القوة المادية والتنمر على الضعيف والتبصبص للقوى ، لو لم يكونوا دائماً يقذفوننا بهذه التهمة عينها ، فقد تكررت منهم هذه الكلمات بحق الشرقيين الوفا من المرار . وعند كل مناسبة ، تجدهم يقولون : الشرقيون لا يعرفون الا القوة . الشرقيون لا يفهمون الا بلغة السيف . الشرق لا يأتى الا بالارهاب . لا تنس أنك تخاطب أمة شرقية . اعلم أنك فى الشرق . وما أشبه ذلك ، والحق أن القوة المادية هى معبود الغربيين قبل الشرقيين . ثم ذكر أنه فى الحرب العامة ، انقادت أكثر الأمم الاسلامية الى الحلفاء ، وقاتل منها مليون ونصف مليون مقاتل تحت راياتهم ، ولم يعبأوا باعلان الخليفة الجهاد ، وتبارى علماء المغرب فى الفتيا بعدم وجوب الحرب فى جانب الأتراك والألمان الى غير ذلك .

والجواب عليه ان كان يعنى بالأمم الاسلامية البامباره والسنيغاليين وأمثالهم فهؤلاء مساكين لايقدرون على شئ ، ولا يعرفون شيئاً ، بل تراهم كالأنعام يساقون الى المجزرة ولا يشعرون حتى يصل السكين الى أعناقهم ، ولم تترك فرنسا فى سبيل ابقائهم فى أدنى دركات الجهل والحيلولة بينهم وبين الشريعة الاسلامية واللغة العربية واسطة الا استخدمتها لأجل أن تلعب بهم الكرة ، وتقتلع منهم كل شئ اسمه ارادة ، فهؤلاء لا كلام فيهم . أما الجزائريون والتونسيون والمراكشيون ، فمع كون الجهل أيضاً مخيما على عامتهم ان لم يكن فى نسبة السنيغاليين فقريبا منها ، ومع كونه لايصعب على فرنسا شراء ضمائر كثيرين منهم

فقد طاف عمـال الفرنسيس عليهم يخطبون و يعظون و يعقدون المجامع و يحادثون العلمـاء والزعمـاء أثناء الحرب وفى كل أحاديثهم وخطبهم ، يصرحون بأن هذه الحرب هى حرب تحـرير الأمم ، فـكل من قاتل فيها وبذل دمه نال بعـد الحرب اسـتقلاله ، وكل من تخلف عنهـا لاحظ له من الحـرية ، وان هـذه النوبة هى نوبة الجـزائر وتونس لنيل الحـكم الذاتى بحيث لا يبقى بينهما و بين فرنسا الا صـلة حلف فقط . وان الألمان الذين هم أشـد أعـداء الاسلام ، قد خدعوا تركيا ، بل استمالوا فرقة الجون ترك فقط . وهى الغالبة على الأمر والآخذة على يد السلطان الخليفة ، فأعلنت هذه الفرقة الحرب بدون علم الخليفة و بلا علم الأمة ، وكذلك الفتوى بالجهاد هى تزوير من فرقة جون ترك ، هذه التى هى مارقة من الاسلام تهين الدين وتجاهر بعـدوانه [١] وسيكون نصيب تركيا فيما لو انتصرت ألمانية ، السقوط بين أيدى الألمان الذين سيقضون على الاسـلام القضاء المبرم بعكس الحلفاء الذين هم أحباء الاسلام ، ولا يريدون بأهله الا خيراً (!) فبعد أن يتسق النصر للحلفاء ستمنح فرنسا الحـكم الذاتى الى جميع مستعمراتها الاسـلامية ، وستعطى انـكلترة مصرا استقلالها التام وسيساعد الحلفاء العرب على تأسيس سلطنة عربية ، تتألف من سـورية وفلسطين والعراق وجزيرة العرب ، وعلى استئناف مجد الخـلافة العباسـية . وقالوا لأهل الهنـد انهم سينالون الحـكم الذاتى بأجمعهم ، وأقسموا لهم جهـد أيمانهم انهم ولو انتصروا على تركيا ، فـلا ينال تركيا من الحلفاء أدنى سـوء ، بل كل ما يريدونه من تركيا هو الانفصـال عن هـذه الدولة الألمـانية التى تنوى وضع اليد على تركيا . هـذه التصريحات والتأكيـدات كررها الحلفـاء ألوفاً من المرار على أهالى مستعمراتهم الاسـلامية ، لا سيما الجزائر وتونس ومراكش ومصر والهند ، وعلى الامة العربيـة ، ولبثوا يكررونها الى السنة الرابعـة من الحرب العامة ، اذ قوى أملهم بالنصر النهائى فعنـد ذلك تغيرت نغمتهم ، وبدأت تلك الامم التى انقادت لوساوسهم تلحظ انها انما وقعت فى شرك ، وانها كانت من تمويهاتهم فى غرور مبين . ولقد أصابت احدى الجمعيات السورية فى أمريكا بوصفها الحلفاء أثناء الحرب العامة وهم يبثون الدعوة لقضـية تحرير الشعوب بزعمهم . فقالت فى منشور أذاعته بعد الحرب : «فلو رأيت الحلفاء ودموعهم

(١) واستشهدوا على ذلك بأشياء

تسيل ، وهم يستنهضون الأمم لنصرتهم فى هذه الحرب التى لم يتابعوها بزعمهم الا لأجل تحرير الأمم كافة ، وقهر التسلط الألمانى الخ » نعم بقى الحلفاء يبثون هذه الدعوة ودموعهم تسيل رقة وحناناً (!) الى أن قضوا وطرهم ، فقلبوا ظهر المجن لكل من عاونهم وقاتل فى صفوفهم ، وجفت دموعهم اذ ذاك ، وعادوا ذئاباً بعد أن كانوا حملاناً ، وتناسوا كل ما تعهدوا به أثناء الحرب بدون أدنى خجل ولا وجل ، فلذلك هاجت أحقاد تلك الأمم التى خدعوها بزخرف القول وختلوها بمواعيد ، لم تعد مواعيد عرقوب عندها شيئاً ، وقاموا عليهم من كل جهة ، فنهضت مصر تطالب باستقلالها التام ولم تزل ناهضة ، وحنق أهل الجزائر من خلف المواعيد الفرنسوية حنقاً دل عليه صنيعهم فى انتخابات ١٩١٩ ، التى لم يرشحوا فيها واحداً موالياً لفرنسا . ولا تزال الحركة الوطنية تقوى فيما بينهم بفضل سوء السياسة الاستعمارية لا بدسائس الأناضول ولا بتحريكات الجامعة الاسلامية ، وازدادت ثورة المراكشيين اشتعالا ، وهى منذ خمس سنين مضت من بعد الحرب العامة لم تسكن يوما واحداً ، وثارت الهند ثورات مختلفة الأنواع ، منها بالسلاح كما فى شمالى الهند وكثورة الموبلاه فى المليبار وغيرها ، ومنها بالسياسة كالمؤتمر الوطنى الذى انعقد ممثلا من جميع شعوب الهند وأديانها ، وكاتحاد المسلمين والهندوس ، وكقيام جمعية الخلافة ، وكمقاطعة المتاجر البريطانية بحيث نقصت فى الهند نحو ٣٠ فى المائة . ثم قام أهل العراق فى وجه الانكليز ، الذين كانوا أعلنوا لهم يوم دخولهم بغداد سنة ١٩١٧ ، أنهم لم يأتوا ليملكوا بلادهم ، بل ليعيدوا اليها الحكم العربى كما كان ، فلما استوسق الظفر لانكلترة حاولت الاستيلاء على العراق والحاقها بالهند ، فثار العراقيون بها مدة سنتين أذاقوها فيها عرق القربة ، ولم يضعوا السلاح حتى مكنتهم من تأسيس حكومة عربية ، اشترطوا أن تكون مستقلة استقلالا تاماً ، ولن يبرحوا حتى يروا استقلالها تاماً ، وأما أهل تونس فنترك القول لهم ، فقد ورد فى كتاب « تونس الشهيدة » المطبوع فى باريز سنة ١٩٢٠ فى خلاصة الكتاب ما يأتى :

« كانت مفاداة الشعب التونسى بجانب فرنسا ، فى الحرب التى اكتسحت العالم المتمدن ٦٥ ألف مقاتل و ٣٠ ألف فاعل من أمة لا تزيد على مليونين من النفوس ، وقد قتل وجرح من الخمسة والستين ألف مقاتل ٤٥ ألفاً ، وكانت لنا ثقة تامة فى الحصول

على أمانينا القومية على أثر ظفر الحق (!) والعدل بين الأمم ، وتنفيذ مبدأ تعيين الشعوب لمصيرها ، الذى كان أعظم رجال الدول نادوا به ووعدوا به هذه الشعوب أمام الله والناس. فهذه الثقة هى التى حملتنا على القيام بواجب المشاطرة الوجيعة بدون قيد ولا شرط فى الحرب العظمى العائدة لخلاصنا فكان ديناً على فرنسا اعطاؤنا حريتنا من وجهين، الأول الخسائر التى تحملناها من أجلها ، والثانى المواعيد الشهيرة التى قطعتها لنا ، فقد نالت الشعوب الصغيرة حتى من التى كانت فى صفوف الأعداء حريتها ، أما نحن فقد ادخرت لنا فرنسا لأجل المكافأة على خسائرنا طريقة من أغرب ما يتصوره العقل ، وذلك بتهيئة برنامج استعمار جديد زيادة على القديم ، تتمكن به من غصب أملا كنا وهضم حقوقنا ، فقد اعتزمت ايطان فئة من صعاليك الفرنسيس ومعترّيهم ومحاويجهم فى بلادنا ، وتيسير أسباب معايشهم من مالنا وتقديم الأراضى اللازمة لهم من أرضنا . فما هى فائدة فرنسا لعمرى من متابعة خطة هى من سنة ١٨٨١ ، وعلى الخصوص من سنة ١٨٩٢ حتى اليوم مصدر كل عمل تأتيه فى تونس وبدلا من أن تعدل عنها ولو على وجه المكافأة لرزايانا من أجلها ، تكون النتيجة ، أنها بعد انتهاء حرب الحق والعدل (!) تزداد فيها توسعاً وتفنناً الخ » .

لا نطمع أن ننقل هنا كل ما ورد فى « تونس الشهيدة » من الحقائق الرسمية ، التى تثبت الى أى حد وصل الفرنسيس من استعمار تلك البلاد ، واستعباد أولئك العباد ، وكما تقدم كانت مكافأتهم على الخمسة والأربعين ألف رجل الذين فقدوهم فداء لفرنسا ، أن قررت الحكومة الفرنسوية ارسال كل المحاويج والسفلة والأفاقين الذين فى بلادها الى تونس ، واعطاءهم أراضى فيها من أملاك الحكومة التونسية وأوقاف التونسيين ، والانفاق عليهم لعمارة تلك الأراضى بواسطة قرض يعقد باسم تونس ، ويدفع فائضه أهل تونس .

وبالجملة فاذا شاهد المسيو روجر لابون ومن على شاكلته هيجاناً فى العالم الاسلامى فليبحث عن أسبابه فى مظالم الحكومات الاستعمارية ، ونكثها بمواعيدها ، وخبطها هذه الشعوب بعصا العسف ، واستئثارها بأراضيهم ، وأموالهم ، ووضعهم تحت أقدام المستعمرين حقارة واهانة فالشعوب الاسلامية والشرقية مهما بلغ بها الضعف فلن تقر فى يوم من الأيام على العبودية للأوربيين ، يلزم أن يرفع الأوربيون خيال تأبيد هذه العبودية من رؤوسهم وأما زعمه أنه بعد معاهدة مودروس كان الاسلام بأسره قد استخذى ، وصار منتظراً أى

حكم يصدر من أوربا ليطيعه ، وان السبب فى كونه رفع رأسه فيما بعد ، واستأنف آماله ، وعاد الى المخاصمة ، هو ما رآه من انصراف الجيوش من الشرق ووقوع المنازعات بين الحلفاء فهذا كذب محض ، وبهتان بحت ، ينقضه التاريخ وتكذبه القيود الرسمية ، فقد وضعت الحرب أوزارها ، ومصر والاستانة والعراق والأناضول والقوقاس وسورية ملأى بجيوش الحلفاء التى لبثت مرابطة فى هذه البلدان مدة طويلة . وعندما أهالى مصر نهضوا لطلب استقلالهم كانت مصر تموج بالجيش الانكليزى . وان أهل العراق هبوا لمقاومة انكلترة غير هيابين المائة والعشرين ألف جندى ، التى ساقتها عليهم ، كما أنه لما نهض مصطفى كمال فى الأناضول كانت الجيوش الانكليزية فى الاستانة والأناضول والقوقاس بعشرات الألوف ، وكان جيش فرنساوى نحو ٤٥ ألفاً فى كيليكيا ، وجيش آخر فى الاستانة وجوارها ، وكان جيش للارمن فى حدود أرضروم ، و بعد ذلك زحف ١٥٠ ألف يونانى ، فأطبق الأعداء على الأناضول من كل جهة ، ومع هذا فلم يزد الترك ذلك الا ثباتا . فكيف يقال انهم تشجعوا بانصراف الجيوش عنهم . وأما فى سورية فبلغ عدد الجيش الفرنساوى ٧٠ ألف مقاتل ولم يمنع ذلك أهلها من مقاتلة الفرنسيس ، ولا صرفهم الخوف من كثافة الجيوش عن طلب حقهم الذى لا يزالون يطالبون به ، وأما شمالى الهند فلما زحفت عليه القبائل الأفغانية وجيش كابول ، أرصد الانكليز لمقابلتهم ٣٠٠ ألف مقاتل ، فكيف يكون المسلمون قد طمعوا وتجرأوا بانصراف الجيوش عن بلدانهم . وكذلك فارس أجبرت الانكليز على الجلاء عن بلادها ، والجيش البريطانى منتشر فى أكثر البلاد .

ثم يقول كان أكثر الناس مناهضة لقضية تجنيد الوطنيين هم الذين حصلوا العلم فى مدارس فرنسا . اذاً فالفريق الذى تلقى تربية اسلامية والفريق الذى تلقى تربية أوربية كلاهما واحد فى طلب الحرية ، وهذا أمر بدهى ، اذ لا الاسلام يرضى لأبنائه بهذا الاهتضام ، ولا أوربا تجيزه على أمة من أبنائها ، وكلا التعليمين ملتقيان فى نقطة الاستقلال وان السفسطة التى معناها أن المسلم لا بد أن يكون تحت حكم أوربى لاجل انتظام سير المدنية التى ديانته تمنعه منها ، هذه لا يقبلها المسلم العتيق ولا الجديد ، بل لا يقبلها أوربى عنده وجدان سليم ، وما هى الا أكذوبة خلقت لتسويغ الاستعمار واقناع الأحرار من الاوربيين ، الذين يقولون : « ما لنا ولهؤلاء القوم نهضم حقوقهم ، وتتحكم فيهم ، ونذهب

فنقاتلهم فى عقر دورهم » فيريد حزب الغزو والاستعمار أن يجاوبهم : « ان هذا ليس فى شى من الظلم ، لأن هؤلاء القوم لا يزالون عصاة على المدنية ما داموا مسلمين » . ثم يقول وهو من أغرب ما سمع فى باب القحة انه « منذ خفق العلم الفرنساوى فوق مرسى الجزائر تكوّن بين هذه الأمة وئام لم تعرفه من قبل » . وفى محل آخر يندب قصور عمال فرنسا فى تأريث نار الشقاق بين العرب والبربر كما كان من قبل . وقلما سمعنا أن قوما يدّعون أنهم فى أرقى طبقات المدنية يأسفون من كونهم لم يحسنوا التفرقة ، ولم يحكموا العداوة بين الأمم التى ساء بختها بسقوطها تحت أيديهم ، ويعلنون أسفهم وندمهم من جراء هذا الاهمال . على أن كلامه هذا هو كذب محض، فان عمال فرنسا فى الجزائر لم يهملوا وسيلة لشحذ العداوة بين العرب والبربر الا توسطوا بها ، ولكن الذى جمع بين العرب والبربر هو رابطة الاسلام ، ورابطة الظلم المحيط بالفريقين . واذا كان عمال فرنسا منذ أول احتلالهم لسورية أى منذ سنة ١٩١٨ الى ساعة تحرير هذه السطور ، لم يفتروا يوما واحدا عن تأريث الضغائن الدينية بين المسلمين والنصارى فى سورية وبين النصارى والدروز فى لبنان ، بعد أن كانت هذه الضغائن والاحول قد سكنت وتلاشت تقريبا ، فتجد سورية ولبنان اليوم فى أسوء حال من هذه الجهة مما بذرته يد الاحتلال ، التى ظنت انها لا تمتد الا على بساط شقاق ، ولا تتمكن الا من خلال فتنة ، فما ظنك بما كان يفعله عمال فرنسا فى الجزائر من تحريك الاحن بين العرب والبربر الذين ليسوا فى مستوى أهل سورية ، لكن فرنسا لاتكلم بيد الا وتأسو باخرى ، فكل ما زرعه عمالها من الشقاق بين ذينك الجيلين فى المغرب ذهب بفضل الظلم والغصب والامتهان وسوء الادارة ، التى وحدتهما . وهذا شان كل من حاق بهم خطر عام . وليس بصحيح انه لما دخل الفرنسيس الجزائر كان فيها ٨٠٠ الف بربرى غير مسلمين ، فالاسلام دين البربر قاطبة منذ أكثر من الف سنة ، واللسان العربى هم يعرفونه جميعا الا ما ندر من جهلائهم . وقد اجتهد عمال فرنسا كثيرا فى فتنتهم فى دينهم ، ووفقوا الى بعض ما قصدوه وذلك بأن أدخلوا عليهم الشكوك فى عقائدهم ، فاصبح بعضهم معطلين أو ملحدين ، ولكن لم يتمكنوا من نقلهم من الاسلام الى النصرانية ، ولا ينكر أن كثيرا من الفرنسيس ومن عمالهم أيضا ، هم من ذوى الوجدان والاستقامة وارباب العقل والحكمة فهم عن استقامة طبع وطهارة وجدان ، تأبوا أن يزعجوا مسلمى

الجزائر فى دينهم وان يتمسكوا بعهد المحافظة على حرية الدين الاسلامى ، ومنهم عن حسن تدبير ، و بعد ادراك تجنبوا أن يتعرضوا للجزائريين فى عقائدهم وشريعتهم خوفا من انتقاضهم ، وتفاديا من زيادة نفورهم ، فهؤلاء هم الذين روجر لابون لا يزال يندد بهم ، ويقبح عملهم ، ويزعم أنهم كانوا يعززون الاسلام ، و يعاونون على تأييده ، وليس الأمر كذلك فما من فرنسوى على وجه الأرض عزز الاسلام أوسعى فى نشره ، وانما هناك فئتان احداهما ، ترى التعرض للمسلمين فى كل شئ حتى فى دينهم ، وأخرى ترى ذلك من قبيل اللعب بالنار وتتوجس من ورائه الثورات والفتن ، فلا تحب أن تتعرض للدعوة الدينية ، ولا أن تثير هذا الساكن ، وان رضيت بشئ من ذلك تنكبت فيه الطرق الرسمية . على أن تمييز غير المسلم على المسلم فى شرقى افريقية وسائر مستعمرات فرنسا ، ليس مما تمشى فيه فرنسا الضراء ، وناهيك انه من نحو عامين فقط ، اقترح أحد نواب السوسيا ليست فى البرلمان الفرنساوى الغاء قانون ، بمقتضاه لاتعطى مكافئات عقارية لذوى الخدمة النصوح الاللمسيحيين واليهود ، ومن يتنصر من المسلمين . وهذا قانون ليس بقديم العهد ، بل وضعه مجلس نواب فرنسا منذ ثلاثين سنة ، وقد أجابت الحكومة على اقتراح النائب الاشتراكى بأنه يليق الغاء هذا القانون بعد الخسائر الجليلة التى تحملها الجزائريون فداء لفرنسا . فأنت ترى كذب دعوى هؤلاء ، الذين يزعمون أن الحكومة الفرنسوية قصرت فى احتقار الاسلام واهتضامه فى الجزائر . نعم هناك فئة قليلة من الفرنسيين ترى هذا الضغط بئس التدبير ، ولعمرى كل عاقل فى الدنيا يحكم لهذه الفئة بالصواب فى رأيها .

ثم يفترى على الاسلام بقوله انه مادان به شعب الا تأخر وتقهقر ، وانه مانع ، بقوانينه الدينية من الترقى الاجتماعى . والحال أن الاسلام ليس فيه شئ يمنع الترقى ، ولا توجد شريعة فى الدنيا تقدس العلم وتعلى شأن العرفان وتجعل العلماء تلو الأنبياء كشريعة الاسلام ، واذا كانت الأمم الاسلامية قدانحط شأنها فى القرون الأخيرة لأسباب عديدة من جلتها : تكالب أوربا على بلادها ، وتظاهرها على استئصال قوتها فلم يكن نفس الاسلام هو باعث القهقرى بل كانت لذلك بواعث أخرى لم تخل منها أمة ومثال ذلك أن أوربا بقيت منحطة جاهلة ، متغشمرة ، ملفوفة فى حنادس الهمجية ، من بعد ماتنصرت بألف سنة . و بلغ من جهلها وانحطاطها أن مائة عربى افتتحوا قسما من ايطالية وقسما من سويسرة

فى أوائل القرن العاشر ، واستولوا على أكثر الجبال والمضايق ، و بنوا القلاع والأبراج ، وجاذبوا الحبل جميع ملوك تلك الأطراف ولبثوا مالكين هاتيك الحصون والقلاع ، ضار بين على أهالى تلك البلاد الذلة والمسكنة نحو قرن تام ، ولم يكن عددهم أنمى مانموا وأكثر ماكثروا ليزيد على ألف رجل ، نجتزىء بهذا الفتح العجيب عن ذكر فتوحات العرب للاندلس والجنوبى فرنسا وجنوبى ايطالية الخ وتهذيبهم أهالى جميع الممالك التى احتلوها وغلبوا عليها . فكما أن همجية أوربا لذلك العهد لم يكن السبب فيها الدين المسيحى ، فانحطاط الاسلام اليوم ليس السبب فيه الشرع المحمدى . وانما هى أدوار تتعاقب ، وتارات تتناوب ، وكل مملكة أوكل مدنية تطرأ عليها أحوال من داخلها ومن خارجها ، فتشقى وتسعد ، ثم تعود فتشقى ثانية ، ثم تعود فتسعد ثانية وهلم جرا . ولقد سعدت قرطاجنة ثم شقيت وكان دينها واحدا ، ولقد علت رومة فى أيام الوثنية ثم سقطت فىأيام النصرانية ، فهل كان الدين المسيحى هو السبب فىسقوطها ؟ كلا . ثم هذه اسبانية منذ أربعمائة سنة ، كانت أقوى مملكة وأزهر مملكة ، وكانت اكتشفت أميركا وصارت فى بسطة مستعمراتها نظير انكلترة الحاضرة ، ثم لم تزل ترجع الى الوراء حتى عادت كالعرجون القديم ، وصارت تعجز عن قبائل الريف ، ولما كانت فى عنجهية عزها كانت نصرانية ولماوصلت الى حالتها بقيت نصرانية . وكان التتر غالبين على الروس وملوك الروس يؤدونالجزية الى أعقاب تمرلنك احقابا متطاولة ، ثمأصبح التتر كلهم رعايا الروس ، وصارت الملوك الباقية لهم اتباعا وخولا لقيصر الروسيا ، ولما علا التتر كانوا مسلمين ولما انحط الروس كانوا نصارى والآن تغيرت الأحوال ، وكل باق على دينه . والدولة العثمانية الاسلامية وصلت الى بولونيه، واستولت على المجر ، وحاصرت فينا ، وصارت ملاذاً لفرنسا وناهضت أوروبا بأجمعهاقروناً عديدة ، وكانت هى مسلمة ، وكانت أوربا نصرانية أكثر مما هى اليوم . فمن العبث أن نقول ان الدين المسيحى أو الدين الاسلامى ، هو سبب تأخر هذه المملكة أوتقدمها وانما التأخر أو التقدم تكون له مقدمات وأسباب تتراكم فتعمل عملها ، وناهيك أن اليابان أمة شرقية وثنية ، بلغت باجتهادها وصدق عزيمتها أن ضارعت أقوى دولة أوربية لا بل ، قهرت أقوى سلطنة مسيحية وهى الروسية ، فلما كانت لمتزل فىدور الانحطاط جاهلة مجهولة عللوا ذلك فىأوربا بكونها أمة غير أوربية ، وغير مسيحية ، كمايعللون اليوم أسباب تأخر

ممالك الاسلام فلما نهضت اليابان نهضتها هذه ، وكذبت فلسفتهم المبنية على الاهواء والمآرب ، لم يقدروا أن يدعوا أن اليابانيين تنصروا حتى أمكنهم أن يتقدموا ، ولولا تنصرهم لما بلغوا هذه الدرجة فزعموا أن اليابانيين وان لم يتنصروا فقد تفرنجوا ، ولولم يتفرنجوا لم يصيروا الى هذه الرتبة . و بعضهم لم يجرؤ أن يقول ان اليابانيين تفرنجوا فقالوا : ان اليابانيين قاموا بانقلاب اجتماعى فى داخل بلادهم حتى رقوا هذا الرقى . ان هذا لعمرى كلام فارغ ، فان كل أمة تعتمد على العلم والعرفان ، وتعمم المدارس فى بلادها ، وتنشد الأنوار من حيث أتت ، يحصل بها انقلاب اجتماعى بطبيعة الحال ، فاليابان نشدت العلم وأخذت ماعند الأوربيين من المعارف والفنون ولكنها بقيت شرقية فى كل شئ ، بل بقيت على دينها مذهب سينتو مع مذهب بوذا ، لم تحد عنهما ، ويخطئ من يظن أن اليابان بعد أن تعلمت وترقت ، أصبحت بلادين أواستخفت بالدين . فان كان من أهلها دهريون أو قائلون بالطبيعة ، أو بوجود قوة مبدعة فحسب ، فهؤلاء يوجد منهم فى كل أمة . و بالاختصار فيمكن الاسلام أن يرقى رقى اليابان ورقى أوربا ويبقى مسلماً ولكن الفئة المستعمرة من الافرنج يريدون أن يلبثوا متسلطين على بلاد الاسلام ، فلا يزالون ينتحلون لديمومة سلطتهم عليها أعاليل ومعاذير ، من جملتها أن الاسلام دين جمود أومثار فوضى وخلل فلايترك وشانه ، كما كرر ذلك هذا الرجل عدة مرار كذبا ومينا .

ومن غريب مارواه ان قسيسا عربيا من سورية جاء بلاد الجزائر وصارت له مكانة عند أبناء جلدته عرب الجزائر ، فأولو الأمر من الفرنسيس هناك حرصا على عدم تنصير المسلمين طردوه من الجزائر ، والذى يظهر لنا ان كانت هذه الحكاية صحيحة ان هذا القسيس بسبب كون لغته هى العربية ، أراد أن يدخل مع المسلمين فى مباحثات ومناظرات دينية ، وربما يكون تجاوز الجدل الى النيل من الاسلام مما أدى الى هيجان الأفكار ، ورفع بعض المسلمين القضية الى أولى الأمر ، فخافوا الفتنة وطردوا الكاهن المذكور وبرهنوا بطردهم اياه على عقل وحكمة . ولو أن داعيا مسلما دخل بين جماعة من النصارى الذين تحت حكم الاسلام ، وطفق يجادلهم فى دينهم ويثير خواطرهم ، وكنت واليا فى ذلك المكان لطردته ، وكان فى ذلك عين المصلحة . أما قول هذا الفرنسوى أن الكاهن السورى كان عند أبناء جلدته عرب الجزائر فهوغريب فان الفرنسيس بعد دخولهم سورية جعلوا العرب

غير السوريين والسوريين غير العرب ، واجتهدوا فى اثبات كون السوريين هم من سلائل الآراميين والفينيقيين وانهم ليسوا من العرب ، حال كون السوريين هم فى الأغلب من العرب الذين أوطنوا سورية قبل الاسلام و بعده ، والذين هم من أصل فينيقى هم عرب أيضا لثبوت هجرة الفينيقيين من جزيرة العرب والذين هم من سلائل الآراميين عدا كونهم ساميين أبناء عم العرب قد ذهب الأكثرون من محقق علم التاريخ فى أوربا ، ان آباءهم الآراميين جاءوا أيضا من جزيرة العرب مهد الأمم السامية بأسرها .

ثم ادعى أنه لم تتسق للاسلام مدنيــة تذكر الا مدة قصيرة أيام الأمويين بالأندلس والعباسيين فى بغداد أى نحو ثمانمائة سنة فى الأندلس ، ونحو خمسمائة سنة فى بغـداد .... فهـذه الأدوار رآها قصيرة لتعزيز برهانه الساقط ، مع أنها أطول على كل حال من مدنيــة أوربا ، التى لم تبـدأ الا منذ أربعمائة سنة وفى القرون الوسطى كانت كمدنية أوربا اليوم . و بعد أن اتهم الاسلام بالجمود والخمول ، وعدم القابلية للنباهة ، زعم أنه أخذ اليوم يتوسل الى العـلم ، ويجتهد فى صنعة السلاح ، ولم يقف عند السلاح المادى بل تجاوزه الى السلاح المعنوى ، الذى هو الطبع والنشر وصارت له جرائد كثيرة فى الشرق والغرب قائمة بدعوة اتحاد الاسلام . اذن الاسلام لم يكن جامـدا كما يدعى هؤلاء الناس . ثم يتـكلم على اسلام السودان وانه مشوب بخرافات فتيشية ويتفاءل بذلك خيراً ، وأكثر هؤلاء على هذا النمط من التفاؤل بعدم تحقق السودان بالاسلام الحقيقى" ، فلا أكاد أقرأ لـكاتب أو سائح أوربى كلاما على اسلام الزنوج أو الجاوى أو الصينيين أو غيرهم ممن أسلموا حديثا الا رأيته يجتهد فى اثبات كون اسلامهم ليس تاما ، وانه لا تزال عنـدهم عقائد وثنيـة أو عادات وثنيـة . وكأن هؤلاء الأوربيين يسلون أنفسهم بذلك من قبيل ، اللهم اننا لا نسألك دفع القضاء ولـكن نسألك اللطف فيه . فعداوتهم لمذهب بوذا ومذهب سينتو ودين براهما ، بل لعبادة الصنم نفســه ، ليست بدرجة عداوتهم للاســلام ، الذى كله توحيـد وتنزيه . وأما قوله ان الزنجى لم يسـلم الا لينال رفعة ، ولمـا كان يرى الأوربى أعلى من المسـلم كان الأولى أن يتخذ دين الاوربى لنفســه . فنحن لا يسؤنا أن الاسود الفتيشى يصـير نصرانيا كما يسؤ أكثر الاوربيين صيرورة الفتيشى مسلما ، لاننا نعلم أن النصرانية ترقى عقله وخلقه ، وترفع سويته الاجتماعيــة عما كان . ولـكن الزنوج الفتيشيين بالرغم عن جمعيات التبشــير التى

لا تعد ولا تحصى وعن نفوذ أوروبا الذى يكنفها سواء من الدول الكاثوليكية أو البروتستانتية ، وعن « كون الاوربى هو أعلى وأقوى من المسلم » فى نظر الزنوج ، فلا يزال هؤلاء يرجحون الاسلام ، ونحو ٤٠ مليونا من هؤلاء دانوا به فى القرن الماضى ، وفى هذه المدة ، بدون بعثات ، ولا جمعيات ، ولا دول تعضد الجمعيات. ولا ننكر ان كثيرين من هؤلاء الزنوج الفتيشيين تنصروا ، وقد أحسنوا بذلك صنعا ، لكن هؤلاء فئة قليلة فى جانب الذين أسلموا كما يعترف بذلك سياح الاوربيين ، الذين جالوا فى افريقية وكتبوا عنها ، وأنفس المبشرين والرهبان الملقبين بالرهبان البيض وغيرهم ، ممن كتاباتهم ملأت الدنيا بهذه القضية .

ثم قال : ان البلاد الضاربة فى الشمال هى غير مساعدة على انتشار الاسلام فيها ، لأن طول النهار المفرط وقصره المفرط ، يحدثان خللا بمواقيت الصلاة ، فيتطرق الشك الى قلب المؤمن . الى غير ذلك من التهكم والرقاعة مما كنا نحب أن لا نجاوبه عليه لسخفه ، ولكن قلنا حيث اننا خضنا فى هذا الموضوع فلنتناوله بأطرافه فنقول :

ان أحكام الصلاة والصوم جعلت لأغلبية البلاد التى فيها النهار نهار والليل ليل ، فلا يضر تلك الأحكام بعض أقسام من الكرة هى من النادر الذى لا يعتد به . على ان الفقهاء قرروا انه فى مثل هذه الاصقاع النادرة ، التى يطول فيها النهار هذا الطول المفرط أو يقصر هذا القصر المفرط ، يكون العمل فى الصلاة والصوم مقيساً عليه فى أقرب بلد من تلك الجهات ، وانحل بذلك الاشكال ، وليس فى الاسلام حرج بل هو أوسع وأسمح مما يتخيله هؤلاء القوم أو مما يريدون أن يخيلوه لأبناء جلدتهم . وان القرآن الكريم ليس بكتاب جغرافية ولا قوسموغرافية ، بل كتاب توحيد وتنزيه ، وتهذيب نفوس ، وتطهير أخلاق ومع هذا فلم يرد فيه شىء يخالف قواعد العلم بل وجدت فيه آيات بينات يحار غير المؤمن بالوحى من شدة مطابقتها للتحقيقات الحديثة سواء فى علم الفلك ، أو فى علم تكوين الأرض مما كان فى عهد نزول القرآن مجهولا ، وذلك مثل آية « أوَ لم يرَ الذينَ كفرُوا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا منَ الماء كُلَّ شىءٍ حىٍّ » ، تأمل مافى هذه الآية من الانطباق على جميع النظريات العلمية الحديثة التى معناها ان الأرض والاجرام الفلكية كلها كانت كتلة واحدة فانفصل بعضها عن بعض ، وكذلك ان الحياة بدأت فى

المياه . ثم تأمل هذه الآية « وَكلٌّ في فَلَك يَسْبَحُونَ » التي تثبت انه لا يوجد في الفلك جرم غير متحرك على الاطلاق مع أن الفلكيين في عصر القرآن كانوا يقولون بالسيارات والثوابت حتى التجأوا يومئذ عند تفسير هذه الآية الى التأويلات والاحتمالات البعيدة ، الى أن تقرر في علم الهيئة الجديد كون الاجرام الفلكية بأجمعها متحركة ، وصدقت الآية بدون أدنى تأويل . وانظر الى قوله تعالى «منْ كل زَوْج بهيج » وكيف كرر ذلك مراراً حتى يفهم الانسان ان الخلق كله من حيوان ونبات وجماد ، مبنى على الازدواج حتى النبات فيه ذلك ، والجماد فيه القوتان السلبية والايجابية مما لم يكن شيء منه معلوما في زمن البعثة ، فلم يفهم العلماء بعد مرماه الى أن تكفلت به التحقيقات العصرية . وأمعن النظر في قوله « وتَرَى الجبالَ تحسبها جامدةً وهي تمر مرّ السحاب » مما هو المثل اللازم لكيفية دوران الأرض مع سكونها الظاهر وتدبر قوله « اللهُ نُورُ السَّموات والأرْض مَثَلُ نُورِه كمشكاة فيهَا مِصْبَاحٌ » الآية التي يشير فيها الى القوة الكهربائية وغير ذلك من الآيات التي تدهش القارىء المتعلم ، بما فيها من الحقائق العلمية بشرط أن يكون ذا ملكة عربية ، يقدر بها أن يتدبر عمق غور تلك الآيات لا أن يكون أجنبياً عن أدب العربية . وقد ألف العلامة الفلكي العظيم ، المنقطع النظير في علم الفلك والطبيعة والتقويم المرحوم الغازى أحمد مختار باشا كتاباً في تطبيق الآى القرآنية على العلوم العصرية ، جمع فيه نحو تسعين آية كريمة ، وأوضح ما جمعت من القواعد العلمية بأوجز لفظ وأقصر تعبير يعجز عن مثله البشر ، كما أنه شرح هذه النظريات كلها حسبما اتفق عليه علماء العصر الحاضر ، وأخرج منها وجوه المطابقة طالعة كالشمس ، و بلغني ان أحد الضباط الأتراك ممن نبغ في علم الفلك والهيئة ، نبوغا باهراً قد ألف كتابا ممتعا جليلا أجاد فيه الى الدرجة القصوى تطبيق قواعد هذا العلم على القرآن ، فعلمت بكتابه هذا بعض جمعيات التبشير المعهودة ، فأخذوا يراودونه في أن يبيعهم إياه بثمن جزيل لأجل أن يحرقوه ، ويخفوا من الارض كتابا فنيا يستدل به على فضل القرآن المجيد ، وانطباقه على العلم . وليس هذا ببعيد عن هذه الجمعيات المنهوسة . ولولا كوننا نتجانف عن المناقشات الدينية ، ونكرهها ونعتقد ضررها ، ونوجب حرمة الكتب السماوية التي تتمسك بها أديان محترمة كالدين المسيحي وشريعة موسى ، لأوردنا في مقابلة تهكم هذا الرجل بالقرآن أقوال العلماء المحققين من أبناء جلدته الفرنسيس

فى ابطال نظريات التوراة من جهة تكوين الارض وبدأ الخلق ولكننا نؤثر اجتناب كل قول يمس عواطف هذه الملل الكريمة التى نرى أعظم خدمة للانسانية ايجاد الوئام بينها وبين الاسلام ، ولكن ان أبي الا المراء نحيله على كلام أكبر فلكى فرنساوى المسيو فلاماريون الشهير ، فى خاطراته من صفحة ١٧٠ الى صفحة ١٧٨ حيث يذكر أنه كان مؤمنا معتقداً ناشئاً نشأة دينية ، وبقى كذلك الى الثامنة عشرة من عمره ، اذ بدأت تخالجه الشكوك وذكر أسباب هذه الشكوك وأظهر أن أصلها هو عدم الانطباق بين الفن والدين ، وأتى هناك على قصة كوبرنيك ، ثم غاليله الفلكيين العظيمين ، والحرم الذى صدر بحق الاول ثم الثانى . وان شاء التوسع فى ذلك فليقرأ كتاب « اختلاف العلم والدين » للعلامة درابر الاميركانى وغيره مما لا شأن لنا فيه ، لاننا نحن هنا فى مقام سياسى لا نحب أن نخرج عنه ولاننا نكره المناقضات الدينية ، ولسنا على رأى التهافت على الكتب السماوية بالانتقاد والتخطئة كلما وردت فيها عبارة تخالف قاعدة علمية أو حقيقة فلكية قمنا نفندها ، فان هذه الكتب انما هى لغرض آخر أخروى ، ولا بد من أن ينظر فيها الى طاقة العوام فى الفهم والآفات الغرض المقصود منها ، فضلا عما فى آيات هاتيك الكتب المقدسة من الكنايات والمجازات المألوفة فى اللغات التى جادت بها ، فلابد لقارئها من أن يلحظ هذا الأمر .

ثم قال ان الاسلام لم يوجد ليمتد الا فى صحارى آسية الواسعة التى تتجلى فيها عظمة الله ، ولا يصلح بين الأنهار والشجر الكبار التى تجد الافق بينها ضيقا كما فى بلاد خط الاستواء حيث تصعب معرفة القبلة . وأيم الله قد وصل هذا الكاتب من الرقاعة ، الى حد أن صار الانسان لا يتنزل الى الجواب على كلامه أصلا ولقد ثبت أن الاسلام منتشر فى خط الاستواء أكثر من كل مذهب آخر ، ولكن قد ظهرت نيته من هذه المماحكات ، وهى أن يحمل الحكومة الفرنسوية على عدم الاعتراف باسلام السود ، ومعاملتهم كزنوج فتيشيين تتصرف الحكومة بهم كما تشاء فى العقيدة كما أنه يوجد فى جزيرة ماداغسكر قبائل كثيرة أسلمت بواسطة الطارئين على تلك الجزيرة من عرب زنجبار وجزر القمر ، فلم تشا الحكومة الفرنسوية المسيطرة على الجزيرة أن تعرفهم بصفة مسلمين ، بل بقيت تعدهم وثنيين ولا تعتبر مسلمين الا المسلمين الغرباء النازلين بالموانى ، وما المقصود من انكارها اسلامهم الا التعرض لهم فى عقائدهم وردهم عن الاسلام قسرا .

ثم لاجل ترغيب الحكومات الاوربية فى تنصير الزنوج ومنع انتشار الاسلام قال ، ان أقليـة ذات بال من السنيغال صـارت مسيحية ، وان أهالى الاوغانده صاروا كلهم نصارى ، فليس الاسلام هو الدين الطبعى للسود كما يقال دائماً . ونحن نجاوبه انهم ان كانوا نصارى ، فهو أفضل جداً عند الاسلام من أن يبقوا فتيشيين يعبـدون الوثن أو النار أو مظهرا من مظاهر الطبيعة فان النصرانية تزلفهم من الانسانية وتبعث فيهم روح الفضـيلة ، وتنتاشهم من ذلك التوحش الذى كانوا فيه . وذلك بخلاف ما يتمنى كثير من الأوربيين ، الذين أعمى الغرض قلوبهم من أن يبقى الزنوج على الفتيشية ولا يصيروا مسلمين ، مع أنهم فى دخائل ضمائرهم يعلمون مزايا الاسلام العالية ورغبة أهالى افريقية فيه أكثر من غيره .

أما قوله ان جميع أهالى الاوغانده صاروا نصارى ففيه مبالغة وهو مثل قوله ان بلاداً بأسرها مثل هرر صار أهلها نصارى . وهاك ما ورد عن الأوغانده فى انسيكاو بيدية المسيو موريس فال Maurice Wale التاريخية الجغرافيـة ومؤلفها من فحول علمـاء فرنسا ، وهو مفتش المعارف العمومية فى المستعمرات أى خبير بأحوالها فهو يقول عن الأوغانده : « انها قطر فى الشمال الغربى من بحيرة فيكتوريا نيانزا ، مساحتها ١٥٠ ألف كيلو متر مربع وأهلها مليون نسمة ، قد حصلت فيها قلاقل على أثر موت الملك متيزا بسبب المناظرات الدينية بين المسلمين والكاثوليك والبروتستانت ، وقد تغلب البروتستانت على الآخرين بعضد ضباط الانكليز لهم ، والاوغانده هى تحت حماية انكلترة » انتهى . قلنا ان الانكليز اقتطعوا الاوغانده من أصل السودان المصرى استبداداً من عند أنفسهم وضموها الى مستعمراتهم ، ولم يرضوا أن يبقوها من جملة السودان المصرى ، لأن السودان المصرى هو بزعمهم تحت حكم مشترك بين انكلترة ومصر فالانكليز مضطرون أن يقبلوا ولو بالاسم بقاء حصة لمصر فى حكم السودان المصرى ، لـكنهم يريدون أن ينفردوا وحدهم بملك الأوغانده ، وقد عززوا البعثات البروتستانية هناك بكل قوتهم ، ولـكنهم لم يقدروا أن يستأصلوا الاسلام من تلك الأرض .

وأما عن هرر فيقول المسيو فال «انه قد افتتحها منليك نجاشى الحبشة سنة ١٨٨٧ ، وكانت من سنة ١٨٧٥ تابعة لمصر ، وان أهلها ٣٥ ألف نسمة مسلمون شيعة . أما فى دائرة المعارف الاسلامية فيقول ان أهلها ٥٠ ألف نسمة ، منهم الثلث من أهل البلاد الأصليين ، والباقون بين سوماليين وأحبـاش وهنود وسوريين وأرمن وروم وأوربيين . الى أن يقول ان

الاسلام دخل هرر منذ سنة ١٠٠٠ للمسيح ، فهو فيها قديم جداً ولا يزال يطرأ عليها أناس من جزيرة العرب ومصر ويبثون دعوة الاسلام من هرر فى بلاد غالا Galla الوثنية ، وقد نقصت هذه الدعوة قليلا بعد مجيء الحبش المسيحيين ، لكن مسلمى هرر لا يزالون معدودين من المتشددين فى دينهم » وقد ذكر المسيو موريه Morié الفرنساوى فى كتابه تاريخ الحبشة المطبوع سنة ١٩٠٤ . أن الامبراطور منليك بعد أن فتح هرر وبدد جمع الأمير عبد الله على عبد الشكور ، هدم الجامع الأعظم فى هرر وأقام محله كنيسة . ولم يقل ان أهل هرر تركوا الاسلام ، ولا أحد قال انهم تركوه .

ثم قال انه كان عمل المبشرين شاقاً فى البلاد الاسلامية ، فهذا من أجل كونهم يحاولون وضع عقيدة أمم راقية جداً محل عقائد أقوام هم فى أدنى الدركات . فنحن نمسك القلم عن الرد على هذه الفقرة التى لا تدل على شيء سوى قحة كاتبها على حين أن الاسلام يهزأ بهذه المطاعن على أن لابون يجعل نصرانية القرون الأولى [1] أيضاً من قبيل الاسلام فى ملاءمته للمستوى العقلى المنخفض ، فليتأمل الانسان وليتدبر فى قحة هؤلاء الناس حتى على الدين الذى ينتمون اليه ، ويريدون بث دعوته بزعمهم .

وبعد أن أشار بالتضييق على التعليم الاسلامى ، ومراقبة من يواظب على صلاته من مسلمى السنيغال ، وبين مضار الحج ، وحرض على جميع هذه التدابير ، التى يعلم منها مبلغ احترام هؤلاء القوم للحرية الدينية ، عاد فأشار بالطرق الآئلة الى قلع اللغة العربية من شمالى افريقية ، وجعل الفرنساوية لغة الأهالى .

ومن الغريب أنه استشهد على وجوب هذه الطريقة ، بكلام بول برت الذى يقول : ان حل المسألة العربية هو بالكتاتيب ، وأتمنى أن أرى فى كل قرية من قرى المغرب معلما عربياً ومعلماً فرنسوياً ، فكلام بول برت كلام رجل عاقل مجرب لا غبار عليه ، وليس منا من يكره أن يتعلم مسلمو المغرب وافريقية اللغة الفرنسوية ، بل نود ذلك من صميم أفئدتنا . وانما الذى يعارضه المسلمون بكل قوتهم هو أن تحل اللغة الفرنسوية محل اللغة العربية ، وتصير هى لغتهم القومية ، اذلا يوجد فى الدنيا قوم يرضون بسلب لغتهم مهما كانت ، فما ظنك بالناطقين بالعربية التى يفتخر بها كل منسوب اليها ، ويجل قدرها

---

(١) أى النصرانية التى هى قريبة العهد من السيد المسيح والحواريين

حتى الغرباء عنها . وأما استشهاده بانتشار اللغة الفرنسوية فى الشرق وزعمه أنه قد تعلمها الأكراد والترك والعرب والأرمن والكرج الخ ، فمع كونه بالغ فى دعواه هذه مبالغة عظيمة اذ ليس الامر كما يقول ، وان تعلم الفرنسوية منحصر فى الطبقة الراقية فقط ، فانه لا ينطبق على الغرض الذى يتوخاه ، لأن مقصود هذه الفئة المستعمرة أن تمحوا اللغة العربية تدريجاً من المغرب ، وتحمل الناشئة الاسلامية منذ الصغر على اللغة الفرنسوية توسلا بذلك الى محو الاسلام ، القائم هناك باللغة العربية . مع ان الأمم الشرقية التى يذكر أنها كلها تعلمت اللغة الفرنسوية لم تجعل هذه اللغة لسانها القومى ، بل جعلتها فى مقدمة اللغات الأجنبية التى يناسب تعلمها لاغير ، فلذلك لم يحدث من تعلم الفرنسوى أدنى محذور ما دام تعلما اختيارياً لا يضر باللغات القومية ، بل يزيدها علماً . ولكن متى حاولت فرنسا عمداً وقصداً قلع اللغة العربية رأسا أو تدريجا ، وقصر المغاربة على الفرنساوى ، قامت عليها القيامة فى جميع تلك الأقطار وفى غيرها ، وأظن أن العقلاء فى فرنسا يدركون استحالة ذلك .

ولقد تقدم فى هذه العجالة ما يكفينا مؤونة الرد على سائر كلامه ، الذى تجده كثيرا ما ينقض بعضه بعضا ، ومن جملة تناقضاته أنه بعد كل حملاته الشديدة على الاسلام يقول انهم لا يحذرون فى تونس من عامة الأهالى الراتعين فى السعادة والامان (١) ولا يحذرون من الاسلام نفسه ، الذى أعلى نفوس هذه الأقوام ، حتى تحملت ما تحملته من الخسائر الفادحة . فعرف هنا أن الاسلام يعلى النفوس ، وينهض بالهمم . قال ولكنهم يحذرون من تلك الطبقة المتعلمة الذين قرأوا أشياء فاساءت هضمها عقولهم . ولعمرى ما من أمة فى الارض قام بتحريرها الا نبهاؤها والطبقة المتعلمة منها فلماذا اذا قام الأروام أو البلغار أو الصرب أو الأرمن أو الكرج الخ ، بطلب استقلالهم كانت الطبقة الناهضة منهم محل اعجاب اوربا وثنائها ، وعطفت جميع تلك الدول المتمدنة عليها ، فاذا جاء الدور الى أمة مسلمة تطلب تحريرها ، قامت أوربا سداً فى وجه مطالبها ولو كانت هى اليوم أرقى من هاتيك الأمم عندما نهضت للاستقلال ؟ لماذا كل ما هب قوم من الشرقيين والمسلمين لطرح نير

---

(١) كما هم راتعون أهل سورية الآن بل أهل سورية لا يزالون أسعد حالا لأن اليد لما تمتد الى غصب أراضيهم وأوقافهم

العبودية عن أعناقهم رموا بالتعصب والتعنت ، وكراهية الأوربيين ، وقيل ان ذلك هو من عمل القرآن فى قلوبهم ، ومن تحريض رجال الدين . وان كان المطالبون منهم هم من الفئة التى طلبت العلم فى اوربا ، واتصفت بعدم التدين ، قيل انهم طبقة قد قرأت أشياء لم تحسن هضمها ، هذه الجملة التى لا نزال نجدها فى كلامهم بكرة وأصيلا ، كلما تكلموا عن أمة اسلامية أو شرقية يطالب نبهاؤها بتحريرها قالوا عنهم هذه الجملة : قرأوا أشياء أساءوا هضمها .

اجمال الكلام أنهم غلبوا على هذه المستعمرات واستعبدوا هذه الأمم ، فيريدون أن يحتاطوا لأجل تأبيد سلطانهم عليها بجميع الوسائل ، ولايقفون عن شئ فى سبيل احكام سلاسل هذه العبودية ، ظانين أنهم يحفظونها راسفة فى هذه الأصفاد الى الأبد ، فتراهم يفكرون فى تهيئة الأسباب لاستئصال كل مايخشون وقوفه فى وجه مآربهم السيئة ، من دين ، ولسان ، وقومية و وطنية وماهم بقادرين على شئ من هذه المكايد الشيطانية ، التى لايزيدهم استعمالها الا خبالا . وان كان ثمة أمل بحسن العلاقات وتمكن الألفة بينهم و بين تلك الأمم ، فلا يكون الا بسياسة العدل والمساواة ، واحترام ديانتهم ولغتهم ، والعدول عن تلك الأساليب الاستعمارية الخبيثة مما هو برنامج أحزاب الشمال منهم .

وان كان ظن هؤلاء الجماعة أن تنصير السودانيين أوالمغاربة ، يؤمنهم أبديا على تلك المستعمرات ، ويكفيهم شر استقلالها مما صرح به بقوله : « لسنا فى الجزائر كالانكليز بمصر اذهم يعتمدون فيها على أقلية قبطية ». فهذا وهم عريق فى البطلان ، لأن هؤلاء الأمم سواء كانت مسلمة أو نصرانية ستطلب استقلالها وتأخذه وأنت ترى أن أمما كثيرة ثارت على أمم كانت تسودها ، ولم يمنع من ذلك اشتراك السائد والمسود فى الدين ، ولديك امبراطورية النمسا أعظم شاهد ، وان قيل ان ذلك يكون فى أوربا المتمدنة لافى أفريقية أتيناك بمثل الحبشة مع انكلترة ، ثم مع ايطالية ، أفتحملت الحبشة حكم الطليان لكونهم نصارى وكونها هى نصرانية ؟ كلا . ثم يقول لسنا كالانكليز الذين يتوكأون بمصر على أقلية قبطية . فهذه لعمرى مكابرة فى المحسوس ، اذ يكاد أن يكون الأقباط بمصر أشد تمسكا باستقلال مصر وجلاء الانكليز عنها من أنفس المسلمين ، فأى توكؤ توكأته انكلترة عليهم ؟ وأعجب من هذا أن الزنوج الذين تنصروا فى غربى افريقية يكرهون الأوربيين

كما يكرههم الزنوج المسلمون وتجد الفريقين متحابين يود بعضهم نجاح بعض ، وقد تلاقى بعض المسلمين مع بعض كبار السودانيين النصارى فى لندن ممن هم حكام فى بلادهم تحت سيطرة الأوربيين ، فوجدهم يتمنون فوز المسلمين كما يتمنون فوز أنفسهم . وفى العام الماضى تقابلنا فى جنيف باثنين من رجال جهورية ليبريا فى غينية[1] وكانا من الأوربيين يمثلان ليبريا فى جمعية الأمم ، فأخبرانا ان هذه الجهورية التى تأسست سنة ١٨٢٢ للعبيد الذين تحرروا فى أميركا ، واعترفت الدول باستقلالها سنة ١٨٤٧ ، يسكنها اليوم مليون ونصف مليون نسمة ، منهم مليون ومائتا الف مسلم ، وثلاثمائة الف مسيحى و بينهم ٥٠٠ أوربى فقط . والمسلمون والمسيحيون هناك يعيشون كالاخوة ، و يغارون جميعاً على وطنهم . فهذا سيكون مصير افريقية فى يوم من الأيام بازاء المستعمرين ، ولاينفع الأهالى كون أهل افريقية من هذا الدين أو ذاك الدين .

* * *

ولنأت بشاهد آخر على نيات الفرنسيس بحق مسلمى مستعمراتهم ، وهو كتاب للمسيو بريفيه J. Brévié والى بلاد النيجر الفرنساوى ، الذى عليه صفة رسمية ولا يمكن أحداً أن يمارى بقوله انه كاتب منفرد برأيه الخاص ولا انه خال من الصبغة الحكومية ، فانظر ماذا تقول جريدة الاوفر L'œuvre ، المعروفة انها من الجرائد الحرة ومن حزب الراديكال فى عددها المؤرخ فى ٢٢ يونيه سنة ١٩٢٣ . تحت عنوان :

الجنس الأسود والاسلامية

قدنشر المسيو بريفيه حاكم مقاطعة النيجر كتابا ممتعاً ، يشرح فيه المقاومة الناجحة التى تبديها الأمم السوداء للاسلام فى السنين الأخيرة ، حال كونه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، غلب الاعتقاد بأن جميع الأجناس الزنجية صائرة الى الاسلام لامحالة ، فالآن مشهودة حركة بالعكس ، و بالرغم من الوعظ والارشاد اللذين يقوم بهما المبشرون المسلمون تجد الزنوج متمسكين بعقائد آبائهم وعادات أسلافهم .

فالمسيو بريفيه فى كتابه المسمى « الاسلامية ضد الطبيعية . فى السودان الفرنساوى » Islamisme contre Neturalisme au Soudan Français يعترف أنه مهما كان من مدنى الفتيشيين فى درجات الحضارة فليس من المستحيل عليهم الترقى والتمدن ضمن دائرة

(١) افريقية الغربية

قوميتهم وخارجا عن الاسلام . ففي السنين الأوائل من استيلاء فرنسا على غربي افريقية كان عمالنا بسبب معرفتهم المدنية الاسلامية يميلون الى دعاة الاسلام الذين أمكنهم هكذا ان يبثوا بكل أمان تعاليم هي فى الظاهر أرقى من عقائد الفتيشيين (تأمل) أما الآن فتقهقر الدعوة الاسلامية ، أمر لم يبق فيه شك . وان احصاء عدد الناشئة المتعلمة من المسلمين يتناقص فى بلاد النيجر ، كما انه لم يتقدم الى الأمام فى سائر البلدان التى امتد اليها الاسلام من قبل . وقد عزا المسيو بريفيه هذا التقهقر الاسلامى الى تناقص عدد الزعماء ، والى تزايد عدد مدارسنا التى زاحمت مدارس المشايخ المرابطين ، والى الغاء تجارة الرقيق التى هى من الأركان الاقتصادية عند تجار المسلمين ، والى الأمر بعدم مراجعة قضاة الشرع .

فالآن سياستنا عاملة بهذه المبادئ ، وقد توزع بلاغ على مأمورى الادارة مصرح فيه بما يأتى : « يجب التزام الحياد مع الانتباه التام بحيث ان كلا من فريقى الاسلام والفتيشية يمكنه أن يترقى وينمو فى وسطه بدون تسلط هذا على عقيدة هذا ».

وقد وجد الأنسب حفظ تلك الهيئة الاجتماعية ، التى كان لها فى الماضى زعماء تمثل عاداتها ، والتى هى الصورة الحقيقية لمنزع ذلك العرق الأسود وابقاء تشكيلاتها البلدية المبنية على مبدأ المشيخة ، والعمل بأحكام قضاتها ، الذين كان يضرب بعدلهم المثل حتى يقال فى الحكم الذى قد استوفى شروطه : « هذا حكم من أحكام البامبارة القدماء . »

والحقيقة أن الغرض هو احياء عادات الزنوج القديمة وتقاليدهم الموروثة التى نشأوا عليها ويقول المسيو بريفيه : « انه يوجد من ذلك قواعد قضائية كافية لأجل حل المشكلات الاجتماعية وفصل الخصومات الفردية ، وهى من وجوه كثيرة لاتقل متانة عن الشرع الاسلامى . وانه يجب علينا أن نجمع تلك الهيئة الاجتماعية ، التى توشك أن تنحل ، والتى هى متفرقة أشتاتا حول تلك الأصول القديمة . انتهى .

فليسمح لنا القارئ أن نأخذ من هذا الكلام النتائج الآتية :

أولا — ان كتاب حاكم مقاطعة النيجر الفرنساوى ، والمنشور الرسمى الذى أشار بصدوره الى مأمورى الادارة يدلان دلالة واضحة على كون فرنسا قد بدأت تقاوم انتشار الاسلام بنفوذ الحكومة ، وان عبارة وجوب الحياد مع الانتباه لمنع تسلط عقيدة أمة على أخرى ، هو من قبيل التمويه ، فانه ولا فى وقت من الأوقات تسلط الاسلام بالقوة فى المستعمرات

الفرنسوية عـلى عقائد الفتيشيين ، كما أنه ولا فى وقت من الأوقات روج عمال الحكومة الفرنسوية فى المستعمرات الدعوة الاسلامية ، بل غاية ماهناك ان عمال الادارة الفرنسوية لم يكونوا يناصبون الدعوة الاسـلامية العداء ظاهراً ولم يجتهـدوا فى منع انتشارها كما هم مجتهدون اليوم ، وذلك كان منهم عملا بمبدأ الحرية الدينية المشهور ، فالآن لما هالهم تقدم الاسلام بين الزنوج قرروا توقيف نموه فعلا ، بحجة أنهم لايسمحون بتسلطه على عقائد الفتيشيين . وتحت هـذه الجملة « منع تسلط عقيدة على أخرى » ، يعملون ما يشاءون لمنع المشايخ المرابطين من بث دعوة الاسـلام بين السودانيين ، واقفال المدارس التى يمكن أن يفتحها المسلمون فى قرى الوثنيين ، وغير ذلك من التـدابير التى ليس على الفرنسيس فيها من رقيب ولا حسيب هناك ، ولا ينتظر القارئ أن يجدها مكتوبة على الورق وان كانت جارية بالعمل . ولا شـك ان اغتباط حاكم النيجر بعدم تقدم الاسلام ، فى هذه السنوات الأخيرة فيما بين الزنوج ، وتفاؤله بحسن المستقبل ، هما من آثار التـدابير الحكومية التى اتخذتها فرنسا لمنع انتشار الاسلام ، والتى يشير بها روجر لابون وأمثاله ، لوقف الدعوة الاسـلامية فى غربى افريقية وأواسطها . ولقد ظهر هنا اننا كنا على صواب فى قولنا ان آراء روجر لابون لم تـكن آراء فرد مستقل بفكره ، بل هى آراء الحزب الأغلب بفرنسا بدليل كتاب المسيو بريفيه هذا ، والأوامر الرسمية الصادرة فى هذا المعنى .

ثانياً ـ يظهر جيدا من قول الحاكم المذكور ، وكلام جريدة الاوفر ، أن الفرنسيس عولوا عـلى احياء عادات الفتيشيين وعقائدهم ، واجراء الأحكام بموجبها ، ومعلوم انه لم يكن ذلك اعجابا بها ولا اعتقادا بأنها تشبه الشريعة الاسلامية فى شئ ، بل من باب اختيار أهون الشرين عليهم ، فانهم لما رأوا دعوة التبشير الأوربى غـير ناجحة بين الزنوج كما يرومون ، وانه لانسبة بين ما يكسبه الاسلام وما تـكسبه النصرانية فى افريقية ، بسبب كون الأسود يكره الأوربى فطرة وينفر من تقليده فى دينه ، عادوا فرأوا ان بقاء الفتيشيين على عقائدهم الوثنية هو أوفق لمصلحة فرنسا من تدينهم بالاسـلام ، فوجدوا الاحزم أن يعملوا لتاييد الفتيشية ، ويجعـلوا عاداتها وعرفها قوانين جارية معمولا بهـا ، ويعترفوا باقضية الفتيشيين ، وبالجملة فـكل شئ يهون عند الأوربى ـــ الا النادر الاندر ـــ بالنسبة الى فوز الاسلام ونجاح دعوته .

ثالثا – من كلام المسيو بريفيه يتبين أنهم بدأوا بقصر القضاء الشرعى الاسلامى ، لقوله ان من جملة أسباب تناقص النشء الاسلامى ، هو «الأمر بعدم مراجعة قضاة الشرع» فانت ترى مافى ذلك من الاخلال بمبدأ الحرية الدينية ، ومن معارضة المسلمين رأسا بأمور دينهم ، على حين ان الفرنسيس فى الوقت نفسه يريدون احياء أقضية الوثنيين ، ويجعلون اصطلاحاتهم القديمة قوانين وأصولا يرجع اليها فى الأحكام . ولا يبعد أن يكونوا قد اجبروا أنفس المسلمين على مراجعة قضاة الوثنيين توهينا لنفوذ الشريعة الاسلامية ، الذى هو هدفهم المرمى المتجلى وراء كل حركة من حركاتهم وتدبير من تدابيرهم . وان لم يكونوا اجبروا جميع المسلمين على ذلك ، فلا بد أن يكونوا ساقوا الى ذلك الزنوج ، الذين أسلموا حديثا ، لأنه ظهر ان الحكومة الفرنسوية عولت على ان لاتعترف باسلام من يريد أن يدخل فى الاسلام من الآن فصاعداً من الأمم السوداء ، وقد أسلمت قبائل كثيرة فى ماداغسكر ، فلم ترض السلطة الفرنسوية فى تلك الجزيرة أن تحصيها فى المسلمين ، ولا أن تعتدها مسلمة بوجه من الوجوه ، واحتجت لعملها هذا المخالف لكل حرية دينية ، بأن اسلام تلك القبائل هو خليط بعقائد وثنية . وربما يكونون اجبروا على التقاضى عند قضاة القبائل الوثنية من كان قد أسلم من هاتيك القبائل بحجة أنهم كلهم من أصل واحد ، فأمة « البامباره » هذه المنتشرة فى السودان الفرنساوى ليست بأجمعها وثنية ، بل منها قسم كبير لاسيما أهل كارتا Kaarta مسلمون . والا فما معنى قول المسيو بريفيه ان من جملة أسباب تناقص الناشئة الاسلامية ، الأمر بعدم مراجعة قضاة الشرع الاسلامى ؟

رابعا – قد نوه المسيو بريفيه حاكم النيجر وتابعته جريدة الاوفر بمحاسن قضاء البامباره ، ومتانة أصولهم وأوضاعهم ، وظهر أن الفرنسيس يريدون أن يجعلوها دساتير للاحكام وصرح الحاكم المذكور انها لاتقل عن الشرع الاسلامى متانة ، وغير ذلك من المزاعم التى حملهم عليها مجرد رغبتهم فى منع العمل بالشريعة الاسلامية . والحقيقة انه ليس عند البامبارة شىء من هذا ، فالبامباره جيل من السودان الفرنساوى يحد بلادهم شمالا السودان الذى يسكنه المغاربة من كولودوغو Kulodugu الى تامباكاره Tambakara وجنوبا السنيغال الأعلى من مدين Medine الى بافولابه Bafoulabe أى بين ١٢ الى ١٤ من العرض الشمالى و ٦ الى ١٠ من الطول الغربى (من باريز) وهم أهم أجيال الجنس

الماندى . وقد وصفهم السياح الأور بيون بالعمل والحرص ، والاقتصاد ، أما عاداتهم وأوضاعهم ففطرية ، اذ الأب هو رئيس العترة والمتصرف بها كما يريد ، والأولاد الى سن الرشد ارقاء له ، وهو يزوج بنته بدون علمها كما أن البنت متى تزوجت صارت أمة لبعلها ، والطلاق عندهم مباح ،كذلك تعدد الزوجات ، والارث ينتقل من الاخ الى الاخ . وكانوا ينقسمون الى طبقات ثلاث ، الاشراف وهم المحاربون ويقال لهم تونتيغى ومعنى تونتيغى قوّاس ، ثم الفلاحون ، ثم العبيد ، أما الآن فيرأسهم الاسر الملوكية القديمة مثل بنى « كاروبالى » و « دياره » و « ماساسى » ويأتى بعدهم طبقة يقال لها «نومو » أى الحدادون ، ثم طبقة يقال لها «غارانغوى » أى صناع الجلد ، ثم طبقة السحرة ، ثم الارقاء . وكل قرية من قراهم ، لها زعيم يفصل فيها الخصومات بموجب أصول يتوارثها الخلف عن السلف . وهذه القرى المرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً واهياً لاتشتد أواخيه فيما بين البامباره الا عند قتال عدو عام ، كما حصل فى حروبهم مع الاسلام . وللبامباره لغة اسمها « البامانا كا » هى من جملة لغات امة الماندى ، وهى فى منتهى الاختصار ، فليس من حالات للاسماء ولا للأفعال ، بل هى تلزم حالا واحدة فى المفرد والجمع والمذكر والمؤنث والحاضر والماضى والمستقبل . والكتابة عندهم قليلة وانما يستعملون لها الحروف العربية ، وليس للغتهم آداب ، وانما هى أخبار وقصص لاتنتهى الى أبعد من القرنين الأخيرين ، و بعض أغانى يرقصون عليها . وأما ديانتهم فهى وثنية محضة ، وكل عائلةعندهم لها حيوان معبود اسمه تنه Tenné لايقدرون ان يقتلوه ، ولا أن يأكلوه ، ولاأن ينظروا اليه اجلالا له . و يعتقدون ان الاسلاف ، هم حافظون للاخلاف ، لذلك يدفنون موتاهم فى دهاليز بيوتهم ، ويضعون اشارات على مدافنهم كصور وجوه أو أيد ، و يقدمون عليها القرابين ، ومن قبل كانوا يذبحون الاسرى . وكثيراً ما يعبدون أشجاراً يذبحون أمامها الحيوانات قربانا ، من غنم وكلاب وديكة ، ور بما قدموا لها الفواكه والحبوب . وهم يسيجون مثل هذه الاشجار المقدسة بالعليق . وأما السحرة ، فهم عندهم بمثابة الكهنة يخرجون من طبقة الحدادين . ولهم جمعيات سرية ، و يتكهنون بالمغيبات و يفحصون احشاء الحيوانات التى تقرّب بذبحها ، و يطوفون فى الليالى بين القرى مرتدين البسة مخيفة يقصدون بها القاء الرعب . وليس للبامبارة تاريخ معروف سوى انهم كانوا من جملة الاجيال

التابعة لسلطنة مالى الاسلامية ، فلما سقطت هذه السلطنة أصبحوا مستقلين بأنفسهم ، وأسس أحد زعمائهم المسمى « كالاديان كور و بارى » على البلاد الواقعة على ضفتى النيجر مملكة واسعة ، وقام من بعده أولاده فتنازعوا فيما بينهم حتى آل الملك الى أحد احفاده المسمى « بيتو » ، فجمع تحت حكمه جميع بلاد البامباره وملك مدة ٣٠ سنة ، وخلفه ابنه فوسع ملكه ، ثم جاء ملك اسمه « نغولو » فبسط ملكه حتى حدود تمبكتو . وفى النصف الاول من القرن التاسع عشر كان منهم ملوك أعزة فى «سيغو» و «مانسونغ» و«دودياره» تغلبوا على بومبارية « كا آرتا » وضربوا الجزية على أهل «ماسينا» و « فوتا » (١٨٣٠) وكان لهم امارة أخرى فى « الكا آرتا » أسسها فى أواسط القرن السابع عشر « سا كابا » ابن كلاديان كار و بارى ، ثم انتقل الملك من أعقابه الى امارة أخرى صاحبها « سيه ماسا » استمرت فى أعقابه الى أواسط القرن التاسع عشر فى « نيورو » هذا هو ملخص تاريخ البامباره .

وفى أواسط القرن التاسع عشر ، ظهر الحاج عمر الشهير ملك «التيكولور » فاستولى على الكا آرتا وأزال ملكها ، و زحف الى مملكة سيغو ، وكان ملكها قد تحالف مع ملك ما سينا لصد الاسلام ، فسقط كلاهما ودخل الحاج عمر الى سيغو فى ١٠ مارس سنة ١٨٦١ وأقام بكر أولاده ملكا عليها . ولكن البومباره انتقضوا عدة مرار على المسلمين ، وفاز منهم قوم « البليديغو » بالاستقلال ، وقطعوا ما بين سلطنة التيكولور ومملكة سيغو ، ودام ذلك النزاع الى سنة ١٨٩١ ، اذا وصلت الجيوش الفرنسوية واحتلت البلاد وأزالت سلطنة التيكولور الاسلامية . وجاء فى دائرة المعارف الاسلامية الفرنسوية ، ان البومباره يمثلون فى السودان الفرنساوى ، العنصر المخاصم للاسلام . وقد أيد هذا القول كلام حاكم النيجر فى كتابه السابق الذكر ، وسياسة الحكومة الفرنسوية التى يظهر انها تريد لتحيي العداوة التى كانت عند هذه الأمة للاسلام . وتجعل البامبارة سداً فى وجه المسلمين . فأما الأصول والعادات التى أشار المسيو بريفيه الى متانتها من تقاليد البومباره ، فقد مر بك من مجملها ما تعلم به انحطاطها وانحطاط عقائد أولئك القوم ، الذين يعبدون الحيوان والشجر وما أشبه ذلك ، ولا يخجل المسيو بريفيه من أن يقول : « انها لا تقل عن الاسلام متانة وان تعاليم الاسلام هى – فى الظاهر – أرقى من تعاليم الفتيشيين » . ومتى كان الوالى من

ولاة الفرنسيس على تلك الديار ، يبلغ به التعصب وموت الضمير حد أن يقول مثل هـذا القول ، فاذا تأمل من عدله وانصافه بين هاتيك الرعية ...

خامساً ـ تحقق هنا بالرغم من تمويه الأمر الرسمى الذى يوصى بالمساواة ، أن فرنسا تحاول هناك بنفوذها وقوتها،وكل وسيلة لديها ، أن تمنع انتشار الدعوة الاسلامية ، وتفضل أن يبقى الزنوج على عبادة الحجر والشجر والكلب والهر وغير ذلك ، على أن يدينوا بهذه الديانة السامية النقية ، التى هى الاسلام . وهذا لعمرى منتهى الغلو فى العدوان ، اذ لايشك أحد فى كون المسلمين يريدون ان كان هؤلاء الزنوج لم يشرح الله صدرهم للاسلام ، أن يدين هؤلاء بالنصرانيـة ، ويردوا شرعة تهـذيبها ، ولا يستمروا على تلك العقائد التى لا تليق بالانسانية . ولقد تذكرنا بهذه القضية قصة رواها المؤرخون ، ونقلها المستشرق الفرنساوى العـلامة البارون « كارادوفو » Kara de Vaux فى كتابه « ابن سينا » وهو أن الخليفـة المأمون العباسى بينما كان مرة غازيا بلاد الروم ، مر ببلدة حرّان ، فالتقاه أناس بزىّ غريب وأثواب ضيقة يرخون ذوائبهم فسألهم : من أنتم ؟ فقالوا : حرانيون . فقال ، أأنتم نصارى ؟ قالوا ، لا . قال أفيهود أنتم ؟ قالوا لا . قال أفعنـدكم كتاب الهى أو لـكم رسول ؟ قالوا لا . قال لهم ، ان كنتم لا ترغبون فى الاسلام ، فتنصروا ، أو تهودوا ، واتخذوا ديناً يعرفه الاسلام . فأنت ترى أن المسلمين لا يضيق صدرهم بنصرانية الوثنيين ، ولـكن الأوربيين يفضلون كل انحطاط فتيشى على كل معالى الاسلام ، وهم مع هذا يدعون خدمة الانسانية والمدنية .

ونختم هذا المقال بكلام قاله الحاج عبـد الله الجزائرى نزيل برلين ، فى مقالة نشرها فى مجلة العالم الاسلامى الألمانيـة [1] وذلك على « الآباء البيض » الذين أسس رهبانيتهم الـكردنيال لا فيجرى ، وأرسلهم يطوفون فى بلاد الاسلام بافريقية بزىّ المسلمين ، ويدخلون فى كل ناد ويتحككون بكل عائلة ، ويتوسلون بكل وسيلة لاجل بث دعوتهم بين الناشئة الاسلامية ، متسلحين لذلك بنفوذ الحكومة الفرنسوية ، التى هى عضدهم أينما ذهبوا وكيفما انقلبوا . فبعد أن أفاض الحاج عبـد الله المومأ اليه ، وهو من خيرة رجال العلم والادب ، والمتمكنين من اللغة الفرنسوية فى ذكر الفتن التى أحدثها هؤلاء الآباء البيض

(١) التي كان يصدرها أثناء الحرب الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش والاستاذ عبد الملك بك حمزة

فى وسط الأسر الاسلامية بالمغرب ، والعقائد التى تخلخلت على أيديهم ، والبشوق التى انفتقت بواسطتهم ، وكيف أن الحكومة الفرنسوية – التى يقولون انها لا تقوم بدعوة دينية – كانت تميز المتنصرين على غيرهم، وتعفيهم أحياناً من العقوبات ، وتستثنيهم مما لا تستثنى منه غيرهم ترغيبا لهم، فى أن يصبأوا عن دينهم قال ما يأتى : « نحن لا نريد أصلا بهذا أن نوجه أدنى طعن على الدين الكاثوليكى ، ونحن نعلم أن جميع الاديان جيدة ، وأن كلا منها يدعو المتمسكين الى الفضيلة وحسن التربية ، ولا نعترض فيما لو كان المسلم يصبأ عن دينه باقتناع وجدانه ، وانما دعوة الآباء البيض لها شكل آخر ، فانهم يهجمون على الاسلام فى كل مكان ويحولون بين الأب وابنه ، والأخ وأخيه ، ويخربون نظام العائلات فيضطر الاب أن ينكر ولده ، والاخ أن يهجر أخاه ، والعشيرة أن تبرأ من بعض أبنائها . وغالباً يخرج مثل هؤلاء الذين اجتذبهم الآباء البيض مفسدين لا هم من الجياد لا فى الاسلام ولا فى النصرانية . »

ونحن نرى أن ارخاء العنان للآباء البيض فى بث الدعوة الدينية بين مسلمى افريقية، وتحرش فرنسا بهذه المسائل ولو من تحت ستار مما يضرها فى سياستها ، ويجر عليها من المتاعب أضعاف ما تتوخى ربحه ، فانه لا يهيج الاحقاد ولا يورث الضغائن شىء ، مثل المنازعات الدينية ، التى لا يفلح قوم جعلوها قطب رحى سياستهم .

الاسلام فى افريقية (١)

للأمير شكيب

من أعظم الكتب المؤلفة فى هذا الموضع كتاب
« الاسلام والنصرانية فى افريقية » تاليف المسيو بونه مورى
L'Islamisme et le Christianisme en Afrique G. Bonet Maury

وقد نقل عنه المستر ستودارد بعض أشياء ، ونحن نلخص منه ما يأتى ، لأنه جمع فاوعى فى تاريخ مسابقة الاسلام والنصرانية فى القارة الافريقية . قال :

« ان الاسلام انبسط على افريقية الشمالية الغربية ، فتحولت هذه الاقطار دار اسلام رغبة أو كرهاً ، لكنه افتتح افريقية الشرقية سلماً . وكان مبدأ ذلك بواسطة تجار العرب والهنود الذين كانوا يفدون على تلك الديار زرافات ، فوصلوا الى رأس Cuardafui والى جنوبى Capricorne . ولقد وجد منذ القرن الألف بعد المسيح مسلمون فى كيلوان ، على أكثر من ٢٠ من العرض الجنوبى أدنى من زامبازه Zambéze » الى أن يقول :

« فى أواخر القرن الحادى عشر (للمسيح) طمست أكثر الكنائس الارثوذكسية التى كانت ممتدة على ساحل افريقية الشرقية ، ومن مصر الى المغرب الا بعض جاعات لبثت أشبه بجزر صغيرة مجهولة ، فى وسط الاقيانوس الاسلامى . ولكن هناك كنيسة بقيت قائمة على صخرة المتانة معتصمة بجبالها ، وهى الكنيسة الحبشية التى بمركزها وشجاعة أبنائها الجبليين ، صدت جميع غارات الاسلام . وقد كان هؤلاء الأحباش من أتباع الكنيسة المنشقة ، لايعرفهم الكاثوليك الرومانيون ، ولا الارثوذكس البيزنطيون » .

ثم قال : « بعد أن وطد دعاة الاسلام دعائم هذا الدين فى جميع سواحل افريقية الشمالية ، قصدوا داخل البلاد ضاربين الى الصحراء التى يسكنها البربر ، وفاقوا فى ذلك أساقفة افريقية اللاتينية الذين فى أوج عزهم وسلطانهم لم يفكروا فى نشر الدين المسيحى فى تلك الجهات . فزنوج السودان تلقوا القرآن من جهتين احداهما البربر المسلمون ، والثانية قوافل العرب ، التى كانت تخترق فزان والواحات الى تمبكتو . فسلاطين دولة المرابطين

(١) راجع صفحة ٣٠١ و ٣٠٢ من الجزء الاول

وكانوا متحمسين جداً فى الاسلام ، خرجوا من مراكش قاصدين أواسط افريقية لحمل أهالى بلاد غانة ومالى على الاسلام ، فظهر أبو بكر بن عمر من أعوان الملك سنى على ، وهو بربرى الأصل ، وشيد مملكة السونغاى فى غانة سنة ١٠٨٧ ميلادية وهؤلاء السونغاى هم من الجنس النوبى ، رحلوا من مصر العليا عند الفتح العربى ، وكانت لهم دولة لم تبدأ بالانحطاط الا فى زمن فتح المنصور (السعدى) سلطان مراكش للسودان .

فد رواق سلطانه الى أبعد من زاوية النيجر ، وجميع البلاد المعروفة الآن بساحل الذهب ، والداهومى ، و بلاد نيجريا ، الى بحيرة تشاد . وقد كانت هذه السلطنة تنقسم الى أربع ممالك ، وكانت قاعدتها جنة Djenné التى كنت ترى فيها التجار والعلماء من المغرب الأقصى والجزائر ومصر ، وكانت سفائن هذا السلطان تسرى فى النيجر ، وقوافل الصحراء تحمل البضائع الى أطراف هذه السلطنة ، فتنقل الذهب والعاج والنحاس والمسك ، ودين محمد . وانبث المرابطون فى القرى ، يعلمون القرآن والكتابة بالعربية . وكان أبناء المشايخ يأتون الى تمبكتو لتحصيل العلم ، فلم تكن تمبكتو سوقا لتجارة أواسط افريقية فقط ، بل كانت دار علم انتشر ذكرها حتى سواحل البحر المتوسط . ولما مات أبو بكر بن عمر فى سنة ١١٢٠ ، كانت بلاد النيجر أو نيجرينيا الى حدود الكوغو اسلامية .

هذا ما كان من جهة البربر وأما العرب ، فان احدى فصائل بنى هلال تقدمت من نواحى طرابلس الى واحة « ودّان » ومن هناك الى « والانه » ثم تقدمت نحو السودان ، فتلاقت مع البربر الآتين من الشمال الغربى واختلطت بهم ، وصارت تمبكتو التى اختطها الطوارق فى سنة ١٠٧٧ ، مركزاً للدعوة الاسلامية تنبث منها الى كل الجهات .

وفى الجنوب الغربى وصل الاسلام الى البامباره bambarras والمادينغ Madinges والبله Peulls ، الذين فى القرن التاسع عشر صاروا أشد حماته وأجهد دعاته ، فى بلاد النيجر والسنيغال الأعلى . وكان فى بلاد المادينغ المسماة بلاد الملّ Melle قد أسلم الزعماء والأشراف والتجار منذ القرن الثانى عشر ، و بقى العامة فتيشيين . ووصل الاسلام فى الجنوب الشرقى الى بحيرة تشاد ، فى القرن الثالث عشر . وأما فى الشمال الشرقى ، فكانت الغاله Gallas والنوبة ، قد دخلوا فى الاسلام بين سنة ١٣٠٠ وسنة ١٣٥٠ » .

ثم قال تحت عنوان « مساعدة الاسلام على تمدين افريقية » مايأتى :

« لم ننظر الى الآن نتائج الفتح العربى الامن الوجهة الدينية ، مع انه يجب أن نعرف هل كانت للمسلمين فى هـذه الصفحة الأولى من استيلائهم (٦٣٨ – ١٠٥٠) يد فى مدنية افريقية الشمالية أم لا ، وهل كان لهم سهم فى نشر العلوم والآداب والصناعات ، أم لا . ففى هذا المقام يلزم أن نفرق بين مصر والمغرب ، لأن الفرق بين مدنيتى هذين القطرين الذى أولهما أخذ عن اليونان ، والثانى عن الرومان ، لم يخل من التأثير فى ثقافته الاسلامية .

فلننظر أولا الى مصر وقبل كل شئ يجب أن نصحح خطأ شاع طول القرون الوسطى ، وهو أن العرب أحرقوا مكتبة الاسكندرية بأمر الخليفة عمر . والحال أن العرب فى ذلك العصر كانوا أشد اعجاباً بعلوم اليونان وفنونهم ، من أن يقدموا على عمل كهذا . كما انه معلوم أن قسما من تلك المكتبة ، كان احترق فى أثناء ثورة الاسكندريين ، التى احترق فيها أسطول قيصر ، وأن قسما آخر أحرقه المسيحيون فى القرن السادس . واختط العرب الفسطاط وتركوا للقبط ممفيس ، ولم يعترضوا القبط فى دينهم ولا عاداتهم ، وأطلقوا لهم الحرية فى انتخاب البطريرك ، و بناء الكنائس . وغاية ما أبطل عمرو من العادات القديمة ، هو ما كانوا جارين عليه من زمان الوثنيين ، من رمى فتاة فى النيل كل سنة التماساً لفيضانه .

و بعد أن انفصلت مصر عن بغداد ازدهرت المعارف والفنون فى مصر ، وتأسست بمصر المدرسة الجامعة الباقية الى اليوم ، وهى الأزهر . وكان لها مكتبة فيها ٦٠٠٠ مجلد ، وكرتان تمثلان الأرض ، وبنى مرصد فلكى ، اشتغل فيه علماء من الطبقة الأولى مثل ابن يمين صاحب الزيج الحاكمى . وصحح العرب بمعارفهم الفلكية و بتدقيقات سياحهم ، أكثر نظريات الجغرافيين اليونانيين ، و يكفيك ذكر المسعودى وابن حوقل وابن بطوطة وأبى الحسن لاظهار شأو العرب فى علم الجغرافية ، وان من الأسباب التى دعت الى احتفال العرب بهذا العلم ، ما فرضه القرآن من الحج ولو مرة واحدة الى مكة . أما فى صنعة البناء فمع كون العرب احتذوا شيئاً على مثال البيزنطيين ، لا ينكر أنهم تركوا فيها آثاراً خالدة مثل قصر الخلافة فى القاهرة ، ومثل القبة ، و زيزه بقرب بلرمو (فى صقلية) ، ولا تنس من المساجد جامع الحسن ، وجامع عمرو ، والأزهر » . الى أن قال :

أما انتشار العلوم والآداب فى المغرب ، فقد كان بطيئاً فى البداية بسبب مقاومة البربر لها ، والفتن التى وقعت بين أمراء الاسلام . ولكن فيما بعد شيدت المدارس والمساجد

فى القيروان ، وبجاية ، وتلمسان . وكان فى بجاية فى القرن الثانى عشر علماء نوابغ ، وفيها كان المتصوف الكبير أبو مدين ، وفيها تعلم ليونارد بوناكسى الحساب والجبر والهندسة . وكان فى تلمسان أيضا مدرسة شهيرة أقرأ فيها ابن خلدون وغيره . وفى القرن الماضى تخرج فيها محمد السنوسى . وهناك جوامع شهيرة فى الحسن مثل جامع سيدى عقبة ، المبنى على مرقد الفاتح المذكور ، وجامع سيدى أبى مدين فى ضواحى تلمسان ، ثم الجامع الكبير فى القيروان . وكل هذه لا تدانى فى الرونق والبهاء جوامع مراكش . (وأطال فى وصفها)

وخلاصة فصله هذا هو ما يأتى :

« ان حصة الاسلام فى مدنية افريقية كانت أقل من حصة النصرانية فيما يتعلق بتثقيف الأهالى وتربيتهم ، ولكنها أهم فى العلوم الصحيحة وصنعة البناء » .

ثم قال تحت عنوان « قيام النصرانية لأخذ الثار » ننقله ملخصاً لطول شرحه :

« فى القسم الاول من القرون الوسطى ، أهملت أوربا المسيحية افريقية ، الا ما كان من مساعى بعض الباباوات . ولكن تألفت فيما بعد الرهبانيات وجدّت الحركة الصليبية ، وكانت سيرة مسلمى المغرب ومصر والشام الى ذلك الوقت تجاه النصارى ، سيرة تسامح وتساهل ، لا بل سيرة ولاء واحسان ، بخلاف الأمم المسيحية التى كانت سالكة تجاه الاسلام خطة البغض والعدوان ، بدون رحمة ولا هوادة . ثم لما وقعت الحرب الصليبية استمد مسلمو المشرق مسلمى المغرب لقتال الصليبيين . فتخلف المغاربة عن هذه النجدة لسببين ، أحدهما كون المغاربة بربراً أكثر مما هم عرب ، فلذلك كان اسلامهم فاترا ، الثانى كون جيرانهم الفرنج ذوى علاقات تجارية معهم ، ولم يكونوا يطالبونهم بممالك و بلدان كما كانوا يطالبون مسلمى الشرق و يتقاضونهم أن يتخلوا لهم عن بيت المقدس . ثم بلغت العلاقات بين ملوك المغاربة والافرنج ، أن كان أمراء تونس ومراكش يستخدمون فى جيوشهم جنداً من الافرنج يأذنون لهم باقامة شعائر دينهم علنا ، فى الثكن التى ينزلون بها [1] ، وكانت قد انعقدت عدة معاهدات بين الأوربيين والمغاربة فى القرن الثانى عشر والثالث

(١) يقال ان المأمون أحد سلاطين الموحدين كان عنده عشرة آلاف جندى افرنجى ، وكان قد شيد لهم كنيسة فى عاصمة مراكش

عشر ، أشهرها معاهـدة بين جهورية بيزا ، وسلطان المغرب ، وأمراء تلمسان ، وجزر الباليار — عند ما كانت للعرب (٢٥ يونيه ١١٣٣) — . ومعاهدات بين جهورية جنوى ، والسلطان عبد المؤمن (١١٣٥). فكانت هذه المعاهدات تضمن للفرنج دماءهم وأموالهم، وتبيح لهم أن يتحاكموا عند قناصلهم، وان يقيموا شعائر دينهم جهرا وكان ملوك الاسلام هم الذين يعطونهم عرصات الارض اللازمة لبناء الكنائس والمقابر . ومن الوثائق المشهورة الشاهدة بعظم التسامح الذى كان عليه ملوك الاسلام لذلك العهد ، المعاهدة التى عقدها أبو عبد الله المستنصر صاحب تونس مع فيليب الجرئ ملك فرنسا ، وشارل دوق انجو ، وتيبو ملك نافار سنة ١٢٧٠ وذلك بعد وفاة القديس لويس ملك فرنسا ، والتى جاء بها فى الشرط السادس « ان الرهبان والقسوس المسيحيين ، يمكنهم أن يقطنوا فى ممالك أمير المؤمنين وتعطى لهم الارض اللازمة ، لبناء الكنائس والاديرة ، ودفن الموتى . وللرهبان المذكورين أن يقيموا شعائر دينهم ، ويلقوا المواعظ علناً كما لو كانوا فى بلادهم » . فكثر بذلك عدد النصارى فى بجاية وسردونية بقرب القيروان ، وكذلك فى المغرب الاقصى ، حتى كان لهم مطران يقيم بفاس . ثم تحول الى مراكش (١٢٢٣) وبقى هناك كرسى للمطران الى القرن السادس عشر . ولما استولى جوان الاول ملك البرتغال على سبتة (١٤١٨) ، جعل هناك اسقفية ثانية . وكانت كنائس كاثوليكية عديدة فى وهران ، وتلمسان ، وعنابة ، وبجاية والمهدية ، وتونس ، وطرابلس وكان يخدم فيها الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان ، ولكن بث الدعوة المسيحية بين المسلمين كان محظوراً .

وكما كان عند بعض سلاطين الموحدين جند من النصارى فكان أيضاً عند السلاطين المرينيين أخلافهم مثل هذا الجند ، حتى طمعوا أن يستأثروا بحراسه بعض الثغور البحرية مثل طنجة ، وسبتة ، وسلا. وكتب البابا اينوشنسيوس الرابع (١٣٤٦) الى السيد ملك المغرب كتاباً طويلا ، حاول فيه اقناعه باعطاء الجند الافرنجى الذى عنده قلعة من هذه القلاع البحرية تكون فى عهدتهم ، وذلك بأن للملك المشار اليه أعداء أقوياء يمكنهم أن يباغتوه ، ويسلبوا ملكه ، وان أصدق أنصاره هم الجنود النصارى الذين عنده وما داموا فى خدمته ، فالدول النصرانية كلها تنصره ، ولكن قد تطرأ حوادث غير منتظرة وتتغلب

الكثرة على الشجاعة ، فكان من المصلحة أن يعطى لهؤلاء الأجناد المسيحيين بعض المدن البحرية المسورة ، ليعتصموا بها عند الضرورة فالسلطان السيد لم يسمع كلام البابا وجاء مطران مراكش الى رومة (١٣٥٠) وجدد السعى ، فكتب البابا الى السلطان المرتضى خلف السيد يلح عليه فى إجابة ذلك الطلب والا فهو يمنع المسيحيين من الدخول فى خدمته فلم يعبأ سلاطين المغرب بهذا الوعد ولا ذلك الوعيد ، ولا رضوا بأن يسلموا المرتزقة الافرنج الذين فى جيشهم قلعة على ساحل البحر ، و بقى مع هذا عندهم أجناد كثيرة من الافرنج .

أما سيرة مسلمى الشمال الشرقى من افريقية ، فكانت تخالف فى هذا الموضوع سيرة مسلمى الشمال الغربى ، اذمن المعلوم أن الزحفة الصليبية الخامسة التى كان أكثر رجالها من المجار والالمان ، والزحفة السابعة التى قام بها القديس لويس ملك فرنسا كانت وجهتهما مصر ، فأثارت الحفيظة الدينية عند أهلها بعد أن كانوا أولا فى غاية التساهل مع المسيحيين فلما استرد المصريون دمياط (١٢٢٨) ، هدموا كنيسة مارمرقس فى اسكندرية وهدم السلطان قلاون عند توليه عرش مصر جميع المدن البحرية ، من الاسكندرية الى طرابلس الغرب وطرد الافرنج من هذه المدينة . بعد أن كان مضى عليها نحو ١٤٠ سنة وهى فى حوزة أمراء النورمانديين أصحاب صقلية . وفى ذلك الوقت استقر فرسان ماريوحنا المطرودون من فلسطين ، ومن افريقية ، فى جزيرة رودس . و بلغ البغض أقصاه بين المسيحيين والمسلمين واضطر نصارى النوبة والغاله Gallas أن يدخلوا فى الاسلام فى القرن الرابع عشر . ولكن الأحباش ازدادوا تمسكا بالنصرانية ، وأرسل النجاشى زيرا يعقوب وفدا من قبله الى مجمع فلورنسه (١٤٥٢) يلتمس توحيد الكنيسة الحبشية مع الكنيسة الرومانية ، ولما كان التعصب المذهبى شديدا بين الشرقيين والغربيين ، ترصد الأقباط هذا الوفد عند مآبهم من ايطالية وقتلوهم .

وكان كثيرون من أسارى الافرنج أرقاء فى بلاد الاسلام ، يشتغلون فى مزارع كبار المسلمين وهم فى أقصى درجة من الفاقة ، حتى كان بعضهم يصبأ عن دينه طمعا فى الخلاص من الرق . فأنشأ الفرنج جمعيات رهبانية لفداء هؤلاء الأسارى ، أشهرهم العصبة المسماة بالفقراء Alfakker من رهبان مار يعقوب الاسبانيوليين ، وطائفة الثالوثيين Trinitaires

ورهبان سيدة مرسى Notredame de la Mercy وهاتان الطائفتان من الفرنسيس .وقد كان تأسيس نظام الثالوثيين سنة ١١٩٨ ، على يد رجل اسمه يوحنا متى من البروفانس فى جنوبى فرنسا ، وكان أتباعه يمشون على أقدامهم ولا يؤذن لهم بالركوب الا اذا مسهم الاعياء ، فيركبون الحمير ، ولهذا لقبوا بالاخوان ذوى الحمير . وانتشرت دعوتهم فى كل أوربا ، وكان لهم فى فرنسا وحدها ١٥٠ ديراً . وقيل ان عدد من أنقذوا من أسرى المسيحيين من سنة ١١٩٨ الى القرن الثامن عشر يبلغ ٩٠٠ الف . وأما النظام الثانى المنسوب الى سيدة مرسى ، فكان غرضه منع الأسرى الفرنج من الدخول فى الاسلام وهم فى الأسر ، وكان من مبادئ أصحابه استعمال السيف اذا ألجأ الأمر لأجل الدفاع عن النصرانية ، وقبول الأسر والبقاء رهناً عند العدو ، لأجل منع الأسرى من التحول عن دينهم . وكثير منهم ألقوا بأنفسهم فى التهلكة ، وعاشوا سنين فى الأقياد والأصفاد عند امراء الاسلام ، لأجل المحافظة على ديانة أسرى قومهم و بلغ عدد أسفارهم الى مدينة الجزائر وحدها من جراء فداء الأسرى ٧٣ رحلة ، وعدد من أنقذوه ١٢ الفا وخمسمائة أسير ولكن بعض الرهبان تجاوزوا حدود الحمية الى التهور وقام فى أذهانهم دعوة المسلمين الى النصرانية فلم يقدروا على تنصير مسلم واحد ، ووقعوا من أجل ذلك فى البلاء . ومنهم من ذهب قتيل خفة عقله ، وهؤلاء مثل انطون ريفولى ، ودانيال بلفيدير ، وريموند لول ، وهو أشهرهم . وكان يعقوب الأول ملك أراغون قداسترد جزيرة ميورقة من أيدى العرب سنة ١٢٦٩ ، فوجد لول هذا هذه الجزيرة مركزا صالحا لبث الدعوة المسيحية فى المغرب، وبنى ديرا للفرنسيسكانيين فى الجزيرة وجعل الغرض منه تدريس العربية لامكان بث الدعوة ، وكان هو متضلعا فى العربية وقصد تنشئة مبشرين فى هذا الدير،يقذف بهم فى بلاد الاسلام للغاية المذكورة. وذهب هو بنفسه الى تونس، وأخذ يناظر علماء الاسلام ،ويقذف بالرسول أمامهم فالقوه فى السجن ولولا رأفة أمير تونس به ، لأوردوه حتفه.و بعد ذلك خلوا سبيله، فجاء الى الجزائر مبشرا، ثم الى بجاية حيث ضاق ذرعهم به فقتلوه(٢١ يونيو ١٣١٥). وبالجملة ، فان النصرانية أمكنها بواسطة المعاهدات التجارية وحسن المعاملة ، أن تطأ أرض المغرب ، ولا تجد النفرة التى وجدتها فى مصر وطرابلس الغرب على أثر الحروب الصليبية

مما يدل على كون اللطف والمحاسنة ، أوفى بالمقصود من العنف والمخاشنة .

وفى تلك الأيام حصلت حركة دينية عند البربر ، وظهرت عندهم الطرق الدينية المشابهة للرهبانيات عند النصارى ، وترجع هذه الحركة الى سببين ، أحدهما ، عقيدة التصوف التى ترمى الى الفناء فى الاله ، والثانى دعوة أهل البدع والاهواء ، وغير المسلمين ، الى الاسلام . وأتباع هذه الطرق يشبهون الرهبان فى الانقطاع للعبادة ، وكثرة الصلاة ، ومنهم من هم نظير الرهبان العسكريين ، يعتقدون أنهم مكلفون باستعمال السيف لنشر الدعوة ، ولكنهم يفترقون عن رهبان النصارى بعدم البتولة ، وعدم فطم النفس عن النساء[1] ويقال لمحل اجتماعهم رباط ، ولرئيس الطريقة مرابط . ولذلك لما قام عبدالله بن ياسين ، بالدعوة الدينية لهداية البربر من لمتونة وغيرها ، اجتمعت حوله عصابة سموا بالمرابطين ، وكانت لهم دولة وصولة بلغت أوجها فى زمان يوسف بن تاشفين (١٠٥٠) . وقام مقام المرابطين الموحدون ، وكانت لهم دولة عظيمة ، وكان الشرفاء أعقاب ادريس ، من أتباع العقيدة الصوفية ، وكانت هذه العقيدة تقرأ فى فاس وتونس ، وهما أعظم مراكز العلم بافريقية ، وقد أخذ بها خلق كثير . وكان عبد القادر الجيلانى المولود فى جيلان من فارس ، متصوفا عظيما زكىّ النشأة كثير التعظيم لسيدنا عيسى ، متساهلا مع النصارى الذين كان يقول انهم أهل كتاب وان الله سينير عقولهم يوماً ، فأخذ بالوعظ والارشاد ومات فى بغداد سنة ١١٦٦ ميلادية ، وله أتباع لايحصى عددهم ، ووصلت طريقته الى اسبانية ، فلما زالت دولة العرب من غرناطة انتقل مركز الطريقة القادرية الى فاس . وبواسطة أنوار هذه الطريقة زالت البدع من بين البربر ، وتمسكوا بالسنة والجماعة . كان هذه الطريقة هى التى فى القرن الخامس عشر ، اهتدى على يدها زنوج غربى افريقية . أما الطريقة الثانية فهى الشاذلية نسبة الى أبى الحسن الشاذلى ، أخذ عن عبد السلام بن مشيش ، الذى أخذ عن أبى مدين ، وكانت ولادة أبى مدين فى اشبيلية سنة ١١٢٧ ميلادية وقرأ فى فاس ، وحج البيت الحرام ، ثم استقر يعلم التصوف فى بجاية . وتبعه خلق كثير انقسموا بعده الى ثلاث فرق ، الأولى الشاذلية المنتشرون فى الجزائر والثانية الدرقاوية الذين مركزهم فى مراكش

(١) لارهبانية فى الاسلام كما لايخفى

والثالثة المدينية الذين هم كثيرون فى طرابلس الغرب. قال : (و بعد أن أفاض فى بحث الطرق والزوايا وتشكيلاتها وأوضح المشابهة التى بينها و بين الرهبانيات فى القرون الوسطى)

ان العرب لم ينتظروا تشكيل الطرق حتى يبثوا الدعوة القرآنية فى السودان ، بل منذ أواخر القرن السابع كانوا اخترقوا فزان ودخلوا السودان، وكانت فى غانة لأوائل القرن الثامن للميلاد اثنتاعشرة مدرسة للقرآن ، ولكن الاخوان (اتباع الطرق) هم الذين تم على يدهم اسلام القسم الأعظم من مسلمى أواسط افريقية ، وهم الذين أوقدوا الحمية الدينية بعد أن كادت تفتر ، وأدخلوا معظم السودان فى الاسلام بالارشاد والتعليم ، و بالأخذ والعطاء ، و بالمصاهرات مع ملوك الزنج . وقد تقدم ذكر أبى بكر بن عمر اللمتونى الذى امتاز بنشر الاسلام فى السودان ، حتى دانت له جميع الأقطار السنيغالية والنيجرية الى الكونغو . كذلك بنو حسن من عرب بنى هلال ، توجهوا جهة ودّان جنوبى طرابلس وتقدموا منها فى الصحراء الى والاته ، فتلاقى هناك العرب مع البربر وامتزج بعضهم ببعض ، وجاءت من هذا الاختلاط القبائل المسماة بالمشدوف (هذه القبائل ليست هى المشدوف فقط بل المشدوف والدويش وغيرها وقد الف على هذه القبائل المسيو جورج پوله Georges Poulet كتابا اسمه « مغاربة افريقية الغربية الفرنسوية » بحث فيه عن تاريخها الماضى والحاضر ، وعن أحوالها الاجتماعية من كل نوع ، ونظراً لكون المؤلف من مأمورى المستعمرات فقد أتيح له أن يطلع على وثائق لايطلع عليها غيره ، فجاء كتابه بغاية التدقيق). والمغاربة المذكورون منهم من أعقاب بنى حسن الهلاليين ، ومنهم من صنهاجة وغيرها من البربر ، و بينهم اشراف ينتمون الى آل البيت ، ومجالاتهم من الساقية الحمراء جنوبى السوس الأقصى ، الى نهر السنيغال ، وهم خمس طبقات الأولى ، أهل الحرب وهم بنو حسن . والحراثون وهم أشبه بالرعية ، لكنهم أحرار . والمرابطون أى طلبة العلم . وصنهاجة الذين يدفعون الضرائب . ثم العبيد . وأشهر القبائل المذكورة الطرارزة وهم نحو ٨٠ ألف نسمة ، كان أميرهم لعهد تأليف كتاب المسيو پوله سنة ١٩٠٤ ، هو أحمد بن سلوم . ثم البراكنة وهم أولاد عبد الله وعددهم ٤٠ ألفاً ، وأميرهم أحمد وولد سيدى على .

ثم الابكاك وعددهم ١٦ ألفا ، وأميرهم بكار ولد سويدى أحمد . ثم الشراطيط وهم ٢٠ ألفا ، وأميرهم المختار ولد أحمد . والقبائل الساحلية منها آل سيدى محمود وهم ٤٠ ألفاً ، وأميرهم سيدى المختار ولد محمد محمود . ثم أولاد مبارك وهم ١٨ ألفا ، وهم مع أولاد ناصر من سلائل بنى حسن الهلاليين ، وعدد أولاد ناصر ١٢ ألفا . ثم الكونته وهم خمسة آلاف . ومن قبائل الساحل المشدوف وهم أكثرها عددا ، وينقسمون الى عدة فرق لكل منها زعيم ، وزعيم الزعماء محمود مختار وهناك قبائل ساقية الحمراء مثل أولاد دليم ، والرغيبات ، والعروسى ، والفيلالى ، والصماليل ، ورئيس هذه القبائل الشيخ ماء العينين المشهور . وقد خمن المسيو يوله عددهم جميعا بثلاثمائة ألف ، وكانت بين امرائهم وبين فرنسا معاهدات لذلك العهد ، اظن انها صارت الأن فى خبر كان لاسيما ماكان مع امراء القبائل التى فى السنيغال) .

ثم قال المسيو مورى تحت عنوان « اكتشافات البرتقاليين على سواحل افريقية واستئناف البعثات الكاثوليكية » :

لايخفى ان العرب ومن معهم من البربر كانوا افتتحوا اسبانيـة ، واجتازوا جبال البيرانه ، واوغلوا فى بلاد الغال (فرنسا) ولولا انتصار شارل مارتل عليهم فى بواتيه لكانت فرنسا اسلامية ، ولاصاب الكنيسة الغالية ماأصاب كنيسة افريقية وكنيسة اسبانية على أنه فى نفس اسبانية ، كان البرتقاليون ، وأهل نافار ، واستورية ، لايزالون يقاومون العرب . ولاسيما البرتقال ، فقد كانوا أول من طرد العرب من بلادهم . ولم يكتفوا بذلك بل شنوا الغارات على العرب فى أرضهم ، فافتتحوا سبتة ، وطنجة ، وتطاون . ثم امتدوا على ساحل افريقية الغربية حتى عرفوه كله . وأشهر من قام منهم بهذه الاسفار والفتوحات ، هو الأمير هنرى ابن الملك جوان الأول الذى كانت أمه أميرة انكليزية ، فانه ترك اشبونة دار الملك وانتبذ لنفسه مكانا فى ساغر بقرب رأس سان فنسان ، يحيط به بعض اليهود وبعض علماء المغاربة من فاس ومراكش ، الذين كانوا علماء العالم لذلك الوقت وأخذوا ينقبون فى جغرافيات العرب وغيرها حتى عرفوا امكان الدوران حول افريقية . ورسم الأمير هنرى هذا الرجل العظيم الذى كان له الفضل على جميع أوربة ، خطة سير السفن عليها ، فاجتازت ، رأس بوجادور (١٤٤٢) ، والرأس الأخضر (١٤٤٤) على أنوار غابات

مادار Madères ، التى استمر بها الحريق سبع سنين الى أن بلغت سياره ليون Sierra Léone . وسنة ١٤٧١ بعد موت هنرى أيضا ، واظب البرتقاليون على الايغال فى الاقيانوس حتى قطعوا خط الاستواء وجازوا زايير (الكونغو) ، ثم رأس الزوابع الى ميناء آلغوا (١٤٨٦) . وفى ٨ يوليو عام ١٤٩٧ وصل فاسكو دوغاما الى موزامبيق ، ومنها الى مالينده وثانى سنة نزل فى كاليكوت من الهند الشرقية .

ولما تمت هذه الفتوحات ، شرع البرتقال بنشر الدين المسيحى وتأسيس الاسقفيات واختاروا لهذا الأمر الجزر البحرية ، لما فيها من الوقاية . فجعلوا كرسياً أسقفيا فى احدى جزر الخالدات ، وآخر فى جزيرة مادر ، وآخر فى جزيرة امام الرأس الأخضر . وآخر فى جزيرة بازاء زايير ، ومنها صعد الدومينيكيون الى بلاد الكونغو و بثوا دعوة الانجيل ، ونجحوا نجاحاً حمل البابا على وضع أسقف فى صان سالفادور (١٥٩٥) . و بعد ذلك بخمس وعشرين سنة أرسل ملك الكونغو الفارس الثالث ، بعثة الى البابا يلتمس بها مبشرين فارسلوا اليه الكبوشيين فكان نجاحهم باهراً . وخلفهم الجزويت ، فأسسوا مدارس فى صان باولو ، وصان سلفادور (١٦١٩) وصاروا يتقدمون الى داخل البلاد حتى بلغوا كازانغى على ٦٠٠ ميل من الساحل ولكن هذه البعثات كلها سقطت فى أواسط القرن الثامن عشر لاسيما عند الغاء رهبانية الجزويت ، وحاولت جمعية البعثات الخارجية فى باريز (١٧٦٠) أن تقوم مقام الجزويت فى الكونغو ، فلم تفلح . مع هذا بقيت لذلك التعليم آثار ، وكان ألوف من الزنوج يقرأون ويكتبون .

و بعد قرن كامل من انقطاع التبشير هناك جاء « آباء الروح القدس » واحيوا ما كان درس من آثار الجزويت والدومينيكيين (١٨٦٧) ، وساعدوا على الغاء تجارة الرقيق وعلى الاكتشافات الجغرافية ، وأدخلوا فى هاتيك الاصقاع زراعات وصناعات كثيرة وكان البرتقاليون قد بشروا بالانجيل فى افريقية الشرقية ، واتخذوا مركزاً للدومينكيين فى موزامبيق (١٦١٤) وأقام القديس فرانسيس كسافارس مدة فى موازمبيق ، وفى مالينديه ، وفى جزيرة سقطرة . وأسس فاسكودوغاما ديرا للتبشير فى جزيرة زنزيبار ، وامتدت منه البعثات الى مومباسه ، والساحل ، ونمت هناك رعويات مسيحية عديدة فى القرن السادس عشر والسابع عشر ، ولكن سنة ١٦٩٨ جاءت غارة عربية من مسقط

اخنت على تلك الكنائس ، ورفعت علم الاسلام وحده . وسنة ١٧٢٨ ، حاول المبشرون استئناف العمل ففشلوا ، ولزم انتظار القرن التاسع عشر لأجل الرجوع الى بث الدعوة المسيحية فى هاتيك الاقطار.

وكان جوان الثانى ملك البرتغال سنة ١٤٨٧ انفذ اثنين من رجاله الفونسو بأيفا ، وبير وكوفيلهام ، من طريق مصر الى الهند للبحث عن رجل هندى مسيحى يزعمون أن اسمه القسيس يوحنا ، فمات أحدهما المسمى بايفا بمصر وذهب كوفيلهام الى الهند ، ثم عاد الى افريقية ووصل الى الحبشة ، فأكرم النجاشى موصله ، ولكنه لم يسمح له بالخروج . فأخذ هذا الرجل يراسل بلاده ويخبرهم بمارأى ، فأرسلت حكومة البرتقال وفداً من الأشراف والكهنة ، ومعهم عدد من الحدادين ، والنجارين ، والبنائين ، والاطباء الى بلاد الحبشة ، واستمرت هذه العلاقة بين المملكتين دهرا طويلا ، حتى ان راهبا يسوعياً برتقالياً اسمه بايز حول النجاشى سوسينيوس الى الكثلكة (١٦٢٤) . وقيل ان أكثر الاحباش كانوا مستعدين للانضمام الى الكنيسة الرومانية لولا عناد بطرك اللاتين ما ندز Mendez الذى لم يأخذهم بالتؤدة ، بل حاول حملهم على جميع العقائد والشعائر اللاتينية دفعة واحدة وأراد تأسيس ديوان تفتيش ، لمراقبة الذين يأبون الانقياد . فجرت من ذلك ثورة ذهبت فيها حياة المبشرين البرتقاليين ومن تابعهم من الحبش (١٦٤٠) ، وحاول الفرنسيس التبشير فى الحبشة تحت حماية قناصل فرنسا ، فلم يفلحوا ، وقتل المبشرون الذين أرسلوهم الى سواكن ، ومصوع . ولكن الفرنسيسكانيين الطليان أسسوا مراكزهم فى بلاد الغاله (١٨٣٩) ، ثم توجه اخوان فرنسيان انطون ، وأرنولد آبادى ، ومعهما راهب عازارى اسمه سابيتو من قبل مدرسة البروباغنده فى رومة ، التى أردفتهم بثلاثة آخرين فأقام أحدهم جا كويس فى عدوه بقرب النجاشى ، وذهب سابيتو الى غندار للتبشير فى بلاد الآماره . وكان أحدهم مونتيورى قاصداً للسودان المصرى ، فبعد خمس سنوات من وصولهم ، أسسوا عدة كنائس . وفى سنة ١٨٥٣ كان عدد الحبش الكاثوليك خمسة آلاف ، بالرغم من مقاومة أبونا سلامة رئيس الكنيسة القبطية الحبشية . وبقيت هذه البعثة ناجحة حتى تولى النجاشى تيودوروس ، فأراد استئصالها وحمل جا كويس على الأدهم ، فمات فى الحبس سنة ١٨٦٠ . وبعد وفاته قام مقامه المطران بيانشسى ومعه

المطران ماساية ، و وجها عزمهما الى التبشير فى بلاد الغاله ، و بواسطة الحكومة الفرنسوية مع الباب العالى أخذا فرماناً بتأسيس مركز فى جزيرة مصوع (١٨٦١) ، واستؤنف العمل الدينى فى الحبشة . ولكن لم يطل الامر حتى وقعت المنافسة بين فرنسا وايطالية فى هاتيك الجهات،وأسست ايطالية مستعمرة الاريتره ، وجعلت مركزها مصوّع وأفردتها بأسقفية ، وطردت منها المبشرين الفرنسيس ، ولم يبق لهؤلاء سوى رعويات فى تيغرى ، وبلاد الآماره. وكانوا شادوا مدارس ، ومستشفيات ، ودوراً للصناعات ، وملاجئ ، للايتام والمجاذيم .ونشر الطليان الدعوة المسيحية فى بلاد الغاله ، وهم جيل أذكياء أشداء يسكنون بين الحبشة وبحيرة فيكتوريا نيانزا . وصارت هناك رعويات مسيحية زاهرة وامتدت الى بلاد كافا . ثم دخلت الى هرر ، بالرغم من معارضة أمراء الاسلام هناك . ولننظر الى الدعوة المسيحية فى جهات أخرى فنقول ، ان مار فنسان دوبول الفرنسوى كان وجه همته نحو جزيرة ماداغسكر ، التى بسطت يدها عليها فرنسا فى أيام الوزير ريشليو ، فانتشر فى سواحلها تجار الفرنسيس وأرسل الرهبان العازريون اثنين منهم سنة ١٦٤٨ ، فأخذا بالتبشير وصبرا على المكاره ، ومناخ تلك الجزيرة لم يؤاتهما ، فماتا بعد أن نصرا ٦٠٠ نسمة من الوطنيين . ثم ذهب بدلا عنهم أربعة آخرون فماتوا بالحمى . فما ثنى ذلك عزم الرهبان ولا سيما عزيمة مار فنسان دوبول ، الذى بقى يحرضهم على السفر للتبشير ، فذهب آخرون وزرعوا هناك الانجيل ، وتحملوا من الانتقلم والعذاب ما تحملوه ، ولكنهم تغلبوا على الوثنية مع تمادى الايام ، فالآن الجزويت ، والبروتستانت ، الفرنسويون ، والكويكرس ، والنورويجيون يستغلون مازرعه العازريون من مائتى سنة فى تلك الجزيرة العظيمة .

ثم تألفت رهبانية آباء الروح القدس ، وسنة ١٧٧٨ أبحر الابوان بيرتو وغليكور الى السنيغال ، فأخذوا ينصرون الزنوج فى سان لويس وجزيرة غورى Gorée وفى سنة ١٨٤٨ اندمجت هذه البعثة فى بعثة قلب مريم الاقدس تحت ادارة يهودى متنصر اسمه ليبرمان ، أحسن التدبير ، وربط الدعوة الكاثوليكية بالحكومة المدنية ، فاتسعت مؤسسات هذه البعثة فى افريقية تدريجا ، فتجد لها مراكز فى الكونغو البرتغالى ، وفى غامبية ، وفى مستعمرة سيرا ليونه الانكليزية ، وزنجبار ، ولها فى المستعمرات الفرنسوية اسقفية ، كرسيها داكار Dakar التى فيها ١٥ ألف متنصر . ومركز فى كيتا Kita فى السودان

السنيغالى ، وآخر فى كونا كرى من غينية الفرنسوية . واسقفية فى غابون Gabon من الـكونغو الفرنسوى . وأخرى فى أوبانغى Oubangui من الـكونغو الأعلى . ولم يقتصر هؤلاء الرهبان على التبشير بالانجيل بل نشروا العلم ، وأحيوا الزراعة ، وأتوا بنباتات جديدة ، وأدخلوا حيث وجدوا صناعات مفيدة ، وهذبوا الأخلاق وأبطلوا كثيراً من قبيح العادات .

ثم أتى بعد رهبانيتى العازريين والروحيين ، بعثة ليون الافريقية وبعثة الآباء البيض . ففى سنة ١٨٥٦ أسس المطران دوماريون برازيلاك أصله من الدعاة فى الهند الشرقية ، مدرسة لتخريج المبشرين المراد ارسالهم لتنصير الزنوج . ثم عين هو أسقفاً فى سيارا ليون ، فذهب ومعه عدد من الرهبان فهلـكوا بالحمى الصفراء ، فتطوع غيرهم للقيام مقامهم ، وما زالوا صابرين ثابتين حتى أفلح عملهم ، فترى لهم اليوم كراسى فى ساحل العاج ، والنيجر الأدنى ، وساحل الذهب ، والداهومى ، و بنين . وقد وفقوا توفيقاً كبيراً فى ساحل العاج وفتحوا تسع مدارس منها مدرسة دينية فى دابو وقد أحمدوا طباع أهل تلك البلاد من السكينة وحب العمل ، بخلاف أهالى داهومى ، الغلاظ الشداد ، المتعصبين للفتيشية ، ثم أسسوا مدرسة زراعية فى توكبو ، وأسقفية فى بنين Benin

وآخر رهبانية تأسست لنشر الدين المسيحى فى افريقية هى الآباء البيض ، أسس هذه الجمعية الـكردينال لا فيجرى مطران الجزائر سنة ١٨٦٩ ، وعاكسه فى هذا المشروع المارشال ما كماهون ، الذى كان رأيه أشبه برأى الشركة الانـكليزية فى الهند من تجنب الدخول فى قضية التنصير ، لئلا يحصل مشكلات للادارة الفرنساوية ، فالـكردنيال كان يرى غير هذا الرأى ، ويقول انه يجب الامتزاج بالأهالى واستجلابهم الينا ، لئلا يلبثوا على عقيدة القرآن ، التى تجعل بيننا و بينهم فاصلة كبرى . فما زال الـكردينال مصراً على فكره حتى أنشأ هذه الرهبانية وراعى فيها عادات القوم ، وأردفها برهبانية أخرى للنساء اسمها « الراهبات المبشرات لسيدتنا العذراء » [1]

---

(١) الحقيقة ان كلامن رهبانيتى الآباء البيض والراهبات المذكورات ، نالت عضد الحكومة الفرنساوية فى كل شىء وارتفعت منهما شكوى الجزائريين ، وغيرهم من سكان المستعمرات الفرنساوية بدون فائدة ، وليس هنا مقام تفصيل ذلك

وميادين عمل الرهبان البيض هى أولا الجزائر وتونس . ثانيا الصحراء والسودان . ثالثا بلاد خط الاستواء من افريقية. رابعاً بلاد نياسا غربى الموزامبيق التى فيها كرسى أسقفية [١].

و بلاد خط الاستواء الافريقية و بلاد نياسا كلتاهما ، من المستعمرات البريطانية والبرتقالية ، فلا تهمانا الا فى الدرجة الثانيـة. ولـكنهما مع ذلك لا تخلوان من العمل ، فيما يتعلق بمقاومة الاسلامية ومنع الرق [٢] . فان قرار مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥ بمنع الرق ، قد قاومه تجار العرب بالسلاح واضطرت الدول الى قمع ذلك بالقوة [٣]

أما فى الجزائر وتونس ، فلما كان الحكم لفرنسا لم يكن من حاجة الى استعمال القوة فرهبانية الآباء البيض تلجأ الى الوسائل السلمية لا غير . فهى تؤسس بقرب كل محطة مستوصفا طبيا ، وصيدلية . الأول منهما ، يصف العلاجات والثانى يعطيها مجانا ، ثم مدرسة ودار أيتام . وليس الا بعد وقت طويل و باذن أهل الأولاد ، يلقن الآباء هؤلاء الأولاد

(١) لسائل أن يسأل : لمـاذا يعملون فى تونس والجزائر ولا يعملون فى المغرب الأقصى ؟ والجواب دور الآباء البيض وراهبات التبشير ، يأتى في المغرب الأقصى بعـد أن يتم اخضاع الثائرين فى جبال الاطلس ونزع السـلاح من أيدى القبائل ، أما الآن والثورة لا تزال ثائرة ، فالحـكومة الفرنساوية تمهل فى هذا الامر وان كانت لا تهمل .

(٢) ان الرق ليس من الاسـلامية بل ان الرق عادة قديمة عرفتها النصرانية والاسلامية وغيرهمـا ، وما حبب الاسلام شيئاً الى الناس أكثر من تحرير الرقيق الذى هو من أفضل القربات شرعا . ثم لما منعت أوربا تجارة الرقيق ثارت فى وجهها شعوب مسيحية كثيرة مثل البوير فى جنوبى افريقية ، وكل أحـد يعلم أن أمريكا انقسمت قسمين فى أمر العبيد ، وثارت الحرب بين الفريقين أربع سنوات ، فاجتهاد بعض مؤلفي أوربة بالصاق الرق بالاسلام خاصة ، هو من حملة التحامل على الاسلام ، كما اننى وان كنت أحمـد صنع الدول التى ساعدت على إلغاء الرق ، لا أنـكر أن معاملة العبيد السود فى بلاد الاسلام ، هى أفضل بكثير من معاملات الأمم المستعمرة لرعاياها البيض ، نعم ان هـذه الأمم لا تبيع أهالى الجزائر ، وتونس ، وتونـكين ، وغيرهم ارقاء فى الأسواق ، ولـكنها لا تعرف لهم أدنى حق بازاء الأوربيـين ، وهى تضع يدها على ما شاءت من أراضيهم ومعادن بلادهم ، وتستثمر أرضهم ودمهم وعرق جبينهم قسراً بدون أن يكون لهم بذلك أدنى خيار فهل الرق سوى هذا ؟ .

(٣) يذكر المؤلف هنا مقاومة العرب وينسى مقاومة الجنس الأوربى فى الترنسفال .

التعليم الديني[1] أما اليتامى فيعلمون التعليم الديني فرضاً . وقد تقدم الآباء البيض الى الداخل فصارت لهم مؤسسات فى لاقوات (١٨٦٨) وفى أوارغله (١٨٧٣) ، وفى توغورت (١٨٧٨) الخ ولما دخلت العساكر الفرنسوية مدينة تمبكتو سنة ١٨٩٤ فى ١٠ يناير تحت قيادة الكولونل بونيه والقومندان جوفر ، أسس الآباء البيض مركزاً فى تمبكتو وستة أخرى فى جوارها .

وخلاصة ما قامت به الرسالات الكاثوليكية من برتقال ، وطليان ، وفرنسيس ، فى القارة السوداء ، هى انها هاجت هذه القارة من الجانب الغربى ، ومن الصحراء ، ومن الكونغو ، ومن جهات البحيرات الكبيرة ، نعم انها لم تقدر أن تمزق العصبة الاسلامية ، لكنها هذبت قسما عظيما من الأمم الفتيشية ، وتوفقت الى ابطال كثير من عاداتهم البربرية .

ثم ذكر المؤلف ، اشتراك السياح والمبشرين فى تهذيب افريقية فقال : ان لفنستون فى أحد تقريراته يقول : « ان نهاية الاكتشاف الجغرافى هى بداية العمل التبشيرى . وهذه حقيقة كلية اذ من المحال أن نكتشف أراضى جديدة بدون أن ينبه ذلك فينا شوق دعوة أهلها الى الانجيل ، هذه البشارة التى أعطتنا السلام والعزاء والرجاء » . فلقد رأينا المبشرين الكاثوليك ، يتعقبون آثار البحارة البرتقاليين والفرنسيس والطليان ، ويؤسسون أوطانا مسيحية فى سواحل افريقية الغربية والشرقية ، متخذين هذه المراكز فى سواحل شرقى افريقية محاطّ فى طريقهم الى الهند ، ولكن كل هذا ما عدا الذى جرى فى الحبشة ، لم يتجاوز مناطق معلومة من سيف البحر . ولكن جاء فيما بعد ذلك السائحون الجوابون فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر والأرباع الثلاثة من القرن التاسع عشر فدخلوا من مصابّ الأنهر . وتوغلوا فى البلاد ومنهم من ذهب قتيل جرأته فكانوا هم طلائع المبشرين ، وعلى آثارهم سار هؤلاء ، وبالاجمال فداخل افريقية التى تولج منها هؤلاء الجوابون الى باطن هذه القارة ، هى أربعة أو خمسة ، أولها النيل لامتداد طريقه من مصر الى أقصى منابعه . الثانى نهر الغامبية ثم نهر السنيغال . الثالث ، رأس الرجاء المعروف

---

(١) غير معقول أن يسمح المسلمون أهل الأولاد بتلقينهم تعليما دينياً غير الاسلام بمجرد رضاهم ، بل هنا أحد أمرين ، اما أن يكون أهل الأولاد لا يجسرون على الاعتراض أو يكونون هم أنفسهم تركوا الاسلام

بالكاب نظراً لأهمية هذا الموقع التجارى . الرابع ، الجزائر منذ استولت عليها فرنسا ثم طرابلس . الخامس ، جزيرة زنزيبار بسبب علاقاتها مع السواحل التى تحاذيها .

وأول من توغل فى افريقية من جهة النيل هو جيمس بروس James Bruce الاكوسى المتوفى سنة ١٧٩٤ ، وصل الى مصر سنة ١٧٦٨ ، وصعد الى الاقصر وشاهد آثارها ، ثم الى اسوان ومنها الى القصير ، ومنها أجاز الى جدة وركب البحر من جدة الى مصوع ، ومن هذه صار الى الحبشة مزوداً بتوصية من بطريرك القبط فى مصر الى الرأس ميشل ، وأقام مدة بمدينة غندار قصد منابع النيل وظن أنه وصل الى رأس نبع النيل الأزرق ، والحقيقة أنه لم يصل الا الى العبادى ، وهو ملتقى أنهر من النيل لا أصل نبعه . ثم عاد الى مصر من طريق اسوان . وبعد ١٢ سنة من سياحة بروس هذا جاء الى مصر فولناى الكاتب الفرنساوى الشهير ، ولفت أنظار قومه الى وادى النيل قائلا : «يجب للاستيلاء على وادى النيل ثلاث حروب : الأولى مع انكلترة . الثانية مع العثمانية . الثالثة وهى أشدهن مراسا مع الاسلام . لأنه هو السائد فى هذا الوادى . وربما كانت هذه العقبة غير قابلة الجواز» (كذا) وكان نابليون بونابارت قد قرأ كلمات فولناى ، فكانت مما استفزه الى غزو مصر . ولم يكن تجسيم فولناى صعوبة هذه الحملة الا ليزيد فيها رغبة بونابرت ، فى غرامه باقتحام الصعاب وعشقه للمجد ، فكانت تلك الغزاة الشهيرة التى ظهر فيها من مزايا نابليون العسكرية ماظهر ، وانما لم يقدر الناس قدر مهارته السياسية ، استجلابه خواطر المسلمين وامتزاجه بهم فى عقائدهم وعاداتهم ، وقد كانت غزاة مصر هذه من سنة ١٧٩٨ الى ١٨٠١ ، مبدأ لاسفار ورحلات صوب منابع النيل استمرت الى ١٨٤١ وقد حذا حذو نابليون بونابرت فى سبيل الاكتشاف والبحث ، أمير مصر الكبير محمد على فى زمانه ، وصل فريد ريك غاليو Gailliaud الى طيبة وواحة سيوه ، ثم صعد مجرى النيل الى أن وجد خرب العاصمة القديمة مرويه Meroé (١٨١٨ الى ١٨٢٠) الى ان بلغ الدرجة ١٠ من العرض الشمالى . وبعد هذا ببضع سنين وصل عالم المانى الى النوبة العليا ، وكان أول أوربى دخل كردوفان غربى النيل الأبيض ، ثم أنفذ محمد على بعثة وصلت الى درجة ٤ من العرض الشمالى فى غوندوكورو . وامتد عمل السياح الى الحبشة وبلاد شوا وبلاد الغالا ، فكان ممن اشتهروا بذلك روشه ديريكور

Rochet d'Hericoure (١٨٣٩ الى ١٨٤٣) وتيوفيل لوفا بفر Théophile Lefebvre ، وأبناء آبادى D'Abbadie (١٨٣٣ الى ١٨٣٨) وهؤلاء من الفرنسيس ثم الانكليزى شارل بيك Beke والالمانيان كرابف وايزنمان ثم ان الالمانيين أرهاردت وريمان ، هما اللذان توغلا فى اصقاع البحيرات الكبر ، ووصلا الى قنن الثلج من بلاد كينيه Kenia والكيلمانجارو Kilmandjaro (١١ مايو ١٨٤٨) ومن هناك انفتحت الطريق التى انطلق منها سموئيل باكر (١٨٦٤ الى ١٨٧٣) و الكولونل غوردون ، وأمين باشا ، ولينانت بك وغيرهم . وكان لهؤلاء السياح أثر بعيد الصيت فى تهذيب الزنوج ، واجتهد سموئيل باكر وأصحابه بالغاء الرق ، مستظهراً على ذلك بأمر الخديوى ، وهلك غوردون فى الخرطوم بيد المهدى ، بعد أن أقام بضع عشرة سنة يرقى من أخلاق السودانيين .

ولم يكن شئ يشابه همة هؤلاء السياح الأبطال فى شرق افريقية ، سوى همة أعضاء تلك الجمعية الانكليزية المسماة African Association التى تأسست سنة ١٧٨٨ فى لندرة وكانت الاطالس الجغرافية الى ذلك الحين لا تمثل أواسط افريقية الا برقعة بيضاء متسعة ، لأن الجغرافيين لم يكونوا يعرفون عنها شيئا . وكما كان السياح الذين ساروا من مصر غرضهم منابع النيل ، كان السياح الذين صعدوا من نهرى السنيغال والسنيغامبيه يقصدون تمبكتو ، تلك المدينة الشهيرة عند العرب . فالماجور دانيال هوغتون Hougton ركب نهر السنيغامبيه ، ووصل الى مدينة Médina ، ومنها الى عاصمة بامبوك Bambouck (١٧٩١)، لكنه لم يبلغ نهر النيجر ، وانقطع خبره . أمامونغاو پارك Mungopark الاكوسى ، فصعد من بلاد غامبيه ، فوصل الى النيجر عند سيغو Segou وعاد من حيث أتى ، ثم بعد تسع سنوات ، عاد فصعد النيجر ووصل الى تمبكتو ، ثم أوغل الى بوسانغ ، وهلك قتيلا سنة ١٨٠٦ . وكان رفيقه الفرنساوى موليان Mollien قد اكتشف منبع نهر السنيغال ، ومنابع نهر الغامبية وريوغرانده سنة ١٨١٨ .

ثم ان رينيه كاليه Rene Caillié الفرنساوى ، لم يزل يجوب تلك الأقطار حتى وصل الى تمبكتو بعد مشاق لاتوصف ، وذلك فى فبراير سنة ١٨٢٨ ، و بعد أن أقام بها مدة

لحق بقافلة مغربية عائدة الى فاس ، فوصل الى هذه العاصمة فى ١٢ اغسطس ، ومنها ذهب الى الرباط وأبحر الى فرنسا ، وأكرمته الحكومة والجمعية الجغرافية ، لكونه أول أوربى وصف تمبكتو وصفا عن عيان [١] .

وسافر الضابط لنغ Laing الاكوسى من طرابلس الغرب ، قاصداً تمبكتو فى ١٦ يوليو ١٨٢٥ ، فبلغها فى ١٨ أغسطس ١٨٢٦ ، ولكنه قتل أثناء ايابه . وأما الاكوسى كلاپرتون Claperton فاكتشف بحيرة تشاد ، ومملكة الفلاّته ، وزار مدن كانوا ، وكازينال ، وسوكوتو ، ومات فى سوكوتو سنة ١٨٢٧ وكان معه رفيق اسمه ريشاد لاندر فاكتشف مصب النيجر ثم أكمل اكتشاف مجرى النيجر الدكتور بايكى الاكوسى ومعه جماعة ، وذلك من سنة ١٨٥٤ الى سنة ١٨٦٤ .

فهؤلاء السياح وأمثالهم هم الذين بقصص أسفارهم هاجوا شوق مبشرى الكنيسة الانكليكانية والمتيودية الانكليزية ، وكان الانكليكانيون منذ سنة ١٨٠٤ أسسوا مراكز لهم فى سيراليون Sierra Leone واقتدى بهم الميتوديون بعد ١٠ سنوات من ذلك التاريخ ، وفى سنة ١٨٦١ ، كانت لنصارى الزنج فى تلك الأقطار كنيسة مستقلة بذاتها .

وأما طريق الكاب فهى الطريق الثالثة التى دخل منها المبشرون الى باطن افريقية ، والمبشرون هنا لم يسبقهم السياح بل كانوا هم السابقين ، بدأ بذلك جورج شميد سنة ١٧٣٧ ، ويانسن سنة ١٨٠٠ ، فوصلا الى بلاد الهوتنتوت ، ثم ان الدكتور تيودور فان ديركمب الهولاندى ، ذهب الى بلاد الكافر من ناحية بور اليزابت . ثم الدكتور فيليب الانكليزى وصل الى بلاد البوشمن Buschmen ، الذين هم أشد أولئك الأقوام توحشا ، وقد تكلم هؤلاء المبشرون عن قسوة طائفة البوير نحو السود ، ولا سيما الدكتور فيليب هذا ، الذى كانت له اليد الطولى فى الغاء الرق بتلك الديار ، وكان هو السبب فى اعطاء الهوتنتوت حقوق رعايا المستعمرات .

وممن ذهب للتبشير فى بلاد الكاب بيسو Bisseux الفرنساوى أحد دعاة البعثة الانجيلية الباريزية ، وصل الى وادى شارون Charron فوجد هناك أربعة آلاف مستعمر

(١) أما العرب فكانوا يعرفون تمبكتو منذ قرون ، وبقيت هذه المدينة والممالك التى تجاورها أعصرا طويلة جزءا من سلطنة المغرب الأقصى ، ووصول السائح العربى الى تمبكتو ، لم يكن له من الشأن أكثر من وصوله الى احدى مدن المغرب .

فرنسي من أعقاب الهوغنوط (برتستانت الفرنسيس) ، جلوا الى هناك عند طردهم من فرنسا ، ولكنهم كانوا نسوا اللغة الفرنسية تماما ، ولم يبق عندهم من آبائهم الا بعض نسخ فرنسية من التوراة . ثم ان اثنين من بروتستانت باريز لمير Lemire ورولان Roland وصلا سنة ١٨٣٣ الى لسوتو Lessouto . وصار هذا القطر من ذلك الوقت مركزاً للدعاية البروتستانتيةالفرنسوية . و بعد هذا التاريخ بخمسين سنة ، تقدم أوجين كويليار Eugene Coillard الفرنسي الى بلاد زمبازه العليا ، ونصر كثيراً من زنوج الماروتزى Marotsé .

ولكن الاكوسيين أحرزوا قصب السبق فى تهذيب أهالى تلك الأقطار ، اشتهر منهم موفا Moffat الذى قضى زهاء نصف قرن ، يجتهد فى تنصير أمة البيتشوانه Betchouana وترجم التوراة الى لغة السيتشوانه Sitschouana ، فأوجد فى لغة أولئك المتوحشين أدباً لم يكن معروفا ، وازوج موفا ابنته ، من ليفنستون الشهير المولود سنة ١٨١٥ ، وكان هذا رحالة ومبشراًمعا ، بدأ سياحته بين نهر الاورانج وزمبازه ، ثم دخل أواسط القارةالافريقية، ومنها خرج فى لواندة Loanda بساحل الكونغو ، ومنها ذهب الى كاليمان Quelimane بساحل الموزامبيق ، وهو أول أوربى اطلع على مجرى نهر زمبازه ، وهذه رحلته الأولى من سنة ١٨٥٣ الى ١٨٥٦ ثم باشر رحلته الثانية (١٨٥٨ الى ١٨٦١) فعرف بها مجرى النهر الأدنى ، ودخل بلاد الشيرى Chiré ، واكتشف النياسا Nyassa من البحيرات الكبر فى أواسط افريقية . وأما فى رحلته الثالثة ، فجاب الاقليم الواقع بين بحيرة نياسا و بحيرة تنغانيكا ، وعرف طرف التنغانيكا الجنوبى ، وسنة ١٨٦٨ اكتشف بحيرة بانغفلو Banguvlo ، وفى هذه السنة انقطعت أخبار لفنستون المذكور ، فقلق بال الناس عليه نظراً لباهر اقدامه وجرأته ، فأرسل مدير جريدة النيويورك هرالد أحد الأخباريين المدعو هنرى ستانلى لتعقب آثار لفنستون ، فسافر ستانلى من باريز سنة ١٨٧١ ، فالتقى لفنستون بعد ١٠ سنوات فى محل يقال له أوجيجى على ضفة بحيرة التغانيقا ، ومات لفنستون بعد ذلك بسنتين أى عام ١٨٨٣ على ضفة بحيرة بانغفلو . وكانت للفنستون هذا همة عالية ، وعزمة راسخة ، استخدمهما فى الغاء الرق ومنع تجارة الرقيق ، وتعرض من أجل ذلك مراراً للاخطار .

أما الطريقان الباقيتان الى داخل افريقية فهما (الجزائر وطرابلس) اللتان كانت تذهب

منهما القوافل الى باطن القارة السوداء ، وكانت هذه القوافل تحدّث عن بحيرة عظيمة فى الداخل يقال لها وانغاراه ، وكانت جمعية الشركة الافريقية فى لندره أرسلت الماجور پدّى Peddie والضابط ليون بين سنة ١٩١٦ وسنة ١٩١٩ فهلك الاول،وعجز الثانى عن تجاوز فزان ولكن قنصل انكلترة فى طرابلس كان يؤكد لتلك الشركة أن الطريق من طرابلس الى برنو هى مفتوحة نظير الطريق من لندرة الى ادمبرغ .[1]

فأرسلت الشركة الافريقية بعثة عقدت عليها للماجور دنهام ، فسارت من طرابلس فى آخر مارس عام سنة ١٨٢٢ فمرت من فزان و وصلت الى كوكا عاصمة برنو فى ١٧ فبراير عام ١٨٢٣ وتوغل كلابر تون أحد اعضاء هذه البعثة الى بحيرة تشاد وزار كانو ، وسكوتو . ثم أرسل الانكليز بعثة ثانية تحت قيادة جس ريشار دسون ، وكان معه الالمانيان أوفرفغ Owerveg وبارت Barth فساروا من طرابلس فى خريف سنة ١٨٥٠ ، واخترقوا فزان الى العاير و وصلوا الى بحرة تشاد . وسنة ١٨٥٢ مات الالمانى اوفرفغ ولكن زميله بارت لم يفتر عزمه بل أوغل فى بلاد الاداموه فى الجنوب وعرف أن نهر بينوى Binoué هو من شعب نيجر . ثم ذهب الى سيكوتوفى الغرب ، ومنها صعد وادى النيجر الى الشمال الغربى حتى بلغ تمبكتو فاقام بهذه المدينة من سبتمبر سنة ١٨٥٣ الى مايو من السنة التالية وعاد من تمبكتو ، الى برنو ، ومنها عاد الى أوربا سنة ١٨٥٥ .

وأما الفرنسيس فبعد فتح الجزائر ، بدءوا يجوبون الصحراء، فكان اسماعيل بودريه ترجان القلم العربى فى «الاقوات» أول من أتى بالمعلومات الحقيقية عن الصحراء وعن التوارق الذين بين واحة وارغله ، وغات وذلك فى نحو سنة ١٨٥٠ وعقبه فى سنة ١٨٥٩ هانرى دوفافيه لجاء بمعلومات كثيرة عن التوارق . و بعد ذلك بسنين أرسل الكردينال لافيجرى رهبانه الاباء البيض الى أقاصى الصحراء ، حيث أسسوا مراكز للتبشير وفتحوا

---

(١) الحقيقة أن هذه الرحلات التى قام بها السياح الاوربيون فى باطن أفريقية ، وعدها أهل أوربا مآثر عبقرية ، ووضع أصحابها فى صف أعاظم الدهر ، كان العرب من سياح وتجار ودراويش ، قاموا بأضعاف أضعافها منذ قرون ، ولكن بدون بأو ولا فخر ولا ضوضاء عظيمة بل بكل بساطة لا يرى الواحد منهم فى الذهاب الى بحيرة تشاد او الى الكنغو من الغرابة ، أكثر مما يرى فى الذهاب من تونس الى غدامس . ولما وصل الاوربيون الى تلك الأقطار التى ظنوا أنها مجهولة عند كل العالم ، لم يجدوا من مجاهلها مكاناً الا فيه عرب ، أو آثار للعرب واللغة العربية .

مدارس للتعليم .

ومن المداخل المهمة التى كانت للاكتشاف والتبشير جزيرة ممباسا Mombaça وتوابعها ، وقد كانت مستعمرة برتقالية أو برتغالية ، فاستولى عليها امام مسقط ، ثم سلطان زنجبار . ولما كانت منفذاً للقوافل الواردة من الداخل رأت فيها جمعية التبشير الانكليكانية محلا مناسبا لبث الدعوة . وسنة ١٨٤٤ جاء رجل المانى من ورتمبرغ اسمه كرايف . فسكن فى راباى بقرب ممباسا ، ثم انضم اليه جواب آخر المانى اسمه ربمان ، فأزمعا السير والنظر فى داخل البلاد ، وكان أهم ما اكتشفاه ، جبلان مغطاة قننهما بالثلج الا بدى جنوبى خط الاستواء ، وهما كينيا وكيليما نجاروا [1] وتقدم هذان الرحالنان فى بلاد جاقا Djagga وكان أهلها من أشد الزوج توحشا يأكلون لحوم البشرفاخذ كرايف وربمان يرشدانهم ويهذبان من أخلاقهم ، وفى احدى المرار أراد أحد ملوك تلك الناحية أن يكافئ كرايف على هدايا قدمها له فوهبه عاجا ومواشي وعدداً من العبيد فقال له كرايف : أما العبيد فلا أقبلهم لان العبودية هى خلاف القانون الالهى ، وأما المواشى والعاج ، فما جئت الى بلاد اوزامباره لاجل حطام الدنيا ، فاذا شاء الملك يعطينى بعض أولاد غير ارقاء آخذهم معى الى رباى وأربيهم . ولما علمت جمعية لندن الجغرافية باكتشافات هذين الجوابين أرسلت بعثة عقدت عليها لضابطين من الجيش الانكليزى الهندى وهما ريشارد بورتون ، وسبيك ، فسافروا من زنزيبار سنة ١٨٥٨ واكتشفوا بحيرة تانغانيكا [2] ثم بحيرة نياسا التى لم يروا الا قسما منها واطلقوا عليها اسم بحيرة فكتوريا ثم توغل سبيك ورفيق آخر معه فى شمالى خط الاستواء الى الغرب ، فصادفا نهراً ظنا أنه من أصول النيل ، ثم سارا فى نحو الشمالى فوصلا الى غوندوكورو فى بحر الجبل ، وتلاقيا مع صموئيل باكر وأمرأته اللذين كانا يبحثان عن منابع النيل آتيين من الخرطوم .

وبعد عشر سنين من هذا التاريخ تلاقى هانرى ستانلى مع ليفينغستون فى أوجيجى على شاطئ التانغانيكا . والضابط كامرون خرج من زنزبار سنة ١٨٧٣ فلقى فى الطريق قافلة الزنوج الامناء ، التى كانت آتية بجثة ليفينغستون وأوراقه الثمينة ، وسار

(١) ١١ مايو عام ١٨٤٨

(٢) ١٣ فبراير ١٨٥٨

من الشرق الى الغرب مخترقا جميع قارة افريقية واكتشف مجرى لوكايا Loukaya ولوالا به Loualaba ونفذ الى ساحل بنقويله Benguela على سيف الاطلانتيك (١٨٧٨). ثم ان هانرى ستانلى تمكن من نقل مركب بخارى الى بحيرة فيكتوريا نيانزا، فجال فى جميع أقسام هذا البحر الداخلى وأقام مدة ببلاد اوغاندا Ouganda، ثم ضرب الى الغرب، فوصل الى أعلى نهر الكونغو وعرف الشلالات التى سميت منذ ذاك الوقت باسمه. وأما الضابط البرتقالى سربا بنيتو Serpa-Pinto فاخترق هذه القارة من الغرب الى الشرق، اذ سار من بنقويله فى ١٢ نوفبر سنة ١٨٧٧، وأوغل فى مجاهل نانو، وهيرامبو، و بيهى، و وصل الى الزامبيز الاعلى ومنها الى بلاد الماتيليبه Matelébe، والترانسفال.

فاسفار هؤلاء السياح هاجت شوق جمعيات التبشير الى بث الدعوة الدينية، لا سيما كتاب ستانلى الى مسيحيى انكلترة الذى حرره من مقرمتيسه Mtesa ملك الاوغانده (١٨٧٨) فقد أحدث هياجا عظيما، ورأيت جمعيات كليات اكسفورد، وكامبريدج، ودبلين، وجمعية الكنيسة الانكليكانية، والاباء البيض، والمبشرين الالمان، يتسابقون الى ورود هاتيك الارجاء والدعاية فيها.

وهذه الاسفار أيضا كان لها التأثير الأكبر فى اهتمام الدول الأوربية بمنع تجارة الرقيق المخجلة [1] وكانت انكلترة هى السابقة فى هذه الحلبة، ولما كانت جزيرة زنزيبار هى أعظم مركز لهذه التجارة فقد اجبر الانكليز سلطان زنجبار عام ١٨٧٣ على امضاء تعهد بمنع تجارة العبيد، وأخذت مراكب انكلترة تضبط جميع مراكب العرب التى تجد فيها عبيداً، وكثر عدد هؤلاء المستنقذين، فعمروا لهم مكانا يشتغلون فيه قصاد جزيرة ممباسه وسنة ١٨٧٦ انعقد مؤتمر جغرافى فى بروكسل، انتخب فيه ليوبولد ملك البلجيك رئيسا للشركة الشعوبية لتحضير افريقيــة، وهذه الشركة، هى التى أوجدت حكومة الكونغو الحرة.

وسنة ١٨٨٥، انعقد فى برلين مؤتمر لتقسيم افريقيــة بدعوة البرنس بيسمارك، وخرج فى نصيب المانية حصص صالحة مثل مستعمرات الكامرون، وتوقو، وزنجبار، وتقرر بين الدول التشديد فى الغاء الرق، والتعهد بحماية رسالات التبشير الساعية فى تهذيب

(١) اوافق على أنها مخجلة

السود بدون تفريق بين المذاهب والأجناس ، كما ان حرية الأهالى الدينية بقيت مضمونة وقد أيد قرارات مؤتمر برلين هذا مؤتمر انعقد فى بروكسل عام ١٨٨٨ ، تداعت اليه جميع الدول النصرانية وأرسلت اليه بعض الدول الاسلامية مثل تركية ، وايران ، وزنجبار معتمديها ، وتقرر انشاء دائرة دولية فى زنزيبار لمراقبة ابطال الرق .

الرسالات البروتستانتية فى افريقية

لم تصل البعثات التبشيرية الى افريقية الا بعد البعثات الكاثوليكية بقرنين ونصف قرن ، وهو أمر طبيعى لأن البروتستانتية قبل أن تفكر فى نشر دعوتها فى خارج أوربا ، كان عليها أن توطد قدمها فى داخل أوربا . ولكن البروتستانتيين بعد أن بدأوا فى التبشير سبقوا أقرانهم الكاثوليك فى الاجتهاد والنجاح . وكانت الدول المسيحية بادىء ذى بدء أرادت حمل الزنوج على التنصر بنفوذ الحكومات ، وسارت زمانا على هذه الخطة ، ولكن دول انكلترة وهولانده ، والدانمارك ، رفضت فى التالى هذه الطريقة خشية حدوث الثورات فى مستعمراتها ، وتركت ايتاء مهمة التنصير للجمعيات غير الرسمية .

وان أكثر الأمم رسالات دينية فى افريقية هى الأمة الانكليزية ، فانها تنفق بقدر ثلثى نفقات الرسالات البروتستانية باجمعها . ولكن الذين بدأوا بالتبشير لم يكونوا الانكليز بل الألمان والدانمركيين . وقد كان أول من اقتحم هذه الأخطار من الالمان هو المورافيين حاولوا الدخول من أربعة أبواب معا : الجزائر ، والقاهرة ، وساحل غينية ، والكاب . ففشلوا فى الثلاثة الأبواب الأولى بسبب تمسك أهل الاسلام بدينهم ، وبما فتكت بهم الحمى فى غينية ، فقد كانوا يرسلون الفوج بعد الفوج ، فتحصدهم الحمى تباعا حتى عدلوا عن رسالة غينية ، ولم يستأنف العمل هناك الا بعد ستين سنة بواسطة جمعية (بال) من سويسرة الالمانية . أما فى بلاد الكاب ، فقد كانت لهم اليد الطولى فى تهذيب الهوتنتوت والكافر Kafres ، وتخفيف آلام المجذومين . ولما توطن المبشر الألمانى جورج شميد فى بافيانس كلوف على ٥٠ ميلا شرقى الكاب ، كان الفلاحون الهولانديون « البوير » يحتقرون الهوتنتوت الى حد أنه هو قرأ امام عدة كنائس الاعلان الآتى « ممنوع دخول الهتنتوت والكلاب الى هنا » . وسنة ١٧٩٢ أسس الموارافيون فى تلك البلاد مركزاً أطلقوا عليه اسم وادى الرحمة Gnabental ، وفى سنة ١٨٠٠ صار هذا المركز قرية ذات ١٢٠٠ نسمة

فيها صناعات وأشغال مفيدة ، واليوم هى من أزهر بلاد الكاب ، وفيها ثلاثة آلاف هوتنتوتى مسيحى . ثم أوغل الموراڤيون فى بلاد الكافر الى مسافة ٦٠٠ ميل شرقى الكاب . وعاقت أعمالهم حروب الانكليز مع أمة الكافر ، لكنهم ثبتوا فى موقفهم وصبروا على الشدائد من سنة ١٨٢٨ الى سنة ١٨٨٥ ، اذ وفقوا الى تأسيس مركز فى شمالى بحيرة نياسه Nyassa فى الجنوب الغربى من المستعمرة الألمانية الشرقية . وكان للبعثة الموراڤيه عام ١٩٠٢ نحو ١٢ مركزا ، و٢٢ مدرسة ، و٢٠٠٠ تلميذ ، ونحو ١٠ آلاف متنصر وعلموا الأهالى البناء والحرث . ولكن أهم عمل قاموا به هو معالجة المجاذيم ، فان الانكليز منذ سنة ١٨١٨ بنوا مستشفى لمجذومى الهوتنتوت وسلموا خدمته الى الموراڤيين ، وكان مستشفى واسعاً ذا جدران عالية وباب واحد ، فلبثوا يخدمون هذا المستشفى ٤٤ سنة ، وكان الدكتور لابتز مدير المستشفى متعزيا عند وفاته ، بأنه وجد من المجاذيم ٩٥ رجلا قبلوا الدين المسيحى. ولما أرادت الحكومة الانكليزية استبدال قسوس انكليز بهم ، خرجوا من ذلك المعهد الصحى باكين ، ومن الغريب انه لم يصب ولا واحد من الموراڤيين بالجذام مع شدة عدوى هذا المرض .

ويأتى بعد الموارفيين دعاة جمعية بال (أو بازل بالألمانية) فقد نطحوا افريقية سنة ١٨٢٨ بطلب ملك الدانمرك ، فذهبوا الى ساحل الذهب وكانوا سبعة ، فمات منهم خمسه بالحمى ، والتجأ أحد الاثنين الباقيين الى أحد الجبال حيث الهواء نقى ، فجعل هناك مركز رسالة ومصحة معاً ، وسنة ١٨٣٥ أسس فى اكروينغ كنيسة لنصارى السود ، وكانت مبادئ العمل فى غاية المشقة اذ مضت ٣٤ سنة ولم يتنصر سوى ٨٠٠ شخص ، ولكن منذ سنة ١٨٥٧ أخذت الرسالة تنجح وعدد المتنصرين ينمو ، حتى كان مجموعهم سنة ١٩٠٢ نحو ١٨ ألفا . وهذه الرسالة اليوم ممتدة الى بلاد الاشانتى التى قاعدتها كوماسى ، والى حدود مستعمرة طوغو الألمانية . ولها أيضا تسعة مراكز فى مستعمرة الكامرون الألمانية ، حيث يلتف حولها نحو ثلاثة آلاف نصرانى كامرونى ، وعندها فى الكامرون ١٣٧ من الكتاتيب ، يختلف اليها نحو ٣٢٠٠ ولد . وقد ترجم رجال هذه البعثة التوراة الى اللغة المسماة دوالا Doualla

ثم جمعية برلين الافريقية وهى احدى جمعيات برلين الانجيلية ، أسسها ديستلكامب

Diestelkamp سنة ١٨٨٦ للتبشير فى شرقى افريقية ، فأرسلت دعاتها الى الجنوب الغربى من مملكة الاورانج ، والى غربى غريكا ، والى بلاد الباسوت فى الترانسفال ، والى شمالى بحيرة نياسه ، فيوجد لها فى هذه الأيام ٢٧ مركز دعاية و ٢١ ألف متنصر ، وازهر مؤسساتها مدينة بوتشابيلو ، التى عدد سكانها ٤ آلاف كلهم نصارى ، وفيها صناعات ومهن فى غاية الفائدة .

ثم جمعية الكنائس الانجيلية فى بلاد الرين أرسلت دعاتها للتبشير فى بلاد الهوتنتوت ، ثم نطحت بلاد الناما Namas ، والهريرو Herreros الذين هم من أشد القبائل عتواً والاوفامبو الذين بين نهر الاورانج والكونيين ، ثم إن أحد البيوتات التجارية الالمانية من برآم أسس محلا تجاريا فى اوتجيمبنغه Otijimbinge فامتد هناك الالمان وجعلوا لأنفسهم مستعمرة سموها مستعمرة الجنوب الغربى الافريقى ، فالرسالة الانجيلية الرينية عندها فى هذه الأيام فى مستعمرة الكاب ٢٥ مركز دعاية ونحو ١٦ ألف متنصر ، وفى مستعمرة الجنوب الغربى المذكورة ٢٤ مركزا ونحو ١٢٥٠٠ متنصر .

ثم جمعية شمالى ألمانية التى مركزها برآم ، وجمعية هرمانسبورغ التى مركزها هانوفر هما أيضا تشتغلان فى الدعاية بافريقية ، فالأولى تخدم هذا المقصد فى ساحل العبيد وعندها نحو ٣ آلاف مريد ، والثانية تشتغل فى بلاد الباسوتو شمالى الترانسفال ، والباسوتو قوم كان البوير يعاملونهم معاملة أرقاء . ثم تقدم دعاة هذه الجمعية الى بلاد الزولو ، وشرعوا فى التعليم والتبشير ، فمن نصف قرن الى اليوم صار عندهم نحو ٤٣ الف متنصر .

ثم تأتى جمعيات السويد والنورويج ، فللسويد جمعية تبشر فى مستعمرة ايطالية بالاريتره ، وفى بلاد كونانه ، ومقاطعة حمازه ، شمالى الحبشة الى الغرب ، وكان عندها سنة ١٩٠٢ عشرة مراكز و ٥٠٠ مريد و ١٤ مكتباً للصغار . أما النرويجيون ، فقد أسسوا فى ماداغسكر رسالة فى غاية العظم ، فانتخبوا مقاطعة بتسيليو للعمل بالاتفاق مع جمعية لندن التبشيرية ، ثم تقدموا الى بلاد ساكالاف فى الساحل الغربى من ماداغسكر ، والى الساحل الجنوبى الشرقى . وبعد جهد استمر ٣٠ سنة ، كان عندهم سنة ١٩٠٠ خمسمائة مكتب ، وواحد وخمسون ألف وثلثمائة مريد ، ولهم أيضاً مدرسة علمية عالية ، ومدرسة لاهوتية ، ومدرسة طبية تابعة لمستشفاهم بتاناناريف .

ثم الجمعيات الهولاندية ، وأول من اعتنى منها بالتبشير ، جمعية تاسست سنة ١٧٩٧ فى روتردام ، اسمها جمعية جنوبى افريقية لتوسيع مملكة المسيح . وكان بطلاها تيودور فان دركامب وكيشرر ، فذهبا الى بلاد الكاب وباشرا العمل فى بلاد الهوتنتوت وعند ذلك اشتدت عزيمة الكنيسة الهولاندية فى الكاب ، فقامت بمايجب عليها من التبشير بين زنوج بلاد الأورانج والترانسفال . ولما دخلت بلاد الكاب تحت سلطة انكلترة سنة ١٨١٥ ، انطلقت أيدى الجمعيات التبشيرية الانكليزية فى العمل لاسيما جمعية التبشير بالانجيل المعروفة بهذه الأحرف الثلاثة S.P.G فقد بثت الدعاية بين الأهالى بهمة المطران غراى ، وسنة ١٨٦٤ دخلت هذه الجمعية ماداغسكر ، وأسست كرسى اسقفية فى تاناناريف ، وصار عندها ١١ الف مريد .

ثم برزت الى الميدان جمعية رسالات الكنيسة الانكليزية المؤسسة عام ١٧٩٩ ، وكان معظم همها مصروفا نحو افريقية ، وكانت كلمتها « ينبغى رجال ذوو عقل دينى لا كمال عمل روحى » وفى البداية كانت تكتتب أكثر دعاتها فى ألمانية ، فقد أخذت من مجمع مدينة بال وحده ثمانين داعياً كلهم من الطراز الأول . وكان ميدان عملها الكاب ووادى النيجر الأوسط ثم مومباسه ، ثم الأوغانده حيث وقع الخلاف بين المبشرين الكاثوليكيين والمبشرين البروتستانتيين وجر الى معارك دموية ، ومع هذا ، فان هذه الجمعية جمعت حولها ١٦٤ الف متنصر فى الأوغانده وحدها وكان يوجد هناك نحو ٢١٢ الف زنجى كاثوليكى ، و٤٠ ألف مسلم . ولا يزال نحو ٣٨٠ الف زنجى على عبادة الأصنام[١] فالرسالة الانكليزية بواسطة هذه الجمعية تمكنت من تأسيس خمس عشرة اسقفية وهى مايأتى : اسقفية الكاب (١٨٤٧) سيراليون (١٨٥٢) ناتال (١٨٥٣) ، غرامستاون (١٨٦٣) ، بلومفونتن (١٨٦٣) ، الزولو (١٨٧٠) سان جان فى بلاد الكافر (١٨٧٣) تاناناريف بمدغسكر (١٨٧٥) ، بريتوريه (١٨٧٨) ، زنزيبار وشرقى افريقية . خط الاستواء . بلاد النيجر . نياسه وماشونه فى روديزيه Rhodésia . ويضاف الى هذه الاسقفيات مدارس للعلوم والمهن كالحدادة ، والنجارة ، وجر الأثقال ، وغيرها ، وأشهر هذه المعاهد الذى فى غراهامستون ، ثم الذى

(١) قرأت فى بعض الكتب الفرنسوية أن الانكليز عززوا قوة الدعاية الانكليزيه بالسلاح فى الأوغانده وضايقوا الكاثوليك والمسلمين

فى بلاد الكافر ، ثم الذى فى جوار الكاب ، ثم الذى فى كيبوزى .

ولقد اعترف بجلائل أعمال هذه الجمعيات أبعد الناس عن الدعوة الدينية . فقال اليزه ركلوس الجغرافى الفرنسى الشهير : انه بتاثير دعاية الجمعيات الانكليزية دخل كثير من زنوج سيراليون فى النصرانية وصار منهم أكثر الوعاظ والمبشرين ، وأقبل الناس على التعلم وتحرر الأرقاء ، وتأسست مملكة سوداء حرة .

ثم جمعية رسالات لندن المؤسسة سنة ١٧٩٥ ، أرسلت دعاتها الى بلاد البوشمن فى الأورانج الأعلى ، والى مابين بلاد الكاب وبحيرة ناقامى ، والى جزيرة ماداغسكر ، وأسست سنة ١٨٧٧ مراكز بقرب تنقانيكا ، واورامبو ، واوجيجى . وقد كان مريدو هذه الجمعية بلغ عددهم سنة ١٨٥٠ فى بلاد الكاب ٣٥ الف نسمة ، وأما فى سنة ١٩٠٢ فكان عددهم ٩٦ ألفاً عدا رعية كنيسة ناتال . وتنصر على يد ليفنستون أحد أولاد ملوك بامانقواتو المدعو كاما ، فمنع استعمال الأشربة الكحولية بين الأهالى .

وقداقتدت بالكنيسة الانكليكانية الكبرى الكنائس التالية ، فالكنيسة المعمدانية نشرت دعوتها فى خليج غينية وجعلت لنفسها مركزاً فى جزيرة فرناندوبو الاسبانية ، ثم بثت دعاتها فى الكامرون حيث بنت مدينة فكتوريا التى صارت قاعدة مستعمرة الكامرون الألمانية ، وتركت فى تلك البلاد مآثر عظيمة من تزكية الأخلاق . والغاء الرق وابطال السحر واسقاط السحرة الى أن صاروا يتوارون فى الغاب وصارت الفتيشية سخرة يهزأ الجميع منها . ولما استولى الألمان على الكامرون لم يرتاحوا الى وجود المبشرين الانكليز فيها ، فتخلى هؤلاء عن مؤسساتهم لجمعية بال الألمانية (١٨٨٧) ، ولبث النصارى الوطنيون مستقلين بكنائسهم . وتحولت الجمعية المعمدانية من الكامرون الى الكونغو حيث كان البرتقاليون قد أدخلوا كثيرين فى الكثلكة ، فاجتهد الانكليز المعمدانيون فى استمالة قسم من أهل الكونغو ، ولكن الى اليوم لايزيد عدد المتنصرين على أيديهم على أكثر من ٦٠٠ نسمة (١٩٠٦) .

ويرجع الى هؤلاء المعمدانيين الفضل فى تنبيه الأفكار ، الى ما كان يجريه عمال البلجيك فى الكونغو من المظالم والفظائع ، التى تشمئز منها الطباع ، والتى شاع ذكرها فيما بعد ، فصدر أمر ملك البلجيك ليوبولد حينئذ بالتحقيق عن هذه الفظائع ، وثار من أجل

ذلك غضب أولئك المستخدمين الذين افتضحت أعمالهم لـكن المبشرين قاموا بواجبهم تجاه النصرانية والانسانية جميعا .

ثم الـكنيسة المسماة بالميتودية Wesleyenne ou Méthodiste (١) بدأت بالتبشير فى سير اليون سنة ١٧٩٦ ، ونجحت نجاحاً عظيما حتى يعد مريدوها اليوم بنحو ٧٥٠ ألف نسمة منهم ١٥٠ مبشراً زنجيا وعندها فروع ممتدة من غامبيه الى النهجر . وللـكنيسة الميتودية هذه رعية فى بلاد الـكاب ، والكافر ، والزولو ويحصى مريدوها هناك بنحو ١٠٠ ألف نسمة . وفيما بين الزنوج الميتوديين ظهرت الحركة المسماة بالاتيو بيـة Ethiopisme التى معناها نزوع المسيحيين السود من أمة البانتو Bantous فى جنوبى افريقية الى ادارة الـكنائس الأهلية بدلا عن الأوربيين ، عملا بقاعدة « افريقية للافريقيين » ، وقـد بزغت هذه النزعة سنة ١٨٩٦ فى الترانسفال ، وأخذت اسم الاتيو بية بحجة ان أصحابهـا يريدون الانتماء الى الـكنيسة الاتيو بية أى الحبشية ، لأنها كنيسة مسيحية أصلية فى افريقية تأسست منـذ أيام الحواريين . وهم يرمون المبشرين الأوربيين بكونهم غالبا يجعلون التبشير مصيدة للدنيا ، وغرضا من أغراض السياسة والتجارة ، ولا يفهمون حقيقة احتياج الروح السوداء ، فرماهم تأسيس كنيسة افريقية حرة لا تحت سيطرة المبشرين الأوربيين ، ولـكن أصحاب هذا المشروع كان ينقصهم العلم اللازم والقوة الـكافية لتحقيقه ، فراجعوا الـكنائس السوداء بأمريكا لأجل مساعدتهم ، فلم يفوزوا بطائل يذكر فانضموا سنة ١٩٠٠ الى كنيسة الـكاب الانغليـكانية ، واتخـذوا لقب الجمعية الحبشـية وعددهم نحو ١٠ آلاف ، (٢)

ثم الـكنيسة البرسبيترية L'Église Presbytérienne فى بلاد الايكوس لها مراكز دعاية فى بلاد ناتال ، وعندها مدرسة فى بليتسفورد . وكذلك الـكنيسة الا يكوسية الحرة لها مراكز فى بلاد الـكافر ، والزولو ، وعندها مدرسة صناعية فى لوفيدال ، فيها نحو ٥٠٠

---

(١) كنيسة پروتستانية أسسها فى اكسفورد يوحنا وسلى John Wesley سنة ١٧٢٩

(٢) يعلم القارئ المفكر من هنا ان نزعة الاستقلال عمت جميع الأمم حتى السـوداء ، وصارت الى المسائل الدينية أيضاً فما كاد قسم من الزنوج يتنصرون على أيدى الأوروبيين حتى نهضوا يطلبون استقلالهم الـكنسى ، ويحنون الى الحبشة النصارى ، ملتمسين الانضمام اليهم لأنهم افريقيون فى الجنس .

طالب ، ويتبعها مزرعة انموذجية ، تبلغ غلتها كل سنة ألف قنطار من الحبوب

وبالاجمال فالرسالات الألمانية امتازت بالتدقيق فى اللغات الافريقية ، وبالثبات وحفظ النظام ، ولكن الرسالات الانكليزية والايكوسية امتازت بالجرأة وبعد الهمة ، وبالصدق فى تحرير الزنوج ، ومنع المظالم الواقعة عليهم من المستعمرين ، على ان كلا الفريقين ادخل فى افريقية الشغل اليدوى ، والصناعة والزراعة ، مقرونة بالتعليم الدينى والتهذيب ، فصرت ترى من هؤلاء السود زراعا وعشقاً (١) وممرضين وميكانيكيين وقوامين على التلغراف .

أما البروتستانتيون الفرنسيس فقد أرادوا الاقتداء بغيرهم من أبناء سائر الكنائس الانجيلية ، وتأسست لهم جمعية تبشير فى باريز سنة ١٨٢٨ ، وأرادت بث دعاتها فى العالم الوثنى مبتدئة فى ذلك بالمستعمرات الفرنسية مثل جزر الانتيل ، والبونديشيرى ، ولكن الكاثوليكيين أبوا ذلك ، فلم يسمح كارلوس العاشر ملك فرنسا للبروتستانت الفرنسيين بالتبشير فى تلك الأصقاع ، فاعمل هؤلاء همتهم فى بلاد الكاب لا سيما عند جيل يقال لهم الباسوتو Bassoutos وقد مضى على دخولهم تلك البلاد سبعون سنة هذبوا فيها أخلاق هذا الجيل ، وأوجدوا بينهم العلوم والمهن ، وأسسوا مدارس وكتاتيب ومطابع ، وعندهم الآن ٣٠ ألف مسيحى من الأهالى و ١٢ ألف ولد فى كتاتيب الجمعية ، وقد جمع المبشرون لغة هؤلاء القوم فى معجم ، وألفوا لها نحواً وصرفاً وآدابا ، وترجموا لها التوراة .

ولما تأسست فى فرنسا الحكومة الحرة أذنت لهم بالتبشير فى المستعمرات الفرنسية ، فذهبوا الى السنيغال سنة ١٨٦٢ ، والى الكونغو الفرنسى ، والى زمبيزية العليا ، والى ماداغسكر . فأما الرسالة السنيغالية فكان عليها أن تجادل خصمين عنيدين . المناخ الوبى ، والتعصب الاسلامى . وبالرغم من ذلك ، تمكنت من تأسيس مركزين أحدهما فى سان لويس والآخر ، فى بونديور . أما فى الكونغو الفرنسى فكان أولا المبشرون الامريكيون من الكنيسة البرسبيترية ، فلما قضت الحكومة الفرنسية بتعليم اللغة الفرنسية بصورة اجبارية دعا المبشرون الاميريكيون جمعية التبشير البروتستانتية الفرنسية لأخذ مراكزهم (١٨٩٢)

---

(١) جمع عشيق أو عشوق وهو الذى يسوى رياحين الحدائق

وأسسوا أربعة مراكز جديدة ، وشرعوا فى الوعظ بين قبيلين أحدهما يقال له الغياوه Galoas والثانى الباهوين Pahouins . وأما فى زمبيزية العليا فانهم جعلوا ميدان عملهم بلاد البار وتزى Barotsis ، فنجحوا نجاحاً عظيما ، ومن لم يتنصر من هؤلاء القوم ، فقد تهذبت أخلاقه بالاحتكاك مع المبشرين ونشر التعليم المسيحى ، ومنهم لفانيكا ملك البلاد الذى أمر بمنع الأشربة الكحولية فى مملكته ، فالبعثة الفرنسية الانجيلية عندها هناك ستة مراكز ، مع مدارس وكنائس عديدة . ولكن بدأت تزاحمها منذ سنوات فى ذلك القطر الجمعية الحبشية المار ذكرها ، والتى مبدأها « افريقية للافريقيين » .

ولما استولت فرنسا على ماداغسكر بتمامها سنة ١٨٩٥ ، كان التبشير فى هذه الجزيرة الكبرى فى يد الجمعية النورويجية ، ورسالتين انكليزيتين احداهما ، رسالة لندن ، والثانية رسالة الكويكرس . فلما زحفت العساكر الفرنسية ، اتهم بعض دعاة رسالة لندن بتحريض أمة الهوفا Hovas على المقاومة ، فطلبت الحكومة الفرنسية تخلى رسالة لندن عن قسم من مؤسساتها لرسالة فرنسا الانجيلية ، وكان لرسالة لندن حينئذ خمسمائة كنيسة ، وثلثمائة وخمسة وسبعون كتابا للاولاد . ولم يخل هذا الأمر من احداث شكوك وشبهات فى افكار الماداغسكريين المتنصرين حديثا فاهتبل الجزويت هذه الغرة لتحذير الحكومة من البروتستانية ، وزعموا ان بروتستانتى هو مرادف انكليزى ، وان كاثوليكى مرادف لفرنسى أو محب لفرنسا ، فبمساعدة بعض ضباط الفرنسيس ألقوا فى السجون عدداً كبيراً من القسوس الانجيليين من الوطنيين ، وانتزعوا منهم نحو مائة كنيسة ومدرسة ، وسلموها الى الرسالة الكاثوليكية . وما زال هذا الاعتداء واقعاً حتى تولى الجزيرة الجنرال غاليانى ، فأبطله . والآن تحت يد البعثة الفرنسية الانجيلية فى ماداغسكر فى مقاطعة ايميرينه Imérina ٣٤٢ كنيسة يختلف اليها ٧٧٧٥٨ مؤمناً وفى مقاطعة بستيليو Bestileo ١٨٧ كنيسة يختلف اليها ٣٣٣٢٩ مؤمنا ، هذا عدا المدارس الابتدائية والعالية ، ودور المعلمين والمعلمات ، ومستشفى المجاذيم .

ولا ننسى مساعى الكنيسة الانجيلية المتيودية الفرنسوية فى بلاد البربر Kebylie من جزائر الغرب ، فقد ذهب الى هناك مبشر اسمه جالابرت عظيم الثبات والمهارة فجعل مركزاً فى المتن Matheu ، وآخر فى القصور ، وأخر فى بجاية ، ونصر عدداً من المسلمين

أ كثرهم من البربر ، فظهر أن تنصير المسلمين لاسيما من أمة البربر ، ليس من الصعو بة بالدرجة التى كانوا يظنونها .

ثم ان الامريكيين قد تعاطوا أيضا التبشير فى افريقية وذلك ، أن سود امريكا اهتموا باخوانهم سود افريقية من قبيل تضامن الجلدة ، وان البيض تذكروا انهم هم الذين كانوا قد أتوا بهؤلاء السود واستخدموهم واستعبدوهم ، وأذاقوهم العذاب ألوانا ، فرسالتهم التبشيرية الى افريقيه ، هى تكفير جناية الاعتداء على الانسانية مما ارتكبه آباؤهم بحق الافريقيين .

فللامريكيين فى افريقية ثلاث رسالات : الرسالة المتيودية ، والرسالة المعمدانية ، والرسالة البرسبيترية . فلما تأسست مستعمرة ليبيرية فى ساحل غربى افريقية وجاءها الزنوج من اميركا (١٨٢٠) أرادت الكنيسة الميتودية أن تؤسس فى ليبريه مركزاً فلم تتمكن من ذلك ولكن سنة ١٨٥٨ أسست أسقفية وجد فيها وعاظ مشهورون مثل بورنس وتايلر . (١)

---

(١) سنة ١٩٢٢ كان محرر هذه السطور من جملة الوفد السورى ، المطالب باستقلال سورية فى جنيف لدى جمعية الأمم ، فحسب العادة كنا نطلب من جميع الوفود الدولية بدون استثناء ، الملاقاة معهم لبسط القضية السورية لهم ، فكانوا فى الغالب يجيبون سؤالنا ولما كانت جمهورية ليبريه هى من جملة أعضاء عصبة الأمم ورد لنا الجواب من مندوبيها أيضاً بتعيين موعد للملاقاة ، فذهبت أنا وزميلى احسان بك الجابرى . وتذكرنا ساعة ذهابنا ، كيف ان حكومة أمة سوداء زنجيه تكون حرة مستقلة وعضواً فى جمعية الامم ، وان قطراً مثل سورية وفلسطين هما من أقدم وأشرف أقطار العالم ، وأمة كالامة العربية تكون محرومة استقلالها ، ولا يكون لها حق أن تساوى هذه الامة الزنجية الصغيرة ، فى الجلوس على كرسى في عصبة الامم . ولما وصلنا الى المحل الذي فيه مندوبو ليبريه التقانا اثنان اوربيان ، تكلما معنا بالفرنسية ، وعرفنا منهما انهما مندوبا تلك الجمهورية ، فشرحنا لهما قصتنا والتمسنا منهما كالعادة ضم أصواتهما الى أصوات الذين يطالبون باستقلال الامم ، فاعتذرا بأنهما يخافان الضرر من غرمائنا الفرنسيس والانكليز فيما لو رفعا أصواتهما باسعافنا فى مطالبنا ، اذ قالا لنا ان جمهورية ليبريه صغيرة ومجاورة لمستعمراتهم ، فيمكنهم الانتقام من الليبريين ، ونحن في الباطن عذرناهما ، ولكنهما قالا لنا ، انهما يتمنيان نجاح قضيتنا ونجاح كل البلاد الاسلامية فسألناهما وهل فى جمهورية ليبريه مسلمون ؟ فالتفت أحدهما وقال مؤكدا : « ان جمهورية ليبريه سكانها مليون وخمسمائة ألف نسمة ، منهم ثلاثمائة ألف نصارى ، ومليون ومائتا ألف مسلمون . فسألناه وكم عدد الاوربيين فى ليبريه ؟ فقال : الاوربيون التابعون لليبريه هم ٥٠٠ نسمة لاغير . فلم نزد فى السؤال على ذلك » ونظن ان ازدياد عدد المسلمين هناك أمر حديث العهد . »

أما الرسالة المعمدانية الاميركية فلها مراكز فى مونر وفيه ، وسيراليون ، وفى ليبريه ، وفى بلاديو رو به ، وقاعدتهم فى هذه لاغوس على ساحل غينيه . وقد عضدهم فى مساعيهم كلها مبشرو الجمعية المعمدانية السوداء .

وأما الكنيسة البرسبيترية الامريكية ، فقد وجهت نظرها من الأول الى مصر (١٨٥٤) ، وساعدها الخديوى سعيد باشا فى مشروعاتها ، فشادت مدارس فى القاهرة والاسكندرية وسنة ١٨٦٣ ، اسست الكنيسة القبطية الانجيلية وصارت لها شعب فى أسيوط ، والاقصر ، والمنصورة ، وسنة ١٨٩٥ ادخلت النصرانية فى اسوان بعد أن كانت انقرضت من هناك منذ ١٢ قرنا ، فالاقباط الانجيليون اليوم (١٩٠٦) يبلغ عددهم ٢٥ ألفاً

وانهى المسيو بونه مورى كلامه الملخص هنا بقوله ، ان نجاح هذه البعثات الانجيلية كلها فى افريقية ، دليل على كون قوة الدعاية النصرانية لاتغلب فيما لو تجردت من الأغراض السياسية ، فانه لايوجد آفة على التبشير أعظم من المآرب الاستعمارية ، اذ بذلك الأهالى يجعلون التبشير لجميع الآثام والموبقات ، التى تصدر من عمال الحكومات المستعمرة .

نهضة الاسلام فى افريقية وأسبابها

ووسائل دعوتها

(١٧٩٠ — ١٩٠٠)

قال : ذكرنا مجاهيد الرسالات الكاثوليكة والبروتستانتية فى افريقية ، سواء ، لأجل اعادة الاقباط والاحباش الى حظيرة الكنيسة الرومانية ، أو لأجل تنصير الزنوج ، و بقى علينا استئناف الكلام على امتداد الاسلام فى افريقية .

فقد رأينا كيف ان الاسلام بين سنة ٦٣٨ و ١٠٥٠ مسيحية فى دوره الأول فتح سريعاً شمالى افريقية وأدخلها فى دينه ، وامتد من ساحل البحر المتوسط الى السودان امتداداً كان بطيئاً ، لكنه كان أمينا . وقد توقف سير الاسلام قليلا فى القرن العاشر بسبب ثورات البربر ، وحروب الروم ، وفتن ملوك المغرب بعضهم مع بعض ، ولكنه استأنف همته وأدخل فى حظيرته نصارى النوبة ، وأمم الغاله ، والسواحليين (سواحل زنجبار) ، وقبائل الصحراء ، ثم أسس فى السودان ممالك عزيزة ، ومراكز

عظيمة لبث الدعوة ، وهذا فى دوره الثانى .

أما فى الدور الثالث من سنة ١٧٥٠ الى ١٩٠١ فقد نهض نهضة ثالثة ، على أيدى مشايخ الطرق أو الاخوان ، وذلك انه فى أواخر القرن الثامن عشر ، لما دخلت الدعوة البروتستانتية من كل نوع الى افريقية ، وضاعفت الكنيسة الكاثوليكية فيها مجاهديها بسائق المنافسة ، كان لابد من أن يتنبه الاسلام لمقاومة النصرانية ، وان يشتد الصراع بين هاتين القوتين المتقابلتين ، مقرونا ذلك بالاهواء السياسية ، التى تزيده شدة وحدة .

وأكثر أسباب هذه النهضة الأخيرة ، راجعة الى التصوف ، والاعتقاد بالأولياء ، و بظهور المهدى .

ثم ذكر المؤلف كيفية دخول التصوف فى الاسلام مما لم نأثره ، لأن مؤلفى الاسلام أدرى بهذا الموضوع ، وأشار الى عقيدة الأولياء قائلا ، انها مخالفة أشد المخالفة لروح القرآن وان نبي الاسلام ﷺ كان نظره عاليا جدا الى السماء ، ومجتهدا أن يعلو الى آفاق بعيدة بانظار المؤمنين و بصلواتهم ، ولكن المؤمنين لم يلبثوا أن شعروا بالاحتياج الى الوسيلة عند الله ، واتخاذ متوسطين لديه تعالى ، يكونون أقرب متناولا . فلم يأت القرن الثالث من الهجرة حتى ظهرت فى الاسلام العقيدة بالأولياء ، وابتدعت زيارة قبورهم ، وصاروا يعتبرون لهم خصائص ، و يعزون اليهم الكرامات والخوارق وأصبح لكل منهم أتباع ومريدون ، وأشبهت القضية العقيدة الكاثوليكية من هذا الوجه ، فالولى الفلانى يشفى من الرياح كما كان القديس فياكر يشفى مرض الباسور . والشيخ محمد أبو طالب ، يقصده الناس لأجل لقيان الحوائج الضائعة ، كما كانوا فى النصرانية يقصدون القديس انطوان بادو والامام الشافعى ، يستغيث به طلاب الأزهر ، للنجاح فى دروسهم والولى الفلانى هو شفيع المحامين مثل القديس ايف Ives . والآخر مستغاث السياح ، يقيهم من اللصوص فى الطريق .

وأفاض المؤلف فى ذكر الأولياء والقبور ، والقبب المشيدة للزيارات وأداء النذور مما لايحتاج القارىء الى معرفته ، ثم وصل الى عقيدة المهدى فقال :

معلوم الدور الذى أخذته عقيدة المسيح المنتظر فى اليهودية وظهر فيما بعد أنها مستعارة من الفرس . كذلك المسلمون يعتقدون بظهور رجل فى آخر الزمان يقال له المهدى

يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلماً وجورا ويستدلون على ذلك بأحاديث للنبى ﷺ .

ثم ذكر المهديين الذين ظهروا فى الاسلام أوادعوا المهدوية فعدّ منهم ابن تومرت ، الذى ظهر بدولة الموحدين فى القرن الثانى عشر للمسيح . ثم قال ان كثيرين من مسلمى الهند اعتقدوا فى أكبر خان المغولى سلطان سلاطين الهند فى القرن السادس عشر انه المهدى المنتظر ثم قال انه سنة ١٨٦٢ ظهر واحد من أمة البله Peulh من بلاد ماسينا فى أواسط افريقية كان درويشا من أتباع الطريقة التيجانية ، فزعم انه المهدى وأسس فى السودان مملكة مستقلة ، الا وهو الحاج عمر الذى سيأتى ذكره (١)

قال وأشهر المهديين فى عصرنا محمد أحمد الذى ظهر فى السودان سنة ١٨٨١ فحشد خمسين الف مقاتل من المؤمنين المتحمسين، وهزم العساكر المصرية المرسلة لقتاله فى عدة وقائع ، واستولى على الأبيض قاعدة كردوفان وعلى بربر مفتاح بلاد النوبة ، ثم حصر الخرطوم عاصمة السودان المصرى الواقعة فى الزاوية المتشكلة من فرعى النيل الأبيض والازرق ، وكان فيها قائد أكوسى اسمه غوردون فدافع عنها دفاع الأبطال ، ولكنه لم يقدر على المهدى ، فدخل هذا الخرطوم وقتل غوردون وأطاع له جميع السودان (١٨٨٥) لكنه لم تطل حياته بعد هذا الفتح فمات فى ٢٨ يونيو سنة ١٨٨٥ تاركا سلطنة عظيمة ممتدة من اسوان الى النوبة الى دنقلة الى كردفان الى واحات دار فور . وخلفه عبد الله التعايشى فوسع الفتوح التى كان فتحها المهدى وما زال حتى تغلب عليه الجنرال كيتشنر فى ٣ اغسطوس سنة ١٨٩٩ فى واقعة أم درمان ، و بقيت للمهدى أشياع تقاتل فى الأطراف ، الا أنهم انقرضوا شيئاً فشيئا .

ولم يعترف جميع مسلمى افريقية بمهدوية محمد أحمد وكان من جملة المعارضين له رئيس الفرقة السنوسية ، (٢) ثم قال المسيو بونه مورى مصنف الكتاب الذى نقلنا عنه كل هذا نقل ما ياتى ملخصا :

---

(١) هو الحاج عمر الفوتى قال لى سيدى احمد الشريف انه كانت له صلة مع السنوسية وانه زار الجغبوب

(٢) هذا صحيح فان المهدى السودانى محمد احمد دعا سيدى محمد المهدى السنوسى للاتحاد معه ووعده بأن يجعله مقدم رجاله ، فرفض دعوته واحتج على دعواه ، وبينهما مراسلات فى هذا الشأن أثبتها سيدى احمد الشريف فى تاريخ جده وعمه الذى سينشره ، وقد اطلعني السيد المشار اليه عليه فى هذه الأيام الأخيرة

انه فى القرن الثانى عشر والثالث عشر للمسيح تأسست طرق الدراويش.كأنها من نوع المقابلة للرهبانيات النصرانية فى القرون الوسطى ، وللحروب الصليبيـة . وفى القرن الثامن عشر والتاسع عشر حصلت نهضة جديدة عند أتباع الطريقتين القادرية والشاذلية ووجدت طريقتان هما التيجانية والسنوسية .

القادرية

القادرية مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلانى المتوفى فى بغداد (١١٦٦) ، وكان له حرمة حقيقية للسيد المسيح وكان يقول : « يلزم أن ندعو لا لانفسنا فقط ، بل لكل من خلقه الله مثلنا » . فلذلك امتاز أتباعه بروح التسامح مع النصارى واليهود . والقادرية كثيرون جداً فى المغرب وزاويتهم الكبرى فى « عزاوات » أسسها الشيخ مختار الكبير . وبعد وفاته انقسمت القادرية الى ثلاث فرق: الاولى القادرية البكائية الذين مركزهم الزاوية المذكورة ، وقد انتشروا الى تمبكتو . الثانية القادرية الذين فى آدرار[1] ،الثالثة القادرية الذين فى والاتة وقد انتشروا الى السودان الغربى فلهم مراكز فى كانكان وتيمبو ، من بلاد فوتاجالون [2] وفى مورساردو من بلاد الماندنيق ، [3] ومن هذه النقطة امتدوا الى الجهات المجاورة فعمروا ديار بلال الله ، وذكير الله ، ومدينه . وما زالوا حتى وصلوا الى مقاطعة سيراليون [4] وبالاجمال فالقادرية هم أحس مبشرى الدين الاسلامى فى غربى

(١) آدرار واحة من الصحراء الغربية شرقى الرأس الأبيض على مسافة ٤٠٠ كيلو متر شمالى السنيغال أهلها بربر وعرب وأهم قراها ، شنقيط ، ووادان ، واتار ، عرفها الاوربيون منذ سنة ١٨٥٠ بواسطة ليوبولد بانه

(٢) أحد أقسام السودان الفرنسى واقع بين غينية الفرنسية والسودان المعروف بهذا الاسم والسنيغال وغينية البرتغالية وهو بلاد جبلية لكن ارتفاع أعلى قممها عن سطح البحر لايزيد على ١٣٠٠ متر . ومنها تنبع أنهر النيجر والسنيغال والفالى والغامبية . ومناخها لابأس به . وفيها معادن ومن حاصلاتها الزيت والقطن والمطاط أى الكاوتشوك ، وأهلها ستمائة الف نسمة من جنس الجالونقه والبله والتريقولور ، وكلهم مسلمون وامراؤهم يقال لهم المامى من جنس البله . وعاصمة البلاد تيمبو وهى تحت حماية فرنسا ، يشرف عليها والى غينية الفرنسية . عن معجم موريس فال Maurice Wahl مفتش المعارف فى المستعمرات الفرنسية

(٣) جيل من الزنوج فى غربى افريقية ينسب اليهم قبائل البامباره والمالينكه والسوننكه

(٤) مستعمرة انكليزية على ساحل غينية يحدها غينية الفرنسية شمالا والسودان الفرنسى من الشمال الشرقى والشرق ، وجمهورية ليبريه من الجنوب ، والاقيانوس الاطلانتيكى من الغرب ، عدد سكانها ١٢٦ الف نسمة ، ومناخها وبى لكثرة مستنقعاتها

افريقية من السنيغال الى بنين ، التى بقرب مصب النيجر . وهم ينشرون الاسلام بطريقة سلمية أى بالاستعمار والتجارة والتعليم ، وتجد التجار الذين من السونينكه والماندجوله المنتشرين على مدن النيجر وفى بلاد كارتا Kaarta وماسينة Macina ، كلهم من مريدى الطريقة القادرية ومن مريديهم من يخدمون فى مهنة الكتابة والتعليم ويفتحون كتاتيب ليس فى زوايا الطريقة فقط ، بل فى كل القرى فيلقنون صغار الزنج الدين الاسلامى أثناء التعليم ، ويرسلون النجباء من تلاميذهم على نفقة الزوايا الى مدارس طرابلس والقيروان ، وجامع القرويين بفاس ، والجامع الأزهر بمصر فيخرجون من هناك طلبة مجازين أى أساتذة ، ويعودون الى تلك البلاد لأجل مقاومة التبشير المسيحى فى السودان .

الشاذلية

أما الطريقة الشاذلية فقد تأسست فى النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد ، وهى من أوليات الطرق التى أدخلت التصوف فى المغرب ، ومركزها بوبريت فى مراكش . وكان من أشياخها سيدى العربى الدرقاوى (المتوفى سنة ١٨٢٣) ، الذى أوجد عند مريديه حماسة دينية شديدة امتدت الى المغرب الأوسط ، وكان للدرقاوية دور فعال فى مقاومة الفتح الفرنسى . ومما امتاز به الدرقاوية هو شدة الطاعة لمشايخهم ، فان الدرقاوى المار الذكر كان يوصيهم ساعة موته قائلا : « يجب على الاخوان أن يكونوا فى يد المرشد كالجثة بين يدى الغاسل » . فما أشبه هذه المبادئ حتى فى صيغة التعبير نفسها بمبدأ رهبانية اغناطيوس دولويولا .

التيجانية

وهناك الطريقة التيجانية ، مؤسسها أحمد بن محمد التيجانى المتوفى فى فاس سنة ١٧٨٢ ، وكان يتظاهر بالتسامح مع غير المسلمين ، ومع هذا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لم تقف التيجانية عن استعمال القوة فى مخاصمة أقرانهم ، ونشر العقيدة الاسلامية [١] . وأهم مراكز التيجانية عين ماضى على ٧٠ كيلو متراً فى الجنوب الشرقى

---

(١) اذا لحظ القارئ ان تغيير طور التسامح الذى كان عليه التيجانية لم يقع الا فى النصف الثانى من القرن الماضى ، علم أنه لم يكن الا من أثر تكالب الآباء البيض جماعة لا فيجرى وأمثالهم ، فما لامشاحة فيه أن التسامح يولد التسامح ، والتكالب يهيج التكالب

من اللاغوات ، وفى تماسين . وهم كثيرون فى مراكش ، ولقد تبع الطريقة التيجانية عدد كبير من أهالى ماسينه فى السودان وأهالى فوتاتورو Fouta-Toro وفوتاجالون وامة البله وصاروا من أشد أنصار الاسلام وانضموا حول راية الحاج عمر ، فكانوا طيلة أربعين سنة هم سادة السودان من تمبكتو الى الاقيانوس الاطلانتيكى .

وكان الحاج عمر هذا ابن شيخ مرابط ولد سنة ١٧٩٧ فى قرية الفار من بلاد ديمار[١] فرباه أبوه وعامه ، ثم حج البيت الحرام وزار المدينة ، وقرأ مدة فى الأزهر وعاد الى بورنو سنة ١٨٣٣ ، ثم ذهب الى بلاد الهاوسه وأخذ يعظ الناس بالرجوع الى عقيدة السلف ويطعن فى تساهل القادرية . وفى أثناء ذلك جاء أخوه أحمد ومضى به الى بلاد فوتا من السنيغال ، فعرج على بلاد البامباره وحصلت معه هناك حوادث وعوارض كثيرة ، لكنه تغلب عليها ، وانضم اليه فى بلد كنكان[٢] رجل يقال له محمد وسار على طريقته وادخل فى الاسلام فرقة من البله يقال لهم الواسولونكه Ouassoulonké .

ولما علت كلمة الحاج عمر ونظر اليه الناس نظرهم الى المهدى ، حشد جيشاً صغيراً وأثار جميع مسلمى بلاد غابون[٣] وهزم البامباره الوثنيين شر هزيمة فى تومبا ، واستولى بعدها على كونيا كارى[٤] وسنة ١٨٥٤ جعل مقره العام فى نيورو Nioro[٥] ثم استولى على مملكة سيغو[٦] وعلى بلاد ماسينه . وكانت وفاة الحاج عمر سنة ١٨٦٥ وهو فى حرب مع زنوج ماسينه ، وقد خلف للطريقة التيجانية سلطنة اسلامية عظيمة فى وسط بلاد الزنوج الفتيشيين .

---

(١) ناحية من قطر السنيغال على الضفة اليسرى من النهر بين والو من الغرب وتورو من الشرق

(٢) مدينة من السودان الفرنسى جنوبى النيجر الأعلى أهلها خمسة آلاف نفس

(٣) ناحية من بلاد الكونغو الفرنسى أشهر مدنها ليبرفيل وغلاص Libreville et Gllass وبلاد أوللى Oulli وبلاد الريب Rip ، ووطد فيها دعائم الطريقة التيجانية . وسنة ١٨٤٧ عاد الى نواحى فوتاجالون ، وبنى قلعة حصينه فى دينقيراى Dinguiray ناحية من السودان الفرنسى شمالى النيجر أهلها من التوكولور والزنوج المالينكه

(٤) من بلاد غينية الفرنسية

(٥) من السودان الفرنسى شمالى السنيغال الأعلى عاصمة احمدو الاولى أهلها من البله ، افتتحها الفرنسيس سنة ١٨٩٠

(٦) من السودان الفرنسى على الضفة اليمنى من متوسط النيجر قاعدة ملك احمد وافتتحها الفرنسيس سنة ١٨٩٠

ثم خلف الحاج عمر ابن أخيه ومريد آخر له اسمه احمدو شيخو بن عمر ، وحاولا توسيع فتوحات الحاج عمر ، وأثارا أهالى فوتاتورو والسونينكه الذين فى بلاد كاآراته Kaarta والتوكولور الذين فى السنيغال على فرنسا [١] ، فصار وجودهذه السلطنة التيجانية فى وسط السودان خطراً عظيما على سيادتنا .

وكان تحريرالخلاف هو هذا : هل يتم تمدين السودان الغربى على يد فرنسا وضباطها والمبشرين المسيحيين ، أم على يد التيجانية ورسل الاسلام ؟

فالكولونل ارشينارد باخذه جنه Djenne [٢] و بندجاقار [٣] أوقف غارة التيجانية فى هذا القسم من افريقية و يسر فتح السودان بين يدى المدنية الاوربية . ثم عقب ذلك فتح الكولونل دورغنيس ديبورد Dorgnis-Desbordes لبلدباماكو Bammakou واستلحاق القومندان غالييني Galiéni لبلاد فوتاجالون ، وافتتاح الكولونل ارشينارد لبلاد ماسينه ، وتتوجت جميع هذه الفتوحات باحتلال تمبكتو (١٠ يناير ١٨٩٤) مما خلد أعظم الشرف للعساكر الفرنسية ، وأعاد ذكرى ظفر شارل مارتل فى پواتيه Poitiers ، بسبب ما كان يترتب من النتائج العظام لمستقبل افريقية ، فيما لو لم يتم هذا الظفر [٤]

السنوسية

ثم السنوسية وهم أشد عداء للاوربيين من جميع طرق الدراويش ، وقاعدتهم الجهاد فى الكفار وجمع كلمة المسلمين أجمعين على العدو العام ، وكان مع هذا ، مؤسس هذه الطريقة سيدى محمد بن على السنوسى مستقلا فى رأيه غير متقيد بالمذاهب . [٥]

---

(١) لايخفى أن كل قوم يحافظون على استقلالهم فهم ثائرون عصاة فى نظر المستعمرين

(٢) بلدة من السودان الفرنسى الى الجنوب الغربى من تمبكتو عدد أهلها ستة آلاف نسمة احتلها لفرنسيس سنة ١٨٩٣

(٣) من السودان الفرنسى فى بلاد ماسينه لاتبعد كثيراً عن ضفة النيجر اليمنى

(٤) يشير الى أن افريقية كانت تكون كلها اسلامية لولا قضاء فرنسا على سلطنة التيجانية هذه ، كما ان اوربا كانت تكون اسلامية لولا انتصار شارل مارتل على العرب فى پواتيه وهى الكلمة التى يتفق عليها مؤرخو الافرنج .

(٥) سأل محرر هذه السطور سيدى أحمد الشريف خليفة سيدى محمد بن على السنوسى ، وحفيده ، عن حقيقة هذه الرواية ، فأنكر ذلك ، وانما قال ان جده كان متبعاً للسلف . وقد لحظت ان الأستاذ المشار اليه يقبض فى الصلاة مثل الحنفية وغيرهم ولا يرسل يديه مثل المالكية فسألته عن سبب مخالفته فى ذلك

ولد محمد بن على السنوسى بقرب مستغانم [١] سنة ١٧٩١ ، وقرأ العلوم فى فاس [٢] ثم حج السيد محمد السنوسى بيت مكة (١٨٢٩) وفى أثناء طريقه تلقى اجازات كثيرة ، ودخل فى عدة طرق ، وعاد الى المغرب واقرأ فى لاغوات . وسنة ١٨٣٩ عاد الى الشرق ، وأخذ يقرأ فى الازهر ولكن أحد المشايخ راعه ما هو فيه من استقلال الفكر ، والنزوع الى الاجتهاد ، فافتى بمخالفته للشرع [٣]

وكذلك حصلت ريبة فى أمره بمكة ، لميله الى بعض المبادئ الوهابية [٤] ، ولكنه وجد فى اتفاق تام مع السيد أحمد بن ادريس الفاسى شيخ القادرية ، وعند وفاة هذا الاستاذ أسس طريقة جديدة وذهب الى افريقية ، وجال فى برقة ، وبنى الزاوية البيضاء ، أول زاوية له [٥] . وكثر أتباعه فى واحة الفرافرة ، وفى القطر الطرابلسى ،

للمالكية مع أنه مالكي فأجاب ، أن جده كان يعترض على السادة المالكية فى ذلك ، ويقول ان الذي ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم هو القبض ، وان الذين نقلوا اسبال اليدين عن الامام مالك اخطأوا .

(١) بمحلة يقال لها الواسطة

(٢) سيدى أحمد الشريف يقول ان ولادة جده كانت سنة ١٢٠٢ هجرية وفى الترجمة التى ألفها لجده ذكر ما تلقاه من العلوم وقرأ من الكتب ، وأسماء من أخذ عنهم من الأشياخ ، وهو شيء هائل بالمرة قل أن يوفق أحد لمثله ، ومما يجدر بالذكر أنه أخذ عن السيد أحمد بن ادريس دفين صبيا فى عسير ، والسيد أحمد بن ادريس المشهور بالولاية أخذ عن سيدى عبد الوهاب التازى المعمر الذى عاش ١٣٠ سنة وأدرك الولى الكبير سيدى عبد العزيز الدباغ وأخذ عنه ؛ ويظهر أن أبناء البيت السنوسى كلهم منتسبون الى العلم ، فان والد السيد محمد السنوسى وجده وأعمامه وأبناء أعمامه ، وكثيراً من نسائهم مثل جدته لأبيه السيدة الزهراء وعمته السيدة فاطمة كانوا علماء ؛ وأكثر تربية السيد السنوسى كانت على يد السيدة فاطمة المشار اليها ، وكانت من فضليات أهل زمانها . متبحرة فى العلوم ؛ منقطعة للتدريس والوعظ . يحضر دروسها ومواعظها الرجال . وقد اعتنت كثيراً هذه السيدة بتربية ابن أخيها لما توسمته فيه من باهر النجابة ، أما والده السيد على فكان قد توفى شاباً فى سن الخامسة والعشرين . وكان يجمع الى العلم والصلاح الفروسية والرماية الى الدرجة القصوى .. لذلك تجد السنوسية ينزع بهم عرق الى السيف كما ينزع بهم عرق الى القلم .

(٣) لعله يشير الى الشيخ عليش الذى بلغته أشياء لم يقف فيها على حقيقتها . فأصدر فتوى بحق الشيخ السنوسى ، وقيل انه لما فهم جلية الأمر رجع عنها .

(٤) هذا ما ينكره السنوسية

(٥) ان بعض معمرى الجبل الاخضر يقولون، أنهم سمعوه يقول وهو يبنى البيضاء هذه ان الافرنج سيأتون يوماً الى هناك ، ويهدمون قبة الصحابى سيدى رافع رضى الله عنه ، ويربطون خيولهم فى مسجد الزاوية البيضاء ، ويأخذون حجراً من بنيان البيضاء قديماً منحوتاً مكتوباً عليه ، عبارات لاتينية . وان هؤلاء

وفى التوات[1] وفى السودان حيث له عشرون زاوية[2]، ثم سنة ١٨٥٥ أسس مركز طريقته فى جغبوب وهى سوفا القديمة، على مسافة ثلاثة أيام من سيوه، وصارت أعظم مدرسة لمبشرى الاسلام فى أواسط افريقية. وكان المؤدى الى بحيرة تشاد طريقان أحدهما، شرقى من سوكنه الى مرزوق، والثانى غربى من غدامس والعاير، فالسنوسيه نشروا طريقتهم فى وادى والباقيرمى و بوركو وتبعوا نهر بينوى الى أن بلغوا النيجر الادنى حيث نجدهم يهدون تلك القبائل الى الاسلام و بواسطة السنوسية صارت نواحى بحيرة تشاد هى مركز الاسلام العام فى أواسط افريقيــة . ويقوّم عــدد مريدى الطريقــة السنوسية باربعة ملايين، وطريقة هؤلاء الجماعة فى التبشير، هى أن يشتروا الارقاء صغارا من السودان ويربوهم فى جغبوب، وغدامس، وغيرهما، ثم متى بلغوا أشدهم وأكملوا تحصيل العلم أعتقوهم، وسرحوهم الى أطراف السودان، يهدون أبناء جلدتهم الباقين على الفتيشية، وهكذا يرحل كل سنة مئات من مبشرى السنوسية لبث دعاية الاسلام فى جميع افريقية الداخلية من سواحل الصومالى شرقاً، الى سواحل السينغامبية غرباً، ولقد حذا سيدى محمد المهدى وأخوه سيدى محمد الشريف حــذو والدهما فى السعى الى الغرض الذى توخاه، الا وهو تخليص الاســلام من النفوذ الأجنبى، واعادة الامامة العامة كما كانت فى عصر الخلفاء.

و بالاجمال، فان مريدى هذه الطرق هم الذين سعوا فى نشر الاسلام و وفقوا اليه فى افريقية، قال كو بولانى Coppulani ان هؤلاء تارة بهيئــة تجار وطوراً بهيئة مبشرين، يهدون الى الاسلام الأقوام الفتيشيين، وتجدهم يبنون زوايا جديدة فى هذه الاقطار الواسعة الشاسعة الممتدة من شمالى افريقية الى اقصى أقاصى السودان، وأحيانا يؤسسون ممــالك مثل سلطنة رابح، واجدو، وسامورى. انتهى ملخصا

ثم انتقل المسيو بونه مورى الى ذكر تشــكيلات الزوايا، والمدارس، والجوامع، والجامعات، مثــل الأزهر فى مصر والقرويين فى فاس، والزيتونة فى تونس، وغيرها، وبرامج التعليم فيها. وقال «ان العلوم التى فيها تنقسم الى قسمين الاول، العلوم الاعدادية (مايسمونه بالآلات) كالنحو والصرف والبيان والمنطق والقراءة والعروض والحساب والجبر

المعمرين الذين سمعوا منه هذا الـكلام رأوا مصداقه كله فى آخر حياتهم. لأن الطليان جاءوا وهدموا قبــة سيدى رافع — وان كانو جددوا بناءها بعد ذلك — وربطوا خيلهم فى مسجد البيضاء، وأخذوا الحجر الذى عليه اللاتينى من الجدار

(١) غربى الجزائر

(٢) مجموع زوايا السنوسية اليوم ثلاثمائة زاوية

والثانى ، العقائد وأدب الدين وأسباب التنزيل والحديث والفقه ـ (قال) : ويقرأون فى بعض مدارس فاس ، الكيمياء والطب والهندسة والانشاء والتصوف والموسيقى (قال) : ولم أجد ذكر الفلك فى العلوم التى يعلمونها هناك ولا فى محل مع ان علم الفلك كانت به عناية عظيمة فى المغرب . »

قلنا لعل هذا خطأ ممن أطلعه على برامج التعليم أو سهو ، أو ان علم الفلك أهمل فى هذه السنين الأخيرة ، فانه من العلوم التى كانت تعلم فى فاس وغيرها من مدارس الاسلام بالاعتناء الزائد ، واليك مثالا على ذلك ماقرأنه فى سيرة سيدى محمد بن على السنوسى نفسه ، وهى مخطوط الفه حفيده سيدى أحمد الشريف ، يذكر الشيوخ الذين أخذ عنهم فى فاس فيقول : « ومنهم العلامة الهمام سيدى محمد بن الطاهر الفيلالى الشريف العلوى قرأت عليه مختصر السعد ، وجمع الجوامع ، والسلم ، وجملة صالحة من مختصر الشيخ خليل ، وهو يروى عن الحافظ ابن كيران ، والعلامة الزروالى ، وشيخهم العلامة ابن شقرون ، باسانيدهم السابقة ، وغيرهم من أماثل علماء فاس . ومنهم العلامة المتقى الماهر المتفنن أبو المواهب سيدى أبو بكر بن زيان الادريسى ، حضرته فى علوم كثيرة ، وقرأت عليه الفرائض والحساب ، والأربعين وصناعتهما ، والأسطرلابين وصناعتهما ، والعلوم الأربعة الرياضة. والهندسة والهيئة والطبيعة والارتماطيقى ، وأصول قواعد الموسيقى ، والمساحة ، والتعديل ، والتقويم ، وعلم الأحكام والنسب (بكسر النون) والوفق والقواعد الجفرية ، والأصول الزايرجية ، والبسط والتكسير ، والجبر ، والمقابلة وغيرها الخ . »

فانت ترى أن الهيئة كانت تدرس فى فاس فى القرن الماضى وأخبرنى السيد أحمد الشريف أن أستاذه سيدى أحمد الريفى كان بارعها بهذه العلوم ، وبعلم الهيئة والاسطرلاب ، وكان تلقاها عن السيد العلامة ابن السنوسى ، وكانت عندهم الآلات المتعلقة بهذا العلم ، والكرات والازياج وغيرذلك .

ثم ذكر المسيو بونه مورى برنامج الأزهر وأشار الى أن أول مصلح لتعليم الأزهر ، هو الشيخ المهدى العباسى وذكر ما أدخله فيه من الاصلاحات لعهد الخديوى اسماعيل ، وان المصلح الثانى ، هو الشيخ محمد عبده الذى ادخل فى برنامج الأزهر الجغرافية ، والتاريخ ، والتاريخ الطبيعى ، والرياضيات ، والفلسفة ، وغير ذلك فنفخ فى الأزهر روحا جديدة . (قال) وقاومه بعض العلماء الجامدين وغيروا عليه قلب الخديوى ، فأثرت هذه الحوادث فى صحته وتوفى فى رمل الأسكندرية سنة ١٩٠٥ .

الزوايا السنوسية

لما كان قد تقدم ذكر الزوايا السنوسية فى عدة مواضع وكان عندنا أسماء القسم الأشهر منها آثارنا الحاق هذا الجدول بما تقدم من خبر هذه الطريقة وهى : —

١ـ زاوية التاج ، فى واحة الكفره ، مقر السادة السنوسية ، ذرية سيدى محمد بن السنوسى .

٢ ـ « الجغبوب ، فى واحة الجغبوب المقر الثانى للسادة المشار اليهم وفيها المدرسة الكبرى لتخريج تلاميذهم

٣ـ « طرابلس الغرب ، وشيخها سيدى عبد الوهاب العيساوى .

٤ـ « الرجبان ، فى جبل يفرن من عمل طرابلس ، وشيخها سيدى محمد العيساوى .

٥ ـ « مزده ، فوق قصبة غريان ، شيخها سيدى عبد الله السنى .

٦ ـ « طبقه ، بقرب زنتان ، اشياخها أولاد سيدى محمد الأزهرى .

٧ـ « الحرابة ، بين نالوت وفساطو بالجبل الغربى .

٨ ـ « سيناون فوق نالوت — زاوية درج فوق سيناون .

٩ـ « غدامس ، على حدود ايالة تونس ، شيخها سيدى أحمد الحبيب .

١٠ـ « مصراطه ، شيخها السنوسى بن عبد العال .

زاوية ثانية ، فى مصراطه ، شيخها عبد الله بن شنيشيع .

١١ ـ « مسلاّته — زاوية القطرون .

١٢ـ « مراده ، بين جغبوب وفزان فى الصحراء ، شيخها سيدى محمد الرويعى .

١٣ـ « مرزوق ، قاعدة فزان شيخها سيدى عبد اللطيف بن عبيد .

١٤ـ « هون ، فى البلاد التى على أبواب السودان ، شيخها سيدى مصطفى الهونى .

١٥ـ « سوكنه ، فى البلاد الواقعة بين طرابلس وفزان ، شيخها سيدى الشريف حامد بن بركات .

١٦ـ « واو فى جنوبى طرابلس نحو السودان ، شيخها سيدى محمد الأشهب .

١٧ـ « غات شيخها الحاج أحمد الغاتى — التوات جنوبى عمالة الجزائر .

١٨ـ « الهوارى فى واحة الكفره على مسافة خمس ساعات شمالى مقر السادة ، وشيخ زاوية الهوارى سيدى الفضيل السوسى .

١٩- زاوية الجوف فى نفس واحة الكفره ، شيخها سيدى عبد الهادى الفضيل .

٢٠- « تزربو عن زاوية التاج على مسيرة ستة أيام ، شيخها القطب الصالح السيد المدنى من تلاميذ سيدى ابن السنوسى الكبير .

٢١- « ربيانه على ثلاثة أيام من الكفره ، شيخها سيدى حسين بزامه .

٢٢- « الوجنقه الكبرى فى أوائل السودان على خط دارفور على مسيرة ١٧ يوما الى الجنوب من الكفرة ، شيخها سيدى عبد ربه البرعصى .

٢٣- « الوجنقة الصغرى ، شيخها سيدى عبد الرازق الفاخرى .

٢٤- « قرو عن الوجنقة الكبرى على مسيرة ثلاثة أيام الى الغرب ، شيخها الفاضل الأديب سيدى محمد بن عبد الله السنى أحد دعاة الاسلام فى أواسط افريقية . أصله من بلاد سنار فى الحبشة عباسى النسب .

٢٥- « البرقوات — زاوية زندر فى السودان .

٢٦- « يرضى على أبواب السودان ، شيخها ابراهيم الغربى — زاوية كانو فى بلاد النيجر .

٢٧- « قانت بالقرب من غات ، شيخها السنوسى الغاتى الانصارى .

٢٨- « عين كلك التى جرت الحرب عليها بين السنوسية والفرنسيس على مسيرة ستة أيام غربى قرو ، شيخها الفاضل سيدى عبد الله الفضيل الزوى . وعين كلك هذه فيها أنهار جارية ومن أخصب بقاع البسيطة .

٢٩- « ون" قبلى" زاوية عين كلك على مسافة يوم ونصف يوم مائلة الى الشرق وهى على مسافة نحو ٢٠ يوما من مرزوق فزان ، وشيخ الزاوية هذه سيدى المهدى السنى ولد سيدى محمد السنى .

٣٠- « بنى غازى شيخها الاستاذ العلامة سيدى أحمد العيساوى .

٣١- « أم شخنب على مسيرة ٧ ساعات الى الجنوب من بنى غازى كان شيخها الأديب سيدى محمد على بن عبد المولى

٣٢- « الطيلمون على مسيرة ١٠ ساعات من بنغازى الى الغرب شيخها سيدى محمد على المحجوب

٣٣- « مسوس قبلى الطيلمون وشيخ هذه الزاوية سيدى سنوسى الاشهب

٣٤- « اجدابية غربى بنغازى شيخها سيدى عبد اللطيف الزوى .

٣٥- زاوية القطفية على مسيرة ٤ أيام الى الغرب من بنغازى شيخها الزروالى بن عبد اللطيف .

٣٦- « النوفلية غربى القطيفة بمسافة ٦ أيام شيخها سيدى أحمد بن ادريس .

٣٧- « الزعفران غربى النوفلية على مسافة يوم ونصف يوم بجوار قصر سرت شيخها ابن شفيع

٣٨- « زليطن فى محل اسمه زوو شيخها سيدى محمد بن عثمان بن بركة .

٣٩- « زويله من فزان .

٤٠- « زله شرقى زاوية سوكنه شيخها سيدى الخريصى .

٤١- « أوجله شيخها سيدى عبد الله الفضيل .

٤٢- « جالو وتسمى زاوية العرق وشيخها سيدى عبد الله التواتى .

٤٣- « اللبة فى أوجله أيضا وشيخها الحاج محمد فريطيس .

٤٤- « شنحره فى بلاد جالو وأوجله شيخها سيدى محمد صالح .

٤٥- « سيوه وهى الزاوية الأولى تخص السادة رأسا والوكيل عليها سيدى يوسف بن عبد الله بن أحمد .

٤٦- « سيوه المنسوبة الى آل معرف شيخها سيدى محمد بن عبد الله الزوبى رفيق سيدى أحمد الشريف الأستاذ الأكبر فى سياحته الى الاستانة والأناضول .

٤٧- « سيوه الثالثة تخص السادة رأسا والوكيل عليها أحمد الجبيرى .

٤٨- « سيوه الرابعة شيخها الشيخ أحمد أبو غالى .

٤٩- « حطية الزيتون على مسافة ٦ ساعات الى الشرق من زاوية بنى معرف وهى تخص السادة رأسا والوكيل عليها سيدى الحسين الشريف .

٥٠- « القاره على مسافة ١٣ ساعة على الفارس الى الشرق من حطية الزيتون وهى تخص السادة رأسا والوكيل عليها صالح ولد سيدى يوسف .

٥١- « الفرافرة على مسافة ستة أيام الى الشرق شيخها سيدى السنوسى بن خالد .

٥٢- « القصر الى الشرق من الفرافرة فى الواحات شيخها ابن سيدى محمد الموهوب .

٥٣- « الواحات البحرية شيخها سيدى صالح السعدى .

٥٤- « الواحات البحرية الثانية شيخها سيدى المبروك القطعانى .

٥٥- « منديشة الى جهة صحراء الفيوم شيخها سيدى عبد المالك الموهوب .

٥٦- « القلمون فى الواحات أيضاً . وكل هذه الزوايا فى سيوه والواحات فى عيون ونخيل وكروم

٥٧ ـ زاوية الفيوم وشيخها سيدى عبد العال السنوسى .
٥٨ ـ « الزينية بالصعيد المصرى فيها أولاد الولى الكبير سيدى أحمد بن ادريس .
٥٩ ـ « سيدى ابراهيم الريس الفاسى فى الصعيد
٦٠ ـ « حوش ابن عيسى بجهة الاسكندرية شيخها سيدى محمد بن مالك
٦١ ـ « الغيط عند العامرية فى مديرية البحيرة شيخها سيدى مرتضى الغريانى
٦٢ ـ « بهيج وشيخها سيدى موسى العقارى
٦٣ ـ « سيدى يادم الابيرش على مسافة ساعتين من بهيج
٦٤ ـ « سيدى عبد العاطى بن محيفظة على مسيرة نصف يوم من زاوية سيدى يادم
٦٥ ـ « الضبعة ويقال لها زاوية شنينة وشيخها سيدى عبد المنعم أبو شنينة وهى على مسيرة يومين من زاوية سيدى عبد العاطى
٦٦ ـ « قريوة على مسافة يوم من شنينه وشيخها سيدى عبد الرحيم الفاخرى
٦٧ ـ « فوكه على مسافة ثلاث ساعات من قريوه شيخها سيدى عبد الرحيم التهامى
٦٨ ـ « محطة فوكه وشيخها سيدى موسى بن موسى .
٦٩ ـ « بقوش وشيخها سيدى هارون بن بدر القناشى وهى على ساعتين من فوكه
٧٠ ـ « سيدى على بن مورد الى الغرب من زاوية بقوش بساعتين
٧١ ـ « أم الرخم غربى مرسى مطروح وشيخها أبو القاسم الطيب
٧٢ ـ « نجيله الى الغرب بيوم من أم الرخم وشيخها سيدى عبد القادر بن عمر
٧٣ ـ « شماس على ٣ ساعات من نجيله الى الغرب وشيخها سيدى عمر الاوجلى
٧٤ ـ « عليم الجلول على مسافة ثلاث ساعات الى الغرب من زاوية شماس وشيخها سيدى محمد الشريف
٧٨ ـ « برانى على مسافة يوم الى الغرب من هذه وشيخها سيدى الشريف بن ميلود
٧٩ ـ « سيدى عمران بن ابراهيم على مسافة يوم من زاوية برانى ومن زاوية سيدى عمران ابن ابراهيم الى السلوم مسيرة يوم . وهذه الزوايا من الاسكندرية الى السلوم كلها فى بلاد أولاد على
٨٠ ـ « جبيل على مسافة ثلاث ساعات الى الغرب من السلوم شيخها سيدى محمد الشارف من أولاد عم السادة
٨١ ـ « أم ركبه فى موقع دفنة على ٣ ساعات من زاوية جبيل وهى زاوية سيدى على بن عبد الله

٨٢ - زاوية سيدى حسين الغرياني فى دفنة أيضا على ثلاث ساعات من أم ركبه

٨٣ - « المرصص فى غربى مرسى طبرق على مسافة يومين من التى قبلها وشيخها سيدى صالح الشريف

٨٤ - « أم الززم أو أم ارزم [١] على مسيرة يومين من المرصص وشيخها سيدى مرتضى فركاش وعندها عين نضاخة و بستان جليل

٨٥ - « سيدى محمد بن فارس على ساعتين من أم ارزم الى البحر

٨٦ - « مرطوبة على مسافة ساعتين الى الغرب من التى قبلها وشيخها سيدى عبد الله فركاش وفيها عيون عذبة جارية من الجبل الذى فوقها و بساتين

٨٧ - « درنه فى نفس المدينة شيخها السنوسى الغريانى

٨٩ - « العزيات من درنة الى الجنوب على مسافة يوم شيخها سيدى السنوسى الجبالى

٩٠ - « المخيلة على مسافة يوم من العزيات شيخها محمد بن الحسين

٩١ - « بشاره على بضع ساعات الى الجنوب الغربى من درنه وشيخها سيدى عبد القادر فركاش وعندها عين جارية و بساتين

٩٢ - « ماره الى الشرق من بشاره وشيخها سيدى عبد الله أبو سيف وهى على رأس نبع ماره من انزه وأعذب ينابيع الدنيا وعليه البساتين والطواحين

٩٣ - « ترت الى الغرب من بشارة وشيخها كان سيدى محمد الغزالى . وكل هذه الزوايا فى بلاد قبيلة العبيدات الكبيرة

٩٤ - « نقا شرقى ترت شيخها سيدى الحبيب بن جلول — زاوية العوينة بهاتيك الجهات أيضا

٩٥ - « الفائدية المنسوبة الى قبيلة فائد وشيخها سيدى صالح بن اسماعيل

٩٦ - « شحات أى مدينة سيرنا القديمة وهى بلدة عالية فى رأس جبل مشرف على البحر تنبع المياه من مغارة بأعلاه وتسقط فى شلالات بديعة ولها منظر من أجمل مناظر الدنيا وشيخ زاوية شحات سيدى محمد الدردفى . والزاوية هى زاوية قبيلة الحاسة

٩٧ - « ماسه وهى الزاوية البيضاء التى كانت أول ما أسسه السنوسى الكبير تبعد عن شحات نحو ساعتين الى الغرب وهى على بضع دقائق من مقام سيدى رويفع الانصارى رضى الله عنه وشيخ الزاوية البيضاء الآن سيدى محمد الغمارى . والزاوية زاوية البراعصة

٩٨ - « الحامة غربى الزاوية البيضاء على ساحل البحر وشيخها سيدى السنوسى الغمارى

٩٩ - « الحنية غربى الحامة وشيخها سيدى أحمد بن العيساوى

١٠٠ - « القصرين قبلى زاوية الحامة وشيخها سيدى محمد الغربى

---

(١) أم ارزم معناها الريح

زاوية العرقوب شرقي زاوية القصور وشيخها سيدى جاد الله الجبالي ١٠١
» القصور شرقى قصبة المرج وشيخها البطل المشهور القائد للمجاهدين فى حرب الطليان سيدى عمر المختار وهى زاوية قبيلتى العرفا والعبيد ١٠٢
» اسقفه غربى دريانة وشيخها سيدى الأمين الغماري ١٠٣
» دريانة غربى طلميثه وشيخها الشريف الغماري ١٠٤
» المرج على أربع ساعات قبلى طلميثه وهى زاوية سيدى عمران السكورى ١٠٥
» كرسا تبعد عن زاوية ماره السابقة الذكر بمسافة ساعتين صوب البحر وجماعتها التراكى وشيخها سيدى يوسف العجال ١٠٦
» الأثرون على ٤٠ دقيقة من زاوية التراكى وشيخها سيدى الحبيب الجاول ١٠٧
» كفنطه على ساعتين ونصف ساعة الى الجنوب من زاوية الحنية السالفة الذكر وشيخها سيدى حميده بن عمور ١٠٨
» ميراد مسعود بحرى زاوية القصرين وشيخها سيدى محمد بن حوا ١٠٩
» الحامدية غربى ميراد مسعود وشيخها سيدى عبد الله الكايلي ١١٠
» عائلة دغار على مسافة نصف ساعة من الحامدية الى الغرب وشيخها سيدى محمد الغالبي ١١١
» نيان شيخها سيدى العربى الغماري ١١٢
» طلميثه على أربع ساعات بحرى قصبة المرج وشيخها التواتى الكليلي ١١٣
» توكره غربى طلميثه وشيخها سيدى عبد الله الجيلاني ١١٤
» برسس غربى توكره وشيخها ابن سيدى عبد الله الجيلانى . وأكثر هذه الزوايا فى بلاد قبيلة الدرسا ١١٥
» مستغانم فى القطر الجزائرى وشيخها سيدى أحمد بن تكوك ١١٦
» سيدى محمد بن صادق فى بلاد الجريد من مملكة تونس وفى تلك البلاد خمس زوايا أخرى تحت نظارة الشيخ المذكور ١١٧
» جدة فى الحجاز تحت نظارة شيخ زاوية أبى قبيس بمكة ١١٨
» أبى قبيس بمكة المشرفة شيخها سيدى حامد ـ زاوية الطائف وهى تحت نظر الشيخ المذكور ١١٩
» الجديدة فى طريق المدينة ـ زاوية بدر الشهداء وشيخها سيدى محمد الغماري ١٢٠
» المدينة المنورة وشيخها سيدى مصطفى الغماري ـ زاوية ينبع البحر ١٢١
» ينبع الوجه ـ زاوية الحمراء ـ زاوية الصفراء ـ زاوية رابغ ـ زاوية صبح ١٢٢
» العيص . وهذه كلها فى الحجاز وجملة ما هو مقيد عندنا من هذه الزوايا ١٣٠ زاوية ١٢٣

ولا تزال زوايا كثيرة فى المغرب والسودان والحبشة والصومال مجهولة عندنا .



تأليف لوثروب ستودارد الامريكي

LOTHROP STODDARD

نقله الى العربية

الأستاذ عجاج نويهض

وفيه فصول وتعليقات وحواش مستفيضة
عن دقائق أحوال الأمم الاسلامية وتطورها الحديث

بقلم امير البيان والمجاهد الكبير

الأمير شكيب أرسلان

المجلد الأول

الجزء الثاني

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع



الطبعة الرابعة

١٣٩٤هـ - ١٩٧٣م

فهرست

المجلد الثانى

من كتاب « حاضر العالم الاسلامى »